









تأليف

أحمد بن أحمد بن محمد عبد الله الطويل

إمام وخطيب جامع مستشفى القوات المسلحة بالرياض سابقاً

مراقب المصاحف والقراءات بإذاعة القرآن الكريم







محتويات
سور القرآن الكريم

ح مدار الوطن للنشر، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الطويل، أحمد أحمد محمد عبد الله

محتويات سور القرآن الكريم / أحمد أحمد محمد عبد الله الطويل - الرياض، ١٤٣٤هـ

... ص ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٨-٧-٩٠٤١٠-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن ٢- تفسير ٣- فهارس أ- العنوان

ديوي ٢٢٧.٠١٦ ١٤٣٤/٣٨٢٠

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٣٨٢٠

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٤١٠-٧-٨

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ/٢٠١٣م



المملكة العربية السعودية - المقر الرئيسي: الرياض - الملز

ص.ب ٢٤٥٧٦٠ الرمز البريدي ١١٣١٢ هاتف ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس ٤٧٢٣٩٤١

البريد الإلكتروني : pop@madaralwatan.com

موقعنا على الإنترنت : www.madaralwatan.com

الرياض:	٠٥٠٣٢٦٩٣١٦	التوزيع الخيري للشرقية والجنوبية:	٠٥٠٢١٩٣٢٦٩
الغربية:	٠٥٠٤١٤٣١٩٨	التوزيع الخيري لباقي جهات المملكة:	٠٥٠٦٤٢٦٨٠٤
الشرقية:	٠٥٠٢١٩٣٢٦٨	التسويق للجهات الحكومية:	٠٥٠٠٩٩٦٩٨٧
الشمالية والقصيم:	٠٥٠٤١٣٠٧٢٨		

محتويات
سور القرآن الكريم

تأليف
أحمد بن أحمد بن محمد عبد الله الطويل
إمام وخطيب جامع مستشفى القوات المسلحة بالرياض سابقاً
مراقب المصاحف والقراءات بإذاعة القرآن الكريم

للتواصل :
جوال : ٠٠٩٦٦٥٦٣٨٩١٩٣٥ - هاتف : ٠٠٩٦٦١٤٣٦٥٤١٩
بريد : السعودية - الرياض ١١١٥٩ - ص.ب : ٧٨٩٧ - بريد داخلي ٧٦٥

مدار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: فإذا كان يشق على عامة المسلمين وهم يقرؤون كتاب الله عز وجل، أن يُحيطوا علماً بمعاني الآيات وما فيها من تشريع وحِكَم وأحكام وأسرار، وعبَر وهدايات، ومفردات، فلا أقل من أن يحيط المسلم علماً بموضوع كل سورة، وما تتحدث عنه من عقائد وعبادات وأحكام وهدايات وقصص وتاريخ وأخلاق وآداب، ونحو ذلك من خصائص القرآن كالمكي أو المدني، وعد الآي وغيرهما، ويُلمّ القارئ بمحتويات السورة وأغراضها، والربط بين آياتها وموضوعاتها، لاسيما طوال السور، وهذا هو الهدف من هذا الكتاب، فقد وفقني الله تبارك وتعالى إلى إتمام تفسير كامل للقرآن الكريم يقع في خمسة عشر مجلداً يُسمَّى «واحة التفسير» وقد استغرق هذا التفسير نحو عشرين عاماً من العمل الدؤوب، أسهبتُ فيه من بيان المعنى الإجمالي المدعّم بالآيات المماثلة والمشابهة، وأسباب النزول، والأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة والتابعين، والأحكام الفقهية، وربط ذلك بالأحداث المعاصرة وغير المعاصرة، تحت عناوين موضوعية، مع ذكر القراءات العشر المتواترة والمختلف فيه والمتفق عليه من عدّ الآي، مع التوثيق من المصادر الأصلية، وذِكْر ما جاء عن أهل الاختصاص في كُلٍّ.

وذكرتُ مقدمة في أول كل سورة تناولتُ فيها عناصر السورة وأغراضها ومقاطعها وموضوعاتها ومحتوياتها، وعدد آياتها وكلماتها وحروفها وأسمائها وكونها مكية أو مدنية، ويستطيع القارئ من خلال هذه المقدمة أن يتعرف على ما في السورة من موضوعات، وأن يربط بين آياتها، وما تتناوله من أحكام وهدايات.

ولأهمية هذه المقدمة في «واحة التفسير» أفردتها في هذا الكتاب، ليسهل تناولها، ويعم النفع بها، وفي هذا تيسير لحفظ كتاب الله تعالى أو حفظ شيء منه، و فيه مساعدة على تقوية الحفظ وتثبيته، وإعانة على فهم آيات القرآن لكل قارئ له، وتدبر معانيه والعمل بما فيه.

والله أسأل أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سُورَةُ الفَاتِحَةِ: مُقَدَّمَةُ السُّورَةِ

أولًا: نزول سورة الفاتحة: الفاتحة أول سورة نزلت كاملة، دفعة واحدة، على النبي ﷺ بمكة المكرمة، على ما عليه جمهور العلماء، وقيل: إنها نزلت مرة أخرى بالمدينة المنورة حين حُولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، ونزل قبلها مطلعُ سورة العلق والمزمل والمدثر والقلم، فهي خامس سورة في ترتيب النزول، وفيها براعة الاستهلال لافتتاح القرآن الكريم.

ويؤكِّد كونها نزلت بمكة، أن الصلاة فُرضت بها، وليس هناك صلاة بدون الفاتحة.

وقد جاءت الإشارة إليها في سورة مكية هي سورة الحِجر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] والسبعُ المثاني هي سورة الفاتحة على الأرجح؛ لأنها تُثَنَّى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة.

وجمهورُ العلماء على أن أول ما نزل من القرآن قولُه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] الآيات الخمس الأُول من سورة العلق.

والفاتحة أول سورة في ترتيب المصحف؛ لأنها تشبه ديباجة الخُطبة، وتتضمن مقاصد القرآن، وهذا الترتيب للسور في المصحف، ترتيب توقيفي على الراجح؛ لأنه بأمر النبي ﷺ، وهو يختلف عن ترتيب نزول القرآن، حسب الوقائع والأحداث.

عدد كلماتها: سبع وعشرون كلمة.

وعدد حروفها: مئة وأربعون حرفًا، وقد بَيَّن النبي ﷺ أن مَن يقرأ القرآن، له بكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، والله يضاعف لمن يشاء.

وعدد آياتها: سبع آيات باتفاق، فمن عدَّ البسملة آية من علماء عدِّ آي القرآن الكريم أسقط من العدد قولَه تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ومن أسقط البسملة من العدد عدَّ قولَه تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية، وقد عَدَّ المصحف المكي والكوفي «**البسملة**» آية، وأسقط ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من العدد، وأسقط بقيةُ علماء العدد «**البسملة**» وعَدُّوا ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية.

والمصحف الذي بأيدينا هو المصحف الكوفي؛ لأنه برواية حفص عن عاصم الكوفي، وهو أحد المصاحف التي أرسلها عثمان ﷺ إلى الأمصار الإسلامية.

ثانيًا: أسماؤها: وقد ذكر المفسرون لسورة الفاتحة أكثرَ من عشرين اسمًا، ذكر القرطبي منها اثني عشر اسمًا، وعَدَّد الزمخشري في الكشَّاف عشرةً منها، وذكر الألوسيُّ في روح المعاني والسيوطي في الإتقان أنها نَيِّفٌ وعشرون اسمًا، ومن هذه الأسماء:

١- **الفاتحة**: أو فاتحة الكتاب، أي: بدايتُه.

٢- **وتُسمَّى أم الكتاب**: أو **أم القرآن**؛ لأن القرآن يتبعُها، كما يتبع الجيش أُمَّه، أي: رايته.

٣- **وتُسمى سورة الحمد**: أي السورة التي ذُكر فيها الحمد، كما يُقَالُ سورة الأنفال؛ لأن السورة تُسمَّى باسم بعضها.

٤- **وتُسمّى السبع المثاني**: لأنها سبع آيات تُثَنَّى، أي: تكرر وتُعاد في الصلاة.

٥- **ومن أسمائها**: **القرآن العظيم**؛ لاشتمالها على مقاصده الأساسية.

٦- **وتُسمَّى سورة الرُّقية**: لمشروعية قراءتها في الرقية.

٧- **وتسمّى**: **الشفاء والشافية والواقية**؛ وكلها بمعنى الرقية.

٨- **ومن أسمائها**: **سورة الصلاة**؛ لحديث: «**قسمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين...**» الحديث.[1] والمراد بالصلاة: الفاتحة، وسُمِّيت سورة الصلاة؛ لأنها ركنٌ وشرطٌ فيها.

٩- **وتسمَّى الأساس**: لأنها أساس القرآن وأصله، وأول سورة منه.

١٠- **وتسمَّى الكافية**: أي التي تكفي عما عداها، ولا يكفي عنها ما سواها.

١١- **وتُسمَّى أيضًا**؛ سورة: الكنز، والنور، والتفويض، والمناجاة، وتعليم المسألة، وغير ذلك.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله» أمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، والسبعُ المثاني**»[2].

وعن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**هي أمُّ القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم**»[3].

---

(١) يأتي ذكره وتخريجه في المبحث الثاني.

(٢) «صحيح سنن الترمذي» باختصار السند للشيخ الألباني (٣/ ٦٦) ورقم (٢٤٩٨)، وصحيح سنن أبي داود (١٣١) وهو في «المسند» (٩٧٩٠)، والبخاري (٤٧٠٤).

(٣) «المسند» (٩٧٨٨، ٩٧٩٠) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطبري (١/ ١٠٥) وابن أبي حاتم.

فَضْلُ الْفَاتِحَةِ وَمَشْرُوعِيَّةُ الرُّقْيَةِ بِهَا

أولًا: فضل سورة الفاتحة

١- إنها أعظم سور القرآن الكريم:

عن أبي سعيد بن المعلى ﷺ قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسولُ الله ﷺ فلم أُجب حتى صليتُ، ثم أتيتهُ، فقال: «**ما منعك أن تأتي؟**» فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: «**ألم يقل الله** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾» [سورة الأنفال: ٢٤] ثم قال: «**لأُعلمنَّك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرُج من المسجد**» ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت: يارسول الله، ألم تقل: «**لأُعلمنَّك سورة هي أعظم سورة في القرآن**»، قال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه**»[1].

٢- وسورة الفاتحة فُتح لها باب خاص، ونَزل بها مَلَك خاص، غير جبريل عليه السلام

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل عليه السلام قاعدٌ عند النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفع جبريل رأسَه فقال: هذا باب من السماء فُتح اليوم، لم يُفتح قطُّ إلا اليوم، فنزل منْهُ مَلك، فقال: هذا ملَك نزل إلى الأرض، لم ينزل قطُّ إلا اليوم، فسلَّمَ وقال: أبْشر بنُوريْن قد أُوتيتَهما، لم يُؤتَهما نبيٌّ قبلك: فاتحةُ الكتاب، وخواتيمُ سورةِ البقرة، لم تَقْرَأْ بحرف إلا أوتيتَه[2].

فسورةُ الفاتحة نورٌ، نزل بها ملك خاص، وفُتح لها باب خاص، وحين نزلت سُمع

---

(١) أخرجه البخاري بأرقام: (٤٤٧٤، ٥٠٠٦) وأبو داود (١٤٥٨) والنسائي (٢/ ١٣٩) برقم (٩١٢) وفي «الكبرى» (٨٠١٠، ١١٢٧٥) وهو في «جامع الأصول» (٨/ ٤٦٥) رقم (٦٢٣٤) و«المسند» (٣/ ٤٥٠، ٤/ ٢١٢) برقم (١٥٧٣٠، ١٧٨٥١) باسناد صحيح على شرط الشيخين وابن ماجة (٣٧٨٥) والدارمي (٢/ ٤٤٥) وابن حبان (٧٧٧) والبيهقي (٢/ ٣٦٨) وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨٠٦) والنسائي (٢/ ٦٣٨) برقم (٩١١) وفي «الكبرى» (٨٠١٤، ٨٠٢١، ١٠٥٥٨) وابن حبان (٧٧٨) والطبراني (١٢٢٥٥) والحاكم (١/ ٥٥٨) وانظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٦٢٣٩) والترمذي: (٢٨٧٥) و«المسند» (٢/ ٤١٣) عن أبي بن كعب ﷺ.

لإبليس رنّة[١] أي: صيحة حزينة.

٣- وسورة الفاتحة لا يوجد مثلها في الكتب السماوية

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال لأُبيٍّ بن كعب ﷺ: «**أتحب أن أُعلِّمَك سورةً لم يُنزَّلْ في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلُها؟**» قال: نعم، قال: «**كيف تقرأُ في الصلاة؟**» قال: فقرأ أمَّ القرآن، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها، وإنها سبعٌ من المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أُعْطيتُه**»[٢].

٤- وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله ﷻ: «**قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **قال الله** ﷻ: **أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ **قال: مجّدني عبدي**»، وقال مرة: «**فوض إليَّ عبدي، فإذا قال:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال:**﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ **قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل**»[٣].

٥- وعن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ في مسير فنزل، ونزل رجل إلى جانبه، قال: فالْتفَت النبي ﷺ فقال: (**ألا أخبرك بأفضل القرآن؟**) قال: بلى. فتلا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

---

(١) جاء هذا عن أبي هريرة عند ابن أبي شيبة (١٠/ ٥٢٢) والطبراني في «الكبير» (٤٧٨٨) قال الهيثمي: شبيه بالمرفوع، ورجاله رجال الصحيح: «مجمع الزوائد» (٦/ ٣١١).

(٢) قال الترمذي (٢٨٧٥): هذا حديث صحيح، وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٠٧) وفي «جامع الأصول» رقم (٦٢٦٣) ورواه أيضًا الإمام أحمد في مسنده برقم (٨٦٨٢، ٩٣٤٥) باسناد صحيح ورجال ثقات وبنحوه النسائي في «الكبرى» (١١٢٠٥) ومالك في «الموطأ» حديث رقم (٦٢٣٥، ٦٢٣٧) «جامع الأصول»، وعند ابن خزيمة (٨٦١) وصححه البغوي في «شرح السنة» (١١٨٦) وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم ١٤٥٣.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٣٩٥) ومصنف عبد الرزاق (٢٧٦٧) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٨٠١٣) و«المسند» (٧٨٣٦) وأبو داود (٨٢١) وصحيح أبي داود (٧٣٤) والترمذي (٢٩٥٣) والنسائي (٩٠٨) وفي صحيح سنن النسائي (٢٧٢) وابن ماجة (٣٧٨٤) وصحيح سنن ابن ماجة (٣٠٥١) وابن حبان (٧٧٦).

ﵟٱلۡعَٰلَمِينَﵞ (١)

وجاء في الأثر: أُنزلتْ عليَّ آية لم تنزل على نبيٍّ غيرَ سليمان بن داود وغيري، وهي: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (٢)

ومن أجل هذا الفضل الذي اختُصَّتْ به سورة الفاتحة شرع الله لنا قراءتها في كل صلاة من بين سور القرآن كلها، وتوقَّفَ قبولُ الصلاة على قراءتها، ومن لم يقرأْها في الصلاة فصلاته باطلة، فضلًا عن مشروعية قراءتها في الصباح والمساء، والاستشفاء بها، ونحو ذلك.

ثانيًا: الرُّقية بالفاتحة: وسورة الفاتحة يُرقى بها، ويُستشفى بها من المرض، ومن العيْن والحمَّى، ولدغ الحيَّة والعقرب، ومن كل داء وسُمٍّ.

ولذا فإن من أسمائها: الشفاء والشافية والرقية والواقية والكافية.

أخرج الإمام مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: نزلْنا منزلا، فأتتْنا امرأة، فقالت: إن سيد الحيِّ سَلِيمٌ (لُدغ) فهل فيكم من راقٍ؟ فقام معها رجل منا، ما كنا نظنُّه يُحسن رُقية، فرقاه بفاتحة الكتاب، فبرَأ، فأعطَوْه غنمًا، وسَقَوْنا لبنًا، فقلنا: أكنتَ تُحسن رُقية؟ فقال: ما رقيته إلا بفاتحة الكتاب، قال: قلت: لا تُحرِّكوها (أي: الغنم) حتى نأتي النبي ﷺ فأتينا النبي ﷺ فذكرْنا ذلك له، فقال: «**ما كان يُدْريه أنها رُقية؟! اقسموا، واضربوا لي بسهم معكم**» (٣).

وفي رواية البخاري: أن الرجل أُمِرَ لَهُ بثلاثين شاة، وأن النبي ﷺ قال: «**خذوها واضربوا لي بسهم**» (٤).

وفي البخاري وغيره عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجرًا**

---

(١) صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ١٤٥٤ ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) البيهقي في «الشعب» (٢٣٢٨) وأبوعبيد في «الفضائل» ص١١٥ وابن مردويه، ورواه الدار قطني برقم (٢٩) وفي سنده عبدالكريم ويزيد بن أبي خالد، متكلم فيهما.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٠١) وفي البخاري برقم (٥٧٣٦، ٥٧٤٩).

(٤) البخاري (٢٢٧٦، ٥٠٠٧) ومسلم (٢٢٠١).

كتابُ الله»[(١)] أي: على قراءته في الرقية، على ألا يَمتهن الإنسان ذلك ويتخذها وسيلة للتكسُّب، ومعاودة الرقية وبيع الماء والزيت والعسل وغير ذلك، وعلى ألا يختليَ بمن يرقيها من النساء، ولا ينظر إلى ما لا يحل له النظر إليه، كأن ينفث مباشرة في صدر المرأة مثلا.

وفي رواية أبى داود في حديث الرقية أن الراقي: أخذ يتْفُلُ على سيد الحي، ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: سورة الفاتحة، قال: فكأنما أُنْشِطَ من عِقَالٍ.

وفي رواية الترمذي: أن أبا سعيد هو الذي رقاه، وأنه قرأ سورة ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ سبع مرات.

وكان أبو سعيد ضِمْنَ نَفَرٍ من الصحابة في سفر، وقد نزلوا هذا الحيِّ، فأبى أهلُه أن يضيِّفوهم، فلُدغ سيد هذا الحي، وبحثُوا له عن راقٍ أو علاجٍ، فأبى أبو سعيد أن يَرقيَه إلا بأجر؛ جزاء بُخْلهم وعدم استضافتهم لهم[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

والمراد بالظالم: الكافر، فهو الذي لا ينتفع بالقرآن ولا يستفيد منه؛ لأن الله تعالى جعل هذا القرآن شفاءً ورحمة للمؤمنين لا لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

ثالثًا: الرقية بالتسمية وحدها:

وكما تشرع الرقية بالفاتحة، فإنها تُشرع أيضًا بالبسملة وحدها.

عن عثمان بن أبي العاص الثقفي ﷺ أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعًا يجده في جسده منذ أَسْلَم، فقال له رسول الله ﷺ: **«ضَعْ يَدَكَ على الذي تألَّمَ من جسدك، وقل: بسم الله**

(١) البخاري (٥٧٣٧) والبيهقي (٦/ ١٢٤).

(٢) ينظر: طرق الحديث وروايته في «جامع الأصول» (٧/ ٥٦٦) حديث رقم (٥٧٢٠).

ثلاثًا، وقل سبعَ مرات: **أعوذ بالله وقُدْرَتِه، من شر ما أجِدُ وأُحاذِر**»، وفي رواية «**أعوذ بعزة الله وقدرته. . .**»[١].

وفي حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**مَن عاد مريضًا لم يحضر أجله، فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيَك إلا عافاه الله ﷻ من ذلك المرض**»[٢].

رقيا جبريل للنبي ﷺ

١- عن أبي سعيد ﷺ: أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: «**يا محمد اشتكيتَ؟ قال: نعم، قال: بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسدٍ، الله يشفيك، بسم الله أَرقيك**»[٣].

٢- وعن عائشة ﷺ قالت: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريلُ ﷺ، قال: «**بسم الله يُبريك، ومن كل داءٍ يَشفيك، ومن شر حاسد إذا حسد، وشر كل ذي عين**»[٤].

٣- وعنها ﷺ: أن النبي ﷺ كان يقول للمريض: «**بسم الله، تُرْبَةُ أرضِنا، بِرِيقةِ بعضِنا، يُشفَى به سَقِيمُنا بإذن ربنا**»[٥]و في كلام النووي الآتى شرح لهذا المعنى.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: يدل على أنه ﷺ كان يتفل عند كل رُقية.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٠٢) وابن ماجة (٣٥٢٣) ومالك في «الموطأ» (٢/ ٩٤٢) والترمذي (٢٠٨١) وأبو داود (٣٩١) وهو في «جامع الأصول» (٧/ ٥٦٤) حديث رقم (٥٧١٨) وفي «المسند» (١٧٩٠٧)، إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة ١٠٠٠.

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود (٣١٠٦) والنسائي في عمل اليوم والليلة ١٠٤٨ والطبراني في الدعاء (١١١٤) والحاكم (١/ ٤٣٢)، والمسند (٢١٣٧، ٢١٨٢) وهو حديث صحيح. كما قال محققوه، والترمذي (٢٠٨٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٨٦) والترمذي (٩٧٢) وهو في «جامع الأصول» (٧/ ٥٦٣) حديث رقم (٥٧١٥) وأخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة»» (١٠٠٥) وابن ماجة (٣٥٢٣) بأسانيد صحيحة.

(٤) في صحيح مسلم، برقم ٢١٨٥ وانظر مسند أحمد (٢٥٢٧٢) وابن سعد (٢/ ٢١٣) وعن أبي سعيد الخدري في مسلم (٢١٨٦ وأبي هريرة في المسند (٩٧٥٧)، وهو برقم (١٤٤٣) في "مختصر صحيح مسلم» للمنذري بتحقيق الألباني.

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٤٥) ومسلم (٢١٩٤) وأبو داود (٣٨٩٥) و المسند (٢٤٦١٧).

ونُقل عن النووي: أَنه أخذ من ريق نفسه على إصبعه السَّبابة، ثم وضعها على التراب فَعَلِقَ به شيء منه، ثم مسح به الموضع العليل، أو الجريح.

قيل: إن التراب ينفع في تجفيف الجروح، وإيقاف الدم، **قلْتُ**: والمواد الطبِّيَّة تُؤدي الغرض نفسَه، أما النفْثُ أو الريق: فلبركة أسماء الله الحسنى، وبركة الرسول ﷺ وما يُتلى من القرآن، والأدعية من الراقي، **والمراد بأرضنا**: أرض المدينة، والصحيح أنه يشمل كل أرض، قال القرطبي: فيه دلالة على جواز الرقى من كل الآلام[١].

رابعًا: تَلازُمٌ وعلاج:

تشتمل سورة الفاتحة على العبادة والاستعانة، وبالعبادة والاستعانة تتحقق السعادة الأبدية للعبد، وينجو من الأمراض المهلكة.

فأعظم أمراض القلب: الرياء والكبر، ودواء الرياء: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء الكبر ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

يقول ابن تيمية: و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء، فإذا عُوفي العبد من مرض الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ومن مرض الكبر بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عُوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في ثوب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من الْمُنْعَم عليهم، غير المغضوب عليهم: وهم أهل الفساد في القصد، الذين عرفوا الحق وعَدَلوا عنه، ولا الضالين: وهم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه، وحُقَّ لسورة تشتمل على هذا أن يُستشفى بها من كل مرض، وصدق الله العظيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

❁ ❁ ❁

(١) «فتح الباري» (١٠/ ١٧٠) ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

مَقَاصِدُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

اشتملت سورةُ الفاتحةِ على أهم مقاصد القرآن الكريم على وجه الإجمال، ثم فُصِّل ما أجملته في القرآن كله؛ فقد اشتملت الفاتحة على التوحيد والعبادة وطلب الهداية، والثبات على الإيمان، وفيها أخبارٌ وقصصُ الأممِ السابقة، وفيها معارجُ السعداء ومنازل الأشقياء، وقد نزل القرآن لبيان حقوق الخالق على خلقه، وحاجة الخلق إلى خالقهم، وتنظيم الصلة بين الخالق والمخلوق.

وهذه جملة المقاصد التي جاء بها القرآن الكريم، بل التي جاءت بها الكتب السماوية والشرائع الإلهية جميعا:

ففي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بيان لحقوق الله تعالى على خلقه.

وفي ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ تنظيم للصلة بين المخلوقين والخالق.

وفي طلب الهداية بمناجاة العبد ربه قائلا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بيانٌ لحاجة الخلق إلى خالقهم.

وفي ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ إشارة إلى جميع طوائفِ المُبطِلين الخارجين عن الصراط المستقيم، وبيانُ أسبابِ هذا الخروج، وهي لا تتعدى الغضب عليهم، أو وقوع الضلال منهم.

وبهذا استحقتْ الفاتحةُ أن يطلق عليها «**أم القرآن**» بل «**القرآن العظيم**».

وقبل الإشارة إلى حقوق الخَلق والخالق، وتنظيم الصلة بين العباد ورب العباد قررت السورة توحيدَ الله تعالى، واستحقاقه لهذه العبادة وحده دون سواه.

وبيّنَت سورة الفاتحة أن الناس محاسبون ومُجْزَوْن على أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

اشتمالها على جميع ما جاء في القرآن الكريم:

والفاتحة مُتَضَمِّنَةٌ لمُجْمل ما فُصِّل في القرآن الكريم:

١- فالإشارة إلى توحيد الألوهية جاءت في لفظ الجلالة ﴿اللَّهِ﴾.

٢- والإشارة إلى توحيد الربوبية جاءت في لفظ ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

٣- والإشارة إلى الأسماء والصفات وجميع صفات الكمال جاءت في آية ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. ولفظ (الحمد)

٤- والإشارة إلى اليوم الآخر، وما فيه من عدل وفضل، وما فيه من بعث وحشر ونشر، وحساب وجزاء، جاءت في آية ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

٥- والإشارة إلى كافة أنواع العبادات والإخلاص فيها جاءت في آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٦- والإشارة إلى إثبات النبوات، وإلى قصص الأنبياء والمرسلين والصالحين، وإلى إثبات صفة القدر، وأن العبد حرّ مختار، والرد على أهل البدع والضلال، جاء ذلك في قوله سبحانه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

٧- وجاء الحثُّ على السيْر على نهج الأنبياء والصالحين والاهتداء بهديهم في قوله جل شأنه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

٨- والحديث عن أهل الكتاب وأهل الزيغ والضلال، جاء في نهاية السورة: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وعلى هذا ففي سورة الفاتحة خمسة مقاصد:

المقصد الأول: تَوحِيدُ الله سبحانه: اشتملتِ السورة على التعريف بالمعبود جَلَّ في عُلاه، وعلى توحيد الخالق سبحانه، وتَضَمَّنَتْ سورة الفاتحة خلاصة وجيزة لعقائد الإسلام، واجتثاث جذور الشرك التي كانت فاشية في الأمم، ومقتضى ذلك توحيد العبادة، والتوجه بها إلى الله سبحانه، فهو جَلَّ شأنه المعبود بحق دون سواه، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

ففيها تعليم وإرشاد إلى كيفية التمجيد والثناء والحمد لله تعالى، ولا يكون ذلك إلا عن نعمة، وأهمها نعمة الخَلق والإيجاد، ومَنْ كان كذلك فهو جدير بالعبادة وحده؛ ولذلك فقد اشتملت السورة على ثلاثة أسماء لله تعالى، هي مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا، وعليها مدارها، وهي: (الله، الرب، الرحمن).

والحمد يتضمن الاعتراف بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات وتوحيدَها . . . إلخ.

وربوبيتُه سبحانه لخلقه ليستْ مبنية على القهر والجبروت، بل مبنية على الرحمة، فهو سبحانه الرحمن الرحيم، وهذا بيان لحقيقة العَلاقة بين الله تعالى وبين خلقه، وأنها مبنية على الرحمة التي تَغْمُرُ الخلائق كلهم، وبخاصة العبد المؤمن.

وقد فصَّل القرآن الكريم جانب التوحيد، ونهى عن الشرك في عشرات السور منه، واعتنى بذلك أيما عناية، حيث كان التوحيد هو المهمة الأساس في الفترة المكية، وهي أطول مُدَّتي الرسالة.

المقصد الثاني: الإيمان باليوم الآخر: واشتملت السورة على أهم أركان الإيمان، بعد الإيمان بالله تعالى؛ وهو إثبات المعاد والجزاء على الأعمال، والإيمانُ باليوم الآخر وما فيه من بعث وسؤال وحشر ونشر وحساب وجنة ونار، وغير ذلك مما فصَّله القرآن الكريم في العديد من السور والآيات، لا سيما القرآن المكي، الذي يُعنى بغرْس العقيدة في النفوس أوَّلا، في مثل جُزْأَيْ (عمَّ وتبارك).

وإذا كان في الدنيا نوع من التقاضي بين الناس، وألوانٌ من الجزاء على الأعمال، فإن الله سبحانه هو الْمُتفرد بالحكْم العادل يوم القيامة، وهو سبحانه مَلِكُ هذا اليوم ومالكُه.

ومَن يملك مصير العباد، ومآلَهم الدائم يوم الآخرة، فهو المالك الحقيقي لما قبله في الدنيا من باب أولى، وإذا كان في الدنيا نوعُ مُلْكٍ لبعض ملوك الأرض، فإن الْمُلْكَ كلَّه لله تعالى في الدنيا والآخرة، وهو ملك حقيقي لا يحول ولا يزول وإلى هذا يشير قوله تعالى ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

ويوم الدين هو يوم الحساب والجزاء، الذي يُدان فيه العباد إلى رَبِّ الأرض والسماء.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الإيمان بالله تعالى والإيمانِ باليوم الآخر، إلى جوار العمل الصالح في كثير من آياته، وبيَّن أن ذلك هو أساس الفوز بالسعادة الأخروية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

والمراد: إيمانُ كلِّ أمة برسولها قبل أن تُنسخ رسالتُه، ولا يقبلُ الله تعالى إيمانَ أَيٍّ من

أرباب الشرائع السابقة بعد مجيء الرسالة الخاتمة، إلا بالإيمان بمحمد ﷺ والعملِ بشريعته.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وما من أحد يسمع برسالة محمد ﷺ ثم لا يؤمن بها إلا مات كافرًا والعياذ بالله.

المقصد الثالث: التكاليف الشرعية: أما جانب العبادات: مما يتعلق بالصلاة والزكاة والصيام والحج والأذان والذبح والنذر والدعاء والاستغاثة والاستعاذة والرجاء والخوف والتوكل والاستعانة وما إلى ذلك، وتوجيه هذه العباداتِ إلى الله تعالى وحده، فقد أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وقد تَضَمَّنتْ هذه الآية عهدًا وثيقًا بين الناس وربهم، يُحقِّقُ رسالتَهم في الوجود، فلا عبادة إلا لله، ولا توكل إلا على الله، ولا استعانة إلا بالله، وقد فصّل القرآن الكريم أنواع العبادة في أكثر سُوَرِهِ، في حديثه عن أركان الإسلام الأربعة، وفصَّل القرآن الاستعانة بالله تعالى في آيات التوكل والإنابة ونحوها.

المقصد الرابع: قصص الأنبياء والمرسلين: أما جانب النبوات والرسالات في سورة الفاتحة، فيشير إليه قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

فالقرآن الكريم كتابُ هداية وإرشاد، يهدي للتي هي أقوم، ويدعو إلى الطريق المستقيم، ويأمر بالعدل والقسط والوسَطية والاستقامة، والسعادةُ في الدارين لا تتم إلا بترك الانحراف والضلال وسُبُلِ الغواية والاعوجاج، ولا يكون ذلك إلا عن طريق الرسل والكتب المنزلة، والرسل هم أَوَّلُ الذين أنعم الله عليهم، ولا سبيل إلى هداية البشر، ولا إلى معرفة الحق من الضلال، والخيرِ من الشر، إلا عن طريق الرسل.

وقد فصَّل القرآن الكريم ما أجملتْهُ سورةُ الفاتحة من الحديث عن أنبياء الله ورُسُلِهِ في عشرات السور، إلى جانب الحديث عن الصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، مما يأخذ بيد المسلم إلى طريق الهداية وسبيل الرشاد، وطريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا.

وهذا الجانب من قصص الأنبياء والمرسلين تناولتْهُ السور المكية، فالهداية هي التطبيق العملي لدعوة الأنبياء، وهي طريق الإنسان إلى معرفة ربه سبحانه.

ولعل هذا هو السر في اختيار هذه السورة؛ ليقرأَها المسلم في صلاته وجوبًا في اليوم الواحد سبع عشرة مرَّة، ثم يُكثر منها في النوافل وغيرها ما شاء الله له.

المقصد الخامس: أهل الكتاب:

أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين فصَّل القرآن الكريم الحديثَ عنهم في سُوَره المدنيَّة، وأوضح زيْغَهُم وضلالهم، وأسباب غضب الله تعالى عليهم، فقد أجْملت سورة الفاتحة هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ومعلوم أن مقاصد القرآن الكريم تتناول جانب العقيدة والنبوة والرسالة والعبادة والهداية، التي هي الهدف من القصص والأخبار القرآنية، وهذا ما أجملتْه سورةُ الفاتحة، وَفَصَّلَهُ القرآنُ الكريمُ.

سُورَةُ البَقَرَةِ

أ- فِي فَضْلِ سُورَةِ البَقَرَةِ

١- وسورة البقرة هي سَنام القرآن، ومن الأحاديث الواردة في فضلها، ما جاء في صحيح مسلم وغيره من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**اقرؤُوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزهْراويْن: البقرة وسورة آل عمران؛ فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقان من طير صَوَافّ، تُحاجَّان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة؛ فإنّ أخْذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البَطلة**»[1].

والغياية: كل شيء أظلك فوق رأسك كالسحابة، **والزهراء**: النيِّرة المضيئة، **والغمامة**: السحابة **والفِرْقانِ**: بكسر الفاء، القطيعان أو الجماعتان **والبطلة**: هم السحرة، سُمُّوا بطلة: لأن ما يأتون به باطل، فسمُّوا بطلة باسم عملهم، **وصواف**: أي مصطفة متضامنة.

وسورة البقرة فيها إبطالٌ للسحر، وفيها بيان أن تعليمه وتعلُّمه كُفر، وفيها إبطالٌ للعين أيضًا، ولا يستطيع السحرة أن يفعلوا شيئًا في البيت الذي يُداوَم فيه على تلاوة سورة البقرة، كل ثلاثة أيام.

٢- وفي حديث بريدة رضي الله عنه مرفوعًا قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ فسمعته يقول: «**تعلَّموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان، تُظلان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان**»[2].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٤) و«المسند» برقم (٢٢١٤٦) وابن حبان (١١٦) والطبراني (٧٥٤٢) والحاكم (١/ ٥٦٤) والبيهقي (٣٩٥١٢).

(٢) أحمد (٥/ ٣٥٢) برقم (٢٢٩٥٠) بإسناد حسن، من حديث طويل، والدارمي في «فضائل القرآن» (٢/ ٤٥٠) وصححه الحاكم (١/ ٥٦٠) على شرط مسلم ووافقه الذهبي من حديث بريدة، ولفظه بزيادة (أوغيايتان، أو فِرقان من طير صواف) وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٦٦) حسن صحيح، وأخرجه البغوي في شرح السنة (١١٩٠٠) والتفسير (١/ ٣٣).

ففي الحديث بيان أنهما يُظلان قارئهما يوم تدنوا الشمس من الرؤوس، ويوم لا ظل إلا ظل الله تبارك وتعالى، كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظلة.

٣- وفي الحديث عن النواس بن سمعان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يُؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهلِه الذين كانوا يعملون به، تَقْدُمُهُ سورة البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان، أو ظُلَّتان سوْداوان تُحاجَّان عن صاحبهما**»[(١)].

ومن فضل سورة البقرة أنها تطرد الشياطين من البيت الذي تُقْرَأ فيه، وحدَّدتْ بعض الأحاديث طردْ الشياطين، بثلاثة أيام تُقْرَأ فيها سورة البقرة في البيت، كما في الحديث الآتي، كي يعاود المسلم قراءتها في بيته بين الحين والآخر، كل ثلاثة أيام.

٤- ففي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ فإن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة**».

ولفظ الترمذي «**وإن البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله شيطان**»[(٢)].

وجَعْلُ البيوت كالقبور، يكون أيضًا بترك صلاة النوافل فيها، وبترك قراءة القرآن فيها، وتعميرُها يكون بقراءة القرآن وبالصلاة فيها، إن الشيطان لا يدخل البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة.

ومن يحفظ سورة البقرة فهو أمير القوم ولو كان أصغرهم، وقد أمّر النبي ﷺ صغير السن الذي يحفظ سورة البقرة، على كبار القوم، وكان ﷺ يُقَدِّمه على غيره في صلاة الجنازة، والقرآن يشفع لقارئه يوم القيامة.

والملائكة تشارك المسلم في الاستماع للقرآن، والدواب تخشع وتهتز حين تُقرأ سورة البقرة:

٥- فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما ما معناه: أن (أُسَيد بنَ حُضيْر) كان يقرأ سورة

---

(١) ينظر الحديث في «صحيح مسلم» (٨٠٥) والترمذي (٢٨٨٣) وأحمد (٤/ ١٨٣) برقم (١٧٦٣٧) والترمذي (٢٨٨٣).

(٢) أخرجه مسلم عن أبى هريرة برقم (٧٨٠) في صلاة المسافرين والترمذي في «فضائل القرآن» برقم (٢٨٧٧) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨٠١٥) وأحمد (٧٨٢١) وغيرهم، وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٥٨).

البقرة في الليل، وكانت عنده فرسٌ مربوطة، كلما قرأ جالت الفرس وتحركت، فإذا سكتَ سكنتْ، وكان ابنه (يحيى) قريبًا منها، فخاف على نفسه أن تطأه الفرس، فابتعد عنها، فرفع (أُسيْدٌ) رأسه إلى السماء، فإذا مثل الظُلَّة فوق رأسه، فيها أمثال المصابيح، وعرجت الفرس في الجوِّ ولم يرها، فلما أصبح (أسيدٌ) حدَّث النبي ﷺ بما حصل، فقال له النبي ﷺ **«أوتدْري ما ذاك؟»** قال: لا، قال: **«تلك الملائكة دنتْ لصوتك، ولو قرأتَ لأصبحتْ ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم»**(١).

فهؤلاء هم الملائكة المكرمون يقتربون من (أُسيد) يستمعون لسورة البقرة.

وهذه هي الحيوانات تخشعُ وتتأثر وتهتزُّ لسماع القرآن، كما أن الجبال تتصدَّعُ من خشية الله تعالى، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر ٢١] فما بالكم بالإنسان وما أودع الله فيه من عقل وفكر؟!

٦- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«إن لكل شيء سنامًا وإن سنام القرآن سورة البقرة»**(٢)

٧- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفيْ عام، أنزل منه آيتين خَتم بهما سورة (البقرة) لا يُقرآن في دار ثلاث ليال فيقربُها شيطان»**(٣)

---

(١) ينظر النص في «صحيح البخاري» معلَّقا برقم (٥٠١٨) و«المسند» (٣/ ٨١) و«صحيح مسلم» (٧٩٥، ٧٩٦) والنسائي في «فضائل الصحابة» برقم (١٤٠) وفي «الكبرى» (٨٠١٦، ٨٢٤٤) والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٥٦١) وما بعده، وابن حبان (٧٧٦) و«المستدرك» (١/ ٥٥٤) ولهذا الحديث ألفاظ وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٦٤).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه الترمذي عن حكيم بن جبير عن أبي صالح عن أبي هريرة وقال: حديث غريب، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٦١- ١٤٦٢) حسن لغيره.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب والنسائي وابن حبان والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٦٧).

ب - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة البقرة هي السورة الثانية في ترتيب المصحف، والسابعة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة المطففين وقبل سورة آل عمران.

وسورة البقرة أطول سورة في كتاب الله عز وجل، فهي جزءان ونصف الجزء وهي أول ما نزل بالمدينة.

ابتدأ نزولها بعد الهجرة، وظل مفتوحًا حتى نزلت آخر آية في القرآن، وفيها أطول آية في القرآن الكريم، وهي آية المداينة، وفيها أفضل آية في كتاب الله جلَّ شأنه، هي آية الكرسي، وسورة البقرة ست وثمانون ومئتا آية في المصحف الكوفي الذي بين أيدينا، وَفق رواية حفص عن عاصم(١).

وكلماتها: ستة آلاف ومئة وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها: خمسة وعشرون ألفا، وخمس مئة حرف.

وسُمِّيت (سورة البقرة) لذكر قصة البقرة فيها.

وفي حديث عبد الرحمن بن زيد أن ناسًا كانوا يكرهون أن يقولوا: سورة البقرة، وآل عمران، حتى يقولوا: السورة التي يُذكر فيها البقرة، والسورة التي يذكر فيها آل عمران، فسمعوا عبد الله بن مسعود وهو يرمي الجمرات مستقبل الكعبة يقول: والذي لا إله غيره، رمى الذي أُنزِلتْ عليه سورة البقرة(٢).

وما ورد في ذلك عن أنس رضي الله عنه: لا تقولوا سورة البقرة، ولكن قولوا: السورة

---

(١) وسبع وثمانون ومئتا آية في المصحف البصري، وخمس وثمانون ومئتا آية في بقية المصاحف وهي: المدني الأول، والمدني الأخير، والمكي، والشامي، وهي المصاحف التي أرسلها عثمان ﷺ إلى الأمصار، وسبب هذا الاختلاف: أن النبي ﷺ وقف على آيات دائمًا، ووصل كلمات دائمًا، فلم يختلف في الوقف على الأول ووصل الثاني، وهناك آيات وقف عليها النبي ﷺ مرة ووصلها مرة، فأخذ بعضهم بالأول، وأخذ الآخرون بالثاني.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في «المسند» (٤٠٨٩، ٤١١٧) والبخاري (١٧٤٧، ١٧٥٠) ومسلم (١٢٩٦) وأبو داود (١٩٧٤) والترمذي (٩٠١) والنسائي (٣٠٧١) وابن ماجه (٣٠٣٠).

التي يُذكر فيها البقرة، فهو أثر ضعيف[١].

وقد صحَّ ذكر اسم السورة مباشرةً في كثير من الأحاديث، منها حديث عوف بن مالك الأشجعي، قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلةً فقام، فقرأ سورة البقرة؛ لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوَّذ، ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**» ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بـ (آل عمران) ثم قرأ سورة سورة[٢].

وهي سورة مدنية بالإجماع، ابتدأ نزولها على رسول الله ﷺ بعد الهجرة النبوية، بعدما أُقيمت الدولة الإسلامية في المدينة النبوية واجتُثَّت جذور الوثنية في مكة، وأصبحت الدولة بحاجة إلى منهج إلهي يرسم لها الطريق والشريعة التي تسير عليها، فكانت سورة البقرة، حيث قَسَّمت الناس في أولها إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين، ثم دعت الجميع إلى عبادة الله الواحد، **فقد ذكر الله سبحانه أن أصناف الخلق ثلاثةٌ**:

١- المؤمنون المستجيبون لله والرسول، وهم المتقون المقرَّبون الأبرار.

٢- والكفار الذين جحدوا واستكبروا عن الإيمان بالله ورسوله.

٣- والمنافقون في عقيدتهم وفي سلوكهم وأعمالهم.

وبيَّن سبحانه أن هذا القرآن يستفيد منه ويهتدى به أهل التقوى فقط، فقال تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وقد أنزله الله تعالى لهداية الناس كافة فهو ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

أما الكفار فإنهم لن يهتدوا به أبدًا ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ومنافقو العقيدة كفارٌ أيضًا، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

وبعد هذا التقسيم، **دعاهم** جميعًا إلى عبادة الله وتوحيده، **فهي** الغاية التي خُلِقوا من

---

(١) وقد أخرجه الطبراني (٥٧٥٥) والبيهقي، «مجمع الزوائد» (٢٥٨٢) قال الهيثمي: وفيه عيسى بن ميمون وهو متروك، (٧/ ١٥٧).

(٢) «صحيحه الألباني، سنن أبي داود» (٧٧٦) وهو في سنن الترمذي (٢٩٨) والنسائي (١٠٤٨، ١١٣١).

أجلها ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٦٥]

وقد خاطب الله المؤمنين المتقين في أربع آيات، وخاطب الكفار في آيتين اثنتين، ، وخاطب المنافقين في ثلاث عشرة آية، وضرب لهم الأمثال الموضّحة؛ لأن المنافق مُحَيِّر، له ظاهرٌ وباطنٌ، غير معلوم الحقيقة لعامَّة الناس، كالمؤمن والكافر، فكلاهما معروفٌ، لا يحتاج إلى عناء بحث كالمنافق.

وخُتم هذا المقطع ببيان مصير كل من المتقين والكافرين يوم لقاء رب العالمين.

وذكرت السورة بعد ذلك قصة خلق آدم، وبيان فضله بالعلم والمعرفة، وامتناع إبليس من السجود له حسدًا وكبْرًا وعلُوًّا.

جـ - بدء الحديث عن بني إسرائيل (اليهود):

وتحدثت سورة البقرة في نصفها الأول عن بني إسرائيل، وهم أول شعب ذو رسالة كبرى، بعد الحديث عن بدء الخلق وقصة آدم وإبليس، ومن ثَمَّ إلى الحديث عن القبلة وتحويلها، فخصَّتْهم بأول حديث يُوجَّه من القرآن إلى اليهود المجاورين للنبي ﷺ في المدينة وما حولها، تخاطبهم وتحدثهم وتدعوهم إلى الإيمان بالله وحده، وتشير في أول آية منها إلى أنهم ليسوا على شيء بما زيّفوه، وأن هذا القرآن هو كتاب الهداية للبشر جميعًا.

د - اثنتا عشرة وصية لليهود بعد النداء الأول لهم في القرآن:

وفي أول نداء لبني إسرائيل أوصاهم الله تعالى باثنتيْ عشرة وصية، وهي:

١- وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾. [الآية: ٤٠]

٢- وجوب الخوف من الله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾. [الآية: ٤٠].

٣- وجوب الإيمان بخاتم الرسول ﷺ ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾. [الآية: ٤١]

٤- عدم الكفر بخاتم النبيين ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾. [الآية: ٤١].

٥- عدم بيع الآخرة بالدنيا ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. [الآية: ٤١]

٦- الأمر بتقوى الله تعالى ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾. [الآية: ٤١]

٧- عدم خلط الباطل بالحق ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾. [الآية: ٤٢]

٨- عدم كتمان أوصاف النبي ﷺ الموجودة لديهم في التوراة الأصلية ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [الآية: ٤٢]

٩- الأمر بإقامة أصول الإسلام وفروعه كالصلاة والزكاة ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الآية: ٤٣]

١٠- الركوع مع الراكعين من أمة محمد ﷺ ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [الآية: ٤٣]

١١- عدم مخالفة الأقوال للأفعال ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾. [الآية ٤٤]

١٢- الاستعانة بالصبر والصلاة على أمور الدنيا والآخرة ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾. [الآية: ٤٥]

هـ - **عشر من نعم الله تعالى على اليهود:** وتحدثت السورة في الربع الثالث منها عقب النداء الثاني لبني إسرائيل عن عشر من النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم، وهي:

١ - نجاتهم من ظلم فرعون وبطشه ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الآية: ٤٩].

٢- فَرْقُ البحر وجَعْلهُ طرقًا يابسة بعدد أسباط بني إسرائيل ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ [الآية: ٥٠].

٣- عفو الله عنهم بعد عبادتهم للعجل ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [الآية: ٥٢].

٤- نزول التوراة على موسى عليه السلام ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الآية: ٥٣].

٥- قبول توبتهم من عبادة العجل ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية: ٥٤].

٦- بَعْث من مات منهم بالصاعقة حين طلبوا رؤية الله تعالى جهرة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الآية: ٥٦].

٧- تظليل الغمام لهم وهم في صحراء سيناء ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ..﴾ [البقرة:٥٧]

٨- نزول المن والسلوى عليهم: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ..﴾ [البقرة:٥٧].

٩- دخول أريحا أو بيت المقدس ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]

١٠- تفجير الحجر وخروج الماء منه بعدد الأسباط:
﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]

و - اثنتان وثلاثون مخالفة من اليهود في أوائل سورة البقرة:

وتناولت السورة إحدى وثلاثون مخالفة من مخالفات اليهود ذُكرت في الجزء الأول منها، ومجمل هذه المخالفات هي:

١- عدم إيمانهم بالتوراة إلا تحت وطأة التهديد برفع الجبل فوقهم قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ٦٣]

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا..﴾ [البقرة: ٩٣]

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا﴾ [الأعراف: ١٧١].

٢- صيد السمك في يوم العبادة وقد نُهوا عنه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]

وقال سبحانه: ﴿وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

٣- التشدّد والتعنُّت في ذبح البقرة، مع قسوة القلب وعدم الاعتبار بإحياء الموتى:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا

كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة].

٤- تحريفهم لكلام الله تعالى في التوراة، كتغيير عقوبة الزاني المحصن من الرجم إلى الجَلد والتشهير به، قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة].

٥- رؤساء اليهود يغيِّرون أوصاف النبي ﷺ في التوراة، والجُهّال يتبعونهم:
قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة]

٦- دعواهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة هي التي عبدوا فيها العجل:

قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران].

٧- عدم التزامهم بمواثيق الخلق والخالق على حد سواء
قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

٨- أربعة أمثلة لنقض اليهود عهودهم، ومن ذلك قتل اليهودي لليهودي المتحالف مع قبيلة أخرى، وإخراج اليهودي المتحالف مع غيره من داره، وكل ذلك مخالفة لما ورد في التوراة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ

بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ [البقرة].

٩- تكذيبهم لرسل الله وقتلهم لهم، كقتل زكريا ويحيى عليهما السلام:

قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ﴾ البقرة]

وقال جل شأنه: ﴿. . قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة]

١٠- كفرهم بمحمد ﷺ وعدم الإيمان به بعد بعثته، مع اعترافهم به قبل بعثته:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة]

١١- التعصّب الديني عند اليهود قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْۗ﴾ [البقرة: ٩١]

١٢- عبادتهم للعجل الذهبي قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف]

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف]

وقال تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه]

١٣- ترك العمل بما في التوراة وإعلان العصيان:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة].

١٤- دعواهم حق الامتياز على البشر، وأنهم شعب الله المختار:

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [الجمعة]

١٥- شدة حرصهم على الدنيا: قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة]

١٦- عداوتهم لرسول الوحي جبريل - عليه السلام - لأنه ينزل على الأنبياء بالعذاب:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة]

١٧- نقض اليهود الدائم للعهود والمواثيق، فكلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم:

قال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة]

١٨- تعلم السحر وتعليمه والعمل به: قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ

هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ . . ﴾ [البقرة: ١٠٢]

١٩- إساءتهم ومغالطتهم للرسول ﷺ وتلاعبهم بالمصطلحات: قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة]

٢٠- حسدهم للنبي الخاتم ﷺ لأن الرسالة قد انتقلت منهم إلى العرب:

قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة]

٢١- تشكيكهم في الإسلام والطعن فيه بسبب قضية النسخ في القرآن:

قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل].

٢٢- الكشف عن نوايا اليهود تجاه المسلمين بتمنيهم كفرهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ . . . ﴾ [البقرة: ١٠٩]

وقال سبحانه: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ﴾ [النساء: ٨٩]

وقال جل شأنه: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة]

٢٣- زعمهم أن الجنة خلقت لهم: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[البقرة:]

٢٤- تكذيب كل من اليهود والنصارى للآخر ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَۗ﴾ [البقرة: ١١٣]

٢٥- تخريب مساجد الله، وعلى رأسها المسجد الأقصى:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآۚ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا كَانَ

لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ [البقرة]

٢٦- قولهم عزيز ابن الله كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [البقرة: ١١٦]

وقال جل شأنه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]

٢٧- مشابهة اليهود للوثنيين في جرأتهم على الله تعالى وطلبهم رؤيته عيانًا:

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة]

٢٨- محاولتهم إخراج المسلمين من دينهم:

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢]

وقال جل شأنه: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]

٢٩- إعراضهم عن الإيمان بمحمد ﷺ وهو دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة]

٣٠- دعواهم أن دينهم أفضل الأديان، ونبيهم أفضل الأنبياء، وكتابهم أفضل الكتب: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة]

٣١- التشكيك في الإسلام بسبب تحويل القبلة: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة]

٣٢- كفرهم بمحمد ﷺ مع شدة معرفتهم له ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة]

وقُرِن اليهود والنصارى بالمشركين الوثنيين في حسدهم للمسلمين ولصاحب الرسالة ﷺ في قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة]

وأثارت السورة الخلاف بين اليهود والنصارى وادعاء كل فريق منهم أنه المُحق:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة: ١١٣]

وتحدثت السورة عن فضائل المسجد الحرام، وعن إبراهيم الخليل الذي رفع قواعد البيت، وبينت أن الإسلام هو دين التوحيد الذي جاء به إبراهيم عليه السلام، وأن اليهود والنصارى ليستا على ملة إبراهيم، كما تحدثت عن تحويل القبلة وطعْنهم فيها.

وبعد الحديث عن اليهود بإسهاب رسمت السورة المنهج الرباني للبشرية جميعًا.

وبينتْ ما يتعلق بجانب العقيدة، وتحدثت عن أركان الإسلام الخمسة، وعن أركان الإيمان الستة، وبينت ما يتعلق بجانب العبادة: من صلاة وصيام وزكاة وصدقة وحج وغير ذلك، كما بينت أحكام المعاملات بين الناس: من بيع وشراء وربا ورهن وغير ذلك، وبينت أحكام الأسرة المسلمة: من زواج وطلاق ومُتعة وخُلع وخطبة وعدة ورضاع وغير ذلك، وتناولتْ حكم الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال.

وتكررت مادة التقوى في هذه السورة بضعًا وثلاثين مرة، ولا تشبهها سورة أخرى.

ز- وأقامت سورة البقرة خمسة أدلة محسوسة على البعث بعد الموت:

١- في توبة عبدة العجل القائلين لموسى ﷺ ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة]
فكانت عقوبتهم أن أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، فماتوا عن آخرهم
﴿ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٦]

٢- وفي قصة البقرة، في شأن القتيل الذي أحياه الله تعالى حين ضُرب ببعضها:
﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣]

٣- وفي قصة: ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]

٤- وفي قصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فاستعظم عودة الحياة إليها ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩]

٥- وفي قصة طيور إبراهيم الأربعة، وقد قطّعها وخلطها ونثرها على رؤوس الجبال، وقال الله له: ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠] فأراه كيفية إحياء الموتى بعينيه.

وذكرت السورة أربعة توجيهات لتربية النفس المؤمنة لمواجهة الأحداث الجسام.

وهي: (ذكر الله تعالى، وشكره، والاستعانة بالصبر والصلاة، وحب الشهادة في سبيل الله). وأرستْ قواعد الإيمان الصحيح في السعي بين الصفا والمروة، ووجوب بذل العلم، والنظر في هذا الكون، للاستدلال به على وحدانية الخالق سبحانه، وبينت أن محبة المؤمن لربه تفوق كل محبة، وأن المسؤولية يوم القيامة فردية، وأن التحليل والتحريم حق الله وحده.

ح - أربعون حُكْمًا تشريعيًّا للمسلمين في سورة البقرة:

وقد ذكرتْ سورة البقرة في النصف الثاني منها أربعون حُكمًا تشريعيًّا يجب العمل بها إلى قيام الساعة، لأن السورة بدأ نزولها بعد الهجرة إلى المدينة مبشارة، وبقيت مفتوحة نحو عشر سنوات حتى نزل فيها آخر آية من القرآن ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [الآية: ٢٨١]، فَشَرَعَتْ للناس جُلّ أحكام دينهم ودنياهم، **ومنها أحكام:**

١ - **القصاص وحكمته** ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [الآية: ١٧٨]

وجاءت الحكمة منه في قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [الآية: ١٧٩]

٢- **الوصية عند الموت** ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وقد نُسخت الوصية للوالدين بآية المواريث، وبَقيتِ الوصية لغير الورثة من الأقارب في [الآية: ١٨٠]

٣- **الصيام وأحكامه** ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [الآيات: ١٨٣-١٨٥ وآية ١٨٧]

٤- **الدعاء وآدابه** ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [الآية: ١٨٦]

٥- **الاعتكاف وأحكامه** ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [الآية: ١٨٧]

٦- **الصيام المستمر عن أكل الحرام، بعد الصيام عن الحلال مدَّةً مُعَيّنة:**

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [الآية: ١٨٨]

٧- **مراحل تشريع الجهاد في سبيل الله بالنفس:** ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الآية: ١٨٨].

٨- **مقابلة الاعتداء بمثله، قال تعالى:** ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [الآية: ١٩٥]

٩- عدم الجهاد في سبيل الله بالمال لدفع الصائل ومقاومة المحتلّ: إلقاء بالنفس إلى التهلكة [الآية : ١٩٥].

١٠ - تفصيل أحكام الحج والعمرة ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [الآيات: ١٩٦ -٢٠٠٠]

١١- القتال في سبيل الله فرض على الأمة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [الآية: ٢١٦]

١٢- جواز القتال في الأشهر الحرم، لإزالة العوائق من طريق الدعوة، وردّ العدوان عن الإسلام وأهله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [الآية: ٢١٧]

١٣- التدرج في تحريم الخمر: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الآية: ٢١٩]

١٤- إصلاح مال اليتيم بالمحافظة عليه وتنميته ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [الآية: ٢٢٠]

١٥- النهي عن زواج الوثنيات ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [الآية: ٢٢١]

١٦- النهي عن إتيان النساء في الحيض ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [الآية: ٢٢٢]

١٧- بيان موضع الحرث من المرأة وتحريم إتيانها في الدبر:
﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [الآية: ٢٢٣]

١٨- أحكام الأيمان ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾
[الآيتان: ٢٢٤- ٢٢٥]

١٩- حكم الإيلاء: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾[الآية: ٢٢٦]

٢٠- عدة المطلقة، وبيان حقوق المرأة وواجباتها ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾
﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [الآية: ٢٢٨]

٢١- الطلاق الرجعي: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ الآية: ٢٢٩]

٢٢- الطلاق على عوض: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [الآية: ٢٢٩]

٢٣- طلاق البائن بينونة كبرى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [الآية: ٢٣٠]

٢٤- عضل الزوج للمرأة: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [الآية: ٢٣١]

٢٥- عضل الأولياء للمرأة: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [الآية: ٢٣٢]

٢٦- الرضاعة والحضانة: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [الآية: ٢٣٣]

٢٧- عدة المتوفي عنها زوجها: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [الآية: ٢٣٤]

٢٨- عدم التعرض الصريح للمتوفي عنها زوجها بالخِطْبة أثناء العدة: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ [الآية: ٢٣٥]

٢٩- متعة المطلقة قبل تسمية المهر وقبل الدخول بها: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ [الآية: ٢٣٦]

٣٠- المطلقة بعد تحديد المهر وقبل الدخول بها لها نصف المهر، ولا متعة لها: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [الآية: ٢٣٧]

٣١- متعة المتوفى عنها زوجها، على القول بعدم النسخ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [الآية: ٢٤٠]

٣٢- متعة المطلقة المدخول بها: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [الآية: ٢٤١]

٣٣- التمسك بالعروة الوثقى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [الآية: ٢٥٦]

٣٤- النفقة في سبيل الله: أجرها ومبطلاتها [الآيات ٢٦١-٢٦٨] وغيرها.

٣٥- أحكام النذر: ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [الآية: ٢٧٠]

٣٦- أحكام الربا: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ. .﴾ الآيات: ٢٧٥- ٢٨٠]

٣٧- أحكام الديْن: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [الآية: ٢٨٢]

٣٨- حِلُّ التجارة الحاضرة: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ [الآية: ٢٨٢]

٣٩- الرهن عند تعسر كتابة الدين: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [الآية: ٢٨٣]

٤٠- النهي عن كتمان الشهادة: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ [الآية: ٢٨٣]

هذا: وقد تحدثت سورة البقرة عن قصة طالوت وجالوت في حديث الملأ من بني إسرائيل الذين تمنّوا القتال ثم تخاذلوا عنه، وذكرت السورة مبطلات أجر الصدقة: الرياء والمن والأذى.

وفي موازنة بين النفقة في سبيل الله، وآكل الربا، ضربت لهما السورة الأمثلة، ورغّبتْ في الصدقة، وبينت أنها تضاعف إلى سبع مئة ضعف فأكثر، وأن الربا يمحقه الله ويُرْبى الصدقات، وشنَّت آيات السورة على آكل الربا حرب من الله ورسوله إن لم يتب، ورغبت في النفقة، وحرمت الربا، وذكرت أحكام الدين والتجارة الحاضرة والرهن.

ط- دعائم الاقتصاد الإسلامي: أرست سورة البقرة في ست آيات منها معالم الاقتصاد الإسلامي، وبينت أنه يتمثل في الزكاة والصدقة والتكافل الاجتماعي، ولا يقوم على الربا الذي يسود العالم، وقد جاء ذلك في أربعة عشر آية تتحدث عن آداب إنفاق المال في وجوه الخير، وتبع ذلك ست آيات تحدثت عن الربا، وهو الوجه المقابل للصدقة والتكافل الاجتماعي، وقد خُتمت هذه الجولة بربط العبد بربه وحثّه على تقوى الله تعالى، والحذر من عقابه يوم العودة إليه بعد البعث والنشر ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ ولا يكتمل قيام كيان اقتصاديٍّ عالميٍّ إلا بعد وجود البديل عن الربا، وهو يتمثل في أحكام الدَّيْن وكتابته والإشهاد عليه، ووجود التجارة الحاضرة يدًا بيد، والإشهاد على البيع والشراء وجواز الرهن عند تعسُّر الكتابة.

وبهذه الدعائم الثلاث: علاج مشكلة الفقر، ووجود البديل عن الرباء، وحلول المضاربة والمشاركة والمرابحة ونحوها محلّ الربا، يقوم الاقتصاد الإسلامي، وهو لا يحتاج إلى تغيير مباني البنوك ولا إلى تغيير أثاثها، ولا تغيير السجلات أو الحاسوب الذي يُدوَّن فيه المضاربات، وإنما يحتاج إلى معرفة الآلية الإسلامية، وصدق التوجّه، وعدم التعامل فيما حرّمه الإسلام، كالخمر والميسر ونحوهما، وصياغة هذه التعاملات بالصبغة الإسلامية، كالمشاركة والمرابحة والمضاربة والقرض الحسن والزكاة والصدقة، وقد ظهرت بوادر الحرب على أكلة الربا في عصرنا، في الانهيار الاقتصادي العالمي وتأثيره على أكبر البنوك في العالم، وعلى أقوى دول العالم اقتصاديا وسياسيّا وعسكريّا، نسأل الله السلامة والعافية.

وخُتمت السورة بآيتين نزلتا من كنز تحت العرش، بعد دعاء شامل يتضمن الخصائص الإسلامية.

سُوْرَةُ آلِ عِمْرَانَ (٣)

مُقَدِّمَةُ السُّوْرَةِ، وَسَبَبُ النُّزُولِ

سورة آل عمران هي السورة الثالثة في ترتيب المصحف، والثامنة والأربعون في ترتيب النزول، سُميت بهذا الاسم لذكر قصة آل عمران فيها وهم: يحيى، وعيسى، ومريم.

وذكر الألوسي أنها تُسمَّى سورة الأمان والكنز والمجادلة، وسورة الاستغفار، ومن أسمائها الزهراء كما في حديث: «**اقرءوا الزهراوين**»، فهذه ستة أسماء.

وقد نزلت هذه السورة بالمدينة اتِّفاقًا سنة ثلاثٍ من الهجرة، بعد غزوة أُحد.

وهي مئتا آية باتفاق أهل العدد[1] وثلاثة آلاف وأربع مئة وثمانون كلمة، وأربعة عشر ألفا وخمس مئة وعشرون حرفًا.

وإذا كانت سورة البقرة في نصفها الأول قد خصَّت اليهود بالحديث عنهم، فإن سورة آل عمران تحدثت في نصفها الأول عن النصارى، وهم الشِّق الثاني من أهل الكتاب، والنصف الثاني من سورة آل عمران تحدث عن غزوة أُحد، من الآية الحادية والعشرين بعد المئة، وعلَّقت السورة على ما أصاب المسلمين فيها من جراحٍ، وما يتخللها من أحكام، إلى ما قبل ختام السورة بعشر آياتٍ، أي: نحو سبعين آية.

وهكذا فإن وسورة آل عمران نزل نصفُها الأول -وقدره أربع وثمانون آية- بمناسبة قدوم وفد نصارى نجران على رسول الله ﷺ سنة اثنتين من الهجرة؛ لمناظرته في شأن عيسى عليه السلام[2] لمَّا بلغهم مبعث النبي ﷺ، ونزل بعد ذلك ست وثلاثون آية تعقيبًا على تلك

(١) ذكر العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره أن المصحف الشامي يعدها مئة وتسع وتسعون آية، ولم أجد ذلك في كتب هذا الفن (علم الفواصل)، ولمعرفة علم عدِّ الآى المتفق عليها والمختلف فيها ينظر: «بشير اليسر، ومعالم اليسر»، و«شرح ناظمة الزهر» للشاطبي وشرحها للشيخ عبد الفتاح القاضي، وله أيضا: «نفائس البيان شرح الفرائد الحسان»، وللشيخ أحمد البنا: «إتحاف فضلاء البشر» وغيرها.

(٢) يستبعِد (سيد قطب) -رحمه الله- أن تكون هذه الآيات نزلت في وفد نصارى نجران، سواء صحت الروايات أم لم تصح؛ لأن الوفد قدم على المدينة في السنة التاسعة من الهجرة، وجوُّ السورة يشير إلى نزولها في الفترة الأولى من الهجرة، وهو كلامٌ وجيهٌ، ولكنَّا لا نجد له سندًا وهو وهْمٌ منه رحمة الله عليه.

قلت: وقد قدم وفد نجران على النبي ﷺ في مكة حين بلغهم خبره بعثته ﷺ كما جاء في سبب نزول آية (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ) [القصص: ٥٢] وذكر المفسرون أن وفد نجران قدم إلى المدينة سنة اثنتين من الهجرة؛ فلا يلزم أن تكون هذه الحادثة عام الوفود.

القصة؛ ليعتبر أهل الكتاب.

قصة وفد نصارى نجران:

قَدِمَ هذا الوفد المكوَّن من ستين رجلًا فيهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم، وثلاثة من أكابرهم: أميرهم (العاقب) ووزيرهم (السيد) وحَبْرهم (أبو حارثة) دخلوا مسجد رسول الله ﷺ في صلاة العصر، فلما حانت صلاتهم صلُّوا إلى جهة الشرق، فلما فرغوا تقدموا إلى رسول الله ﷺ يناظرونه في شأن عيسى عليه السلام، وهم يمثِّلون في حواراتهم ومُناظراتهم فرق النصارى ومذاهبهم المختلفة.

فقالت فرقة منهم للنبي ﷺ: إن عيسى هو الله، واستدلوا على ذلك بأنه: يُحيي الموتى، وأنه يُبرئ الأكمه والأبرص، وأنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيرًا، وأنه يعلِمُهم بشيء من الغيب مما يأكلونه ويدَّخِرونه في بيوتهم، وهذه الأمور من خصائص الألوهية.

والجواب على ذلك معروفٌ، فهذه الأشياء التي ذكروها أجراها الله ± على يدِ عيسى عليه السلام من باب المُعجزة الدالة على صدقه في رسالته؛ فإن معجزة كل رسول تكون من نوع ما نبغ فيه القوم.

فقوم موسى كانوا سحرة، فجاءهم موسى عليه السلام بمُعجزة خارقة للعادة من جنس السِّحر، لا يستطيع السَّحرة أن يفعلوها، وهي قلب العصا حيَّة، وما إلى ذلك.

وقوم محمد ﷺ كانوا أهل فصاحة وبلاغة، فكانت معجزة الرسول ﷺ مناسِبَةً لحال القوم، مما نبغوا فيه من الفصاحة والبلاغة، وهي هذا القرآن الكريم، وأنه معجزةٌ قائمةٌ إلى يوم الساعة، وليست معجزةً كونيةً يراها الناس ثم تنصرف عنهم، ولكنها بين أيديهم إلى يوم القيامة.

وكانت معجزةُ عيسى عليه السلام من نوع ما نبغ فيه قومُه، فقد كانوا أطباءَ ماهرين، بلغ الطب ذروته في عهد عيسى عليه السلام، فأراد الله سبحانه أن يُجري على يدَيْ عيسى من المعجزات من نوع ما نبغ فيه القوم، ولكنها فوق مستوى البَشر؛ فمهما بلغ الطب من تقدُّم، فإنه لن يصل إلى معرفة إحياء الموتى، ولن يصل إلى معرفة شيء من علم الغيب. وكان عيسى عليه السلام ينبئهم -كما ذكر القرآن- بما يأكلون، وما يدَّخِرون في بيوتهم، فهذا الذي أجراه الله

على يديْ عيسى عليه السلام هو معجزة له بإذن الله تعالى، وليس من صُنع عيسى ولا من قُدرته.

وقالت الفرقة الثانية التي تُمثِّل مذهبًا آخر من مذاهب النصارى: إن عيسى هو ابن الله، واستدلوا على ذلك بأنه قد وُلِد بغير أبٍ، وأنه قد تكلَّم في المهد، وهذا أمرٌ خاصٌّ بعيسى في زعمهم.

والجواب على ذلك: أن خلْق عيسى من غير أبٍ -كما ذكر الله سبحانه- آيةٌ من الآيات الدالة على قدرة الله تعالى؛ كي تكتمل القِسْمَة العقلية، فالله سبحانه أراد أن يبيِّن لخلقه أن خلْقه للإنسان لا يتوقف على تلقيح الذكر للأنثى، فقد خلق الله آدم بغير أبٍ ولا أمٍ، وخلق حواء بغير أم، وخلق عيسى من غير أبٍ، وخلق الناس جميعًا من أبٍ وأمٍ. وهذا هو مقتضى القسمة العقلية، أربعة أصناف لا تخرج عنها الخليقة، فخلْق الله تعالى لعيسى من غير أب، آية دالة على قدرة الله سبحانه، وأنه لا يحتاج في خلْقه للإنسان إلى هذا التلقيح الذي يكون بين الرجل والمرأة، وإنما الله سبحانه قد يخلق الإنسان من غير أب، أو يخلقه من غير أم، أو يخلقه بأب وأم، أو يخلقه بدونهما، قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾.

فليس عيسى ابن الله، حاشا لله عزّ وجل.

وأمّا كلامه عليه السلام في المهد فهذا لا يخص عيسى وحده، فقد بيَّن النبي ﷺ أن هناك ثلاثة تكلموا في المهد وهم صغار، وقيل أربعة: عيسى عليه السلام، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون[١]. هؤلاء أربعةٌ تكلموا في المهد، فهذه حجةٌ لا تصلح؛ لأنها لا تخص عيسى وحده من بين البَشر.

وقالت الفرقة الثالثة: إن عيسى ثالث ثلاثة، أي: أن الإله عندهم مكوَّن من ثلاثة: الأب، والابن، والروح القدس. واستدلوا على ذلك بأن عيسى يقول: قلنا وفعلنا وخلقنا، وهذا يدل على جمع، ولو أنه واحد لقال: قلتُ وفعلتُ وخلقتُ وهكذا.

والجواب على ذلك معلومٌ، فالإنسان يُعظِّم نفسه، ويتحدث عنها ويقول: نحن فلان وهو شخصٌ واحدٌ، ويقول: قمنا بكذا، وشرحنا كذا، وفعلنا كذا... وهكذا- معبِّرًا عن

(١) ينظر أدلة ذلك في الآية (٤٦) من هذه السورة، وفي سورة مريم عند قوله تعالى (قال إني عبد الله...)

نفسه، ومعظِّمًا لها، يُعبِّر بهذا الضمير الذي يصلُح لأكثر من واحد عن نفسه، لا سيما الملوك وكبار القوم. وهذا تعبيرٌ سائغٌ في العربية، وليس هناك وجهٌ للاعتراض عليه.

ولما ذكر الوفد للنبي ﷺ؛ أن عيسى هو الله، أو أنه ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة:

١- قال ﷺ: «**ألستم تعلمون أن ربَّنا حيٌّ لا يموت، وأن عيسى يموت؟**» قالوا: بلى.

٢- قال ﷺ: «**ألستم تعلمون أن كل ولدٍ يُشبِه أباه**»، وأن عيسى ليس له أب يشبهه؟ قالوا: بلى.

وهكذا: فالله سبحانه ليس كمثله شيء، وهو واحدٌ أحدٌ، فردٌ صمدٌ، لا والد له ولا ولدٌ، فمن يشبهه؟! هل هو عيسى عليه السلام؟!

٣- قال ﷺ: «**ألستم تعلمون أن ربَّنا قيِّمٌ على كل شيء يحفظه ويرزقه؟**» قالوا: بلى، قال: «**فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟**» قالوا: لا.

٤- قال لهم النبي ﷺ: «**ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء؟**» قالوا: بلى. قال: «**فهل يعلمُ عيسى من ذلك إلا ما علَّمه الله سُبحانه إياه وأخبره به؟!**» كما قال سبحانه في أمور الغيب: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] أي: فإنه يخبره ويُعْلِمه بشيء من الغيب، وفق مراد الله سبحانه.

٥- قال النبي ﷺ لوفد نصارى نجران: «**ألستم تعلمون أن الله تعالى قد صوَّر عيسى في الرحم كما يشاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب؟!**» قالوا: بلى[1].

والله سبحانه يصوِّر الخلق في أرحام الأمهات كيف يشاء، وعيسى قد صُوِّر كذلك في رحم أُمِّه.

٦- قال ﷺ: «**ألستم تعلمون أن عيسى حملتْه أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعتْه كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذِّي كما يُغذَّى الصبيُّ، ثم كان يَطْعم ويشرب ويُحْدِث؟**» قالوا: بلى.

فعيسى قد حملته أمه بين أحشائها، ووضعتْه، وأرضعتْه، وغُذِّي كما يُغذَّى الصبية. وهو يأكل ويشرب، و يدخل الخلاء، فيبول ويتغوَّط، وليس هذا مناسبًا ولا جائزًا في حق الذات

(١) شرحتُ سبب النزول بالمعنى، وأضفتُ إليه ما يوضحه. ينظر النص عند ابن اسحاق (٢/٢١٨) وما بعدها، وابن جرير (٣/١٠٨) وما بعدها، وكتب التفسير.

العُليا جلَّ في عُلاه، وربُّنا سبحانه لا يأكل ولا يشرب، ولا يُحدِث ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] أي: هو وأمه، ومعنى ذلك أنهما يدخلان الخلاء، ويتبوّلان ويتغوّطان كما يفعل البشر.

قال: فكيف يكون عيسى إلها كما زعمتم؟! فسكتوا.

أبى القوم إلا الجحود، وتداولوا أمرهم، وهم فيما بينهم معترفون بنبوة محمد ﷺ ورسالته، ولكن حب الرئاسة والكبرياء والجحود هو الذي يمنعهم من تصديق محمد ﷺ.

٧- قال ﷺ: «**ألا تُسْلِمُوا؟**» قالوا: قد أسلمنا قبلك.

٨- قال ﷺ: كذبتم، يمنعكم من الإسلام ثلاثة أشياء:

أ- ادِّعاؤكم أن لله تعالى ولدًا، وهذا شرك أكبر بالله سبحانه.

ب- وعبادتكم للصليب. ج- وأكْلكم لحم الخنزير.

هذه ثلاثة تُكذِّب ادِّعاءكم أنكم قد أسلمتم، وكل واحدة منها تمنعكم من الإسلام.

ثم قالوا بعد حوارهم مع النبي ﷺ: نتركك على دينك، ونرجع إلى ديننا، ولكن ابعث معنا رجلًا من أصحابك أمينًا نحكِّمه فيما بيننا، ويقوم بالقضاء فيما اختلفنا فيه.

فقال النبي ﷺ: «**ائتوا في العشية أُرسل معكم رجلًا من أصحابي**». وفي المساء اجتمع أصحاب النبي ﷺ للصلاة، وأخذ كل واحد منهم يستشرف ويتطلع أن يكون هو الذي يرسله النبي ﷺ مع القوم، حتى إن عمر -رضوان الله عليه- يقول: ما أحببت الإمارة قط كما أحببتها يومئذ؛ رجاء أن أكون صاحبها، فجعلْتُ أتطاول بعد الصلاة -وهو في المسجد، أي: يَمُدُّ عنُقه لأعلى؛ كي يراه النبي ﷺ فيؤمِّره على القوم- فلما سلَّم الرسول ﷺ أخذ ينظر يمْنةً ويسْرةً ثم وجد أبا عبيدة بن الجراح، فقال له: قم يا أبا عبيدة، وأمَره أن يذهب معهم، ثم قال لهم: «**هذا هو أمين هذه الأمة**».

ولمَّا قال وفد نصارى نجران للنبي ﷺ في نهاية الحوار عن عيسى: إذا لم يكن هو ابن الله، فمن أبوه؟ فصمت النبي ﷺ بعض الوقت: فأنزل الله سبحانه أربعًا وثمانين آية من صدر سورة آل عمران، تبيِّن شأن عيسى عليه السلام، وتردُّ عليهم بأنه إن كانت منازعتكم معشر

النصارى في معرفة الإله فهو الله الذي لا اله إلا هو الحيُّ القيُّوم، فكيف تُثْبتون له ولدًا؟! فبيَّن تعالى أنه لا يستحق العبادة أحدٌ سواه؛ لأنه الواحد الأحد، ليس له شريك ولا ولد، وهو الدائم الباقي الذي لا يموت، المتَّصِف بالحياة الكاملة، القائم على كل شيء، ومنها تدبير شؤون الخلق ومصالحهم.

مَوْضُوعَاتُ السُّورَةِ

يمكن تقسيم سورة آل عمران إلى ثلاثة موضوعات:

الموضوع الأول عن نصارى نجران:

وذلك من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ الآية الرابعة والثمانون، وهذه الآيات تتناول قصة وفد نصارى نجران الذي قَدِمَ على النبي ﷺ بالمدينة بعد معرفتهم برسالته؛ ليسألوه عن عيسى عليه السلام، وهو القسم الأول من القصة.

يلي هذه الآيات ست وثلاثون آية تُعَقِّب على هذه القصة، وهو القسم الثاني المتعلق بها.

وقد قدَّمت السورة في أولها لهذه القصة بآيات فيها إثباتٌ لوحدانية الله تعالى، وإثباتٌ لصدق صاحب الرسالة الأخيرة وكتابه، وفيها ردٌّ على الشبهات التي يُثيرها أهل الكتاب عن الإسلام، وتحذيرٌ لهم من الانصراف إلى غيره، ومن اتِّباع شهواتهم وملذَّاتهم. والإسلام يعرِض دعوته عليهم، ويقرِّر أن الدِّين عند الله هو الإسلام، فمن استجاب له فقد فاز ونجا، وآخيناه وعاونَّاه، ومن أعرض عنه تصدَّينا له معتمدين على الله.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾.

وتُبيِّن آيات السورة في هذه المقدمة أن أهل الكتاب لما كانوا عاجزين تمام العجز عن الارتقاء إلى مستوى الوحي الإلهي، فقستْ قلوبهم، وساءت أخلاقهم، وتشبَّعوا من الدنيا، وردُّوا على الله أمره ونهيه، وأشركوا معه غيره، وتطاولوا عليه بما لا يليق بجلاله.

لهذا وغيره كان لا بد من صرف الوحي عنهم إلى جنس آخر من البشر؛ خير منهم حالًا ومآلا، فكان أن تحولت منهم النبوة إلى العرب، فأثار هذا حقْدهم وحسدهم وكُفْرهم

وعنادهم، ولم يتأمل القوم قول الله تعالى في مقدمة الحديث عن وفد النصارى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

وهذه الآيات سبقتْها مقدِّمات وحيْثيَّات الحكم في آيات قبلها:

منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

والكلام وإن كان تقريعًا لأهل الكتاب، إلا أن العِبْرة موجَّهة إلى الذين شرَّفهم الله تعالى بأن بدأت رسالة الإسلام منهم، حتى لا يتجرَّدوا عن إسلامهم، أو ينسلِخوا من العمل بتعاليمه، فتكون عاقبتهم كعاقبة الذين مسخهم الله قردة وخنازير؛ فالناس سواسية، وسُنَّة الله في خلقه لا تتخلَّف.

وتمضي الآيات في ذكر آل عمران حيث ينحدر منهم عيسى، ومن ثَمَّ إلى حوار النصارى، حتى مباهلتهم.

القسم الثاني من الحديث عن وفد نصارى نجران:

يبدأ من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ إلى نهاية الآية العشرين بعد المئة؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ وهو ستٌّ وثلاثون آية، تُعقِّب على حوار أهل الكتاب، فتُعَنِّفُهُم على عدم إيمانهم بخاتم الأنبياء، وتحذِّرهم من سوء المصير، وترُدُّ على شبهاتهم.

وفي هذا السياق تأتي هذه النداءات السبع إلى أهل الكتاب من اليهود:

١- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾

٢- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [٩٨].

٣- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ [٩٩].

٤- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [٦٤].

٥- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [٦٥].

٦- ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠﴾

٧- ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾

وفي الردِّ على هذه النداءات السبع يقول تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَـٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَـٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ٨٦﴾

وفي هذا المقطع من السورة ردٌّ على الشُّبُهات التي يثيرها أهل الكتاب، فقد قالوا: كيف نتْبعُ دينًا يستبيح الأطعمة المحرمة علينا ونحن نبتعد عنها ولا نأكلها؟ فأجابهم الله تعالى بأن حظْر هذه الأطعمة عليهم كان موقوتًا وطارئًا، فقد كانت الأطعمة كلها حِلًّا لبني إسرائيل، فلما فَسقُوا واستمْرأُوا العدوان، عاقبهم الله بذلك ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَـٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ولما نزل القرآن عاد بالتشريع إلى أصله فلم يحرِّم إلا الميتة والخنزير وما أهل لغير الله به والدم المسفوح.

وفيما يتعلق بشُبهتهم حول تحويل القِبْلَة فإن البيت الحرام هو القبلة الأولى والأخيرة للناس كافة، وقد كان التحول لبيت المقدس لظروف عارضة، وقد زالت العوارض ورجعت المياه إلى مجاريها، واسْتُؤنف التكريم للبيت العتيق ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَـٰلَمِينَ ٩٦﴾.

الموضوع الثاني عن غزوة أحد:

وبعد هذا التعقيب على أهل الكتاب يأتي العنصر الثاني في السورة وهو الحديث عن غزوة أُحد، من الآية الحادية والعشرين بعد المئة، من قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾ إلى الآية التاسعة والثمانين بعد المئة، أي: في تسع وستين آية.

وفي ثنايا الحديث عن غزوة أحد يأتي الحديث عن الرِّبا في إشارة إلى أن الأموال المحرمة إذا دخلت في التصنيع الحربي أو في شراء الأسلحة، فإن ذلك يكون سببا في الهزيمة، ولذا جاءت الدعوة في ثنايا الآيات إلى الإنفاق في السراء والضَّراء، ومن ذلك الجهاد في سبيل الله فإن الجهاد بالمال قرين الجهاد بالنفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] وجاء الأمر بالإسراع إلى التوبة بعد مقارفة الذنب، لأننا إذا استوينا مع العدو في ارتكاب المعاصي تفوّق علينا بقوة السلاح، وبعد ذلك يواصل الحديث عن نتائج المعركة.

والقرآنُ بهذا يشير إلى أن سبيل النصر على العدوِّ هو إصلاح الجبهة الداخلية أوّلًا، وتطهيرها من كل محرَّم كالربا والخمر والزنى، والتحلي بمكارم الأخلاق ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فإن هذا من الانتصار على النفس، ولن ينتصر العبد على عدوه إلا إذا انتصر على نفسه، ولذا قال أحد الصحابة حين رجع من الغزو في سبيل الله (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الاكبر) فسمّي جهاد النفس جهادًا أكبر، وجهاد العدو جهادٌ أصغر، لأن جهاد العدو لابد له من جهاد النفس أوّلًا، ولابد من بذل النفس والنفِيس لإعداد العُدَّة والأخذ بوسائل النصر المادية والمعنوية، وبهذا تكون الأمة أهلًا للانتصار، فإن هذا الانتصار ليس انتصار الأشخاص، إنما هو انتصار المبادئ السامية والمسالك القويمة.

والخصومات الشخصية -بين الأفراد أو الشعوب والأمم، أو بين بعض الحكام - ليس لها مجالٌ في الحروب، فإن مصلحة العباد والبلاد أكبر من ذلك، ولأن خصوم الأمس قد يكونون أصدقاء الغد إذا اصطلحوا مع الله ورسوله، وزالت أسباب العداوة، ولذا عاتب الله نبيه لمّا دعا على بعض خصومه بقوله:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ .

وهزيمة أُحد لم تكن من سُوء التخطيط، بل كانت من التَّفريط في إنفاذ أوامر القيادة، حين خالف الرماة أمر نبيهم وتركوا مواقعهم، بسبب حبِّ الدنيا والتطلع إليها، والرغبة في جميع الغنائم من بطن الوادي، ظنا منهم أن النصر قد تم للمؤمنين، والله تعالى قادرٌ في كل وقت أن يهزم الباطل ويُخزي أهله ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وقد ربط الله الأسباب بالمسببات وربط النتائج بالمقدمات في مثل قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]

وبعد ذكر نتائج المعركة، أخذت الآيات تُداوي الجراح، وتشدُّ العزائم، وتُعيد للمؤمنين تماسكهم.

فقد كان هناك رجالٌ رَكلُوا الدنيا بنعالهم، ومضوْا إلى ما عند الله، لا يلْوُون على شيء.

وهناك رجالٌ ثبتوا إلى آخر رمق.

وهناك نساء انطلقْن إلى المعركة بقلوب ملؤها البطولة والفداء، وهناك من رُزق الشهادة، وهناك، وهناك.

منهم: **عبد الله بن حرام**، كان له غلامٌ واحدٌ هو جابر، وست بنات، فلم تَطِب نفسُه حتى خرج إلى المعركة تاركًا بناته الست وراءه، ورُزق الشهادة.

وأنس بن النضر وُجد به ثمانون، ما بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، لم تعْرفه إلا أخته، عرفتْه من أطراف بنانه.

وفي ثنايا التعقيب على غزوة أحد، يُلْفت القرآن نظر أتباعه إلى جُرْأة اليهود على ربهم في قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ وإلى قول الله تعالى عنهم: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١] لقد سمع الله قولهم وسجله عليهم، وعلم فعلهم، وسوف يجازيهم على ذلك عذاب الحريق، فتأتي النار على أجسادهم وجوارحهم، وفي هذا عبرة وعظة، لأن ترك مثل هذه الجرائم، يكون سببا في النصر على العدو.

وينقطع الحديث عن غزوة أُحد ليتصل بأهل الكتاب مرة أخرى ليُعرِّفنا طبيعتهم ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [١٨٦].

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران].

وفي السورة خلال آياتها يُوجِّه الله تبارك وتعالى **سبع نداءات للمؤمنين** تُولي فيها هذه الآيات اهتمامًا بالغًا بالعناية بتربية المؤمنين تربيةً صالحةً عالية المستوى يعرفون من خلالها طبيعة عدوهم حتى يأخذوا حذرهم، ويبتعدوا عن كبائر الذنوب، ويمتثلوا أمر ربهم ويجتنبوا نهيه، ويصبروا عند اللقاء،ويصابروا عدوهم، ويلزموا الحدود والثغور، حتى يتحقق لهم النصر على عدوِّهم، ويكونوا من أهل السعادة في الدنيا والآخرة.

وهذه **النداءات السبع** هي قوله تعالى:

١- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

٢- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

٣- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [١١٨].

٤- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [١٥٦].

٥- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

٦- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

٧- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران].

الموضوع الثالث في السورة عن دلائل وحدانية الخالق سبحانه:

والآيات العشر الأواخر من السورة تنتقل بالإنسان من ذكريات الماضي بحلْوه ومرِّه، فتُلفت نظره إلى هذا العالم الذي يعيش فيه، ويرى خيْراته ونعمه ودلالاته على وحدة الصانع سبحانه، فكأن هذه الآيات تقول للإنسان: اترك الخلاف بين الشرائع واطْرحه الآن جانبًا، وأَعمِل عقلك الذي ستُحاسب به، وفكِّر في مصيرك بعد هذه الدنيا، لماذا تنسى ربك؟! لماذا تبتعد عن صراطه المستقيم؟! أكثر من التسبيح والتحميد والثناء على الله سبحانه، يجب أن تلوذَ بجناب الله تعالى وتلجأ إلى حماه في كل وقت وحين.

لقد جاء محمد ﷺ وأخذ يصيح بأهل الأرض: أن تُوبُوا إلى رُشْدكم وآمنوا بربكم، أفلا يستحق هذا الداعي أن نتدبَّر دعوته ونستجيب لها؟ ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣] إن الله تعالى يجيب هذا الدعاء، ولا يُضِيعُ عمل عامل من ذكر أو أنثى، لكن العُميان من عبدة الأصنام والمتعصِّبين من أهل الكتاب تألَّبُوا على رسول الله وقاتلوه، وأخرجوه من بلده، فلْيكُن جزاؤهم من جنس ما فعلوا ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران].

ودعت آيات السورة في نهايتها أهل الكتاب أن يؤمنوا بالنبي الخاتم، وأَثْنتْ على من آمن منهم بمحمد ﷺ.

وأمر الله سبحانه المؤمنين في الختام بأربعة أوامر، هي مصدر السعادة في الدنيا والآخرة، وتحقيق العزة والكرامة بالنصر على أعداء الله، الذين يجحدون وحدانية الله تعالى، ويكفرون بخاتم رسله، وهذه الوصايا الأربع هي: الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله، ورتَّب الله على ذلك الفوز والفلاح في الدارين، فهل من مُجيب؟

فَضْلُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ مَعَ سُورَةِ البَقَرَةِ:

١- في صحيح مسلم وغيره عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزهراويْن: البقرة وآل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقان من طير صواف، تُحَاجَّان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة، فإنَّ أَخْذَهَا بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»**(١).

قال معاوية -أحد رواة الحديث-: بلغني أن البطلة السحرة، والغياية السحابة والمَظَلَّة، وفِرْقان يعني: قطعتان.

٢- وعن ابن بريدة عن أبيه مرفوعًا: **«تعلَّمو البقرة وآل عمران، فإنهما الزهراوان، يُظلّان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فِرْقان من طير صواف»**(٢)

٣- ومن ذلك حديث النواس بن سمعان وغيره سبق ذكره في أول سورة البقرة.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٤) وابن حبان (١١٦) والطبراني في «الكبير» (٧٥٤٢، ٨١١٨) والحاكم (١/ ٥٦٤) والبيهقي في «السنن» (٢/ ٣٩٥). وجاء مثله عن النواس بن سمعان في مسلم (٨٠٥) والترمذي (٢٨٨٣) وأحمد برقم (١٧٦٣٧، ٢٢١٤٦).

(٢) رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٦٦) حسن صحيح.

سُورَةُ النِّسَاءِ (٤)

مُقَدّمَةُ السُّورَةِ

سورة النساء هي السورة الرابعة في ترتيب المصحف، والثالثة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الممتحَنة وقبل سورة الزلزلة.

وعدد آياتها مئة وسبع وسبعون آية في المصحف الشامي، ومئة وست وسبعون في المصحف الكوفي الذي عليه رواية حفص، ومئة وخمس وسبعون في بقية المصاحف العثمانية.

والسبب في ذلك أن المصحف الشامي اعتبر ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [١٧٣]آية.

ولم يعدها غيره كما عدَّ المصحف الشامي والكوفي ﴿أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [٤٤] آية.

وأسقطهما من العدد المصحف البصري والحجازي (المكي والمدني الأول والأخير).

وهي ثلاثة آلاف وخمس وأربعون كلمة، وستة عشر ألفًا وثلاثون حرفًا.

وسورة النساء من السور المدنية، قالت عائشة ﵂: ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ[١].

وقال ابن عباس ﵄: أول ما نزل بالمدينة سورة البقرة، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء.

أطول سورة بعد سورة البقرة:

وسورة النساء أطول سورة في القرآن الكريم بعد سورة البقرة، وقد سميت كذلك؛ لأن بعضها يتحدث عن أحكام تشريعية تتعلق بالنساء.

ولذا: فهي تسمى سورة النساء الكبرى أو الطولى، في مقابلة سورة النساء الصغرى أو القصوى، المعروفة بسورة الطلاق.

وقد استغرق نزول سورة النساء على رسول الله ﷺ نحو ثمانية أعوام، وظلت مفتوحة

---

(١) من حديث طويل في «البخاري» (٤٩٩٣).

طوال هذه المدة، حيث ابتدأ نزولها بعد أحداث الهجرة، وأحداث غزوة أحد، واستمرت الآيات والأحكام تتنزل حسب الوقائع والحوادث ومقتضى الحاجة على رسول الله ﷺ حتى يوم أن فُتحت مكة في العام الثامن من الهجرة، حيث نزل قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [الآية: ٥٨] يوم فتح مكة، في شأن مفتاح الكعبة، وأن مقتضى الأمانة أن يُردّ المفتاح إلى بني شيبة، وكان العباس قد تطلعت نفسه إلى سدانة البيت، فطلبه من النبي ﷺ..

ولما نزلت سورة النساء جاء في الأثر: «**لا حبْس بعد سورة النساء**»(١) وهو يشير إلى ما كانوا يفعلونه في الجاهلية من حبس مال الميت ونسائه، فقد كانوا إذا كرهوا النساء لقبح فيهن، أو لقلة مال، حبسوهن على أولياء الأزواج من غير عدل في صداقهن؛ لأن أولياء الميت كانوا أولى بهن من غيرهم.

والمعنى: أنه بعد نزول السورة لا يوقف مال ولا يمنع عن وارثه، وليس هناك حبس للمرأة حتى تموت فيرثها ولي الزوج والحاء من (حبس) يجوز فتحها وضمها.

ثماني آيات خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت:

وفي السورة خمس آيات أحب إلى العبد من الدنيا وما فيها كما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه(٢). وهذه الآيات هي: قوله تعالى:

﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [٣١].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [٤٠].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [٤٨].

وقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية [٦٤].

---

(١) أخرجه ابن مردويه عن عكرمة عن ابن عباس بإسناد فيه عبد الله وعيسى ابنا لهيعة، وقد ضعفهما الدارقطني في «الميزان»، ويُنظَر: ابن الأثير في معنى الحبس، وهو في «السنن الكبرى» للبيهقي (٦/ ١٦٢) و«المعجم الكبير» للطبراني (١١/ ٣٦٥) والدارقطني في «السنن» (٤/ ٦٨) وهو في الطبراني (١٢٠٣٣) والبيهقي (٦/ ١٦٢) و«السلسلة الضعيفة» (٢٧٣).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٠٥) بإسناد فيه ضعف.

وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [١١٠] .

زاد ابن عباس ثلاث آيات هي قوله تعالى:[١] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، والآيتين بعدها [٢٦-٢٨]، وقال: هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت.

من خصائص الآية الأولى في هذه السورة:

والله ﷻ يأمر الناس جميعًا في الآية الأولى من سورة النساء بتقوى الله مرتين، في بداية الآية وفي نهايتها.

وقد كان النبي ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ..﴾ الآية بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، ويقرأ معها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

وآيتين من أواخر سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [٧٠، ٧١].

كان عليه الصلاة والسلام يقرأ هذه الآيات الثلاث في بدء خطبة الجمعة، وفي خطبة عقد النكاح، وغير ذلك، ثم يسمي أو يذكر حاجته بعد قوله ﷺ: أما بعد[٢].
وكذلك كان السلف الصالح.

قلتُ: والالتزام بذلك في كل خطبة يجعلها واجبة.، ويخرجها عن كونها سنة، فينبغي تركها أحيانا، وكذا الالتزام بقراءة سورتي الأعلى والغاشية في صلاة الجمعة، ونحو ذلك.

ولما قَدِمَ قوم من الفقراء على رسول الله ﷺ قام في المسجد، ثم قرأ هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ الآية، بعد حمد الله تعالى، والصلاة والسلام على رسوله ﷺ، وقرأ أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]. ثم دعا الناس إلى الصدقة، فجاء كل منهم بما يستطيع، حتى إن أحدهم

---

(١) الحاكم، كتاب التفسير (٢/ ٣٠٥) وأخرجه عبد الرزاق عن الطبري (٨/ ٢٥٧) وفيه ابن بشير، وهو ضعيف.

(٢) وتسمى خطبة الحاجة، وقد جمع طرقها وحققها الشيخ ناصر الألباني بعنوان (خطبة الحاجة) وهي في «صحيح سنن أبي داود» (١٨٦٠) والترمذي (١١٠٥) والنسائي (٣٢٧٧) وابن ماجه (١٨٩٢) وابن ابي شيبة (٤/ ٣٨١) عن ابن مسعود، و انظر أول هذا التفسير.

جاء بصُرَّة فيها دنانير لا تكاد من ثقلها أن تُحمل، ووضعها بين يدي رسول الله ﷺ، وتتابع الناس حتى أتوا بكومين من طعام وثياب؛ فتهلل وجه النبي ﷺ [(١)].

سورة النساء تطهر المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية:

وهي سورة تُعنى بالعلاقات الاجتماعية؛ فيتناول ثلثها الأول قضايا الأسرة، وتطهيرها من رذائل الجاهلية، ويتناول بقيتها قضايا المجتمع وشؤون الأمة؛ فهي مليئة بالتشريع الذي ينظم الشؤون الداخلية والخارجية للمسلمين.

ومن خلال السورة يتبين ملامح المجتمع الجاهلي، ورواسب الجاهلية، ومن ذلك أنه مجتمع يُجارُ فيه على الصغار والضِّعاف والنساء؛ فلا يأخذون حقهم في الميراث، ويستأثر به الرجال الأقوياء القادرون على حمل السلاح، والمرأة تعامل بالعسف والجور، محرومة من الميراث، بل إنها تُورَث كما يُورَث المتاع.

والسورة تقرر أن التنظيمات الاجتماعية كالزواج والميراث، هي شعائر تعبُّدية يثاب المرء على فعلها ويعاقب على تركها، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

وتبين السورة أنه ينبغي على المؤمن أن يكون ولاؤه لله تعالى ولإخوانه المسلمين ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [الآيتان: ١٣٨، ١٣٩].

وأن الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام قائمة إلى يوم الساعة ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ﴾ [الآية: ١٠٠]

وأنه يجب على المسلمين نصرة المستضعفين من إخوانهم الذين لا يستطيعون الهجرة، والذين يعيشون أقلية مع غير المسلمين مضطهدين مظلومين، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٣٥٨) برقم (١٩١٧٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم، (محققوه) وهو في «صحيح مسلم» برقم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي، وهو حديث طويل، وأوله (كنا عند رسول الله في صدر النهار..)

أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَاۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الآية: ٩٧]

والسورة تطهر المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية، وتقيم علاقته مع ربه ومع الناس على أساس من التقوى والأخلاق، والآداب وحسن الصلة.

ومهمة هذه السورة أنها رفعت النساء من حَضِيض الجاهلية إلى عدل الإسلام وحضارته، حيث إنهم كانوا يأكلون أموال اليتامى منهن، ويتزوَّجون ما لا يُحصى من النساء، وكانت المرأة تُورَث كالمتاع والمال، فجاء الإسلام بأحكام تشريعية في هذه السورة رفع فيها من شأن المرأة، وأعلى من قدرها ومكانتها، وجعل لها حق في الميراث بدلًا من أن كانت تُورَث قبل الإسلام.

وهكذا فإن محور سورة النساء: هو تنظيم العلاقات الاجتماعية في المجتمع الصغير، وهو محيط الأسرة، والمجتمع الكبير، وهو شؤون الأمة، فتنتقل السورة من القضايا الداخلية للمجتمع، إلى وضع قواعد العلاقات والمعاملات الدولية بين المسلمين وغيرهم من المسالمين والمعادين والمحاربين، ومن ثَمَّ إلى الاستعداد للأمن الخارجي الذي يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءها، ويبدأ التنبيه على هذه العلاقات الداخلية والخارجية في السورة بتذكير الناس أنهم جميعًا أقارب من أب واحد، ومن أُمٍّ واحدة، وأن بينهما رحمًا قريبة أو بعيدة، كما جاء ذلك في الآية الأولى من السورة، وهي تعتمد في هذا النصح على الأمر بتقوى الله تعالى مرتين في الآية الأولى؛ ليصلوا ما بينهم من رحم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ﴾ [النساء: ١]

والحديث عن الأسرة يتناول الثلث الأول من السورة، بالإضافة إلى آيات منها تتوسط السورة وتُختم بها.

وآيات السورة تتحدث في هذا الثلث عن المهور والزواج والميراث، والمحرمات بالنسب والرضاع والمصاهرة، وبيان الحقوق الزوجية، وعلاج الشقاق والنزاع بين الزوجين، وغير ذلك، ويتخلل كل ما ذُكِر الأمر بتقوى الله تعالى وحفظ حدوده.

وفي السورة من الأحكام التشريعية ما يلي:

١- المحافظة على ما اليتيم. ٢- تعدّد الزوجات.

٣- مشروعية الصداق. ٤- الحجْر على السفيه والصغير.

٥- دفع مال اليتيم إليه عند بلوغ رشده. ٦- أحكام المواريث.

٧- مَنْ حضَر القسمة فلْيقتسم. ٨- عدم الإضرار بالضِّعاف.

٩- عقوبة آكل مال اليتيم. ١٠- ميراث الأصول والفروع والأزواج والحواشي.

١١- عقوبة السحاق. ١٢-عقوبة اللواط. ١٣- التوبة وشروطها.

١٤- النهي عن أخذ شيء من مهر المرأة المدخول بها عند طلاقها.

١٥- المحرمات من النساء. ١٦- نكاح الرقيقات.

١٧- العلاقات المالية في الإسلام. ١٨- اجتناب الكبائر يكفر الصغائر.

١٩- النهي عن تمنى المرأة خصائص الرجل.

٢٠- نسخ الميراث بالتبنِّي والحِلْف والأخوَّة.

٢١- قوامة الرجل وأسبابها. ٢٢- عدم صحة صلاة السكران والجنُب.

٢٣- عدم صحة صلاة الحائض والنفساء. ٢٤- أحكام التَّيَمُّم.

ويتناول ثلثا السورة تنظيم شؤون الأمة داخليًا وخارجيًا.

وفي هذا المقام تتحدث عن اليهود والمنافقين والنصارى:

حديث السورة عن اليهود:

وفيما يتعلق باليهود وهم **الطائفة الأولى** - الذين جاء ذكْرهم في السورة في ثلاث عشرة آية منها، وكانوا قد اتخذوا لهم مستوطنات بجوار المدينة المنورة انتظارًا لمجيء النبي ﷺ إليها، كما هو مقرر في توراتهم - فإن السورة تشُنُّ عليهم حملة عنيفة، وتستنكر أنهم أضاعوا كثيرًا من الوحي الذي نزل إليهم، فحرَّفوه وغيَّروه وبدَّلوه، وقالوا: هو من عند الله، وما هو من عند الله، وقالوا: سمعنا وعصينا، والله تعالى يهددهم بأن يطمس على

وجوههم فيردها على أدبارها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الآية ٤٧]، وقد محا الله آثارهم من المدينة وما حولها، وطمس وجودهم بها.

ولما سئل اليهود: أيٌّ من المسلمين والوثنيين أقرب إلى الحق؟ كان جوابهم: أن الوثنية خير من الإسلام! ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [الآيتان: ٥١، ٥٢] وقد حملهم على هذا حسدهم لخاتم النبيين ﷺ وللعرب؛ أن انتقلت النبوة إليهم بعد ما ظلَّت فيهم ردحًا من الزمن، فحسدوا الناس على ما أتاهم الله من فضله، ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [الآيتان: ٥٤، ٥٥]

وسمعناهم في عصرنا حين دخلوا القدس ١٩٦٧م يهتفون بالثارات القديمة قائلين: محمد مات، وخلّفْ بنات!

فهل نعود إلى ربنا؟ ونوحِّد صفوفنا؟ ونسخِّر طاقاتنا المادية والعلمية لبناء جيش إسلامي موحد؟ وتصنيع مختلَف وسائل الحرب؛ كي نستقل عن عدونا، فنستردَّ مقدساتنا، ونحمي ديارنا، وننشر دين ربنا؟

حديث السورة عن المنافقين:

والطائفة الثانية التي تتحدث عنها السورة؛ لما لها من خطر على الإسلام وأهله، هي طائفة المنافقين الذين يُظهرون ما لا يُبطنون، ويبدأ الحديث عنهم بقصة المنافق الذي رفض التحاكم إلى الرسول ﷺ فيما بينه وبين خصمه اليهودي؛ لعلمه أن النبي ﷺ يقضي بالحق، ولا يأخذ رشوة، وطلب التحاكم إلى طاغوت من طواغيت الكفر والشرك ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [الآية: ٦٠].

وقد يكون المنافق قريبًا منك ببدنه، ولكنه بعيد عنك بقلبه وروحه، والمنافقون يكرهون

الحكم بما أنزل الله، ويكرهون الدفاع عن الحق، ويكرهون القتال في سبيل الله ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [الآية: ٦٦].

والسورة تنفي الإيمان عن كل من لم يقبل حكم الله تعالى، أو يكون في نفسه منه شيء ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

والمنافقون يثبِّطون الهمم لرفع راية الجهاد في سبيل الله ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [٧٢]. ثم هم يفرحون بما يصيب المؤمن من نكبات، ويحزنون لما يسرُّهم، وهم يروِّجون الإشاعات في قضايا الدولة الكبرى؛ لتمزيق الصف وتفريق الأمة وإذاعة الفتنة ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [٨٣].

وكثيرًا ما ينخدع المؤمنون بظاهر المنافقين، فيفضحهم الله تعالى ويكشف سترهم ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ [٨٨].

والمنافقون لا يبالون بتجريح علماء الإسلام، والتشكيك في الإسلام بصورة، أو بأخرى.

ولذا: فإن الله تعالى نهانا أن نجالس أمثال هؤلاء ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

ومن شأنهم أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يبتغون عندهم العزة والحماية والقوة، وهم يظنون أنهم يخادعون الله تعالى، والله تعالى يجازيهم على أعمالهم، ومن شأنهم أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلًا، مذبذبين بين هؤلاء وأولئك.

حديث السورة عن النصارى:

أما الطائفة الثالثة فهم النصارى الذين غالوا وبالغُوا في شأن عيسى عليه السلام حتى غلبت عليهم الحيرة، فزعموا أنه إله وعبدُوه، ومع هذا فقد زعموا أنه قد صُلب وقُتل، مع اعتقادهم بأنه إله! كما زعموا أنه ابن للإله، واخترعوا فكرة التثليث، وصاروا فرقًا وشيعًا وأحزابًا، والمسيح لن يستنكف أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون، وسبحان الله تعالى أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض، فهو الذي خلق ورزق، وهو

الذي خلق النطفة والبويضة، وهو الذي يدبر شئون خلقه ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [١٧١] .

هذا: إلى جانب كثير من الموضوعات التي تناولتها السورة: كالجهاد، والهجرة، وصلاة الخوف، وحكم القتل الخطأ والعمد، والحث على التوبة، والوصية بالوالدين والأقارب واليتامى والمساكين والجيران، وأحكام الغُسل والتيمم، والأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وطاعة الله والرسول وأولي الأمر، ورد التحية بمثلها أو أحسن، ومغفرة الذنوب عدا الشرك بالله تعالى في آيتين من السورة، والنهي عن تغيير خلق الله، والإيمان برسل الله وأنبيائه جميعًا، وخُتِمت السورة بآية الكلالة.

موضوعات السورة: ويمكن تقسيم موضوعات السورة على النحو التالي:

١- جاء الحديث عن أحكام الأسرة وتطهير المجتمع من رواسب الجاهلية، بإقامة حدود الله تعالى وامتثال أمره واجتناب نهيه، وهذا من أول السورة إلى الآية الثالثة والأربعين، يتبعها أربع آيات في وسط السورة من ١٣٧-١٤٠ وآخر آية في السورة. ويتخلل ذلك: الترغيب فيما عند الله تعالى من ثواب، والترهيب مما عنده من عقاب، فالقرآن كتاب هداية يتخول الناس بالموعظة والتذكير.

٢- ويبدأ الحديث عن أهل الكتاب من الآية الرابعة والأربعين إلى الآية السبعين، وما يتخللها ويعقبها من آيات الوعظ والتذكير، ومن الآية الثالثة والخمسين بعد المئة إلى الآية الخامسة والسبعين بعد المئة، وما يتخللهامن الحديث عن رسل الله تعالى صلوات الله وسلامة عليهم أجمعين.

٣- أما آيات الهجرة والجهاد فهي من الآية الحادية والسبعين إلى الآية الرابعة بعد المئة تنتهي بصلاة الخوف.

٤- والآيات التي تتحدث عن المنافقين تبدأ من الآية السابعة والثلاثين بعد المئة إلى الآية السابعة والأربعين بعد المئة، وهي تشمل قواعد المعاملات المحلية والدولية، والعدل في الإسلام.

إلى جوار آيات الربط والتذكير بالله تعالى التي تتخلل هذه الموضوعات للترغيب فيما عنده من ثواب والترهيب مما عنده من عقاب للوصول إلى مايهدف إليه القرآن من هداية البشر.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ (٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- سورة المائدة هي السورة الخامسة في ترتيب المصحف، والحادية والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الفتح على الأرجح.

وهي مئة وعشرون آية في العدد الكوفي(١).

وهي ألفان وثمان مئة وأربع كلمات، وأحد عشر ألفًا وسبع مئة وثلاثة وثلاثون حرفًا.

٢- وتسمى (سورة المائدة) و(سورة العقود) و(المنقذة)؛ لأنها تنقذ العبد من ملائكة العذاب، ويقال لها: (سورة الأخيار)، أي: الذين يوفون بالعهد، فهذه أربعة أسماء لها.

وسميت سورة المائدة؛ لِذِكْر قصة نزول المائدة فيها، وقد طلبها الحواريون من عيسى عليه السلام للدلالة على صدق نبوته، وجاء ذكرها في أربع آيات من آخر السورة [١١٢- ١١٥].

والأوْلَى أن تُسمَّى سورة العقود؛ لأنها افتتحت بذكر العقود، واشتملت على عدد منها صراحة أو ضمنًا؛ فالصريح منها: عقود الأنكحة، وعقد الصداق، وعقد الحلف، وعقد المعاهدة والأمان.

ومن الضمني: عقد الوصية، والوديعة، والوكالة، والعارية، والإجارة، وغير ذلك.

وفي السورة ستة عشر نداء للمؤمنين؛ كل نداء يتضمن أمرًا، أو نهيًا، أو توجيهًا، أو حُكمًا، وفيها خمس نداءات لأهل الكتاب، ونداء خاصٌّ بالنبي ﷺ.

٣- وسورة المائدة سورة مدنية باتفاق، نزل كثير منها بعد العام السادس من الهجرة بعد سورة الممتحنة، وبعد نزول سورة الفتح التي نزلت بعد صلح الحديبية، وبعد عَقْد شروط الصلح التي وقَّع عليها النبي ﷺ بينه وبين المشركين، ونزل ضمن الآية الثالثة من هذه السورة قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ في يوم عرفة في حجة الوداع من السنة العاشرة للهجرة.

---

(١) ومئة واثنتان وعشرون آية في العدد المكي والمدني والشامي، ومئة وثلاث وعشرون آية في العدد البصري.

٤- وسورة المائدة - كالسور الثلاث التي قبلها- تهدف إلى إنشاء أمة، وإقامة دولة، وتنظيم مجتمع يقيم منهج الله، ويتحاكم إليه في جميع شؤونه، وتُبيِّن علاقة المسلم بغيره، وعلاقة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم.

٥- والسورة كلها تشريع، وكلها حلال وحرام، فقد اشتملت على كثير من أحكام التشريع، كما ذكرتْ: أحكام الصيد، والذبائح، والإحرام، ونكاح الكتابيات، والردة، والطهارة، وحد الحرابة، والسرقة، والحكم بغير ما أنزل الله تعالى، وكفارة اليمين، وقتل الصيد في الحرم، وفي أثناء الإحرام، وذكرت حكم الخمر، والميسر، والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، والوصية عند الموت.

وخُتِمت السورة بذكر الموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر، وهي تتحدث كثيرًا عن أهل الكتاب. لا سِيَّمَا اليهود وتَخاذُلِهم عن دخول الأرض المقدسة، وتتحدث عن عقيدة الولاء والبراء في الإسلام.

وسورة المائدة من آخر ما نزل على الرسول ﷺ، وقد نزل بعدها سورة التوبة، وسورة النصر.

عن جبير بن نفير قال: حججتُ فدخلتْ عليَّ عائشة ﵂ فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، قالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلُّوه، وما وجدتم من حرام فحرموه(١).

وعن أسماء بنت يزيد ﵂ قالت: إني لآخذة بزمام العضباء - ناقة رسول الله ﷺ - إذ نزلت عليه المائدة كلها، فكادت من ثقلها تدق عنق الناقة(٢).

وكل سُوَر القرآن يجب أن يُحَلَّ حلالها ويحرمَ حرامُها، وإنما خُصت سورة المائدة

---

(١) الحديث سنده حسن، وفيه معاوية بن صالح، صدوق، له أوهام، وقد رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١١) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه أحمد في «المسند» (٦/ ١٨٨) برقم (٢٥٥٤٧) قال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه النسائي في التفسير رقم (١٥٨) وفي «السنن الكبرى» برقم (١١١٣٨) والبيهقي في «السنن» (٧/ ١٧٢).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٢٧٥٧٥، ٢٧٥٩٢) فيه ليْث بن أبي سليم، وشهر بن حوشب، ضعيفان، وباقي رجاله ثقات، والطبري (٨/ ٨٩) والطبراني في الكبير (٤٤٨) والبيهقي في الشعب (٢٤٣٠) قال محققو المسند: حسن لغيره، وجاءت أحاديث أخرى بنحو هذا المعنى في المسند (٢٧٥٩٢) وعن عبدالله بن عمرو (٦٦٤٣).

بالذكر؛ لزيادة الاعتناء بها، ولأن فيها كثيرًا من أحكام التشريع لم تنزل في غيرها، ولم ينزل ناسخ ينسخ هذا التحليل أو هذا التحريم، فهي آخر ما نزل في التشريع والحلال والحرام.

والصحيح أنها لم تنزل جملة، وإنما نزلت متفرقة بعد صلح الحديبية، وبعد غزوة ذات الرقاع، والمريسيع، وفي حجة الوداع، وغير ذلك.

فقد نزلت آية التيمم بالبيداء عند دخول الصحابة المدينة بعد انتهائهم من غزوة المريْسِيع، ونزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [١١] ببطن نخلة.

ونزل ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [٦٧] في غزوة ذات الرقاع.

وكان بعض السورة معروفًا لدى الصحابة قبل غزوة بدر، فقد قال المقداد بن الأسود: يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فوالله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك ومن خلفك(١).

ومن المعلوم أن قوة اليهود، ونفوذهم في المدينة قد انتهى بعد فتح خيبر في أوائل السنة السابعة من الهجرة، وقد ذكرت السورة ألوانًا من تعنت اليهود وتحاكمهم إلى النبي ﷺ لا لأجل الوصول إلى الحق، وإنما من أجل إظهاره بمظهر الجاهل بأحكام التوراة، ومن ذلك أنهم كانوا ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ﴾ [٤١]. ومع هذا فإن جانبًا كبيرًا من السورة نزل بعد صلح الحديبية وبعد فتح مكة، وفي حجة الوداع.

٦- وقد نزلت هذه السورة ولم يبق معاند للإسلام سوى اليهود المستوطنين في المدينة وما حولها، والنصارى المتاخمين لحدود الشام؛ حيث بلغ الفتح الإسلامي.

ولأن نزول السورة كان في آخر عهد اليهود بالمدينة، فقد كان نطاق المجادلة معهم قليلًا، ولأن الاختلاط مع النصارى أصبح أشد من اليهود، فقد اتسع نطاق المجادلة معهم في السورة.

(١) «صحيح البخاري» (٥/ ٩٢) برقم (٤٦٠٩) من حديث عبد الله بن مسعود وانظر: (٣٩٥٢).

وقد جاء في السورة خمس نداءات لأهل الكتاب: اثنين منها مباشرين وهما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [١٥].

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [١٩]

وثلاث نداءات بواسطة النبي ﷺ، وهي:

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ﴾ [٥٩].

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ [٦٨].

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [٧٧].

وذكرت السورة تاريخًا موجزًا لموقف أهل الكتاب من شرائع الدماء والأعراض، فبينتْ أنها أحكام نزلت في التوراة ليلتزم بها اليهود، وتأكدتْ هذه الشرائع في الإنجيل؛ ليحكم بها النصارى، فمن ترك هذه الأحكام جحودًا أو جورًا أو فسقًا؛ فهو داخل في الكفر؛ أو الظلم؛ أو الفسق.

وهذه الأحكام كانت صالحة للعمل مدة صلاحية التوراة، ثم انتقل الأمر إلى الإنجيل، وبعد مجيء القرآن وجب على اليهود والنصارى وغيرهم الانتقال إلى الوحي الجديد، والرسالة الخاتمة ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [٤٨]. ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [٤٩].

فالدين الأخير قد اكتملت فيه العقيدة والشريعة، وقد ارتضاه الله لعباده إلى يوم القيامة، ناسخًا لجميع الشرائع التي سبقته.

وقد ذكرت السورة فئتيْن من اليهود والنصارى، ونهتْنا عن موالاتهم ومودتهم:

الفئة الأولى: فئة تكره الإسلام وتفضِّل عليه أيَّ شَرْع آخر، وقد امتلأت قلوبهم بالضغائن، حتى قال بعضهم أخيرًا: نحن نقبل تشريعات استراليا أو أمريكا، ولا نقبل شريعة محمد، وفيهم وفي أمثالهم يقول تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾ [٤٩].

الفئة الثانية: فئة تسخَر من شعائر الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

وقد ذكرت السورة في نحو أربع صفحات منها، تناقض أهل الكتاب في أقوالهم وأفعالهم، وضرورة استنكار ما يفعلون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

هذا فضلًا عما نعتْهُ السورة عليهم بسبب نقضهم العهود والمواثيق، وفي ذلك يقول تعالى عن اليهود: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾.

ويقول عن النصارى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [١٤].

ولن يدخل أهل الكتاب ساحة الإسلام إلا إذا ضمُّوا إلى التوراة والإنجيل ما جاء به النبي الخاتم، فآمنوا وعَمِلوا بما جاء به، واعترفوا بأن رسالته تؤمن برسالة موسى وعيسى في زمانهما ومكانهما، ولكنها رسالات لا تصلح بعد بعثة خاتم المرسلين والنبيين.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [٦٨].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [٦٥، ٦٦].

إن تراث أهل الكتاب السابق يشبه دواء محدد الصلاحية، بمدة معينة لا يصلح بعدها للاستشفاء، بل يكون ضارًّا ومضاعِفًا للآلام بعد انتهاء تاريخ صلاحيته، وشريعة الإسلام تضمنت أسباب بقائها إلى آخر الدهر، فهي تُوائم طِباع البشر، وتتجاوب مع نداء الفطرة، وبها يصلُح كل زمان ومكان.

وقد ذكرت السورة قصَّتين في سياق الحديث عن أهل الكتاب:

القصة الأولى: قصة بني إسرائيل عندما كُلِّفوا بمُقاتلة الجبارين ودخول الأرض المقدسة، بعد أن أثار موسى حماسهم وذكَّرهم بنعم الله تعالى عليهم، ثم دعاهم للجهاد فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ ولكنهم جَبُنوا وتخاذلوا، وظنوا أنهم مقبولون عند الله تعالى مهما كانت أقوالهم وأفعالهم، وعندئذ تَقَرَّرَ طردُهم وتشتيتهم في أرجاء الأرض دون أن يكون لهم وطن خاص يجمعهم إلى يوم القيامة؛ حيث حُرِّم عليهم دخول الأرض المقدسة إلى الأبد، وحُرِّم عليهم إقامة وطن لهم فيها كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ﴾ [٢٦].

وقد جعل الله تعالى أرض سيناء مصيدة لهم، يتيهون فيها ويحتبسون داخلها أربعين عامًا، فقال تعالى: ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [٢٦]. فلم يعرفوا طريقًا للخروج منها، حتى هلك أكثرهم داخلها، عقوبة لهم على جُرأتهم على الله تعالى، وعلى عدم إجابتهم أمر نبيهم، وعلى جُبنهم عن قتال أعدائهم.

القصة الثانية: قصة ابني آدم اللذيْن قتل أحدهما الآخر حسدًا له؛ لأنه رأى أنه أفضل منه، وبعد أن تخلص منه لم يعرف كيف يدفنه بعد مماته ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾ [٣١].

ولقد عدَّ الله سبحانه هذه الجريمة ضد الإنسانية كلها، بدْءًا ببني إسرائيل فقال تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [٣٢].

٧- **هذا**: وتقوم سورة المائدة على **أصلين كبيرين**:

الأصل الأول: تقرير وحدانية الله تعالى، ونفْي كل شرك عنه سبحانه، جاء ذلك في مثل قوله تعالى:

١- ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ﴾ [٧٢].

٢- وقوله سبحانه: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ﴾ [٧٣].

٣- وقوله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [١٥].

٤- وقوله أيضًا ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾ [١٩].

الأصل الثاني: التعدي على خصائص الألوهية والعبودية، وما دام الله سبحانه واحدًا في ذاته وصفاته، فلا يجوز لكائن من كان أن يتعدى على خصائص الألوهية والعبودية على الإطلاق، فالله تعالى هو الخالق، وهو المالك، فهو الذي يشرِّع، وهو الذي يحلل ويحرم، وهو وحده الذي يطاع فيما أَمر ونهى، وهو وحده الذي يَتوجَّه إليه الناس بالعبادة، ومنها الوفاء بالعقود والعهود، والذبح لله، والنذر لله.

ومن خصائص الألوهية ما يتعلق بتحقيق العدل بين الناس؛ كإقامة الحدود على المجرمين من السارقين، وشاربي الخمر، وأمثالهم... إلخ.

ومن التعدي على خصائص الألوهية الحكم بغير ما أنزل الله؛ لإقامة المنهج غير الرباني بين الناس، وعدم تقرير أن الذين يحكمون بغير ما أنزل الله هم الكافرون والظالمون والفاسقون، وهم الذين يبغون حكم الجاهلية، وقد تعرضت السورة لهذا الجانب بما لا يوجد في سورة أخرى.

والآيات التي تقرر ذلك وإن جاءت في سياق الحديث عن أهل الكتاب، إلا أنها تعني المسلمين أساسًا؛ لأنها موجَّهة إليهم في كتابهم، ولذلك فإن الآيات التي بعدها وجَّهت الأمر المباشر إلى النبي ﷺ؛ لتقرير هذه القضية، فقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [٤٩]. وقال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [٥٠].

وفي جانب التشريع الذي هو من خصائص الألوهية يقول القرطبي:

قال أبو ميسرة: المائدة من آخر ما نزل، ليس فيها منسوخ، وفيها ثماني عشرة فريضة، ليست في غيرها، وهي: ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ وإتمام الطهور: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إتمام ما لم يُذْكر في سورة النساء ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ و﴿لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾ إلى قوله: ﴿عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ و﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾

وقوله تعالى: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾.

ثم قال القرطبي: قلت: وفريضة تاسعة عشرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إذ ليس للأذان ذكر في القرآن إلا في هذه السورة، أما ما جاء في سورة الجمعة فمخصوص بالجمعة، وهو في هذه السورة عام لجميع الصلوات(١).

أقول: وفي السورة أحكام تشريعية أخرى؛ كتحريم الخمر والميسر، والأنصاب والأزلام، وأحكام التيمم والغسل، والسرقة وقطع الطريق والإفساد في الأرض، وكفارة اليمين، وحفظ شعائر الله في الحج، والأشهر الحرم، وأحكام القصاص في النفس والجوارح، وأصول التعامل بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب وسائر المشركين والمنافقين، والولاء والبراء، والتنويه بالكعبة وبكرامتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوصية عند الموت.

أما حظ المؤمنين في سورة المائدة فقد وجِّهت إليهم ستة عشر نداء، وهي تفوق النداءات التي وُجِّهت للمؤمنين في سورة البقرة، وقد تضمن كل نداء فيها: تشريعًا، أو توجيهًا، أو أمرًا، أو نهيًا لتربية المؤمنين على منهج الله تعالى، وهذه النداءات هي قوله تعالى:

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [١].

٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [٢].

٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [٦].

٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [٨].

٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [١١].

٦- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [٣٥].

٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [٥١].

٨- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [٥٤].

---

(١) «تفسير القرطبي» (٦/ ٣٠).

٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [٥٧].

١٠- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [٨٧].

١١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ﴾ [٩٠].

١٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ [٩٤].

١٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [٩٥].

١٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [١٠١].

١٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [١٠٥].

١٦- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [١٠٦].

ووجهت السورة نداءيْن بوصف الرسالة للنبي ﷺ خاصة، وهما قوله تعالى:

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [٤١].

٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [٦٧].

وبعد ذكر قصة المائدة، تأتي دعوة للنصارى أن يُخْلصوا دينهم لله، وأن يُنَقُّوا التوحيد من الأوهام والأباطيل التي ألصقوها به.

وخُتمت السورة بتذكير القارئين لها بكل ما حوتْه من عقود وعهود، هل حفظوها ووفَّوْا بها، أم ضيَّعوها وفرَّطوا فيها؟ ففي يوم القيامة تشهد الرسل على الأمم، ويشهد عيسى على النصارى، ويجمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، وهو يوم ينفع فيه الصادقين صدقهم في جنات تجري من تحتها الأنهار، والمُلك يومئذ لله، كما كان الحال في الدنيا ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

وقد اشتمل الربع الأول من السورة على خمس نداءات موجهة للمؤمنين، تتناول:

١- وجوب الوفاء بالعقود.

٢- وتعظيم شعائر الله.

٣- وأحكام الطهارة.

٤- وواجبات المسلم وغير المسلم.

٥- والتذكير بنعمة الله تعالى الذي كف أيدي الأعداء عن الفتك بالمسلمين في مواطن عدة.

هذا: وفي السورة موضوعات ثلاث، تستغرق آيات السورة كلها:

الموضوع الأول: أحكام التشريع، وهي تأتي في الثمن الأول من السورة، إلى جوار الآيات (٣٨، ٣٩) ومن الآية (٨٩-١٠٩).

الموضوع الثاني: الكلام عن أهل الكتاب، وذلك من الآية (١٢-٢٦) ومن الآية (٤١-٨٦) والثمن الأخير يتحدث عن النصارى.

الموضوع الثالث: قصة ابني آدم، وهي في الثمن الثالث من السورة.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ (٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورةُ الأنعام هي السورة السادسة في ترتيب المصحف، والخامسة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الحِجْر وقبل سورة الصافات، وهي مئةٌ وخمسٌ وستون آية في العدد الكوفي، ومئةٌ وسبعٌ وستون آية في العدد المكي والمدني، ومئةٌ وستٌّ وستون آية في العدد الشامي والبصري، وهي ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة، واثنا عشر ألفًا وأربع مئة واثنان وعشرون حرفًا.

وقد أَوْرَدَ بعضُ المفسرين كثيرًا من الآثار الضعيفة التي تُحدِّدُ وقت نزول السورة وكيفيَّتَها، وتُبيِّنُ فَضْلَها، كتفسير ابن كثير، وفتح القدير للشوكاني، وكلها لا تَخلو من مقالٍ، وأقوى هذه الآثار ما جاء عن أنس ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**نزلتْ سورةُ الأنعامِ ومعها موكب من الملائكة تسدُّ ما بين الخافقين، لهم زجل بالتَّسْبِيح والتقديس، والأرضِ ترتجُّ، ورسول الله ﷺ يقول: سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم**»[1].

وعن جابر وابن عباس وأنس وابن مسعود وغيرهم: لمَّا نزلتْ سورةُ الأنعام سَبَّحَ رسول الله ﷺ ثم قال: «**لقد شيَّع هذه السورة من الملائكة ما سدَّ الأفق**»[2].

وقد نزلتْ سورةُ الأنعام ليلًا جملةً واحدةً، ودعا الرسول ﷺ كُتَّابَ الوَحْيِ فكتبوها من ليلتهم[3].

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٢١٠) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٣): رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبد الله بن عرس عن أحمد بن محمد بن أبي السالمي ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات، ورواه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٤٧) وابن مردويه.

(٢) «المستدرك» (٢/ ٣١٤) وهو صحيح على شرط مسلم كما قال الحاكم، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٢٤٣١) وقد ردَّ الذهبيُّ قولَ الحاكم بأن في إسناده جعفر، ولم يدرك السُّدي، قال: وأظنه موضوعًا، ولكن وفاة السدِّي كانت سنة (١٢٧ هـ)، وولادة جعفر كانت سنة (١٠٩هـ)، فاللقاء بينهما مُحتمَلٌ، ولا وجهَ لكلام الذهبي، انظر تعليق سامي بن محمد السلامة على «تفسير ابن كثير» في أول السورة، وانظر موسوعة فضائل سور آيات القرآن (١/ ٢٥٥) واللفظ لجابر، ورواه عبد بن حميد عن محمد بن المنكدر.

(٣) جاء هذا في أَثَرٍ منسوبٍ لابن عباس في «المعجم الكبير» للطبراني (٢/ ٢١٥) وفي «فضائل القرآن» لأبي عبيدة ص١٢٩، و«فضائل القرآن» لابن الضريس ص١٥٧، وفي إسناده علي بن زيد، وهو ضعيف، ورواه أيضًا إسحاق بن راهويه في مسنده برقم (١٦) وعبد بن حميد عن شهر بن حوشب.

ولم يَنزِلْ من السور السبع الطوال جملة واحدة غيرها، ولعل أسباب النزول لبعض آياتها قد تجمعت عند نزول السورة في مدَّةٍ قصيرةٍ متلاحقةٍ.

قال الفخر الرازي: والسببُ في إنزالها دَفْعَةً واحدةً أنها مُشتملةٌ على دلائل التوحيد، والعدل، والنبوَّة، والمعاد، وإبطال مذاهب المعطِّلين والملحدين.

فإنزال ما يتعلق بالأحكام والتشريع، قد تكون المصلحة في نزوله على قَدْرِ الحاجة حسب الحوادث والأحوال، أما ما يدل على علم الأصول فقد أُنْزِلَ جملةً واحدةً، ومن ذلك سورة الأنعام.

وقد نزلتْ سورةُ الأنعام غالبًا في السنة الرابعة للبعثة بعد الأمر بالجَهْرِ بالدَّعْوَة، وهي فترةٌ عنيفةٌ في تاريخ الدَّعْوَة؛ لأنها تواجه الشرك والمشركين، وتقاوم عقائدَ فاسدةً، لاقتلاع جذور الشرك من نفوسهم، وتصحيح العقيدة لديهم.

وسُمِّيتْ بسورة الأنعام؛ لذكر الأنعام فيها ست مرات، في أربع آيات؛ هي الآيات: (١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢)، ولم يُعرَف لها اسمٌ آخر.

والمراد بالأنعام: كل ما له خُفٌّ وظلف من الحيوانات، وهي: الإبل والبقر والغنم.

وقد سُبقت سورة الأنعام بسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، وهي السور الأربع الأول بعد سورة الفاتحة.

وقد نزلتْ هذه السور الأربع على رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، وهي سُورٌ تخاطب المؤمنين، وترسمُ لهم منهج الحياة، ومنهج الحُكْمِ الإسلاميِّ، وتضعُ لهم قواعد العبادات والمعاملات المالية، وأحكام الأسرة، ومعاملة أهل الكتاب، والجهاد في سبيل الله، وتبيِّنُ أحوالَ النفاق والمنافقين وغير ذلك من الأحكام التشريعية.

وأكبر ما تعالج سورة الأنعام قضية العقيدة، وتعريف العباد برب العباد، وقد سلكتِ السُّورَةُ في هذا **مسلكين:**

المسلك الأول: أسلوب التقرير؛ بعرض الأدلة المتعلقة بتوحيد الله تعالى، مصدَّرة بضمير الغائب، واسم الموصول المفرد، مع التسليم بدلائل وجود الله تعالى وقدرته، بما لا يشك في ذلك عقلٌ راشدٌ.

وضمير الغيبة يَجعل المستمعَ في حالةِ حضورٍ، كأن الله تعالى يُخاطبه، ويضع يده على مظاهر عظمته: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [٢]

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [٣] ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [١٨]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [٦٠]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [٧٣]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ [٩٧]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [٩٨]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [٩٩]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [١٤١].

المسلك الآخر: أسلوب التلقين والتعليم؛ حيث يُلقِّنُ اللهُ تعالى رسولَه الحُجَّة التي يَقذف بها في وجه الباطل، بما يملك على الإنسان سمعه وقلبه، وذلك عن طريق السؤال وتلقين الجواب، وربما تكرَّر ذلك أربع مرات في آية واحدة.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [١١] ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ [١٢]

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [١٤].

﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ [١٥] ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [١٩] ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [٤٠]

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [٤٦]

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ [٤٧]

﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ [٥٧].

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [٥٨]

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [٥٦]

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [٦٣]

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [٦٤]

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ [٦٥]

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [٧١].

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [٧١] ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [١٣٥]

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ [١٤٥]

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [١٤٩]

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ [١٥٠]

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [١٥١]

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ﴾ [١٦٢]

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [١٦٤].

وهكذا يَكْثُرُ أسلوبُ التلقين في أوَّلِ وأطولِ سورة مكية في القرآن؛ عن طريق السؤال والجواب في جوانبَ متعددةٍ تتعلق بالعقيدة، والعبادة، والأخلاق، والتشريع، وغير ذلك.

والسبب في كثرة هذا الأسلوب في السورة، أنها نزلتْ في ذروة المعركة المحتدمة بين الحق والباطل، فهي تلقينات متتابعة، يقول الله تعالى فيها لنبيِّه وهو يجادل المشركين: قل لهم كذا وكذا، ولمناقشة المشركين وإفحامهم بالحُجج القاطعة، وتفنيد شُبه المعارض، وبيان وجه الحقِّ فيها، وقد بلغ هذا الأسلوب أربعًا وأربعين مرة في السورة.

وسورة الأنعام أوَّلُ سورة مكية في ترتيب المصحف، وهي والتي بعدها (سورة الأعراف) أطول سورتين مكيتين في القرآن الكريم، وخصائص القرآن المكي يَختلف عن خصائص القرآن المدني.

ونحن لا نجد في سورة الأنعام نداءً ولا خطابًا واحدًا للمؤمنين، فليس فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ولا نجد فيها حديثًا يخاطب أهلَ الكتاب من اليهود والنَّصَارَى؛ لأن

ذلك كان في المدينة، ولا نجد فيها حديثًا عن النفاق والمنافقين؛ لأن النفاق ظَهَرَ في المدينة، ولا نجد في السور المكية حديثًا عن القتال وأحكام الجهاد؛ لأن الجهاد شُرِعَ في المدينة أيضًا، ولا نجد تفصيلًا لأحكامِ العبادات؛ كالصوم والزكاة والحج، وأحكام المعاملات؛ كالرِّبَا وأحكام الأسرة والجنايات من القتل والسرقة والجرائم وغيرها.

والقرآن المكي في ترتيب المصحف بدأ من سورة الأنعام، على خلاف في سورة الفاتحة، هل هي مكية أم مدنية، أو نزلت مرتين؟

والفترة المكية استمرَّت نحو ثلاثة عشر عامًا، نزل فيها أربعٌ وثمانون سورة؛ منها سبعٌ وأربعون سورة متوالية، هي جزآ (تبارك) و(عمَّ) غالبًا؛ أي: من سُورة الملك إلى سُورة الناس، وهي من متوسط وقِصَارِ السور.

ويتناول القرآن المكيُّ **ثلاث قضايا**؛ وهذه القضايا الثلاث هي:

القضية الأولى: قضية تصحيح العقيدة، وتوحيد الإله المعبود، ونَبْذ الشرك، والتنديد بالمشركين، وكلِّ ما يُعْبَدُ من دونِ الله.

القضية الثانية: تتناول الوَحْيَ والرسالة؛ بمعنى أن الوَحْي المنزَّل من عند الله تعالى على نوحٍ، وعلى إبراهيم، وعلى موسى وعيسى ﷺ، هو نفسه الذي نَزَلَ به جبريل ﷺ على محمدٍ ﷺ، ومَن آمن بالوَحْي الذي نَزَلَ على الرُّسُل السابقين، عليه أن يُؤمن بالوَحْي الذي نَزَلَ على خاتم الأنبياء والمرسلين محمدٍ ﷺ، وهذا يستلزم الإيمانَ به ﷺ.

القضية الثالثة: قضيةُ البعث والحشر والنشور والحساب والجزاء يوم القيامة، فالقرآنُ يَغرس في نفوس الخَلْقِ أن هناك يومًا آخِرًا، يبعث الله فيه العبادَ، ويُحاسبهم على ما قَدَّمَتْ أيديهم من خيرٍ أو شرٍّ، وأن الدنيا ليست نِهاية المطاف، وفترة البرزخ يَتِمُّ فيها استيفاء الأعمال، ثم يكون البعث والحساب، والجنة أو النار، نسأل اللهَ حسنَ الخاتمة.

هذه القضايا الثلاث هي المحاورُ التي يَدورُ حولَها القرآنُ الذي نَزَلَ بمكة على رسولِ الله ﷺ، وفي مقدمة ذلك سورةُ الأنعام، وهذه القضايا ذكرتْها سورةُ الأنعام في الآيات الأربع الأُوَل منها على وجه الإجمال؛ حيث جاءت قضية التوحيد في الآية الأولى منها، وقضية البعث والنشور في الآية الثانية، وقضية الوَحْي والرسالة في الآية الرابعة منها.

وقد اشتملت سُورَة الأنعام على هذه القضايا الثلاث في **مشاهد مختلفة**:

١ - فأقامتِ الأدلةَ على وحدانيَّةِ الله تعالى في كثيرٍ من الآيات، التي تتناول جوانبَ الكونِ كلَّها:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [١٤]

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [١٧]

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [٥٩]

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [٧١]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [٩٥].

ومن دلائل التوحيد حوارُ إبراهيمَ لقومه، وهو يُقيم الحُجَّةَ عليهم، ويأخذ بأيديهم خُطْوَةً خُطْوَةً، حتى يعترفوا بوحدانية الخالق سبحانه، وقد جاء هذا في أسلوب تربويٍّ بديعٍ.

٢ - وأقامتْ سورةُ الأنعام الأدلةَ على قضيَّةِ البعث والحساب والجزاء في مثل قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [٣٠].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [٣١]

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [٩٣]

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [٩٤]

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [١٢٨].

٣ - وأقامتِ السورةُ الأدلةَ على قضية الوَحْي والرسالة في كثيرٍ من آياتها؛ منها قوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [٢٥].

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [٢٦]

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [٣٤] ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [٥٠].

وإلى جوار هذه القضايا الثلاث فنَّدَتِ السورةُ شُبُهات المشركين بأسلوب يُقنع العقولَ ويَهدي القلوب، ويُرضي العواطف، وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [١٣٦]

﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ [١٣٨]

﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [١٣٩].

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [١٤٣]

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [١٤٤]

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [١٤٦]

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [١٤٨].

وسورة الأنعام أجمعُ سُورةٍ في القرآن لأحوال العرب في الجاهلية، وأشدُّها مقارعة لجدالهم، واحتجاجًا على سَفَاهَةِ أَحْوَالِهم.

في صحيح البخاري أن ابن عباس ﷺ قال: إذا سرَّك أن تعلم جهلَ العرب؛ فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا﴾ إلى قوله ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[1].

إلى جوار الآيات التي تناولتْ مقترحات المشركين بنزول معجزاتٍ كونيَّةٍ على النَّبي ﷺ تُصَدِّقُ دعوتَه، وردَّ الله عليهم في آيات؛ منها:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ

(١) البخاري (٣٥٢٤).

أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [١١٠، ١١١].

والآياتُ التي تناولتِ القرآن الكريم تَصِفُهُ بأنه كتابٌ مباركٌ مصدقٌ لِمَا قبله من الكتب، وتأمر نبيَّه ﷺ باتباع ما فيه ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [١٠٦].

وعلى هذا الأساس تَمْضِي السُّورَة.

فتبدأ: بإقامة أدلة التوحيد في مواجهة المشركين ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [١].

وتثنِّي: بموقف المكذبين بآيات الله في هذا الكون الفسيح ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [٥].

وتثلِّث: بتعريف الناس بحقيقة الألوهية ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ [١٢].

ورابعًا: تُخْبِرُ أن أهل الكتاب يعرفون محمدًا ﷺ، وكتابَه حقَّ المعرفة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ [٢٠].

وخامسًا: تُسلِّي الرسولَ ﷺ، وتُسرِّي عنه ما يَحدث له من تكذيب المكذبين.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وسادسًا: تُقيم السورةُ أدلَّةً، ماديةً لا يسع العاقل أمامها إلا أن يُوحِّدَ الخالق سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [٩٥] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [٩٨] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [٩٩].

وسابعًا: تُفنِّدُ السُّورَةُ مزاعمَ أهلِ الجاهليةِ في الأنعام والثمار؛ لاقتلاع جذور الشرك، وتصحيح العقيدة ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [١٣٦]

﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [١٣٨]

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [١٤٣].

وثامنًا: تَذْكُرُ الوصايا العشر التي جاءت بها كل شريعة من عند الله عز وجل، وفي ثنايا ذلك حديثٌ عن مفاتحِ الغيب، وحوار إبراهيم لقومه، وذِكْرُ ثمانية عشر رسولًا من رسل الله، والأمر بالاقتداء بهم، وإيحاء كلٍّ من شياطين الجن والإنس للآخر.

ولم تَخْلُ السورة من مشاهدِ القيامة وأهوالِها ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [٢٧] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [٣٠].

وتختم السورة بابتهال وإنابة إلى الله تعالى وحده لا شريك له.

فسورةُ الأنعامِ أقامتِ الأدلةَ على وحدانيَّةِ الله تعالى، وبينتْ أنه المستحقُّ للعبادة دون سواه، وأقامتِ الأدلةَ على صِدْقِ النَّبي ﷺ في دعوته، وأقامت الأدلة كذلك على أن يوم القيامة حقٌّ، وأن الحساب والجزاء فيه حقٌّ، وفنَّدتِ السورة الشُّبُهاتِ التي أثارها المشركون حول هذه الأمور الثلاثة.

سُورَةُ الأَعْرَافِ (٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأعراف هي السورة السابعة في ترتيب المصحف، والتاسعة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلتْ بعد سورة (ص)، وقبل سورة (الجن).

وهي مئتان وست آيات في العدد المدني الأول والثاني والكوفي[١].

وهي ثلاثة آلاف وثلاث مئة وخمس وعشرون كلمة.

وسورة الأعراف أربعة عشر ألفًا وثلاث مئة وعشرة أحرف.

وسُمِّيت سورة الأعراف؛ لعدم ورود هذا اللفظ في غيرها.

وسمَّاها بعضُهم[٢] **سورة الميقات**؛ لاشتمالها على ذكر ميقات موسى عليه السلام.

وتُسمَّى **سورة الميثاق**؛ لاشتمالها على الميثاق المأخوذ على بني آدم وهم في عَالم الذَّر.

وهي سورة مكية عدا الآيات من [١٦٤-١٦٧] وآية رقم [١٧٢] فهي مدنية، وهي من السور السبع الطوال في أول القرآن.

وأخرج النسائي وغيرُه عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف، فرَّقها في ركعتين[٣].

وعن ابن أبي مليكة عن عروة عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال لمَرْوان بن الحكم: ما لي أراك تقرأ في المغرب بقصار المفصل، وقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فيها بأطول الطوليين، قال مَرْوان: يا أبا عبد الله، ما أطول الطُّوليْن؟ قال: الأعراف[٤].

---

(١) ومئتان وخمس آيات في العدد البصري والشامي.

(٢) وهو الفيروزآبادي في كتاب «بصائر ذوي التمييز».

(٣) صححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» برقم (٩٤٧).

(٤) «المسند» (٢١٦٤١، ٢١٦٤٦) وإسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين غير مروان بن الحكم فمن رجال البخاري، (محققوه) والبخاري (٧٦٤) مختصرًا وأخرجه أبو داود (٨١٢) والنسائي (٩٨٩) وفي «الكبرى» (١٠٢٢) وابن خزيمة (٥١٥، ٥١٦) والطبراني في «الكبير» (٤٨١١، ٤٨١٢) وصحيح النسائي (٩٤٦) وصحيح سنن أبي داود (٧٢٨).

وفي لفظ آخر عن حديث زيد بن ثابت أيضًا أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في المغرب بطولى الطوليين (المص)[1].

وسورة الأعراف هي أطول سورة في القرآن الكريم الذي نزل بمكة على رسول الله ﷺ، وهي أطول من سورة الأنعام المكيَّة التي قبلها.

وسورة الأعراف كسورة الأنعام، كلاهما يعالج قضيةَ العقيدة والتوحيد، ولكن سورة الأنعام تعالج قضيةَ العقيدة ذاتها، وتعالج أوضاع الجاهلية في كلِّ زمان ومكان، الجاهلية التي كانت عند مَبْعَثِ الرسول ﷺ، وجاهلية الأمم التي لم تتشرف بالوقوف على معالم الرسالة الخاتمة إلى يوم القيامة، فتبيِّن للناس العقيدة الصحيحة، وما أحلَّه الله لهم، وما حرَّمه عليهم من الذبائح وغيرها.

وسورة الأعراف تعالج موضوع العقيدة والتوحيد من زاوية أخرى، تعالجها في رحلة الرسل الكرام مع التاريخ البشري الطويل، رحلة الموكب الإيماني مع رسل الله الكرام، الذي يبدأ من لدن آدم إلى محمدٍ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهي سورةٌ تُفصِّلُ بتوسُّع قصص الأنبياء والمرسلين، وقد سبق قبل ذلك إشارات عابرة في سُور القرآن المكي الذي نزل قبل هذه السورة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل] إلى آخر الآيات، وكما في سورة الفجر، وسورة القمر، وهي إشارات عابرة إلى قصص الأنبياء والمرسلين، وجاءت هذه السورة؛ لتُفصِّلَ وتُوسِّع الحديث عنها.

وفي هذا الصدد تتناول السورة سبع قصص؛ هي: قصة آدم، وقصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح، وقصة لوط، وقصة شعيب، وتتناول بالإطناب قصة موسى بما لم يُذْكَر في غيرها، ففي هذه السورة بيانُ أن الله سبحانه أنزل الكتاب على موسى؛ لهداية أهل مصر، ولهداية بني إسرائيل، وتَذْكُر السورة عشر حَلْقَاتٍ من قصة موسى مع بني إسرائيل لا يوجد غيرُها في القرآن الكريم، وتتحدث عن الفراعنة، وعن اليهود بإسهاب وإطناب.

اشتملتْ سورةُ الأعراف على مقاصدِ السور المكية، وهي إقامة الأدلة على وحدانية الله

---

(١) ينظر: «الدر المنثور» (٦/ ٣١١).

تعالى، وعلى صِدْقِ محمدٍ ﷺ، وعلى أن يوم القيامة حقٌّ لا رَيْبَ فيه.

واهتمتِ السورةُ **بأسلوبين** بارزين:

أحدهما: أسلوب التذكير بنعم الله تعالى؛ فتلفت أنظار الناس إلى نعمة خَلْقِهم، وتصويرهم وتمكينهم في الأرض، وتمتُّعِهم بما في هذا الكون من خيراتٍ سَخَّرَها الله تعالى لهم.

وثانيهما: أسلوب التخويف من العذاب والنقم؛ فتستعرض سورة الأعراف في أكثر من نصفها ما نزل بالأمم الذين لم يستجيبوا لنصائح الرسل من سوء المصير.

وتبدأ السورة بافتتاحية عن القرآن العظيم ألَّا يكونَ في صَدْرِ الرسول ﷺ حرجٌ من إبلاغه للناس، فيخوِّفُ به الكافرين، ويذكِّرُ به المؤمنين، وأن تتَّبع الأمةُ ما أنزل الله فيه، ولا تتَّبع غيرَه.

ثم تشير السورة في بدايتها إلى ما جاء فيها من الأمم التي كذَّبت رسلها؛ فأهلكها الله ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ وأعقبتْ ذلك بأن الله تعالى سيسأل الأمم ويسأل الرسل، وسوف يقص على الجميع أخبارهم، ويزن أعمالهم، فمنهم أهل الجنة، ومنهم أهل النار.

وبعد هذه المقدِّمة تَذْكُرُ السورة قصة بدء الخلق بآدم وحواء، وما كان من إغواء الشيطان لهما، وتحذِّر بني آدم من كيده وعداوته في أربعة نداءات متوالية.

وتنتقل السورة من المنشأ إلى المعاد، فتَذْكُر أهل النار وهم يتلاحقون فيها جماعة بعد جماعة، الضالين والمضلين، وتبيِّن استحالة دخولهم الجنة، وعدم خروجهم من النار.

ثم تعرض مشاهد الفِرَقِ الثلاث يوم القيامة: وهم أهل النار، وأهل الجنة، وأصحاب الأعراف، وتعقِّب على ذلك بذِكْرِ شيء من صفحات الكون وتسخيره للإنسان؛ السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، والرياح، والماء، والزروع والثمار؛ للاستدلال بها على وحدانية الخالق سبحانه، وقدرته على البعث والنشور، وتضرب مثلًا للمؤمن بالأرض الطيبة الخصبة، ومثلًا للكافر الذي لا ينتفع بالحجج والبراهين بالأرض الرديئة السبخة.

ثم تأخذ السورة في ذكر الأمم التي تمردت على وحي الله؛ فصرعها بغيها، ويُلاحظ أن أغلب هذه الأمم في المناطق العربية؛ فقوم نوح بالعراق، وقوم عاد باليمن وما جاورها، وقوم ثمود بأطراف الحجاز، وقوم مدين بين سيناء والأردن، وقوم لوط في شرق فلسطين، وهؤلاء جميعًا قاوموا المرسلين، وجحدوا ما جاؤوا به من عند الله.

ويعرض السياق إلى قصة موسى في مواجهته لفرعون، وفي تحدِّيه للسحرة، وفي أخذ آل فرعون بالسنين، وفي إغراق فرعون وقومه.

كما يعرض لدعوة بني إسرائيل، وطلبهم من نبيهم أن يجعل لهم إلهًا صنمًا كغيرهم، بعد أن نجَّاهم الله من الغرق، ويعرض أيضًا إلى ميقات موسى مع ربِّه؛ لنزول التوراة عليه، وطلبه الرؤية من ربه، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ...﴾ [الأعراف: ١٤٣] وإلى ميقاته مع نقباء بني إسرائيل السبعين الذين قالوا له: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]

وتتحدث السورة عن مخالفة بني إسرائيل لأمر ربهم في دخول القرية، وفي صيد السمك يوم السبت، وعن رَفْعِ جبل الطور فوقهم؛ حتى يقبلوا التوراة و يعملوا بما أنزله الله فيها على موسى عليه السلام.

ومن ثَمَّ يأتي ذِكْرُ الميثاق الفِطْري الذي أخذه الله على بني آدم لتوحيد الله ، ويَتْبَع ذلك مثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها؛ كبني إسرائيل، وكلٍّ مَن تأتيه هدايةُ الله فيزهد فيها ويُعرض عنها.

إن الأمم التي أبادها الله تعالى -ممَّن جاؤوا في هذه السورة وغيرها- هي التي حفرت قبرها بيدها ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

ولقد كان الجدير بمَن أتى بعدهم أن يتعظوا بمصارع الآباء والأجداد، ولكنهم لم يعتبروا ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

إن الصهاينة من يهود اليوم معتدون ظالمون مضادون لله تعالى في إقامة الكيان الصهيوني، وقد كَتَبَ الله عليهم التشردَ في البلاد؛ بسبب تقاعسهم عن نُصْرَةِ نبيهم موسى عليه السلام، فخالفوا ذلك، وأقاموا وطنًا لهم، وهم كافرون برسولين بعد موسى، مقاتلون للعرب، محتلون لأرضهم، وإن الطغاة من النصارى ملؤوا الأرض ظلمًا وفسادًا واستعبادًا واستبدادًا، ونصَّبوا أنفسهم شُرْطيًّا على العالَم، يولُّون مَن شاؤوا، ويعزلون مَن شاؤوا، ويحتلُّون ما شاؤوا.

وإن جُلَّ المسلمين معطِّلون لحدود الله، مستبيحون لحرماته، تاركون لواء محمدٍ ﷺ، سائرون تحت ألوية الغدر والعصيان، فلا عجب أن ينطبق على هؤلاء وأولئك ما انطبق على غيرهم؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

إن كلَّ أمةٍ يبتليها الله تعالى بالمحن، ثم لا تلجأ إلى الله تعالى وترجع إليه؛ يأخذها ربُّها على غِرَّةٍ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف] ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

هذا هو شأن الأمم التي خذلت أنبياءها ممَّن قص الله علينا قصصهم في هذه السورة ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف].

فالقلوب المحجوبة والعيون المغلقة تقود أصحابها إلى جهنم، وعلى كلِّ مَن يريد النجاة من النار أن يفتح قلبَه وعينَه؛ فيفكر وينظر ويتأمل في ملكوت السموات والأرض، ويتدبر ما جاء به رسولُ الله ﷺ، فإن حرية الإرادة البشرية لا جدالَ فيها، وإلا سقط تكليفُ الله لخَلْقِه، ولم يعُد هناك حاجة للثواب والعقاب في الآخرة.

وقد نصح الله المسلمين أن يتجنبوا مصارع الأولين، وأن يُحسِّنوا عَلاقَتهم بالله تعالى؛ فيدعونه بأسمائه الحسنى، ويبتعدون عن الشرك والضلال والإلحاد ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ﴾ [الأعراف].

وعلى المسلم ألا يحاول كشف المجهول من الأمور الغيبية، وقد أخفى الله تعالى

موعد قيام الساعة؛ لأن قيامها يهم المعاصرين لها، ولو علموها لاستعدُّوا لها ساعة قيامها، أما غير المعاصرين لها، فإن قيامتهم تقوم من لحظة وفاتهم، ومعرفة وقت قيامها لا يفيدهم في قليلٍ ولا كثيرٍ، وكما بدأت سورةُ الأعراف بالحديث عن آدم، فإنها تعود قرب نهايتها فتتحدث عن ذرية آدم؛ لتبين أن الله تعالى قد غمر أبناء آدم بأَنْعُمِه، فبدل أن يشكروه أشركوا به ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف].

ثم يتجه الخطاب إلى الدعاة إلى الله، وإمامِهم ﷺ، فيندِّدُ بجمود المكذِّبين بالرسالة الخاتمة، ويبيِّنُ كيفية التعامل معهم، وأن على سيِّدِ الدعاة وكلِّ مَن قام بالدعوة أن يصبر ويتحمل الأذى ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف] ففي هذا استعانة على متاعب الطريق، واقتحام لأصعب المسالك وُصولًا إلى النجاح، وإذا كان الشيطان يحاول إضلال بني آدم فإنه لا يملك إلا الوسوسة، والإنسان المؤمن يَدْحَرُ الشيطان، ويهزم هذه الوساوس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف].

إن هذا الذِّكْرَ يعصم من الزلل، ويستبقي الإيمان في قلب العبد، ويجعله أهلًا لرحمة الله ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف].

وذِكْرُ الله تعالى يجب أن يكون موصولًا غير منقطع، ومسيطرًا على السرِّ والعلانية، وباعثًا على الرغبة والرهبة؛ حتى ينتظم العابد مع الكون كلِّه، وهو يسبح بحمد الله ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ وهكذا ملائكة الله لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون.

سُورَةُ الأَنْفَالِ (٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأنفال هي السورة الثامنة في ترتيب المصحف، والتاسعة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة آل عمران وقبل سورة الأحزاب، وهي خمس وسبعون آية في العدد الكوفي[١].

وعدد كلماتها: ألف وست مئة وإحدى وثلاثون كلمة.

وعدد حروفها: خمسة آلاف ومئتان وأربعة وتسعون حرفًا.

وسورة الأنفال سورة مدنية، نزلت في غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة، بعد تسعة عشر شهرًا من الهجرة، وبعد تحويل القبلة بشهرين، ابتدأ نزولُها قبل قسمة غنائم بدر، واستمر نزولها إلى الانصراف من بدر، وهي ثاني سورة ابتدأ نزولها بالمدينة بعد نزول بعض سورة البقرة، وانتهى نزولها بعد نزول بعض آى سورة آل عمران.

وقد عُرِفت هذه السورة باسم (سورة بدر)، وعُرِفت أيضًا باسم (سورة الأنفال)، وغلبت هذه التسمية عليها بعدما كُتِبت أسماء السور في المصاحف في عهد الحجاج.

ووضْعُها في هذا المكان من المصحف هي وسورة براءة أَمْرٌ توقيفي كسائر السور على الأرجح.

مَوْضُوعُ سُورَةِ الْأَنْفَالِ

نزلت سورة بدر؛ لتوجِّه المؤمنين، وتبيِّن لهم عوامل النصر على العدو في خوضهم للمعارك المستقبلية معه، وجاء ذلك في **نداءات ستة** موجهة للمؤمنين، هي بمثابة التربية والإعداد للمعارك:

١ - فحذَّرت من الفرار عند لقاء العدو؛ فإن ذلك من كبائر الموبقات، وتوعَّدت الفارِّين

---

(١) وست وسبعون آية عند أهل مكة والمدينة والبصرة، وسبع وسبعون عند أهل الشام، والآيات المختلف في عددها ثلاث هي: (ثم يغلبون)[٣٦] عدها الشامي والبصري وتركها غيرهما، (كان مفعولا) [٤٢] تركها الكوفي وعدها غيره، (وبالمؤمنين)[٦٢] تركها البصري وعدها غيره.

بأشد العذاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾.

٢- وأمرت بالسمع والطاعة، والبعد عن المعاصي والذنوب، فإن ذلك من أهم عوامل النصر على العدو ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

٣ - وبينت أن سرعة الاستجابة لأوامر الله ورسوله فيها عز الدنيا وسعادة الآخرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [٢٤].

٤- كما بينت أن الحرب خدعة؛ ولذا: فإن أسرار الخطط الحربية، وإفشاء سر المسلمين، وبيان توجُّهاتهم ونيَّاتهم، وتحركاتهم للعدو، خيانة عظمى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

٥- وحثت على تقوى الله تعالى في السر والعلن، وامتثال أمره واجتناب نهيه، وتحكيم شرعه، والخوف من لقائه، وبيَّنَتْ أن ذلك من أكبر عوامل النصر على العدو، ومن أسباب السعادة في الدنيا والآخرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [٢٩].

٦- و يأتي النداء السادس في سورة الأنفال؛ ليحدد سبعة أسس هي مفاتيح النصر على الأعداء، وهي:

(أ) الثبات في مواجهة العدو وعدم الفرار من ساحة القتال ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [٤٥].

(ب) الإكثار من ذكر الله تعالى وطلب النصر منه، ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

(ج) طاعة الله والرسول؛ لأن الاستواء في المعصية مع العدو تجعله يفوقنا بقوة السلاح، وينتصر علينا ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [٤٦].

(د) وحدة الصف ووحدة الكلمة بين الأمة الإسلامية في مواجهة العدو ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وهذا من لوازم عدم الفرقة.

(هـ) عدم الفرقة، وعدم الاختلاف والتنازع فيما بين المسلمين؛ فهو سبب الفشل، وذهاب القوة ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [٤٦].

(و) الصبر عند لقاء العدو، وتحمل المشاق، والمصابرة، والمرابطة ﴿وَاصْبِرُوا﴾.

(ز) عدم الغرور بالنفس، وعدم الفرح والبطر والتكبر؛ فإن الغرور يحصد النصر على العدو، ويؤدي إلى الهزائم والنكسات ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [٤٧].

جاءت هذه التوجيهات السبعة في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾ والآيات بعدها.

وكما تحدثت السورة عن المؤمنين تحدثت عن غير المسلمين الذين يكرهون الجهاد في سبيل الله، ويستهزئون بالإسلام وأهله، ويُمْعِنُون في الجحود واللَّغَط عند تلاوة القرآن الكريم، ويسارعون إلى إنفاق أموالهم في وجوه الشر، وصد الناس عن دين الله، والتآمر على الإسلام وأهله. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ [الأنفال: ٣٦]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥﴾.

وقد شبههم القرآن بالصم البكم الذين لا يعقلون ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ﴾ فهم خونة؛ ينقضون عهدهم في كل مرة.

وقد أمر الإسلام بقتالهم، ومعاملتهم بالمِثْل في نبذ عهودهم، وإعداد العدة المستطاعة لهم؛ حتى يستسلموا ويطلبوا الصلح ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [٦١]. ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ﴾ [الأنفال: ٥٨]

سورة بدر:

وموضوع سورة الأنفال هو الجهاد؛ ولذا فإنها **تبدأ** بالحديث عن تقسيم غنائم المعركة من العدو، وتُفصِّل ما أجملته في أولها بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [٤١].

وتُثْنِي بأوصاف المؤمنين المستحقين للنصر على العدو، وتذكُر عوامل النصر في جميع المعارك، وتبيِّن أن المحادِّين لله والرسول ليسوا أهلًا للنصر، وتصف غزوة بدر بالتفصيل، وتبيِّن وجوب الإعداد للعدو في كل زمان ومكان، وتَذْكُرُ حكم الأسرى، وحكم الولاء والبراء في الإسلام.

والجهاد ركن عظيم من أركان الإسلام، وهو ذروة سنام الإسلام (أعلى شيء فيه)، وهو الذي يحمي الحق ويدعمه، ويقيم العدل بين الناس في الأرض، وبالجهاد تنتشر

دعوة محمد ﷺ، وبالجهاد يُنصَر الحق، ويُدفَع عدوان العدو.

ويوم يتخلَّى المسلمون عن الجهاد، وتُحذف هذه الكلمة المباركة من مناهج تعليم الأبناء تكون بطن الأرض خيرًا لهم من ظهرها.

هذا: وقد كف الله المسلمين عن قتال المشركين في مكة، ثم أَذِن لهم بالقتال في المدينة، ثم فَرَضَ عليهم القتال لمن قاتلهم، دون من لم يقاتلهم، ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة، فكان القتال ممنوعًا في بدء الدعوة، قبل قيام الدولة الإسلامية، ثم أذن الله لهم به دَفعًا للظلم، ثم أَمر به لمن بدأ بالقتال، ثم أمر به بصفة عامة؛ لنشر الدعوة، وإزالة العقبات من طريقها، وقبل غزوة بدر وبعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وقعت مناوشات وسرايا بين المسلمين وغيرهم، لم يحضرها رسول الله ﷺ، وكانت هذه السرايا بمثابة جس النبض واستطلاع قوة العدو.

وسورة الأنفال تتحدث عن أول وأعظم معركة في الإسلام، ولذا: سماها بعض الصحابة سورة بدر، فقد نزلت في أعقاب أحداث غزوة بدر، وقد كان النصر الذي أعطاه الله ومَنَحَهُ للمؤمنين في هذه الغزوة المباركة؛ مُكافأةً من الله سبحانه على الأذى الذي لقيه المستضعفون في الأرض من ضعاف المؤمنين طوال مدة تزيد على عشر سنوات؛ حيث اضطُهدوا في مكة، وأُخرجوا من ديارهم وأموالهم، فكانت مكافأة الله تعالى لهم بعد هذا الصبر الطويل أن أعطاهم هذا النصر العظيم، وكان هؤلاء الجنْد هم أدوات النصر، مصداقًا لقوله سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة]

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] قال تعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [١٧]

وقال سبحانه: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [١٢]

وقال جل شانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾

وقال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ [٢٦].

ولتبيِّن أيضًا الجهد البشري الذي قام به هؤلاء الرجال في الجهاد في سبيل الله، وتخاذل غيرهم ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ [٦، ٧].

أسباب النزول

١ - عن محمد بن عبد الله الثقفي، عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: لما كان يوم بدر قُتل أخي عُمير، وقَتلْتُ سعيد بن العاص، وأخذتُ سيفه، وكان يُسمَّى ذا الكَتِيفَةِ، فأتيت به النبي ﷺ، فقال: «**اذهب فاطرحه في القبَض**» قال: فرجعتُ وبي ما لا يعلمه إلا الله مِنْ قَتْل أخي، وأخْذ سلَبي، فما جاوزتُ إلا يسيرًا حتى نزلتْ سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «**اذهب فخذ سيفك**»(١).

والقبَض بفتح الباء: ما جُمع من الغنيمة قبل أن تُقسَّم.

والسلَب: ما يأخذه المحارب ممن يقاتله.

٢ - وعن عكرمة، عن ابن عباس ﷺ قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: «**من فعل كذا وكذا، فله كذا وكذا، فذهب شباب الرجال، وجلس الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت الغنيمة جاء الشباب يطلبون نفْلهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإنا كنا تحت الرايات، ولو انهزمتم كنا لكم ردءًا، فأنزل الله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾** فقسَّمها بينهما بالسواء»(٢).

---

(١) «مسند أحمد» (٣/ ٧٨) برقم (١٥٥٦) و«تفسير الطبري» (٩/ ١١٧) وفيه انقطاع؛ لأن محمد بن عبد الله الثقفي لم يرَ سعدًا، وقال الحافظ ابن حجر: الصواب أنه العاص بن سعيد بن العاص، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٣٧٠) وابن مردويه، وقال محققو «المسند»: حسن لغيره، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير أن فيه انقطاعًا، وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٦٨٩) وأبو عبيد في الأموال (٧٥٦).

(٢) «سنن البيهقي» (٦/ ٢٩١) و«سنن النسائي الكبرى» (١١١٩٧) و«المستدرك» للحاكم (٢/ ٣٢٦) وصححه، و«سنن أبي داود» برقم (٢٧٣٧) و«تفسير الطبري» (١٣/ ٣٦٧) برقم (١٥٥٢، ١٥٦٥٠) بتصحيح أحمد شاكر وابن حبان في الإحسان برقم (٥٠٩٣) وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٢٣٧٦، ٢٣٧٧) وابن المنذر في «الأوسط» (١١/ ١٤٦) والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ١٣٥) وقوله: كذا وكذا، أي: أن من قتل قتيلًا فله سلبه، ومن أسر أسيرًا فله كذا.

٣ - وعن عطاء بن رباح ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من دابة، أو عبد، أو أَمَة، أو متاع، فهو نفْل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء[١].

وهذا يعني أن المراد بالأنفال: الفيء، وهو ما أُخذ من الكفار من غير قتال.

٤ - وأخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ فشهدتُ معه بَدْرًا فالتقى الناس، فهزم الله العدو، فانطلقتْ طائفة في آثارهم يهزمون ويقتُلون، وأكبَّتْ طائفة على العسكر يحْوُونه ويجمعونه، وأحدقتْ طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غِرَّةً، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نحن نفيْنا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقْنا برسول الله ﷺ، وخفْنا أن يصيب العدو منه غرة، فاشتغلْنا به؛ فنزلت ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ فقسَّمها رسول الله ﷺ بين المسلمين[٢].

٥- في صحيح مسلم وغيره أن سعدًا قال: نزلتْ فيَّ أربع آيات، وذكر منها أنه أصاب سيفًا فأتى به النبي ﷺ، وطلب منه أن يأخذه لنفسه -ثلاث مرات- والرسول ﷺ يقول له: «**ضعه من حيث أخذْته**» فنزلت: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾[٣].

والآيات الثلاث الباقية في بر الوالدين، والوصية بالثلث، وتحريم الخمر.

٦- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: «**من قتل قتيلًا فله كذا وكذا، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا**» فجاء أبو الْيَسَر بن عمرو الأنصاري بأسيرين، فقال: يا رسول الله، وعدتنا، فقام سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن أعطيتَ هؤلاء

---

(١) وهذا الأثر في «تفسير الطبري» (١٣/ ٣٦٥) بسند صحيح وعند ابن أبي شيبة (١٢/ ٤٢٦) والنحاس ص ٤٥٧ .

(٢) «المسند» (٢٢٧٦٢) وقال محققوه: حسن لغيره، ورواه الترمذي برقم (١٥٦١) وقال: حديث حسن، وكذا ابن ماجه برقم (٢٨٥٢) وكلاهما من حديث سفيان الثوري، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، و«المستدرك» (٢/ ١٣٦) و«صحيح ابن حبان» في الموارد برقم (١٦٩٣) وسعيد بن منصور (٩٨٢) و«سنن الدارمي» (٢٤٨٢) وابن أبي شيبة (١٤/ ٤٥٦).

(٣) يُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (١٦٢٨، ١٧٤٨) و«مسند الطيالسي» برقم (٢٠٥) والبخاري (٢٤) والبيهقي في «الشعب» (٧٩٣٢).

لم يبقَ لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الآخرة، ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك، نخاف أن يأتوك من ورائك فتشاجروا، ونزل القرآن ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ ونزل ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾[١].

وجاءت روايات أخرى في أسباب نزول الآية وما بعدها، وعلى كلٍّ فإن جمهور العلماء على أن الآية نزلت في غنائم بدر لما اختلف الصحابة فيها، فقال بعضهم: نحن الذين حرزنا الغنائم، وقال آخرون: نحن الذين تتبعنا العدو فهزمناه وقتلناه، وقال غيرهم: نحن أحدقْنا برسول الله حتى لا يمسه العدو، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فأنزل الله الآية.

وصح عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرأ في صلاة المغرب بسورة الأنفال في الركعتين[٢].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» برقم (٩٤٨٣) عن الثوري وابن عساكر (٢٠/ ٢٥٠)وانظر حديث ابن عباس السابق.

(٢) يُنظَر: حديث أبي أيوب عند الطبراني (٣٨٩٢) وحديث زيد بن ثابت عند الطبراني أيضًا (٤٨٢٤) كلاهما بسند صحيح كما قال الهيثمي فيهما «مجمع الزوائد» (٢/ ١١٨).

سُورَةُ التَّوْبَةِ (٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَة

سورة التوبة هي السورة التاسعة في ترتيب المصحف، والثالثة عشرة بعد المئة في ترتيب النزول، وعدد آياتها مئة وتسع وعشرون آية عند أهل الكوفة، ومئة وثلاثون آية عند غيرهم.

وهي ألفان وأربع مئة وسبع وتسعون كلمة، وعشرة آلاف وثمان مئة وسبعة وثمانون حرفًا.

أَسْمَاءُ السُّورَة

وسورة التوبة لها أكثر من ستة عشر اسمًا، أشهرها:

١- التوبة. ٢- وبراءة

وقد جاء هذان الاسمان في حديث زيد بن ثابت ﷺ في جمْع القرآن، قال: فتتبعتُ القرآن حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ حتى خاتمة سورة براءة[1].

وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب ﷺ قال: آخر سورة نزلت كاملة سورة براءة[2]. ولعل المقصود آخر سورة طويلة، وإلا فقد نزل بعدها سورة النصر في منى في حجة الوداع.

وهذه تسمية لها بأول كلمة منها (براءة).

١- وسميت سورة التوبة؛ لأن الله تعالى أنزل فيها التوبة للذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك، وأنزل فيها توبة المؤمنين الصادقين، وفيها أيضًا دعوة للمشركين للتوبة كما في أولها (فإن تابوا...)

٢- وسميت سورة براءة؛ لأن فيها البراءة من المشركين إلى يوم القيامة.

٣- وتسمى أيضًا السورة الفاضحة؛ لأنها فضحت أحوال المنافقين، وكشفت أسرارهم.

---

(١) «صحيح البخاري»، باب جمع القرآن برقم (٤٩٨٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٣٤٦) وانظر: رقم (٤٦٥٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٦١٨).

كما في البخاري وغيره عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس ﷺ: سورة التوبة، قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى ظنوا أنها لم تُبقِ أحدًا منهم إلا ذُكروا فيها(١).

٤- وتسمى المخزية. أي التي أخزت المنافقين وأذلَّتهم.

٥- والمنكِّلة، لأنها نكّلتْ بالمنافقين.

٦- والمُبَعْثِرة؛ لأنها كشفت من أسرار الناس.

٧- والمثيرة، لأنها أثارت ما انطوت عليه سرائر المنافقين.

٨- والمشدِّدة، أي التي شددت على المنافقين الخارجين عن طاعة الله والرسول.

٩- والمدمدِمة، أي المدمرة التي تعم المنافقين بعقاب.

١٠- والحافرة؛ لأنها تحفر عما في القلوب.

١١- والمدمِّرة، التي أنذرت المنافقين بالهلاك.

١٢- والمنقِّرة، أي التي نقّرت وأخرجت ما في صدور أهل النفاق.

١٣- والمقشقِشة، أي: التي تُبرئ من الشرك والنفاق كإبراء المريض من علته.

١٤- والباحثة عن النفاق وأهله.

١٥- والمشرِّدة. ١٦- وسورة العذاب.

عن حذيفة ﷺ قال: يسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب، والله ما تركت واحدًا إلا نالت منه(٢).

وهي سورة مدنية باتفاق، واستثنى بعضهم ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسۡتَغۡفِرُوا

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٨٢) و«صحيح مسلم» برقم (٣٠٣١).

(٢) الطبراني في «الأوسط» برقم (١٣٥٢) وفي «الكبير» (١٣٣٠) وابن أبي شيبة (١٠/ ٥٥٤) و«المستدرك» (٢/ ٣٣٠) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٨): ورجاله ثقات وأبو عبيدة برقم (٤٤٦) وإسناده حسن.

﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [١١٣] فإنها نزلت لما وعد النبي ﷺ أبا طالب بالاستغفار له وهو في مرض الموت، كما سيأتي عند تفسير الآية.

عن عطية الهمداني قال: كتب عمر بن الخطاب ﷺ: تعلَّموا سورة براءة، وعلِّموا نساءكم سورة النور[١].

ترك البسملة في أولها: وسورة براءة هي السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي لا توجد البسملة في أولها، والقول الصحيح في ذلك: أن جبريل لم ينزل بالبسملة في صدر سورة براءة، فلم توجد فيها البسملة في المصحف لذلك، دون غيرها من السور، وموافقة رسم المصحف شرط في صحة القراءة، والأصل في ذلك التوقيف، وفي هذا دليل قاطع على وجوب قراءة البسملة في أول كل سورة عدا سورة براءة، سرًّا في الصلاة السرية، والقراءة السرية، وجهرًا في الصلاة الجهرية، والقراءة الجهرية، على تفصيل فِقْهِيٍّ في ذلك بالنسبة للصلاة، سبق ذكره في سورة الفاتحة.

ومما يُذكر في عدم ذكر البسملة في أول براءة:

١- أن من عادة العرب أنهم كانوا إذا كتبوا نقضًا للعهد حذفوا منه البسملة، ولَمَّا أرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ؛ ليقرأ على المشركين نقْض عهودهم لم يقرأ البسملة في أول براءة، جريًا على عادة العرب أنهم كانوا لا يذكرون البسملة في الوثيقة التي تُنقض فيها العهود.

عن عَسْعَس بن سلامة قال: قلت لعثمان: يا أمير المؤمنين، ما بال الأنفال وبراءة ليس بينهما: (بسم الله الرحمن الرحيم)؟ قال: كانت تنزل السورة، فلا تزال تكتب حتى تنزل: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فإذا جاءت: (بسم الله الرحمن الرحيم) كُتبت سورة أخرى، فنزلت الأنفال، ولم تكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)[٢].

---

(١) أبو عبيدة في «فضائل القرآن» ص١٢٩ وما بعدها وسعيد بن منصور في «التفسير» (١٠٠٣) والبيهقي في «الشعب» (٢٤٣٧، ٢٤٥٢).

(٢) أخرجه الدارقطني في الأفراد، يُنظَر: «علل الدارقطني» (٣/ ٤٣) مختصرًا على أوله، وانظر: «الدر المنثور» (٧/ ٢٢٤).

٢- وأيضًا: فإن المشركين في السنة السادسة من الهجرة عند كتابة صلح الحديبية مع رسول الله ﷺ لمَّا أراد أن يكتب في بداية شروط الصلح: (بسم الله الرحمن الرحيم) قالوا: لا، نحن لا نعرف (الرحمن الرحيم)، ولكن اكتب: (باسمك اللهم)، فردُّوا البسملة، ولم تُكتب في شروط صلح الحديبية، فلما نقض الله هذا الصلح كما جاء في مطلع سورة براءة لم يردَّ عليهم البسملة التي ردُّوها، فالله سبحانه لم يذكرها لهم في نقض العهد؛ لأنهم لم يقبلوها حين كتبت شروط صلح الحديبية.

٣- وقال علي بن أبي طالب لابن عباس ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم) أمانٌ وبشارة، و(براءة) نزلت بالسيف ونبذ العهود، فلذلك لم تبدأ بالأمان[١].

٤- قال القرطبي: والصحيح أن التسمية لم تكتب؛ لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها في هذه السورة[٢]. قلت: هذا هو الصواب.

- وقال الفخر الرازي: الصحيح أنه ﷺ أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الأنفال وحيًا، وأن حذْف ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ من أولها وحيًا[٣].

- وقال الجمل: لا مدخل لرأي أحد في الإثبات والترك، وإنما المتَّبع في ذلك هو الوحي والتوقيف[٤].

فالقاريء يبدأ سورة التوبة بالاستعاذة ولا يبسمل، وله أن يبسمل بعد الاستعاذة في أثنائها، وإذا وصل آخر الأنفال بأول براءة فله أن يأتي بوجه من ثلاثة وجوه هي: وصل السورتين ببعضهما هكذا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧٥ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ. . .﴾ أو يقف

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/٣) وقد أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس كما في «الدر» (٧/ ٢٢٧).

(٢) «تفسير القرطبي» (٨/ ٦١) ويذكر المفسرون في ذلك حديثًا يُنسب إلى النسائي والترمذي عن يزيد الفارسي، وهو مجهول الحال، وفيه ما ينسب إلى عثمان ﷺ أنه قال: إن النبي ﷺ قُبض ولم يبين موضع سورة التوبة من الأنفال، فقرنها عثمان بها، ولم تكتب البسملة في أولها. وهذا حديث لا يصح، قال عنه السيوطي في تدريب الراوي: عليه أمارات الوضع، وكلٌّ من الأنفال والتوبة سورة مستقلة، وبينهما زمن في النزول يقدر بسبع سنوات.

(٣) «تفسير الفخر الرازي» (١٥/ ٢١٦).

(٤) حاشية الجمل على «الجلالين» (٢/ ٢٦١).

مع التنفس على أخر الأنفال ثم يبدأ (براءة..) أو يسكت على آخر الأنفال سكة خفيفة بدون تنفس ثم يبدأ (براءة..) فهذه ثلاثة أوجه.

والأنفال والتوبة سورتان وإن لم تذكر البسملة في أول التوبة، وبينهما في النزول نحو سبع سنين، فقد نزلت سور الأنفال في السنة الثانية للهجرة، ونزلت سورة التوبة في السنة التاسعة للهجرة.

مناسبة سورة التوبة لما قبلها

وجاء ترتيب سورة التوبة بعد سورة الأنفال؛ لما بينهما من تناسب وتشابه في المعنى:

١- فقد أجملت سورة الأنفال عهود المشركين ونقْضها، فهم الذين ينقضون عهدهم في كل مرة، وهم لا يتقون، وسورة التوبة فصَّلت هذه العهود، ووضحت نقْضها.

٢- وذكرت سورة الأنفال نقض العهد عند الخوف من خيانة الأعداء، ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] وبيَّنت هذه السورة قتال المشركين وأهل الكتاب لخيانتهم.

٣- وذكرتْ سورة الأنفال صدَّ المشركين للناس عن المسجد الحرام، وبيَّنتْ هذه السورة أن المشركين ليس لهم أن يعْمُروا مساجد الله، وإنما يعْمرهُ المؤمنون بالله ورسوله.

٤- وذكرتْ سورة الأنفال وجوب إعداد العدة لقتال العدوِّ، ونعتْ هذه السورة على المنافقين أنهم لو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عدَّة.

٥- وقد ذكرتْ سورة الأنفال صفات المؤمنين في أولها، وذكرتْ صفات الكافرين بعد ذلك، وبيَّنت حكم الولاية بينهم، وصرحتْ هذه السورة بوجوب البراءة من الكفار بالكُلية.

٦- وكما تحدثت سورة الأنفال عن غزوة بدر تحدثت هذه السورة عن غزوة تبوك، وهكذا، كما ما بيْن السورتين من تشابه، وصور تاريخية.

وقت نزولها: وسورة براءة لم ينزل بعدها سورة كاملة إلا سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ وكان نزولها بعد سورة الفتح، وفيها نعْي لرسول الله ﷺ بقُرب وفاته، كما فَهم ذلك الصِّدِّيق رضوان الله تعالى عليه فبكى، وذكر أن الله جلَّ شأنه نعى

رسوله للأمة، وبيَّن أن الله تعالى أكمل له الدين، وأتم عليه النعمة، وتم له النصر، وفَتْحُ مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فلم يبق إلا الاستغفار والتسبيح.

وقد سمع أعرابي سورة براءة فقال: أَظُنُّ هذه من آخر ما أنزل الله على رسوله، فقيل له: لم تقول ذلك؟ فقال: أرى أشياء تُنقض وعهودًا تُنبذ.

وسورة التوبة نزل بعضها قبل غزوة تبوك، ونزل بعضها بعد الغزوة وفي أثنائها، وغزوة تبوك كانت في السنة التاسعة من الهجرة، وهي آخر غزوات النبي ﷺ، وكانت هذه الغزوة في شهر رجب، في شدة الحر، حين طابت الثمار، وفي أبعد سفر من المدينة وقتها، وهذا التاريخ من العام التاسع كان قبل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بخمسة عشر شهرًا، وبعد اثنين وعشرين عامًا من نزول الوحي على رسول الله ﷺ .

محتويات السورة: وكان نزول هذه السورة على النحو التالي:

١- من الآية الأولى إلى الآية الثامنة والعشرين في **العلاقة بين المسلمين والمشركين**.

٢- ومن الآية التاسعة والعشرين إلى الآية السابعة والثلاثين في **العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب**.

٣- ومن الآية الثامنة والثلاثين إلى الآية الخامسة والأربعين في **المتثاقلين عن غزوة تبوك وفضح شأنهم**.

٤- ومن الآية الثامنة والأربعين إلى الآية السادسة والستين في **فضح المنافقين** ومن ذلك، أكثر من نصف السورة في أماكن متفرقة.

٥- ومن الآية السابعة والستين إلى نهايتها **صنَّفت الناس إلى: مهاجرين، وأنصار، وأعراب، ومنافقين، ومتخلفين، ومخلصين**.

أبو بكر أميرٌ على الحج عام نزول السورة:

فقد كانت غزوة تبوك في شهر رجب، ونزلت أول سورة براءة في آخر السنة التاسعة، أي: قُبيل موسم الحج، في آخر شهر ذي القعدة من السنة التاسعة من الهجرة، بعد أن خرج أبو بكر ﷺ من المدينة متوجهًا إلى مكة أميرًا على الحج.

لماذا لم يحج الرسول ﷺ قبل العام العاشر؟

وكان النبي عليه الصلاة والسلام لم يؤدِّ فريضة الحج إلى العام التاسع من الهجرة على أصح الأقوال، وعزم عليه الصلاة والسلام أن يحج قبل وفاته، ولكنه تذكَّر أن هناك **سببيْن** يمنعانه من الحج في العام التاسع من الهجرة:

السبب الأول: هو التقديم والتأخير الذي حصل في الأشهر، وهو ما يسمى بالنسيء ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ [٣٧] وقد كان المشركون إذا أرادوا أن يستحلوا القتال في الأشهر الحرم أخّروا فيها وقدّموا، فترتب على ذلك أن يأتي شهر المحرم مكان شهر صفر، ويأتي شهر ذي القعدة مكان شهر ذي الحجة، أي: في غير موعده، فكان الحج في العام التاسع، في شهر ذي القعدة، ولذا خرج أبو بكر ﷺ أميرًا على الحج في هذا العام، وكانت وقفة عرفة في غير التاسع من ذي الحجة، وكان يوم النحر في غير العاشر من ذي الحجة، بل كان في شهر ذي القعدة.

ولذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام لمَّا حج في العام التالي -أي: في السنة العاشرة- خطب في الناس في حجة الوداع، وقال: «**ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض**» ومعنى: استدار كهيئته، أي: جاءت وقفة عرفة يوم التاسع، وجاء يوم النحر في موعده يوم العاشر من ذي الحجة.

هذا هو السبب الأول الذي لم يجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يخرج بنفسه للحج في العام التاسع.

والسبب الآخر: أن القرآن ظل يتنزَّل على رسول الله ﷺ، ويعامل أعداء الإسلام معاملة هيِّنة، يسالم مَنْ سالَمه، ويدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومع أن الأصنام كانت قد حُطِّمت من جوف الكعبة عام الفتح إلا أنه بقي من أعمال المشركين مخالفات، منها:

١- أنهم يخالطون المسلمين في الحرم.

٢- وأنهم يشركون في التلبية، فيقولون: إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.

٣- ومنهم من يطوف بالبيت وهو عارٍ، ليس عليه شيء من الملابس.

٤- وكان بين النبي ﷺ وبين المشركين عهد لم يزل قائمًا.

وكان ﷺ قد صالح قريشًا عام الحديبية على وضع الحرب عشر سنين فنقضوها.

ثم فتح الرسول ﷺ مكة في العام الثامن، وكان المشركون يطوفون بالبيت عرايا، ولذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام أرسل أبا بكر في العام التاسع من الهجرة أميرًا للحج؛ ليطهر البيت من أعمال المشركين وليقيم للناس مناسك الحج، وبعث معه أربعين آية يقرؤها على الناس في الحج، ثم أردفه بعلي بن أبي طالب؛ ليقرأ على الناس من أول السورة إلى نهاية الآية الأربعين قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

نزول صدر سورة براءة لنقض عهد المشركين

ولما ذهب أبو بكر ﷺ ووصل إلى ذي الحُلَيْفَة أنزل الله سبحانه على رسوله ﷺ صدر سورة براءة، وفيها البراءة من المشركين.

والأمر بأن لا يدخل البيت الحرام بعد هذا العام مشرك ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [٢٨]

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [١٧]

وألا يطوف بالبيت عريان.

وسورة براءة لم تنزل بالسيف كما يقال، وإنما ظل الإسلام طوال اثنين وعشرين عامًا ينزل بمثل هذه الآيات:

١- ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس].

٢- وقوله: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ]

٣- وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون].

٤- وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

٥- وقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام].

٦- وقوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]

٧- وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [يونس].

بمثل هذه الآيات ظل الوحي يتنزّل على رسول الله ﷺ وكانت هذه هي السياسة المتبعة في معاملة أعداء الإسلام، ولكنهم رفضوا أن تشق الدعوة طريقها، فاشتبكوا مع الإسلام في قتال انتهى بهزيمتهم، ولكنهم لم يعترفوا بالواقع ولم يتراجعوا عن العدوان، وظلوا يستأنفون الغدر بالإسلام والفتك بأهله، فكان لا بد من تأديب العابثين وإلزامهم حدود الأدب، فصَدَرت البراءة من الله ورسوله ضد هذه القوى الظالمة، فالإسلام لم يتعسف معهم.

المَقَاصِدُ الإِجْمَالِيَّةُ لِسُورَةِ التَّوْبَةِ

أَوَّلًا: نَقْضُ عُهُودِ مَنْ نَقَضُوا العَهْدَ

عرضت السورة إلى عهود المشركين فوضعت لها حدًّا، وقطعت الولاية بينهم وبين المسلمين، ووضعت الأساس لقبول بعض أهل الكتاب في جزيرة العرب، وذلك في مثل قوله تعالى ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ الآية: ٢٩] فجعلت الآية دفع الجزية مشروطا بذلك.

وألغت السورة العهود والمواثيق التي كانت بين الرسول ﷺ وبين اليهود، فليس من الحكمة أن يحتفظ الإسلام بعهود قوم نكثوها مرات ومرات؛ ومن ذلك عهد المشركين الذي أبرموه عام الحديبية مع رسول الله ﷺ ولم يلتزموا بما فيه.

وفي أثناء تأديب المعتدين يظهر أقوام لا يريدون قتالًا، ولا يفكرون فيه، فيأمر الإسلام بتأمينهم وطمأنتهم وإعادتهم سالمين إلى أرضهم ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ التوبة: [٦] وسماع كلام الله يتحقق بكل وسيلة من وسائل الدعوة والإسلام.

لقد أعطى الإسلام المشركين مهلة قدرها أربعة أشهر؛ ليرجعوا عن خطيئتهم، وأفهمَهم

أن ذلك ليس عن ضعف، فلا تنخدعوا بقوتكم المزعومة؛ فإن الغدر له عواقب وخيمة، فكيف تُحفظ عهودهم، وهم لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة؟! ولذا لزم تأديبهم ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ [١٢]، وهم قوم نكثوا أيمانهم وهمُّوا بإخراج الرسول، وبدؤوا بالغدر والخيانة، وأساؤوا للمسلمين مدة طويلة، تقترب من ربع قرن، وألحقوا بهم إهانات وجراحات، وملؤوا صدورهم غيظًا وحنقًا عليهم.

لقد عاملهم الإسلام خلال اثنتين وعشرين سنة بأرحم ما يعامَل به البشر، وإزاء خيانتهم ونقضهم للعهود لم يكن بدٌّ من إعلان البراءة منهم، ونبذ عهودهم، وإمهالهم مدة ينتهي فيها وقت الأمان، مع بيان الأسباب التي دعت إلى البراءة منهم ووجوب قتالهم، ومن ثَمَّ حرَّضت المؤمنين على قتالهم، وبيَّنت أنهم لا يحق لهم عمارة بيوت الله، ولا دخول حرم الله الآمن.

ووجهت السورة إلى ترك محبتهم، وبيَّنت أن من يقدِّم محبة الدنيا بما فيها ومن فيها على الجهاد في سبيل الله؛ فإن عاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة.

وقد نعت السورة على المتكاسلين عن الجهاد وحذَّرتْهم من سوء العاقبة: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ التوبة.

ثَانِيًا: مُعَامَلَةُ أَهْلِ الكِتَابِ:

وبعد الهجرة إلى المدينة خاض المسلمون مع أعدائهم نحو ثلاثين غزوة وسَرِيَّة، فكم بلغت خسائر الأعداء في هذه المعارك؟ إنها لا تبلغ عُشر معشار مذبحة قانا، أو صبرا وشاتيلا، أو البوسنة والهرسك، أو العراق، أو فلسطين، أو أفغانستان، أو الجمهوريات الإسلامية تحت الحكم الشيوعي، أو ...، أو ... لم يُقتل من الأعداء في معارك الإسلام أكثر من مئتي قتيل، فإذا أضفنا إليهم يهود بني قريظة فإنهم لم يبلغوا الألف في تاريخ الغزوات، والسرايا النبوية.

والفتوحات العُمريَّة في مصر والشام والعراق كانت في مواجهة احتلال دولتي الفرس والروم لهذه البلاد لتحرير شعوبها من الذل والاستغلال، حتى قضى الإسلام على نفوذ هاتين الدولتين في تلك البلاد وغيرها.

وكان الرومان قد أوصدوا باب الدعوة في شمال الجزيرة.

والإسلام لا يعترض طريق الآخرين الذين لم يعترضوا طريقه، ولا طريق الذين سالموكم ولم يقاتلوكم ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

والجزية لم تُفرض على مُحايد ترَكَ قتال المسلمين، ولم تُفرض على من انخرط في الجيوش التي تحمي الوطن، وشاركت في أمن البلاد والدفاع عنها، وإن كان مختلفًا في عقيدته، وإنما فرضت الجزية عليهم مقابل حمايتهم والدفاع عنهم وانتفاعهم بالأمن والأمان في بلاد المسلمين، وعدم مشاركتهم للمسلمين في الدفاع عن الوطن، فإن فعلوا ذلك فلا جزية عليهم.

ومحمد ﷺ قد بُعث هاديًا، ولم يُبعث جابيًا، ولذا فقد نَضَبت موارد الخزانة من طريق الجزية لكثرة من دخلوا في دين الله من مصر وخراسان وأقطار أخرى، ولم يبقَ للجزية وجود، كما هو الحال في شأن الأرقّاء.

وكما انتهت الوثنية في الجزيرة فقد خرج اليهود من آخر معاقلهم في خيبر سنة سبع من الهجرة، وجاء وفود النصارى إلى المدينة يستمعون إلى الوحي الجديد، فأسلم بعضهم وانشرح صدره، ومنهم من لم يُسلم، حتى طلب النبي ﷺ منهم المباهلة فأبوا ودفعوا الجزية.

ومع أن الإسلام كان الصوت الوحيد الذي بشَّر بنصر الروم على الفرس مرة أخرى بعد هزيمتهم، وأنه أمر المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة، فقد كان الإسلام واضحًا كل الوضوح في إنكار التثليث، ورفض ألوهية عيسى أو بنوَّته، واعتبر عيسى وأمه وجبريل من عباد الله الصالحين، مع التأكيد على نبوة عيسى عليه السلام.

وكان مما نزل من ذلك في سورة براءة ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾.

ثَالِثًا: الكَشْفُ عَنْ نَوَايَا المُنَافِقِينَ:

فقد فضحت السورة المنافقين وأخزتْهم، وأظهرتْ ما تنطوي عليه نفوسهم، وبيَّنت مسالكهم الخبيثة، وصفاتهم الذميمة في مجالات كثيرة، منها:

١- الفرار من مواطن الجد والجهاد، والتعلل بالأعذار الكاذبة، والتستر بالأيمان الفاجرة، كقوله تعالى عنهم: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [٤٢]

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [٤٩]

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ [٨١].

٢- إشاعة الفتنة بين صفوف المجاهدين متى وُجدوا، وأينما حلُّوا ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [٤٧].

٣- محبة السوء للمسلمين، وكراهية الخير لهم ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [٥].

٤- التظاهر بالإسلام تَقِيَّة وجُبْنًا عن التصريح بالكفر ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [٥٦].

٥- طعْنهم في جناب النبي ﷺ عند قسمة الأموال، وتوزيع الصدقات لإشاعة التهم الباطلة ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [٥٨].

٦- وصْفهم للرسول ﷺ بأنه يستمع إلى كل ما يقال له دون تثبُّت ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [٦١].

٧- استهزاؤهم بالإسلام وأهله، واعتذارهم بأنهم لم يكونوا جادين ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [٦٥].

٨- سخْريتهم من فقراء المسلمين الذين يتصدَّقون بما لديهم من القليل ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [٧٩].

٩- نقْضهم للعهد، وبخلهم بالمال، قال تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ [٧٥، ٧٦]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [٥٣].

١٠- خداع المسلمين للإضرار بهم، والتفريق بينهم في إقامة مسجد الضرار وغيره. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الآية: ١٠٧]

وهكذا رسمت السورة المنهج الذي يسير عليه المسلمون مع غيرهم في الداخل والخارج، إلى جوار الحديث عن الزكاة ومصارفها، وقصة الثلاثة الذين خُلِّفوا، والكلام عن الأشهر الحرم، والتأخير والتقديم فيها، ووجوب طلب العلم.

ثم تحدثت السورة قُرب نهايتها عن المؤمنين الصادقين الذين باعوا أنفسهم لله بجنة عرضها السموات والأرض، وأمرتْهم ألا يستغفروا للمشركين، وأن يكابدوا الشدائد في جهاد الأعداء، وحكمتْ على المتخلفين عن الغزو في سبيل الله، فمنهم المنافقون، ومنهم الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، ومنهم المرجَوْن لأمر الله.

وخُتمت السورة بالثناء على رسول الله ﷺ فوصفتْهُ بالرأفة والرحمة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

سُورَةُ يُونُسَ (١٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورةُ يونس هي السورة العاشرة في ترتيب المصحف، والحادية والخمسون في ترتيب النزول، نزلتْ بعد سورة الإسراء، وقبل سورة هود، سنة إحدى عشرة من البعثة غالبًا، وهي مئة وعشر آيات عند أهل الشام، ومئة وتسع آيات عند بقية علماء العَدَدِ، وهي ألف وثمان مئة واثنتان وثلاثون كلمة، وتسعة وتسعون حرفًا.

وقد انفردتْ هذه السورة بأن قوم يونس لمَّا آمنوا قبل نزول العذاب بهم؛ عفا الله عنهم، ورفع عنهم العذاب.

وسُمِّيت سورة يونس لهذه الخصوصية، وإلا فقد ذُكِرَ يونس عليه السلام في آيات أخرى، في سور: النساء والصافات وغيرها، وجاء ذكره هنا في آية واحدة من السورة.

وسورة يونس والسورتان بعدها (هود ويوسف) من السور التي نزلت على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، فهي تُخاطب مشركي مكة وقتها، وتخاطب الكفار والمشركين إلى يوم الساعة، وأَحسب أن القول بمدنيَّة بعض آياتها ناشئٌ عن ظن أن ما في القرآن من مجادلة أهل الكتاب لم يَنْزِل إلا بالمدينة، وهو قولٌ ليس على إطلاقه، وفي هذه السور الثلاث قَصَصٌ من القرآن الكريم، وفيها المهمة الأساس التي يتعرض لها القرآن الذي نزل في مكة، وهو يعالج **ثلاث قضايا**:

الأولى: قضية الإيمان بالوحي المنزَّل من السماء، وأن هذا القرآن من عند الله سبحانه، أَنزله على رسوله محمدٍ ﷺ، وهذه هي قضية الوحي والرسالة.

والثانية: قضية تصحيح العقيدة، فقد كان المشركون يعترفون بوجود الله سبحانه، وأنه الخالق الرازق، ولكنهم يعبدون أصنامًا يزعمون أنها تشفع لهم عند الله سبحانه، وأنها تقرِّبهم من الله ، فالقرآنُ المكيُّ يُصحِّحُ العقيدة، ويقيم الأدلة والبراهين العقلية والنقلية على أن الله سبحانه خالقُ هذا الكون بما فيه ومَن فيه، وهو وحده جل شأنه الذي تُصرف إليه العبادة دون سواه.

والثالثة: قضية الإيمان بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء على الأعمال من جنة أو نار.

هذه القضايا الثلاث، هي المحور الأساس الذي تدور حوله السور المكية، أو القرآن المكي.

وسورة يونس ستة أثمان، أو ستة أرباع، يقال: ربع الحزب، أو ثُمن الجزء؛ في الربعين الأخيرين منها طَرَف من قصة يونس عليه السلام.

وسُميت السورة باسمه؛ لذِكْرِه فيها، والأربعة أرباع الأُولى من السورة تتناول القضايا الثلاث التي تحدثْتُ عنها، وهي السورة المكية الثالثة في ترتيب المصحف، وقبلها سورتا الأنعام والأعراف مكيتان، وما عدا ذلك ممَّا سبق فهي سور مدنية.

قضايا السورة: وبعد بَدْءِ سورة يونس ببعض حروف الهجاء، أشارتْ إلى القرآن الكريم في أوَّلِ آيةٍ منها، وأَتْبَعَتْ ذلك بإثبات رسالة محمدٍ ﷺ، ومِن ثَمَّ إلى توحيد الله سبحانه، وانفراده بالخَلْقِ، ثم بإثبات البعث والحشر والجزاء، وهذه الثلاثة هي أصول الشرك، ومقاصد السور المكية.

وقد تخلل ذلك قيامُ الدلائل على كلٍّ منها، والتذكير بما حلَّ بالقرون المشْرِكة بالله تعالى، المكذِّبة لرسل الله صلوات الله عليهم أجمعين، والاعتبار بآثار القدرة الإلهية في البَر والبحر، مع ضرب المثل بالحياة الدنيا، واختلاف أحوال الناس في الآخرة، وإثبات أن القرآن مُنزَّلٌ من عند الله سبحانه، وإنذار المشركين، وتبشير المؤمنين، والاعتبار بما حَدَثَ للأمم السابقة؛ من قوم نوح، وموسى، وهارون... إلخ.

وبعد ذِكْرِ مصارعِ الظالمين يُلْفتُ القرآن نَظَرَ أمةِ محمدٍ ﷺ إلى الاستفادة بما حدث لمَن قَبلهم ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس].

وتدعو السورة الناسَ جميعًا إلى الإقبال على الله تعالى، والدخول في مِظَلَّةِ خاتَم الرسل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]

وهاتان الآيتان من السورة توضحان أن هداية الإنسان تعود عليه، وضلاله يعود عليه ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [الآية: ١٠٨].

وعلى الرسول ﷺ وكلِّ داعيةٍ إلى الله تعالى أن يَصْبِرَ على جهود الدعوة، ويتحمل الأذى في سبيل الله، فإن مصيرَه إلى خير، وفَصْلَ القضاء في صالحه ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الآية: ١٠٩].

وقد رفض بعضُ الناس هدايةَ القرآن كما في قوله تعالى من السورة: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾ [الآية: ١٥]

أي: قل يا محمد، كلامًا آخر تمدح فيه آلهتنا، وتُقرُّ فيه بأحوالنا وتقاليدنا.

والجواب: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ الآية: [١٥].

ويبين لهم الرسول ﷺ أنه قد مكث فيهم أربعين سنة دون أن يتلوَ عليهم وحيًا، أو يصحح لهم دينًا ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الآية: ١٦].

ويردُّ القرآن عليهم في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ [الآية: ٣٩]

وفصَّلَ القرآنُ تكذيبهم هذا في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس].

لقد كَابَرَ أهلُ مكة وقاوموا الإسلام مُقَاوَمَةً شديدة من أول ظهوره، وقادوا المعركة ضدَّه نحو عشرين سنة، ثم دخلوا فيه بعد ذلك، وأخلصوا له أشد الإخلاص، وحملوا لواءه، وحَموا كَعْبته.

والسبب في ذلك أن القرآن نَزَلَ عليهم يُحَرِّكُ عقولهم، ويشغل فكرَهم، ويدفعهم بقوة نحو ربهم.

ومن العجيب أن العلمانيين والملاحدة والماديِّين، لم ينتفعوا بما انتفع به عَبَدَةُ الأوثان والأصنام؛ ذلك أن الناس في أوربَّا وأمريكا وأمثالهم هنا وهناك حيث تمتد الحضارة المادية المعاصرة، لا يهتمون بالله تعالى ولا بلقائه، إنهم يعملون للحياة المادية فَحَسْب ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم].

لم يكلِّفْ هؤلاء أنفسَهم النظر في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الآية: ٣]

ولا في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الآية: ٣١].

إنَّ المُزَارِعَ يضع حَبَّةً في الأرض؛ فتُخرج ألف حبة، فَمَنْ ينبتُ من الطين كريم الطعم والرائحة مثل قصب السكر، وأصناف الفاكهة، وألوان الحبوب والخضراوات؟ ومَن يحوِّل ذلك إلى أزهار ووُرود تَفُوحُ منها رائحة العطور؟ ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [الآية: ٣٢].

إنَّ الإنسان تَمُرُّ به أيام وساعات عَصِيبَة، يَعْتَصِرُ فيها ألمًا وعجْزًا وحُزنًا؛ فيهرع طالبًا النجدة من الكروب؛ فإذا انكشف همه وغمه؛ فترت حرارته ونسي مَن كان يدعوه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [الآية: ١٢]

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الآية: ٢٣].

هذا هو الإسلام، يربط العبد بربِّه، ويبعده عن الشرك، ويعلِّق رغبته ورهبته بالله، ويجعله يتعامل مع الناس على هذا الأساس، وإلى هذا دعا نوح، وهود، ويونس، وموسى، وهارون أقوامَهم.

سُورَةُ هُودٍ (١١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة هود هي السورة الحادية عشرة في ترتيب المصحف، والثانية والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف، وهي في المصحف الكوفي مئة وثلاث وعشرون آية[١]، وهي ألف وست مئة كلمة، وتسعة آلاف وخمس مئة وسبعة وستون حرفًا.

وسميت سورة هود؛ لتكرار لفظ هود فيها خمس مرات.

وهي سورة مكية، واستثنى ابن عطية ثلاث آيات ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [١٢] و﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [١٧] فقد نزلت في عبد الله بن سلام، و﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [١١٤] نزلت في أبي البسر[٢].

والصحيح أن السورة كلها مكية، نزلت بعد رحلة الإسراء والمعراج تسليةً للنبي ﷺ في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة التي لقي فيها النبي ﷺ ألوانًا من الأذى والاضطهاد.

وذلك أنه بعد بدء الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة بأكثر من عشرة سنوات، ماتت أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها، ومات أبو طالب عمُّ النبي ﷺ، وكان لهما منزلة في نفوس المشركين، يُمنع بسببها الأذى عن رسول الله ﷺ، وسُمي هذا العام بعام الحزن، وامتدت أيدي المشركين بالأذى للنبي ﷺ بعد موتهما، وتعثَّرت الدعوة، حتى نَثَرَ بعضهم التراب على رأسه الشريفة، ودخل بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته وأخذت تنفضه عنه وهي تبكي، فيقول لها: «**لا تبْكِ فإن الله مانع أباك**»[٣].

وكان ذلك قبل أن يفتح الله على رسوله ببيعة العقبة الأولى والثانية، وقبل أن تبدأ ملامح

---

(١) ومئة وإحدى وعشرون آية في العدد المكي والبصري والمدني الأخير، ومئة واثنتان وعشرون آية في المدني الأول والشامي.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٣/ ١٤٨).

(٣) ذكره ابن إسحاق في «السيرة» عن عروة بن الزبير. قال الألباني: أخرجه ابن إسحاق بسنده الصحيح عن عروة بن الزبير، وهو حديث مرسل (دفاع عن الحديث النبوي ص٢٠).

الهجرة، فكانت رحلة الإسراء والمعراج في هذا الوقت ترويحًا وتسليةً للرسول الكريم.

وقبل ذلك أرسل الله تعالى له عالَمًا آخر، هو عالم الجن، يؤمن به، عوضًا عن الذين كذَّبوه من الإنس، وأنزل الله تعالى في هذه الفترة سورة الفرقان وسورة الإسراء، وسورة يونس، وأنزل بعدها سورة هود.

ونقل ابن عطية أن سورة هود نزلت قبل سورة يونس؛ لأن التحدي في سورة هود وقع بعشر سور، وفي سورة هود وقع بسورة واحدة.

وفي السورة تفصيلٌ لسبعٍ من قصص الأنبياء والمرسلين؛ وهم: نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى، عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم السلام، وفي هذه القصص بيان صَبْرِ الأنبياء على أذى أقوامهم، وفيها العبرة والعظة بهلاك الأمم التي كذَّبت رسلها.

ففي كل قصة يذكر الله تعالى ما حدث فيها من العناد والتكذيب لرسل الله، ويبين سبحانه مصير الأمة المكذِّبة.

وفي نهاية القصة يعقِّب الله تعالى عليها لرسوله ﷺ أن يصبر ويتحمل، فهذا حال مَن سبقوك من الرسل، صبروا وأوذوا، فليكن لك فيهم عبرة وحكمة، تُثبِّت فؤادك، وتُقوي عزيمتك.

وفي الربع الأول من سورة هود مقدمةٌ لما فيها من القصص القرآني، تبين الأساس الأول الذي من أجله أرسل الله تعالى الرسل جميعًا؛ وهو توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

وفي الربع الأخير من السورة يعقِّب سبحانه على كل ما جاء فيها من قصص.

ثم يُقسِّمُ الله تعالى الناس إلى **صنفين**: أهل شقاء، وأهل سعادة، ويبين مصير كل منهم في الدار الآخرة.

وتتكون السورة من **ثلاثة عناصر رئيسة**:

العنصر الأول: يتضمن جانب العقيدة والعبادة، وهو يشغل حيِّزًا محدودًا في مقدَّمة السورة وفي نهايتها، وفي بداية كل قصة فيها.

العنصر الثاني: العرض التاريخي لسبعة من رسل الله وأنبيائه مع أقوامهم، وهو يشغل معظم السورة.

العنصر الثالث: التعقيب على كل قصة منها، وهو يشغل حيزًا محدودًا من السورة.

وقد ابتدأتِ السورة بالإشارة إلى أن علاج قضايا البشر، وحلَّ مشكلاتهم لا يكمن في الحضارة العمرانية، والصناعية، والتجارية، ولا في سباق التسلح بأنواعه مجردة عن الإيمان، فإن الحضارات المادية سرعان ما تهوي وتسقط، ما لم تأخذ بما جاء في مطلع هذه السورة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [٢] ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [٣].

فإن في العبادة والتوبة: المتاع الحسن، والوصول إلى أفضل المنازل ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [٣] وفي هذا ترغيبٌ للناس في الطاعة، وتحذيرٌ لهم عن المعصية؛ ولذا فإن كل رسول من الرسل الذين جاء ذكرهم في السورة قال لقومه أوَّل ما قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [٥٠، ٦١، ٨٤].

وفي ثنايا السورة بعد المقدِّمة وقبل الخاتمة يأتي قصص الأنبياء والمرسلين، بدءًا بقصة نوح أبي البشر الثاني، ثم بقصة هود التي سميت السورة باسمه، ثم تَلَتْها قصة صالح، ثم قصة لوط، ثم قصة شعيب، ثم قصة موسى عليه السلام.

وإلى هذا القصص يشير قوله تعالى في نهاية السورة: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [١٢٠].

وفي التعقيب على قصة نوح يقول سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ .

وفي التعقيب على قصة هود يقول سبحانه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ [٥٩].

وفي التعقيب على قصة صالح يقول سبحانه: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ [٦٧، ٦٨].

وفي التعقيب على قصة لوط يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [٨٢].

وفي التعقيب على قصة شعيب يقول سبحانه: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ [٩٤، ٩٥].

وفي التعقيب على هذا القصص كله يقول جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [١٠٠، ١٠١].

وبعد ذلك تتناول السورة جانبًا هامًّا من الحديث عن يوم القيامة، فهو يوم مجموع له الناس، وهو يوم مشهود، وله موعد محدود، وهو يوم لا تسمع فيه إلا همسًا ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

والناس فيه إما سعداء مخلَّدُون في الجنة، وإما أشقياء مخلَّدُون في النار، ومن أسباب السعادة: الاستقامة، وعدم السير في ركاب الظلمة، والمحافظة على أداء الصلاة في أوقاتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وسورة هود تستعرض مسيرة الدعوة الإسلامية في التاريخ البشري كلِّه، من لدن نوح إلى محمدٍ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وتبيِّن أنها قامت على التوحيد الخالص، وإفراد الله تعالى بالعبادة، إلى جوار مهام السُّوَر المكية من غرس الإيمان بالوحي والرسالة في قلوب الناس، وكذا الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب، وجزاء على الأعمال، من جنة أو نار.

وعناصر القرآن المكي تبدو واضحة في السورة؛ فعنصر الوحي والرسالة يوجد في مثل هذه الآيات ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [١] ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [١٣].

وقال سبحانه تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [١٤].

وعنصر الإيمان باليوم الآخر جاء في مثل قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [٤].

وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [١٧].

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [١٦] وهذا في الربع الأول من السورة.

أما قبل نهاية السورة ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [١٠٣] ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [١١٣] ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [١٢٣].

أما عنصر التوحيد وإخلاص العقيدة فقد جاء في مثل قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [٥] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [٧].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [١١٨].

١- وقد ورد في سورة هود آثار؛ منها قول أبي جحيفة للنبي ﷺ: نراك قد شبتَ؟ قال: «**شيبتني هود وأخواتُها**»[١].

٢- وعن أبي بكر الصديق ﷺ قال: قلتُ يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشيب، فقال: «**شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت**»[٢].

٣- وعن عقبة بن عامر ﷺ أن رجلًا قال للنبي ﷺ: قد شبتَ؟ قال: «**شيبتني هود وأخواتها**»[٣].

ولعل ذلك بسبب ما في السورة من ذكر أحوال القيامة ومصارع الظلمة والمكذبين.

وقد تطرق المفسرون إلى بيان السبب الذي شيَّب النبي ﷺ في سورة هود؛ فقال بعضهم: الأمر له بالاستقامة الوارد في السورة في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [١١٢]

وقال بعضهم: الذي شيَّبه ﷺ هو ما فيها من مصارع الظالمين وإهلاكهم.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: ولعل ما فيها من عودة الضمائر إلى رسول الله ﷺ، وكثرة الخطاب والتوجيه للرسول ﷺ -هو الذي شيَّبه، فإنك قد تجد في الآية الواحدة أكثر من ضمير، ففي قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ [١٢][٤] ثلاثة ضمائر متصلة، وضمير منفصل.

فهذه أربعة ضمائر في آية واحدة، وهكذا يتكرر الضمير عشرات المرات في السورة حتى آخر آية منها ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ وهو قول له وجاهته.

فالله تعالى يوجه رسوله في هذه السورة كثيرًا، ويعلمه ويؤدبه ويقول له: اصبر وتحمَّل كما فعل غيرك من الرسل.

---

(١) أبو يعلى عن أبي جحيفة (٨٨٠) وإسناده ضعيف؛ حيث إن علي بن صالح متأخر السماع من أبي إسحاق السبيعي، ورواه الطبراني (٣١٨) وابن عساكر (٤/ ١٧٣) والحكيم الترمذي، وله شواهد كثيرة من طرق متعددة تقويه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٠٩١) وفي «الأوسط» (٧٩٠) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، ينظر: «مجمع الزوائد» للهيثمي (٧/ ٤٠) وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣٢٩٧) وصححه الحاكم (٢/ ٣٤٧) على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وهو عند ابن عساكر (٤/ ١٧٢) والدارقطني في «العلل» (١/ ١٩٣) والبيهقي في «الشعب» (٧٧٦)، وصححه الألباني عن ابن عباس في صحيح الترمذي (٢٦٢٧) وفي السلسلة (٩٥٥).

(٣) الطبراني (٧٩٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٧): رجاله رجال الصحيح.

(٤) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، سورة هود.

سُورَةُ يُوسُفَ (١٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة يوسف عليه السلام هي السورة الثانية عشرة في ترتيب المصحف، والثالثة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة هود وقبل سورة الحجر، وهي مئة وإحدى عشرة آية باتفاق، وألف وتسع مئة وست وتسعون كلمة، وسبعة آلاف ومئة وستة وسبعون حرفًا، وهي سورة مكية، اشتملت على قصة يوسف كاملة، ولم تتكرر في القرآن.

ويوسف هو ابن يعقوب بن إسحاق من زوجه (راحيل)، وهو أحد الأسباط الاثني عشر الذين تشعبتْ منهم قبائل بني إسرائيل.

أسماء الأسباط: والأسباط: هم روبيل، وشمعُون، ولاوى، ويهوذا، ويساكر، وزبولون (وهؤلاء أمهم ليئة)، ويوسف، وبنيامين (أمهما راحيل)، ودان ونفتالي (أمهما بلهة)، وجاد وأشير (أمهما زلفة)[1].

يوسف عليه السلام: وكان يوسف أحب أبناء يعقوب إليه، وكان هذا سبب غيرة إخوته منه، وتدبيرهم المكايد له، ومنها إلقاؤه في الجُب، ثم التقطه أناس من العرب الإسماعيليين وهم في طريقهم إلى مصر، وباعوه رقيقًا في سوق العاصمة المصرية للوجه البحري، وكان ذلك في زمن الهكسوس، في حدود سنة تسع وعشرين وسبع مئة وألف قبل الميلاد، فاشتراه رئيس شرطة فرعون (أي: رئيس المدينة) الملقب بالعزيز.

وبسبب رؤيا رآها الملك وعبَّرها يوسف، قرَّبه المَلِك إليه، وزوَّجه (أسنات) بنت أحد الكهنة، وعمره يومئذ ثلاثون عامًا، وولَّاه على جميع أرض مصر، وفي فترة حُكمه جلَب أباه وأقاربه من بادية الشام إلى مصر، وكان ذلك سبب إقامة بني إسرائيل في مصر، إلى أن خرجوا منها نهائيًّا مع نبيهم موسى عليه السلام.

وتُوفي يوسف عليه السلام بمصر في حدود سنة خمس وثلاثين وست مئة وألف قبل الميلاد، وكان قد أَوْصى قبل موته، أنهم إذا خرجوا مِن مصر يأخذون جسده معهم، وكانوا قد

---

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١/ ٧٣٢).

حنَّطوه على الطريقة المصرية، ووضعوه في تابوت، ولَمَّا خرج بنو إسرائيل من مصر حملوه معهم، ودفنوه في (شكيم) في مدة يوشع بن نون.

وُصفت قصة يوسف عليه السلام في القرآن بأنها أحسن القصص؛ لما فيها من العبَر والحِكَم والفوائد.

قال خالد بن معدان: سورة يوسف وسورة مريم يتفكَّه بهما أهل الجنة في الجنة.

وقال عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها[(١)].

وهي القصة الوحيدة التي ذُكرت متكاملة في سورة واحدة.

نزول السورة: وقد نزلت سورة يوسف في عام الحزن الذي مات فيه أبو طالب عم النبي ﷺ، وماتت فيه زوجته خديجة رضي الله عنها، واشتد كرب النبي ووحْشتُه، واشتد إيذاء المشركين له في الفترة قبل بيعة العقبة الأولى والثانية.

وقد نزل قبل سورة يوسف سورة هود ويونس بما فيهما من القصص القرآني؛ تسلية لقلب الرسول ﷺ، وبيانًا للعبرة والعظة من هذا القصص، فضلًا عما فيه من الحث على الصبر، كما صبر مَن سبقه من الرسل.

ابتلاءات يوسف: وقد ابتُلي يوسف عليه السلام بعدة ابتلاءات؛ منها: كيد إخوته له، وإلقاؤه في الجب، وبيعه رقيقًا، وهو نبي مرسل، وأبوه نبي مرسل، وجده نبي مرسل، وجده الأعلى خليل الله إبراهيم عليهم جميعًا الصلاة والسلام، فقد قال عنه النبي ﷺ كما جاء في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله**»[(٢)].

لقد بيع يوسف سليل الأنبياء عبدًا رقيقًا، والذين باعوه كانوا زاهدين فيه، كأنه حمل ثقيل، وانتقل ابن الأنبياء إلى قصر الملِك؛ ليعمل فيه خادمًا، ويواجه أنواعًا من الابتلاءات.

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٢/ ٢٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية، وفي كتاب التفسير برقم (٤٦٨٨) وراجع (٣٣٨٢، ٣٣٩٠) وهو في «المسند» (٥٧١٢) بإسناد صحيح على شرط البخاري ورجال ثقات (محققوه) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٤٩٠) والحاكم (٢/ ٣٤٦)، والبغوي في شرح السنة (٣٥٤٧).

وقد ابتُلي يوسف -أيضًا- بالفتنة والشهوة من امرأة العزيز، وابتُلي بالسجن، وابتُلي بالسلطان، والرخاء بعد الشدة، وتولى وزارة الخزانة في مصر، وابتُلي بملاقاته لإخوته.

والله تعالى يقص للنبي ﷺ ذلك ويقول له: هذا نبي الله يوسف، قد حدث له ما حدث، فاصبر وتأسَّ به.

ويوسف الصديق هو أصغر أبناء يعقوب عليهما السلام، وقد أنجب يعقوب اثْنَيْ عشر ولدًا، هم الأسباط، وأصول عشائر بني إسرائيل، منهم ستة أولاد من زوجته الأولى، ابنة خاله (ليا بنت ليان)، وبعد أن تُوفيت تزوج يعقوب بأختها (راحيل) وأنجب منها بنيامين ويوسف، وهو أصغر الأبناء، والأربعة الباقون أبناء جاريتيْن له، اسمهما (زلفة وبلهة).

نبوة يوسف عليه السلام: ذُكر يوسف ﷺ في السورة التي سميت باسمه أربعًا وعشرين مرة، وذُكر مرة واحدة في سورة الأنعام في الآية [٨٤] ومرة أخرى في سورة غافر في الآية [٣٤] وهو أحد الأسباط، وليس من أبناء يعقوب -على الصحيح- نبي مرسل إلا يوسف عليه السلام، والبقية من أبنائه لم يكونوا أنبياء؛ لأن النبوة لا يستقيم معها التآمر على القتل، وهؤلاء الإخوة تآمروا على قتل يوسف وإلقائه في الجب، وهذه الأفعال تتنافى مع عصمة النبوة، وليس هناك من دليل قطعي على أن أبناء يعقوب كانوا أنبياء، إلا ما يُستدل به من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] ومثلها في [آل عمران: ٨٤] فيَستدل بعضُهم بهذه الآية على أن الأسباط من الأنبياء، ويوسف من الأسباط، والصحيح أن الآية لا تعني الأبناء الاثني عشر، ولكن تعني الأنبياء من بني إسرائيل، وكانوا كثرة، فالمراد بالأسباط (شعوب بني إسرائيل)، وفيهم أنبياء كثيرون.

لقد حظي يوسف بميراث النبوة عن أبيه وأجداده دون إخوته، وهو أصغرهم، وقد ساق الله إليه هذه البشرى في رؤيا رآها وهو صغير، وخشي عليه أبوه من إخوته الذين حقدوا عليه وطاردوه؛ حتى ألقوه في بئر بين الموت والنجاة، وقد أعلمه الله تعالى أن هؤلاء الإخوة المتآمرين عليه سيقفُون بين يديه يومًا؛ ليوبخهم على ما صنعوا ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [١٥] وقد تحقق ذلك بعد أربعين عامًا، يوم أن دخلوا عليه -وهو على خزائن مصر- يطلبون منه الصدقة، ويقولون له: ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [٨٨]

فعرفهم وهم له منكرون، لقد خرج يوسف من قعر الجب إلى سُدَّة الحُكم وتدبير شؤون الدولة، فما أعجب أقدار الله!!

موضوعات سورة يوسف:

وبعد افتتاح سورة يوسف بجانب من خصائص القرآن الكريم، تناولت **الموضوعات التالية**:

١- تحدثتْ عن مكر إخوة يوسف به، وحسدهم له، وتآمرهم على إيذائه، وإلقائه في الجب، ومن ثم انتشاله منه وبيعه بخمسة دراهم معدودة.

٢- تحدثت السورة عن كيد امرأة العزيز له، وشيوع الخبر بين نسوة المدينة، ودخوله السجن بعد أن استجار بربه، وأحب دخول السجن عن فتنة النساء.

٣- اشتهر يوسف بتعبير الرؤى في السجن، ودعا الناس إلى الواحد القهار، وأخلص العبادة لله، وكانت رؤيا الملك سببًا في إخراجه من السجن، وظهور براءته، وتعيينه أمينًا على خزائن مصر.

٤- تحدثت السورة عن لقاءات يوسف الأربع بإخوانه، وجَمْع شمله بأخيه الشقيق وأبويه في أرض مصر.

٥- التعقيب على السورة بما تَحمله من عبر وعظات وآداب وهِدَايَاتٍ.

حوار السورة يدور حول ثماني شخصيات:

أبطال القصة:

والحوار الذي في السورة يدور بين **ثماني شخصيات**، كل منهم له دوره في القصة:

١- **يوسف** عليه السلام: وهو بطل القصة، وصاحب الدور الرئيس الذي تدور عليه أحداث السورة.

٢- **يعقوب** عليه السلام: يمثل عنصر الحب الأبوي لولده، الملهوف عليه، المطمئن على الوصول إليه.

٣- **إخوة يوسف**: يمثلون عنصر الغيرة والحسد، والتآمر والمكر والخداع، ومواجهة آثار الجريمة.

٤- **امرأة العزيز**: تمثل عنصر النزوة، والشهوة، واندفاع الغريزة، وتسلُّط الشيطان، ثم الندم والتوبة.

٥- **عزيز مصر**: يمثل مواجهة جريمة الشرف داخل مجتمعه، حيث تضعُف نخوته

ويتغلب عليه الرياء وستر الظواهر.

٦ - **شخصية الملِك**: وهو يلقي بظلاله على يوسف، فيخرجه من السجن ويعيِّنه وزيرًا للمالية؛ لإصلاح الوضع الاقتصادي في البلاد وما جاورها.

٧- **النسوة**: وهن يمثِّلْن عنصر الطبقة الراقية في المجتمع، ويستنكرون على امرأة العزيز سلوكها، ثم يقعن في الافتتان به، ويعذُرْنها فيه.

٨ - **شاهد يوسف**: وهو الذي كشف عن الحقيقة التي دارت في دهاليز القصر، ولم يطلع عليها إلا رب العالمين.

إن قصة يوسف عليه السلام ليست خيالًا، ولا رواية مصطنعة، وليست تاريخًا خطَّهُ أقلام البشر، إنها قطعة من تاريخ الأحياء، تفيض بالحقائق لمن يُحْسِن الإفادة والاعتبار، وليس لخاتم المرسلين ﷺ دَخْل فيما أَوْحى الله إليه به ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

يوسف في بيت العزيز: لقد أحب عزيز مصر يوسف؛ لشمائله النبيلة، ودماثة خلُقه، وحِفْظ بيته، وصيانة محارمه، وأَحبتْه امرأة العزيز؛ لروْعة جماله، وحُسن مظهره ومخبره؛ فطمعت فيه، وتعرَّت له، وراودتْه عن نفسه، ولكن إيمان يوسف ومواثيق الشرف التي ورثها عن آبائه، وحُرمة رب البيت الذي أكرمه، انتصرت على المراودة الخاطئة، فأخذ يفرُّ منها وهي تشدُّ قميصه؛ حتى بلغتِ المعركة نهايتها.

وقد اعترفت امرأة العزيز بذلك وصرحت به في قولها: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ﴾ [٣٢] ومع ذلك فقد كادت له حتى أدخلته السجن، وجاءَتْه الرسالة وهو فيه فيقول:

﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ﴾ [٣٧، ٣٨]

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾.

وكان تأويل الرؤيا هو الطريق لإبراز يوسف عليه السلام من بين المساجين.

يوسف يعبر الرؤيا: وفي سورة يوسف **ثلاث رؤى**:

١- رؤيا يوسف. ٢- رؤيا السجن. ٣- رؤيا الملِك.

الرؤيا الأولى: هي التي قصها على أبيه في أول السورة؛ من سجود الشمس والقمر والأحَدَ عشر كوكبًا، وأحداث السورة كلها تفسير لهذه الرؤيا.

وقد خُتمت هذه الأحداث بهذا المشهد المعبر عنها ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [٩٩، ١٠٠].

الرؤيا الثانية: وهي التي قصها عليه رفيقاه في السجن، حيث رأى أحدهما أنه يعْصِر خمرًا، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه.

وقد فسر يوسف هذه الرؤيا بأن مصير الرفيقيْن متناقضٌ، فالأول سينجو ويخرج من السجن، أما الآخر فسيُقتل ويُصلب حتى تأكل الطير من رأسه.

الرؤيا الثالثة: هي التي رآها الملِك؛ فأفزعتْه وعجز الناس عن تأويلها.

وفسرها يوسف الصديق بأن السبع بقرات السمان هي سبع سنوات يكثر فيها الخير ويعُمُّ، والسبع بقرات العجاف هي سبع سنوات كلها قحط وجوع، تجاوز أرض النيل حتى بلغ أرض الشام وغيرها، ثم يأتي بعد ذلك عام يزول فيه الهم والغم ويكون خصبًا كثير الخير والنعم.

ووضع لهم يوسف خُطة اقتصادية: أن يزرعوا سبع سنوات متواصلة، ويتركوا الحب في سنبله حفاظًا عليه من السوس إلا ما يلزم للضروري من الطعام، فإذا جاءت السبع سنوات العجاف أكلوا مما خزَّنُوه في السنوات الخصبة كثيرة الخير.

وكان هذا سببًا في ظهور براءة يوسف مما دبَّرتْه له امرأة العزيز، حيث قالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [٥١] كما كان سببًا في اختياره وزيرًا للمالية ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [٥٦].

رحلات إخوة يوسف الأربع إلى مصر:

١- وبسبب المجاعة التي وصلت إلى الشام وتجاوزَتْها؛ قدِم إخوة يوسف عليه **أربع مرات**:

لقد كان إخوة يوسف من بين القادمين عليه في السنوات العجاف؛ فأكرمهم وأحسن وفادتهم في المرة الأولى دون أن يُعرِّفهم بنفسه، وطلب منهم أن يأتوا معهم في المرة القادمة بأخ لهم من أبيهم وإلا فلا كيل لهم عنده، وقد أشار إلى الرحلة الأولى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [آية: ٥٨].

٢- وجاؤوا إليه في المرة الثانية؛ فاستقبل أخاه الشقيق استقبالًا خاصًا، حيث آواه وقرَّبه إليه، وعرَّفه بنفسه، ثم احتال في حَجْزه عنده؛ حتى يفرض عليهم العودة إلى أبيهم بدونه، بعد أن احتجزه بسبب مكيال الملِك الذي خبَّأه في متاع أخيه.

وأشار إلى دخولهم مصر في هذه المرة قوله تعالى ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ [آية: ٦٨]

أما لقاءهم بيوسف للمرة الثانية فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ٦٩].

٣- وقَدِم إخوة يوسف عليه بمصر في المرة الثالثة بقلوب منكسرة ذليلة، وفي هذه المرة أماط يوسف اللثام عن شخصيته بعدما لمس من إخوته الضعف والهوان، فقال لهم في نبرة هزَّت قلوبهم ومشاعرهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ [٨٩، ٩٠].

وقد جاء هذا اللقاء في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [آية: ٨٨].

وعاد الركب إلى الشام ومعهم قميص يوسف، وما أن تحرك الإخوة بالقميص من أرض مصر حتى سمع الذين حول يعقوب وهو يقول: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [٩٤] أي: لولا أن تكذبوني وتنسبوني إلى الحماقة.

٤- وجاء إخوة يوسف إليه في المرة الرابعة ومعهم أبوه وأمه، وكان في هذا تأويل رؤياه وهو صغير، قال تعالى فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [آية: ٩٩].

إذن فقد قام إخوة يوسف بأربع رحلات من بادية الشام (العربات من أرض فلسطين)

إلى مصر للقاء أخيهم يوسف عليه السلام، وكان معهم أبوهم في المرة الأخيرة، وعاش معه أربعًا وعشرين سنة، ثم مات ودُفن في الشام لوصيَّته، وعاش يوسف مئة وعشرين عامًا، وفُسرت رؤياه في أربعين عامًا.

وكان النبي ﷺ يعلِّم أصحابه هذه السورة في بدء إسلامهم، كما أخرج الحاكم بسنده أن رفاعة بن رافع الزُّرَقي ومعاذ بن عفراء قدما مكة قبل بيعة العقبة الأولى؛ فأتيا النبي ﷺ، وطلبا منه أن يعرض عليهما الإسلام؛ فسألهما مَن خَلَقهما، ومَن صنع الأصنام التي يعبدونها؟ وبيَّن لهما أن الخالق أحق بالعبادة من المخلوق، وأنهم قد عملوا الأصنام بأيديهم، فهي أحق أن لا تُعبد، ثم قال لهم: «**وأنا أدعو إلى عبادة الله، وشهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وصلة الرحم، وترك العدوان، وبُغْض الناس**».

فقالا: لو كان الذي تدعونا إليه باطلًا؛ لكان من معالي الأمور ومحاسن الأخلاق، ثم إنهما أتيا الكعبة فطافا وضربا الأقداح سبعًا.

قال رفاعة: فَصِحْتُ أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ فاجتمع الناس عليَّ وقالوا: مجنون، رجل صبأ، قلت: بل رجل مؤمن، ثم جئت أعلى مكة، فلما رآني معاذ قال: لقد جاء رفاعة بوجه ما ذهب بمثله، فجئت وآمنت، وعلمنا رسول الله ﷺ سورة يوسف وسورة العلق، ثم رجعنا إلى المدينة[١].

سبب النزول:

قيل: إن اليهود قالوا لمشركي مكة: سلوا محمدًا عن أمر يعقوب وقصة يوسف؛ فنزلت السورة[٢].

وعن سعد بن أبي وقاص أن أهل مكة قالوا للنبي ﷺ: لو حدثتنا -وكان القرآن قد تلي عليهم- فأنزل الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقالوا له: لو قصصت علينا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾.

(١) الحديث في «المستدرك» (٤/ ١٤٩).

(٢) رواه الضحاك عن ابن عباس «زاد المسير» (٤/ ١٧٧).

أي: عن طريق الوحي المنزل وكنت قبله لا تعرف شيئًا عن هذه القصة وغيرها.

ثم قالوا: يا رسول الله، لو ذكَّرتنا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾(١) [الحديد: ١٦].

وورد أن اليهود سألوا النبي الكريم -عن طريق مشركي مكة- سألوه عن قصة نبي ذهب ابنه من الشام إلى مصر ولحقه أبناؤه، وكيف أنه أخذ يبكي حتى عمي؛ فأنزل الله ﷻ هذه السورة(٢).

---

(١) ينظر: البزار (١١٥٢) وأبو يعلى (٧٤٠) وابن حبان (٦٢٠٩) والحاكم (٢/ ٣٤٥) و«المطالب العالية» (٤٠١٣) والطبري (١٣/ ٨) وهو حديث حسن.

(٢) ينظر: «تفسير الخازن» والبغوي.

سُورَةُ الرَّعْدِ (١٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الرعد هي السورة الثالثة عشرة في ترتيب المصحف، والسابعة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يوسف، وقبل سورة إبراهيم على القول بأنها مكية، وبعد سورة القتال، وقبل سورة الرحمن على القول بأنها مدنية.

وهي ثلاث وأربعون آية في المصحف الكوفي[1].

وثمان مئة وخمس وخمسون كلمة، وثلاثة آلاف وخمس مئة وستة حروف.

ولذكر الرعد فيها سُمِّيت به.

وسورة الرعد نزلت على رسول الله ﷺ في مكة المكرمة في أصح القولين، وهي من السور المختلف فيها بين كونها مكية أو مدنية، وموضوعها هو موضوع السور المكية.

فهي تتناول جانب العقيدة والتوحيد كما في الآيات الأربع الأولى، والآية الثامنة وما بعدها، وتتناول جانب الوحي والرسالة كما في الآية الثلاثين وما بعدها، وتتناول جانب البعث واليوم الآخر كما في الآية الخامسة وما بعدها.

والسورة تقيم الأدلة الكثيرة من هذا العالم الفسيح على قدرة الله سبحانه، وعلى صنع الصانع جلَّ شأنه في هذا الكون؛ كي يستدل بها الكافر على توحيد الله سبحانه، ويقر ويعترف بأن الله تعالى واحد أحد، وأنه خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه، ورازقه ومدبر أمره، وهذا حال المشركين الذين تخاطبهم السورة في كل مكان وزمان؛ فالمجتمع الجاهلي في مكة كان يضم المسلمين والمشركين في عهد رسول الله ﷺ.

وبعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة، كان فيهم المسلم وغير المسلم، وهذا المزيج من المسلمين وغيرهم في المجتمعات، موجود في كل مكان من عالمنا الفسيح، على

(١) وأربع وأربعون آية في المصحف المدني، الأول والثاني والمكي، وخمس وأربعون آية في المصحف البصري، وسبع وأربعون آية في المصحف الشامي.

مختلف عقائده وطبقاته.

وهذه الأدلة التي وردت في السورة -وهي تشير إلى كمال القدرة الإلهية- من شأنها أن تزيد إيمان المؤمن، وتَحْمِل من يعترف بوجود الله تعالى ولا يفرده بالعبادة، أن يتوجَّه بدعائه ونذْره وذبحه واستغاثته وسائر العبادات إلى الله وحده، ويعتقد أن النفع والضر منه ﷻ.

١- وهكذا بدأت السورة بقضية **الإيمان والتوحيد**، وهي بداية تُلخِّص الموضوع الأساس للسورة وتركز عليه؛ فالحق -الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله تعالى- واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكن فاقد البصر لا يُنتظر منه إيمان صحيح، ومن لم يحسن النظر في نفسه، وفي أجهزة جسمه وعقله، لا يُتوقع منه أن يعرف الله تعالى معرفة حقيقية، ولو سار مع جمهور المقلدين من المؤمنين، فالحق يضل عنه كثيرون، وليس هناك عذر لهذه الكثرة التي أعرضت عن الحق، ورفضت الانقياد له.

لقد أقامت السورة أدلة متنوعة على كمال قدرة الله تعالى، وعظيم حكمته:

أ- تارة عن طريق التأمل في هذا الكون وما فيه من سموات مرتفعة بغير عمد، وأرض صالحة للاستقرار فيها، وشمس وقمر، وليل ونهار، وجبال لتثبيت الأرض، وأنهار لسقي الزرع، وكلها لمنافع الناس.

ب- وتارة عن طريق علم الله تعالى المحيط بكل شيء؛ فهو العليم بما تنقص الأرحام وما تزداد، وهو العليم بأحوال العباد، وهم مُسْتَخْفون بالليل وظاهرون بالنهار.

ج- وتارة عن طريق المنع والعطاء لمن يشاء من عباده؛ فهو سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

د- وتارة عن طريق المصائب والقوارع التي تنزل بالجاحدين المكذبين لوحدانية الله تعالى، ولصاحب الرسالة الأخيرة؛ فتصيبهم بما صنعوا، أو تحل قريبًا من دارهم.

- وكما أن القرآن دليل ناطق يقود إلى الإيمان بالله تعالى؛ فإن الكون دليل صامت يُعرِّف برب العزة والجلال، وكلا الدليلين يحتاج إلى يقظة العقل، ودقة الشعور.

وفي إيقاظ الحس النائم، يذكر القرآن الكريم أن في الأرض قطعًا متجاورات، القطعة الواحدة من الأرض تشتمل على ألوان من: الزروع، والثمار، والفاكهة؛ كالعنب،

والليمون، والتفاح، والحنظل، والبرتقال، والشوك، وهكذا، وكلها تُسقى بماء واحد، ويختلف المذاق واللون والأثر.

وهذا يشبه الدودة تأكل من ورق التوت فتُخرج حريرًا، وتأكل منه النحلة فتُخرج عسلًا، وتأكل منه الشاة فتُخرج بعْرًا!! فسبحان الخالق العظيم.

ومن الأرض إلى الفضاء الكبير، فقد اكتشف علماء الفلك ما يعتقدون أنه ثُقْب أسود في مجرَّة نائية، أكبر مئة مرة من أي ثُقْب أسود تم اكتشافه من قبل، ويعتقد علماء الفلك أن هذا الثقب يضم ألف مليون نجم.

فإذا كان هذا مجرد ثُقب صغير في هذا الكون الكبير، فماذا يكون الكون نفسه؟

لقد ختم الله الآيات التي تُلفت النظر إلى التأمل وإعمال العقل بمثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وهكذا.

٢- كما تتناول السورة إثبات **البعث والجزاء**، فتتعجب ممن ينكرون الحشر والنشر، والثواب والعقاب، وممن يستبعدون ذلك فيستعجلون نزول العذاب، لقد قصُرت أنظارهم عن إدراك أن الذي خلق هذا الكون الهائل قادر على إعادة الخلق في بعث جديد، وعلى إثابة المطيع وعقاب العاصي، وكان عليهم أن يطلبوا هداية الله ويرجوا رحمته، بدلًا من أن ينكروا قدرة الله تعالى، ويطلبوا نزول العذاب بهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [٦].

٣- وتتحدث السورة على **الوحي النازل من السماء**، وعن قيام النبي ﷺ بتبليغه قال تعالى: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ [١].

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [١٩].

وقال جل شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [٣٠].

وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ [٣٦].

وتَردُّ السورة على المكذبين بالرسالة، الذين يطلبون معجزة غير القرآن تدل على صدق محمد ﷺ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [٧، ٢٧].

ويمضي هؤلاء في كُفرهم حتى يصلوا إلى هذه النتيجة ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

وترد عليهم أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ [٣٨].

أ- وتتضمن السورة عشرة أوصاف للمؤمنين، من الآية التاسعة عشرة إلى الآية الرابعة والعشرين، من استجمع هذه الوصايا العشر، كان أهلًا للجزاء الأوفى في جنات عدن، تسلِّم عليه الملائكة، ويَنْعَم فيها بعقبى الدار.

ب- وتضرب السورة **مثلين للحق والباطل**:

أحدهما: بالماء النازل من السماء، فتسيل به الأودية والشعاب، ثم يجرفُ في طريقه الغثاء، فيطفو الزَّبَد الذي لا فائدة فيه على وجهه، ثم يذهب سريعًا ويبقى الماء الصافي.

وثانيهما: المعادن التي تذاب؛ لتصاغ منها الأواني والحليُّ من الذهب والفضة، وما يعلو هذه المعادن من الزَّبَد الذي سرعان ما يذهب ويتلاشى، ويبقى المعدن النقي الصافي، وهكذا ثبات الحق وذهاب الباطل.

ج - كما تذكر السورة مثلين لأهل السعادة والشقاء، فتشبِّه السعيد بالمبصر، والشقي بالأعمى ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ﴾ [١٩].

د- وقد أشارت السورة إلى زيادة الرقعة الإسلامية، ونقصان أرض الشرك والكفر، وفي ذلك نبوءة قد تحققت، فقد قرع الإسلام أبواب: مصر، والشام، والعراق، وإيران، وباكستان، وأفغانستان، والأندلس، والمغرب العربي، وغيرها، وغيرها، وسرعان ما دخل الناس في دين الله أفواجًا، فاعتنقوا الإسلام وصاروا حماة له وحملوه إلى العالم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ (١٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة إبراهيم هي السورة الرابعة عشرة في ترتيب المصحف، والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الشورى، وقبل سورة الأنبياء، وهي اثنتان وخمسون آية في العدد الكوفي برواية حفص[1].

وعدد كلماتها ثمان مئة إحدى وثمانون كلمة، وعدد حروفها ثلاثة آلاف وأربع مئة وأربعة وثلاثون حرفًا.

وسورة إبراهيم نزلت على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، ولا يُعرف لها اسم آخر.

وموضوع هذه السورة موضوع السور المكية في القرآن كله، والسور المكية تتناول ثلاثة عناصر، هذه **العناصر الثلاث** هي:

العنصر الأول: جانب العقيدة والتوحيد:

فأقامت السورة عشرة أدلة على توحيد الخالق سبحانه في ثلاث آيات، من الآية الثانية والثلاثين إلى الآية الرابعة والثلاثين.

والعنصر الثاني: جانب الرسالة والوحي:

وقد جاء ذكرهما في الآيات السبعة عشر الأولى من السورة.

والعنصر الثالث: هو جانب اليوم الآخر:

وما فيه من بعث وحساب وجزاء، وهو من الآية الحادية والأربعين إلى نهاية السورة.

وهذه العناصر بعد أن تحدثت السورة عن وظيفة القرآن، وعن جانب من مظاهر قدرة الله تعالى، وسوء عاقبة المكذبين.

---

(١) وإحدى وخمسون آية في العدد البصري، وخمس وخمسون في المصحف الشامي، وأربع وخمسون في المصحف المدني الأول والثاني والمكي.

وسورة إبراهيم تتميز عن السور المكية بأسلوب خاص في عرضها للعنصر الثاني؛ فهي حين تتكلم عن وحدة الرسالة لا تتناول دعوة كل رسول مع قومه، وإنما تتناول دعوة الرسل جميعًا، ووحدة الرسالات كلها، كأنها تجعل الرسل في جانب، وتجعل الأقوام، أو الأمم، أو أهل الجاهلية من كل أمة، في جانب آخر.

وتوجِّه السورة الخطاب أولًا لرسول الله ﷺ المنزل عليه هذا القرآن، ثم تخص من بين الرسل موسى وإبراهيم عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ لأن إبراهيم هو أبو الأنبياء، وخليل الله، ولأن موسى من أولي العزم من الرسل، ومن أكثرهم مكابدة ومثابرة لقومه، ولأن أمته كانت أكثر الأمم قبل أمة محمد ﷺ.

وضربت السورة الأمثال للمكذبين بالرسل من الأمم السابقة؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، ومثَّلت لكلمة التوحيد بالشجرة الطيبة، ولكلمة الكفر بالشجرة الخبيثة، ومثَّلت أيضًا للكفر والإيمان بقبول أعمال المؤمن، وعدم قبول أعمال الكافر.

وأبرزت السورة بعض مشاهد القيامة في التلاوم الذي يكون بين الضعفاء والمستكبرين، كما أبرزت خطبة الشيطان البتراء يوم القيامة في التبرؤ من أتباعه، وبيَّنت سوء مصير الظالمين في نهاية السورة، وتنقسم السورة إلى **مقطعين**:

المقطع الأول: يصوِّر المعركة بين الرسل والأمم المكذبة، أو حقيقة الرسالة والرسول.

والمقطع الثاني: يتحدث عن نعم الله تعالى على البشر، فذكَّرتْهم بنعم الله عليهم، وحرَّضتْهم على شكرها، وحذَّرتهم من كفرها وجحودها، وبيَّنت أن شكر النعَم يزيدها، وأن جحودها يستوجب العقاب الشديد، وضربت لهم المثل بمَن بدَّلوا نعمة الله كفرًا، وهم الذين كفروا بالنعمة بدل أن يشكروها ويؤدوا حق الله فيها، فجرُّوا بذلك الوبال عليهم وعلى أقوامهم.

وبيَّن جلَّ شأنه في سورة إبراهيم أنه أعطانا من كل النعم، وأن نعمه تعالى لا تُعدُّ ولا تحصى، ولكن الإنسان كثير الظلم لنفسه، شديد الكفر بربه.

وذكَّرت الفريقين من أهل الإيمان والكفر بحال إبراهيم ﷺ؛ ليعلم كل منهما من يسلك طريق الحنيفية السمحة، ومن يتنكَّب الطريق القويم.

وتناولت السورة سوء عاقبة الظالمين في الدار الآخرة، وأنهم يودّون العودة إلى الدنيا لإجابة دعوة الرسل، فيجابون: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الآيتان: ٤٤، ٤٥].

و﴿يَوْمَ﴾ القيامة ﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [الآية: ٤٨].

﴿وَ﴾ عندئذ ﴿تَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [الآيتان: ٤٩، ٥٠].

وكل نفس توفى جزاء عملها يوم القيامة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]

وخُتمت السورة بكلمات جامعة فيها بلاغ للناس، وإنذار لهم، وتوحيد لخالقهم، وتذكير لأولي الألباب منهم.

سُورَةُ الحِجْرِ (١٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الحِجْر هي السورة الخامسة عشرة في ترتيب المصحف، والرابعة والخمسون في ترتيب النزول، وهي تسع وتسعون آية باتفاق، وست مئة وأربع وخمسون كلمة، وألفان وسبع مئة وستون حرفًا.

والحِجْر: هي ديار ثمود (مدائن صالح) بين المدينة والشام، وقد جاء ذكر لفظ الحِجْر في هذه السورة؛ فسُمِّيت باسمه، ولم يُعرف لها اسم آخر.

وسورة الحِجْر نزلت على رسول الله في مكة المكرمة بعد سورة يوسف، وقبل سورة الأنعام في الفترة بين عام الحزن، وعام الهجرة؛ حيث تعثَّر مسار الدعوة، واشتد إيذاء المشركين لرسول الله ﷺ بعد موت أبي طالب، وخديجة ﵂، فأنزل الله سبحانه هذه السورة؛ لتخفف عن رسول الله ﷺ، ولتنذر المشركين، وتبيِّن مصارع المكذِّبين لرسل الله، وقيل: إنها نزلت عند خروج النبي ﷺ من دار الأرقم في آخر السنة الرابعة من البعثة، وفيها آية الأمر بالجهر بالدعوة ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾.

وتكشف هذه السورة أن كُفْر من كَفَر، وتكْذِيب من كذَّب ليس قدحًا في القرآن، ولا في رسول الإسلام، ولكن العناد والكبرياء في نفوس القوم هو الذي منعهم من الإيمان بمحمد ﷺ.

وهذا الكلام لا يخص أهل الشرك في زمن الرسول ﷺ فقط، بل ينسحب على المشركين والمكذِّبين بخاتم المرسلين في كل زمان ومكان، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذه السورة تشبه سورة الأعراف؛ فهي تبدأ بالحديث عن القرآن، وفيها إنذار، ووعيد، وتهديد للمكذِّبين لرسول الله ﷺ، وفي كل منهما -الأعراف والحِجْر- قصة آدم وإبليس، وفي نهايتها في هذه السورة بيان مصير أهل الضلال والغواية ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ ومصير أهل الهدى والرشاد ﴿إِنَّ

﴿ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ عيون السلسبيل والكافور والتسنيم والرحيق المختوم بالمسك، ويقال لهم ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ وقد نزع الله من صدورهم الغل والحقد والحسد وجعلهم إخوة متحابين، وهم مخلدون في الجنة بلا تعب ولا مرض ولا كآبة ولا نصب.

وفي السورة لمحات من قصة كل من: إبراهيم، ولوط، وشعيب، وصالح عليهم السلام، وفيها عرض لمشاهد الكون، ودلائل الوحدانية، والقدرة الإلهية: مِنَ السموات، وما فيها من بروج، والأرض الممدودة، والرواسي الراسخة، والماء والسقيا، والحياة والموت، وحشر الخلائق أجمعين، والشمس والقمر، والرياح اللواقح.

وفي سورة الحِجْر **خمس جولات**:

١- سُنَّة الله مع المكذبين لرسل الله [١ - ١٥].

٢- استعراض بعض آيات الله في الكون [١٦ - ٢٥].

٣- قصة البشرية [٢٦ - ٤٨].

٤- مصارع الغابرين [٤٩ - ٨٤].

٥- لم يخلق الله هذا الكون عبثًا [٨٥ - آخر السورة].

أما عن **الجولة الأولى**: وهي سُنَّة الله تعالى مع المكذبين لرسله، فتبدأ مباشرة بعد التنويه بمكانة القرآن الكريم، وفضله، وهديه؛ حيث يعقُبه الإنذار والتهديد مُلفَّعًا بظل من التهويل، والوعيد لمن أضاعوا أعمارهم سُدًى، ولم يستعدوا للمستقبل الأبدي، لقد استغرقوا في عبادة الدنيا ومُتعها، وأفنوْا فيها أعمارهم، حتى لكأن الآخرة -في نظرهم- وهْمٌ، وضَرْبٌ من الخيال ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

لقد انغمسوا في شهواتهم وملذاتهم، فشغلهم هذا عن الهداية والعمل للدار الآخرة.

وتشير السورة في مطلعها إلى هلاك الأمم الذين كذَّبوا رسل الله، فاعترضوا طريقهم، وظنوا أن الدنيا باقية لهم ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

الجولة الثانية: أما عن استعراض بعض آيات الله تعالى في الكون، فيأتي هذا بعد أن أخبر سبحانه أنه قد تكفَّل بحفظ كتابه، وصيانته من أي تحريف، أو تبديل، وبيان أن

المكذبين لرسل الله إنما يكذبون عن عناد، وجحود:

حيث تستعرض السورة ألوانًا من الأدلة على وحدانية الله تعالى، وقدرته الباهرة، وسابغ نعمه على عباده، وهو حديث شائق عن الكون، وأسراره وقُواه الدالة على عظمة الخالق سبحانه.

وتبدأ هذه الأدلة بمشهد السماء، فمشهد الأرض، فمشهد الرياح اللواقح، فمشهد الحياة والموت، فمشهد الحشر والنشر، وكلها مشاهد ناطقة بعظمة الله تعالى، شاهدة بوحدانيته وقدرته، ينظر المرء إلى أعلى، فيرى شروق الأفلاك وغروبها في فضاء لا نهاية له ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾.

وينظر إلى الأرض، وما أودع الله فيها من: الجبال، والبحار، والأنهار، والأشجار، والنبات فيرى ألوانًا من نعم الله لا حصر لها ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾.

والرياح من نعم الله تعالى، تنتقل من مكان إلى مكان، فتلقح السحاب بالماء وتلقح النخيل والثمار ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ﴾ والحياة والموت من آثار قدرة الله تعالى ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

أما عن **الجولة الثالثة**: وهي قصة خلق آدم، وتكليف الملائكة بالسجود له، وامتثالهم جميعًا لأمر الله تعالى، وامتناع إبليس وحده عن الطاعة، وما ترتب على ذلك من لعْنه وطرْده من الجنة، فإن هذه القصة، تشير إلى قصة الإيمان والكفر، والهدى والضلال، وعداوة إبليس لبني آدم إلى يوم القيامة.

لقد خلق الله الإنسان من طينة مُنْتنة ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [٢٦] وعند ما يعود إلى التراب بعد رحلة العمر، يُدفَن تحت التراب، لأن رائحته تكون أشد إزعاجًا، وكأن الناس يتدافنون؛ حتى لا يشمئز بعضهم من بعض.

وفترة البرزخ مسكن مؤقت، أو جسْر يعبُر عليه الإنسان إلى مصيره الدائم!

والمخدوع: من نسي ربه، ونسي مبدأه ومعاده.

إن عناصر الجسم البشري هي عناصر التربة الأرضية، فكيف يتحول اللحم، والعظم

إلى تراب؟! ثم كيف يتحول التراب مرة أخرى إلى لحم، وعظم؟!

إن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، وقدرة الله في ذلك فوق مستوى العقل البشري!

الجولة الرابعة: أما مصارع الغابرين في السورة، فهي تقصُّ علينا كيف أهلك الله قوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الحِجْر، فتذكُر الأسباب والنتائج؛ فقوم لوط لمَّا فسقوا بالضيوف، وأرادوا فعل فاحشة اللواط بهم كانت النتيجة أن قلب الله قُراهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطرهم بحجارة من سجيل.

وقوم ثمود عقروا الناقة، وكذبوا رسولهم، فأخذتهم الصيحة بدءًا من الفجر إلى الإشراق.

وأصحاب الأيكة كذَّبوا نبيهم شعيبًا، فانتقم الله منهم بأن أخذتهم الصيحة، فأصبحوا في ديارهم ميِّتين كأنهم لم يكونوا فيها.

وهذه الأماكن في طُرُق الناس يمرُّون عليها في أسفارهم صباح مساء، ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الصافات] وهذا تفصيل لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾.

الجولة الخامسة: والله تعالى لم يخلق هذا الكون عبثًا، وإنما خلقه؛ كي يتعرف الخلق على ربهم، فيعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا، ويوم القيامة يحاسب الله سبحانه الخلائق، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي.

وعليه: فإن الكافر إذا عاش لحياته يأكل، ويتمتع، ويلهيه الأمل وطُول البقاء في الدنيا، فإنه يتمنى يوم لقاء الله أن يكون قد سلك طريق الهداية في دنياه كي ينجو من العذاب الشديد في أخراه، كما جاء في الآية الثانية من السورة، ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾.

وعلى هذا فإن على المؤمن ألا يتطلع إلى هذا المتاع الزائل، فإن الله تعالى قد أعد له من النعيم الأخروي مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقد شرَّفه بالوحي المنزل على رسوله ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [٨٨]. لقد خص

الله المسلمين بالوحي الأخير المهيمن على الوحي السابق، ونعيمهم يوم القيامة بلا حدود، والسؤال يوم القيامة سيعم الجميع ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وفي نهاية السورة يأمر الله رسوله ألَّا يحزن لتكذيب المكذبين له، ولا يضيق صدره لجحودهم، ويستعين على ذلك بالتسبيح وكثرة السجود، والثبات على توحيد الخالق، وعبادته إلى الممات ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

سُورَةُ النَّحْلِ (١٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة النحل هي السورة السادسة عشرة في ترتيب المصحف، والثانية والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة السجدة، وهي ألفان وثمان مئة وأربعون كلمة، وسبعة آلاف وسبع مئة وسبعة حروف.

وآيات السورة ثمان وعشرون ومئة آية بلا خلاف.

وهي مشهورة باسم سورة النحل، ويقال لها: سورة النِّعَم.

وسورة النحل من آخر ما نزل على رسول الله ﷺ في مكة بعد الهجرة إلى الحبشة، أي: في آخر العهد المكي، بعدما احتدم العراك بين المؤمنين والمشركين، وطال الأمد، ولم يظفر المؤمنون بنصر، ولم ينزل بالمشركين قاصمةُ الظهر، وكان المشركون يقولون للمؤمنين: أين ما تعدوننا به؟ فيقولون لهم: إن غدًا لناظره قريب.

والآيات الثلاث الأخيرة من السورة قيل: إنها نزلت في المدينة بعدما انصرف النبي ﷺ من غزوة أُحُد بعد مقتل حمزة عم رسول الله ﷺ وهي قوله تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [١٢٦] وما بعدها، والأصح أنها مكية.

وقال قتادة، وجابر بن زيد: إن الآيات من ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إلى آخر السورة، مدنية.

وقد ورد في أسباب النزول: أنه لما نزل قول الله سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر] قال المشركون لبعضهم: أمسكوا وكفوا عما أنتم عليه حتى ننظر، فإن محمدًا يخبر أن الساعة قد اقتربت، فلما لم يروا شيئًا قالوا: يا محمد، ما نرى شيئًا، فأنزل الله سبحانه ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء] فأشفقوا وانتظروا، وامتدت بهم الأيام، ولم يروا شيئًا ينزل بهم، ولم تقم الساعة، فقالوا: يا محمد، لم نر شيئًا مما تخوفنا به، فأنزل الله سبحانه ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فوثب رسول الله ﷺ، ورفع الناس رؤوسهم، فنزل ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فاطمأنوا فقال ﷺ: «**بعثت أنا والساعة**

كهاتين» وأشار بالسبابة والتي تليها[١].

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب، مثل الترس، فما تزال ترفع في السماء، ثم ينادي منادٍ فيها: ياأيها الناس، فيُقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم، ومنهم من يشك، ثم ينادي الثانية ويقول مثل الأولى، ثم ينادي الثالثة: ياأيها الناس** ﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قال رسول الله ﷺ: فوالذي نفسي بيده، إن الرجلين لَينشُران الثوب فما يطويانه أبدًا، وإن الرجل ليمدنَّ حوضه فما يسقى فيه شيئًا أبدًا، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبدًا»[٢].

وسورة النحل كسائر السور المكية تعالج قضية العقيدة والوحدانية، فتقيم العديد من دلائل القدرة على وحدانية الله تعالى في هذا الكون الفسيح من السموات والأرض، والبحار والجبال، والسهول والوديان، والماء النازل من السماء، والنبات الخارج من الأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والفُلك التي تجري في البحر بأمر الله.

وتبدأ السورة هذا الحشد الهائل من الكائنات بخلق الإنسان، النموذج المصغر لهذا الكون، وتُقْرِن بدايته بمصيره ونهايته.

وتثنِّي بخلق الأنعام من: الإبل، والبقر، والغنم، ومن الخيل والبغال والحمير، وتذكر بعض منافعها، وكيف أن الله تعالى سخرها للإنسان.

وهذه الوسائل للتنقل والمواصلات مشاهد حية ماثلة أمام أعين مَن نزل عليهم القرآن.

ثم تُقرن إلى جوار ذلك ما يجدُّ في العالم من وسائل المواصلات المختلفة مما يظهر في حينه.

---

(١) كما في «أسباب النزول» للواحدي (١٥٩) بدون سند، ورواه ابن جرير عن ابن جريج (١٤/ ٧٥) و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٦). والحديث في البخاري (٦٥٠٣) ومسلم (٢٩٥٠)

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٣٩) وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه، ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٣٢٥) برقم (٨٩٩) وقال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣٨٢): رواه الطبراني بإسناد جيد ورواته ثقات مشهورون، وكلاهما عن يحيى بن آدم قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٣١): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله مولى المغيرة، وهو ثقة.

وتُعرِّج السورة على خلق العقل في الإنسان، واستعداده للخير والشر، والهدى والضلال، وأن الله تعالى قد ترك الإنسان لإرادته واختياره، ولو شاء لقصره على الطاعة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية ٩].

ولم تهمل السورة خلق المعادن والجواهر من الأرض، والأسماك واللؤلؤ والمرجان من البحار.

وبعد استعراض آيات الخلق، وآثار القدرة التي في أوائل السورة يقول سبحانه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [١٧].

وكلها ألوان متعددة من النعم يألفها الإنسان، ولا يشعر بها إلا إذا افتقدها ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [الآية ١٨]

ثم يعقِّب سبحانه على ذلك بقوله: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [٢٢].

ولذا: فإن هذه السورة تُسَمَّى سورة النِّعَم؛ لكثرة ما فيها من تعديد نِعَم الله تعالى على خلقه، كما قال قتادة، فقد ذكرتْ في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها.

ومع كثرة الأدلة على تفرد الله تعالى بالإلهية، تُظهر السورة شناعة الشرك وفساده، وتُبيِّن مصير أهله المحتوم، وتضرب لهم كثيرًا من الأمثلة في السورة ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ [٧٥].

وتتناول السورة القضية الثانية من قضايا القرآن المكي، فتقيم الأدلة على إثبات رسالة محمد ﷺ وصدق القرآن، في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ [١١٣].

وقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [٢].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا﴾ [٣].

وتبيِّن السورة وظيفة الرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [٣٦].

وتبيِّن أن رسالة محمد ﷺ قامت على أصول ملة إبراهيم ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ

إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [١٢].

وتُثبِت السورة البعث، والحساب، والجزاء في بدايتها ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [١] وفي أثنائها ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [٨٤] وفي الآية الأخرى ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [٨٩] وتثبتها أيضًا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [١١]

وهذا الأخير هو القضية الثالثة من قضايا القرآن المكي في السورة، وهي الإيمان باليوم الآخر.

وأغلب آيات السورة تتحدث عن **أمرين**:

الأمر الأول: الحديث عن الوحي الذي تنزلت به الملائكة، وبيان موقف الناس منه، وأن منهم من أقرَّ به، ومنهم من أنكره، فهم **فريقان**:

١ - **فريق** ضال في نفسه مضل لغيره، وهؤلاء وِزْرهم مضاعف، فهم يحملون أوزارهم يوم القيامة، ويحملون أوزار من أضلوهم بغير علم؛ فإن من دعا إلى ضلالة كان عليه من الآثام مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا.

ومثَلُهم في ذلك مثَلُ إنسان ألَّف كتابًا في الإلحاد والكفر، وهو يظن أن جريمته قد انتهت بصدور الكتاب، ولكنه لا يدري أن له رصيدًا مفتوحًا إلى قيام الساعة، يضيف إلى جريمته كل من انخدع بقوله، واتبع إلحاده وكفره ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [٢٥] أما أتباعه الذين قلَّدوه فهم مجزيُّون على غفلتهم، وكان عليهم ألا يُساقوا كالأنعام.

وهؤلاء هم ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الآية ٢٨]

وهذا الفريق من الناس هم الذين يُسوُّون بين من يخلق ومن لا يخلق، ويصفُون القرآن بأنه أساطير الأولين.

وهم الذين يقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [الآية ٣٥].

وهم الذين مكروا السيئات، وقالوا بتعدُّد الآلهة، ونسبوا الولد لله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الآية] ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [الآية ٦٢].

وهم الذين يثيرون الشبهات حول رسول الإسلام، فيقولون عنه: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [الآية ١٠٣].

وهم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٨٨]

وهم الذين جحدوا نعم الله عليهم ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

وقد هددهم الله سبحانه بما يبعث الرعب في القلوب، ويدعو إلى التأمل في الملكوت، فلعل هذا التأمل يكون سببًا في هدايتهم.

٢- **والفريق الثاني** هم الذين يُحسِنون الإجابة عندما يقال لهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ فيقولون: ﴿خَيْرًا﴾ [الآية ٣].

وهم يعلمون أن العاقبة الحسنة للمتقين في الدنيا والآخرة، فهم ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الآية].

وهؤلاء قد قضَوْا أعمارهم في الإيمان والعمل الصالح، وثابروا على فعل الخيرات وترك المنكرات، فطابت أرواحهم عند الممات، وفي درجات الجنات.

أما **الأمر الثاني** الذي تتحدث عنه السورة فهو عن آيات الله تعالى في الكون، وآلائه على عباده. ومنها قوله تعالى:

١-﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الآية ٣].

٢-﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الآية ٥].

٣-﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ﴾ [الآية ١٢].

٤-﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الآية ٦٥].

٥-﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ [الآية ٦٦].

٦-﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [الآية ٦٨].

٧-﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [الآية ٧].

٨-﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الآية ٧٢].

٩-﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [الآية ٧٨].

١٠-﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [الآية ٨٠].

١١-﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [الآية ٨١].

وقد بدأت هذه النِّعَم بنعمة القرآن، وبيَّنت أن نِعَم الله تعالى لا تُعَدُّ ولا تُحصى، وقرب نهاية السورة بيَّنت عقوبة الذين كفروا بأَنْعُم الله، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

وهكذا أقامت السورة ثلاثة وعشرين دليلًا من البراهين القاطعة الدالة على توحيد الله سبحانه، وعلى مظاهر القدرة الإلهية؛ لبيان أن خالق هذا الكون وما فيه من النِّعَم هو المستحق للعبادة دون سواه.

وهذه الأدلة جاءت في ثلاث مجموعات من السورة متفرقة، في كل مجموعة منها عدد من نِعَم الله علينا.

في أول السورة اثنا عشر دليلًا، وفي وسطها سبعة أدلة، وبعدها أربعة أدلة، وكلها نعم لله تعالى على خلقه.

وبقية آيات السورة تحاور المشركين بالله تعالى، فهي سورة النِّعَم، وسورة التوحيد، وهذه النِّعَم هي:

١ - نعمة نزول الوحي ونزول القرآن؛ لإحياء القلوب التي أماتها الكفر والضلال [٢].

٢ - نعمة خلق السموات والأرض، وما فيهما، ومابينهما لغاية عظمى، هي معرفة الخلق لربهم وعودتهم إليه في الدار الآخرة؛ ليجازي كل إنسان بما عمل، كما في الآية [٣].

٣ - نعمة خلق الإنسان من نطفة، ومع ذلك فإن بعض الناس ينكر البعث والنشور كما في الآية [٤].

٤ - نعمة خلق الإبل، والبقر، والغنم؛ للانتفاع بلحومها، وألبانها، وجلودها، وصوفها، ووبرها، وللتنقل بها، والزينة الآيتان [٥، ٧].

٥- نعمة خلق الخيل، والبغال، والحمير؛ للركوب والزينة، وفتح الباب أمام كل جديد يؤدي دورها كما في الآية [٨].

٦ - خلق نعمة العقل للإنسان؛ لمعرفة الخير من الشر، والاهتداء به عن طريق النظر، والتأمل للوصول إلى الطريق القويم كما في الآية [٩].

٧ - نعمة إنزال الماء من السحاب؛ لحياة الإنسان، والحيوان، والنبات، والأشجار، والطيور، والأسماك الآيتان [١٠، ١١].

٨ - نعمة تذليل الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم؛ لمصلحة الإنسان ونفعه الآية [١٢].

٩ - خلق جميع ما في الأرض من خيرات، ونعم؛ لصالح الإنسان وخدمته، كما في الآية [١٣].

١٠ - تسخير البحر وتذليله للإنسان؛ لينتفع به وبخيراته، كما في الآية [١٤].

١١ - تثبيت الأرض بالجبال، وإيجاد المياه العذبة فيها، وشقُّ الطُّرق؛ للسير فيها، والسعي على الرزق وغيره، كما في الآية [١٥].

١٢ - خلق معالم من جبال ونجوم في العالم العلوي والسفلي؛ لهداية الإنسان في أسفاره ومعيشته، كما في الآية [١٦].

١٣ - نعمة الماء، كما في الآية [٦٥].

١٤- نعمة خروج اللبن من بين الفرث والدم، كما في الآية [٦٦].

١٥ - نعمة الرزق الحسن من ثمرات النخيل والأنعام، كما في الآية [٦٧].

١٦ - نعمة العسل يخرج من النحل، كما في الآية [٦٨].

١٧ - نعمة الحياة والموت، كما في الآية [٦٩].

١٨ - نعمة الرزق، كما في الآية [٧١].

١٩- نعمة الزواج والتناسل، كما في الآية [٧٢].

٢٠ - نعمة الحواس والإدرك، كما في الآية [٧٨].

٢١- نعمة تسخير الفضاء للإنسان، كما في الآية [٧٩].

٢٢ - نعمة السكن والأثاث، كما في الآية [٨٠].

٢٣ - نعمة الظلال والجبال واللباس، كما في الآية [٨١].

فسورة النحل هي سورة النِّعَم بحق؛ لأن الله سبحانه قد ذكر في أولها قواعد النعم وأصولها، وذكر في آخرها كمال النعم وتمامها؛ فهي تُسَمَّى آيات وتُسَمَّى نِعَمًا، وهي نِعَم من الله تعالى، وآيات دالة على وجوده سبحانه.

وقد أمرنا سبحانه أن نتأمل في عظيم قدرته تعالى في خلق الكون، ونقلب النظر فيه، فقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ﴾ [الأعراف: ١٨٤]

وقال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات].

ومن أجلِّ ما يتعبَّد به العبد إلى ربه أن ينظر ويتأمل، ويتدبر ويفكر في هذا الكون وما فيه؛ ليستدل بفكره على وحدانية الله سبحانه، فيقْوى إيمانه ويثبت، ويصله بالواحد القهار.

وسورة النحل فيها ميدان رحب فسيح، للنظر في ملكوت الله في سمائه وأرضه، وليله ونهاره، وشمسه وقمره ونجومه، وبرِّه وبحره وجوِّه، وغير ذلك.

والنبي ﷺ حينما نزل عليه قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩٠﴾ [آل عمران] وما بعدها، قال ﷺ: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكر**»(١).

قال الحسن البصري: تَفَكُّرُ ساعة خير من قيام ليلة(٢).

أي: خير من النوافل المستحبة؛ لأن هذا التفكر يُقَوِّي الإيمان، ويصل العبد بربه.

وقد أمرنا الله ﷻ على وجه الخصوص أن نُمعن النظر في أمرين مهمين:

الأمر الأول: أن ننظر في الأصل الذي خُلِقنا منه، قال سبحانه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ [الطارق] ينظر الإنسان إلى أصله، إلى النطفة التي خُلِق منها ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق] هذا هو أصله، وليست القبيلة، ولا العشيرة، ولا المال، ولا الجاه، بل الماء الدافق هو نسب الإنسان وما ينتمي إليه.

---

(١) رواه الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» برقم (٦٦٦) وفي إسناده أبو جناب الكلبي وهو ضعيف.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٤).

الأمر الآخر: أن ننظر إلى الطعام الذي نأكله صباحًا ومساءً، ممَّ يتكون هذا الطعام؟ وكيف خلقه الله سبحانه؟

قال جلَّ شأنه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس].

هذا النظر، وهذا التفكر أو التأمل تدعو إليه سورة النحل أكثر من غيرها؛ لاستشعار فضل الله تعالى، فيكون هذا حافزًا على إفراد الله تعالى بالعبادة، إلى جوار امتنان الله تعالى على خلقه بهذه النعم.

وقد ضربت السورة الأمثال للمؤمن والكافر، والحق والباطل، ولمن قابلوا نعم الله عليهم بالشكر والعرفان، أو بالجحود والكفر.

واعتنت السورة بمكارم الأخلاق وأمهات الفضائل: كالعدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، والوفاء، والصبر، والشكر.

ونهت عن الرذائل، والمنكرات؛ كالغدر، والجحود، ونقض العهود، والاستكبار، والظلم.

وحفلت السورة بالترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار، والوعد والوعيد.

وقد خُتِمت السورة ببيان أن الدعوة إلى الله تعالى تقوم على الحوار والإقناع، والأخذ والرد، ولا تتخذ من الإكراه طريقًا لانتشارها.

ولا يستطيع القيام بذلك إلا فقيه في الكتاب والسنة، عارف بالداء والدواء، يفرق بين حوار الكافر والمسلم والعاصي، قدوة في نفسه، عامل بالكتاب والسنة، على اطلاع بأحوال الناس وسياسة الأمور وعلوم الكون.

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ (١٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الإسراء) هي السورة السابعة عشرة في ترتيب المصحف، والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة القصص، وقبل سورة يونس.

وهي سورة مكية كما جاء في صحيح البخاري وغيره، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: بنو إسرائيل والكهف، ومريم، إنهن من العتاق الأول، وهنَّ من تِلادي[(١)].

وجاء عن عائشة ﷺ أن النبي ﷺ كان يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة ببني إسرائيل والزمر[(٢)].

وعدد آياتها إحدى عشرة ومئة آية في المصحف الكوفي، ومئة وعشر آيات في بقية المصاحف.

وهي ألف وخمس مئة وثلاث وثلاثون كلمة، وستة آلاف وأربع مئة وستون حرفًا.

وهذه السور الثلاث: الإسراء، والكهف، ومريم من السور العتيقة، أي: من أوائل ما نزل على رسول الله ﷺ بمكة، ومن أول ما تعلَّم ابن مسعود من القرآن، وأن لهن فضلًا؛ لما فيهن من القصص، وأخبار الأنبياء والأمم.

فالعتاق: جمع عتيق، وهو القديم، أو أنه الذي بلغ الغاية في الجودة، ومعنى **تِلَادي**: أي مما حُفظ قديمًا.

---

(١) البخاري في التفسير برقم (٤٧٠٨، ٤٧٣٩).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ١٨٩) برقم (٢٤٣٨٨، ٢٤٩٠٨، ٢٥٥٥٦) قال محققوه: حديث صحيح، دون قوله (وكان يقرأ. . .) الخ، وابن خزيمة في صحيحه برقم (١١٦٣) من طريق أبي لبابة، وقد وثقه ابن معين، وتوقف ابن خزيمة في تصحيحه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٧١١) و«صحيح الجامع الصغير» (٤/ ٢٥٠) وقال الترمذي: حديث حسن غريب كما في «السنن» برقم (٢٩٢٠)ولفظه عنده (كان النبي ﷺ لا ينام على فراشه حتى يقرأ بني إسرائيل والزمر) وسكت عنه الحاكم والذهبي في «المستدرك» (٢/ ٤٣٤) وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٧١٢) وفي «السنن الكبرى» (١١٤٤٤) ويُنظَر: «السلسلة الصحيحة» (٦٤١).

شهرتها: تسمى: سورة الإسراء، لذكر حادثة الإسراء في الآية الأولى منها.

وتسمى: سورة بني إسرائيل، للحديث السابق ذكره، وللحديث عنهم في سبع آيات بعد الآية الأولى.

وتسمى أيضًا: سورة سبحان، لافتتاحها بالتسبيح، ولا يكون هذا إلا الأمر جلل عظيم يأتي ذكره بعد التسبيح، وهو هنا إسراء النبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في لحظة من الليل، وهذا كمن يذكُرُ أمرًا غريبًا، فيقول المستمع متعجبًا (سبحان الله).

وفي القرآن الكريم ست سور أخرى افتتُحت بمادة التسبيح:

١- منها ما جاء بفعل الأمر ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ والأمر الجلل بعده هو الخلق والتقدير لهذا الكون.

٢- ومنها ما جاء بالفعل الماضي وهو سور: الحديد والحشر والصف، أما سورة الحديد، فَلِذِكْرِ اثنين وعشرين اسمًا وصفة لله تعالى في مطلع السورة.

وأما سورة الحشر، فلإخراج بني النضير من ديارهم لأول الأرض التي حُشروا إليها.

أما سورة الصف، فلأن الله تعالى يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا.

٣- ومنها ما جاء بالفعل المضارع، وهو سورة الجمعة، والأمر الجلل في أولها هو بعثة محمد ﷺ إلى هذه الأمة، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم.

وفي سورة التغابن، كان التسبيح لخلق الإنسان وتصويره في أحسن صورة، وخلْق العالم العلوي والسفلي.

والآية الأولى من سورة الإسراء هي الآية الوحيدة المختومة بحرف الراء، وبقية آيات السورة مختومة بالألف.

موضوعات السورة:

وقد تحدثت الآية الأولى عن الإسراء، وأما الحديث عن المعراج فقد جاء في أول سورة النجم ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم]

وتحدثت السورة في أوائلها عن إفساد بني إسرائيل في الأرض، كما تحدثت عن القرآن

الكريم في أحد عشر موضعًا منها.

وتحدثت عن أحكام وآداب إسلامية كثيرة، ذُكر في الربع الثاني منها بضعة وعشرون تكليفًا شرعيًّا في ثماني عشرة آية، بدأت بالأمر بتوحيد الله تعالى، وانتهت بخُلُق التواضع وعدم الكبر، وهي الوصايا التي ذكرتْها ألواح موسى ﷺ.

وتحدثت السورة أيضًا عن موقف المشركين من رسالة محمد ﷺ، وطلبهم منه خوارق العادات، كما تناولت بعض الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى، كالليل والنهار، وتحدثت عن البعث والنشور، والحساب والجزاء.

وذُكر فيها قصة آدم وإبليس وإغوائه بني آدم، وقعوده لهم بالمرصاد، وساقت السورة ألوانًا من نعم الله تعالى على خلقه في البَرِّ والبحر، وبيَّنت سنن الله تعالى التي لا تتخلف في شأن الهُدَى والضلال بالنسبة للعباد، وخُتِمت السورة بالحمد، كما افْتُتِحت بالتسبيح.

وبذلك فإن السورة تناولت شؤون العقيدة، والرسالة، والمعاد، وهذه الثلاثة هي عناصر القرآن المكي.

وباستعراض مجمل آيات السورة نجدها تشير -بعد الافتتاح بالحديث عن الإسراء- إلى التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى ﷺ؛ لتكون هداية لبني إسرائيل، ولكنهم حرَّفوها وبدَّلوها، وأفسدوا في الأرض إفسادتين كبيرتين، بتحريفهم للتوراة، وقتلهم لأنبياء الله: شعيا وزكريا ويحيى عليهم السلام، وكفرهم بمحمد ﷺ بعد اعترافهم به ووعدهم بالإيمان به حين يُبعث، ولا يزال إفسادهم متجددًا متواصلًا بأهل فلسطين وغيرهم، وبمحاولاتهم هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل المزعوم، وهذا الإفساد مصحوب بخُذلان الله تعالى لهم، وانتقامه منهم.

وبعد الحديث عن كتاب موسى ﷺ أشارت السورة إلى كتاب محمد ﷺ الذي أنزله الله عليهم هداية للبشر إلى التي هي أقوم، وليبشر المؤمنين بالأجر الكريم، ويبيِّن لهم أن كل إنسان محاسب يوم القيامة، ومجزيٌّ بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وأن كل نفس لا تتحمل إثم نفسٍ أخرى.

ثم أشارت السورة إلى أن سُنَّة الله تعالى في خلقه، أن تكون عاقبة أهل البطر والفسق

هي الدمار والهلاك، ومن يَسْعَ للدنيا تكن نهايته جهنم، ومن يسْعَ للآخرة تكن نهايته الجنة، وهذا مجمل ما جاء في الربع الأول من السورة.

الأوامر والنواهي في الربع الثاني من السورة:

ثم ذكرت السورة **أربعة عشر** من الأوامر والنواهي الإلهية، جاء ذكرها في ثماني عشرة آية من الآية ٢٢-٣٩، وهي:

١- النهي عن الشرك بالله تعالى في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [٢٢]

٢- الأمر بالتوحيد: وقُدِّم النهي عن الشرك على الأمر بتوحيد العبادة لله في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [٢٣]؛ لأن التخلية تكون قبل التحلية.

٣- ثم أمر سبحانه بالإحسان إلى الوالدين في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ٱلدُّنْيَآ﴾ [٢٣] وخفض الجناح لهما، ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ ونهتْ عن أدنى ما يؤذيهما، لا سِيَّمَا عندما يتقدم بهما العمر، وتشتد الحاجة إلى الأبناء ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾.

٤- وتلا ذلك الأمر بصلة الرحم، ومدِّ يد العون إلى المسكين، وابن السبيل، وحُسْن القول عند فقْد المادة. ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

٥- ونهت آيات الله تعالى في السورة عن الإسراف والتبذير، وصوَّرت المبذرين في أقبح صورة؛ حيث جعلتْهم إخوانًا للشياطين، والشيطان كافر بربه:

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾.

٦- كما نهت عن التقتير والبخل، وأمرت بالتوسط والاعتدال في الإنفاق.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

٧- ونهت أيضًا عن جريمة الإجهاض، وتحديد النسل، ونحوهما، خوفًا من الفقر؛ فإن الرزق بيد الله تعالى، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾

٨- ونهت عن جريمة الزنى وسائر الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

٩- كما نهت عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وبيَّنت أن المقتول ظلمًا منصور ولا بُدَّ، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

١٠- ونهتْ عن أكل مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

١١- وأمرتْ الآيات بالوفاء بالعهد والوعد، وبينت مسؤولية ذلك عند الله تعالى.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾.

١٢- كما أمرت الآيات بوفاء الكيل والميزان في البيع والشراء، وسائر الأمور المادية والمعنوية. ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾.

١٣- ثم نهت عن القول بغير علم؛ فقد جاء ذلك قرين الشرك في كتاب الله تعالى.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

١٤- وأشارت إلى أن الإنسان مسؤول عن سمعه وبصره وفؤاده، فلا يستعملهم إلا في طاعة الله سبحانه. ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

١٥- وخُتِمت هذه الوصايا بالنهي عن الكبر، والغرور، والخيلاء، سواء أمَشَى الإنسان على الأرض بقدميه، أم بدابته، أم بسيارته، أم بطائرته، أم بغير ذلك.

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾.

وكما بدأت هذه الأحكام بالنهي عن الشرك بالله تعالى وختمت كذلك بالنهي عن الشرك به جل شأنه ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [٣٩].

ذِكْرُ لفظ القرآن في السورة أحد عشر مرة:

وقد جاء ذكر لفظ القرآن في السورة في إحدى عشرة آية بما لم يقع في سورة أخرى:

١- فقد أشارت في الآية التاسعة من السورة إلى أن هذا القرآن يهدي إلى أقوم الطرق وأعدلها.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

٢- وأشارت الآية الحادية والأربعون إلى أن الله تعالى قد صرَّف وجوه الهدايات في هذا القرآن ونوَّعها؛ ليتذكر الناس ويعتبروا، ولكنَّ الكافرين لا يزدادون إلا نفورًا:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

٣- وذكرت الآية الخامسة والأربعون أن غير الموحِّد تشمئز نفسه إذا ذُكر اسم الله وحده، فينصرف مُدْبرًا نافرًا، فإذا انضم إليه غير الله سبحانه فرح واستبشر.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

٤- وبيَّنت الآية السادسة والأربعون أن قلوب غير المسلمين عليها أغطية، وحجاب ساتر، يحجب عقولهم عن الانتفاع بما في القرآن، والاهتداء بهديه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾.

٥- وفي الآية الستين ذِكْرُ شجرة الزقوم، وهي الشجرة الملعونة في القرآن، وجاء ذكرها ابتلاءً للناس وتخويفًا لهم؛ كي يثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا إلى ربهم:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾.

٦، ٧- وذُكر لفظ القرآن مرتين في الآية الثامنة والسبعين؛ للإشارة إلى إطالة القراءة في صلاة الفجر؛ لأن الملائكة تحضر هذه الصلاة:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

٨- وأشارت الآية الثانية والثمانون إلى أن القرآن علاج لأمراض القلوب، والأبدان، والأرواح، وهذا العلاج لا يستفيد منه غير المسلم؛ لأنه قد حَرَم نفسه الهداية، ففسق عن أمر ربه، وضل الطريق الموصِّل إلى رضوان الله تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

٩- وأشارت الآية الثامنة والثمانون إلى أن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلن يتسنَّى لهم ذلك، ولو تعاونوا وتضافروا بجميع ما يملكون من قدُرات، وأموال، ومهارات. ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

١٠- وأشارت الآية التاسعة والثمانون إلى أن الله تعالى قد ضرب الأمثال، ونوَّع الأساليب في هذا القرآن فأبى أكثر الناس إلا جحودًا للحق، ونُكرانًا لحجج الله على خلقه. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

١١- وبيَّنت الآية السادسة بعد المئة أن هذا القرآن يُقرأ بتُؤدة، وتمهُّل، وتدبُّر، كما أنه نزل مفرَّقًا، وموزَّعًا وفق الحوادث، ومقتضى الأحوال:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

وقد ذُكر القرآن في هذه السورة بألفاظ أخرى كثيرة؛ كلفظ الوحي، والروح، وأسماء الإشارة، والموصول، وعوْد الضمير عليه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [٨٦].

وفي أعقاب ذلك تأتي اقتراحات المكذبين بالقرآن، الذين يطلبون من النبي ﷺ أن يأتي لهم ببدائل أخرى غير القرآن، بأن يفجِّر لهم الأرض، أو تكون له حدائق وبساتين، أو ينزِّل السماء عليهم قطعًا، أو يأتي لهم بالله والملائكة عيانًا، أو يكون له قصر من ذهب، أو يصعد إلى السماء ويأتي لهم منها بكتاب منشور يقرؤون فيه أن محمدًا رسول الله ﷺ.

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم على كل ذلك قائلًا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [٩٣]. وهذه الآيات من [٩٠-٩٦]،

ويتبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾ [٥٩].

ومن حديث السورة عن القرآن يتبيَّن أن من أهل الكتاب مَنْ عرفوا الحق، ولم ينكروه وأنهم إذا تُليَ عليهم هذا القرآن خروا سجدًا وبكيًّا، وسبحوا بحمد ربهم، وزادهم ذلك خشوعًا وإيمانًا من [١٠٧-١٠٩].

أما حديث السورة عن يوم القيامة فمنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

ومن ذلك إنكار الكفار والملحدين لليوم الآخر قائلين: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

ومن حديث السورة عن الشرك والمشركين، ما جاء في قوله تعالى:

﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

ومن الأدلة على وحدانية الله تعالى في السورة قوله: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [٦٦]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [٦٧] ويأتي بعد هاتين الآيتين وعيد لكل من عصى الله تعالى أن يخسف الله بهم الأرض، أو يرسل عليهم قاصفًا من الريح يهلكهم ويبيدهم.

وجاء ختام السورة مشيرًا إلى إنكار الكفار أن يدعو المسلم ربه بقوله: يا ألله، يا رحمن، فبيَّن سبحانه أن له الأسماء الحسنى، وأن للمسلم أن يدعو ربه بما شاء منها، وأن له تعالى الثناء الحسن، والذكر الجميل، وأنه جلَّ شأنه ليس له شريك في ملكه، وهو الغني عن خلقه، والخلق كلهم محتاجون إليه، فكبِّره تكبيرًا.

سُورَةُ الْكَهْفِ (١٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الكهف هي السورة الثامنة عشرة في ترتيب سور المصحف، والسورة الثانية والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الغاشية، وقبل سورة الشورى، وهي سورة مكية.

وعدد آياتها مائة وعشر آيات في المصحف الكوفي[1] وهي ألف وخمس مئة وسبع وسبعون كلمة، وستة آلاف وثلاث مئة وستون حرفًا.

سماها النبي ﷺ سورة الكهف كما في حديث أبي الدرداء: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِم من فتنة الدجال**»[2]، ويقال: سورة أصحاب الكهف.

وروى الديلمي في مسند الفردوس أنها نزلت جملة واحدة معها سبعون ألفًا من الملائكة.

وهذه السورة تقع في منتصف المصحف، وقد قالوا: إن حرف التاء من قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ هو نصف حروف القرآن الكريم، وإن حرف النون من قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ هو نهاية خمسة عشر جزءًا من القرآن الكريم وفق التقسيم الحرفي للمصحف.

فضل سورة الكهف:

وقد وردت أحاديث في فضل سورة الكهف بصفة عامة، ووردت أحاديث في فضل الآيات العشر الأولى منها، وأحاديث أخرى في فضل الآيات العشر الأواخر منها بصفة خاصة، وأنها تعصم من فتنة المسيح الدجال، من ذلك:

١- ما جاء في الصحيحين، وغيرهما، عن البراء ﷺ قال: قرأ رجل سورة الكهف،

(١) ومئة وخمس آيات في المصحف الحجازي (المكي والمدني) ومئة وست آيات في المصحف الشامي، ومئة وإحدى عشرة آية في المصحف البصري.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٩) من حديث أبي الدرداء، زاد أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٤٥: «ومن حفظ خواتيم سورة الكهف كانت له نورًا يوم القيامة» والحديث في «المسند» (٢١٧١٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققوه)، وأبي داود (٤٣٢٣) والترمذي (٨٨٦)، وابن حبان (٧٨٥) والنسائي (١٠٧٨٧) والحاكم (٢/ ٣٦٨).

وفي الدار دابة جعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة، أو سحابة قد غشيتْه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «**اقرأ فلان؛ فإن السكينة نزلت للقرآن**»(١).

والذي كان يقرأ السورة هو أُسَيْد بن حضير، كما بيَّنه الطبراني، وكان له حصان مربوط، فغشيته سحابة، وجعلت تدنو منه وتدنو، والحصان ينفر، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «**تلك السكينة تنزلت بالقرآن**».

٢- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورة الكهف كانت له نورًا من مقامه إلى مكة، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره**»(٢).

وفي لفظ: لم يسلط عليه، ومن توضأ ثم قال: (سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك) كتب في رَقّ ثم طُبع بطابع فلم يكسر إلى يوم القيامة.(٣)

٣- وعن أبي سعيد أيضًا أن النبي ﷺ قال: «**من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين**»(٤).

٤- وعن نافع عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة، وغُفِر له ما**

---

(١) البخاري برقم (٣٦١٤، ٤٨٣٩، ٥٠١١) ومسلم برقم (٧٩٥) والترمذي برقم (٢٨٨٥) وقال: حسن صحيح و«المسند» (٤/ ٢٨١) برقم (١٨٤٧٤، ١٨٥٠٩، ١٨٥٩١) والنسائي (١١٥٠٣) وابن حبان (٧٦٩) وغيرهم.

(٢) صححه الحاكم على شرط مسلم (١/ ٥٦٤) وقال الذهبي: ووقفه ابن مهدي عن الثوري عن أبي هاشم، وأخرجه البيهقي موقوفًا (٣/ ٢٤٩) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٦): رواه الطبراني في الأوسط من حديث طويل (١٤٥٥) وهو بتمامه في كتاب الطهارة ورجاله رجال الصحيح.
وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٩٠) عند الحديث رقم (١٤٧٣): الصواب (من أولها) كما حققه في السلسلة الصحيحة (٢٦٥١)، وذكر أن رواية (من آخرها) جاءت في النسائي من رواية شعبة الشاذة، وأنه بين ذلك في الصحيحة (٥٨٢).

(٣) ينظر: صحيح الترغيب (١/ ١٩١) حديث رقم (١٤٧٣) صحيح لغيره قال: والموقوف صحيح لذاته. (الألباني).

(٤) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٢٤٩) وصححه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٦٨) وقال الذهبي: قلت: نعيم ذو مناكير، قلت: له شواهد بمعناه تقويه كالحديث الذي يليه، وصححه الألباني في «الإرواء». (٦٢٦) و«صحيح الترغيب والترهيب» (٧٣٦).

بين الجمعتين»[١].

٥- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال: «**من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق**»[٢].

٦- وعن أبي هاشم بإسناده: «**من قرأ سورة الكهف كما أُنزلت كانت له نورًا يوم القيامة**»[٣].

٧- وعن علي ﷺ مرفوعًا: «**من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون، وإن خرج الدجال عُصِم منه**»[٤].

٨- وعن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِم من فتنة الدجال**»[٥]. وهذا بالنسبة لحفظ عشر آيات من أولها.

٩- وعن أبي الدرداء ﷺ أيضًا: «**من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِم من فتنة الدجال**»[٦]. وهذا لمن قرأ العشر آيات من آخرها حفظًا أو نظرًا.

فهذه أحاديث وآثار تنص على أن من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة لاسِيَّمَا الآيات العشر من أولها أوآخرها فإنه يُعْصم من الدجال، ويضاء له نور إلى عنان السماء، وإلى

---

(١) ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٥١٣) وقال: رواه ابن مردويه بإسناد لا بأس به، وضعف الألباني رفعه في «ضعيف الترغيب» (٤٤٧) وقال ابن كثير: في رفعه نظر، وأحسن أحواله الوقف.

(٢) رواه سعيد بن منصور، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ١٣١ والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٧٩٠) ورجح الفاضل محمد طرهوني في «موسوعة فضائل القرآن» (١/ ٣٣٧) أنه موقوف له حكم الرفع وأخرجه الدارمي (٢/ ٤٥٤) وابن الضريس (٢١١) والحاكم (١/ ٥٦٤) والبيهقي في الشعب (٢٤٤٤).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» برقم (٤٢٨) وقد رُوي مرفوعًا وموقوفًا وهو في «شعب الإيمان» عن أبي سعيد برقم (٢٤٤٦).

(٤) رواه الضياء المقدسي في «المختارة» برقم (٤٣٠) وابن مردويه، وفي تخريج «الإحياء» (١/ ٤٤٧): سنده مجهول.

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٩، ٤٥٠) برقم (٢١٧١٢، ٢٧٥٤٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات ومسلم برقم (٨٠٩) وأبو داود برقم (٤٣٢٣) والترمذي برقم (٢٨٨٦) وقال: حسن صحيح، إلا أنه قال: ثلاث آيات بدلًا من عشر آيات، وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨٠٢٥) و(١٠٧٨٧) وأبو داود (٤٣٢٣) وابن حبان (٧٨٥، ٧٨٦) والحاكم (٢/ ٣٦٨)وصحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٢).

(٦) «المسند» (٦/ ٤٤٦) برقم (٢٧٥١٦) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٠٩/ ٢٥٧) والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٧٨٥) وابن حبان (٧٨٣) وأبو عبيد في فضائله ص (١٣٢).

البيت العتيق، ويُغفر له ما بين الجمعتين، وتُنزَّل السكينة عليه، ولا يضره شيطان ولا آفة.

سبب نزول السورة:

ذكر ابن إسحاق، والطبري، وغيرهما بسند فيه رجل لم يذكر اسمه، عن عكرمة عن ابن عباس ﵄: أن كفار قريش أرسلت النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، من مكة إلى أحبار اليهود بالمدينة، يقولون لهم: أنتم أهل كتاب، وعلى علم بالأنبياء وصفاتهم وعلاماتهم وأحوالهم أكثر منَّا، وقد جئنا نسألكم عن أمر محمد ﷺ فوصفوه لهم، وذكروا أخباره وأقواله.

ثم قالوا لهم: سلوه عن ثلاث: عن فتية ذهبوا في غابر الزمن ما قصتهم؟ وسلوه عن رجل طاف الأرض مشرقًا ومغربًا ما نَبَؤُهُ؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أجابكم عنها فهو نبي مرسل، وإن لم يجبكم فهو متقوِّل، أي: كاذب في أقواله، فلما سألوا النبي ﷺ قال: سأخبركم غدًا ولم يستثن، فانصرفوا عنه.

ثم مكث ﷺ خمس عشرة ليلة، وانقطع الوحي خلال هذه المدة، وشقَّ ذلك على رسول الله ﷺ وحزن كثيرًا، ثم نزل الوحي بسورة الكهف، وفيها جوابهم بقصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وبقوله تعالى من سورة الإسراء: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي﴾[1].

وأهم غرض نزلت له سورة الكهف هو قصة أصحاب الكهف، وقد ذُكرت القصة في أول السورة، ثم ذكرت قصة ذي القرنين في آخر السورة، أما الإجابة عن الروح فقد نزلت لِتُلحَق بسورة الإسراء التي نزلت قبل سورة الكهف بتفويض العلم فيها إلى الله تعالى.

ويُحتمل أن نزول سورة الإسراء ظل مفتوحًا إلى وقت نزول سورة الكهف.

وفي رواية أخرى: أن اليهود قالوا للمشركين من قريش: سلوه عن الروح، فإن أَخْبركم به، فليس بنبي، وإن لم يخبركم به فهو نبي، كما سبق ذكره عند آية الروح في سورة الإسراء.

وقد عاتب الله سبحانه رسوله ﷺ بآيتين في هذا المقام: الآية السادسة وهي تتعلق

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٥/ ١٢٧) وابن كثير (١٤) و«سيرة ابن هشام» (١/ ٣٠٢) وأبو نعيم في «الدلائل» والبيهقي في «الدلائل» أيضًا (٢/ ٢٧٠).

بحزنه ﷺ وحرصه الشديد على إيمان القوم ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾، أي: لعلك قاتلها ومهلكها على عدم إيمانهم، وإنما أنت رسول تبلغ عن الله أمره ونهيه فحسب، وهذا معنى: ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

وعاتبه ربه أنه لم يستثن حين قال: سأخبركم غدًا، أي: لم يقل (إن شاء الله)، ولذلك فإن الوحي قد انقطع، قيل: ثلاثة أيام، وقيل: خمسة عشر يومًا، ثم نزل قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أغراض السورة:

وسورة الكهف فيها ثلاث قصص: قصة أهل الكهف في سبعة عشر آية، من الآية (٩-٢٩) وهي قصة الإيمان والكفر، وإثبات البعث والحساب والجزاء في يوم القيامة.

وقصة موسى والخضر في اثنين وعشرين آية، من الآية (٦٠-٨٠)، وهي قصة فيها آداب طلب العلم، وبيان أن فضل موسى عليه السلام لا يمنع أن يكون الله سبحانه قد أَطْلع الخضر عليه السلام على ما لم يُطْلع عليه موسى وهو نبي مرسل.

وجاءت قصة ذي القرنين في ثماني عشرة آية، من الآية (٨٣-١٠١) وهي قصة المَلِكِ العادل، الذي يحول دون وصول الأذى إلى رعيته، ويسوس الناس بالعدل والقسط، ويفتح البلاد، ويقيم الحضارات، فيعمل لخير العباد والبلاد، ولا يحرص على بقاء المنصب وتوريث الحكم.

وفي السورة ضرب الله سبحانه ثلاثة أمثلة: ضرب مثلًا بالرجل الغني المغرور المفتون بأمواله، في مقابل الرجل الفقير، المعتز بدينه وعقيدته، وذلك في اثنتى عشرة آية، من الآية (٣٢-٤٤).

وضرب مثلًا ثانيًا للحياة الدنيا في زينتها وبهجتها، ثم تصير إلى زوال وفناء.

وذلك في الآية (٤٥).

وضرب مثلًا ثالثًا للتكبر والاستعلاء، يتمثل في إباء إبليس وامتناعه عن السجود لآدم وفق أمر الله سبحانه له، وذلك في الآية (٥٠).

وبعد كل مثَل وقصة تعليقٌ شافٍ رائعٌ يهدي إلى الله سبحانه، ويُعِدُّ للقائه:

ففي نهاية قصة أهل الكهف يعقِّب الله تعالى عليها بقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ الآية [٢٦].

وفي نهاية مثَل أصحاب الجنتين يعقِّب الله تعالى عليها بقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ الآية.

ويأتي ذكر المثل بالحياة الدنيا وسرعة زوالها بعد ازدهارها عقب قصة المفتون بجنته، وفي التعقيب على مثَل الحياة الدنيا وزينتها يقول سبحانه: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ الآية [٤٦].

وفي التعقيب على قصة ذي القرنين يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ الآية [١٠٢].

وقد مثَّل القصص في السورة أكثر من سبعين آية من مجمل آيات السورة، وهي عشر ومئة آية في المصحف الكوفي.

ولأن سورة الكهف مكية، فهي تُعنى بالدرجة الأولى بتصحيح العقيدة في إعلان التوحيد وإنكار الشرك، وإقامة منهج القيم والنظر والفكر على ميزان العقيدة الصحيحة.

ويرتبط أول السورة بآخرها وثناياها برباط التوحيد:

ففي أول السورة قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ الآية.

وفي آخرها يقول سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ الآية [١١٠].

وفي ثنايا السورة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية ١٥].

وفيها: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [٢٦].

وفيها: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ الآية.

ويوم القيامة يصيح الكافر ندمًا قائلًا: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ الآية [٤٢].

والقرآن كله جاء لدعم عقيدة التوحيد:

ومنه ما جاء في أول السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾.

وفي نهاية القصة الأولى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ الآية.

والناس بالنسبة لهذا القرآن فريقان: مؤمن، وكافر، وقد أمر الله رسوله أن يُصَبِّر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وهم المؤمنون، وأن يبتعد عمَّن أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطًا.

وبعد أن بيَّن سبحانه مصير كل فريق في الجنة أو النار، قال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ الآية [٢٩].

مع موضوعات السورة:

وسورة الكهف إحدى خمس سور بُدئت بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وهي سور: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، وكلها تبتدئ بتمجيد الله تعالى وتقديسه، والثناء عليه بصفات الجلال والكمال، والآيات الأربع الأخرى هي على التوالي:

١- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ٢].

٢- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام].

٣- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ].

٤- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر].

وكان افتتاح هذه السورة بحمد الله تعالى على إنزاله القرآن على عباده؛ ليبشر المؤمنين بالنعيم المقيم، وينذر الذين نسبوا الشريك والولد لله تعالى، بنار جهنم وبئس المصير، ولتقرير أن ما على وجه الأرض من زينة ومتاع إنما هو للابتلاء والاختبار، والنهاية إلى زوال وفناء.

ويلي هذا الافتتاح قصة فتية آمنوا بربهم، وآثروا هذا الإيمان على زخرف الدنيا وبهجتها، فهربوا بعقيدتهم من جور المَلِك الطاغية، واتخذوا من الكهف مأوى لهم، فرَعتْهُم العناية الإلهية، حتى إن شعاع الشمس كان يميل عن فم الكهف في الصباح يمينًا، وفي المساء شمالًا؛ حتى لا يشعر المارة بأن في هذا الكهف أحدًا، وبعد ثلاث مئة سنة، يستيقظون ليجدوا أن الزمن قد تغير، فزالت دولة الشرك، وجاءت دولة التوحيد، وذهب الخوف والبطش، وحلَّ الأمن والأمان.

وبعد هذه القصة يوجه الله سبحانه رسوله ﷺ إلى أن يكون مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي من أهل التقى والإيمان، وإن كانوا أفقر الناس وأضعفهم، وأن يبتعد عن الغافلين عن ذكر الله، وإن كانوا أهل ثراء وجاه.

ثم بيَّن سبحانه المصير العادل لكلا الفريقين في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ﴾ الآية [٢٩].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآيتان [٣٠، ٣١].

ثم يعقُب ذلك حوار بين مؤمن قليل المال، وكافر على جانب من الثراء، يتطاول فيه الكافر على المؤمن مغترًّا ومفاخرًا بماله، فتأتي جوائح السماء لتجعل جنته قاعًا صفصفًا.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ الآية [٤٢].

لقد كان عليه أن يتأدب بأدب الإسلام وينسب الفضل إلى الله وحده، ويقول: «**اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت**»[١]

إن الحضارة الحديثة صنعت أجيالًا من طراز هذا الثريِّ، فارتبطتْ بالتراب، واستبعدت الدار الآخرة وما فيها من حساب وجزاء، وجنة ونار، وفُتِنوا بالدنيا وزخرفتها، فانهزموا أمام حب الدنيا، وتعلَّقوا بالحطام، وليس للدار الآخرة حساب في منظورهم، وهم في انتظار يوم الحساب حيث تكون المفاجآت، ويوقنون أنهم كانوا على خطأ بيِّن.

(١) يُنظَر: البخاري (٨٤٤، ٦٣٣٠، ٦٤٧٣) ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة.

ولذا: فإن الله سبحانه يحذرنا من عداوة الشيطان أثناء الحديث عن مشاهد القيامة؛ لنكون على حذر من كيده ومكره.

وبعد قصة موسى مع الخضر، وقصة ذي القرنين، تُختم السورة ببيان ما أعده الله سبحانه للكافرين من سوء العذاب، وما أعده للمؤمنين من جزيل الثواب؛ لإبراز عنصر الموازنة بين حُسن عاقبة الأخيار، وسوء عاقبة الأشرار.

وبعد تقرير جزاء المحسن والمسيء تأتي آية تتحدث عن كلمات الله تعالى؛ لتبيِّن أنه ليس في مقدور أحد إحصاؤها، وأن البحار لو كانت مدادًا، والأشجار أقلامًا لنفد البحر، وفنيت الأقلام، دون أن تفنى كلمات الله.

وبيَّنت السورة -في نهايتها- التوحيد الصحيح، عن طريق إفراد الله تعالى بالعبادة، فأشارت إلى أن العمل الصالح المقبول يحتاج إلى توافر شرطين فيه، هما:

١- إخلاص العبادة لله وحده وعدم الإشراك به سبحانه.

٢- وأن يكون العمل موافقًا لهدي النبي ﷺ.

٣- أي: أنْ يكون العمل خالصًا لله، صوابًا وفق سنة رسول الله.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ الآية [١١٠].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى ثمانية أقسام:

١- من أول السورة إلى الآية الثامنة: حديث عن الكتاب المنزل على رسول الله ﷺ، وأسف النبي ﷺ على عدم إيمان من لم يؤمن.

٢٠- ومن الآية (٩-٢٦) عن قصة أصحاب الكهف.

٣-وحديث عن خفض جناح الداعية إلى الفقراء والضعفاء، وبيان نعيم المؤمنين وعذاب الكافرين بعد البلاغ والإنذار، وذلك من الآية (٢٧-٣١).

٤- ومن الآية (٣٢-٤٤) مثل الرجلين، المعتزّ بدينه، والمفتون بدنياه.

٥- ومن الآية (٤٥-٥٩) حديث عن الدنيا والأخرة، وآدم وإبليس والقرآن، ومهمة الرسل، ووعيد من لم يؤمن منهم بالعذاب المؤلم.

٦- أما قصة موسى والخضر فهي من الآية (٦٠-٨٢).

٧- يليها قصة ذي القرنين من الآية (٨٣-١٠١).

٨- ثم ختام السورة من (١٠٢-١١٠) عن جزاء أهل الكفر والإيمان، وعدم نفاذ كلمات الله تعالى، وبشرية النبي ﷺ وشرطا قبول العمل.

سُورَةُ مَرْيَمَ (١٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة مريم هي السورة التاسعة عشرة في ترتيب المصحف، والرابعة والأربعون في ترتيب النزول، وسورة مريم سورة مكية عند الجمهور، وهي تسعون وثماني آيات بالعدد الشامي والمدني الأول والبصري والكوفي الذي هو على رواية حفص، وفي غيرها أي المكي والمدني الأخير تسع وتسعون آية.

وهي سبع مئة واثنتان وستون كلمة، وثلاثة آلاف وثمان مئة حرف وحرفان.

وهي أول سورة في القرآن يُذكَر فيها لفظ: ﴿كَلَّآ﴾ الذي يدل وجوده في السورة على أنها مكية.

وعن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني، عن أبيه، عن جده أبي مريم، قال: أتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إنه وُلِدتْ لي الليلة جارية، فقال: «**والليلة أُنزلت عليَّ سورة مريم، فسمِّها مريم**»[1].

ووجه التسمية: أن السورة بسطتْ قصة مريم وابنها قبل سورة آل عمران وغيرها، ويقال لها: (سورة كهيعص)، وقد نزلت بعد سورة فاطر، وقبل سورة طه، أي: أنها نزلت سنة أربع من البعثة.

وقد تكرر اسم مريم في القرآن ثلاثين مرة، ولم تُذكر امرأة بالاسم الصريح في القرآن سواها، ردًّا على الذين يفترون على الله الكذب بقولهم: عيسى ابن الله، حيث إن من عادة العرب الذين نزل فيهم القرآن أنهم يستحيون من ذكر اسم المرأة أمام الرجال، فِذِكْرُ اسمها الصريح في القرآن ينفي بنوة عيسى لله تعالى، كما يزعمون، ولذلك اهتمت السورة بإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، ونَفْي الشريك والولد عن ذاته سبحانه، وهذا هو العنصر الأول من عناصر القرآن المكي ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ .

كما اهتمت السورة بالعنصر الثاني، وهو إقامة الأدلة على أن البعث حق، وأن الناس

(١) رواه الطبراني في «الكبير» برقم (٨٣٤) وأبو نعيم في «المعرفة» برقم (٧٠٣٠) والحاكم والديلمي، وابن مندة.

سيحاسبون على أقوالهم وأعمالهم يوم القيامة، ويجزون عليها بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوءًا ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ وقال سبحانه ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

أما العنصر الثالث للقرآن المكي، وهو: إثبات الوحي والرسالة، فيتجلَّى في ذكر شيء من تفصيل قصتي مريم وإبراهيم مع أبيه، والإشارة المركزة إلى موسى وإسماعيل وإدريس بالإضافة إلى زكريا ويحيى في أول السورة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذا مما جاء به محمد ﷺ في القرآن.

وسورة مريم جاءت فواصلها غالبًا مختومة بحرف الياء المشدد المنصوب، عدا الصفحة الأخيرة منها، فقد جاءت بحرف الدال المشدد المنصوب.

وقد افْتُتِحتِ السورة بكلمة الرحمة: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾﴾.

وكُررت هذه الكلمة أربع مرات أثناء السورة، في الآيات: ٢ و٢١ و ٥٠و ٥٣.

وذُكِرَ اسم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ في السورة ست عشرة مرة في قوله تعالى:

١- ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾.

٢- ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [٢٦].

٣- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [٤٤].

٤- ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ [٤٥].

٥- ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [٥٨].

٦- ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [٦١].

٧- ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾.

٨- ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [٧٥].

٩- ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾.

١٠- ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾.

١١- ﴿لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

١٢- ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾.

١٣- ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾.

١٤- ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾.

١٥- ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾.

١٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

وذِكْر اسم الرحمن في السورة بهذا العدد، مع بدئها بصفة الرحمة وتكراره أربع مرات - إشارة إلى أن جَوَّ السورة هو ظل الرحمة والرضا والاتصال، وهي تقرر عقيدة التوحيد وتُنزِّه الله تعالى عما لا يليق بجلاله، وتُثبِّت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء، إلى جوار استنكار الكون كله، وارتجافه لوقْع كلمة الشرك التي لا تطيقها الفطرة.

وسورة مريم نزلت في السنوات الأولى للدعوة بمكة المكرمة قبل الهجرة إلى الحبشة، ولما هاجر بعض أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة قرأ جعفر بن أبي طالب صدر سورة مريم على النجاشي، فبكى حتى ابتلَّت لحيته وأسلم، وبكت الأساقفة حوله حتى ابتلّت الصحف التي بين أيديهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة[1].

فشأن سورة مريم شأن السور المكية، تدعو إلى توحيد الله سبحانه، وتغرس في الناس معالم الرسالة الإلهية، وتتحدث عن البعث والنشور والجنة والنار.

وهي من السور ذات القصص القرآني، فقد ابتدأت بذكر قصة نبي الله زكريا، وابنه يحيى عليهما السلام، وذكرتْ قصة مريم، وقصة ولادة عيسى عليه السلام، واختلاف النصارى في شأنه، وهي القصة الرئيسة في السورة، وذكرتْ الحوار المصحوب بالأدب الجمِّ بين خليل الله إبراهيم الابن، وأبيه عابد الوثن، وهو يدعوه إلى عبادة الله وتوحيده.

---

(١) تُنظَر القصة في: «المسند» (١/ ٢٠١) برقم (١٧٤٠، ٢٢٤٩٨) بإسناد حسن، ورجال ثقات رجال الشيخين غير ابن إسحاق وقد صرح بالتحديث، (محققوه) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٠) وأبونعيم في الدلائل (١٩٤) وابن إسحاق (١/ ٣٦٠) من حديث أم سلمة.

وأشارت السورة إلى عدد من الأنبياء منهم: إسحاق، ويعقوب، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وآدم، ونوح.

وبيَّنت السورة أن هؤلاء من الذين أنعم الله عليهم جميعًا، وأنهم من أهل الجنة، وأنه سبحانه قد خَلَف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وأنهم أهل النار، وقد استغرق هذا نحو ثُلُثي السورة، ثم تحدثت في نهايتها عن أهل الضلال والشقاء، وأهل الهداية والسعادة، وبعض مشاهد القيامة.

ويمكن تقسيم السورة إلى **ثلاثة مقاطع**:

المقطع الأول: يشتمل على قصة زكريا ويحيى، وقصة مريم وعيسى، ويستغرق هذا من أول السورة إلى الآية الخمسين منها.

وقد تحدث هذا المقطع من السورة عن معجزة ولادة يحيى عليه السلام من شيخ كبير قد وهَن عظمه، وخارت قُواه، ومن أم عجوز عقيم، وكان لزكريا عليه السلام أقارب لا يَصْلحُون لميراث النبوة في بني إسرائيل وهم يتطلّعون لها، فسأل ربه أن يرزقه مَنْ يسدُّ الطريق عليهم، فوهبه الله يحيى بعد ثلاث ليال من التسبيح والتحميد والانقطاع للعبادة.

وتحدث هذا المقطع من السورة عن معجزة ولادة عيسى عليه السلام بدون أب، كما وُلد آدم بدون أب ولا أم، وَوُلدتْ حواء بدون أم، ووُلد سائر البشر من أب وأم، وقد أنطق الله عيسى عليه السلام وهو في المهد، ليُبرِّئ أمه من تهمة اليهود لها.

المقطع الثاني: يتضمن قصة إبراهيم مع أبيه، وإشارة إلى قصص النبيين ومن اهتدى بهديهم، ثم مَنْ جاء بعدهم من الخلَف الغُواة، وهذا من الآية الحادية والخمسين إلى الآية الخامسة والستين.

وفي هذا المقطع يدور حوار بين إبراهيم وأبيه المشرك، حيث يناشد الابن أباه أربع مرات أن يدع الأصنام، ويُسْلِم وجهه لله تعالى، ومع أدب الحوار فإن أباه يهدده بالرجم واعتزاله إن بقي على عقيدته الصحيحة.

المقطع الثالث: يتحدث عن قضية البعث وبعض مشاهد القيامة، مع التعرض لمن أنكر ذلك من المكذبين بلقاء الله تعالى وشبهاتهم في ذلك، وينتهي هذا القسم بمشهد مؤثر من

مصارع الظلمة في القرون المكذبة، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

وقد استغرق هذا من الآية السادسة والستين إلى نهاية السورة.

وفي هذا المقطع خطاب موجه إلى منكري البعث إلى قيام الساعة، وموازنة بينهم وبين المؤمنين الصالحين الذين يَظْفَرون بالنجاة ويأمنون من الفزع، إلى جوار تفنيد عقيدة كل من زعم أن لله تعالى شريكًا، فكل ما عدا الله سبحانه من إنس وجن ومَلَك، عبْدٌ لله تعالى، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يملك شيئًا لغيره؟ والله سبحانه يبغض كل من أشرك به، ولا يغفر له جريمته إن مات وهو مُصِرٌّ عليها، ويحب الموحِّدين ويُقبل عليهم بالودِّ والرحمة.

سُورَةُ طَهَ (٢٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (طه) هي السورة العشرون في ترتيب المصحف، والخامسة والأربعون في ترتيب النزول.

وهي سورة مكية: نزلت بعد سورة (مريم)، وقبل سورة (الواقعة) في السنة الخامسة من البعثة.

وعدد آياتها في المصحف الكوفي مئة وخمس وثلاثون آية[١].

وهي ألف وست مئة وإحدى وأربعون كلمة، وخمسة آلاف ومئتان وأربعون حرفًا.

وشهرتها: سورة (طه)، وتسمَّى: سورة (موسى)، أو سورة (الكليم)؛ لأن معظم السورة تحدثت بالتفصيل عن قصة موسى ﷺ، بدءًا من رسالته، بعد قضائه الأجل في مدْين، إلى عبادة بني إسرائيل للعجل الذهبي بعد خروجهم من مصر، بما في ذلك موقفُ الجدل بين موسى وفرعون، والمباراة بين موسى والسحرة.

وقد ذُكرت قصة موسى ﷺ في حلقات موزعة في أكثر من عشر سور في القرآن الكريم، منها سور: (البقرة، والمائدة، والأعراف، ويونس، والإسراء، والكهف، والشعراء، والنمل، والقصص، والذاريات، والنازعات)، وهي حلقات يُكَمِّل بعضها بعضًا، وليس فيها تكرار.

فقصة ولادة موسى ورضاعه، وقَتْله القبطي، وخِدْمته لصِهْرِه عشرة أعوام مهرًا لابنته، ذُكِرتْ هذه القصة في سورة القصص فقط.

وقصة الرسالة، والعصا، واليد، والسحرة، وعبادة بني إسرائيل للعجل، ذُكرت أكثر من مرة، في أكثر من سورة، بأساليب تناسب مقام السورة، وسياق الكلام، والعبرة المطلوب الاستفادة منها في كل مقام بإيجاز، أو إطناب.

وقد اعتنى القرآن بها؛ لأنها تشبه السيرة النبوية في كثير من مراحلها.

(١) وعند أهل المدينة ومكة: مئة وأربع وثلاثون آية، وعند أهل الشام: مئة وأربعون آية، وعند أهل البصرة: مئة واثنتان وثلاثون آية، وفي العدد الحمص مئة وثمان وأربعون آية.

وتَبدأ هذه السورة، وتُختم ببيان وظيفة النبي ﷺ ومهمته، وبيان التكاليف التي أُمر بها، وأن هذه الرسالة لم تَنْزل عليه ﷺ ليشقىٰ بها، وإنما مهمته هي البشرى والإنذار، والدعوة والتذكرة والبلاغ، أما الهداية فهي من الله سبحانه، المهيمن على هذا الكون وخالقه، وخالق العباد جميعًا، ورازقهم ومدبر أمرهم.

وبعد هذه المقدمة من السورة، تأتي حلقة طويلة من قصة موسى عليه السلام، وكأنّ الله سبحانه يُعِدُّ رسوله محمدًا ﷺ؛ ليتحمل أعباء الرسالة، ويقول له: لك فيمن سبقك من الرسل أسوة، فتأسَّ بهم، وانظر ماذا فعل موسى عليه السلام مع قومه، وكيف واجه فرعون على جبروته وطغيانه، وكيف لاقى من المشقة والعنت والأذى في تبليغ الدعوة ما لاقى، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ؛ كي يحتسب ويصبر، ويتحمل ما يجده من أذى قريش، وليتأسى به الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان.

وهذه الحلقة من قصة موسى عليه السلام في سورة طه، تُذْكَر بإطناب وإسهاب، وتبدأ من نزول الرسالة على موسى عليه السلام، وتنتهي بعبادة بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر، ثم تختم السورة بحديث يَرْوِي مشاهد من يوم القيامة، ومصير أهل الضلال وأهل الهدى يوم لقاء رب العالمين، وفي ثنايا ذلك نبذة يسيرة عن قصة آدم وحواء عليهما السلام.

هذا: ويمكن **تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع**:

المقطع الأول: يخاطب الله تعالى فيه النبي ﷺ؛ ليشُدَّ أزْره، ويُقوِّي رُوحه في مواجهة المكذبين لدعوته، ويرشده إلى وظيفته التي اصطفاه لها، وفي هذا المقطع تنويه بشأن القرآن، وأنه نزل لهداية القابلين للهداية، وفيه إثبات أن رسالة محمد ﷺ أعمُّ وأشمل من رسالة أعظم رسول قبله، شاع ذكره في الناس، فضرب الله المثل على نزول القرآن على محمد ﷺ بكلام الله تعالى لموسى عليه السلام، وهذا المقطع من أول السورة إلى الآية الثامنة منها.

المقطع الثاني: يبدأ من الآية التاسعة إلى الآية الثامنة والتسعين، وهو عن بَسْطِ قصة نشأة موسى ﷺ ووحي الله إليه، ونَصْرِه على فرعون بالحجة والمعجزة، ونجاة موسى وقومه بإخراجهم من قبضة فرعون، وإيمان السحرة، وصناعة السامري للعجل، وتنتهي القصة بإحراق العجل وإلقائه في اليمِّ.

وفي هذا تعريض بأن رسالة محمد ﷺ ستصير إلى ما صارت إليه رسالة موسى ﷺ من النصر على مُعانديه ونشْرِها في الآفاق.

والمقطع الثالث: يبدأ من الآية التاسعة والتسعين إلى نهاية السورة، وفيه وعيد لمن أعرض عن القرآن، ولم ينتفع بمواعظه وأمثاله، ثم تذكُر ما أعده الله لهؤلاء المعرضين من عقاب مؤلم، إلى جوار بيان ما في يوم القيامة من مشاهد وأهوال، وتُذكِّر السورة بعداوة الشيطان للإنسان، وموقفه من آدم أبي البشر.

وتختم السورة بما بدأتْ به من خطاب الله تعالى لرسوله ﷺ وتحديد معالم الرسالة له، وعدم التطلع إلى ما متَّع الله به الآخرين من زينة الحياة.

وفي النهاية يكون انتظار العقبى؛ ليُعلم مَن أصحابُ الصراط السوي ومن اهتدى.

قصة إسلام عمر ﷺ:

وقد نزلت سورة (طه) قبل إسلام عمر بن الخطاب ﷺ؛ لما رواه الدارقطني عن أنس بن مالك، وابن إسحاق في سيرته[١] أن عمر بن الخطاب كان قبل أن يُسلم شديد العداوة للإسلام، وأنه قد خرج يومًا متوشِّحًا سيفه يريد قتل النبي ﷺ فلقيه في الطريق نُعيْم بن عبد الله، قال: إلى أين تريد يا عمر؟ قال: أريد محمدًا هذا الصابئ، الذي فرَّق أمر قريش، وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، وسبَّ آلهتها فأقتله، قال له نُعيْم: أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض، إذا أنت قتلت محمدًا؟ أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم؟ قال: ومن هم أهل بيتي؟ قال: ختنك -والختن: هو زوج الأخت- وابن عمك، سعيد بن زيد، وزوجه فاطمة أختك؛ فإنهما والله قد أسلما، وتبعا دين محمد، فعليك بهما، فرجع عمر إليهما، وبالقرب منهما سمع صوتًا خفيًا، وكان خبَّاب بن الأرت، يقرأ من صحيفة فيها صدر سورة (طه)، فلما سمعوا صوت عمر، اختبأ (خبَّاب) في غُرفة لهما، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فوضعتْها تحت فخذها، فلما دخل عمر قال: ما هذه الهمهمة -أي: ما هذا الكلام الخفي- الذي سمعت، فأنكرا، فقال: لقد أُبلغتُ أنكما تبعتما محمدًا على دينه.

---

(١) وهو عند ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٦٧) والحاكم (٤/ ٥٩) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢١٩) وغيرهم.

ثم ضرب ابن عمه وأخته حتى شجها، فقالا: والله قد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله، وتبعنا محمدًا، فاصنع ما بدا لك، قال: فأرني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤونها آنفًا، أَنْظر ما جاء به محمد، قالت: إننا نخشى عليها منك، فأقسم بآلهته أن يردها عليهم، وألا يمسها بسوء، فلما قال ذلك، طمِعتْ في إسلامه، فقالت له: إنك مشرك نجس، ولا يقرب هذه الصحيفة إلا طاهر، فذهب واغتسل، ثم جاء فأعطتْهُ الصحيفة، فقرأ فيها صدر سورة (طه)، فقال: ما أحسن هذا الكلام! وما أجمله! فلما سمع خبَّاب هذه المقالة وهو مختبئ، تجرَّأ وخرج، فقال: إني والله لأرجو أن يكون الله سبحانه قد خصك بدعوة نبيه ﷺ فإني سمعته بالأمس وهو يقول: «**اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب، فكان أحبهما إليه عمر**»[1] فالله الله يا عمر، فقال عمر: يا خباب، أين محمد؟ دُلَّني عليه، فجاء إلى النبي ﷺ، وأسلم وحسن إسلامه ﷺ، وكان هذا بسبب قراءة عمر ﷺ لأوائل سورة طه.

(١) جامع الترمذي برقم (٣٦٨١) عن ابن عمر ﷺ وقال: حديث حسن صحيح غريب من (اللهم أعز الإسلام..) وصححه الألباني برقم (٢٩٠٧) وفي مشكاة المصابيح (٦٠٣٦) التحقيق الثاني وصححه ابن حبان (٦٨٨١) وانظر المسند برقم (٥٦٩٦) من (اللهم أعز الإسلام..) قال محققوه: خارجة بن عبدالله الأنصاري، ضعفه أحمد والدار قطني والذهبي وقال ابن معين وابن عديّ: لا بأس به، وقيل: غير ذلك، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين.

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ (٢١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأنبياء هي السورة الحادية والعشرون في ترتيب المصحف، والحادية والسبعون في ترتيب النزول، وهي سورة مكية نزلت بعد سورة السجدة، وقبل سورة النحل.

وعدد آياتها في المصحف الكوفي الذي هو على رواية حفص، اثنتا عشرة ومئة آية، وإحدى عشرة ومئة آية في بقية المصاحف.

وهي ألف ومئة وثمانٍ وستون كلمة، وأربعة آلاف وثمان مئة وتسعون حرفًا.

وقد سماها الصحابة سورة الأنبياء، ولم يُعرف لها اسم آخر، كما جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هُنَّ من العتاق الأُول، وهُنَّ من تِلَادِي(١).

وبنو إسرائيل: يعني سورة الإسراء، والعتاق الأُوَل، أي: من السور العتيقة التي نزلت بمكة، وهُنَّ من تِلَادي، أي: من أوائل ما نزل من القرآن.

وهي من أواخر السور النازلة بمكة قبل الهجرة.

وسُميت سورة الأنبياء؛ لأنه ذُكِر فيها ستة عشر نبيًّا، بالإضافة إلى مريم، وهم: موسى وهارون، وإبراهيم، ولوط، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وأيوب، وداود، وسليمان، وإسماعيل، وإدريس، ويونس، وزكريا، ويحيى، وذو الكفل.

ولم يُذكَر في سورة من القرآن مثل هذا العدد من الأنبياء عدا سورة الأنعام، فقد جاء فيها ذكر ثمانية عشر نبيًّا في أربع آيات متوالية، وهي مجرد سرد للأسماء في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ

(١) صحيح البخاري برقم (٤٧٠٨، ٤٧٣٩).

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام]

ونظرًا لطول سورة الأنعام، وتفصيل أحكام الأنعام فيها، بما لم يذكر في غيرها، ولأن أسماء الأنبياء الذين ذُكروا فيها لم يصاحبهم قصة كل منهم؛ لذلك سميت سورة الأنعام، كما أن عدد الأنبياء في سورتي: هود، والشعراء، أقل بكثير مما جاء في هذه السورة، لذا كانت هي الأجدر بتسميتها: سورة الأنبياء.

ولم تَتَّبع السورة في ذكر هؤلاء الأنبياء ترتيبًا زمانيًّا، ولا تحديدًا مكانيًّا، فقد بدأت بذكر موسى وهارون، وثنَّت بالكلام عن إبراهيم، وهما من ذريته، وهذا عكس ما جاء في سورة مريم؛ حيث ذَكرتْ إبراهيم أولًا، وأتبعتْه بموسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام.

والجانب الذي فصَّلت فيه هذه السورة القول من قصة إبراهيم، هو ما يتعلق بتحطيم الأصنام، وهي أطول قصة في السورة من غيرها، وجاء ذكر لوط بعد إبراهيم؛ لأنه ابن أخيه، وشريك له في الهجرة من العراق إلى أرض الشام، ثم عاد الكلام إلى نوح، وتبعه الكلام عن داود، وسليمان، وهما من أنبياء بني إسرائيل، ثم ذَكَرتْ السورة ابتلاء أيوب، وتلاه إسماعيل، وإدريس، وذو الكفل، ويونس، وزكريا، ويحيى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وإلى جوار هؤلاء الرسل الكرام جاء ذكر مريم، كما ذُكِرتْ أم موسى في سورة القصص.

وبيَّنت سورة الأنبياء أن الله تعالى لم يرسل رسولًا إلا من الرجال؛ لأنهم أقدر على تحمل أعباء الرسالة، ومُقارعة صناديد الكفر، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [٧].

«وأغلب الأنبياء الذين ذُكروا في القرآن الكريم، ظهروا في شرق البحر المتوسط وجنوبه، في مناطق قامت بها أهم الحضارات القديمة، ويمكن وصفهم بأنهم أعضاء هيئة تدريس في معهد، عميده محمد بن عبد الله، وطلابه أهل الأرض كلهم»[١].

ويلاحظ أن الحديث عن الأنبياء في السورة، سبقه حديث عن اليوم الآخر ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ

---

(١) يُنظَر: الشيخ محمد الغزالي في كتابه: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٢٥٦ .

ﱡﭐﭐﭐﭐﭐ ﭐﭐ ﭐ ﭐ ﭐ ﭐ ﭐ
﴿ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [٤٧] وأعقبه حديث مستفيض عن اليوم الآخر، كذلك بُدئ بقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

والحديث عن هؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا يُمَثِّل **أحد جوانب ثلاثة** هي موضوع السور المكية، بالإضافة إلى الشبهات التي يثيرها الكفار حول الرسالة والرسول، والتي تصدَّرت السورة؛ لتنفيدها وإبطالها.

وبيَّنت السورة أن أمة الإسلام أمة واحدة، وربها واحد؛ فكل الأنبياء دَعْوَتُهم هي التوحيد ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾.

أما **الجانب الثاني** للسور المكية: فهو أصل الشرائع، وأساس الرسالات، وهو جانب العقيدة، وتوحيد الله تبارك وتعالى، وقد أقامت السورة أدلة متعددة على ذلك، منها قول الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ﴾ [٢٤].

وذكرت السورة عددًا من النعم والأدلة الكونية على وحدانية الخالق سبحانه، كالسموات، والأرض، والجبال، والماء، والطرقات.

أما **الجانب الثالث** للسور المكية: فهو الحديث عن القيامة، والبعث والنشور، والحساب والجزاء، وهو الذي بدأت به السورة ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [١] ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [٩٧] ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ﴾ [١٠٤].

وأرض الجنة يرثها عباد الله الصالحون، وهم أيضًا الذين يعمرون الأرض في الدنيا، وذَكرت السورة من مقدمات يوم القيامة ظهور يأجوج ومأجوج.

وهذه **العناصر الثلاثة** للسورة جاءت على النحو التالي:

١- من أول السورة إلى نهاية الآية الثالثة والثلاثين، يتناول عنصر العقيدة، وردّ شبهات الملحدين، وذكر مصارع المكذبين.

٢- ومن الآية الرابعة والثلاثين إلى الآية الثانية والتسعين، يتناول عنصر الوحي والنبوة والرسالة.

٣- ومن الآية الثالثة والتسعين إلى نهاية السورة، يتناول عنصر البعث والنشور والحساب والجزاء.

وتُختَم السورة ببيان أن رسالة النبي محمد ﷺ هي رسالة رحمة للعالمين جميعًا: الإنس، والجن، والملائكة، والحيوانات، والهوام، والطيور... إلخ.

وجاء بيان الحكم العدل، والقضاء الفصل في نهاية السورة: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [١١٢] وهذا الحكم يكون في الحساب الذي اقترب مجيئه وافتتحت به السورة.

سُورَةُ الْحَجِّ (٢٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الحج هي السورة الثانية والعشرون في ترتيب المصحف، والخامسة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النور، وقبل سورة (المنافقون)، وعدد آياتها ثمان وتسعون آية في المصحف الكوفي[1].

وهي ألف ومئتان وإحدى وتسعون كلمة، وخمسة آلاف ومئة وخمسة وسبعون حرفًا.

وسمِّيت سورة الحج؛ لأن الله تعالى أمر إبراهيم فيها بالدعوة إلى الحج، بالإضافة إلى ذكر بعض المناسك والفضائل والمنافع وذبح الهدْي، وتقريع من يصدون المسلمين عن المسجد الحرام.

ونزول السورة كان قبل فرضية الحج بالاتفاق؛ فقد فُرِض الحج بآيات سورتي البقرة [١٩٦-٢٠٣] وآل عمران [٩٦، ٩٧].

وتسميتها بهذا الاسم توقيفي، فقد جاء في الحديث والآثار أن سورة (الحج) حَظِيت عن سائر سور القرآن الكريم بما فيها من سَجْدتين: السجدة الأولى في الآية الأخيرة من الربع الأول، والسجدة الثانية في الآية قبل الأخيرة من السورة.

سأل عقبة بن عامر رسول الله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أَفُضِّلتْ سورة (الحج) على سائر القرآن بسجْدتين؟ قال: «**نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما**»[2].

وسورة (الحج) سورة مختلطة: مكية ومدنية، فالآيات التي تتحدث عن الحج والهدْي والجهاد والتشريع، آيات مدنية، والآيات التي تتحدث عن التوحيد والبعث والجزاء

---

(١) وسبع وسبعون آية في العدد المكي، وأربع وسبعون آية عند أهل الشام، وخمس وسبعون آية عند أهل البصرة، وست وسبعون آية عند أهل المدينة.

(٢) رواه الترمذي (٥٧٨) وأبو داود (١٤٠٢) والحاكم (٢/ ٣٩٠) والبيهقي (٢/ ٣١٧) وأحمد (٤/ ١٥١) قال الشيخ أحمد شاكر: الحديث صحيح، يُنظَر تحقيقه للدكتور عبد الرحمن عميرة، على «فتح القدير» للشوكاني (٣/ ٤٣٣).

ومشاهد القيامة، مكية.

ومن أعاجيب هذه السورة أن منها ما نزل ليلًا، ومنها ما نزل نهارًا، ومنها ما نزل في الحضَر، ومنها ما نزل في السفر، ومنها ما نزل في الحرب، ومنها ما نزل في السِّلْم، ومنها ما نزل في مكة، ومنها ما نزل في المدينة، ومنها ما نزل في غيرهما، ومنها الناسخ والمنسوخ، ومنها المحكم والمتشابه.

فالآيات الخمس الأُوَل نزلت ليلًا، والأربع التي تليها نزلت نهارًا، والثلاث التي بعدها نزلت في السفر، ومن الآية الثالثة عشرة إلى الآية العشرين، نزلت في الحضَر[1].

ولأن السورة منها ما نزل قبل الهجرة، ومنها ما نزل بعدها، فقد تعددت موضوعاتها وتنوعت وفق خصائص القرآن المكي والمدني.

وقد اشتملت السورة على **أربعة أشواط**، فمع أنها تتناول جوانب التشريع، كأنها سورة مدنية، إلا أن مشاهد القيامة وأهوالها عنصر بارز فيها، كأنها سورة مكية:

الشوط الأول منها: يتعلق بالبعث والنشور في مشاهد مُرْعبة رهيبة، ترتجف لها القلوب، وتطيش لهوْلها العقول: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [١].

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [١٩].

فالله تعالى يحيي الأرض بعد موتها، والساعة آتية لاريب فيها، ومن الناس المجادل المكابر، ومنهم من يعبد الله على حرف.

وبيَّنت السورة مصير المؤمنين والكافرين، وقرَّرت أن الْهُدَى والضلال بيد الله تعالى، وأن الجدال والانحراف عن منهج الله طريق أهل الضلال، وينتهي هذا الشوط بالآية (٢٤) وهو أشبه ما يكون بالقرآن المكي.

والشوط الثاني من السورة: يتناول الحديث عن المسجد الحرام، وبناء البيت العتيق، وتعظيم حرمات الله وشعائره، وتطهير البيت من رجْس الشرك.

وفصَّلت السورة القول في الهدْي والأضاحي، وينتهي هذا الشوط بالإذن للمؤمنين

(١) «زاد المسير» لابن الجوزي (٥/ ٤٠٢).

الذين أُخرجوا من ديارهم في القتال، وهي أول آية تأذن بالقتال بعد قيام دولة الإسلام في المدينة، وينتهي هذا الشوط بالآية (٤١) وهو أشبه ما يكون بالقرآن المدني.

أما الشوط الثالث من السورة: فيعرض أمثلة من مصارع المكذبين، ومشاهد القرى المدمرة ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ وهو درس للمكذبين برسالة الإسلام في كل زمان ومكان، وفيه بيان لسنة الله في خلقه، وفيه أيضًا تسرية عن الرسول ﷺ، وهذا القسم أشبه ما يكون بالقرآن المكي وينتهي بنهاية الربع الثالث من السورة.

أما الربع الأخير: فهو يمثل الشوط الرابع في السورة، وهو يتناول جانب التوحيد وبطلان ما يُعبَد من دون الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [٧٢]، إلى جوار دلائل القدرة في صفحات الكون، وفي بداية هذا الربع بيان وعد الله تعالى بنصر من يقع عليه البغي، ويدفع العدوان عن نفسه.

أبرز موضوعات السورة:

١- ومن أبرز ما تناولته السورة أنها أمرت الناس في بدايتها بتقوى الله تعالى، وخشية يوم الحساب والجزاء، ثم بيَّنت أنواع الناس في هذه الحياة وعاقبة كل نوع: فمنهم من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، ومنهم من يشك في البعث ويرتاب، ومنهم من يكابر ويجحد على غير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ومنهم من يعبد الله على حرف، وفي خلال ذلك تنطق الآيات بدلائل التوحيد، والبعث، والنشور.

٢- ثم يعقُب هذا التنويع من اختلاف أحوال الناس، بشارة للمؤمنين بجنات تجري من تحتها الأنهار، وأن على غير المؤمن الذي يظن أن الله تعالى لن ينصر دينه وكتابه، أن ينتحر ويخْنق نفسه بحبل، فإن الله تعالى مُعْلٍ كلمته، وناصرٌ نبيَّه لا محالة، وليذهب هو إلى دار الجحيم.

٣- وبعد أن بيَّنت السورة انقياد جميع المخلوقات لله تعالى عقَدتْ مقارنة بين خصوم الإسلام وأوليائه، وبيان ما أعده الله للفريقين من جزاء عادل، وذلك في قوله تعالى:

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ إلى نهاية الآية الثالثة؛ فقد جاء في الصحيح: أنها نزلت في غزوة بدر في مبارزة حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، لشيبة وعتبة ابني ربيعة، والوليد بن عقبة، وكان أبو ذر يقسم على ذلك.

٤- ثم تحدثت السورة عن بناء البيت وفريضة الحج وأحكام البُدْن، وذلك من الآية الخامسة والعشرين إلى الآية السابعة والثلاثين. والآيات الأربع بعد ذلك تحدثت عن مشروعية القتال في الإسلام، وأسباب التمكين للأمم الصالحة في الأرض. وفي عشر آيات بعد هذه الآيات الأربع بيان لمصير الأمم التي كذَّبت رُسل الله تعالى في وعيد صريح لكل من يكفر بخاتم المرسلين.

٥- وأعقب ذلك حديث عن قصة الغرانيق التي جاء ذكرها في سورة النجم، وهي هنا من الآية الثانية والخمسين إلى الآية السادسة والخمسين.

٦- وقبل الحديث عن الشرك بالله تعالى وضرْب المثل له، تذكر السورة في مطلع الربع الأخير منها عَشْرٌ من دلائل التوحيد وخصائص الإلهية، ومنها إيلاج كل من الليل والنهار في الآخر، وإمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذن الله، وأن الإحياء والإماتة بيد الله تعالى إلخ.

٧- وختمت السورة بتذكير الناس بنعم الله عليهم، وبيان أن الله تعالى اصطفى من الملائكة رسلًا ومن الناس، وأنه سبحانه قد ارتضى لنا الإسلام دينًا، وأن إبراهيم عليه السلام سمَّانا المسلمين في هذا القرآن وقبله، وأن الرسول سيشهد على هذه الأمة بالبلاغ، وقد اختار الله هذه الأمة لتشهد على سائر الأمم أن رسلهم قد بلَّغتهم، فوجب عليها أن تُوثِّق الصلة بالله، وأن تستمسك بحبله، وتستعين به في كل أمورها.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ (٢٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة المؤمنون هي السورة الثالثة والعشرون في ترتيب المصحف، والسادسة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الطور، وقبل سورة الملك.

وهي ألف وثمان مئة وأربعون كلمة، وأربعة آلاف وثمان مئة حرف، وحرفان.

وسورة المؤمنون نزلت على رسول الله ﷺ في مكة المكرمة.

وهي ثماني عشرة ومئة آية في العدد الكوفي والحمصى، ومئة وتسع عشرة آية عند غيرهم، فقد أسقطوا ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ من العدد.

عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بإسناد فيه مقال، أن النبي ﷺ كان إذا أُنزل عليه الوحي يُسمَع عند وجهه دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل، قال: فأنزل الله عليه يومًا، فمكثْنا ساعة، ثم سُرِّي عنه فاستقبل القبلة، ورفع يديه إلى السماء، وقال: «**اللهم زدنا ولا تنقُصنا، وأَعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تُهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا**»، ثم قال ﷺ: «**لقد أُنزلتْ عليَّ عشرة آيات من أقامهن - أي: من عمل بما في هذه الآيات العشر- دخل الجنة**».

وقرأ ﷺ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ إلى آخر الآيات العشر الأولى من سورة المؤمنون[١].

وأخرج النسائي وغيره أن أم المؤمنين عائشة ﵂ سُئلت عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن.

وقرأتْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ إلى قوله تعالى:

---

(١) يُنظَر طرق الحديث في: «المسند» (١/ ٣٤) برقم (٢٢٣) قال محققوه: وإسناده ضعيف لجهالة يونس بن سُليم، وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣١٧٣) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١٤٣٩) والحاكم (٢/ ٣٩٢) و«مصنف عبد الرزاق» (٣٨٦٠) والبزار (٣٠١). والبغوي في شرح السنة (١٣٧٦) وعبد بن حميد (١٥).

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ قالت: هكذا كان خُلُق رسول الله ﷺ[(١)].

وجاءت آثار من طرق عدة، فيها أن الله ﷻ لمَّا خلق الجنة، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نظر الله تبارك وتعالى إليها، ثم قال لها: تكلَّمي، فقالت: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾[(٢)].

وقد ابتدأت السورة بذكر صفات المؤمنين الذين تحقق لهم الفوز بالجنة والنجاة من النار، ثم ذكرتْ أدلة الإيمان في الأنفس، وفي الكون والآفاق، وأتبعت ذلك بذكر مصائر بعض الأمم التي كذبت دعوة الله سبحانه؛ كقوم نوح، وقوم هود، وقوم موسى، وتحدثت عن أدلة التوحيد، وعن البعث واليوم الآخر، ومصير الكفار الأشقياء في الدار الآخرة، وهذه هي موضوعات القرآن المكي.

وتسميتها بهذا الاسم، جاءت بها السُّنَّة، وسماها بعضهم سورة ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ﴾.

عن عبد الله بن السائب ﷺ قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ الصبح بمكة، فاستفتح سورة المؤمنون، حتى إذا جاء ذِكْر موسى وهارون، أو ذِكْر عيسى، أخذت النبي سَعْلة، فركع[(٣)]. **والسعلة**: هي السعال، فعيي فركع.

ولفظ النسائي عنه أيضًا قال: حضرتُ رسول الله ﷺ يوم الفتح، فصلَّى في قِبَل الكعبة، فخلع نعليه فوضعهما عن يساره، فافتتح سورة المؤمنون، فلما جاء ذكر موسى أو عيسى أخذته سَعْلة فركع.

---

(١) البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٨) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٣٥، ١١٢٨٧) والحاكم (٢/ ٣٩٢) والبيهقي (١/ ٣٠٩) و«صحيح الأدب المفرد» (٢٣٤)، والحديث بدون الآيات في المسند (٢٥٣٠٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه.

(٢) رُوي مرفوعًا وموقوفًا على أبي سعيد، وابن عباس، وغيرهما، والموقوف أصح، يُنظَر: مسند البزار برقم (٣٥٠٨) «كشف الأستار» قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٩٧): رجال الموقوف رجال الصحيح.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤١١) برقم (١٥٣٩٣، ١٥٣٩٥، ١٥٣٩٧) حديث صحيح بإسناد صحيح على شرط مسلم، وهو في مسلم في الصلاة (٤٥٥/ ١٦٣) برقم (٤٥٥) وأبو داود في الصلاة (٦٤٩) وابن ماجه (٨٢٠) وابن خزيمة (٥٤٦) وعبد الرزاق (٢٧٠٧) وابن أبي شيبة (١٤/ ٥٠٥) وابن حبان (١٨١٥، ٢١٨٩) والبيهقي في «السنن» (٣٨٩) والشافعي في «شفاء العي» (٢٤١) والبخاري في تاريخه (٥/ ٨، ١٥٢).

ولفظ (سورة) مضاف إلى المؤمنين، ويقال: سورة المؤمنون، على حكاية اللفظ القرآني، وهكذا في سائر السور، إما أن تُجرَّ على الإضافة، وإما أن تبقى على حكاية اللفظ القرآني.

محتويات السورة: وسورة المؤمنون تربط بين الجزاء والعمل، فَتُعلِّقُ أبصار عباد الله الصالحين بالآخرة، وتُطمْئِنهم إلى مستقبلهم الطيب، ولو كانت حياتهم قاسية.

وفي مقابل ذلك تَذْكُر السورة في نهايتها مستقبل الأشرار السيئ الذي ينتظرهم، وإن كانت حياتهم في بحبوحة من العيش، فهو سراب خادع، صرفهم عن المستقبل المُشرِق، وحجَب أبصارهم عن الحق.

وذكرت السورة مصائر الأمم المكذبة لرسل الله، مع المناقشة والتوبيخ لكل من كان مثلهم إلى يوم القيامة.

وقد تكررت صفات المؤمنين في السورة في ثوب آخر؛ لتوضيح جانب من سيرتهم، ولونٍ من شمائلهم التي استحقوا بها النجاة والفلاح ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وقد وصفهم الله تعالى وصفًا يبعث على الإيمان، ويصرِّح بعظمة الخالق سبحانه.

أما الذين هم في غفلة عن ربهم ممن جحدوا رسالاته، وكفروا بالرسول الخاتم، فإن مصيرهم كالح.

إن البلاد العربية كانت أقرب من غيرها لرسالات الله، وأكثر وَعْيًا بحقائق الوحي؛ فقد كان نوح في شمالي العراق، وهبط إبراهيم من العراق إلى الحجاز، ومرَّ بمصر، واستقر في الشام، وخرج موسى من وادي النيل يريد الفرار بقومه، ومات بالتِّيه، ووُلد عيسى بفلسطين، وزار مصر.

وكان صالح وشعيب في شمال الجزيرة العربية، وكان هود بالأحقاف في الربع الخالي من المملكة العربية السعودية.. الخ.

ولم يكلف هؤلاء الرسل أقوامهم ما لا يطيقون، بل كلفوهم أن يَدَعُوا الخبيث، ويفعلوا

الطيب، ويداوموا على العمل الصالح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [٥١].

وجاءت الرسالة العالمية بعد الرسالات المحلية؛ لِتسُوق للبشر خلاصة الوحي الإلهي كله في هذا القرآن، فشريعة الأنبياء جميعًا شريعة واحدة في أصولها وعقائدها، ولكن كثيرًا من الناس أغمض عينيه، وصمَّ أذنيه ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ورفْضُهم للحق يكلِّفهم ثمنًا باهظًا يوم لقاء الله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

لقد دعا محمد ﷺ البشر قاطبة إلى الإيمان بالله ورسوله الخاتم، فكان منهم من آمن ومنهم من كفر، وبيَّن الله تعالى في السورة مصير الجميع يوم القيامة، وردَّ على شبهات الكفار ودعاويهم الفاسدة، ولكنهم تنكَّبوا الطريق ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

لقد عرضت السورة لدلائل القدرة والوحدانية في هذا الكون العجيب، فبدأت بالإنسان، وانتقلت إلى خلق السموات، ثم لفتت الأنظار إلى مخلوقات الله التي تحيا بالماء من الحيوان، والأنعام، والنبات، والأشجار، وكيف أن الله تعالى سخرها لنفع الإنسان.

وبعد نحو ثلاثين آية من أول السورة تعرضت لجوانب من قصص نوح، وهود، وموسى، ومريم البتول، وعيسى ابن مريم، ثم وجَّهتْ نداءً عامًّا إلى الرسل جميعًا تأمرهم بالمواظبة على أكل الحلال الطيب، والمداومة على العمل الصالح، ومن ثَم بيَّنتْ أن دعوة الرسل جميعًا واحدة في أصولها وعقائدها ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾.

وذكر سبحانه وتعالى في السورة ألوانًا من الأدلة على وحدانية الله تعالى، وهو موضوع السورة الأساس ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

وصوَّرت السورة حال الكفار يوم القيامة وهم يتمنون العودة إلى الدنيا مرتين: مرة عند

سكرات الموت، ومرة عند الحساب لتدارك ما فاتهم، دون جدوى، مع توبيخهم على سخريتهم من الإسلام والمسلمين.

وخُتِمت السورة بأمر النبي ﷺ أن يغض الطرف عن سوء معاملة الأشرار، ويسأل ربه المغفرة للمؤمنين ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **أربعة مقاطع**:

المقطع الأول: يتضمن صفات المؤمنين، أهل الفوز والفلاح والنجاح، ثم بيان أطوار خلق الإنسان ونهايته، والاستدلال على البعث والنشور بخلق السموات، وما ينتج عن نعمة الماء من إخراج الفواكه والبساتين والأشجار والنخيل من الأرض، وبخلق الأنعام وما فيها من ألبان ومنافع، وتسخير السفن لحمل الناس والمتاع، وجاء هذا من أول السورة إلى الآية الثانية والعشرين منها.

المقطع الثاني: يتناول جوانب من قصص أنبياء الله تعالى، وهم: نوح، وهود، وصالح، عليهم السلام، وبعْدهم عدد آخر من الرسل، ذُكر إجمالًا، ثم إشارة إلى أنبياء الله: موسى، وهارون، وعيسى عليهم السلام، وقد جعلهم الله أمة واحدة، فاختلف الناس بعدهم وتنازعوا، وهذا المقطع من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية السادسة والخمسين.

المقطع الثالث: يتضمن أوصافًا لفريقين من الناس:

أحدهما: المؤمنون المشفقون من عذاب ربهم. **وثانيهما**: المغرورون الغافلون عن ربهم، المفتونون بما هم فيه من ترف ومتاع، فتُبيِّن مصير الفريقين، وتستنكر على الفريق الثاني موقفهم العجيب من صاحب الرسالة العالمية، فترُدُّ على شبههم بالعقل والمنطق، وتضرب لهم مثلًا بمصير من كذَّبوا رسول الله ﷺ، وتقيم مجموعة من الأدلة الكونية على وحدانية الخالق سبحانه، ويستغرق هذا المقطع من الآية السابعة والخمسين إلى الآية الثانية والتسعين.

المقطع الرابع والأخير: يوجه الخطاب للنبي ﷺ ولكل داعٍ إلى الله تعالى على بصيرة، أن يدفع السيئة بالحسنة، وألَّا يغضب ولا يضيق صدره.

ويتناول حال المكذبين عند الاحتضار، إلى البرزخ، إلى النفخ في الصور، إلى خفة

الميزان وثِقَله، مع التركيز على حال الأشقياء يوم لقاء الله، وأنهم عند الحساب ينسوْن الماضي ويذهب الزمن من عقولهم، فلا تتماسك الحياة الأولى في ذاكرتهم إلا للحظات قصيرة مبهمة، وهذا المقطع من الآية الثالثة والتسعين إلى نهاية السورة.

وقد ذكرت السورة عشرة أوصاف للمؤمنين: ستة في أولها، وأربعة في وسطها من الآية السابعة والخمسين إلى الآية الحادية والستين.

كما ذكرت أحد عشر دليلًا على وحدانية الله تعالى من الآية الثانية عشرة إلى الآية الثانية والعشرين، ومن الآية الثامنة والسبعين إلى الآية التاسعة والثمانين.

وتفصيل ذلك كله واضح في فهرس السورة.

سُورَةُ النُّورِ (٢٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة النور هي السورة الرابعة والعشرون في ترتيب المصحف، والمئة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الحشر، وقبل سورة الحج، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها أربع وستون آية في العدد الكوفي والبصري والشامي، واثنتان وستون آية في عدد أهل مكة والمدينة وثلاث وستون آية في العدد الحمصي.

وهي ألف وثلاث مئة وست عشرة كلمة، وخمسة آلاف وست مئة وثمانون حرفًا.

وقد نزلت آيات أحداث غزوة بني المصطلق، بعد شهر شعبان من السنة السادسة للهجرة، ونزل بعض أوائل السورة قبل ذلك بثلاث سنوات، أيام أن كان المسلمون يتلاحقون في الهجرة، ويأسر المشركون بعضهم بعضًا، ونزلت قبلها سورة الأحزاب.

وسميت بسورة النور أخذًا من قول الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [٣٥]. وهذه التسمية من عهد النبي ﷺ، ولم يُعرَف لها اسم آخر.

عن حارثة بن مضرِّب قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب: أن تعلَّموا سورة النساء، والأحزاب، والنور[١].

وهذا النور ماديٌّ ومعنويٌّ، وهو من أسماء الله الحسنى.

ومما رُوي في دعاء النبي ﷺ يوم آذاه المشركون بالطائف: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحلّ بي غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله**»[٢].

ومن دعائه ﷺ وهو يقوم الليل: «**اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن**

---

(١) أخرجه أبو عبيدة في «الفضائل» ص ١٢٨ .

(٢) يُذكر هذا من دعاء النبي ﷺ حين رجع من الطائف، وانظر: الطبراني في «الكبير» (١٠٦٠٠) بنحوه، وهو في السلسلة الضعيفة للألباني عن عائشة برقم (٢٩٣٣).

فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن»[١].

ومن دعاء النبي ﷺ إذا خرج إلى الصلاة: «**اللهم اجعل لي في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، واجعل لي في سمعي نورًا، واجعل لي في بصري نورًا، واجعل لي من خلفي نورًا، ومن أمامي نورًا، واجعل من فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، اللهم أعطني نورًا**)[٢].

وعن ابن مسعود ﷺ: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه...

وقد صدَّر الله سبحانه سورة النور بهذا العنوان ﴿سُورَةٌ﴾ وكل سورة في القرآن اسمها سورة، ولكن لم تحْظَ سورة سواها بهذا التصدير؛ وذلك لبيان فضلها وعِظَم ما فيها من الأوامر والنواهي، والأحكام، والحلال والحرام، ولكي ينتبه المسلم لما في هذه السورة مما يُلْقيه الله سبحانه عليه فيها.

ويبيِّن الله جلَّ شأنه أن من هذه الأحكام: العقوبة للزاني، وللقاذف، وآداب الاستئذان والسلام، وغض البصر، وكلها فرائض وحدود، وسبل لوقاية المسلم من الوقوع في جريمة الزنى.

وقد تكرر لفت النظر إلى ما أتت به السورة من أحكام مرتين: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

وفي قوله جلَّ شأنه: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾. بالإضافة إلى الآية الأولى في بدء السورة، فتكون ثلاثًا، وذُكر تبيين الآيات في سبع مواضع منها.

وبهذا فإن السورة أقامت تنظيمًا كاملًا لبناء المجتمع الإسلامي على الفقه والطهارة، وأقامت سياجًا منيعًا حول المحارم التي يخاف المسلم من الوقوع فيها.

---

(١) من حديث ابن عباس في البخاري برقم (٦٣١٧) ومسلم برقم (٧٦٩).

(٢) من حديث طويل لابن عباس في البخاري (٦٣١٦) ومسلم (٧٦٣) و«المسند» (٢٥٦٧) و(٣١٩٤) وأبي داود (١٣٥٣) والترمذي (٣٤١٩)، قال محققو المسند: وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطيالسي (٢٧٠٦) وابن ماجه (٥٠٨) وابن خزيمة (١٢٧) وابن حبان (١٤٤٥).

وسورة النور تتحدث أساسًا عن جريمة الزنى والقذف به، بمناسبة قصة الإفك الذي رُميت به أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها.

فالسورة تبدأ بالحديث عن الزنى وحدِّه المقرر شرعًا، وتذكُر بعده حدَّ القذف والملاعنة بين الرجل والمرأة، وكأن هذا بمثابة المقدِّمة أو التوطئة لذكر حادثة الإفك، ثم تَذْكُر حادثة الإفك في عشر آيات، وجاء التعقيب عليها في ست آيات بعد ذلك.

وتتناول آيات السورة الوسائل التي تقي المسلم من الوقوع في جريمة الزنى، سواء أكانت آدابًا أم أخلاقًا، ونحو ذلك، فتتحدث عن صيانة البيوت وحرماتها، وأنه لا يجوز الاطلاع على ما في داخلها، ويَشْرعُ الله سبحانه في السورة: الإذن والسلام قبل الدخول في البيوت، ويوجب غضَّ البصر من الرجل والمرأة على حد سواء؛ لأن النظر بريد الزنى، وسهم إبليس، وهو مقدمة الزنى وأوله.

ثم تتحدث السورة عن حدود إبداء المرأة لزينتها عند المحارم وعند غير المحارم، وتُبيِّن أن الطريق الوحيد المشروع للغريزة الجنسية وإشباعها في الإنسان، هو الزواج المشروع.

وتتحدث السورة بعد ذلك عن تعليم الأطفال -وهم صبْية قبل سن البلوغ- ألَّا يدخلوا على آبائهم وأمهاتهم في وقت النوم والخلوة والراحة إلَّا بإذن؛ حتى لا تقع أعينهم على عوراتهم، أو على ما لا يجوز لهم الاطلاع عليه.

ويَشْرَعُ الله سبحانه الإذن في الدخول للأبناء على الآباء بعد سن البلوغ، وأنه يجب عليهم أن يستأذنوا كغيرهم عند إرادة الدخول على الأمهات والآباء.

ويخفف الله سبحانه في السورة -أي: يرفع الحرج- عن المرأة الكبيرة المُسِنَّة، في وضع الحجاب مع عدم إظهار الزينة، فلها أن تخفف من ملابسها الخارجية في بيتها، وألَّا تتبرج بزينة، وتُبيِّن مَنْ يجوز للمسلم أن يتناول معه الأكل من الأقارب والأصدقاء.

وفي منتصف السورة تُربَط كل هذه الأحكام بنور الإيمان الذي يقذفه الله سبحانه في قلب المؤمن، وتضرب المثل لهذا النور في قلب المؤمن، وتذكرُ أنه ظُلمة في قلب الكافر، وتبيِّن مجافاة المنافقين لهذه الأحكام التي نزلت على رسول الله ﷺ وجاءت في

كتابه الكريم، وفي ثنايا هذه الأحكام يربط الله سبحانه العبد بربه ربطًا إيمانيًّا، فيبيِّن عاقبة المؤمنين والكافرين.

وتتحدث الآيات في السورة عن جانب من مظاهر قدرة الله تعالى في الكون، وأنه يقلِّب الليل والنهار، ويحوِّل السحاب إلى مطر لا غنى للخلق عنه، وهو جلَّ شأنه خلق كل دابة من ماء: فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، ويَعِدُ الله عباده المؤمنين المقيمين لمنهج الله تعالى أن يمكِّن لهم في الأرض، وأن يبدِّل خوفهم أمنًا، كما ذكرت السورة صفات المؤمن الحق في نهايتها.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **خمسة مقاطع**:

المقطع الأول: يتناول العلاقة الخاصة بين الرجال والنساء، والعقوبات على الجرائم الجنسية، والوقاية من الزنى بتشريع الحد فيه، وتحريم نكاح الزانية التي لم تتب، وحدّ القذف، وتشريع اللعان، وتحريم خطوات الشيطان، ويتناول هذا المقطع، حديث الإفك، ومشاكلة الخبيثين للخبيثات، والطيبين للطيبات، وينتهي هذا المقطع بالآية السادسة والعشرين من السورة.

المقطع الثاني: يتناول وسائل الوقاية من جريمة الزنى، والآداب الخاصة بدخول البيوت، ومنها: الأمر بغضِّ البصر، والنهي عن إبداء زينة المرأة لغير محارمها، والحضُّ على إحصان الفرج بالزواج، وهذا المقطع من الآية السابعة والعشرين إلى الآية الرابعة والثلاثين من السورة.

المقطع الثالث: يتناول جانب الربط بين تشريع الأحكام ودلائل وحدانية الله تعالى، ويظهر أثر ذلك على المعمِّرين لبيوت الله تعالى بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ويقابل مَثَل النور للمؤمنين بمَثَل الظلمات للكافرين في ثنايا الأدلة على وحدانية الله تعالى، من تسبيح الخلائق بحمده، وتقلُّب الليل والنهار، وإزجاء السحاب، وخلْق الدواب على اختلاف أنواعها وأشكالها، وهذا المقطع من الآية الخامسة والثلاثين إلى الآية السادسة والأربعين من السورة.

المقطع الرابع: يتحدث عن مسلك المنافقين الرافضين لحكم الله ورسوله ﷺ، المتقوِّلين بالإفك على أم المؤمنين عائشة ﵂، وفي مقابلهم المؤمنون المطيعون لله

والرسول، أهل الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والنصر على غير المسلمين، وهذا المقطع من الآية السابعة والأربعين إلى الآية السابعة والخمسين من السورة.

المقطع الخامس: يتحدث عن آداب الاستئذان بالنسبة للصبيان والبالغين وأحكام الضيافة، وحكم القواعد من النساء.

وتختم السورة بوصفٍ جامعٍ للمؤمنين، والنهي عن نداء النبي ﷺ باسمه المجرد، وإعلان أن الله تعالى هو مالك هذا الكون بما فيه، وهذا المقطع من الآية الثامنة والخمسين إلى نهاية السورة.

سُورَةُ الْفُرْقَانِ (٢٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الفرقان) هي السورة الخامسة والعشرون في ترتيب المصحف، والثانية والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (يس)، وقبل سورة (فاطر).

وآياتها سبع وسبعون آية باتفاق أهل العدد، وثمان مئة واثنتان وتسعون كلمة، وثلاثة آلاف وسبع مئة وثلاثة وثمانون حرفًا، وهي سورة مكية.

وسمِّيت سورة (الفرقان)؛ لوقوع لفظ الفرقان فيها ثلاث مرات: في أولها، ووسطها، وآخرها، وهي تسمية توقيفية أقرها النبي ﷺ، كما جاء في حديث عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها، وكدتُ أن أَعْجَلَ عليه، ثم أمهلته حتى انصرف، ثم لَببتُه بردائه، فجئتُ به رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا، يقرأ على غير ما أقرأتنيها، فقال لي: «**أرسلْه**»، ثم قال له: «**اقرأ**»، فقرأ، فقال: «**هكذا أُنزلت**»، ثم قال لي: «**اقرأ**» فقرأت، فقال: «**هكذا أُنزلت، إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه**»[١].

ولم يُعرَف لها اسم غير هذا.

عناصر القرآن المكي:

والقرآن الكريم الذي نزل على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، كان يخاطب في الغالب أقوامًا كفَّارا مشركين بالله سبحانه، ولذلك فإن القرآن المكي الذي نزل في نحو ثلاثة عشر عامًا كان يتكوَّن من ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: غرْسُ الإيمان والتوحيد في نفوس الكفار المشركين؛ لأنهم كانوا يشركون بالله - سبحانه - في عبادتهم، ويتقربون إليه بالأوثان والأصنام، وكانوا يكفرون

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٤١٩) وهذا لفظه، وانظر: أرقام (٤٩٩٢، ٥٠٤١، ٦٢٣٦، ٧٥٥٠) و«صحيح مسلم» برقم (٨١٨).

بمحمد ﷺ، وبالوحي الذي جاء به من عند الله، ويكفرون باليوم الآخر، فكان العنصر الأول في السور المكية هو عنصر التوحيد، أي: إفراد الله سبحانه بالعبادة، وإخلاص التوجه له وحده.

والعنصر الثاني: هو الإيمان بمحمد ﷺ، وبالقرآن الذي جاء به من عند الله، وبالوحي الذي حمله إليه، وهو نفس الوحي الذي نزل على سائر الرسل.

والعنصر الثالث: هو الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث، وحساب، وجزاء على الأعمال.

وسورة (الفرقان) من هذا القبيل، من القرآن المكّي الذي خاطب المشركين والكفار في وقت النبي ﷺ، ويخاطب المشركين والكفار في يومنا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو يطالبهم بإفراد العبادة لله وحده.

ويطالبهم بالإيمان برسول الله ﷺ، وبالقرآن الذي نزل عليه من عند الله.

كما يطالبهم بالإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث، وحساب، وجزاء على الأعمال.

عناصر السورة

١- وهكذا أثبتت السورة أن القرآن منزل من عند الله تعالى، ونوَّهتْ بشأن الرسول ﷺ، فأقامت دلائل صِدْقه، وبيَّنت أنه على طريقة الرسل السابقين، وأنه فوق حظوظ الدنيا، وأن قومه كذَّبوه، وضَربتْ على ذلك الأمثلة ببعثة الرسل السابقين، وتكذيب أقوامهم لهم، مثل: قوم موسى، ونوح، وهود، وصالح، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وقد افتتحت هذه الجولة برسالة محمد ﷺ في أول آية من السورة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ وهذا هو عنصر الوحي والرسالة من عناصر القرآن المكي.

٢- وأثبتت السورة بعد ذلك البعث والحساب والجزاء، وبشَّرت الصالحين بالثواب، وأنذرت المشركين والمكذبين بسوء المصير، وبيَّنتْ ندمهم وتحسُّرهم على شركهم، وتكذيبهم للرسول ﷺ.

وقد ابتدأت هذه الجولة بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝١٠﴾. وهذا هو عنصر الإيمان باليوم الآخر.

٣- ثم استدلت السورة على وحدانية الله تعالى، وتفرُّده بالخلق، وتنزهه سبحانه أن يكون له شريك، أو ولد، وقد ابتدأت هذه الجولة بقوله تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾.

فكل عنصر منها ابتدأ بجملة ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ وهذا هو عنصر التوحيد ونبذ الشرك.

شبهات المكذبين بالقرآن:

وفي سورة (الفرقان) إحصاء لشبهات خصوم الإسلام فيما يأتي ذكرها:

١- منها: تكذيب أعداء الإسلام بالوحي المنزل على محمد ﷺ ودعوته إلى التوحيد، فقالوا في شبهتهم الأولى: ما هذا القرآن إلا كذب ملفَّق، اختلقه محمد ﷺ، وأعانه على افترائه قوم آخرون.

وقالوا أيضًا: هذا القرآن من أساطير الأولين التي أُمْليتْ على محمد ﷺ.

وتكذيب الرسل من أقوامهم أمر شائع في الناس من قديم، فلا غرابة في هذا.

٢- وقالوا في شبهتهم الثانية: هذا الرسول بشر، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

وهذه شبهة قالتها جميع الأمم لجميع الرسل.

٣- وقالوا في شبهتهم الثالثة: إن تتبعون إلا رجلًا مسحورًا.

واتهام الرسل بالسحر أمر شائع من قديم، فهكذا قال قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم موسى لرسلهم.

٤- وقالوا في شبهتهم الرابعة: لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا؟

وقد ردَّت سورة (الأنعام) في آياتها [٧-١٠]، وسورة (الإسراء) في آياتها [٥٩، ٩٣-٩٦]، وغيرهما، على هذه الشبهة بما مفاده أن الله تعالى لو فعل لهم ما أرادوا ما لانت قلوبهم، ولا آمنوا بدعوة خاتم الرسل ﷺ.

٥- وقالوا في شبهتهم الخامسة: لولا نزِّل هذا القرآن على محمد جملة واحدة؟

وقد غاب عنهم أن لكل حادث حديثًا، ولكل سؤال جوابًا يأتي في وقته، وأن نزوله

منجَّمًا أثبت لفؤاد النبي ﷺ.

٦- واعترفوا في شبهتهم السادسة بأن القرآن قد زلزل معتقداتهم، وكشَف زيفها، وأن باطلهم قد اتضح، وأنهم كادوا يعترفون بالحق فقالوا:

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ﴾ [الآية ٤٢].

٧- لقد عزَّ على المشركين أن يطلب منهم الرسول ﷺ السجود لإله واحد، ويتركوا أوثانهم التي ألفوها، فأنكروا السجود للواحد الأحد، وقالوا للرسول ﷺ: ما نُطيع أمرك، وانصرفوا عنه في نفور شديد.

وسورة (الفرقان) تعْرِض على المكذبين بالقرآن، مصارع الأمم التي كذبت رسلها، فتحذرهم وتخوفهم أن يحيق بهم مصير الفراعنة، ومصير عاد وثمود، وأصحاب الرسِّ، وما حدث لقوم لوط.

وتعْرِض عليهم سلسلة من مشاهد القيامة، كالذين يُحشرون على وجوههم إلى جهنم، والذين يدعون على أنفسهم بالثبور والهلاك، وبالذي يعض على يديه، يقول:

﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الآية: ٢٧].

وتعرض السورة سوء مصير الذين استهزؤوا بخاتم الرسل ﷺ في الدنيا، حين يرون العذاب بأعينهم، ويقال لهم: من أضل سبيلًا؟ أنتم أم هم؟ إلى جوار ما يسلِّي الله به نبيه بأن شأنه شأن الرسل السابقين قبله، يأكلون ويمشون في الأسواق، ويكلفه ربه في النهاية بأن يصبر ويجاهد، ويتحمل مشاقَّ الدعوة، ويتوكل على مولاه وخالقه.

وبعد تخويف المكذبين بخاتم المرسلين بذكر أمثلة من مصارع السابقين، تتجه السورة إلى أسلوب آخر في علاجهم، وهو إعمال العقل والفكر في آثار قدرة الله تعالى، فهو - سبحانه - مرسِل الرسل، ومنزِل الكتب، ولذلك فإن السورة تهيب بالعقل أن يفكر في ملكوت السموات والأرض.

دعوة إلى النظر والتأمل في ملكوت الله:

١- فينظر العبد **أوَّلًا** كيف مدَّ الله الظل، ولو شاء لجعله ساكنًا لا يتحرك، ولكنه يمتد

ويتقلَّص، فيكون أمام وخلف، ويقع تحت قدم الإنسان، إن قدرة الله تعالى تفعل ذلك دون جُهد ولا تكلُّف.

٢- وينظر الإنسان **ثانيًا** في حركتي الليل والنهار، كيف يَسْكُن الليل ويهدأ، فيغمَضُ جفن الإنسان، ولكن قلبه ينبض وصدْره يعلُو ويهبط، وجهازه الهضمي في شغل موصول، وسرعان ما يأتي النهار لمواصلة أعباء الحياة، ومواجهة مشكلاتها.

٣- وينظر المرء **ثالثًا** إلى السحُب وهي تحمل الرياح، وتوزعها شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، وتحمل الغيث لتأمين حاجاتنا، وحاجات الأرض الهامدة، وحاجات الحيوان والطيور وسائر الدواب ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [٤٩، ٥٠].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الآية: ٥٣].

٤- وينظر **رابعًا** كيف خلق الله من الماء بشرًا فجعله نسبًا وصهرًا، ومع ذلك فإن كثيرًا من الخلق يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

٥- وينظر المرء **خامسًا** كيف خلق الله هذا الكون بعالَميه العُلْوي والسفلي، وخلق ما هو أعظم منهما وهو العرش ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الآية: ٥٩].

٦- وينظر المرء **سادسًا** إلى آيات الله في الآفاق فهو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [٦١]. وهو الذي جعل كُلًّا من الليل والنهار يخلُف الآخر في حركة متواصلة متعاقبة ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]. والمنتفعون بذلك هم عباد الرحمن الذين ذكر الله تعالى لهم عشر خصائص في هذه السورة، استحقوا بها المنزلة الرفيعة في الجنة، ويلْقون فيها تحية وسلامًا.

موضوعات السورة:

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **ثلاثة مقاطع**:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية الثانية والعشرين، وهذا المقطع يتضمن غالبًا مزاعم الطاعنين في القرآن، فيفنِّدها ويردُّ عليها بالبرهان القاطع، والحجة الدامغة، ويتخلل ذلك

الثناء على الرسالة، وعلى صاحب الرسالة، وعلى القرآن الذي نزل عليه من عند الله تعالى.

المقطع الثاني: من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية الثانية والستين، وهذه الجولة تبدأ بالحديث عن مشاهد القيامة، وهو يوم عسير على الكافر، تتشقق فيه السماء، ويعض الظالم فيه على يديه حسرة وندمًا، ويشكو الرسول إلى ربه هجْر أمته للقرآن، والعمل لهذا اليوم يقتضي التذكير بمصير الأمم الغابرة، ويقتضي التأمل في آيات الله الكونية؛ كي يستعدَّ المرء لهذا اليوم.

أما المقطع الثالث فهو من الآية الثالثة والستين إلى نهاية السورة، وهو يتناول أوصاف عباد الرحمن، وما أكرمهم الله به من التوحيد الخالص، والأخلاق الحميدة التي استحقوا بها الأجر العظيم في جنات النعيم.

وتختم السورة بتقرير هوان البشرية على الله تعالى، لولا القلوب الطائعة المستجيبة لربها، فإن هي جحَدتْ وكَذَّبت فإن عذاب الله تعالى سيكون ملازمًا لها لا ينفك عنها.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ (٢٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الشعراء) هي السورة السادسة والعشرون في ترتيب المصحف، والسادسة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الواقعة)، وقبل سورة (النمل).

وهي مئتان وسبع وعشرون آية في العدد الكوفي[1].

وهي ألف ومئتان وتسع وسبعون كلمة، وخمسة آلاف وخمس مئة وأربعون حرفًا.

وسُمِّيت سورة (الشعراء)؛ لأنها تفرَّدت بذكر كلمة (الشعراء)، وقد كان شعراء مكة: كالنضر بن الحارث، والعوراء بنت حرب، زوج أبي لهب، يهجُون النبي ﷺ وهم المعنيُّون -وقت التنزيل بآية: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ وكان في مكة شعراء مسلمون من الذين هاجروا إلى الحبشة، أما شعراء المدينة فقد أسلموا قبل الهجرة، ومنهم: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وهم المعنيُّون -وقت التنزيل- بالذين آمنوا وعملوا الصالحات في آخر السورة.

وشأن علماء بني إسرائيل كان مشهورًا بمكة، وكان لأهل مكة صِلات ومراجعة مع اليهود بالمدينة في شأن بعثة محمد ﷺ.

نزلت سورة (الشعراء) على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، وهو مُهتمٌّ بأمر المشركين، يُجهِد نفسه في إيمانهم، وكان ﷺ يَلْقى منهم العنَت، والتكذيب، والأذى في صباحه ومسائه، فنزلت سورة (الشعراء) كغيرها من السور المكية التي تُعزِّي الرسول ﷺ وتُطيِّب خاطره من تكذيب المشركين له وللقرآن.

فهي تقصُّ على رسول الله ﷺ سبع قصص من قصص الأنبياء والمرسلين على غير ترتيبهم التاريخي، كما جاء في السورة: موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين.

---

(١) والشامي والمدني الأول، ومئتان وست وعشرون آية في العدد المكي والبصري والمدني الأخير.

وكل رسول منهم جاء ليقول لقومه ما قاله نوح عليه السلام كما ذكرت السورة: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾. فكلُّ رسول لا يطلب من قومه إلا الإيمان والتقوى، وإفراد الله تعالى بالعبادة، وأنه لا يطلب منهم أجرًا على تبليغ الرسالة، ومع ذلك فقد قوبلوا بالرفض، وعوملوا بغلظة، وقُتِل بعضهم وهو يبلغ رسالة ربه، فكانت عاقبتهم ما نطقت به الآية: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾.

وكل قصة من هذه القصص انتهت بما يُلْفت الانتباه إلى أخذ الموعظة والعبرة مما لَحِق بهذه الأمة، جرَّاء تكذيبها لرسول من رسل الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فانتهت كل قصة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾، تعقيبًا على أحداثها.

وقد تكرر هذا التعقيب ثماني مرات في السورة: سبع مرات منها بعد ذكر أحوال الأمم الماضية، ومرة واحدة في أول السورة بعد ذكر الأرض التي نعيش فوقها، ومنها بدأنا، وإليها نعود.

وشأن سورة (الشعراء) شأن السور المكية في عناصرها الأساسية، فقد عالجت أصول الدين من إخلاص التوحيد، وعدم الشرك بالله تعالى، في مثل قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾.

وعالجت قضية البعث والحساب والجزاء، في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

وعالجت قضية الوحي والرسالة في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

وخوَّفت من عاقبة التكذيب بالله ورسله بعذاب يدمر المكذبين ويهلكهم في الدنيا، أو بعذاب ينتظرهم في الآخرة ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾﴾.

والدعوة الإسلامية تلقى مقاومة شديدة من أعداء الإسلام في كل زمان ومكان؛ فهم لا يُصدِّقون بالآخرة، ولا يُصدِّقون بالوحي المنزل على رسول الله ﷺ.

ولذا: أعرضوا عن الإيمان بالرسالة الخاتمة، ومنهم من جعل الإسلام رسالة خاصة بالعرب، وبمقدار ما يحرص الإسلام على دعوتهم وإيمانهم بمقدار ما يُكذِّبون ويُكابرون.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون معجزة محمد ﷺ الدالة على رسالته وَحْيًا يُتلى، حيث تستمع الأجيال المتقدمة والمتأخرة إلى هذا القرآن الذي يخاطب العقول، ويهاجم الخرافات الشائعة.

وتنقسم آيات سورة (الشعراء) إلى ثلاثة أقسام، وهي:

١- مقدمة السورة التي جاءت في تسع آيات من أولها.

٢- ثم موضوع السورة الذي اشتمل على سبع قصص من الأمم القديمة مع أصحاب الشرائع السماوية، وهي: قصة موسى مع فرعون، وإبراهيم مع قومه، ونوح مع قومه، وقصص: عاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة.

وقد استغرقت هذه القصص السبع من الآية العاشرة إلى الآية الحادية والتسعين بعد المئة.

٣- أما القسم الثالث فهو التعقيب على ما جاء في السورة، من الآية الثانية والتسعين بعد المئة إلى نهاية السورة، الآية السابعة والعشرين بعد المئتين، وهو يتضمن حال المتقين والغاوين، والسعداء والأشقياء، ومصير كلٍّ من الفريقين يوم الدين، بالإضافة إلى التنويه بشأن القرآن ونزوله بلغة العرب.

سُورَةُ النَّمْلِ (٢٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سور: الشعراء، والنمل، والقصص، هذه السور الثلاث سور مكية، نزلت متتابعة - كترتيبها في المصحف- وموضوعها واحد، وأسلوبها واحد، ومنهجها واحد، فهي تهتم بأصول العقيدة: التوحيد، والرسالة، والبعث، وكلٌّ منها يشتمل على مقدمة وتعقيب، وبينهما موضوع السورة.

وكلها تبدأ بمقدمة عن القرآن الكريم، تتناولها في بضع آيات، ثم تذكر عددًا من قصص الأنبياء والمرسلين، فقد ذكرت سورة (الشعراء) سبع قصص، وذكرت سورة النمل أربع قصص عن: موسى، وسليمان، وصالح، ولوط ﷺ، وانفردت سورة القصص بقصة واحدة هي قصة موسى ﷺ، وهي القصة الأولى في السور الثلاث، فكل سورة منها تتناول حلقة منها، وبعد نهاية القصص القرآني يأتي التعقيب في نهاية السورة.

وسورة (النمل) هي السورة السابعة والعشرون في ترتيب المصحف، والثامنة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الشعراء)، وقبل سورة (القصص).

وهي ألف وثلاث مئة وسبع عشرة كلمة، وأربعة آلاف وسبع مئة وتسعة وتسعون حرفًا.

وعدد آياتها عند الكوفيين ثلاث وتسعون آية[1].

وتسمى سورة (النمل)، كما في صحيح البخاري، وجامع الترمذي، ولفظ النمل لم يذكر إلا في هذه السورة، وذَكَر أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن أنها تسمى سورة (الهدهد)، ولفظ سليمان ذُكر في عدة سور، ومع ذلك فقد ذكر بعضهم أنه يسميها سورة (سليمان)؛ لأن ما ذُكر فيها عنه لم يُذكر في سورة أخرى.

وقد حوت سورة (النمل) المكية عجائب عن عالم الحيوان، بما في ذلك كلام النمل والهدهد، وتفريقُه بين التوحيد والشرك في شهادته على (بلقيس) وقومها، وأنهم يسجدون

(١) وأربع وتسعون آية في العدد الشامي والبصري، وخمس وتسعون آية في العدد المدني والمكي.

للشمس من دون الله، وهذا مما يشير إليه قوله تعالى في آخر السورة: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [٩٣]. فربما يكشف المستقبل عن منطق: الطير، والدواب، والهوام.

موضوعات السورة:

وفي صدر السورة بيان موجز لمصائر المؤمنين والكافرين، فالهدى والبشرى للمؤمنين، والضياع والخسران للكافرين، وقد أشارت السورة إلى هداية المؤمنين، وضلال الكافرين في أولها.

وفي قصص: موسى وفرعون، وسليمان وبلقيس، وصالح مع قوم ثمود، ولوط مع أهل المؤتفكة، ذكر الله لنا مصائر هذه الأمم التي كذبت رسلها؛ ليكون لنا فيها عبرة وعظة، فنؤمن بخاتم المرسلين ﷺ، ولا تبقى ديانة أخرى على وجه الأرض إلا انضوت تحت لوائه.

ثم وجهت السورة خمسة أسئلة تُرسي فيها قواعد التوحيد، وتشرحها لكل ذي لبٍّ وبصيرة.

وعلى هذا يمكن تقسيم السورة إلى:

مقدمة: وهي الآيات الست الأولى منها.

وموضوع: وهو أربع قصص لأنبياء الله ورسله، وهم: موسى وسليمان وصالح ولوط عليهم السلام، وهذا من الآية السابعة إلى الآية الثامنة والخمسين منها.

وتعقيب: وهو من الآية التاسعة والخمسين إلى الآية الثالثة والتسعين، وهي نهاية السورة.

وقد تضمنت المقدمة خلاصة لمصير كل من المؤمنين والكافرين، وتضمَّن التعقيب تفصيلًا لهذه الخلاصة، بدأها بخمسة أدلة تقرر وحدانية الخالق سبحانه. وثنَّتها ببيان أن علم قيام الساعة عند الله وحده، وأن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون.

وساقت بعض المشاهد والأحوال التي يراها الناس يوم الحشر الأكبر حين يفزعون ويرهبون، ويكونون على قسمين: السعداء الأبرار، والذين يُكَبُّون في النار على وجوههم.

وبيَّنت السورة في آخرها أن لواء الدعوة في آخر الدهر معقود لصاحب الرسالة العظمى الذي صنع بالقرآن أمة، وظيفتُها أن تُبلغ الدعوة، وتصنع به أمَمًا على غرارها.

وسيكشف المستقبل الكثير عن مستقبل الإسلام، ومستقبل الكفر في هذه الدنيا وما بعدها.

أما القصص **الأربع**:

فأولها: طرف من قصة موسى عليه السلام يتعلق ببدء نزول الوحي عليه في طور سيناء، ومن ثَم تكليفه بالرسالة إلى فرعون وملئه، ثم تكذيبهم له، وهم على يقين بصدقه، مع الإشارة إلى سوء عاقبتهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي: برسالة موسى ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهذه الآية هي نهاية قصة موسى عليه السلام في هذه السورة.

وثانيها: وراثة نبي الله سليمان للمُلْكِ من أبيه، وتعليم الله له لغة: الطيور، والحشرات، والحيوانات، وقصته مع النملة، ومع بلقيس ملكة سبأ، وإسلامها على يديه في نهاية الأمر، بعد أن كانت تعبد الشمس من دون الله، وهي قصة لأصحاب المُلْك والجاه، فقد استخدم سليمان سلطانه في الدعوة إلى الله تعالى، ولم يترك حاكمًا حائرًا إلا دعاه إلى الله، وانتهت هذه القصة بالآية الرابعة والأربعين من السورة.

وثالثها: طرف من قصة نبي الله صالح عليه السلام، فقد أرسله الله إلى قوم ثمود، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، وتآمروا على قتله، ولكنهم بدل أن يقتلوه قتلوا الناقة، فأذاقهم الله العذاب الأليم ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾.

وانتهت هذه القصة بالآية الثالثة والخمسين.

والقصة الأخيرة: هي قصة نبي الله لوط عليه السلام، مع أهل مدينة (سدوم) الفسقة الذين استمرؤوا الشذوذ الجنسي علنًا في مجالسهم ونواديهم، ولما دعاهم لوط عليه السلام، لترك هذا الفجور همُّوا بإخراجه ونفيه من البلاد، فدمر الله القرية وجعل عاليها سافلها، وانتهت هذه القصة بالآية الثامنة والخمسين، وجاء التعقيب على هذا القصص بقوله تعالى:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [٥٩].

وخُتمت السورة بالحديث عن الآخرة والحساب، ومن ذلك خروج الدابة التي تكلم الناس قرب قيام الساعة.

وتبيِّن السورة في النهاية أن المستقبل سيكون للإسلام، وأن مستقبل الكفر محدود في الدنيا بمعرفة ظواهر الأمور، والغفلة عن العلم الحقيقي الموصِّل إلى سعادة الدارين.

سُورَةُ الْقَصَصِ (٢٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (القصص) هي السورة الثامنة والعشرون في ترتيب المصحف، والتاسعة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النمل، وقبل سورة الإسراء.

وهي ثمانٍ وثمانون آية باتفاق، وألف وأربع مئة وإحدى وأربعون كلمة.

وخمسة آلاف وثمان مئة حرف.

وهي سورة مكية إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [٨٥]. فقد نزلت بالجُحْفة والنبي ﷺ في طريقه إلى المدينة مهاجرًا.

عن يحيى بن سلام قال: بلغني أن النبي ﷺ حين هاجر، نزل عليه جبريل بالجُحْفة، وهو متوجه من مكة إلى المدينة، فقال له: أتشتاق يا محمد إلى بلدك التي وُلدت فيها؟ قال: «**نعم**»، فقرأ عليه الآية[١].

قيل: وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الآيتان [٥٢، ٥٣]. فقد نزلتا مع آخر سورة (الحديد) في أصحاب النجاشي حين قدموا المدينة، وشهدوا وقعة أُحد.

ولا يُعرَف للسورة اسم آخر، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ الآية [٢٥].

والطواسين الثلاث، نزلت متتابعة، كترتيبها في المصحف، وهي متماثلة في أن القصة الأولى في كل منها، هي قصة موسى عليه السلام.

وقد نزلت سورة (القصص) والمسلمون في مكة قلة مستضعفة، والمشركون هم أصحاب الجاه والقوة والسلطان؛ نزلت لترفع من معنويات المسلمين، وتطمئنهم على مستقبلهم، فكما منَّ الله على الذين استضعفوا في الأرض، ووعدهم بأن يجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، طمأن الله رسوله ﷺ أن يعود إلى مكة بعد أن خرج منها مكرهًا مطاردًا.

---

(١) «تفسير الألوسي» (٢٠/ ٤١).

وقد عاد المهاجرون إليها فاتحين بعد أن خرجوا منها مقهورين مكسورين، وهكذا فميزان القوة عند الله تعالى هو الإيمان، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، وإن خذله أهل الأرض جميعًا.

ولذا اهتمت السورة بتثبيت قلوب المؤمنين وتقوية عزائمهم، وتبشيرهم بأن العاقبة لهم، وأن الله تعالى سيجعل من ضعفهم قوة، ومن قلتهم كثرة، كما جعل من موسى وقومه.

واهتمت السورة ببيان مظاهر قدرة الله تعالى في الكون، ومنها إهلاك الظالمين ولو ساندتْهم جميع قوى الأرض.

وسُنن الله تعالى لا تتخلف ولا تتبدل على مدار الزمان، فقد اعتذر المشركون لرسول الله ﷺ عن اتباع الهدى بخوفهم من تخطُّف الناس لهم لو تركوا عقائدهم القديمة، فساق الله لهم قصة موسى وفرعون؛ تُبيِّن لهم أن الأمن من المخاوف يكون في جوار الله تعالى، ثم ساق لهم قصة قارون في صورة أخرى تؤكد هذا المعنى، وعقَّب الله سبحانه على ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ الآية [٥٧]. وسُنَّة الله تعالى في إهلاك الطاغين لا تكون إلا بعد إعذارهم وإنذارهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية [٥٩].

فسورة (القصص) اشتملت على قصتين هما: قصة موسى وفرعون، وقصة قارون، وبينهما حثٌّ على الاعتبار والاتعاظ بما جاء في القرآن من قصص، وبما لحق بالأمم المكذِّبة لرسل الله من مصير مؤلم، وفي السورة لفت الأنظار إلى آثار قدرة الله تعالى في الكون بما يستلزم توحيده سبحانه، وعدم تقليد من أشركوا مع الله غيره.

وقد بدئت السورة بالإشارة إلى أن هذا القرآن مُنزَّل لتوحيد الخالق سبحانه، وخُتمت بالنهي عن الإشراك بالله تعالى.

فالتوحيد الخالص، وتصديق الوحي المنزل، والإيمان بالبعث واليوم الآخر، هو موضوع السورة الذي بدئت وختمت به في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ الآية.

والقصة الأولى في سورة القصص: هي قصة موسى وفرعون، وفيها ثلاث حلقات لم

تذكر إلا في هذه السورة، وكأنَّ المسلمين وَدُّوا أن تُفصَّل لهم قصة موسى ﷺ التي جاء ذكرها في سورتي: الشعراء، والنمل، فكانت هذه الحلقات الثلاث:

وأولاها: حلقة ولادة موسى، ونشأته، وتربيته في قصر فرعون؛ ليكون هلاكه على يديه.

وثانيتها: حلقة وكْز موسى للقبطي وَكْزةً أدت إلى قتله خطأ، وهو يدفع العدوان عن الإسْرَائِيلِي.

وثالثها: حلقة هجرة موسى إلى مدين، وزواجه من ابنة الرجل الصالح، وعودته إلى مصر بعد أكثر من عشرة أعوام.

ثم ذكرت السورة نبوة موسى وموقف فرعون من دعوته، وبيان عاقبة ظُلْمِه وتكذيبه ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

وهذه القصة تمثل قصة حاكم جائر يدَّعي الربوبية والألوهية، فيقول للناس: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. ويقول لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [٣٨].

وهذا الحاكم الطاغية يواجه بجبروته طفلًا رضيعًا لا حول له ولا قوة، ولكن هذه القوة وهذا الجبروت لم يغنيا عنه من الله شيئًا، فيتربى الطفل في حجر عدوه بأمواله وتحت رعايته، ورعاية امرأته التي انفتح قلبها له.

ولَمَّا كان موسى في حراسة العناية الإلهية، والقوة القاهرة، فقد كانت نهاية فرعون على يد هذا الرضيع الذي نشأ في بيت عدوه.

وهكذا ربطت السورة بين هذه القصة، وبين عودة النبي ﷺ إلى مكة فاتحًا منتصرًا، بعد أن خرج منها نتيجة التآمر على قتله ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ الآية [٨٥].

وفي كل زمن يوجد فراعنة يظلمون الناس، ويستعبدونهم، ويكون لهم أعوان وبطانات سوء، فإذا استكان الناس للظلم، وقبلوا الضيم، وشاع المنكر بينهم، وارتضوا حياة الذل والمسكنة، فإن الله تعالى يسلط الظلم وأهله عليهم حتى تستيقظ ضمائرهم، ويأخذوا

بأسباب الخلاص، وحينئذ يحل بهم نصر الله وتأييده، فيجعلهم سادة بعد أن كانوا عبيدًا، وحاكمين بعد أن كانوا محكومين، ويسلط الله على الطاغية من ينغص عليه عيشه، ويقضُّ مضجعه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

ومحور قصة موسى مع فرعون يدور حول الحق والباطل، والخير والشر، وجند الرحمن وجند الشيطان، وتبيِّن أن عاقبة الظلم وخيمة، وأن عاقبة الصبر والتقوى جميلة، وتبيِّن أن المستضعفين في الأرض ستنكسر قيودهم، ويستردون حرياتهم ما داموا يأخذون بالأسباب، ويفضلون الموت على الحياة، ولم يكونوا عبيدًا لثرواتهم، أو نزواتهم، أو مناصبهم، أو شهواتهم.

ولذا: فإن القصة الثانية في سورة (القصص)، تمثل طغيان الثروة والمال، وادعاء أن قارون قد أوتي المال عن جدارة، أو خبرة، أو وراثة، وأنه مستحق له، نظرًا لما أوتي من علم ودراية، هذا هو قارون وأشباهه في طول الأرض وعرضها.

لقد بغى فرعون وتطاول بجبروته وحُكمه وسلطانه، وبغى قارون وتطاول بعلمه وماله، وكانت النهاية واحدة، ففرعون أغرقه الله في اليمِّ وهو مليم، وقارون خسف الله به وبداره الأرض، ولم توجد قوة على وجه الأرض حالت بينهما وبين هذا المصير الذي وضع حدًّا للبغي والفساد في الأرض.

وقد استغرقت قصة موسى وفرعون خمسين آية من السورة، وجاء التعقيب عليها في خمس وعشرين آية، واستغرقت قصة قارون ثماني آيات، وجاء التعقيب عليها في خمس آيات.

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ(٢٩)

مُقدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (العنكبوت) هي السورة التاسعة والعشرون في ترتيب المصحف، والخامسة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الروم)، وقبل سورة (المطففين)، وهي من آخر ما نزل بمكة.

وعدد آياتها تسع وستون آية عند الجميع عدا الحمصى، وعدها الحمصى سبعون آية، وكلماتها تسع مئة وثمانون كلمة، وحروفها أربعة آلاف ومئة وخمسة وستون حرفًا، وسميت سورة (العنكبوت) لذكره فيها.

وهي سورة مكية على الأرجح، وقيل: ما عدا الآيات العشر الأُوَل منها فإنها مدنية، وهي كالسور المكية تتناول العقيدة، والرسالة، والبعث:

١- أما جانب التوحيد فهو في بدء السورة، حيث الحديث عن الإيمان، وما يتعرض له المؤمنون من فتن. ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾.

٢- وأما جانب النبوة، والوحي، والرسالة فيشير إليه مثل قوله تعالى في السورة:

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٨﴾.

٣- وأما جانب البعث والحشر والنشر، والحساب والجزاء، فيشير إليه مثل قوله تعالى في السورة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩﴾.

والجهاد الذي تتحدث عنه السورة هو جهاد النفس، وجهاد الدعوة، والصبر على الفتن وأذى أعداء الإسلام.

جاء في أول السورة قوله تعالى ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾[٦]. وقد رُبط هذا الجهاد بآخر آية في السورة، وفيها وعد بجنْي ثمرة هذا الجهاد ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ الآية [٦٩].

والجهاد في الآيتيْن: هو جهاد النفس والهوى والشيطان، وجهاد الدعوة والصبر على ا لأذى.

وهذا الجهاد هو المحور الذي تدور حوله السورة، وهو موضوعها الأصيل، وفي إطار هذا المحور تتكون السورة من **ثلاثة عناصر**:

العنصر الأول: عن حقيقة الإيمان، وجهاد النفس، وجهاد الدعوة، وسنة الابتلاء والفتنة، ومصير كلٍّ من: المؤمنين والمنافقين والكافرين، وهذا العنصر اشتملت عليه الثلاث عشرة آية التي في أول السورة.

العنصر الثاني: لمن يستعجل ثمرات الجهاد، ويستبطئ مراحله، ويتمثل هذا في جهاد الرسل الكرام، وصبْرهم على أقوامهم، مع قلة الثمرة، وطول المدة، وهم: نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى، ومحمد، عليهم السلام.

وتشير السورة في هذا العنصر إلى بعض الطغاة، وهم: عاد، وثمود، وقارون، وفرعون، وهامان، فتُبيِّن ما لحق بمن كذَّب الرسل من هلاك، وتبيِّن ضخامة جهد الأنبياء، وضآلة الحصيلة، وهذا العنصر من الآية الرابعة عشرة إلى الآية الخامسة والأربعين.

العنصر الثالث: يتناول أسلوب دعوة أهل الكتاب، ومجادلتهم بالحسنى إلا من ظلم منهم واعتدى.

ثم تربط السورة هذا كله بجملة من الآثار الكونية التي تدعم جانب التوحيد كخلق السموات والأرض، ونزول الماء من السماء، وتسخير السفن في البحار... إلخ، وهذا إلى نهاية السورة.

عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ كان يصلي في كسوف الشمس والقمر أربع ركعات، وأربع سجدات، يقرأ في الركعة الأولى بالعنكبوت أو الروم، وفي الثانية بـ (يس)[1].

---

(١) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٢/ ٤١٨) برقم (١٧٩٢) وفيه سعيد بن حفص النفيْلي، قال ابن حجر في «تقريب التهذيب» (١/ ٢٩٣): صدوق تغير في آخر أيامه، وقال ابن القطان: لا أعرف حاله، وهو في «المسند» (١٩٧٥، ٣٢٣٦) وهو حديث ضعيف، ولكنه صحيح بدون ذكر هذه السور كما في حديث صفة صلاة الكسوف والخسوف في «سنن الدارقطني» برقم (٧٨٩).

سُورَةُ الرُّومِ (٣٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الروم) هي السورة الثلاثون في ترتيب المصحف، والرابعة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الانشقاق)، وقبل سورة (العنكبوت).

وهي تسع وخمسون آية في المصحف المكي والمدني الأخير، وستون آية عند غيرهما.

وهي ثمان مئة وتسع عشرة كلمة، وثلاثة آلاف وخمس مئة وأربعة وثلاثون حرفًا.

وسميت سورة (الروم) في عهد النبي ﷺ، ولم يرد ذكْر اسم الروم في غيرها من القرآن.

وهي سورة مكية، قال ابن عباس: نزلت سورة الروم بمكة[١].

وقد نزلت سنة إحدى عشرة من البعثة غالبًا؛ لأن انتصار الروم على الفرس كان في عام بيعة الرضوان[٢].

وكان هذا الانتصار بعد سبع سنوات من غلبة الفرس للروم، كما ذكر القرآن الكريم.

وقال أبو سعيد الخدري ﷺ: لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا، فنزلت ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[٣].

وهذه الرواية على قراءة فتح الغين من (غَلبت الروم)[٤] وهي قراءة شاذة، والرواية التي قبلها على قراءة ضم الغين وهي القراءة المتواترة.

فيكون المعنى: وهم من بعد غلبهم فارس سيغلبهم المسلمون[٥].

---

(١) أخرجه ابن الضريس ١٧ والنحاس ص ٦١١ والبيهقي (٧/ ١٤٣).

(٢) قاله قتادة وغيره، وقد استفاضت الروايات بهذا كما في «تفسير ابن عطية» (٣/ ٣٢٨) وغيره.

(٣) جاء هذا عند الترمذي برقم (٢٩٣٥) و«صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٣٣٨) ورقم (٣٤٢٠) وهو حديث صحيح كما قال الألباني.

(٤) وهي قراءة شاذة وردت عن أبي سعيد، وعليٍّ بن أبي طالب، ومعاوية بن قرة، وعبد الله بن عمر، يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٢٧).

(٥) يُنظَر: «أسباب النزول» للسيوطي ٢١٦ و«تفسير الطبري» (٢١/ ١١).

فالآية تحتمل أن تكون بشارة للمؤمنين بالنصر على عدوهم، وقد تحقق هذا في يوم بدر، أو في بيعة الرضوان.

وتَحتمِل أن تكون بشارة للمؤمنين في صدق نبيهم من أن الروم ستغلب فارس.

وجاء من عدة طرق، أن النبي ﷺ قرأ في صلاة الصبح بسورة الروم[1].

وموضوع سورة (الروم) هو موضوع السور المكية، فهي تعالج قضايا العقيدة، والرسالة، والبعث والجزاء:

١- وقد ابتدأت السورة في موضوع العقيدة بالحديث عن قصة معيَّنة، هي قصة الحرب التي دارت بين الفرس والروم، وانتهت في أول الأمر بانتصار الفرس، ثم كان النصر بعد ذلك للروم.

وكان ذلك في وقت قد احتدم فيه الجدل حول العقيدة، بين المسلمين السابقين إلى الإسلام في مكة قبل الهجرة، وبين المكذبين بالله ورسوله واليوم الآخر.

وكان الروم أهل كتاب، والفرس مجوسًا يعبدون النار، وأهل الكتاب أقرب إلى المسلمين من المجوس، فنزلت هذه الآية لتبشر بنصر الروم على الفرس.

وفي هذا السياق وبَّخت السورة الكافرين؛ لعدم تفكيرهم في دلائل التوحيد، والبعث، والنشور.

وأول ذلك التفكير في الكون الصغير، وهو نفس الإنسان المليئة بدلائل التوحيد، ثم التفكير في الكون الكبير بسمواته وأرضه، وما فيهما، وما بينهما.

ومن الدعوة إلى التفكير في النفس والكون إلى وجوب التأمل والنظر في أحوال السابقين الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعًا.

وفي هذا السياق تقيم السورة اثني عشر دليلًا على وحدانية الله تعالى في ست آيات منها، وهي من الآية الحادية والعشرين إلى الآية السادسة والعشرين، وتضرب السورة المثل بعد

(١) أخرجه عبد الرزاق برقم (٢٧٢٥) وأحمد في «المسند» برقم (١٥٨٧٣) قال محققوه: إسناده حسن ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير أبي روح فهو حسن الحديث، وأخرجه البزار (٤٧٧) زوائد والطبراني في الكبير (٨٨١).

ذلك على التوحيد والشرك، ثم تأمر الناس باتباع الدين الحق، وإسلام الوجه لله تعالى.

ومن دلائل التوحيد في السورة: أن الله تعالى يرسل الرياح مبشرات بالمطر، والسفن تمخر في عباب البحر بإذنه تعالى، وقد جاء ذلك في الآية [٤٦] حيث يرسل الله الرياح فتثير السحاب مثقلًا بالماء، فينشره في السماء، ويجعله قطعًا متفرقة فينزل المطر من بين السحاب، كما في الآية [٤٨]. ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ﴾ الآية ٥٠ من سورة الروم.

وتُخْتَم دلائل التوحيد هذه بالآية السابعة والعشرين من السورة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾.

٢- وموضوع البعث والنشور في السورة يتقدم دلائل التوحيد، وذلك من الآية الحادية عشرة إلى الآية السادسة عشرة، بالإضافة إلى الآيات [٥٥-٥٧] قرب نهاية السورة، وهو يوم لا ينفع فيه عذر، ولا تُقبل فيه رجعة ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وقد أفاضت السورة في الاستدلال على البعث؛ لإبطال مزاعم المشركين المنكِرة للحساب والجزاء، ومن ذلك ما جاء مفصلًا في **أربعة استئنافات** متماثلة الأسلوب، ابتدأ كلٌّ منها بلفظ الجلالة، وجاءت جارية مجرى الإخبار عن الحقائق التي لا قبل لهم بدحضها، ولا يسعهم إلا الإقرار بها مع العجز عن نقضها.

والاستئناف الأول: مبدوء بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[١١].

ولا ينازع أحد في أن الله تعالى هو خالق الخلق، فالكفار يعترفون بهذا، وإذا سألتهم: من خلق السموات والأرض؟ فسيكون جوابهم: هو الله.

قال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [الرعد: ١٦].

والاستئناف الثاني: هو المبدوء باسم الجلالة، في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ﴾ [٤٠].

والاستئناف الثالث: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [٤٨].

ويُعقب الله تعالى على هذه الآية، فيقول: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ .

والاستئناف الرابع: جاء في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [٥٤].

٣- وقد أشارت السورة إلى العنصر الثالث من عناصر القرآن المكي، وهو عنصر الوحي والرسالة، وبدأت ذلك بالتنبؤ بحديث غيبي هام، وهو انتصار الروم على الفرس، وذلك من أظهر الدلائل على صدق محمد ﷺ فيما جاء به من الوحي، ومن ثَمَّ إلى دمج الرسول ﷺ في موكب الرسالات الإلهية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [٤٧].

وتبيِّن السورة أن الرسول ﷺ لا يملك إلا البلاغ، فهو لا يهدي العُمى، ولا يُسمع الصم، والكفار كالموتى لا يسمعون ولا يُبصرون، ولا ينتفعون بالآيات الباهرة، والبراهين الساطعة، فاصبر -يا رسول الله- على أذى من لم يؤمن حتى يأتي نصر الله.

ويمكن تقسيم السورة على النحو التالي:

١- مقدمة تتناول غلبة الروم للفرس، وذلك في الآيات السبع الأول.

٢- دعوة إلى النظر والتأمل في ملكوت الله، لغرس عقيدة التوحيد واقتلاع جذور الشرك، وقد استغرق هذا معظم السورة، من الآية الثامنة حتى الآية الثانية والثلاثين.

٣- جولة مع الإنسان حين يمسه الخير أو الضر، وبسط الرزق أو قبضة، وذلك من الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية الرابعة والخمسين.

٤- حديث عن الساعة والاستعداد لها في الآيات الخمس الأخيرة.

سُورَةُ لُقْمَانَ (٣١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة لقمان هي السورة الحادية والثلاثون في ترتيب المصحف، والسابعة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الصافات، وقبل سورة سبأ.

وهي أربع وثلاثون آية عند أهل الشام والبصرة والكوفة، وثلاث وثلاثون آية عند الحجازيين.

وكلماتها خمس مئة وثمان وأربعون كلمة، وألفان ومئة وعشرة أحرف.

ولم يُعرف لها اسم آخر غير (سورة لقمان)، وسُمِّيت كذلك لاشتمالها على قصة لقمان الحكيم.

وسبب نزول السورة: أن قريشًا سألوا رسول الله ﷺ عن قصة لقمان مع ابنه، على وجه الاختبار والتعنت والتعجيز.

وفي حديث البراء قال: كنا نصلي خلف النبي ﷺ الظهر، نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان والذاريات[١].

وسورة لقمان سورة مكية، نزلت على قوم وثنيِّين يعبدون الحجارة والأصنام، شأنها شأن السور المكية، فهي تغرس في نفوس الناس أصول الإيمان المتعلقة بالتوحيد، والوحي والرسالة، واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء. فتخاطب الفطرة البشرية والعقل البشري بدلائل الإيمان، ومؤثرات الكون الناطقة بوحدانية الخالق العظيم، المستحق للعبادة دون سواه.

١- فيذكر الله سبحانه وتعالى في السورة دلائل الوحدانية والقدرة في خلق السَّمَوَات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والجبال والبحار، والنبات والأشجار.. إلخ وهذا بالإضافة إلى ما جاء في المقطع الثالث من السورة بذكر جملة من الأدلة الكونية على وحدانية الله تبارك وتعالى.

---

(١) «السنن الكبرى» للنسائي برقم (١٠٤٥، ١١٤٦١) في صفة الصلاة، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٣٠). وإسناده ضعيف.

وعن هذا وذاك يقول سبحانه ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

٢- وتذكر السورة دلائل النبوة والرسالة في هذا الكتاب المحْكَم، ومعارضة المشركين للوحي والنبوة.

٣ - وتذكر اليوم الآخر، فتحذِّر من هذا اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه والد ولده، ولا مولود والده.

والناس تجاه هذه العناصر الثلاث منهم المؤمن المنعَّم يوم لقاء الله ومنهم الجاحد المعذَّب في نار الجحيم.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **أربعة مقاطع رئيسة**:

المقطع الأول: من أول السورة إلى الآية الحادية عشرة، وهذه الآيات التي صُدِّرت بها السورة تمهِّد لقصة لقمان، وهي تنوِّه بهدْي القرآن الكريم في جعل الناس **قسمين**:

أ- المحسنون المقيمون للصلاة، المؤمنون بالله واليوم الآخر، مع بيان الجزاء الحسن، المعدِّ لهم في الدار الآخرة.

ب- والمجرمون الذين يشترون الضلالة بالهدى، ويصدون الناس عن سبيل الله، مع بيان الجزاء السيء المعدِّ لهم في الدار الآخرة كذلك.

وذلك ليعلم الناس أن الهدَى هدى الله، وأنه لا يُلتفت إلى أخبار أهل الضلال.

إلى جوار تذكير الناس بالمؤثر النفسي، والعامل الروحاني، وهو أن الخالق لهذا الكون هو المستحق للعبادة دون سواه.

المقطع الثاني: يتناول قصة لقمان الحكيم في وصاياه لابنه في جانب العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والآداب، وذلك في ثماني آيات، من الآية الثانية عشرة إلى الآية التاسعة عشرة من السورة، وجاء في ذلك أربع وصايا هي: النهي عن الشرك بالله، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، وتقرير عقيدة الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من حساب دقيق وجزاء عادل، وجاء في الوصية الرابعة: سبعة من التكاليف الشرعية، هي: إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على المكروهات، وعدم التكبر، وعدم

الإعجاب بالنفس، والتواضع والسكينة، وخفض الصوت بالكلام..

المقطع الثالث: يسوق جملة من الأدلة الكونية على وحدانية الله تبارك وتعالى، في تسخير السَّمَوَات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والفُلْكِ التي تجري في البحار بقدرة الله تعالى، إلى جوار بيان علم الله تعالى الشامل المحيط، ونعم الله تعالى الظاهرة والباطنة، ويتخلل ذلك الحض على إسلام الوجه لله، وبيان أن الله تعالى هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

ومن ذلك وجوب اللجوء إلى الله تعالى في حالات الشدة والرخاء معًا.

وقد استغرق هذا المقطع من الآية العشرين إلى الآية الثانية والثلاثين.

المقطع الرابع: يمثل ختام السورة، ويهدف إلى معالجة القلوب بدعوة الناس إلى تقوى الله تعالى، والخوف من لقائه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وتقرير المسؤولية المستقلة، ومن ثَم إلى علوم الغيب الخمسة التي ذُكرت في نهاية السورة، وهي: وقت قيام الساعة، ووقت نزول المطر، وعلم ما في الأرحام، قبل تكوينه وبعد تكوينه، وعلم ما يحدث في المستقبل، وفي أيِّ مكان يموت الإنسان، وهذا المقطع جاء في الآيتين الأخيرتين من السورة.

سُورَةُ السَّجْدَةِ (٣٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة السجدة هي السورة الثانية والثلاثون في ترتيب المصحف، والثالثة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النحل، وقبل سورة نوح.

وهي سبع وعشرون آية عند البصريين، وثلاثون آية عند غيرهم.

وثلاث مئة وثمانون كلمة، وألف وخمس مئة وثمانية عشر حرفًا.

وشهرتها سورة (السجدة)، وتسمى سورة (ألم تنزيل)، أو (ألم تنزيل السجدة)، أو (ألم السجدة)، وتسمى أيضًا: سورة (المضاجع).

قراءتها في فجر الجمعة وعند النوم

عن أبي هريرة ﷺ قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾[١].

ويُقصد بقراءتهما في صلاة الصبح يوم الجمعة حصول السُّنَّة، ويكون السجود تبعًا لذلك، ولا يلزم قراءتهما في كل يوم جمعة، ولا يقرأ بعضهما، ولا يُقرأ بسورة السجدة في الركعتين، فإن السُّنة لا تحصل بذلك.

وعن جابر ﷺ قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، «فتح الباري» (٢/ ٤٣٨٠) وفي البخاري (٨٩١، ١٠٦٨) و«صحيح مسلم» (٢/ ٥٩٩) برقم (٨٨٠) والنسائي (٩٥٤) وابن ماجه (٨٢٣) وابن أبي شيبة (٢/ ١٤٠) وله طرق أخرى عن ابن عباس وغيره.

(٢) أحمد في «المسند» (٣/ ٣٤٠) برقم (١٤٦٥٩) قال محققوه: حديث صحيح، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٣١٦) و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠٥٤٢) و«السلسلة الصحيحة» (٥٨٥) وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٢٤) وعبد بن حميد (١٠٤٠) والدارمي (٣٤٠٤).

أغراض السورة: وسورة السجدة، سورة مكية، تعالج قضية الوحي وصدق الرسول ﷺ، كما تعالج قضية التوحيد، وقضية البعث والمصير، وهذا الأخير هو المحور الذي تدور عليه السورة، وكل السور المكية تعالج هذه القضايا الثلاث بأسلوب خاص ومؤثرات خاصة، تلتقي كلها في مخاطبة العقل والقلب البشري؛ لإيقاظ الفطرة، وإحياء الإيمان في النفوس:

١- تبدأ السورة بدفع الشك والارتياب عن القرآن العظيم، فتردُّ على الذين زعموا أن محمدًا ﷺ افترى القرآن من عند نفسه، وتدْحَضُ هذا البهتان بروائع الحجة والبرهان، وتُفيد في صدْرها أن هذا القرآن قد نزل من عند الله تعالى يقينًا إلى أمة لم تألف الوحي من قبل، فصاغها في قالب جديد، وحمَّلها رسالة عالمية، وكانت الرسالات قبله رسالات محلية قديمة في بعض القبائل، أو البلاد، أو الشعوب، انتهت هذه الرسالات في مكانها، و زمانها، أو بانتهاء المدة التي من المفروض لها أن تنتهي فيها، أما رسالة محمد ﷺ فهي رسالة عالمية، تَحرَّك بها العرب، فغيَّروا وجه العالم.

٢- وبعد الحديث عن الوحي والرسالة في الآيات الثلاث من أولها، تتناول السورة جانب العقيدة والتوحيد في ست آيات بعدها، فتلفِت النظر إلى خالق هذا الكون الرحْب، وهيْمنته عليه وتدبير أمره، ورفْع الأمر إليه من الأرض إلى السماء.

كما تلفتُ النظر إلى نشأة الإنسان وأطوار خلقه، وما وهبه الله من السمع والبصر والإدراك، والناس بعد ذلك قليلًا ما يشكرون.

٣- وفي الجولة الثالثة للسورة، تتناول جانب البعث والحساب، والثواب والعقاب، فتردُّ على المنكرين بَعْثهم، بعد تفرق ذَرَّاتِهم في التراب، بصيغة الجزم واليقين أنهم راجعون إلى ربهم في يوم يشتد فيه الحساب، وأنهم سيندمون على إلحادهم وكفرهم عندما يُنكِّسون رؤوسهم عند ربهم، ويعلنون يقينهم بالحق الذي أنكروه من قبل، فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾ رأينا بأعيننا، وسمعنا بآذاننا أنَّ البعث والحساب حق ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[١٢]. ولكن هذا اليقين جاء بعد فوات الأوان.

والقرآن الكريم يوقظ عقول وقلوب الأشقياء بهذه الآيات وأمثالها، قبل فوات الأوان وهم في الدنيا.

وقد استغرقت هذه الجولة خمس آيات من السورة من الآية العاشرة إلى الآية الرابعة عشرة.

٤- وبعد ذمِّ الجاحدين للتوحيد، المكذبين بيوم الدين، يأتي الوجه المقابل بالثناء على المؤمنين الصادقين، وهو مشهد ساطع مضيء في مقابل المشهد البائس المكروب، وتصف السورة هؤلاء المؤمنين بأنهم لا يقضون ليلهم في ارتكاب الجريمة، ولا في السهرات الحمراء، والمتع الحرام، إنهم ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[١٦].

إن الصلاة لا مكان لها - غالبًا - عند أهل المدينة المدنيَّة.

أما المؤمنون المخلصون فهم يقيمون الصلاة سحابة النهار وبعض الليل، ولن يفلح إلا من قدم الإيمان والعمل الصالح ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾.

وسينتقم الله من المجرمين الكافرين، ويذيقهم من عذاب القبر وعذاب الآخرة.

٥- ثم ذكَّر الله تعالى نبيه ﷺ بما لقيه المرسلون قبله من العنت والتكذيب وتحمُّل المشاق، وعلى رأسهم موسى عليه السلام، فما عليك -يا محمد- إلا أن تصبر وتتحمل؛ فإن الله تعالى سيفصل بينك وبينهم يوم لقائه.

٦- ويعقُب ذلك إشارة إلى مصارع المكذبين لرسلهم في الأمم السابقة.

وكما أن الله تعالى يحيي الأرض الموات بنزول الماء عليها، فإنه تعالى يحيي قلوب عباده بالوحي المنزل من السماء، ويبعثهم بعد موتهم للحساب والجزاء، فأعرض -أيها الرسول- عن المكذبين بك وبدعوتك، وانتظر الفرج والفتح عليك بالنصر من الله تعالى، فإنه آتٍ لا محالة.

سُورَةُ الأَحْزَابِ (٣٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الأحزاب) هي السورة الثالثة والثلاثون في ترتيب المصحف، والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الأنفال)، وقبل سورة (المائدة)، وهي ثلاث وسبعون آية باتفاق أهل العدد، وألف ومئتان وثمانون كلمة. وخمسة آلاف وتسع مئة وتسعون حرفًا.

وسُميت سورة (الأحزاب)؛ لتحزُّب اليهود والمشركين من قريش، وكنانة، وغطَفان، ضد الإسلام وأهله، وكانوا عشرة آلاف، أرادوا غزْوَ المسلمين في المدينة، فردَّ الله كيدهم، وكفى المؤمنين القتال.

وسورة (الأحزاب) سورة مدنية باتفاق، وكان نزولها سنة خمسٍ من الهجرة، وقيل: سنة أربع، وهي السنة التي وقعت فيها غزوة الأحزاب، وتسمى غزوة الخندق.

وقد نُسخ من سورة (الأحزاب) (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم)(١) وبقي حكمها والعمل بها، كما هو ثابت في صحيح السُّنَّة، غير أن الرجم لا يختص بالشيخين، بل يشمل الشابّيْن أيضًا، لأن المراد بالشيخ والشيخة: الزاني المحصن، كبيرًا كان أو صغيرًا ولهذا فإن (عمر) ﷺ لَمَّا طلب كتابتها في المصحف قال له النبي ﷺ **«لا أستطيع»**(٢).

والخلاصة: أن فريضة الرجم للزاني الثيب، ثابتة بالسنة القولية والفعلية، للكبير والصغير، ورفْض النبي ﷺ كتابتها في المصحف لعلمه أنها ستنسخ لفظًا.

(١) يُنظَر: «المسند» (٥/ ١٣٢) برقم (٢١٢٠٧) عن أبي بن كعب، بإسناد فيه عاصم بن بهدلة، وبقية رجاله ثقات، انظر (٢١٥٩٦) عن زيد بن أرقم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير كثير بن الصلت، فقد روى له النسائي وهو ثقة (محققوه) وهو في «مسند الطيالسي» برقم (٥٤٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧١٥٠) ورقمه في ط الرسالة (٧١٠٨، ٧١٠٩، ٧١١٢) وابن حبان (٤٤٢٨) «الإحسان» (١٣٣٦٣) وعبد الرزاق (٥٩٩٠) و«المستدرك» (٤/ ٣٥٩) كلهم عن عاصم عن زِرِّ بن حُبَيْش، وصححه الحاكم.

(٢) انظر كلام الشيخ محمد الصادق عرجون، في كتابه (محمد رسول الله) (٤/ ١١٩) وكلام البخاري في صحيحه في تحقيق الحديث (٦٨٢٩) من المسند، وابن حجر في الفتح (١٢/ ١٤٣) وانظر كلامنا في أول سورة النور.

ومن سورة الأحزاب ما نُسخ حكمه وتلاوته معًا.

وافتقد زيد بن ثابت ﷺ آية ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [٢٣].

وهو يَنْسخ مصحف عثمان ﷺ، والآية محفوظة في صدره وصدور كثير من الصحابة ﷺ، ولكنه لم يجدها مكتوبة إلا عند خزيمة بن ثابت الأنصاري.

وكان لابد من وجود الآية مكتوبة عند اثنين على الأقل من الصحابة، فجعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين.

كما افتقد زيد ﷺ الآيتين الأخيرتين من سورة (التوبة)، فوجدهما عند أبي خزيمة بن أوس.

عن ابن عباس ﷺ أن عمرَ ﷺ قام فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: أيها الناس، إن الله بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أُنزل عليه، آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألْبتَّة) ورجم رسول الله ﷺ ورجمْنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضِلوا بترك فريضة أنزلها الله[١].

والأحاديث تشير إلى أن سورة الأحزاب كان فيها قرآن، ثم نسخ لفظه وحكمه.

ويمكن تقسيم السورة إلى **خمسة مقاطع**:

المقطع الأول: يأمر الله تعالى فيه الأمة في شخص نبيها ﷺ بطاعة الله وحده، واتباع أمره والتوكل عليه، وتنهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين، وفيه إبطال لما كان عليه الناس قبل الإسلام فيما يتعلق بالظهار والتبنِّي، وفيه تقرير أن النبي ﷺ هو الوالد الروحي للأمة، وهو أحرص الناس على هُداها، ورمز الإسلام الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور.

وهو ﷺ أولى بهم من أنفسهم ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وكان النبي ﷺ لا يصلي على الميت الذي يتحمل دينًا عليه، فلما نزلت هذه الآية، وفتح الله على رسوله ﷺ بالغنائم أخذ يتحمل ديون الناس، ويصلي على المؤمنين، ويواسي الفقراء، ويكفل

(١) الإمام مالك في الموطأ (٢/ ٨٢٣) ورقمه في رواية أبي مصعب عن أُبَيٍّ بن كعب (١٧٦٦) بنحوه ويُنظَر: البخاري (٦٨٣٠) ومسلم (١٦٩١).

اليتامى. . . ، وكما اعتُبر النبي ﷺ أبًا للمؤمنين، فإن زوجاته أمهات لهم في البِرِّ والحُرمة وعدم الزواج بهن.

وفي هذا المقطع إبطال التوارث عن طريق المؤاخاة، وفيه ميثاق التوحيد الذي أخذه الله تعالى على الخلق، وعلى رأسهم أولو العزم من الرسل، وقد جاءت هذه الأحكام في الآيات الثماني الأولى من السورة.

المقطع الثاني: يبدأ من الآية التاسعة إلى الآية السابعة والعشرين، وهو في وصف ردِّ كيد الأحزاب المهاجمين ودفع جيوشهم، وفيه وصف لحال المؤمنين الصادقين، والمنافقين الذين في قلوبهم مرض، وهو وصف يكشف عن القيم الصحيحة والزائفة.

المقطع الثالث: يتناول الحديث عن زوجات النبي ﷺ، وتخييره لهن بين الصبر على شظف العيش، أو التسريح بإحسان، والأمر لهن بعدم الخروج من بيوتهن إلا لحاجة مشروعة، وعدم اللين في مخاطبة الرجال، وعدم التبرج، فإنهن في موضع القدوة لغيرهن من سائر النساء، وقد ساوى الله تعالى بين الرجال والنساء في الثواب والعمل، وقد تناول هذا المقطع زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش ﵂؛ لإبطال ما كان يترتب على قاعدة التبنِّي التي أبطلها الإسلام.

وأعقب ذلك بعض الأحكام المتعلقة بالزواج، وتنظيم الحياة الزوجية للنبي ﷺ، ومن ثَم إلى تشريع الحجاب، وبيان محارم النساء.

ويُختم هذا السياق بأمر النساء جميعًا بالتستر والاحتشام عن طريق الثياب الواسعة السميكة غير اللافتة للنظر؛ حتى لا تشيع الفاحشة بين الناس، ولا يتعرضْن للأذى، وحتى تُصان أعراض المسلمين، وتنقطع ألسنة المرجفين. وقد استغرق هذا المقطع معظم السورة من الآية الثامنة والعشرين إلى الآية الثانية والستين.

المقطع الرابع: يتناول الحديث عن القيامة، وما يتبع ذلك من سلوك الطريق القويم، وعدم التقليد واتباع أهل الضلال، وحمل الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال، وذلك في الإحدى عشرة آية التي انتهت بها السورة.

تلخيص أغراض السورة في ثلاث نقاط:

أولًا: الأحكام التشريعية: كأحكام الظِّهار والطلاق والتبنِّي وما يترتب عليه من أحكام، وقصْر الإرث على الأقارب، وتعدد الزوجات، والحجاب الشرعي، والصلاة على الرسول ﷺ وما يتعلق بشؤون الدعوة.

ثانيًا: الحديث عن غزوتَي: الأحزاب وبني قريظة، وكشف خفايا المنافقين.

ثالثًا: التوجيهات والآداب الاجتماعية: كآداب الوليمة، والستر، وعدم التبرج، وآداب احترام الرسول ﷺ وزوجاته، ورضا الناس بما رزَقهم الله تعالى، وحمل الأمانة، وغير ذلك.

خمسة نداءات للنبي ﷺ:

وقد تضمنت السورة **خمسة نداءات للنبي ﷺ** بصفته هادي الأمة، وقائدها لتنفيذ ما يُطلب في كل نداء مما يخصه، أو يخص الأمة:

النداء الأول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾

وهو بغرض تحديد واجبات الرسالة ووجوب الانتماء إلى الله وحده، وعدم الركون لغير المسلمين وفي هذه الآية، وفي الآيتين بعدها ثلاثة توجيهات للنبي ﷺ، تحمل نهيًا وثلاثة أوامر، كلها زيادةُ تثبيتٍ للنبي ﷺ، كما تقول للمتفوق: دُم على هذا التفوق، ولا تتراخ، فالنبي ﷺ لم يُفرِّط في تقوى الله تعالى، ولم يهادن أهل الكفر والنفاق، ولم يتبع غير الوحي المنزل، ولم يتوكل على غير الله سبحانه، والخطاب في كل ذلك يراد به الأمة.

النداء الثاني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [٢٨]

وهو بغرض التنويه بمقام أزواجه ﷺ فبيْتُ النبوة بيتٌ يكتفي بأيْسر الزاد، ولا مكان فيه للشهوات والملذات، وهو غير بيت الملوك.

وقد كان النبي ﷺ خارجًا عن سلطان بطنه، ولا مجال في حياته للاستكثار من أطايب الطعام والشراب واللباس، لكن زوجاته ﷺ جئْن من بيوت ثراء وسيادة، ألِفْن فيها رغد العيش، ولذا فسُرعان ما اجتمعْن ضدَّه ﷺ يطلبْن نفقة أوسع، ومتاعًا أرغد، فجاء الوحي يصادر هذا كله! وقد خيَّرهُنَّ الله تعالى بين الطلاق، أو الرضا بمعيشة الكفاف، فاخترن الله ورسوله.

وقد اختارت أمهات المؤمنين عيش الكفاف على ترك بيوت النبوة، واستحققْن شرف الصحبة الكريمة.

النداء الثالث ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [٤٥].

وهو بغرض تحديد تقلُّبات شؤون الرسالة في معاملة الناس؛ فجاء هذا القرآن ليخاطب الناس كافة إلى قيام الساعة.

فلا يوجد قبل محمد ﷺ نبوة عامة للبشر كلهم، وكان كل نبي يُرسل إلى قومه خاصة.

أما الشمس التي طلعت على الكون كله، فهي شمس النبوة الخاتمة.

وإذا كان محمد ﷺ شاهدًا على أمته، فإن أمته شاهدة على الناس أجمعين بهذا الكتاب المبين.

النداء الرابع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ [٥٠].

وهو بغرض سيرته ﷺ مع زوجاته، فليست كل امرأة تصلح لعظيم، وهناك طبقات معينة، اختار الله منها أمهات المؤمنين، فكنَّ مؤمنات قانتات تائبات عابدات.

وقد جاء الإسلام فوجد الرجال لا يقفون عند حد في تعدد الزوجات، فحدده الإسلام بأربع.

وقد أسلم رجل وعنده عشر زوجات، فأمره النبي ﷺ بإمساك أربع، وتسريح الباقيات.

والنبي ﷺ لم يطبِّق ذلك العدد المحدد بأربع على نفسه بأمر ربه؛ وذلك لأن نساء النبي ﷺ قد اخترْنه على أهليهن، وآثرْن البقاء معه على شظف العيش، فلا يسوغ ترك إحداهن، وزواجهنَّ بغير النبي ﷺ مستحيل؛ لأن الله تعالى حرمهنَّ على الأمة، ولو عاد بعضهن إلى أهليهن لأجبرُوهنَّ على الكفر، فالحَلُّ هو البقاء في عصمته ﷺ، وكان بينهن عجائز، ثم قال له ربه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ [٥٢].

وقد تزوج النبي ﷺ زوجاته جميعًا بعد موت خديجة ؓ، وتم ذلك خلال سبع سنوات فحسب، أي: في الفترة من سنِّ ٥٣ إلى ٦٠ من عمره الشريف، وهي فترة الأسفار والغزوات، وبعد أن ولَّى الشباب، وكثرت الأشغال، ولم يُنْجِب ﷺ منهن جميعًا، ولم يتزوج النبي ﷺ في السنوات الثلاث من آخر عمره ﷺ.

وليس للحضارة المعاصرة أن تخوض في شأن تحديد عدد الزوجات بأربع، باستثناء ما

خصَّ الله به رسوله ﷺ بأكثر من ذلك لصالح نشر الدعوة، وتآلف القلوب المختلفة، دون معرفة الحال التي كان عليها الناس قبل الإسلام، ودراسة الحكمة من تعدد زوجات النبي ﷺ، على أن الصعلوك من أبناء الحضارة المعاصرة ينال أكثر من ذلك العدد سفاحًا لا نكاحًا!

النداء الخامس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [٥٩].

وهو بغرض تبليغ آداب التستر لأهل بيته ﷺ وجميع المؤمنات، ووجوب التستر وعدم التسكع في الطرقات أو الأسواق أو النوادي؛ لأن الرجال يطمعون في المرأة المبتذلة!

والحق أن المرأة المتبرجة المبتذلة لسان حالها يدعو الرجال للتعرض لها، والمرأة المحتشمة الجادة، تصُون نفسها عن الطامعين فيها.

ستة نداءات للمؤمنين:

ومع هذه النداءات الخمسة التي وُجهت للنبي ﷺ، فإن في السورة **ستة نداءات أخرى وُجِّهت للمؤمنين:**

النداء الأول: يتناول الموقف شديد الحرج، عند هجوم الأحزاب على المدينة، حين جاؤوا من فوق المسلمين ومن أسفل منهم، وقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الآية [٩].

فلم يفقد المؤمنون رباطهم، وأحكموا الدفاع عن المدينة، وهبت رياح النكبة، فأطارت الخيام، وأكفأت القدور فقرروا الرحيل، واكتفوا من الغنيمة بالإياب، وردَّ الله غيظهم في نحورهم، وكفى المؤمنين القتال.

النداء الثاني: للمؤمنين الذين يذكرون الله تعالى، ويسبحونه في صباحهم ومسائهم، ويُصلُّون على رسوله ﷺ ويسلِّمون، ولا يؤذون الله ورسوله والمؤمنون:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾.

فإن هذه الرسالة تقوم على الانتماء إلى الله تعالى، وإعلاء شعائر دينه، واليقين بلقائه، فإذا نسي المسلمون ربهم، ولم يستعدوا للقائه، كانوا أهلًا لأن يطأهم الأعداء بأقدامهم!

النداء الثالث: في حكم فقهي يتعلق بطلاق المرأة قبل الدخول بها، فلها حق الزواج

بآخر، دون أن تعْتد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ الآية: [٤٩].

والإسلام يوجب الالتزام بأصول الطاعات وفروعها، وتطبيق أحكامه قلبًا وقالبًا.

النداء الرابع: في آداب الوليمة، وأن الدخول لها يكون بإذن، بعد إعداد الطعام، والخروج يكون بعد تناول الطعام:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الآية: ٥٣].

ويلزم لذلك تنظيم وقت الزيارة وتحديدها، واحترام أقات الناس، وعدم تضييعها سدى، والالتزام بآداب الشرع في الاستئذان، وعدم إحراج أهل البيت وتتبع عوراتهم، ومن دُعيَ فلْيجب، ومن لم يُدْع فلْيحتجب، وشرّ الولائم يُدْعى لها الأغنياء دون الفقراء.

النداء الخامس: يحمي أعراض الأنبياء وسيرتهم من تطاول الرعاع عليهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ [الآية: ٦٩].

النداء السادس للمؤمنين في السورة: يأمرهم بالتقوى والصدق:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾.

وقد خُتِمت السورة بخلاصة وجيزة لأعمال البشر، تتعلق بحمل أمانة التكليف الذي يُميز الأخيار من الأشرار[١].

(١) استفدت في هذه النداءات من كتاب «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم». للشيخ محمد الغزالي.

سُورَةُ سَبَإٍ (٣٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (سبأ) هي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب المصحف، والثامنة والخمسون في ترتيب النزول، وعدد آياتها أربع وخمسون آية عند جمهور أهل العدد، وخمس وخمسون آية في المصحف الشامي.

وهي ثمان مئة وثلاث وثمانون كلمة، وألف وخمس مئة واثنا عشر حرفًا.

وهي سورة مكية، نزلت بعد سورة (لقمان)، وقبل سورة (الزمر).

وسُمِّيَتْ هذه السورة، سورة (سبأ): لذكر قصة أهل سبأ فيها.

وهي رابع سورة بُدئت بحمد الله تعالى والثناء عليه وتمجيده سبحانه، فهو -جلَّ شأنه- مالِكُ هذا الكون وخالقه، وحصاد هذه الدنيا راجع إليه بعدله ورحمته.

وشأن سورة (سبأ) شأن السور المكية:

فهي تعالج أوَّلًا: قضية الشرك، والتوحيد، فتُبطل قواعد الشرك، وتقيم الأدلة على انفراده تعالى بالإلهية، وتنفي الإلهية عن أصنامهم، أو أن تكون لهم شفعاء عند الله تعالى، ويأتي ذلك في تقرير أن لله تعالى ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في الآية الأولى من السورة.

ومن الآيات التي تبطل الشرك في أثناء السورة قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

وفي إبطال إلهية الملائكة والجن قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وفي نفي شفاعة الملائكة عند ربهم إلا بإذنه تعالى يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ

عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [٢٣].

أما **القضية الثانية** من قضايا السور المكية: فهي **قضية البعث والجزاء** التي يستبعدها كفار الأمس واليوم، وقد جاء ذلك في مواطن كثيرة من السورة، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ قال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾.

وفيما يكون بين الضعفاء والأقوياء يوم القيامة من تلاوُم وعتابٍ مرير، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

وتُختَم السورة بالحديث عن القيامة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾، إلى آخر السورة.

وتقرير قاعدة الجزاء العادل يوم لقاء رب العالمين، جاء في قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

أما **القضية الثالثة: وهي قضية الوحي والرسالة:**

فقد جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [٣١].

وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

كما تحدثت السورة عن جوانب من قصة داود وسليمان، وتسخير الجن له في الرد على من

يعبدون الجن من دون الله، إلى جوار قصة أهل سبأ التي لم تُذكَر في غير هذه السورة.

هذا، ويمكن تقسيم السورة إلى **أربعة مقاطع**:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية التاسعة، نهاية ثلاثة أرباع الحزب، ويشتمل هذا المقطع على تقرير وحدانية الله تعالى، وملكه لهذا الكون بما فيه، وأنه سبحانه يعلم ما في جوف الأرض وما هو فوق ظهرها، وما يهبط من السماء وما يصعد إليها.

ويحكي هذا المقطع إنكار الكفار في كل زمان ومكان للبعث والنشور، ويرد عليهم بأن الذي يعلم حركة كل ذرة سيبعثهم يوم القيامة؛ ليتم جزاء المؤمنين بمغفرة الذنوب والرزق الحسن في جنات النعيم، وجزاء الكافرين بعذاب شديد الألم.

ومع أن الكفار يُنكرون البعث والحساب والجزاء، ويستبعدون عودة الإنسان إلى الحياة بعد أن تمزَّقت أشلاؤه وتقطَّعت أوصاله، فإن أصحاب العلم الحقيقي يعلمون أن ما في القرآن من حقائق وثوابت، هو الحق الذي أخبر به رب العالمين، ولو شاء الله لخسف بهم الأرض، أو أسقط السماء عليهم كسفًا، فتنقلب النعمة إلى نقمة.

المقطع الثاني: يبدأ من الآية العاشرة إلى الآية الحادية والعشرين، وهذا القدْر من الآيات اشتمل على **ثلاث قصص**:

القصة الأولى: فيها إشارة سريعة إلى نبي الله داود ﷺ، وقد جاءت هذه الإشارة في آيتين اثنتين من السورة، تشير الآية الأولى إلى تسبيح الطيور والجبال مع داود ﷺ.

وتشير الآية الثانية إلى اشتغاله ﷺ بصناعة الحديد لاستخدامها في الحروب وغيرها.

القصة الثانية: فيها إشارة سريعة إلى تسخير الريح والجن لسليمان ﷺ، وأنها ظلت تعمل في الصناعات الشاقة إلى ما بعد موته، وهي لا تعلم عن موته شيئًا، وقد جاء هذا في ثلاث آيات متتابعة.

القصة الثالثة: عن أهل سبأ، وقد جاء ذكرها في سبع آيات تليها.

المقطع الثالث: جاء في آيات ست، تقيم الأدلة الكونية والعقلية على وحدانية الله تعالى وإبطال الشركاء والشفعاء من دون الله تعالى، وهذا في الآيات من [٢٣-٢٧].

وفي المقطع الرابع والأخير من السورة: حديث عن الوحي والرسالة وموقف المترفين منهما في كل زمان ومكان.

ويأتي تعقيب على كل آية في هذا المقام، بذكر مصير المؤمنين والمكذبين، مع ذكر عدة مشاهد لهم يوم القيامة، حين يَبْرأ المتبوعون من التابعين، وتتبرأ الملائكة ممن عبدوهم، وحين يذوق المكذبون عذاب النار، ويصيبهم الفزع الأكبر، ويحال بينهم وبين ما يشتهون، وهو مقطع متنوع يدور في هذا الفلك، وهو من الآية الثامنة والعشرين إلى الآية الرابعة والخمسين، نهاية السورة.

سُورَةُ فَاطِرٍ(٣٥)

مُقدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (فاطر) هي السورة الخامسة والثلاثون في ترتيب المصحف، والثالثة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الفرقان)، وقبل سورة (مريم).

وعدد آياتها خمس وأربعون آية في العدد الكوفي والمكي والمدني الأول، وست وأربعون آية في العدد المدني الأخير والدمشقي، وأربع وأربعون آية في العدد الحمصي.

وهي تسع مئة وسبعون كلمة، وثلاثة آلاف ومئة وثلاثون حرفًا.

وتُسمَّى سورة (فاطر) لوجود لفظ: ﴿فَاطِرِ﴾ في أولها دون غيرها من السور الأخرى.

وفي صحيح البخاري، وجامع الترمذي، أنها تُسمَّى (سورة الملائكة) لِذِكْرِ وصف الملائكة فيها دون غيرها.

وهي سورة مكية نزلت قبل الهجرة، وهي آخر سورة مفتتحة بلفظ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ من خمس سور في القرآن هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.

أغراض السورة:

(أ) وقد اشتملت هذه السورة على الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وإقامة البراهين على وحدانيته سبحانه، وهدْم قواعد الشرك، جاء ذلك في الآيات الدالة على قدرة الله تعالى، مثل قوله تعالى:

١- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [١].

٢- وقوله : ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [٩].

٣- وقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [١٢].

٥- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [١٣].

٦- وقوله سبحانه: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [١٤].

٧- وقوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [٢٧].

وقد أحْصت السورة كثيرًا من نعم الله تعالى وفضله على خلْقه، وبيَّنتْ أن الله تعالى هو المعطي المانع، لا مانع لما أعطى ولا مُعطي لما منع ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [٢].

فالخير كله منبعه رب العالمين، وما عدا ذلك أصفار على الشمال، وعدم الاعتراف بهذه النعم مصدر من مصادر الشرك والإلحاد.

إن التفكير في ذات الله تعالى، لا يصل به العبد إلى نتيجة، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بالنظر والتأمل في الْمُلْك والملكوت، ومن ذلك خلق الإنسان وموته، وجَعْلُ النبات والزرع مختلف الطعم والشكل والرائحة، ومِنْ خلق الله تعالى: الدواب والأنعام، والشجر والجبال، وطبقات الأرض.

وهكذا تتحدث السورة عن خلق: الملائكة والإنس والجن، ونزول الغيث، وخروج الزرع والفواكه والثمار، وتعاقُب الليل والنهار، وأشكال الجبال وتنوُّعها ما بين أبيض وأسود وأحمر، وكلها ناطقة بعظمة الواحد القهار.

ولذا: فإن السورة تحدثت عن الفارق الكبير بين: المؤمن والكافر، والظلمات والنور، والظل والحرور. . . فالإيمان بالله تعالى وليد عقل باحث متأمل، والإيمان التقليدي ليس له قرار في قلب المؤمن، بخلاف الإيمان الناتج عن عقل وتفكير ورَوِيَّة، ومن هنا فإن الذين ورثوا الكتاب، كان منهم: الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات بإذن الله.

(ب) كما اشتملت السورة على الرسالة والوحي (ميراث الأمة) في مثل.

١- قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

٢- وقوله سبحانه: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا

خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

٣- وقوله : ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾.

٤- وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [٣١].

٥- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [٣٢].

(ج) واشتملت السورة على اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب، وجنة ونار، في مثل:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [٥].

٢- وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

٣- وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [٣٣].

٤- وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

٥- وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [٣٦].

وقد رفض المكذبون عقيدة التوحيد والبعث، والإيمان بخاتم الرسل ﷺ، ولقي الرسول ﷺ من قومه عنادًا وتكذيبًا وجدلًا وخصومة، فواساه ربه مرتين في هذه السورة، ببيان أن الرسل قبله قد كُذِّبوا وأوذوا، وأن الله تعالى قد يُمْهل العباد أمدًا طويلًا حتى يَصْحو النائم، ويفيق الغافل، ولكنه لا يهملهم، وهو سبحانه قادر على مَحْو العالم بما فيه ومن فيه، ولكنه سبحانه يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار.

وسورة فاطر، تشبه سورة النحل في إحصاء عدد كثير من النعم، وبيان فضل الله تعالى على خلقه.

وقد خاطبت السورة الناس بصفة عامة **ثلاث مرات**:

١- تسألهم في أول نداء عن مصدر هذه النعم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [٣].

٢- وتحذرهم في المرة الثانية من إغواء الشيطان لهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [٥، ٦].

٣- ويأتي النداء الثالث ليبيِّن فقر الناس إلى ربهم وغناه عنهم: ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝١٥﴾.

وقد خُتِمت السورة ببيان سعة رحمة الله بخلقه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [٤٥].

سُورَةُ يَس (٣٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة يس هي السورة السادسة والثلاثون في ترتيب المصحف، والحادية والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الجن، وقبل سورة الفرقان.

وعدد آياتها عند الكوفيين ثلاث وثمانون آية، وعند غيرهم اثنتان وثمانون آية.

وهي سبع مئة وتسع وعشرون كلمة، وثلاثة آلاف وعشرون حرفًا.

أسماؤها:

١- وسميت سورة ﴿يسٓ ۝١﴾ بمسمَّى الحرفين في أولها، فكانا مُمَيِّزيْن لها عن سائر السور، وصار ذلك علمًا عليها واشتهرت به.

٢- وعنْوَن لها بعضهم بـ(سورة حبيب النجار)[1] وهو صاحب قصة (أصحاب القرية).

٣- وذُكر أنها تسمى: المُعِمَّة. ٤- والمدافعة. ٥- والقاضية.

ومعنى **المُعِمَّة**: التي تعم صاحبها بخير الدارين، والمدافعة، أي: التي تدفع عن صاحبها السوء، والقاضية، أي: التي تقضي كل حاجة بإذن الله[2].

٦- وسماها بعض السلف (قلب القرآن)، فهذه ستة أسماء لها، أشهرها الأول.

وسورة يس سورة مكية بالإجماع.

وقد حفَلتْ سورة يس بآثار كثيرة لم تصح، تتعلق بقراءتها عند خروج الروح، وفي مكان خروجها، وقراءتها على الميت، وأنها تخفف عنه سكرات الموت.

---

(١) قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره (٢٢/ ٣٤١): رأيت مصحفًا مشرقيًّا نسخ سنة ١٠٧٨هـ أحسبه في بلاد العجم، عنونها: سورة حبيب النجار، قال: وهي تسمية غريبة ليس لها سند.

(٢) «تفسير الألوسي» (٢٢/ ٢٠٩) وقد جاء ذلك في أثر ضعيف عند البيهقي في «الشعب» برقم (٢٢٣٧) والخطيب (٢/ ٣٨٧).

وشاع عند العامة في بعض البلاد ما يطلقون عليه اسم (عِدِّيَّة يس) بمعنى أن جمعًا من القراء يقرؤونها عددًا معينًا على ظالم، فيموت، أو يصاب بسوء، ولاشك أنه إذا حصل شيء من هذا فهو من باب إجابة دعوة المظلوم.

كما أن بعض الجهال يقرأ عددًا منها بنية كفارة الصلاة عن الميت، لا سِيَّمَا إذا كان لا يصلي، ويقرؤونها كذلك لقضاء الحاجة، ولمغفرة الذنوب، وأنها قلب القرآن، وأن من قرأها فكأنما قرأ القرآن عَشْر مرات، ومن داوم على قراءتها مات شهيدًا، ومن قرأها في ليلته يسَّر الله عليه، . . . ، وهكذا، وكل هذا من باب البدع والجهل والتقليد الأعمى.

فالأحاديث التي وردت في فضل قراءة سورة يس، أو للمعاني السابقة، أحاديث ضعيفة أو موضوعة، وهي مذكورة في أول السورة من تفسير ابن كثير والشوكاني وغيرهما.

وأغلب الظن أن هذه الأحاديث مما وضعها الذين أرادوا أن يصرفوا همة الناس إلى تلاوة القرآن، لَمَّا رأوْهم قد انصرفوا عنه إلى دراسة السنة في وقت من الأوقات، وقالوا: نحن نَكْذِبُ للنبي ﷺ ولا نكذب عليه، وهو كلام لا يصح، فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»[(١)].

ومثل ذلك جاء في بعض السور، وقد انفردت مؤلفات ببيان الصحيح والضعيف من ذلك.

وحديث قراءة يس لتسهيل خروج الروح، أو قراءتها على الميت، أو أنها لما قرئت له، كل هذا ضعَّفه الشيخ الألباني وغيره، وقال الدارقطني: لا يصح في هذا الباب حديث[(٢)].

أغراض السورة: وسورة يس تتكون من **مقدمة وثلاثة عناصر:**

أما **المقدمة** فهي حديث عن القرآن ومستمعيه، والمؤمنين به، والرافضين له، وهذا يستغرق من أول السورة إلى الآية الثانية عشرة.

---

(١) من حديث أنس في صحيح مسلم ٢ وأحمد في المسند (١٢/٥٤) وابن حبان (٣١) وهو حديث متواتر ورد عن جمع من الصحابة.

(٢) تُنظَر هذه الأحاديث في: كتاب «أحكام الجنائز»، للشيخ الألباني و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» و«ضعيف الترغيب والترهيب» و«ضعيف الجامع الصغير» و«ضعيف سنن أبي داود» و«ضعيف سنن الترمذي» وكتاب «تلخيص الحبير» وغيرها.

والعنصر الأول يبدأ من الآية الثالثة عشرة إلى الآية الثانية والثلاثين، وهو دليل تاريخي على صدق ما جاء به محمد ﷺ يتضمن قصة موجزة عن قرية أنطاكية، وهي تشبه أم القرى، حيث عاند أهلها رسل الله صلوات الله عليهم، وضاقوا ذرعًا بوحي الله إليهم، فقد ظن أعداء المرسلين، أن الرسل جاؤوا ليسلُبوهم سلطانهم، ويأخذوا ما في أيديهم، فسرعان ما تبرؤوا منهم، وهدَّدوهم وتشاءموا من قدومهم عليهم، مع أن الرسل لم ينشدوا جاهًا ولا مالًا، وهم يدْعُون خلْق الله إلى عبادة الواحد الديَّان، وترْك ما لا يضر ولا ينفع.

وقد تآمر أهل هذه القرية على قتل من قام فيهم ناصحًا أمينًا! فكان نصر الله تعالى حليفًا للمرسلين، وخذَل الله المكذبين، فدفعوا الثمن غاليًا، وهكذا كل من كذَّب خاتم المرسلين ساءت عاقبته وباء بالخسران والبوار.

أما **العنصر الثاني** في السورة، فهو من الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية السابعة والأربعين، وهو مجموعة من دلائل وحدانية الله تعالى، وعظيم قدرته، وبديع صنعه في هذا الكون العجيب.

وتبدأ هذه المجموعة بمشهد الأرض الجدباء، والحياة التي تدب فيها، إننا نعطي الأرض أسوأ ما عندنا من فضَلات الإنسان والحيوان والطيور، فتعطينا أحسن ما عندها من الفواكه والثمار والزروع والنبات والشجر، فمن الذي أخرج من الحمأ المسنون هذه الخيرات؟ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ونصعد بنظرنا من الأرض إلى السماء، لنتأمل النظام الفلكي فيها! فإذا الظلام بعد أن يسود أرجاء الكون تُرسل الشمس أشعتها فتستقبلها الأرض، فإذا جمع الله أشعة الشمس عادت الظلمة الأولى، وهذا هو مشهد الليل والنهار.

ولكل من الشمس والقمر مداره الذي لا ينفك عنه، ولا يلتقيان، فالشمس في مدارها، والقمر يتدرَّج في منازله، فمن الذي يمسك الكواكب في فضائها؟ ومن الذي يدفعها في مجراها؟ وبأي طاقة تسير؟ ومَن الذي أحكم نظامها، فضبط مكانها وزمانها وشرْقها وغرْبها، وهي ألوف؟ ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

إننا نرى البحار تسبح فيها السفن في عالمها الواسع، وهي أكبر من مساحة الأرض أربع مرات، إنها تجري وتغُوص بقدرة الله تعالى، وإذا تعرَّض الناس لأخطار في البحر فلا مُغيث لهم إلا الله، فهل يفزع الناس إلى ربهم في الرخاء كما يهرعون إليه في الشدة؟

وقد تبعث هذه الأدلة على أدلة أخرى قرب نهاية السورة، تتعلق بأنواع أخرى من المخلوقات: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

أما **العنصر الثالث والأخير**، فهو يتضمن الحديث عن البعث والجزاء، وهما عمدة التربية الدينية، وهذا من الآية الثامنة والأربعين إلى نهاية السورة.

وكما يأتي الموت فجأة، تأتي الساعة بغتة، دون ترقب ولا انتظار، وعلى هذا فقيام الساعة لا يعطي فرصة لعمل شيء مَّا، ولا التوجيه بشيء مَّا، فهي تقوم والرجُلاَن قد نشرا الثوب بينهما، فلا يَتِمُّ البيع ولا الشراء، ولا يعود الإنسان إلى بيته!! ثم يقوم الناس لرب العالمين بعد موتهم جميعًا، وبعد الحساب يفرق بين المؤمنين والمجرمين، فيستقر السعداء في روضات النعيم، والأشقياء في دركات الجحيم.

وبهذا فإن السورة جمعت عناصر القرآن المكي الثلاثة، وهي: الوحي والرسالة في مقدمتها، وفي العنصر الأول منها، وجمعت أدلة التوحيد في العنصر الثاني، وجمعت أدلة البعث والحساب والجزاء في العنصر الثالث[١].

والسورة قررت أمهات أصول الدين على أبلغ وجه وأتمه، وقررتْ أصول الطاعة بالاعتقاد والعمل، أما الحشر والحساب فهو مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه، فهي سورة جامعة لأصول التدبر، ومنها تتشعب شرايين القرآن.

---

(١) استفدت في هذا التقسيم من كتاب الشيخ محمد الغزالي: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم».

سُورَةُ الصَّافَّاتِ (٣٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الصافات هي السورة السابعة والثلاثون في ترتيب المصحف، والسادسة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الأنعام، وقبل سورة لقمان، في السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة، وهي سورة مكية بالإجماع.

وعدد آياتها مئة وإحدى وثمانون آية في العدد البصري والمدني الأول، ومئة واثنتان وثمانون آية عند غيرهما، وهي ثمان مئة وستون كلمة، وثلاثة آلاف وثمان مئة وستة وعشرون حرفًا.

وسُمِّيت سورة الصافات لانفرادها بذكر صفوف الملائكة في أولها، وسماها بعضهم سورة الذبيح؛ لانفرادها بذكر قصة الذبيح إسماعيل عليه السلام فيها.

وشأن سورة الصافات كشأن سائر السور المكية، تتعرض لقضايا الإسلام **الثلاث** وهي: التوحيد، والبعث، والرسالة؛ لغرْس عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر، والوحي المنزل على رسوله ﷺ في نفوس غير المؤمنين، وتقوية ذلك في نفوس المؤمنين:

١- أما **إثبات التوحيد**، فقد أقسم الله تعالى عليه بثلاثة أيْمان عظيمة في أولها، وكان جواب القسم ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾﴾.

وساقت الآيات على ذلك كثيرًا من دلائل القدرة الإلهية، والمخلوقات التي لا قبَل لغير الله تعالى بخلْقها وصُنعها، من العوالم السماوية بأجزائها وسكَّانها.

وفي ثنايا السورة -أوائلها ووسطها ونهايتها- بيانٌ لكثير من معتقدات غير الموحدين بالله تعالى، ونسبة الشريك والولد له جلَّ شأنه، فذكرتْ: أنهم كانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون، وأنهم قالوا: الملائكة بنات الله، فزعموا أن الله تعالى تزوج من الجِنَّةِ، فولدتْ له الملائكة، وقد كذَّبتْهم الملائكة على رؤوس الأشهاد ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

ونسبوا لله تعالى البنات، ونسبوا لهم البنين على حدِّ زعمهم: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾.

وأثبتوا الولد لله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢﴾

وقد تصدَّت السورة في مطلعها للرد على هذه الخرافة، فذكرت طرفيْ القصة، وهما الملائكة في أولها، ونوَّهت بشأنهم ومنزلتهم عند الله تعالى، أما الطرف الآخر وهم الجن، فقد جاء ذكرهم في آخرها وأولها، تاليًا لذكْر الملائكة، فقبَّحتْهم وبيَّنتْ أنهم مرجومون مدحورون.

٢- أما **إثبات البعث** والحشر والحساب والجزاء، فقد تناولتْه السورة في أعقاب الحديث عن التوحيد، بدءًا من قولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [١٦].

ومن ثَمَّ تعْرض السورة إلى مشهد طويل فريد من مشاهد القيامة، حافل بالأحداث والوقائع والمفاجآت، متضمنًا لحوار واقعي مكرر، يدور بين المؤمن والكافر، وبيان ما آل إليه كل منهما من خلود المؤمن في الجنة، وخلود الكافر في النار ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢﴾.

٣- وتناولت السورة **دعوة محمد** ﷺ قومه إلى توحيد الله تعالى، وتناولت كذلك دعوة الرسل إلى أقوامهم وحدانية الله تعالى، وبيّنتْ كيف نصر الله رسله، ورفع شأنهم، وبارك عليهم ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ وقد وعد الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ بالنصر كدأب المرسلين قبله.

وبيَّنت السورة أن عذاب الله تعالى نازل بالمشركين، وأن العاقبة الحسنى للمؤمنين ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧﴾.

ومن الرسل الذين ذكرت السورة قصتهم: نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأدمجت السورة خلال ذكر قصص هؤلاء الرسل الثمانية، ذكر مناقبهم وفضائلهم، وقُوَّتهم في دين الله، وإنجاء الله لهم من الكروب التي حفَّت بهم.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**من قرأ يس والصافات يوم الجمعة ثم سأل الله أعطاه سؤله**»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في «فضائل القرآن» وابن النجار في تاريخه عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما كما في «الدر» (١٢/ ٣٨٢).

وعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمُّنا بالصافات[١].

ولما قدم ملوك حضرموت على النبي ﷺ، وطلبوا منه أن يقرأ عليهم شيئا مما أنزل الله، قرأ أوائل سورة الصافات[٢].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **ثلاثة مقاطع**:

المقطع الأول: يبدأ من أول السورة إلى الآية السبعين، وهذا المقطع يتناول الحديث عن الملائكة والشياطين، ومنكري البعث والحساب والجزاء، ومن ثَمَّ إلى وصف نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.

المقطع الثاني: من الآية الحادية والسبعين إلى الآية الثامنة والأربعين بعد المئة، وهذا المقطع يتناول قصص ثمانية من المرسلين، وقد بدأ هذا القصص ببيان أن الضالين من خلق الله في كل زمان ومكان لهم نظائر في الأمم السابقة الذين أرسل الله إليهم الرسل، فحذَّروهم وأنذروهم، وبيَّنت الآيات كيف كانت عاقبة المرسلين، وعاقبة المنذَرين.

المقطع الثالث: من الآية التاسعة والأربعين بعد المئة إلى نهاية السورة، وهو مقطع يعيد إلى الأذهان ما سبق في أول السورة من الحديث عن الجن والملائكة، ووعْد الله تعالى بنصر رسله وعباده المؤمنين، إلا أن هذا النصر يأتي بعد زمان يتم فيه التمحيص، ويرتفع فيه مستوى الإيمان والأخذ بالأسباب.

وتُختَم السورة بتنزيه الله تعالى، والسلام على رسله، والإقرار بربوبيته وإلهيته، وهي القضايا التي تناولتْها السورة ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [١٨١، ١٨٢].

(١) «المسند» (٢/٢٦) وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه عليه برقم (٤٧٩٦) وقال محققو المسند: إسناده حسن، وفيه الحارث بن عبدالرحمن القرشي، صدوق، روى له الأربعة، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه النسائي (٨٢٥) وفي الكبرى (١١٤٣٢) و«صحيح سنن النسائي» (٧٩٦) وأبو يعلى برقم (٥٤٤٥) وابن حبان (٤٧٠) وابن خزيمة (١٦٠٦) والطبراني (١٣١٩٤) والبيهقي (٣/١١٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» (١٩٠) عن أنس بن مالك.

سُورَةُ ص (٣٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (ص) هي السورة الثامنة والثلاثون في ترتيب المصحف، والثامنة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (القمر) وقبل سورة (الأعراف)، كان نزولها في آخر حياة أبي طالب، فتكون قد نزلت قبل الهجرة بثلاث سنوات تقريبًا، وسُمِّيَت السورة باسم أول حرف فيها، وتسمَّى: سورة (داود)؛ لذكر جانب هام من قصة داود عليه السلام فيها، لم يذكر في غيرها من السور.

وعدد آياتها ثمان وثمانون آية في العدد الكوفي[1].

وهي اثنتان وثلاثون وسبع مئة كلمة، وسبعة وستون وثلاثة آلاف حرفًا، وهي سورة مكية.

سبب النزول: وجاء في سبب نزول السورة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقال: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثْت إليه فنهيْته؟ فبعث إليه، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدْر مجلس رجل، فخشي أبو جهل أن يجلس الرسول إلى جوار أبي طالب ويكون أرقى عليه، فوثب أبو جهل فجلس في ذلك المجلس، فلم يجد رسول الله ﷺ مجلسًا قُرب عمه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشْكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول، قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ، فقال: «**يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزْية**» ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة؟ قال: نعم، وأبيك عشرًا، قالوا: فما هي؟ قال: «**لا إله إلا الله**» فقاموا فزعين ينفضُون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ

---

(١) وخمس وثمانون آية عند الجحدري من البصريين، وست وثمانون آية عند أهل الحجاز، وأهل الشام، وأهل البصرة، عن يعقوب الحضرمي وأيوب بن المتوكل.

عُجَابٌ ﴿٥﴾ فنزلت الآيات الثماني الأولى من هذه السورة[١].

وفي سبب النزول هذا توبيخ للمشركين على شركهم، وتوبيخ لهم على تكذيب الرسول ﷺ فيما بلَّغه لهم، وتهديد لهم حتى لا يحلَّ بهم ما حلَّ بغيرهم.

وفيه تسلية وتصبير للنبي ﷺ؛ كي يقتدي بمن سبقه من الرسل.

قضايا السورة الثلاث:

والقرآن المكي، يتناول قضايا ثلاث، يغرسها في قلوب الناس؛ حتى يأخذ بأيديهم إلى الإيمان بالله ورسوله، والعمل لما في اليوم الآخر من حساب وجزاء على الأعمال، وهي: التوحيد، والرسالة، واليوم الآخر:

١- أما قضية التوحيد ونبذ الشرك بألوانه فهي في الآيات السبع الأولى من السورة.

٢- وقضية الإيمان بالوحي المنزل من عند الله تعالى على خاتم الرسل ﷺ تبدأ من الآية الثامنة التي يتعجب فيها المشركون من بعثة النبي ﷺ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ﴾ إلى الآية الثامنة والأربعين، ويتخلل ذلك ذكر عدد من الأمم التي كذبت رسل الله، فلحق بهم ما أصابهم من الهلاك والدمار، وهم: قوم نوح، وعاد، وفرعون وقومه، وقوم ثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة.

والمكذبون للرسول الخاتم من هذه الأمة، لا يحتاجون إلا إلى صيحة واحدة تأخذهم، فيحل بهم مثل ما حل بهذه الأمم.

ثم تعرضت السورة لذكر جانب هام من قصة ثلاثة من رسل الله تعالى هم: داود، وسليمان، وأيوب عليهم السلام، وأشارت -مجرد إشارة- بذكر أسماء ستة آخرين من رسل الله،

(١) يُنظَر: ابن أبي شيبة في المغازي (١٨٤١٣) وأحمد (١/ ٢٢٧) برقم (٢٠٠٨، ٣٤١٩) قال محققوه: إسناده ضعيف، فقد تفرّد به يحيى بن عباد عن الأعمش، فهو في عداد المجهولين، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه الترمذي في التفسير (٣٢٣٢) وقال: هذا حديث حسن، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٧٦٩) والطبري (٢٣/ ٧٩) وصححه الحاكم (٢/ ٤٣٢) ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٤٥) وعبدالرزاق (٩٩٢٤) وأبو يعلى (٢٥٨٣) والواحدي (٢٠٩) والسيوطي في «الدر» (٥/ ٢٩٥) وأخرجه ابن حبان (٦٦٨٦) وقال محققه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين، قلت: ولعله حديث حسن بإسناد حسن، كما قال الترمذي.

هم: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، واليسع، وذو الكفل، وكلٌّ من المصطَفَيْن الأخيار، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٣- ثم تناولت السورة في القضية الثالثة، يوم القيامة وما فيه من حشر ونشر، وجنة ونار، وذكرت في خلال ذلك ما يحدث بين أهل النار -وهم فيها- من تخاصم وتلاوُم وتلاعُن، كل منهم يُلقي باللائمة على الفريق الآخر، من الأتباع والمتبوعين ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾.

ثم ذكرت السورة أول غواية من الشيطان لبني آدم، ممثلة في قصة آدم وإبليس.

وفي أثناء قضايا السورة الثلاث، تجدها تهتم اهتمامًا واضحًا بإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وقدرته، لربط العباد بربهم وجذْبهم إليه سبحانه كلما ابتعد الفكر قليلًا، كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [١٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [٢٧].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾.

هذا: ويتضح من السورة ومن سائر السور المكية أن **أصول الكفر ثلاثة** هي:

١- الإشراك بالله تعالى، وهو ما تعالجه هذه الآية ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾.

٢- تكذيب الرسول ﷺ وتكذيب القرآن الذي جاء به، وهو ما يعالجه قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾.

٣- إنكار البعث والحساب والجزاء في الآخرة، وهو ما جاء في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾.

وقوله أيضًا: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾.

وذكر سبحانه بعد هاتين الآيتين شيئًا من نعيم الجنة وعذاب النار، نعوذ بالله من النار ومن عذاب النار.

وفي مقابل أصول الكفر الثلاثة، **أصول الإيمان الثلاثة** وهي:

١- توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له، ويتبع ذلك العمل الصالح.

٢- التصديق بالنبي الخاتم ﷺ، وبالوحي المنزل عليه من الله تعالى.

٣- الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث، وحشر ونشر، وحساب، وصراط، وميزان للأعمال، وجنة ونار.

وقد جاء ذلك مفصَّلًا في كتاب الله تعالى في مواطن كثيرة.

ويجمع هذه الأصول الثلاثة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة]

وكذا الآية التاسعة والستون من سورة المائدة، مع ما بينهما من تقديم وتأخير.

والإيمان بالله تعالى، مع العمل الصالح، يدخل فيه بالضرورة، الإيمان بالشق الثاني لكلمة التوحيد: (لا إله إلا الله) محمد رسول الله، فإن هذا مقتضى الشهادتين، ولا يحصل الإسلام إلا بهما معًا، فلو آمن العبد بالله تعالى وكفر برسوله ﷺ فليس مؤمنًا، وهذا يشمل كل من لحق بدين الإسلام وأدركه واتبعه من سائر الملل والنِّحَل: اليهود، والنصارى، والصابئين، والمجوس، والمشركين، وغيرهم.

أما من لم يدرك رسالة محمد ﷺ في كل ملة من الملل، ومات مؤمنًا برسول زمانه، من بين رسل الله جميعًا فهو في الجنة، ومن بقي منهم على دينه بعد مجيء النبي الخاتم ولم يؤمن به ﷺ فهو في النار.

سُورَةُ الزُّمَرِ (٣٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الزمر) هي السورة التاسعة والثلاثون في ترتيب المصحف، والتاسعة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (سبأ)، وقبل سورة (غافر)، سنة خمس من البعثة، قبل الهجرة إلى الحبشة.

وسُمِّيت سورة (الزمر)؛ لأن لفظ: «الزمر» لم يرد في غيرها من القرآن، وتُسمَّى سورة (الغُرَف) لقوله تعالى فيها: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [٢٠].

وعدد آياتها عند أهل الكوفة خمس وسبعون آية[١].

وهي ألف ومئة واثنتان وسبعون كلمة، وأربعة آلاف وتسع مئة وثمانية أحرف.

وهي سورة مكية، واستثنى بعضهم ثلاث آيات، قيل: إنها نزلت في وحْشِي قاتل حمزة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [٥٣] وما بعدها، وقيل: إنها نزلت في هشام بن العاص، وكان قد تأخر عن الهجرة إلى المدينة بعد أن استعدَّ لها، وفي رواية: أن عياش بن ربيعة كان قد استعدَّ معه إلى الهجرة، ففُتن فافتتن، وكلها روايات ضعيفة.

والأصح أن الآيات الثلاث نزلت في المشركين الوثنيين، وحكمها عام في كل من تاب إلى الله تعالى من شركه وكفره ومعاصيه، وأن السورة كلها مكية على الصحيح.

ومما ورد في فضل هذه السورة ما جاء عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر[٢].

---

(١) وثلاث وسبعون آية عند أهل الشام، واثنتان وسبعون آية عند أهل مكة وأهل المدينة وأهل البصرة.

(٢) النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٤٤) وفي التفسير برقم (٤٦٤) من حديث عائشة وهو في ط الرسالة لـ«السنن الكبرى» برقم (١١٣٨٠) وعند أحمد في المسند (٦/ ٦٨) برقم (٢٤٣٨٨) بسند ضعيف، قال محققوه: لضعف شريك النخعي، وجهالة شيخ سماك بن عميرة، وهو على شرط الشيخين من طرق كثيرة دون (وكان يقرأ..) وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٣٤)، وسكت عنه ووافقه الذهبي.

وفي لفظ: كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل[١].

والجانب الرئيس الذي تعالجه السورة هو قضية التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة، وتُقيم على ذلك الأدلة والبراهين من: خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسْيير الشمس والقمر، وأطوار خلق الإنسان في الأرحام، وغير ذلك من البراهين الساطعة الدالة على وحدانية الله تعالى، بما يوجب إفراده سبحانه بالعبادة.

وتوضِّح السورة الفارق بين من يعبد إلهًا واحدًا، ومن يعبد آلهة متعددة، فالأول كعبْد يملكه سيد واحد، والآخر كالعبد المملوك لعدد من الشركاء، فهم يتنازعون فيه ويتخاصمون.

وتبيِّن السورة جزاء الكافر والمشرك في الدار الآخرة، حيث تغشاه النار من فوقه ومن تحته.

ولإيقاظ القلب الإنساني واستجاشته، لحمْلِه على الإيمان يقول تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [١٧، ١٨].

ويقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [٢٣].

ويقول جلَّ شأنه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [٣٦].

ويقول أيضًا: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

أ- **وجانب التوحيد** هو **العنصر الأول** من عناصر القرآن المكي.

ب- **أما العنصر الثاني فهو الإيمان باليوم الآخر**، وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب، وجنة ونار.

ويتجلى ذلك واضحًا في الربع الأخير من السورة، كقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [٦٠].

(١) الترمذي برقم (٢٩٢٠) وقال: حديث حسن غريب.

وبعد النفخ في الصور لموت الخلائق، ثم النفخ فيه لبعثهم، تُشرق الأرض بنور ربها، وتوضَع صحائف الأعمال، ويؤتى بالنبيين والشهداء، ويُقضى بينهم بالحق، فيدخُل المتقون الجنة أفواجًا وجماعات، ويدخل الكفار النار أفواجًا وجماعات، ويقال في النهاية: الحمد لله رب العالمين، وهو الجانب الثاني من قضايا القرآن المكي.

جـ - **أما الجانب الثالث وهو: قضية الوحي والرسالة،** فإنه يتجلى في تلقين الرسول ﷺ الحجج والبراهين للرد على شبهات المشركين الباطلة، ومن ذلك قوله تعالى:

١- ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾.

٢- ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ﴾ [٣٨].

٣- ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

٤- ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ [٤٤].

٥- ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [٦٤].

والقرآن سيد الكتب، وهو الذي حرر الخلق من الشرك والضلال.

وقد ذُكر القرآن سبع مرات في هذه السورة لبيان هذه الحقيقة، وهي قوله تعالى:

١- ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾.

٢- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾.

٣- ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [٢٣].

٤- ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

٥- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ [٤١].

٦- ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [٥٥].

٧- ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

وسورة (الزمر) -وهي بصدد توضيح سرائر الناس، واختلاف وجهاتهم، تضمنت أحوالًا شتى لأفواج من البشر، فيها تبايُن واختلاف، قوبلت كل زمرة منها بزمرة أخرى مضادة، وهي تعقد لذلك ثلاث عشرة مقابلة بين أصناف الناس، مؤمنهم وكافرهم:

١- فالله تعالى يرضى لعباده الشكر، ولا يرضى لهم الكفر كما في الآية [٧].

٢- ولا يستوي عند الله من يُشغل ليله بالعبادة بِمَن يشغله باللهو واللذة المحرمة، فمثلهما كمثل الجاهل والعالم، والمؤمن والكافر الآية [٩].

٣- ولا يستوي مَنْ عبَد الله حق العبادة -فسجَن نفسه عن الهوى والشهوات- بِمَن عبَد الدنيا وعاش يلهث وراء شهواتها، انظر الآيات [١٣ ، ١٥، ١٧، ١٨].

٤- ولا يستوي من اتقى وأحسن، بمن عصى وأساء ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ .

٥- ولا يستوي من ينشرح صدره، فيتَّسع لسماع القرآن والحديث، وإذا جلس في المسجد أو في درس علم شرعي كأنه في روْضة من رياض الجنة، لا يستوي هذا بمن يضيق صدره بذلك، وكأنه سجين يتنفس الصعداء ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ الآية [٢٢].

٦- ولا يستوي من صان وجهه عن النار يوم القيامة بمن عرَّض وجهه لعذاب النار ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ الآية [٢٤].

وكثيرًا ما يطوي السياق الطرف الآخر للمقابلة، لكونه مفهومًا من السياق.

٧- ولا يستوي الموحِّد والمشرك، والكافر والمؤمن ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾ الآية [٢٩].

٨- ولا يستوي أهل الكذب مع أهل الصدق، ولا أهل الحق وأهل الباطل، فشتَّان بين مَن كذَب على الله وكذَّب بالصدق، ومن جاء بالصدق وصدَّق به، الآيتان [٣٢، ٣٣].

٩- ولا يستوي من ينفع ويضر، بمن لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، الآية [٣٨].

١٠- وما أبعد الشُّقَّة بين الموحد والمشرك، فالمشرك عابد وثن يعكف على عبادة حجر ويهابه، وينْفر من التوحيد، ويضيق صدره منه، لا يستوي ذلك بالموحد، قرير العين ساكن النفس، كما في الآيتان [٤٥، ٤٦].

١١- وهناك مقابلة بين الإنسان ونفسه حينما تعْرض له حالتا النعماء والسراء، في مقابل البأساء والضراء ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ الآية [٤٩].

١٢- وهناك مقابلة بين من يَحْدُوهم الأمل في عفو الله تعالى، فيسارع ويبادر إلى رضا الله - سبحانه -، وبين من يستولي عليه اليأس، فيتقاعس عن العمل، ويندم حين لا ينفع الندم ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ الآية [٥٦].

فيجاب: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

١٣- وبعد السؤال والحساب يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [٧١].

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [٧٣].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **أربعة مقاطع**:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية السابعة، وهذا المقطع يتناول جانب التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده، وقيام الأدلة الكونية على وجوب ذلك، ونفى الشريك والولد عن الله تبارك وتعالى.

المقطع الثاني: من الآية الثامنة إلى الآية الثانية والخمسين، وهذا المقطع يتناول مختلف أحوال الإنسان بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال، وما يعتريه من فرح وبطر، ورضا وجزع، مع قيام الأدلة، وضرب الأمثلة، ويتخلل ذلك وعظ وإرشاد، وترغيب وترهيب، وثواب وعقاب.

المقطع الثالث: من الآية الثالثة والخمسين إلى الآية السادسة والستين، وهو يتعلق بالحث على التوبة من كل ذنب، وما يتعلق بذلك من تسويف وتعجيل، وثواب وعقاب.

والمقطع الرابع والأخير، من الآية السابعة والستين إلى نهاية السورة، وهو مقطع شيِّق، يتحدث عن يوم القيامة ومُقدِّماتها وأحوال المتقين والفجار وهم يساقون إلى مصيرهم المحتوم، حيث يرث المتقون أرض الجنة ويحمدون الله على ذلك، وتحفُّهم الملائكة من حول العرش مسبِّحين مهلِّلين، حامدين رب العالمين أن قضى بين عباده بالحق، ونال كل منهم جزاءه، والحمد رب العالمين.

سُورَةُ غافِر (٤٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (غافر) هي السورة الأربعون في ترتيب المصحف، والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الزمر) وقبل سورة (فصلت).

وعدد آياتها خمس وثمانون آية في المصحف الكوفي[1].

وعدد كلماتها ألف ومئة وتسع وتسعون كلمة.

وعدد حروفها أربعة آلاف وتسع مئة وستون حرفًا.

وهي سورة مكية بلا استثناء على الصحيح.

قال سمُرة بن جُنْدُب: نزلت الحواميم جميعًا بمكة[2].

وقال مسروق: آل حم أنزلت بمكة[3].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أنزلت الحواميم السبع بمكة[4].

واستثنى الحسن قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾[5] الآية [٥٥].

واستثنى أبوالعالية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ الآية [٥٦] على زعم أنها نزلت في بعض يهود المدينة، جادلوا النبي ﷺ في أمر الدجال[6].

وقد قرأ أبو بكر رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ الآية [٢٨] حين آذى نفر من قريش رسول الله ﷺ حول الكعبة، وكان ذلك سنة ثلاث قبل الهجرة، عندما اشتد

---

(١) وأربع وثمانون آية في المصحف المكي والمدني الأول والثاني والحمصي، واثنتان وثمانون آية في المصحف البصري، وست وثمانون آية في العدد الدمشقي.

(٢) رواه الديلمي (٦٨١٣) وبذلك قال ابن عباس وابن الزبير ومسروق.

(٣) الطبري (٢١/ ١٢٥).

(٤) ابن الضريس (١٧) والنحاس (٦٤٩) والبيهقي (٧/ ١٤٢).

(٥)، (٦) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٣/ ٧٥) و«فتح القدير» للشوكاني (٤/ ٤٦٢).

إيذاء قريش للنبي ﷺ بعد وفاة أبي طالب، وخديجة .

أسماؤها

١- وسميت سورة (غافر) لقوله تعالى في أولها: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ واشتهرت بذلك.

٢- وتسمى سورة (الطَّوْل) لقوله تعالى فيها : ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾.

٣- وتسمى أيضًا سورة (المؤمن) لانفرادها بقصة مؤمن آل فرعون.

قال ابن الزبير: نزلت سورة (المؤمن) بمكة[1].

٤- وتسمى سورة حم (المؤمن)[2].

سور آل حميم السبع:

وهي السور السبع التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١﴾ وقد رُتِّبَتْ في المصحف وفق ترتيب نزولها هكذا: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

وتسمى سور **آل حميم** لاتحاد فواتحها، ومثلها السور المفتتحة بقوله تعالى: ﴿طسٓۚ﴾ و﴿طسٓمٓ ۝١﴾ يقال لها: **طواسين** بالنون تغليبًا، وربما جُمعتْ على **حواميم** جاء ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود، وسمُرة بن جندب، وغيرهم.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: آل حميم ديباج القرآن[3].

وقال ابن عباس ﷺ: إن لكل شيء لُباب، ولُباب القرآن آل حميم، أو قال: الحواميم[4].

ورأى رجل أبا الدرداء يبني مسجدًا فقال له: ما هذا؟ فقال: أَبْنِيه من أجل آل حميم.

---

(١) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٥).

(٢) وقد ورد بذلك حديث ضعيف عن أبي هريرة في «ضعيف سنن الترمذي» برقم: (٥٤٠) والبيهقي (٢٤٧٣) وابن نصر في «مختصر قيام الليل» ص٦٨ وفيه: أن من قرأ آيتين من أولها وآية الكرسي حُفظ بهما في صباحه ومسائه.

(٣) قال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٨/ ٣٢): إسناده صحيح، ورواه البيهقي (٢٤٧١) والحاكم (٢/ ٤٣٧) وأبو عبيد (١٣٧) وابن الضريس (٢) وجاء مثله عن أنس.

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ١٣٧ .

قال ابن كثير: وقد يكون هذا المسجد هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق[١].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من قرآ آية الكرسي، وأول حم المؤمن عُصِمَ ذلك اليوم من كل سوء**»[٢].

موضوعات سورة (غافر)

وسورة (غافر) تخلو من الأحكام، وتقتصر على المواعظ والزواجر، والحديث عن الدار الآخرة، وهي سورة لا يلحق قارئها ملل ولا سآمة.

والسورة تعالج قضية العقيدة: الإيمان والكفر، والحق والباطل، والهدى والضلال، والدعوة والتكذيب، كما تعالج قضية الطغيان والتجبّر في الأرض بغير الحق.

وفي ثنايا ذلك تَعْرِض آيات السورة لمصارع الغابرين، فيقول تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ﴾ الآية [٥].

ويدعو الله عز وجل في هذه السورة إلى السياحة في الأرض للتأمل في أحوال المكذبين، ويأتي ذلك مرتين ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ الآية [٢١].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ الآية [٨٢].

وتُفرِد السورة بالذكر، قصة موسى وفرعون، الذي زيَّن الشيطان له سوء عمله، فطلب من وزيره هامان أن يبني له صرحًا ليطَّلع إلى إله موسى!

وفي ثنايا القصة يَبْرُزُ دَوْر مؤمن آل فرعون في صورة مُحامٍ قدير يدافع عن قضايا الإيمان، فينصح الفراعنة بأن يوسف ﷺ قد جاءهم قبل موسى ليهاجم الوثنية السائدة فيهم، ويدعوهم إلى التوحيد الخالص، فلم يزالوا في شك من دعوته حتى مات، فلما أرسل الله موسى من بعده تكررت المأساة، وامتدَّ حبل الكفر فيهم، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب، ومن هو مسرف كذاب.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٢٦).

(٢) «سنن الترمذي» برقم: (٢٨٧٩) والبيهقي في «الشعب» برقم: (٢٢٤٥) وقد ضعَّفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» برقم: (٥٤٠).

وتتحدث السورة عن يوم التلاقي والفصل والجزاء ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ﴾ الآية [١٦].

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ﴾ الآية [٧].

وبعد بيان أن فرعون وآله يُعْرَضُون على النار صباحًا ومساء وهم في قبورهم، يقال عنهم يوم القيامة: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ الآية [٤٦].

بعد ذلك يأتي بيان مفصَّل للتلاوُم الذي يحصُل يوم القيامة بين مَنْ يُعذَّبون في النار من الضالين والمضلين، أو الأتباع والمتبوعين، أو الرؤساء والمرؤوسين.

وتستعرض السورة جانبًا كبيرًا من دلائل التوحيد، ومنها: خلْق السموات والأرض، والليل والنهار، وجعْل الأرض قرارًا والسماء بناءً، وأطوار خلْق الإنسان، والحياة والموت.

ثم يأمر الله سبحانه بالتوحيد في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ الآية [٦٥].

ويَنْهَى سبحانه عن الشرك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [٦٦].

ويُبيِّن الله عز وجل أن عدم التوحيد هو السبب في خلود الكافر في النار، وأنه لا يوجد له سبيل إلى الخروج منها ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْۚ﴾ [١١، ١٢].

وفي هذا السياق تَرِدُ آيات ثلاث، مفتتحة باسم الجلالة تُعرِّف وتذكِّر بحق الله تعالى على خلقه:

١- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾ [٦١].

٢- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [٦٤].

٣- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [٧٩].

وفي هذا الصدد أيضًا تعرض السورة **خمس مرات** لمن يكابر ويجادل بالباطل، ويتعامى عن وحدانية الله تعالى فيصفه الله تبارك وتعالى بالكفر والجدال بالباطل:

١- ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [٤].

٢- ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [٥].

٣- ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [٣٥].

٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [٥٦].

٥- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩)﴾ [٦٩].

وجاء الأمر **بالصبر** في السورة، **مرتين** للنبي ﷺ في الآيتين ٥٥ و٧٧.

كما جاء فيها الأمر بالتوجه إلى الله تعالى بالدعاء **مرتين** في الآيتين ٦٠و٦٥.

وأسلوب سورة (غافر) أسلوب المحاجة، والاستدلال على صدق القرآن، وأنه منزل من عند الله تعالى، وإبطال ضلال المكذبين، وضرْبُ مثلهم بالأمم المكذبة، وترهيبهم من التمادي في ضلالهم، وترغيبهم في التبصُّر ليهتدوا.

ويمكن تقسيم السورة إلى **أربعة مقاطع**:

المقطع الأول: من أول السورة إلى الآية الثانية والعشرين منها، وهو يشتمل على افتتاح السورة بصفات الله الحسنى وآياته العظمى.

ثم تعرض السورة إلى المجادلين في آيات الله مع وضوح الحق وسطوعه.

وتبيِّن وظيفة الملائكة واستغفارهم للمؤمنين، أما الكفار فإن غضب الله تعالى وملائكته عليهم أكبر من مقتهم لأنفسهم بسبب وقوعهم في الشرك بالله تعالى، ومن ثَم وجب عليهم إخلاص العبادة لله وحده قبل أن تُجزى كل نفس بما كسبت، وعلى غير المسلمين أن يعتبروا بما حدث لغيرهم من سوء المصير.

المقطع الثاني: وهو من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية الخامسة والخمسين، وفيه الحديث عن رسالة موسى عليه السلام، ومحاربة فرعون لها، ومناصرة مؤمن آل فرعون لدعوة التوحيد، ونصيحته لقومه ودفاعه عن موسى ﷺ وصَدْعه بكلمة الحق في تلطُّف وحذَر، ثم في صراحة ووضوح، ويحذرهم الرجل المؤمن من عقاب الله تعالى، ويذكِّرهم برسالة يوسف عليه السلام وموقفهم منها، ويبيِّن مصيرهم في الدار الآخرة.

ويتناول هذا المقطع قصة المتخاصمين في النار، والحوار بين الضعفاء والمستكبرين، ويُختم بما بدأ به من الإشارة إلى رسالة موسى ﵇، وأمْر الله تعالى لنبيه ﷺ أن يصبر على أذى قومه، كما صبر موسى على أذى بني إسرائيل وفرعون وقومه.

المقطع الثالث: وهو من الآية السادسة والخمسين إلى الآية السابعة والسبعين، وهو مقطع يقيم مجموعة من الأدلة الكونية على وحدانية الله تعالى من السموات والأرض، والليل والنهار، وأطوار خلق الإنسان، في مواجهة المجادلين في آيات الله بغير حجة ولا برهان.

وفي ثنايا ذلك تَعْرِض آيات السورة إلى الأمر بتوحيد الله تعالى وذم الشرك وأهله.

ويُختم هذا السياق بما خُتم به المقطع السابق من أمر النبي ﷺ بالصبر على أذى قومه، فإن الله تعالى ناصره ومعذِّب المكذبين به إن عاجلًا أو آجلًا.

أما **المقطع الرابع** والأخير فهو من الآية الثامنة والسبعين إلى نهاية السورة، وهو ثماني آيات، فيها مواساة للنبي ﷺ بأن الله تعالى قد أرسل قبله رسلًا كثيرين، وأن الله تعالى قد أهلك المكذبين لهم من سائر الأمم، فهم لم يصدِّقوا الرسل ولم يشكروا نعم الله عليهم، ولكي تعتبر هذه الأمة بغيرها فإن عليها أن تدرس التاريخ، وأن تتعرف على مصارع الأمم المكذبة لرسل الله، فإن سُنَّة الله تعالى ماضية في خلقه جميعًا بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

سُورَةُ فُصِّلَتْ (٤١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (فصلت) هي السورة الحادية والأربعون في ترتيب المصحف، والحادية والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة غافر وقبل سورة الزخرف.

وعدد آياتها أربع وخمسون آية عند أهل الكوفة(١).

وفيها سبع مئة وستٌّ وتسعون كلمة، وثلاثة آلاف وثلاث مئة وخمسون حرفًا، وهي سورة مكية باتفاق.

أسماؤها: وسميت سورة (فصلت) لوقوع كلمة ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ في أولها، وتسمى سورة **حم السجدة**، وبذلك ترجم لها البخاري والترمذي، ولها أسماء أخرى هي: **السجدة**؛ لأن فيها آية سجدة، **وسجدة المؤمن**، **والمصابيح** لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [١٢]، **والأقوات** لقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [١٠]. فهذه ستة أسماء للسورة.

وموضوعاتها هي موضوعات السور المكية التي هي: الوحي والرسالة، والوحدانية، والبعث والجزاء، وهي تتجلى واضحة في آيات هذه السورة:

١- ففي جانب الوحي: تبتدئ السورة بالحديث عن القرآن، فتُنوِّه بشأنه، وتشير إلى عجز مُعارضيه، وتذكِّر بهدْيه، وتبيِّن أنه معصوم من تطرق الباطل إليه، وأنه مؤيد بما أُنزل على الرسل من قبله.

وقد تلقاه المشركون بالإعراض وصَمِّ الآذان، فأبطل القرآن مطاعنهم، وذكَّرهم بأنه نزل بلغتهم، فلا عذر لهم في عدم الانتفاع بهدْيه، وأنذَرهم بما حلَّ بالأمم المكذبة لرسل الله، من عذاب الدنيا.

وقررت السورة أن الرسول بشر، خصَّه الله بالنبوة، واختاره ليختم به الرسالات، فأنزل عليه الوحي بالحجج الواضحة، والبراهين الساطعة، والمعجزة الخالدة.

---

(١) واثنتان وخمسون آية عند أهل البصرة والشام، وثلاث وخمسون آية عند أهل مكة والمدينة.

٢- وتحدثت السورة في مطلعها عن وحدانية الله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [٦].

وفي وسطها: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [٣٧].

وفي نهايتها: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾ [٤٧].

وبيّنت السورة جانبًا من آثار قدرة الله تعالى الدالة على وحدانيته سبحانه، كَخلْق السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والنفس البشرية.

٣- وتناولت السورة جانب اليوم الآخر، ففي أولها تهديد ووعيد للمشركين المنكرين لليوم الآخر، وفي أثنائها عرض لبعض مشاهد القيامة من شهادة السمع والبصر والجلود على الإنسان يوم القيامة، وفي نهاية السورة: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ۝٥٤﴾.

هذا: ويمكن تقسيم سورة (فصلت) إلى **مقطعين**:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية السادسة والثلاثين، وهي آيات تتضمن الحديث عن القرآن الكريم، وأنه منزَّل من عند الله تعالى بلغة العرب، وقد عجز البشر عن معارضته، ولم يسع كبار الكفار وقت التنزيل إلا أن يشهدوا له بأنه يعلو ولا يُعلى عليه، وأنه ليس بقول بشر، ومع هذا فقد أعرضوا عنه ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾[٥].

فتوعدهم القرآن بعذاب كعذاب عاد وثمود مع قوتهم وشدة بأسهم، ويوم القيامة تشهد عليهم جوارحُهم وأعضاؤهم بما كانوا يعملون، وقد كان السبب في ضلالهم أن الله تعالى قيَّض لهم قرناء السوء من الجن والإنس، فزيَّنوا لهم سوء أعمالهم فرأوها حسنة، وذلك أنهم استحبوا العمى على الهدى، وانحرفوا عن الفطرة، فضلُّوا وأضلُّوا، وصَدُّوا الناس عن سبيل الله، ومن ذلك قولهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾[٢٦].

وفي ثنايا ذلك يوبخهم القرآن على كفرهم ببيان أن الذي يكفرون به هو خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه، وأنه كان عليهم تجاه دلائل التوحيد وآثار القدرة الإلهية أن يفردوه سبحانه بالعبادة دون سواه ولكنهم لم يفعلوا.

وفي مقابل هذا الفريق تذكُر السورة حال المتقين الذين استقاموا على شرع الله، فأكرمهم الله بالأمن والأمان في دار الجنان، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

المقطع الآخر: من الآية السابعة والثلاثين إلى نهاية السورة، وهو مقطع يبدأ بجملة من آيات الله في الكون: الليل والنهار، والشمس والقمر، والملائكة المقربين، وهي من دلائل تفرد الله تعالى بالخلق، ودلائل بعث الناس بعد موتهم، وموقف الملحدين من هذه الدلائل، وتعاميهم عن آيات الله الباهرة، وكتابه العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وتبيِّن السورة أن حمْلَ العرب لهذه الرسالة هو حملٌ لرسالة الأنبياء قاطبة، وأن أهل الكتاب قد أضاعوا ما لديهم من تراث، ونسُوا قواعده، كما تبيِّن السورة أن مردَّ علم الساعة إلى الله تعالى، وتوضح طبيعة الإنسان في حالتي العسر واليسر.

وتُختم السورة بوعد من الله تعالى أن يكشف للناس عن أسرار هذا الكون في آخر الزمان ليستدلوا على صدق ما أخبر به القرآن، وتزداد نبوة محمد ﷺ صدقًا ورسوخًا.

سبب النزول:

١- روى ابن إسحاق عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: حُدثتُ أنَّ عُتْبة بن ربيعة -وكان سيِّدًا- قال يومًا وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده، قال: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرِضُ عليه أمورًا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكفُّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوْا أن أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثُرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقُم فكلِّمْه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة (الوسط) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أَتيْتَ قومك بشيء عظيم، فرَّقتَ به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبْت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به مَنْ مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل منا بعضها، قال: فقال له رسول الله ﷺ: «**قل يا أبا الوليد، أسمع**».

قال: يابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا، جمعنا لك من

أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالًا.

وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدْناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دُونك.

وإن كنت تريد به مُلكا ملكْناك.

وإن كان هذا الذي يأتيك رِئْيًا تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك، طلبْنا لك الطب وبذلْنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوَى منه -أو كما قال له.

حتى إذا فرغ عُتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «**أفرغتَ يا أبا الوليد**»؟ قال: نعم، قال: «**فاستمع مني**» قال: أفعل، قال: «**بسم الله الرحمن الرحيم**: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾» ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمع عُتبة أنْصَت لها، وألْقى يديْه خلْف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: «**قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك**».

فرجع عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض -وهو يقسم بالله-: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولًا، والله ما سمعت مثله قطُّ، والله ما هو بالسحر، ولا بالشعر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها لي، خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزِلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ نبأ، فإن نصَّبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكه ملككم، وعزُّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[(١)].

وفي هذا روايات أخرى تدل على اجتماع قريش وإرسالهم عتبة بن ربيعة، وتلاوة الرسول عليه أول السورة إلى ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣﴾.

٢- ففي رواية جابر عن عبد الله ﷺ أن قريشًا اجتمعت يومًا لاختيار أعلم رجل فيهم

---

(١) هذه رواية ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٩٣) والبيهقي (٢/ ٢٠٤) وابن عساكر (٣٨/ ٢٤٦).

حتى يرسلوه إلى النبيِّ ﷺ ليُراجعه في دعوته، فوقع اختيارهم على عُتْبة بن ربيعة، فأتاه وكلَّمه في شأن الرسالة، وقال له: أنت لست خيرًا من عبد الله ولا من عبد المطلب، ولقد فرَّقت جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وعِبْت ديننا، وفضحْتنا في العرب، حتى قال الناس: إن في قريش ساحرًا وكاهنًا، وقد أوشكنا أن يقوم بعضنا على بعض بالسيوف، فإن كان بك حاجة إلى المال جمعنا لك أموالًا حتى تكون أغنى قريش، وإن كان بك باءة، فاخْتر أيَّ نساء قريش شئت، فلْنُزوِّجك عشرًا، فقال رسول الله: «**فرغت**»؟ قال: نعم، فقرأ ﷺ أول سورة فصلت حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فقال عتبة: حسبك، حسبك، ما عندك غير هذا، قال: لا، فرجع إلى قريش، وأخبرهم بأنه لم يترك شيئًا يريدون أن يكلِّموه فيه إلا كلَّمه، قالوا: فبماذا أجابك؟ قال: والله ما فهمت شيئًا مما قال، غير أنه أَنْذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود... [١].

٣- وعن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ لما قرأ على عتبة أول سورة (فُصِّلت) أتى أصحابه فقال: يا قوم، أطيعوني في هذا اليوم، واعصوني بعده، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلامًا ما سمعتْ أذنايَ قط كلامًا مثله، وما دريتُ ما أرد عليه[٢].

---

(١) يُنظَر النص في: ابن أبي شيبة (١٤/ ٢٩٥) (١٨٤٠٩) وأبي يعلى في «الدلائل» (١٨١٨) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ٢٥٣) وأبي نعيم في «الدلائل» (١٨٢) والبيهقي (٢/ ٢٠٢) وابن عساكر (٣٨/ ٢٤٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢): فيه الأجلح الكندي، وثَّقه ابن معين وغيره، وضعَّفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات.

(٢) البيهقي (٢/ ٢٠٥) وأبو نعيم (١٨٥) كلاهما في «دلائل النبوة».

سُورَةُ الشُّورَى (٤٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الشورى هي السورة الثانية والأربعون في ترتيب المصحف، والتاسعة والستون في ترتيب النزول، كما رُوي عن جابر بن زيد، نزلت بعد سورة فصلت وقبل سورة الزخرف، في حدود سنة ثمان بعد البعثة، وقت انحباس المطر عن أهل مكة، واستمر نزولها إلى سنة تسع من البعثة، أي: بعد أن آمن نُقباء الأنصار ليلة العقبة.

وعدد آياتها عند أهل الكوفة ثلاث وخمسون آية، وعند أهل حمص واحد وخمسون آية، وعدَّها غيرهم خمسين آية.

وعدد كلماتها ثمان مئة وستون كلمة، وعدد حروفها ثلاثة آلاف وخمس مئة وثمانية وثمانون حرفًا.

وتسمى عند السلف سورة ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾، كما ترجم لها البخاري والترمذي، وقد يُختصر الاسم فيقال سورة ﴿عٓسٓقٓ ۝٢﴾، وتسميتها بسورة الشورى هو الأشهر.

وهي سورة مكية عند الجمهور، واستثنى بعضهم أربع آيات من قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ الآية [٢٣] وما بعدها، وقيل: إن آية ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ الآية [٢٧] نزلت في أهل الصُّفَّة، فتكون مدنية.

وقيل أيضًا: إن آية ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩﴾ مدنية، والأصح أنها مكية كلها.

وموضوعات سورة الشورى هي موضوعات السور المكية، والمحور الأساس الذي تدور عليه هو **الوحي والرسالة**، فتبدأ السورة وتنتهي بالحديث عن الوحي، ويتخللها تقرير مصدر الوحي والرسالة، وهي الحقيقة البارزة في محيط السورة:

١- ففي أول السورة بيان لمصدر الوحي، وأنه منزل من عند الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾.

ثم يأتي تقرير لمركز القيادة الجديدة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ

﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الآية [٧].

ثم تبيِّن الآيات وحدة الرسالة بين جميع الرسل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ الآية [١٣].

وأشارت الآيات إلى أن الناس خالفوا هذه الوصية، وأن التفرق في الدين قد وقع ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ الآية [١٤].

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ الآية [١٤].

ويأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يمضي في طريق الدعوة إلى الله، تاركًا هذا الخلاف وراءه، وما على الرسول إلا الدعوة والبلاغ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ الآية [٤٨].

وتختم السورة ببيان طرق نزول الوحي على رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ الآية [٥١].

ويقرر الله سبحانه أمية الرسول ﷺ في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [٥٢].

أما كيفية نزول الوحي على رسول الله ﷺ فقد بيَّنه حديث عائشة رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحيانًا يأتي مثل صلصلة الجرس -وهو أشده عليَّ- فيُفصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملَك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول**». قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّد عرقًا[1].

وقد بيَّنتْ آية الوحي الثانية في السورة أن الإسلام دين عام خالد، وأنه لقارات الدنيا جميعًا إلى آخر الدهر، ونقطة البداية كانت ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فميدان البلاغ هو العالم كله، شرقُه وغربُه، ولم يمضِ نصف قرن على البعثة حتى بلغ الإسلام المشارق

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢) وهذا لفظه، وانظر (٣٢١٥) و«صحيح مسلم»: (٤/ ١٨١٦) برقم (٢٣٣٣) و(الموطأ) (١/ ٢٠٢) والترمذي (٣٦٣٤) و«المسند» (٢٤٣٠٩) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن حبَّان (٣٨) و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٠٨).

والمغارب، وأسقط أعلام الأمم التي استعمرت آسيا وأفريقيا.

وكان نزول الوحي على محمد ﷺ بعدما انقطعت صلة اليهود بالدعوة إلى الله تعالى، وجعلوا الدين ميراثًا قوميًّا، أما النصارى فقد غلب عليهم تعدد الآلهة وقصة الفداء، والحديث الطويل عن ابن الله كما يزعمون!!

جاء الإسلام فأعلن صلته الوثقى بموسى وعيسى عليهما السلام، وأكَّد أنه يقرر الوحي الذي نزل على جميع الرسل، ومضى النبي ﷺ في طريق الدعوة، فاستجابت له جماهير أهل الكتاب في آسيا الوسطى وشمال أفريقيا، كما ثاب الوثنيون إلى رشدهم في إيران وآذربيجان والهند والصين، وانزاحت السدود أمام الفيضان فانطلق.

والإسلام ينتشر حاليًا بصورة سريعة في أوربا وأمريكا، مخترقًا الحواجز والقيود، يدْحض حجج الخصوم وينفذ فيهم على قدم وساق ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ الآية [٢٤].

﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ الآية [١٦].

وقد شقَّ الإسلام طريقه حتى بلغ ما بلغ الليل والنهار، والأذان يرتفع في كل قطر يشهد لله تعالى بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بصدق الرسالة، كأنه ساعة لا يتوقف لها دقٌّ، ولقد كذَب على الله بعضُ الناس وزوَّروا وحْيًا مُضحِكًا، فسُرعان ما انْمحى أثرهم، وانقضى زيفهم، وبقي الخلود للحق وحده[١].

٢- وقد ساقت السورة عددًا من آيات الله الكونية الدالة على وحدانيته سبحانه:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ الآية [٢٩].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ الآية [٣٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ الآية [٢٨].

٣- وفي مضمار الفضيلة والعدالة ذكَّرت السورة بعدة خصال ينجو بها العباد من غضب

(١) يُنظَر: «التفسير الموضوعي لسور القرآن» ص ٣٧٤ وما بعدها.

ربهم، تشمل: العمل للآخرة، وتفويض الأمر إلى الله تعالى، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والعفو عمن أساء، والاستجابة لله رب العالمين، وإقام الصلاة، وتحكيم الشورى بين الناس، والإنفاق من رزق الله، وذلك في الآيات من السادسة والثلاثين إلى الأربعين.

وحين يزداد اليهود تعلقًا بمواريثهم، ويقاتلوننا تديُّنًا، فلا بدَّ لنا من الاستجابة لأمر الله تعالى حتى ينصرنا الله عليهم ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الآية [٤٧].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **قسمين:**

القسم الأول: من أول السورة إلى الآية السادسة والعشرين، وهو يتناول جانب الوحي والرسالة، وما يتصل بها، وذلك بعد افتتاحها بخمسة حروف من حروف الهجاء، فتقرر وحدانية الموحى به إلى الرسول ﷺ وإلى الرسل قبله، وفي هذا إشارة إلى أن الإسلام دين عام خالد إلى قارات الدنيا، وأن دين الله واحد يدعو إلى التوحيد ونبذ الشرك، ولو شاء الله لقسر الناس على التوحيد وجعلهم أمة واحدة، ولكنه سبحانه ترك لهم حرية الاختيار، وقال لهم: أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، وجعل الناس فريقين: فريقًا في الجنة، وفريقًا في السعير.

ولأن هذا الموضوع هو محور السورة، فقد جاء ذكره في أولها وفي أثنائها وفي آخرها، حيث ابتدأت السورة ببيان أن الوحي قد نزل على محمد ﷺ كما نزل على الرسل قبله ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [٣].

وبعد ثلاث آيات من هذه الآية جاء ذكر الوحي خاصًا بمحمد ﷺ مع بيان أنه نزل بلسان العرب إلى عموم الخلق، وأن مكة المكرمة هي مركز انطلاق الدعوة العالمية ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الآية [٧].

ثم جاء ذكر أولي العزم من الرسل، لبيان أن شرع الله الذي أوحاه إلى جميع الرسل واحد، وذلك في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ الآية [١٣].

وفي نهاية السورة جاء الحديث عن أنواع الوحي إلى جميع الرسل ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ الآية [٥١].

وقررت الآية بعدها أمية محمد ﷺ، وأنه قبل نزول الوحي عليه لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان.

وقد تناول هذا القسم إلى جوار ذلك ما يتصل بالوحي من عموم الرسالة الخاتمة، وتفرق الناس فيها، ووجوب التحاكم إلى ما أنزل الله تعالى عند الاختلاف، وأَمْرُ النبي ﷺ أن يمضي في طريق الدعوة إلى الله، ولا يتبع أهواء الضالين، وقد وعد الله من اتبع طريق الوحي سعادة الدنيا والآخرة، ويُحرم منها من انغمس في الشهوات في دنياه وترك الآخرة وراء ظهره، أو أشرك بالله تعالى وظلم نفسه.

القسم الثاني: من الآية السابعة والعشرين إلى نهاية السورة، وهو يتعلق بدلائل التوحيد في الكون، وفيه حشد لعدد من آيات الله تعالى في الكون من الرزق، ونزول الغيث، وخلق السموات والأرض وما فوقها من دواب، والسفن في البحار، والرياح المسخرة بإذن الله تعالى.

ويصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بأوصاف، منها: التوكُّل على الله، واجتناب الكبائر والفواحش، والعفو والصفح، والاستجابة لأمر الله تعالى، وإقام الصلاة، والأخذ بمبدأ الشورى، والإنفاق في سبيل الله، وعدم قبول الظلم، وعدم مقابلة الإساءة بمثلها.

وقرر سبحانه أنه لا حرج في الانتصار بعد الظلم، وأن الصبر والعفو من عزائم الأمور.

وتخلل ذلك وعيد شديد وتخويف من النار، ووجوب الاستجابة لأمر الله تعالى قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، وأشارت السورة إلى أن الله تعالى هو المعطي الوهاب، يهب لمن يشاء الذكور والإناث أو يقتصر على أحدهما.

وختمت السورة ببيان أن مهمة النبي ﷺ هي هداية الخلق إلى صراط الله، وإليه المرجع والمصير فيجازي كلًّا بما يستحق.

سُورَةُ الزُّخْرُفِ (٤٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الزخرف هي السورة الثالثة والأربعون في ترتيب المصحف، والثانية والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الشورى وقبل سورة الدُّخَان.

وعدد آياتها تسع وثمانون آية في جميع المصاحف، إلا المصحف الشامي فهي فيه ثمان وثمانون آية.

وعدد كلماتها ثلاث وثلاثون وسبع مئة كلمة.

وعدد حروفها ثلاثة آلاف وأربع مئة حرف.

وسُمِّيت سورة (الزخرف) لقوله تعالى فيها: ﴿وَزُخْرُفًاۚ﴾ الآية [٣٥] ولم ترد هذه الكلمة في غيرها من السور، وسَمَّاها البخاري: سورة حم الزخرف.

وهي سورة مكية، وقيل: إن آية ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ الآية [٤٥] نزلت بالمسجد الأقصى.

وحادثة الإسراء والمعراج كانت قبل الهجرة، فهي آية مكية أيضًا.

وموضوع سورة الزخرف كالسور المكية تناولت:

(أ) جانب التوحيد: فذكرتْ تناقض المشركين في اعترافهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، مدبر شؤون الخلق، يحيي ويميت ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾.

ومع ذلك فقد عبدوا غيره، وزعموا أن الملائكة بنات الله، مع اعتقادهم بأن البنات أقل شأنًا من الأولاد! وجمعوا بين الإقرار بوجود الله تعالى واتخاذهم آلهة يعبدونها شركاء لله تعالى.

وقد أبطلت السورة حججهم ومعاذيرهم، وصححت انحراف العقيدة لديهم، ورَدَّتْهم إلى الفطرة السليمة، وبرَّأت عيسى عليه السلام من قولهم، كما برَّأت الملائكة من افتراءاتهم ﴿قُلْ

إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

وأقامت السورة عددًا من دلائل القدرة والوحدانية مُنْبَثَّة في هذا الكون الفسيح: في السماء والأرض، والجبال والوهاد، والبحار والأنهار، والماء الهاطل من السماء، والسفن التي تسير فوق سطح الماء، والأنعام التي سخرها الله تعالى للبشر ليأكلوا لحومها، ويركبوا ظهورها.

(ب) **وتناولت السورة مصدر الوحي، وصدق القرآن**، وفنَّدتِ الشبه التي أثارها المشركون حوْل رسالة محمد ﷺ، فقد اقترحوا أن ينزل القرآن على زعيم مكة أو زعيم الطائف، لا على يتيم قريش، فبيَّن سبحانه أن الجاه والثراء ليْسَا ميزانًا لاصطفاء العبد واختياره، فلو شاء الله لجعل ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

وأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يستمسك بما أوحى إليه به، فهو على صراط مستقيم، وبيَّن له أن هذا القرآن شرف رفيع له ولقومه، والرسالة فضل الله يؤتيه من يشاء.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ﴾ الآية [٣٢].

(ج) **وفي الحديث عن البعث والجزاء** بيَّنتِ السورة مصير المؤمنين، حيث يقال لهم عند قيام الساعة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

كما بيَّنتْ مصير المجرمين الأسود ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

وأهل الجنة يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، ولهم فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

أما أهل النار فإنهم يحاولون الخروج من النار فلا يستطيعون ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

ثم يستغيثون بخزنة النار فلا يغيثونهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر]

فيلْجؤون في النهاية إلى الخازن الأكبر ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيجيبهم بعد وقت طويل: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

(د) وتذكُر السورة جانبًا من **أحوال الأمم السابقة** مع رسلهم لِيُذكِّر كل رسول أمته بما حدث لهم من عواقب؛ حتى لا يغترُّوا بإمهال الله تعالى لهم، ويخص بالذكر طرفًا من رسالة إبراهيم ﷺ، وكيف أنه جعل كلمة التوحيد أثرًا باقيًا في عقبه، والمشركون يقولون إنهم على ملَّته، وهم يخالفونها، فيشركون مع الله غيره.

(هـ) كما تناولت السورة طرفًا من **قصة موسى مع فرعون**، وكيف أن فرعون كذَّب موسى وطارده هو وقومه حتى بلغوا البحر الأحمر، وعبَر بنو إسرائيل البحر يقودهم موسى عليه السلام، وأراد فرعون اللحاق بهم، فغرق في اليمِّ، هو ومن معه جميعًا، ولما أحس فرعون الغرق ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه لَمَّا أغرق الله فرعون، ونطق بكلمة التوحيد، جعل جبريل يأخذ من طين البحر المستقر في قعره ويدسُّه في فمه، ثم لفظت الأمواج جُثَّة الملك السابق، ورأى الناس على شاطئ البحر رُفاتًا مكْسُوًّا بالوحل، وفمًا مليئًا بالطين!

أين أساور الذهب التي كانت في معصميه؟ لقد اختفت مع الألوهية المزوَّرة! لقد كان الرجل المغرور مثالًا للتكبُّر والجبروت ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

وهكذا يختفي المبطلون عن دنيا الناس لتستقبلهم عرصات القيامة بنارها المؤججة.

(و) وتذكُر السورة طرفًا من **سيرة عيسى** عليه السلام، يدور حول الجدل في شأنه، حيث يقول بعضهم: إنه إله ثانٍ، فهو الإله الابن، وإن جبريل -روح القدس- إله ثالث، والإله الأول هو الأب.

وفتنة ولادة عيسى من غير أب، رشَّحت عيسى عليه السلام ليكون ابنًا لله كما يزعمون، فشاء الله سبحانه أن يعيده إلى الأرض مرة أخرى ليُكذِّب بنفسه أنه إله أو ابن للإله، ويؤكد أنه عبد مرسل من عند الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

وعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يثابروا في إرشادهم دون يأس ولا ملل.

وقد خُتمت السورة بهذا المعنى بعد بيان حال السعداء وحال الأشقياء.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى خمسة مقاطع:

المقطع الأول: الآيات السبع الأُول من السورة، بالإضافة إلى الآيات من ٢٣-٤٥ وهذه الآيات تتحدث عن الوحي والرسالة، ويبدأ ذلك بالحديث عن القرآن، ويُثنِّي بالحديث عن خاتم النبيين، وفي ثنايا ذلك يأتي ذكر خليل الرحمن أبي الأنبياء، ليقرر عقيدة التوحيد ونفي الشرك وأهله.

المقطع الثاني: من الآية ٨- ٢٢ وفيه براهين التوحيد والرد على أشرك مع الله غيره.

المقطع الثالث: يتناول طرفًا من رسالة موسى ﷺ إلى فرعون وقومه، وكيف أن الله تعالى أيده بالمعجزات الدالة على صدقه في دعواه، ولكن فرعون وَصَفَهُ بالساحر، وادّعى أن له مُلْك مصر، وطلبَ معجزات أخرى، كنزول الملائكة عليه، أو يُلقى عليه أسْورة من ذهب، وقد استغرق هذا من الآية ٤٦-٥٦ في السورة.

المقطع الرابع: من الآية ٥٧-٦٥ وفيه تقرير أن عيسى ﷺ عبد ورسول، وأنه سينزل قرب قيام الساعة، وأن الله تعالى سيحكم بين عباده فيما اختلفوا فيه من شأن عيسى وغيره.

أما المقطع الخامس: فهو من الآية ٦٦ إلى نهاية السورة، وفيه حديث عن مصير المتقين والمجرمين، وما يوعدون به من الجنة والنار، وهو مقطع فيه ترغيب وترهيب، ووعْد ووعيد، وتنديد بالمشركين والمكذبين في كل زمان ومكان، ولَفْت أنظارهم إلى صفحة الكون المرئية، والمقروءة، فإن هذا من شأنه أن يأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة.

سُورَةُ الدُّخَانِ (٤٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الدُّخَان) هي السورة الرابعة والأربعون في ترتيب المصحف، والثالثة والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الزخرف) وقبل سورة الجاثية.

وعدد آياتها عند أهل الكوفة تسع وخمسون آية[1].

وعدد كلماتها ثلاث مئة وست وأربعون كلمة.

وعدد حروفها ألف وأربع مئة وواحد وثلاثون حرفًا.

وسُمِّيت سورة (الدُّخَان) لوقوع لفظ الدُّخَان فيها، على أنه آية من آيات الله تعالى، وتسمى سورة (**حم الدُّخَان**).

وهي سورة مكية عند الجمهور، واستثنى بعضهم ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [١٥]. بناء على أن مشركي مكة أرسلوا إلى النبي ﷺ وفْدًا وهو في المدينة يطلبون الدعاء لهم، لرفع ما هم فيه من قحط وجدب وجوع.

وافتتاح السورة يُشْبه السورة التي قبلها، من القسَم بالقرآن، والتنويه بشأنه وشرفه، وبيَّنتْ هذه السورة أن وقْت نزوله هو ليلة القدر، التي يُفْرق فيها كل أمر حكيم ويُبْرم، فهي الليلة التي تُفصَّل وتُدبَّر فيها أمور الخلق من كل عام، فتظهر هذه الأمور للملائكة.

وقد بُوركت هذه الليلة لنزول الوحي فيها، وبركة هذا القرآن لأنه يصنع من البشر ملائكة، ولأنه صنع من العرب أمة ذات حضارة لا تغيب عنها الشمس.

ثم أضربتِ آيات هذه السورة عن هذا الحديث المتعلق بالقرآن ونزوله، لتتناول شأن القوم الذين قاوموا الدعوة، وكانوا في شك وارتياب منها، فعاقبهم الله تعالى في الدنيا بعذاب الجوع، بسبب دعاء النبي ﷺ عليهم، جزاء إعراضهم عن تدبر القرآن، ليعلموا أن إجابة دعوة

(١) وست وخمسون آية عند أهل المدينة ومكة والشام، وسبع وخمسون آية عند أهل البصرة.

النبي ﷺ دليل على أنه رسول من عند الله تبارك وتعالى، كما انتقم الله منهم يوم بدر.

ثم تحدثت الآيات في هذه السورة عن حمَلة الوحي قبل هذه الأمة، وما حلَّ بهم من العذاب نتيجة الطغيان والجبروت، فقد ناشد موسى فرعون أن يطلق سراح قومه، وأن يتركهم يرتحلون معه من مصر، ولكن فرعون أبى إلا حبْسهم على الأذى، فكانت العاقبة أن أهلكه الله ومن معه جميعًا، وتركوا بعد هلاكهم: القصور والدور، والحدائق والبساتين، والأنهار والعيون.. فقد أورثها الله بني إسرائيل في أرض أخرى، بعد هلاك فرعون وقومه، وسرعان ما حاد بنو إسرائيل عن تراث أنبيائهم، فعاثُوا في الأرض فسادًا، وعاقبة الظَّلَمة واحدة في كل عصر ومصر.

وقد اختار الله تعالى العرب بعدهم، وأورثهم القرآن العظيم، فسارُوا به أشواطًا، ثم تخلَّوْا عنه إلا قليلًا، فأصبحوا شراذم ينال منهم كلُّ جبار؛ لأن الله تعالى قد وعد المؤمنين الصالحين الذين أخلصوا للوحي المنزل عليهم أن يرثوا خير الدنيا والآخرة.

ومن لا يعمل للدار الآخرة، ويسْخَر من الحياة بعد الموت، ويَعُدَّ ذلك خُرافة -فهو في جاهلية عمياء، مهما أوتي من الحضارة المادية والعلم الدنيوي ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

والله تعالى سيجمع الآباء والأبناء ليحاسبهم على ما قدمتْ أيديهم، فليست هذه الحياة الدنيا عبثًا ولا لهوًا ولا لعبًا ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

ومنكرو البعث والنشور ليسوا بأكرم على الله تعالى ممن سبقهم من الأمم الطاغية، وسُنَّة الله لا تتخلف.

إنها سورة ذات آيات قصيرة، تُبْرِز ألوانًا متعددة من تهديد المكذبين بالرسالة الأخيرة، فتُذكِّرهم بالقحط تارة، وبما حلَّ بالأمم المكذبة تارة، وبما ينتظرهم من العذاب المهين إن استمروا على كفرهم تارة أخرى.

وآيات هذه السورة تطوف بالمسلم في عوالم شتى: بين السماء والأرض، والدنيا والآخرة، والجحيم والجنة، والماضي والحاضر، والغيب والشهادة، والموت والحياة، وكل هذا لبيان الحق والحكمة التي خلق الله هذا الكون من أجلها.

وقد خُتِمت السورة بما ينتظر الأشرار والأخيار من النعيم أو العذاب.

أما مصير الكفار فقد صورته هذه الآيات: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

ومصير المتقين صَوَّرَتْه هذه الآيات: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

وعلى هذا فيمكن تقسيم السورة إلى **ثلاثة مقاطع**:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية السادسة عشرة، وهذا المقطع فيه الثناء على القرآن الكريم، وأن الله تعالى قد أنزله في ليلة مباركة، يدبِّر فيها شؤون الخلق إلى مثلها من العام التالي، وقد نزل هذا القرآن رحمة من عند الله رب العالمين، أما من كذَّب بالقرآن فشكَّ وارتاب فيه، فقد أنذرتْه الآيات بعذاب أليم يعمُّ الناس، ويستغيثون فيه إلى ربهم؛ ليكشف عنهم ما هم فيه من العذاب جزاء تكذيبهم لخاتم المرسلين، ووصْفهم له بما لا يليق بجنابه، وإعراضهم عنه ﷺ.

المقطع الثاني: من الآية السابعة عشرة إلى الآية السابعة والثلاثين، وهي آيات تتحدث عن قوم فرعون وما حلَّ بهم من العذاب، لتبيِّن لنا أن عاقبة الظلم واحدة في كل عصر ومصر، وأن ما حدث لقوم فرعون من ضياع وتشرُّد يحدث لكل من طغى وتجبر وأنكر البعث والنشور، فكذَّب بالله ورسله واليوم الآخر.

أما المقطع الثالث: فهو من الآية الثامنة والثلاثين إلى نهاية السورة، وهو مقطع يبيِّن الحق الذي خلقت من أجله السموات والأرض، وأن الله تعالى سيجمع الأولين والآخرين في يوم يشتد فيه الحساب ليحاسب كلًّا على ما قدمت يداه، فيأكل الأشرار من شجرة الزقوم، ويُصب فوق رؤوسهم الحميم، يُصْهر به ما في بطونهم والجلود، ويأكل الأخيار مما ينتظرهم من النعيم المقيم، وكل ما يشتهون من فاكهة وطعام وشراب، ويلبسون السندس والإستبرق، ويتزوجون الحور العين، ونعيمهم دائم لا ينقطع بفضل الله تعالى ورحمته.

وقد بُدئت السورة بالحديث عن القرآن، وخُتِمت بالحديث عنه أيضًا.

إن هذا القرآن يوقظ الغافلين، ويصنع أمة ذات رسالة عظيمة ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾. وهذا مؤذن بانتهاء السورة.

من الآثار الواردة في سورة الدُّخَان:

عن الأسود بن يزيد، وعلقمة: أن رجلًا أتى عبد الله بنَ مسعود ﷺ فقال: قرأتُ المُفصَّل في ركعة، فقال عبد الله: بل هذَذْتَ كهذِّ الشِّعر -أي: أسرعت في القراءة- وكنثْر الدَّقَل -**الدَّقل**: هو التمر الرديء اليابس، أي: إن قراءتك غير جيدة- ولكن رسول الله ﷺ كان يقرأ النظائر في ركعة، فذكر عشر ركعات بعشرين سورة، عن تأليف عبد الله-أي: وفق ترتيب السور في مصحف ابن مسعود- آخرهن: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ والدُّخَان[1].

وقال ابن مسعود ﷺ: لقد علمتُ النظائر التي كان يصلي بهن رسول الله ﷺ: الذاريات والطور، واقتربت والرحمن، والواقعة و ن، والحاقة والمزمل، ولا أقسم بيوم القيامة وهل أتى على الإنسان، والمرسلات، وعم يتساءلون، والنازعات وعبس، وويل للمطففين وإذا الشمس كورت، وحم الدُّخَان[2].

وقد وردت جملة من الأحاديث في فضل سورة الدُّخَان تركناها لضعف سندها.

---

(١) الطبراني في «الكبير» (٩٨٥٥) وهو مطولًا في «المسند» (٣٩٦٨) وهو حديث صحيح، وأبي داود (١٣٩٦) و«صحيح سنن أبي داود» (١٢٤). وانظر نحوه مطولًا دون ذكر الأية في المسند (٣٦٠٧).

(٢) الطبراني (٩٨٦١، ٩٨٦٢) وهو في البخاري (٧٧٥، ٤٩٩٦) ومسلم (٨٢٢) دون سرْد السور.

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ (٤٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الجاثية) هي السورة الخامسة والأربعون في ترتيب المصحف، والرابعة والستون في ترتيب النزول، نزلت في مكانها هذا بعد سورة (الدخان) وقبل سورة الأحقاف.

وعدد آياتها عند أهل الكوفة سبع وثلاثون آية، وست وثلاثون آية عند غيرهم؛ لأنهم لم يعدُّوا ﴿حمٓ ۝١﴾ آية، وعدها الكوفي وحده.

وعدد كلماتها أربع مئة وثمان وثمانون كلمة.

وعدد حروفها ألفان ومئة وواحد وتسعون حرفًا.

وتسمَّى **سورةَ الجاثية** لورود هذا اللفظ فيها دون غيرها، كما تسمى: **سورة (الشريعة)** لورود لفظ شريعة فيها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ الآية [١٨].

ويقال لها: سورة **حم الجاثية**، و **سورة الدهر** لورود لفظ الدهر فيها في قوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ الآية [٢٤].

فهذه أربعة أسماء، أشهرها سورة (الجاثية).

وهي سورة مكية، واستثنى بعضهم قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ الآية [١٤]. وقالوا: إنها مدنية.

والسورة تتناول موضوعات السور المكية الثلاثة، وهي: جانب التوحيد، ونُبوَّة محمد ﷺ، والإيمان بالبعث والجزاء.

والمحور المهم الذي تدور حوله السورة هو جانب التوحيد، فهي تقيم الأدلة والبراهين على وحدانية الله تعالى، وتحث على دراسة الكون واكتشاف آياته، وتلفت النظر إلى ملكوت السموات والأرض وما حويا من عجائب، وتأخذ بيد المتأمل فيهما إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

ففي السموات آيات، وفي الأرض آيات، وفي خلق البشر والدواب وسائر المخلوقات

آيات، وفي تعاقب الليل والنهار آيات، وفي تسخير الرياح والأمطار آيات، وكلها شواهد ناطقة بقدرة الله تعالى ووحدانيته، تدل على أن الله وحده هو مصدر هذه النعم الظاهرة والباطنة، وأنه لا خالق ولا رازق إلا هو.

وفي هذا دعم البناء العقلي للإيمان، وإقامته على الفكر السَّويِّ، والبصر النافذ.

وهذه الدراسة النظرية لآيات الله في الكون تقود إلى الإيمان بالله تعالى، إلى جانب توظيف كل ما في الكون لمصلحة الإنسان وإسعاده: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ .

(وإلى جانب العلوم العقلية والكونية، توجد علوم شرعية نقلية، تقود البشر إلى سبيل الرشاد، ومع ذلك فإن من قاموا بغزو الفضاء بَقَوْا على كُفرهم، وكثير ممن يروْن الأجنة تتخلّق في البطون، بدل أن يعترفوا بالخالق سبحانه، قالوا: إن الفاعل مجهول! وهو إلحاد يعم الحضارة الحديثة في غرب أوربا وشرقها، ويمتدُّ دُخانها إلى بقية القارات، ومن هنا فهو علم ظاهري لا يُهذِّب نفسًا، ولا يَصْقُل فكرًا، كالدواب التي تحمل صناديق الكتب ولا علم لها بما حوت). [(١)]، **وتبيِّن السورة مواقف الناس من استقبال الدعوة:**

١- فمنهم شديد العناد، المكابر في الحق، المصرُّ على الضلالة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ .

٢- ومنهم من لا يشعر بالفرق بين مَن يعمل السيئات ومن يعمل الصالحات، فينتج عن هذا التصور السيئ أنه لا يقيم وزنًا للإيمان الخالص، وكأن المكتسب للصالحات والمكتسب للسيئات في ميزان الله واحد ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

٣- ومنهم من ليس له مرجعية في سلوكه وعبادته إلا اتباع هواه ونفسه الأمارة بالسوء، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الآية [٢٣].

٤- ومنهم من يُنكر الآخرة ولا يؤمن بالبعث والنشور ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ

---

(١) يُنظَر: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» للشيخ محمد الغزالي، ص ٣٨٨ .

وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ الآية [٢٤].

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ الآية.

ويجوز أن يكون هؤلاء جميعًا فرقة واحدة، ويجوز أن يكونوا فرقًا متعددة[1].

وجاء في ختام السورة بيان عاقبة الأخيار والأشرار ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ الآية [٣٠].

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ الآية.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **مقطعين**:

المقطع الأول: يتحدث عن القرآن ومصدره، واستقبال المعارضين له بالرفض والاستكبار ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ الآية [٨].

ومن ثَمَّ عن طريقة القرآن في علاجهم بالوعيد الشديد، ولفْت النظر إلى آيات الله الكونية، المنبثة في هذا العالم الفسيح.

ويتضمن هذا المقطع رحمة الله بعباده في عدم التعجيل بعقوبة الضالين عن الحق، ووجوب التريُّث في عرض الدعوة عليهم، وإعطائهم الفرصة، وتخفيف الوطأة عليهم ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ الآية.

كما يتضمن هذا المقطع الحديث عن علماء بني إسرائيل، ومقابلتهم لفضل الله عليهم بالجحود والعصيان والبغي والاختلاف ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ الآيتان.

وقد استغرق هذا المقطع من أول السورة إلى الآية الثالثة والعشرين منها.

أما المقطع الآخر فهو يتناول الحديث عن اليوم الآخر، فيواجه منكري البعث والمتشككين فيه بالأدلة الدامغة والبراهين القاطعة، على أن الله تعالى يحيي الخلائق بعد

(١) يُنظَر: «في ظلال القرآن» (٥/ ٣٢١٩).

موتهم، وتنطق صحف أعمالهم بما قدموه لأنفسهم، فيحاسبهم الله تعالى، ويدخل المؤمنين في رحمته، وينْسى الكافرين في نار جهنم كما نسوا لقاء يومهم هذا، ثم لا يخرجون من النار ولا يُقبل منهم عذر.

وفي نهاية السورة ينطلق صوت التوحيد، ليحمد الله تعالى كلُّ من في أرضه وسمائه وملكوته، على الخلق والرزق والتدبير، وينحني كل طاغية وجبار أمام صاحب الكبرياء المطلق، صاحب العزة والقدرة والحكمة، فهو العزيز الحكيم في بداية السورة ونهايتها.

ويطابق آخر السورة أولها في تمجيد الله تعالى، وذِكْرِ اسمين من أسمائه الحسنى، هما العزيز الحكيم، وفي ذلك إيذان بانقضاء السورة.

سُورَةُ الْأَحْقَافِ(٤٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأحقاف هي السورة السادسة والأربعون في ترتيب المصحف، والخامسة والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الجاثية وقبل سورة الذاريات، وهي آخر سوَر آل حميم السبع، وقد نزلت السور السبع وفق ترتيبها الحالي في المصحف.

وعدد آياتها خمس وثلاثون آية في المصحف الكوفي، وأربع وثلاثون آية في بقية المصاحف.

وعدد كلماتها ست مئة وأربع وأربعون كلمة.

وعدد حروفها ألفان وخمس مئة وخمسة وتسعون حرفًا.

وسُمِّيت بسورة الأحقاف لورود كلمة الأحقاف فيها دون غيرها من السور.

قال ابن مسعود ﷺ: أقْرأني رسول الله ﷺ سورة من آل حم وهي الأحقاف[١].

وهي سورة مكية، قال ابن عباس والزبير ﷺ: نزلت سورة **حم الأحقاف** بمكة[٢].

وذكر ابن عطية[٣] استثناء آيتين، هما قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾الآية [١٠] فإنها أشارت إلى إسلام عبد الله بن سلام، وإسلامه كان بعد الهجرة، وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾الآية [٣٥].

والأسس التي يقوم عليها بناء الإسلام ثلاثة هي: التوحيد، والرسالة، والبعث، وهذه العناصر الثلاثة يعالجها القرآن في كل السور المكية علاجًا أساسيًّا؛ وذلك لأن قضية

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» من حديث طويل بسند جيد (٧/ ٨٨) (٣٩٨١) قال محققوه: إسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن عياش فمن رجال البخاري وأخرجه أحمد أيضًا مختصر (٣٧٢٤) بإسناد صحيح، وأخرجه الحاكم (٢/ ٢٢٣). وأبو يعلى (٥٠٥٧) وابن حبان (٤٧٦) والطبري (١/ ١٢).

(٢) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٣١٠) وذكره الألوسي في تفسيره.

(٣) في تفسيره (٥/ ٩١).

الإيمان بوحدانية الله تعالى، وبعْثة محمد ﷺ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، هي المحور الذي تدور عليه آداب الإسلام ونظمُه وشرائعه كلها:

١- ومن الآيات التي تناولت جانب التوحيد قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية [٤].

فإن آلهة المشركين عجزتْ عجزًا تامًّا عن خلْق أي شيء، ولم يقُل أحد: إن الله تعالى خلَق قارَّة آسيا، وإن هناك ربًّا آخر خلَق قارَّة أفريقيا، ولم يقل أحد: إن الشمس من خلْق الله، والقَمر من خلْق رب آخر، فدعاء غير الله تعالى لا وزْن له، ولو بلغ دعاء المشركين لآلهتهم عنان السماء ما رجعتْ بشيء ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ الآية [٥].

٢- وفيما يتعلق بصاحب الرسالة ﷺ فإن المشركين يقولون: إن القرآن مِنْ وضْع محمد ﷺ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ﴾ [٨].

وكانت الإجابة على قولهم هذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ﴾ الآية [٩].

وليس لأهل مكة عذر في إنكار النبوَّات، فإن اليهود في المدينة يتبعون موسى ﵇، والصالحون منهم آمنوا بمحمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ﴾الآية [١].

ويذكِّر الله تعالى رسوله ﷺ في هذه السورة برسالة أخيه هود ﷺ إلى أهل الأحقاف، ولَمَّا كذبوه استأصل الله شأفتهم، وأتى عليهم، فاحذروا -أيها المسلمون- عقاب الله، وآمِنوا بالرسول الخاتم.

وإذا كان بعض الإنس لم يستجب لداعي الله، فإن نفرًا من الجن استمع إلى القرآن واهتدى بهديه، أفلا يدفعهم ذلك إلى التأمل؟ وإذا كان بعض بني آدم قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فإن الجن رجعوا إلى قومهم بعد أن استمعوا للقرآن منذرين ومخوفين لهم عذاب الله إن لم يؤمنوا.

٣- وفيما يتعلق بالبعث، فإن لهذا العالَم أجلًا ينتهي عنده، ثم تبدأ حياة ثانية، نحصُد

فيها ما غرسْنا ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الآية [٣].

ويوم القيامة يُعرض الكفار على النار، بسبب انغماسهم في الشهوات، واستفراغ الجهد في الاستمتاع بالملذات ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الآية [٢٠].

وعند العرض على النار، يُسأل الكفار عن الحق الذي أنكروه في الدنيا، وهو البعث والنشور، فيعترفون بعد فوات الأوان ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

والقرآن يُعرِّض بمنكري البعث، ويهدِّدهم بسوء المصير ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية [٣٣].

وفي نهاية السورة يُطلب من محمد ﷺ التأسي بمن سبقه من أولي العزم من الرسل ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية [٣٥].

وعندما يطول الكفاح، فإن ذكريات الماضي كلها تكون كأنها لحظات، وهكذا مجيء الساعة بعد رحلة الدنيا ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ الآية [٣٥].

وكل ما سبق ذكره بلاغ للناس ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾الآية [٣٥].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **أربعة مقاطع**:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية الرابعة عشرة، وفيه إشارة إلى كتاب الله تعالى والوحي المنزل على رسول الله ﷺ، ومن آيات القرآن، إلى آيات الكون في السموات والأرض، ثم تَشرع السورة في المناظرة بين الرسول ﷺ والمشركين بالله تعالى، فتُبيِّن أنهم لا يستندون في عقيدتهم الباطلة إلى حق من القول، ولا مأثور من العلم.

وتفنِّد آيات السورة شُبَه المكذبين بالقرآن، فتردُّ عليها بالحجة الدامغة والبرهان الساطع، وتقيم الدليل على المكذبين بالوحي المنزل على خاتم المرسلين بمن اهتدى من بني إسرائيل للحق، فأسلم عندما عرف أن القرآن مُصدِّق لما في التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ الآية [١٠].

وقال جل شأنه: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾الآية [١٢].

المقطع الثاني: من الآية الخامسة عشرة إلى الآية التاسعة عشرة، وفي هذا المقطع تعرض السورة إلى مثالين للابن الصالح، المستقيم في فطرته، البار بوالديه، كلما ازداد عمرًا ازداد تقى وصلاحًا وإحسانًا لوالديه.

والابن الشقي، المنحرف عن الفطرة، العاق لوالديه، الذي يَسْخَر من الإيمان، ويهزأ بالبعث والنشور، وتبيِّن السورة مصير كلٍّ منهما يوم لقاء الله تعالى.

المقطع الثالث: من الآية العشرين إلى الآية السابعة والعشرين، وفيه عرض لقصة قوم هود عليه السلام، الذين كذَّبوا رسولهم وطغوا في البلاد، واغتروا بقوتهم وجبروتهم، وأصرُّوا على كفرهم، فأرسل الله عليهم الريح العقيم ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾الآية [٢٥].

وكما أهلك الله قوم عاد، أهلك ما حولهم من القرى، ولم تستطع آلهتهم أن تدفع عنهم شيئًا من عذاب الله تعالى، فظهر إفكهم وافتراؤهم.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الآية]

المقطع الرابع: من الآية الثامنة والعشرين إلى نهاية السورة، وهو يتناول قصة نفر من الجن صرفهم الله لاستماع القرآن من الرسول محمد ﷺ فآمنوا به وبلَّغوه لأقوامهم، وشهدوا له بأنه الحق، وأنه يصدق التوراة التي قبله، فعادوا إليهم منذرين يحذِّرونهم عذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا.

ويتضمن هذا المقطع الإشارة إلى بدء الخلق وإعادته، وأن الكافرين بالله ورسوله يُعرضون يوم القيامة على النار فيُقرون بما كانوا به ينكرون، ولكن الوقت قد فات، فلا رجعة ولا توبة ولا ندم، فهذا يوم الحساب والجزاء.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ (٤٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (محمد) هي السورة السابعة والأربعون في ترتيب المصحف، والسادسة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الحديد) وقبل سورة (الرعد).

واشتهرت بأنها سورة (محمد) لورود اسم النبي ﷺ في الآية الثانية منها، وتُسمَّى أيضًا سورة (القتال) لورود لفظ القتال في الآية العشرين منها؛ ولأن القتال هو العنصر البارز فيها، كما تسمَّى سورة (الذين كفروا)، والأول هو الأشهر.

وعدد آياتها -عند أهل الكوفة- ثمان وثلاثون آية، وأربعون آية عند أهل البصرة وأهل حمص، وتسع وثلاثون آية عند غيرهم.

وهي خمس مئة وتسع وثلاثون كلمة، وألفان وثلاث مئة وتسعة وأربعون حرفًا.

وهي سورة مدنية، وقد نزلت الآية الثالثة عشرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ في الطريق أثناء الهجرة، فتوهَّم بعضهم أن السورة مكية، وقيل: إنها نزلت عام الفتح، أو سنة الحديبية.

عن ابن عمر ﵄ أن النبيَّ ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في صلاة المغرب[1].

وقد تناولت السورة: أحكام القتال، والأسرى، والغنائم، وأحوال المنافقين، والمحور الأساس الذي تدور عليه هو الجهاد في سبيل الله، وهذا شأن السور المدنية.

أتباع الحق وأتباع الباطل

وتبدأ السورة ببيان حقيقة الذين كفروا، وحقيقة الذين آمنوا، وأن الله تعالى ولي الذين آمنوا؛ لأنهم اتبعوا الحق من ربهم، وأن الكافرين أعداء الله لا مولى لهم، ثم تأمر السورة المؤمنين أن يخوضوا الحرب ضد أعداء الله ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ الآية [٤].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٢٣٩، ١٧٤٢) وفي «الكبير» (١٣٣٨٠) وفي «الصغير» (١/ ٤٥) وهو عند ابن حبَّان (١٨٣٥) قال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وتبيِّن هذه الآية الحكمة من القتال في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ﴾ الآية [٤].

وتكرِّم السورة الشهداء، فتبيِّن أن الله تعالى لن يضيِّع أعمالهم، فيهديهم ويُصْلِح بالهم، ويدخلهم الجنة، فيعرفون الطريق إليها بأنفسهم.

أما الكفار فتعسًا لهم وأضل أعمالهم، وطريق النصر عليهم يَكْمُن في التمسك بشرع الله ونصر دينه، وإعداد العدة المادية والمعنوية.

وتتحدث السورة عن المؤمنين والكافرين والمنافقين، فتصف متاع المؤمنين في الجنة، ومنه ألوان الأشربة في الأنهار الجارية من: اللبن والعسل والخمر والماء.

أما الكفار، فيتمتعون في الدنيا ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار في الآخرة مثوى لهم.

وتمضي السورة في جولة مع المنافقين، فتكشف أستارهم، وتبيِّن هلَعهم وجُبْنهم، وتفْضحُهم في موالاتهم، وتآمرهم مع اليهود، وتبيِّن ملامحهم وصفاتهم وخطرهم على المجتمع المسلم.

وفي عصرنا الحاضر يجدد المنافقون سيرة المخادعين القدامى، فهم يتلقَّون التعليمات من منابر التنصير العالمي، أو من مراكز الغزو الثقافي، ويندَسُّون بين جماهير المسلمين يثيرون الفتن، ويُطلقون الشائعات، ويُرجِّحون وجهات النظر المعادية، ويخذِّلون أصحاب الكفاح، ويداهنون المسلمين من جهة والأعداء من جهة أخرى، فيتنازلون عن بعض المبادئ الإسلامية -إن كانوا في موقع المسؤولية- إرضاء للعدوِّ، مع التعتيم الإعلامي حتى لا ينفضحوا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾.

والله تعالى يكشف خباياهم على ألسنتهم، وما تدلُّ عليه أعمالهم ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾.

الجهاد ضرورة حتمية لرد العدوان وتأمين طريق الدعوة:

وقد حذَّرت السورة من الدعوة إلى الصلح مع الأعداء، حرصًا على شهوات الدنيا ومتاعها، فإن ما عند الله خير وأبقى، فإن بادر العدو إلى طلب الصلح فلا بأس بذلك،

قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١].

وذلك لأن طلب السَّلْم -من جهة المسلمين تخاذُلًا وضعفًا- هوان وذلة، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [٣٥].

ولا بأس من مهادنة العدو إذا كان عددهم وعُدَّتهم أكثر من ضعف عدد المسلمين وعُدَّتهم، وهو أدنى حدٍّ لمجابهة العدو ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ﴾ [الأنفال: ٦٦] ولا تجوز في أكثر من ذلك.

وفي السورة تهديد للمسلمين إن بخلوا ببذل النفس والمال للقتال في سبيل الله، فتحذِّرهم باستبدال قوم غيرهم إن هم تخاذلوا عن الجهاد لنشر الدعوة، وإزالة العقبات من طريقها.

وبهذا يتضح أن النبيَّ ﷺ هو نبي المرحمة، وهو نبي الملحمة، وأن المسلم من شأنه ألا يقبل الظلم ولا الضيم ولا الذل، ولا ينبغي له أن يترُك الباغي يمشي في الأرض متكبرًا، بل يُرغِم أنفه ويُقلِّم أظافره، فماذا نتوقع أن يقول القرآن للمغلوب المستباح دمه وماله وعرضه ووطنه حين يَلْقى خصمه في الميدان؟ وماذا يُكنُّ أهل فلسطين لليهود الذين أخرجوهم من دورهم واسترخصوا دماءهم وحقوقهم؟ وماذا يُكنُّ أهل الشيشان للروس؟ وماذا يُكنُّ أهل البوسنة للصرب؟ وماذا يُكنُّ أهل السودان للجنوب؟ وماذا يُكنُّ أهل العراق لأمريكا؟ وماذا؟ وماذا؟ إنهم لا يُكنُّون لهم إلا الحقد والبغض الدفين ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [التوبة].

وحين يُثخِن المسلم جِراح الكفار، ويقعون في قبضته، ويأخذهم أسرى، فإن رحمة الإسلام تتجلى في أنه إما أن يأسرهم، وإما أن يأخذ منهم الفدية، ولا يستأصلهم كما يفعل العدو، وهكذا تتجلى أخلاق الإسلام في السلم والحرب ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أكثرتم فيهم القتل ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ أي: اجعلوهم في الأَسْرِ ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ﴾ أي: تمنُّون عليهم وتطلقون سراحهم ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ تقبلون أخذ الفدية منهم ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾ الآية [٤].

والنصر على العدوِّ، مرهون بإعداد العدة المكافئة لعدة العدوِّ في البر والبحر والجو،

وعدم مساواتهم في معصية الله تعالى، فإنا إن ساويناهم في معصية الله تفوَّقوا علينا بقوة السلاح ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ .

لقد كان المسلمون يتلون هذه السورة جماعات في ميادين القتال بصوت مرتفع؛ ولأن آياتها تنتهي بميم ساكنة فإن الوقوف عليها له دَوِيٌّ يخلع قلب العدوِّ.

ويوم يتخلى المسلمون عن فريضة الجهاد لردِّ العدوان، وحماية البلاد، وتأديب مَن يقفون في وجه نشر الدعوة، وعدم إعداد العدة لذلك، فإن باطن الأرض خير لهم من ظهرها.

مجمل ما في السورة:

١- وهكذا: فإن السورة بدأت بذكر الكافرين في الآية الأولى، وهذا من براعة الاستهلال؛ لأن موضوعها يتعلق بقتال مَن صدَّ الناس منهم عن دعوة الإسلام.

٢- ثم ثنَّت في الآية بعدها بذكر من آمن بما أُنزل على محمد ﷺ وعمل صالحًا.

٣- ومضت تتحدث عن قتال الكافرين وثواب المؤمنين إلى الآية الخامسة عشرة منها.

٤- وعودًا على بدء تعود السورة من الآية الثانية والعشرين إلى نهايتها لتبيِّن مصير الفريقين: فالكفار لن يغفر الله لهم وسيُحبط أعمالهم، والمؤمنون يؤتيهم أجورهم ولن يترهم أعمالهم.

٥- وعن المنافقين وكشف خفاياهم تتحدث السورة من الآية السادسة عشرة إلى الآية الحادية والثلاثين.

٦- ثم تختم بتهديد بالغ لمن يتولى عن دين الله ويتقاعس عن الجهاد في سبيله.



سُورَةُ الْفَتْح (٤٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الفتح) هي السورة الثامنة والأربعون في ترتيب المصحف، والثالثة عشرة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة (التوبة).

وصُلْح الحديبية هو سبب نزولها.

وعدد آياتها تسع وعشرون آية باتفاق، وهي خمس مئة وستون كلمة.

وألفان وأربع مئة وثمانية وثلاثون حرفًا.

وسميت سورة (الفتح)؛ لأنها بُدئت بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾.

وهي سورة مدنية، نزل صدرها سنة ست من الهجرة في كُراع الغَميم -موضع بين مكة والمدينة- على بُعد ثلاثة أميال من عسْفان بمكة، وكان نزول هذه السورة ليلًا عقب انصراف النبي ﷺ من صلح الحديبية.

وقد نزلت سورة الفتح في أعقاب صلح الحديبية.

ونزلت سورة الأنفال في أعقاب غزوة بدر.

ونزلت عشرات الآيات من سورة (آل عمران) في أعقاب غزوة أحد، من الآية الحادية والعشرين بعد المئة إلى الآية السادسة والثمانين بعد المئة، ونزلت آيات من سورة (الأحزاب) في أعقاب غزوة الأحزاب من الآية التاسعة إلى الآية السابعة والعشرين.

تحدثتْ سورة (الفتح) عن صلح الحديبية الذي تَمَّ بين الرسول ﷺ والمشركين سنة ست من الهجرة، وكان بداية للفتح الأكبر -فتح مكة- لِمَا ترتب على هذا الصلح من الأمن ورفع الحرب، وتمكّن الناس من الدخول في الإسلام، وتم الفتح المبين.

كما تحدثت السورة عن الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول ﷺ يوم الحديبية، من الأعراب الذين في قلوبهم مرض، ومن المنافقين الذين ظنوا ظن السَّوْء، ولم يخرجوا مع النبي ﷺ، ففضحهم الله تعالى وكشف سرائرهم.

وتحدثت السورة أيضًا عن (بيعة الرضوان) التي بايع الصحابة فيها رسول الله ﷺ على الثبات حتى الموت.

وتناولت آيات السورة الرؤيا التي رآها النبي ﷺ في منامه، وحدَّث بها أصحابه ففرحوا بدخول النبي ﷺ وأصحابه مكة آمنين مطمئنين، وقد تحققت هذه الرؤيا ودخلها النبي ﷺ وأصحابه.

قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام في قلوبهم، فأسلم في ثلاث سنين خلْق كثير، فعزَّ الإسلام بذلك، وأكرم الله رسوله ﷺ[1].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **ثلاثة مقاطع**، تشتمل على التمهيد والموضوع والخاتمة:

١- ففي الآيات **التسع الأُوَل**: تَجْبُر آيات السورة قلوب المسلمين الكسيرة، بسبب صلح الحديبية، فتبشِّر النبي ﷺ وتملأ قلبه بالفرح، بتحقيق ما يؤمِّله من زيارة المسجد الحرام والفتح المبين، ومغفرة ما تقدم من الذنوب وما تأخر، والاهتداء إلى أقوم الطرق.

ويمتنُّ الله تعالى في هذه السورة على المؤمنين بنزول السكينة عليهم، وتبشيرهم بالمغفرة والأجر العظيم، والنصر على عدوهم، والويل ثم الويل لأعدائهم من المنافقين والمكذبين والمشركين، مما أعده الله لهم من العذاب والغضب واللعنة، وهذا هو التمهيد لموضوع السورة.

٢- ثم تتحدث آيات السورة في موضوعها عن بيعة الرضوان من الآية **العاشرة** إلى الآية **السادسة والعشرين** منها، فتُنوِّه في البدء بمبايعة المؤمنين لرسول الله ﷺ، وتفضح معاذير الذين ينكُثون عهودهم، وتبيِّن أن وبال ذلك سيعود عليهم.

ثم تتناول آيات السورة الأعراب الذين تخلوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، وتعلَّلوا بمعاذير واهية كاذبة، فتكشف حالهم، وتُنْبئ عما في قلوبهم، وظنهم أن المؤمنين لن يعودوا إلى أهليهم أبدًا، وتفتح لهم باب التوبة، وتقبل عذر غير المؤهلين للجهاد.

وتتحدث آيات السورة عن غنائم وفتوحات قريبة، يسيل لها لعاب المخلَّفين المتباطئين، وهي غنائم خيبر وغيرها.

---

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ١٤٤).

وتُثْني آيات السورة بما أنزله الله فيها على أهل بيعة الرضوان، وتبيِّن الحكمة الإلهية في رفض الرسول ﷺ مقاتلة المشركين في مكة بما يقاس عليها غيرها في كل زمان ومكان، ومراعاة مشكلة الأقليّات الإسلامية في العالم والحفاظ عليهم.

وتعود آيات السورة إلى الحديث عن الحرم المكي، لتذكُر ما أنزله الله فيها عن رؤيا النبي ﷺ التي رآها عقب مرجعه من الحديبية لتبشِّره هو وأصحابه بدخول المسجد الحرام آمنين مطمئنين، محلقين ومقصرين.

٣- وتختم آيات السورة ببيان أن النصر حليف المسلمين فيما مضى وفيما هو آتٍ، ولكنَّ النصْر له مؤهلات، لابد من توافرها في الجيل الذي يحرزه، فمن فقدَ هذه المؤهلات فلا يلومنَّ إلا نفسه، وفي هذا الختام ثناء الله تعالى على أصحاب رسول الله ﷺ بأنهم أشداء على الكفار، رحماء بينهم، وأنهم رُكَّع سُجَّد يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا؛ كي يعطيهم مؤهلات النصر في زمانهم، فهل يتحقق ذلك فينا؟ أرجو الله!

وهذا بعض ما ورد فيها من أحاديث:

١- عن عبد الله بن مُغَفَّل ﷺ قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيرِه سورة الفتح على راحلته، فرجَّع في قراءته[1].

والترجيع: هو ترديد الصوت بالقراءة أكثر من مرة.

٢- وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، قال: فسألتُه عن شيء-ثلاث مرات- فلم يَرُد عليَّ، قال: فقلت في نفسي: ثكلتْك أمُّك يابن الخطاب، نَزرْتَ رسول الله ﷺ -أي: ألححت عليه في المسألة إلحاحًا- فأدَّبك بسكوته عن جوابك ثلاث مرات فلم يرُدَّ عليك؟ قال: فركبتُ راحلتي، فتقدمتُ مخافة أن يكون نزل فيَّ شيء، قال: فإذا أنا بمنادٍ ينادي: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعتُ وأنا أظن أنه نزل فيَّ شيء، قال: فقال النبي ﷺ: «**لقد نزلتْ عليَّ الليلة سورة هي أحب إليَّ من الدنيا وما**

---

(١) «المسند» (٥/ ٢٤) (٢٠٥٤٢، ٢٠٥٥٨) والبخاري برقم (٤٨٣٥) ورقم: (٥٠٣٤) ورقم: (٧٥٤٠) ومسلم برقم (٧٩٤) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨٠٥٥) وأبو داود (١٤٦٧) والترمذي (٣٠٤) والبيهقي في «السنن» (٢/ ٥٣).

فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾»[(١)].

٣- وعن أنس بن مالك ﷺ قال: نزلتْ على النبي ﷺ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعَهُ من الحديبية، فقال النبي ﷺ: «**لقد أُنزلتْ عليَّ آية أحبُّ إليَّ مما على الأرض**»، ثم قرأها عليهم النبي ﷺ، فقالوا: هنيئًا مريئًا يا نبي الله، لقد بيَّن الله ماذا يُفعل بك، فماذا يُفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾[(٢)] [٥].

٤- وعن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[(٣)].

٥- وعن عائشة ﷺ أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطَّر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[(٤)].

٦- وعن أنس ﷺ قال: لما نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ مَرْجِعَه من الحديبية، وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحروا الهدْي بالحديبية، فقال: «**لقد أُنزلت عليَّ آية هي أحب إليَّ من الدنيا جميعها**»[(٥)].

---

(١) «المسند» (١/ ٣١) (٢٠٩) بإسناد صحيح على شرط البخاري ورجال ثقات (محققوه)، وصحيح مسلم (٤٨٣٣) والبخاري برقم (٤٨٣٣) ورقم: (٤١٧٧) ورقم: (٥٠١٢) والترمذي برقم (٣٢٦٢) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٤٩٩) وفي ط الرسالة (١١٤٣٥) وابن حبان (٦٤٠٩). والبزار (٢٦٥) وموطأ مالك (١/ ٢٠٣) وأبو يعلى (١٤٨).

(٢) «المسند» (٣/ ١٩٧) (١٣٠٣٥) والبخاري برقم (٤١٧٢، ٤٨٣٤) ومسلم برقم (١٧٨٦) والترمذي برقم (٣٢٦٣) وقال: حسن صحيح، وعبد الرزاق (٢/ ٢٢٥) وابن أبي شيبة (١٤/ ٥٠١) والطبري (٢١/ ٢٤١) وأبو نعيم (٢٥) وعبد بن حميد (١١٨٦) في «المنتخب».

(٣) «المسند» (٤/ ٥٥) برقم (١٨١٩٨) والبخاري برقم (١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١) ومسلم برقم (٢٨١٩، ٢٨٢٠) والترمذي برقم (٤١٢) و«سنن النسائي»: (٣/ ٢١٩) وابن ماجه برقم (١٤١٩) وابن حبان (٢٥٩٠) و«سنن النسائي الكبرى» (١٣٢٧).

(٤) البخاري برقم (٤٨٣٧) ومسلم برقم (٢٨٢٠).

(٥) «صحيح مسلم» ١٧٨٦ و«صحيح البخاري» ٤١٧٢ و«المسند» ١٣٠٣٥ والترمذي ٣٢٦٣ وغيرهم.

٧- وأخرج مسلم وغيره بسنده: عن سهل بن حنيف أنه قام يوم صفين، فقال: يأيها الناس، اتَّهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالًا لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ والمشركين، فجاء عمر بن الخطاب، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أَلَسْنا على حق وهم على باطل؟ قال: «**بلى**»، قال: أليس قتْلانا في الجنة وقتْلاهم في النار؟ قال: «**بلى**»، قال: ففيم نعطى الدنيَّة في ديننا ونرجع، ولمَّا يحكُم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «**يابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيِّعني الله أبدًا**»، قال: فانطلق عمر فلم يصبر متغيِّظا، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أَلَسْنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: فعلامَ نُعطى الدنيَّة في ديننا ونرجع ولَمَّا يحكُم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيِّعه الله أبدًا، قال: فنزل القرآن على رسول الله بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أوَفَتْح هو؟ قال: «**نعم، فطابت نفسه ورجع**»[١].

٨- وعن البراء بن عازب ﷺ قال: تعُدُّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نَعُدُّ الفتح بيعة الرضوان يومَ الحديبية. كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة ومئة، والحديبيةُ بئر، فنزحناها، ولم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم مجَّهُ، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصْدَرتْنا -أي: رجعنا وقد ارتوينا- وماشيتنا وركابنا»[٢].

٩- وعن مُجَمِّع بن جارية الأنصاري قال: شهدنا الحديبية، حتى بلَغْنا كُراعَ الغميم، إذ الناس تُسْرِع بالدواب، فقال بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أُوحي إلى رسول الله ﷺ، قال: فأسرعنا مع الناس، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كُراع الغميم، فاجتمع الناس عليه، فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ فقال رجل: يا رسول الله، أوَ فتح هو؟ قال: «**إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح**» فقُسِّمت خيبر على أهل الحديبية، لم يدخل معهم فيها أحد، فقسَّمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهمًا، وكان الجيش ألفًا

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٧٨٥) والبخاري برقم (٤٨٤٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٧/ ٣٤٠) (٤١٥٠) والطبري (٢٤٣٢١).

وخمس مئة، منهم ثلاث مئة فارس، فأعطى الفارسَ سهمين، وأعطى الراجل سهمًا[1].

نبذة عن صلح الحديبية:

روت عائشة ﵂ أن النبيَّ ﷺ رأى في النوم كأن قائلًا يقول له: لتدخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم هذا، واستنفر النبي ﷺ أصحابه للعمرة، وخرج بهم من المدينة في شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة، وكان معه نحو ألف وخمس مئة من المهاجرين والأنصار، ومَنْ دخل في الإسلام من الأعراب، ولم يكن معهم سلاح إلا السيوف في القُرُب؛ لأنهم خرجوا للعمرة ولا يريدون حربًا، وساقوا معهم الهدْي بعد أن قلَّدوها وأشعروها، فصلَّوا الظهر بذي الْحُلَيْفة، وأحرموا ولَبُّوا، وكان مع النبي ﷺ من نسائه أم سلمة ﵂، فبلغ المشركين خروجُه، وأجمع رأيهم على صده عن المسجد الحرام.

ولما وصل النبي ﷺ إلى **عُسْفان** قُرب مكة، وكان ﷺ قد كلَّف **بشر بن سفيان الكلبي** لمعرفة أخبار قريش، فجاء بِشْر يُخبر بأن قريشًا قد لَبستْ جلود النمور واستعدُّوا لقتاله، ونزلُوا **بذي طوى** قُرب مكة، وعاهدوا الله ألا يدخُلها عليهم أبدًا! فسلك النبي وأصحابه طريقًا وعِرًا غير طريقهم انتهى بهم إلى **الحديبية**، وكان به شجرة حدباء، أو بئر تسمى الحديبية، فسُمِّي المكان باسم الشجرة أو البئر، وكان النبي ﷺ يركب ناقة اسمها **القصواء** وكانت لا تُسبَق، فلما وصلت الحديبية، حرنتْ وأبت المشي، فقال الصحابة خلأت القصواء -أي: توقفت عن المسير- فقال ﷺ: «**ما خلأت، وما هو لها بخلُق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة**».

وأمر الناس بالنزول في المكان الذي توقَّفتْ فيه الناقة عن المشْي، وقال ﷺ: «**والله لا يسألوني خُطَّة فيها تعظيم حرمة الله وصلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها**»، ولما علمتْ قريش بنزوله ﷺ في الحديبية أرسلوا **بُديل بن ورْقاء الخُزاعي** ليسأل عن سبب مجيئه، فأخبره أنه

(١) ابن أبي شيبة (١٤/ ٤٣٧) و«المسند» (١٥٤٧٠) بإسناد ضعيف لانفراد يعقوب بن مُجمع به (محققوه) قال الحافظ في الفتح (٦/ ٨٦): في إسناده ضعف وبقية رجاله ثقات، والحاكم (٢/ ١٣١) والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٥٦) وضعَّفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٥٨٧) وقد ذُكِرت بعض ألفاظه بالمعنى، ومعناه صحيح، وإن كان في بعض رواته مقال.

جاء معتمرًا، ولا يُريد حربًا، ولكن قريشًا أرسلتْ **عُروة بن مسعود الثقفي** ليقول له: والله لن تدخل مكة عَنوة أبدًا، وكان عروة خلال حديثه مع النبي ﷺ يمد يده على لحيته، فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده، ويقول له: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل ألَّا تصل إليك، ورجع عروة يصف لهم ما شاهده من احترام المسلمين لرسول الله ﷺ، فقال: يا معشر قريش، إني قد جئت كِسْرى في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت مَلِكًا في قوم قطُّ مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قومًا لا يُسلمونه لشيء أبدًا، فَرُوا رأيكم، فقالوا: نردُّه من عامنا هذا، ويرجع من قابل، فيدخل مكة ويطوف بالبيت.

فأرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان ؓ إليهم ليخبرهم أنه إنما جاء لزيارة البيت، ومعهم الهدْي ينحرونه وينصرفون، فقالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فَطُف وحدك، قال: والله ما كنت لأطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ، فحبسوا عثمان، وأشيع أنه قد قُتل، فقال ﷺ: «**لا نبرح حتى نناجزهم**» ودعا المسلمين إلى بيعة الرضوان، فبايعوه تحت الشجرة على الموت، قال سلمة بن الأكوع: بايعناه وبايعه الناس على عدم الفرار، وأنه إما الفتح وإما الشهادة، وضرب النبي ﷺ بشماله على يمينه، وقال: هذه بيعة عثمان، إنه ذهب في حاجة الله ورسوله، وعاد عثمان دون أن يمسَّه أذى.

وأقام النبي وأصحابه بالحديبية نحو عشرين يومًا، يتم فيها تبادل السفراء بينهم، فأجمعت قريش رأيها على الصلح، وأرسلوا **سهيل بن عمرو** لَمَّا علموا ببيعة الرضوان، وقالوا له: صالِحْهُ على أن يرجع من عامه هذا؛ حتى لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة، فلما رآه النبي ﷺ مقبلًا، قال: «**لقد أرادت قريش الصلح حين بعثْ هذا الرجل**».

وتم الصلح على الآتي:

أوَّلًا: أن يرجع محمد ﷺ وأصحابه من عامهم هذا دون زيارة البيت على أن يأتوا العام القادم، وليس معهم إلا السيوف في غمدها، وتترك قريش لهم مكة ثلاثة أيام ليطوفوا بالبيت.

ثانيًا: أن يكفَّ الفريقان عن الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس دون قتال ولا عدوان.

ثالثًا: من جاء من قريش مسلمًا بدون إذن وليه، ردَّه النبي ﷺ إليهم، ومن جاء قريشًا

من المسلمين لم يردوه.

رابعًا: من أحبَّ أن يدخل مع الرسول ﷺ من القبائل فله ما أراد، ومن أحب أن يدخل مع قريش من القبائل فله ما أراد.

وقد سارعت قبيلة خزاعة فدخلت مع النبي ﷺ وحالفتْه، وسارعت قبيلة بني بكر فدخلت مع قريش وحالفتْها.

تنازلات في صلح الحديبية لحفظ الدماء:

وفي حديث عبد الله بن مغفَّل ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ فرفَعْتُه عن ظهره، وعلي بن أبي طالب وسُهَيْل بن عمْرو، بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعليٍّ: «**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**»، فأمسك سهيل بيده، وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، قال: اكتب باسمك اللهم. وكتب: «**هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة**»، فأمسك سهيل بن عمرو بيده، وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، فبينا نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شابًّا عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «**هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحد أمانًا؟**» فقالوا: لا، فخلَّى سبيلهم، فأنزل الله الآية[1].

وكان النبي ﷺ قد ساق معه إلى الحديبية سبعين بدنة، قلَّدها وأشعرها، وأرسل عيْنًا له من خزاعة يأتي له بأخبار قريش، فجاء عُتبة الخزاعي يخبر النبي ﷺ أن قريشًا قد جمعوا له جموعًا، وهم مقاتلوه وصادُّوه عن البيت، فاستشار أصحابه في أن يقصد البيت، فإن منعه أحد قاتَله، أو يُغير على بيوتهم فيصيب مَن فيها، فقال أبو بكر: إنهم جاؤوا معتمرين ولم يجيئوا لقتال أحد، فمن حال بينهم وبين البيت قاتلوه، فقال: «**امضوا على اسم الله**»،

---

(١) أخرجه النسائي في التفسير برقم (٥٣١) والحاكم (٢/ ٤٦٠) وصححه، ووافقه الذهبي، وأحمد (٢٧/ ٣٥٤) (١٦٨٠٠) و«صحيح مسلم» عن أنس مختصرًا برقم (١٧٨٤) وهو في الترمذي (٣٢٦٤) وابن أبي شيبة (١٤/ ٤٩٢) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٥١١) والطبري (٢١/ ٢٨٨).

فلما كانوا ببعض الطريق قال: إن خالد بن الوليد بالغميم في طليعة خيل لقريش، فخُذوا ذات اليمين، فلم يشعر بهم خالد إلا وهم قريب منه، فانطلق خالد إلى قريش يخبرهم.

ولما كان النبي ﷺ بالثنية بركت ناقته، فقال الناس: حل حل، أي: توقَّفَتْ عن المسير، ثم زجرها فوثَبَتْ، حتى نزل بالحديبية على بئر فيها ماء قليل، فنزحه الناس سريعًا، ثم اشتكوا العطش، فنزع النبي سيفًا من كنانته وأعطاه سائق بُدنه، فنزل في البئر فغرزه في جوفها، فامتلأت البئر بالماء وكفاهم، وزاد عن حاجتهم، حتى رجعوا عنه.

وبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيْلُ بنُ ورْقاء الخزاعي في نفر من قومه يخبرون النبي ﷺ أن القوم يستعدُّون لقتاله وصدِّه عن البيت، فقال ﷺ: «**إنا لم نَجِئْ لحرب بل جئنا معتمرين، فإن هم أبوْا إلا القتال فلله الأمر**»، فأخبرهم بُديل بهذا.

فانبرى للسفارة بين الفريقين **عروة بن مسعود** الذي أخذ يرمُق النبي ﷺ بعينيه، فقال لقومه حين رجع إليهم: والله لقد وفدتُ على كسرى وقيصر والنجاشي، فما رأيتُ مَلِكًا يعظِّمه أصحابه ما يعظِّم أصحاب محمد محمدًا، والله ما تَنخَّم نُخامة إلا وقعتْ في كَفِّ رجل منهم، وإذا أَمَرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضُوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون النظر إليه تعظيمًا له.

وجاء بعده رجل من بني كنانة، وبعده مِكْرَزُ بنُ حفص، ثم جاء **سهيل بن عمرو**، وتم الصلح على يديه بين الفريقين، وفي أثناء توقيع شروط الصلح جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو مُسْلِمًا، وهو مقيد لا يستطيع المشي بسبب قيده، فأبى النبي ﷺ أن يرده إلى المشركين قائلا: «**إننا لم نَقْض الكتاب بعدُ**».

قصة أبي بصير:

ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة، جاءه **أبو بصير** من قريش مُسلمًا، وكان ممن حُبس بمكة، فأرسلت قريش في طلبه، فقال النبي ﷺ: يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت، ولا يصلُح لنا في ديننا الغدر، وإن الله تعالى جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، ثم أعطاه إلى الرجلين، فلما وصلا به إلى ذي الحليفة تمكن أبو بصير من قتل أحدهما، وفرَّ الآخر، ورجع إلى النبي ﷺ بالمدينة متوشحًا سيفه،

وقال: يا رسول الله، لقد رَدَدتَني إليهم، فأنجاني الله منهم، فقال ﷺ: «**ويلُ أُمِّه، مُسَعِّرُ حرْب، لو كان معه أحد**» ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص، وبلغ ذلك المسلمين الذين كانوا محبوسين معه بمكة، فخرج جماعة منهم إليه، وانضم إليه أبو جَنْدل، حتى اجتمع نحو سبعين رجلًا، وأخذوا يعترضون عير قريش وأموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لَمَّا أَرْسَل إليهم، فمَن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل إليهم النبي ﷺ فأنزل الله الآية(١).

وهكذا يلتزم أبناء الإسلام بالوفاء بالعهود والعقود حتى مع أعدائهم، ولو كان هذا العقد جائرًا بالنسبة للمسلمين، فأين هذا مما نراه اليوم من حكَّام إسرائيل؟! كلما عاهدوا عهدًا في اتفاقهم مع أهل فلسطين نبذه فريق منهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ﴾ [البقرة: ١٠٠].

وقد أمرنا سبحانه أن نعامل العدوَّ بالمثل، فقال: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٧].

وقد عزَّ على بعض المسلمين -لا سِيَّمَا عمر ﷺ- قبول هذه الشروط، خاصة الشرط الثالث منها، وأخذ يراجع النبي ﷺ ويراجع أبا بكر قائلًا: ألَسْنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال له النبي ﷺ: «**إني رسول الله، ولستُ أَعْصيه، وهو ناصري**» وقال أبو بكر: الزم غرْزه يابن الخطاب، فإنه رسول الله.

وبعد ذلك طلب النبي ﷺ من أصحابه أن يتحللوا من عُمرتهم، فينحروا هدْيهم، ويحْلِقوا أو يُقصِّروا، ولكن أحدًا منهم لم يفعل، فدخل النبي ﷺ على أم سلمة وقد ظهر الغضب على وجهه، فقالت له: يا رسول الله، اعذرهم، وابدأ بما تأمرهم به دون أن تُكلم أحدًا، فقام ﷺ ونحر هديه وحلق رأسه، ففعلوا مثله، وأقاموا بضعة أيام في الحديبية، ثم رجعوا إلى المدينة، وعندما سمع النبي ﷺ بعضهم يقول: لقد رجعنا ولم

---

(١) يُنظَر: حديث صلح الحديبية في «صحيح البخاري» من حديث طويل عن المِسْوَرِ بين مَخرمَة، ومروان بن الحكم بأرقام (٢٧٣١، ٢٧٣٢، ٤١٨٠) وعبد الرزاق (٩٧٢٠) و«المسند» (١٨٩١٠) (١٨٩٢٨) من حديث طويل جدا صحيح الإسناد على شرط الشيخين، وأبو داود (٢٧٦٥، ٤٦٥٥) و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٨٤٠) وغيرهم.

نصنع شيئًا، قال ﷺ: «**بل فتحتم أعظم الفتح**»(١).

عاد المسلمون من عمرتهم وقلوبهم كسيرة، فقد كانوا يؤمِّلون في زيارة البيت الحرام، والطواف بالكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، فلم يتحقق أملهم، وها هم يعودون من مكة بعد مفاوضات شاقة مع المشركين ذاقوا فيها العنَت، وبينما هم في طريقهم إلى المدينة نزلت سورة الفتح حافلة ببشريات النصر المبين، والفتح الأعظم، حيث اتسعت دائرة البلاغ، وزاد الداخلون في الإسلام، وصار للدولة الإسلامية في المدينة كيان قائم معترف به، ولم يمض عامان حتى استسلمت مكة لصاحب الرسالة ﷺ، وهو يقود عشرة آلاف مقاتل، وتحطمت الأصنام التي ظلَّت قرونًا تُعبد من دون الله، وعلَتْ راية التوحيد، ورَفع بلال الأذان فوق الكعبة المشرفة.

لقد علم الله سبحانه صدق نيات أصحاب رسول الله ﷺ، الذين بايعوه على الثبات وعدم الفرار تحت الشجرة في ساعة الحرج، ولم يتخلف منهم أحد؛ لأنهم يحبون الله تعالى، ويحبون الموت في سبيل الدعوة إليه، ولذا فقد أعْلن الله تعالى رضاه عنهم، وكافأهم بالخير العاجل والآجل، وقد كشف الله لرسوله عن الذين تخلفوا عن الخروج معه، وقالوا في أنفسهم: لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدًا!!

والمسلمون الذين مُنعوا من أداء النسك في السنة السادسة، تمكَّنوا من أدائه في السنة السابعة، ثم دخلوا مكة فاتحين لها في السنة الثامنة.

وقد خُتمت السورة ببيان خواص الأمة التي تريد النصر على عدوها فهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [٢٩].

فإذا انتقلت هذه الخواص إلى غيرنا، فكيف يقترب النصر منا؟

(١) يُنظَر: «سيرة ابن هشام» (٣/ ٣٥٥) وما بعدها، و«البداية والنهاية» لابن كثير (٤/ ١٧٣) وما بعدها، و«صحيح البخاري» (٥/ ٢٢٤١) و (٧/ ٣٤٨) وغيرها من كتب الحديث والسير بألفاظ مختلفة.

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ (٤٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الحجرات) هي السورة التاسعة والأربعون في ترتيب المصحف، والثامنة بعد المئة في ترتيب النزول، وقد نزلت سنة تسع من الهجرة في وفْد بني تميم، بعد سورة (المجادلة) قبل سورة (التحريم).

وهي ثماني عشرة آية باتفاق، وثلاث مئة وثلاث وأربعون كلمة.

وألف وأربع مئة وستة وسبعون حرفًا.

وتسمى سورة (الحجرات) لذكر هذا اللفظ فيها، وقد تُسمَّى سورة (الأخلاق)؛ لما تضمنتْه من قواعد التربية الصحيحة، وأُسُسِ السلوك والحضارة الرفيعة.

وهي سورة مدنية باتفاق.

ومن قواعد التربية في السورة أنها تعلِّم المسلم الأدب مع الله تعالى، والأدب مع رسول الله ﷺ، وأدب الإنسان مع نفسه، في هواجس ضميره، وحركات جوارحه، وفي أدبه مع غيره من الناس؛ كي يكون المرء نقيَّ القلب، نظيف المشاعر، عفَّ اللسان، عفَّ السريرة.

وفي السورة **خمسة نداءات** موجَّهة للمؤمنين، تتضمن أمهات الفضائل ومكارم الأخلاق:

النداء الأول: أدَّب الله تعالى به المؤمنين تجاه ربهم، وتجاه رسوله ﷺ، فلا يُقدِّمون شريعة على شريعة الله، ولا يُبرمون أمرًا، أو يُبدُون رأْيًا، أو يَقْضون حُكْمًا على حكم الله تعالى، وهذا ما تضمنتْه الآية الأولى.

النداء الثاني: فيه أدب خاص مع رسول الله ﷺ، فلا يرفعون أصواتهم على صوته ﷺ في شريعته ومنهجه، ولا يعلو أصواتهم على صوته ﷺ وهو حي، ولا عند قبره وهو ميت، ولا يذْكُرون اسمه بينهم كما يذكُر كلٌّ منهم الآخر، بل يُجلُّونه ويُوقِّرونه، ولا ينادونه باسمه المجرد، وهذا ما تضمنته الآية الثانية.

النداء الثالث: يؤدب الله فيه المؤمنين أدبًا عامًّا، تقوم عليه دعائم المجتمع الفاضل، فيأمرهم بالتثبُّت من الأقوال والأخبار، لاسِيَّمَا إن صَدرتْ عن شخص متَّهم، وهذا ما تضمنته الآية السادسة.

النداء الرابع: يحذِّر الله فيه المؤمنين من السخرية، والهمز واللمز والتنابز بالألقاب، فإن في ذلك تقطيعًا لأواصر الأخوة، وانتقاصًا من شأن الآخرين، وقد يكونون عند الله تعالى خيرًا ممن سخروا منهم، وهذا ما تضمنته الآية الحادية عشرة.

النداء الخامس: يحذِّر الله فيه المؤمنين من سوء الظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ويَنْهَى عن التجسس، وتتبع عورات المؤمنين؛ فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته حتى يفضحه في جوف بيته، وينفِّر في هذا النداء من الغيبة، ويشبِّه المغتاب بمن ينهش لحم أخيه الميت ويأكله، وفيه وجوب مجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين.

وفي هذه النداءات الخمسة، إما أن يكون العبد مع الله ورسوله، وإما أن يكون مع غيرهما من أبناء جنسه، وهم على قسمين: إما أن يكونوا من أهل الطاعة، وإما من أهل الفسق، وأهل الطاعة إما أن يكونوا حاضرين معهم، وإما أن يكونوا غائبين عنهم.

فهذه **خمسة أقسام**، وحاصلها فيما يأتي:

أَوَّلًا: وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الله ورسوله، وعدم التقدم عليه بقول أو فعل أو رأي ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

ثانيًا: احترام الرسول ﷺ وتعظيم شأنه ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾.

ثالثًا: وجوب التثبت من الأخبار ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾.

رابعًا: النهي عن السخرية بالناس، وعن اللَّمْز والتنابز بالألقاب.

خامسًا: النهي عن التجسس والغيبة وسوء الظن.

وبعد هذه النداءات الخمسة يأتي نداء عام للإنسانية جميعًا ليتبيّن للناس أن أصلهم واحد، يجب أن يتعاونوا ويتآلفوا، وهم عند الله سواء، لا يتفاضلون إلا بالتقوى.

وفي أثناء هذه النداءات دعوة إلى الصلح بين المتخاصمين، وردُّ الباغي عن بغيه، وكأن

الآية التاسعة من السورة تشير إلى أنه ينبغي أن توجد محكمة عدل إسلامية للقيام بالصلح بين كل فريقيْن اختصما من المسلمين.

وأن يوجد جيش إسلامي موحَّد ليقوم بردع الفئة الباغية، والدفاع عن حوزة الإسلام والمسلمين، والتصدِّي لدفع الصائل على كل دولة إسلامية، ولتأمين نشر الدعوة في كل مكان من العالم.

وفي العالم أناس مسلمون بالهويَّة، أُميُّون في أحكام الإسلام وآدابه، شأن الأعراب الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، وهؤلاء بحاجة إلى تدعيم إيمانهم والتوجه نحوهم بالقول الرشيد والحكمة السديدة، وتأليف قلوبهم لتقوية عُرى الإسلام فيها، حتى ينخرطوا في سلك الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فليس الإسلام كلمة تقال، ولا أماني تُتمنَّى، والله تعالى يعلم ما ظهر وما بطن، يرى مكاننا، ويطَّلع على أحوالنا.

وآيات سورة (الحجرات) الثماني عشرة اشتملت على لفظ الجلالة ثمانٍ وعشرين مرة بما فيها البسملة، وجاء ذكرها ثلاث مرات في الآية الواحدة أحيانًا، كما في الآية الأولى والآية السادسة عشرة.

وحزْب المفصَّل من القرآن الكريم يبدأ من سورة (الحجرات)، أو من سورة (ق) على خلاف في ذلك، وعلى وجازة هذه السورة فهي سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة، ومناهج التنظيم، وقواعد التهذيب والتوجيه، وهي تهدف إلى قيام مجتمع راقٍ ينتسب إلى الله ورسوله، بقلب نقيٍّ ولسان عفٍّ، متأدبٍ بأدب الإسلام مع نفسه ومجتمعه في غياب أفراده وحضورهم، فلا يجرح مشاعرهم، ولا يؤاخذهم بظن، ولا يتتبع عوراتهم، ولا يمسُّ كرامتهم وحريتهم، ولا يحتقر ضعيفهم ولا فقيرهم، ويحترم صغيرهم، ويوقِّر كبيرهم..

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **ثلاثة مقاطع**:

١- فالآيات الخمس الأُوَل تتضمن حسن الأدب مع الله ورسوله، فلا يقدِّم العبد أمرًا ولا نهيًا ولا حُكمًا ولا قضاءً ولا اقتراحًا على أمر الله ورسوله، ولا يجعل لنفسه ولا

لغيره رأيًا يخالف تعاليم الله ورسوله، مع لزوم الأدب وحسن التلقي والتوقير والتبجيل.

٢- وفي الآيات الثماني بعد هذه الخمس، جملة توجيهات إسلامية للمجتمع النظيف الحضاري، وهذه التوجيهات تتمثل في: وجوب التثبت من الأخبار قبل الحكم عليها، ووجوب الصلح بين المتخاصمين من الأفراد والجماعات والأمم الإسلامية، واحترام بعضهم لبعض، فلا يسخر أحد من أحد، ولا ينتقص أحد أحدًا لا بالإشارة، ولا عن طريق غمز، ولا لمز، ولا سوء ظن، ولا كلمة في غياب أخيه أو حضوره.

وتشير الآية الأخيرة في هذا المقطع إلى وحدة الإنسانية على مختلف أجناسها وشعوبها، فهم جميعًا على قدم المساواة، ذكورًا وإناثًا، أثرياء وفقراء، حكامًا ومحكومين، ضعفاء وسادة، لا يتمايزون عند الله إلا بالتقوى والعمل الصالح.

٣- والآيات الخمس الأخيرة تبيِّن أن الإسلام ليس كلامًا يقال باللسان، ولا أماني، أو ادِّعاءات يدَّعيها العبد دون أن تكون لها حقيقة واقعية، ومن هنا تُبيِّن الآيات حقيقة الإسلام والإيمان، وتذكرُ شروط الإيمان الكامل الذي يجمع بين إخلاص التوحيد ودعمه بالعمل الصالح، والجهاد في سبيل الله، وطاعة الله والرسول، فإن خذل بعض الناس الإسلام، وتركوا شمائله، وضعف يقينهم في الأزمات، فليسوا بمسلمين، وهم ممن ينتمون إلى الإسلام ولا يلبُّون له نداء، ولا يؤازرونه في محنة، والله تعالى يعلم الحقائق، ولا يغيب عنه شيء، وهو بصير بعباده، مطلع على نواياهم، محيط بأقوالهم وأفعالهم.

سُورَةُ ق (٥٠)

مُقدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (ق) هي السورة الخمسون في ترتيب المصحف، والرابعة والثلاثون في ترتيب النزول.

عن جابر بن زيد: أنها نزلت بعد سورة المرسلات وقبل سورة البلد.

ومعظم السوَر التي نزلت قبلها كانت من قصار السور في الجزء الثلاثين.

وسورة (ق) خمس وأربعون آية باتفاق، وثلاث مئة وسبع وخمسون كلمة.

وألف وأربع مئة وأربعة وتسعون حرفًا.

وهي من السور التي سُمِّيت بأسماء الحروف التي في أولها لانفرادها بها، فلا تلتبس بغيرها، مثل: **طه، يس، ص، ن**، وتسمى سورة **الباسقات** لذكر هذا اللفظ فيها.

وهي سورة مكية كلها، واستثنى بعضهم[1] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ فقالوا: إنها مدنية، نزلت ردًّا على اليهود في قولهم: إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، واستراح يوم السبت.

قلت: ولا يلزم أن يكون هذا قد حدث بعد الهجرة؛ لأن أهل مكة كانوا يسألون اليهود في المدينة بعد البعثة عن أمر النبوة والأنبياء عن طريق المسافرين إليها منهم، وهذه الآية من هذا القبيل، ولها نظائر نزلت بمكة مما يتعلق باليهود، فقد كانت بين أهل مكة ويهود المدينة اتصالات وتجارات ومقابلات.

وقد يُعلِمُ الله نبيه ﷺ عن طريق الوحي ما كان يتحدث به أهل مكة قبل الإسلام، وما يتلَقَّوْنَه من القصص والأخبار عن يهود المدينة...

وقد ورد في (سورة ق) **جملة من الأحاديث**، من ذلك:

١- أن عمر بن الخطاب ﷺ سأل أبا واقد الليثي ﷺ: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في

(١) كما في القرطبي و«الإتقان» عن ابن عباس والضحاك وقتادة.

العيد؟ قال: بـ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾، واقتربت[(١)].

٢- وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان ﵂ قالت: لقد كان تنُّورُنا وتنُّور النبي ﷺ واحدًا سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذتُ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس[(٢)].

٣- وروى مسلم وغيره، عن جابر بن سمُرة ﵁: أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾[(٣)].

٤- وقالت خوْلة بنت قيس الجُهَنيَّة: كنت أسمع خطبة رسول الله ﷺ يوم الجمعة، وأنا في مؤخرة النساء، وأسمع قراءته ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ على المنبر، وأنا في مؤخرة المسجد[(٤)].

لقد انتقشت كلمات سورة (ق) في أذهان من سمعوها من فم النبي ﷺ وهو يخطب بها يوم الجمعة، وثبتت في أذهانهم بالتكرار، ثم تحولت إلى خُلُق وعبادة ومنهج حياة.

فقد كان ﷺ يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار -كالعيد والجمع- لاشتمالها على بدء الخلق وإعادته، والحساب والجزاء، والجنة والنار، والترغيب والترهيب.

والمحور الذي تدور حوله السورة هو البعث والنشور، وهي تسوق في أولها جملة من الآيات الكونية الدالة على وحدانيته تعالى، بعد أن تُقرر تعجُّب المكذبين المنكرين لرسالة محمد ﷺ، وهذه الأسس الثلاثة: التوحيد، والرسالة، والبعث، هي منهج السور المكية وخصائصها.

---

(١) «المسند» (٥/ ٢١٧) (٢١٨٩٦، ٢١٩١١) حديث صحيح، و«صحيح مسلم» برقم (٨٩١) وأبو داود برقم (١١٥٤) والترمذي برقم (٥٣٤، ٥٣٥) والنسائي (٣/ ١٨٣) (١٥٦٦) وابن ماجه برقم (١٢٨٢) والنسائي في «الكبرى» (١١٥٥٠، ١١٥٥١).

(٢) «المسند» (٦/ ٤٣٥) (٢٧٤٥٦، ٢٧٦٢٨) حديث صحيح، و«صحيح مسلم» برقم (٨٧٣) وأبو داود برقم (١١٠٠) والنسائي: (٢/ ١٥٧) برقم (١٤١٠) وفي «الكبرى» (١٧٢٠) وابن أبي شيبة (٢/ ١١٥) والبيهقي (٣/ ٢١١).

(٣) «صحيح مسلم» (٤٥٨) وابن أبي شيبة (١/ ٣٥٣) ومن حديث قطبة بن مالك في مسلم (٤٥٧) وابن ماجه (٨١٦).

(٤) أخرجه ابن سعد (٨/ ٢٩٦).

أغراض السورة: تبدأ السورة بالقَسَم على أن القرآن حق، وبالتالي فإن الرسالة حق، ثم تذكر تعجُّب الكفار من **أمرين**:

الأول: أن يكون الرسول بشرًا منهم.

الثاني: العودة إلى الحياة بعد الموت.

بالإضافة إلى دلائل وحدانية الله تعالى في الكون، وهذه الوحدانية هي الأمر الثالث الذي يتعجب منه الكفار الملحدون، وإليك بيانها في السورة:

أوَّلًا- فيما يتعلق بإنكار الرسالة الخاتمة، وإنكار أن يكون الرسول واحدًا من البشر، فقد بدأت السورة بتعجب الكفار من أن يرسل الله إليهم واحدًا منهم، وتذكِّر السورة بأحوال الأمم التي كذَّبت رسلها وما حلَّ بها من وعيد، مثل قوم نوح، وأصحاب الرسِّ، وثمود، وعاد، وفرعون، وإخوان لوط، وأصحاب الأيكة، وقوم تبع:

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ الآية [١٤].

وكم أهلك الله من الأمم التي كذبت رسلها قبل محمد ﷺ، وكانوا أقوى منهم وأشد بطشًا، ورغم ذلك لم يكن لهم مفرٌّ من عقاب الله لهم. الآية [٣٦].

ومن ثَمَّ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على تكذيبهم، وأن يستعين على ذلك بالصلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، وفي جوف الليل البهيم، ويُكْثِر من التسبيح في أدبار السجود، وذلك في الآيتين التاسعة والثلاثين والأربعين.

ثانيًا- وفيما يتعلق بالبعث والنشور، فإن لهذه السورة طابعًا خاصًا، يهزُّ القلب هزًّا، ويرجُّ النفس رجًّا، ويُثير روْعة الإعجاب، ورعْشة الخوف، فهي شديدة الوقع على الحسِّ، مع البرهان الناصع، والحجة الدامغة على إحياء الموتى، ومن ذلك:

(أ) قياس إعادة الخلق بعد الموت على خلق السموات والأرض، وهما أكبر من خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية[٣٨].

(ب) وقياس إعادة الناس بعد موتهم على إحياء الأرض بالنبات والزرع بعد موتها قال تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ الآية [١١].

(ج) وقياس الإعادة على البدء كما في قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ الآية [١٥].

وجاء الحديث عن البعث والنشور في السورة عند الحديث عن النفخ في الصور، وحضور الإنسان بعد بعثه مع سائق يسوقه، وشاهد يشهد عليه يوم القيامة.

وعند تفصيل مشاهد القيامة تظهر الخصومة بين القرين وقرينه، فيقول القرين:

﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ الآية [٢٧].

ثم تأتي صفات أهل الجنة وجزاؤهم، وصفات أهل النار وجزاؤهم، فجهنم تقول لأهلها: هل من مزيد؟ والجنة تُقرَّب لأهلها غير بعيد، بالإضافة إلى ذِكْر سكرات الموت والحساب، وما يلقاه المجرم في هذا اليوم العصيب.

إن الموت عند كثير من الناس هو نهاية الوجود، ولذا: فليس للآخرة حساب في حياتهم، وستنتهي الدنيا حتمًا، وتقع المفاجأة التي لم يُحسب لها حساب:

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

وسوف يحصد الناس ثمرة ما قدَّموا، فيأتي الكافر ومعه الملَك الذي أحصى عليه أعماله ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾.

وهنا يقول قرينه من الشياطين الذي كان يُغويه ويضله في الدنيا: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ لقد كان قريني فاسدًا ضالًّا قبل أن أقوم بوظيفة الإغواء وتزيين الشرِّ له.

ومع أن الدنيا دار ابتلاء إلا أن الله تعالى قد يُعجِّل فيها بعض العقوبات للمجرمين؛ كي يرتدع الطغاة، ويثوبوا إلى رشدهم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ الآية [٣٦].

وعن أمثال هؤلاء الطغاة يقول تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة].

ثالثًا- وعن دلائل التوحيد، تُلْفِت السورة أنظار الملحدين إلى عظيم قدرة الله تعالى في الكون المنظور: من السماء والأرض، والماء والنبات، والثمر والطلع، والنخيل والزرع، وكلها براهين ناطقة بوحدانية الخالق سبحانه ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [الآيات: ٦-٨].

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: وقد تدبرتُ هذه الأدلة، وأنا أرقُب الطعام الذي أتناوله، إن بعضًا منه يتحول إلى طاقة ترفع حرارة الجسم، كيف؟ لا أدري! وبعضٌ آخر يتحول إلى خلايا تسْري فيها الحياة، ويتكون منها العظم واللحم، وتزْدحم فيها خصائص الأجداد والأحفاد، كيف؟ لا أدري!!

ويصف علماء الحياة، الخلية بأنها: كائن يشبه مدينة بها ميادين، وبها حارات، وبها أسلاك كهرباء، ومواسير مياه!! مع أن الخلية لا تُرى بالبصر المجرد.

والجزء الباقي من الطعام يعود (بالصرف الصحي) إلى الأرض ليخرُج منها مرة أخرى كيزان ذرة، أو سنابل قمح، أو شماريخ بلح، يأكلها الإنسان، ويجدد القصة التي شرحناها آنفًا! ففي كل جسدٍ موت ونشور، يتكرران في كل ساعة من ليل أو نهار، فهل أستغرب إذا قال الله: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ لتُبعثُن؟! لماذا تكون إعادة الخلق عجيبة؟ أليس هو الخالق الأول؟ إن في كل لحظة بعثًا، ولكن الكافر بليد ذاهل[1].

وخُتمت السورة بالحديث عن صيحة الحق التي يخرج الناس بها من القبور كأنهم جراد منتشر، ثم يُساقون للحساب والجزاء، لا يخفى على الله منهم أحد.

هذا: والموضوع الذي تتناوله سورة (ق) هو ترسيخ الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجنة ونار في نفوس الناس.

ويمكن تقسيم السورة إلى **خمسة مقاطع**:

المقطع الأول: يتحدث عن المكذبين بالبعث والنشور والرد عليهم، وذلك في الآيات الخمس الأول.

المقطع الثاني: يَذكُر بعض الأدلة الكونية على إمكانية البعث، منها: السماء والأرض والجبال والنبات والنخيل، وذلك في الآيات من ٦-١١.

المقطع الثالث: ذِكْرُ مصير الأقوام الذين كفروا بالله ورسوله، ولم يؤمنوا بالبعث والجزاء، كقوم نوح، وأصحاب البئر، وقوم عاد وثمود،وقوم لوط، وأصحاب الأيكة

---

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٤٠٧ بتصرف.

وقوم تبع، وجاء هذا في آيات ثلاث من الآية ١٢ -١٤.

المقطع الرابع: يتحدث عن أهوال يوم القيامة بدءًا بالخلق الجديد، وقُرْب الله تعالى إلى العبد من حبل وريده، وتسجيل الحفظة لأقوال الإنسان وأفعاله، ومن ثَم إلى سكرات الموت، وحدوث علامات الساعة الكبرى، وإتيان الملائكة بالعبد إلى ساحة المحشر، وهو بين السائق والشهيد، وشهادة القرين عليه، ثم إلى المصير المحتوم، الجنة أو النار، نسأل الله السلامة.

وفي **المقطع الخامس** والأخير: وهو من الآية (٢٦-٤٥) تذكرةً وعبرةً لأهل القرون الغابرة واللاحقة، وتسليةً للنبي ﷺ، وختامًا للسورة بما بدأتْ به من الحديث عن يوم القيامة، وبيان مهمة النبي ﷺ أنه مذكرٌ بهذا القرآن من خاف وعيد الله تعالى، وليس بمجْبِرٍ لأحد على الهداية، وهذا ختام السورة.

حزب المفصَّل من القرآن الكريم:

وسورة (ق) هي أول حزب المفصل في القرآن الكريم على الصحيح:

عن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ قال: «**من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له كأنما قرأه من الليل**»[(١)].

والمراد بالحزب: المقدار الذي يقرأه كل ليلة قليلًا أو كثيرًا.

وعن واثلة بن الأسقع ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المِئِين مكان الإنجيل، وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضَّلني ربي بالمفصَّل**»[(٢)].

والمئون: هي ما وَلِيَ الطوال؛ وسميت كذلك لأن كل سورة منها تزيد على مئة آية.

---

(١) صحيح مسلم (٧٤٧) وصحح ابن حبان (٢٦٤٣) وصحيح ابن خزيمة (١١٧١) وأبوداود (١٣١٣) وابن ماجه (١٣٤٣) والترمذي (٥٨١) والنسائي في الكبرى (١٤٦٤).

(٢) «المسند» (٤/ ١٠٧) (١٦٩٨٢) قال محققوه: إسناده حسن، والطبري (١/ ١٠٠) (١٨٧) عن واثلة بن الأسقع و«مجمع الزوائد» (٧/ ١٥٨) والطبراني (١٨٧) والبيهقي (٢٤٨٤، ٢٤٨٥) و«صحيح الجامع الصغير» (١٠٧٠) وجاء في الحديث عن ثوبان وأبي أمامة وأبي قلابة.

والمثاني: ما وَلي المئين، وهي دون المئة آية.

والمفصَّل: ما ولي المثاني، وسُمِّي مفصَّلًا لِقِصَر سوره، وكثرة الفصْل بين كل سورتين بالبسملة.

وفي حديث أوس بن حذيفة ﷺ: أن النبي ﷺ كان يأتي على وفد ثقيف -عام الوفود- كل ليلة بعد العشاء يحدثهم، فأبطأ ليلة عن الوقت الذي كان يأتي فيه، فقالوا للنبي ﷺ: لقد أبطأت عنا الليلة؟ قال: «**لأنه طرأ عليَّ حزبي من القرآن، فكرهتُ أن أجيء حتى أُتِمَّه**».

قال أوْس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تُحزِّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصَّل(١).

فهذه سبعة أقسام لسور القرآن الكريم في حديث (أوس)، وفي حديث (واثلة) قبله أربعة أقسام، وكلاهما تقسيم نبوي لسور القرآن الكريم، وهما من حالات المدة التي يستحب فيها ختم القرآن الكريم.

فتقسيم سور القرآن كما في الحديث الأول هكذا:

١- **السبع الطوال**: من البقرة إلى آخر الأعراف، والأنفال مع التوبة.

٢- **المئون**: من يونس إلى الأنبياء، وهي ما فوق المئة آية غالبًا.

٣- **المثاني**: من الحج إلى الحجرات. ٤- **المفصَّل**: من (ق) إلى الناس.

وهذا لمن ختم القرآن في أربع ليال.

أما التقسيم على الحديث الثاني فهو كالآتي:

١- **ثلاث**: البقرة وآل عمران والنساء. ٢- **خمس**: من المائدة إلى براءة.

٣- **سبع**: من يونس إلى النحل. ٤- **تسع**: من الإسراء إلى الفرقان.

٥- **إحدى عشرة**: من الشعراء إلى يس.

---

(١) أبو داود برقم (١٣٩٣) وابن ماجه برقم (١٣٤٥) و«المسند» (٤/ ٩) برقم (١٦١٦٦) عن أوس بن حذيفة بسند ضعيف كما قال محققوه، وابن أبي شيبة (٢/ ٥٠١) والطيالسي (١١٠٨) والبخاري في التاريخ الكبير (١٥٣٩)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٢٩٧).

٦- **ثلاث عشرة سورة**: من الصافات إلى الحجرات.

٧- **المفصَّل**: وهو **ثلاثة أقسام**:

(أ) من قاف إلى النبأ. **(ب)** ومن النازعات إلى الليل. **(جـ)** ومن الضحى إلى الناس.

وتقسيم القرآن إلى سور على النحو المذكور، تقسيم نبوي توقيفي.

وقد وردت أحاديث تشير إلى استحباب ختم القرآن في شهر.

كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ قال له: «... **اقرأ القرآن في كل شهر**»[١].

وقد تم تقسيم القرآن إلى أجزاء وأحزاب وأرباع في زمن التابعين حيث قام به **نصر بن عاصم** بأمر الحجاج بن يوسف، ولكنه تقسيم حرفي لا يراعي المعنى.

ولنا عليه بعض الملحوظات بما يتم ربط المعنى من حيث القطع والبدء[٢].

(١) «التجريد الصريح» ص ١٣٦ ومسلم بشرح النووي (٨/ ٤٢) وأحمد كما في «صحيح الجامع» (١١٦٨).

(٢) يُنظَر هذا المبحث في الجزء الأول من كتابي «فن الترتيل وعلومه» ويُنظَر تقسيم كامل للقرآن كله بالجزء والحزب والربع وفق المعنى في كتابي «تيسير علم التجويد». الطبعة الثالثة.

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ (٥١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الذاريات) هي السورة الحادية والخمسون في ترتيب المصحف، والسادسة والستون في ترتيب النزول، كما ورد عن جابر بن زيد.

نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية.

وسميت بسورة الذاريات؛ لأن هذه الكلمة لم تقع في غيرها من السور، وبعضهم[١] يُثْبت فيها الواو، على حكاية لفظ القرآن، وجمهور المفسرين على حذفها.

وهي سورة مكية باتفاق، وعدد آياتها: ستون آية باتفاق.

وعدد كلماتها: ثلاث مئة وستون كلمة، وعدد حروفها: ألف ومئتان وتسعة وثلاثون حرفًا.

والسورة تتحدث عن اليوم الآخر، وعن دلائل القدرة والوحدانية، وعن الوحي والرسالة، وهذه القضايا الثلاث هي عناصر القرآن المكي.

وتبدأ السورة بالقسم بأربعة من القوى الإلهية، من جنود الله تعالى في أرضه، وهي: الرياح، والسُّحُب، والسُّفُن، والملائكة المعُبّر عنها بـ: الذَّارِيَاتِ، وَالْحَامِلَاتِ، وَالْجَارِيَاتِ، وَالْمُقَسِّمَات، وهذا القسَم على أن البعث والنشور كائن لا محالة.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾.

ثم يُقْسم الله تبارك وتعالى ثانية بالسماء المحبوكة، على أن المكذبين باليوم الآخر وبالرسول الخاتم، يتخبطون في أقوالهم المنكِرة للبعث والرسالة، ثم تذكُر السورة مصير كلٍّ من المكذبين والمصدقين يوم لقاء الله، وتذكُر المؤهلات التي أهَّلت المتقين للنعيم المقيم.

وتسوق جانبًا من الآيات الكونية التي يُستدل بها على وحدانية الله تعالى في سمائه وأرضه وجباله ووهاده، وفي خلق الإنسان وإبداع صورته.

---

(١) كالبخاري وابن عطية والقرطبي.

وتبيِّن السورة أنه ينبغي على العبد أن يتخلص من تعلُّق القلب بالبحث عن الرزق؛ كي يخلُص إيمانه بالله تعالى.

وفي مقام الاستدلال على صدق النبوة، تذكُر السورة عددًا من رسل الله تعالى، وتوجز ما حلَّ بأمم هؤلاء الرسل، من العذاب والهلاك، فتذكُر طرفًا يسيرًا من قصة كلٍّ من: إبراهيم، ولوط، وموسى، وما حلَّ بقوم نوح، وعاد، وثمود، لَمَّا كذبوا رسل الله.

وتُختم السورة ببيان الغرض الذي خلق الله الإنس والجن من أجله، وهو أن يتعرفوا على رب الأرض والسماء، فيخصُّوه بالعبادة، ويُفردوه بالطاعة، ويُخلصوا له التوحيد، ولا يَكُنْ همهم طلب الرزق؛ فإن في هذا رقًّا وأسْرًا للقلوب، وعليهم أن يتخلَّصوا من هذا الرقِّ والأسْر، فقد ضَمِن الله رزقهم، وتكفَّل به وهم في بطون أمهاتهم، وبعد طرْق الأسباب لا يأتيهم منه إلا ما قُدِّر لهم، وشدة الحرص عليه تضر ولا تنفع.

ويلحظ القارئ أن في هذه السورة **ثلاثة مقاطع**:

فالمقطع الأول: من أولها إلى الآية الثالثة والعشرين منها، وهذا المقطع يتضمن القسَم خمس مرات على أن البعث والحساب والجزاء على الأعمال والأقوال حق وصدق، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق، وأنّ أقوال الناس في ذلك مضطربة، ولا يُصرف عن هذا الوحي المنزل إلا من حُرم السعادة، وصُرف عن الهداية، من كل مُكذِّب بالقرآن والدار الآخرة، وهم لن يفيقوا من غفلتهم إلا حين يُعرضون على النار، ويقال لهم: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾....

أما المتَّقون الذين يقومون الليل، ويستغفرون بالأسحار، ويتصدقون ببعض أموالهم، فهم في دار الكرامة والنعيم، ينْعمون بما آتاهم ربهم ونجَّاهم من عذاب السموم.

ويلفت السياق أنظار الخلق إلى دلائل التوحيد في النفس والأرض والسماء، فهو مَقْطع يشتمل على عناصر القرآن المكي الثلاثة، ففي الآيات من ١-١٤ حديث عن يوم القيامة ونعيم المتقين، وفي الآيات من ١٥-٢٣ بعض دلائل التوحيد، والذي أخبرنا بهذا هو الوحي المنزل على محمد ﷺ.

أما المقطع الثاني: فهو من الآية الرابعة والعشرين إلى الآية السادسة والأربعين، وقد

اشتمل هذا المقطع على إشارات وجيزة إلى ستة من رسل الله تعالى، اقتصرت فيها السورة على بيان العبرة المستفادة من هلاك كل أمة من هذه الأمم بما يناسب المقام من قِصَر السورة وما يراد منها، وكونها من المفصل.

أما المقطع الثالث والأخير: فهو من الآية السابعة والأربعين إلى نهاية السورة، وهو يعود على ما بدأت به السورة لدعم دلائل التوحيد في النفس والأرض والسماء، ووجوب الفرار إلى الله تعالى بتوحيده ونبذ الشرك وأهله، وأنه تعالى قد خلق الخلق لعبادته، وفيه تفنيد مزاعم مَن وصَف الرسول ﷺ بالسحر أو الجنون. . . ، وبيان ما ينتظر المكذبين بالله ورسوله من نصيبهم في العذاب الأخروي، كما استحقّه مَنْ سبق ذِكْرهم في السورة من الأقوام الذين كذبوا رسل الله تعالى.

فهذا المقطع والمقطع الأول يدوران في فلك واحد هو مقصود السورة، من التركيز على جانب التوحيد واليوم الآخر والإيمان بخاتم المرسلين، والمقطع الذي بينهما فيه الأمثلة الحية ووسائل الإيضاح المفسرة لمصير من مات على كفره وشركه بالله تعالى ولم يتبع ما جاء به محمد ﷺ.

سُورَةُ الطُّورِ (٥٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الطور) هي السورة الثانية والخمسون في ترتيب المصحف، والخامسة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (نوح) وقبل سورة (المؤمنون).

وسميت سورة الطور لورُود لفظ الطور فيها معرَّفًا دون غيرها.

وعدد آياتها عند أهل الشام والكوفة تسع وأربعون آية[(١)].

وعدد كلماتها ثلاث مئة واثنتا عشرة كلمة، وعدد حروفها ألف وخمس مئة حرف.

وهي سورة مكية باتفاق، وكان النبي ﷺ يقرأ بها كثيرًا في صلاته:

١- فعن محمد بن جُبير بن مُطعم، عن أبيه ﵁ قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا -أو قراءة- منه[(٢)].

٢- وعن أم سلمة ﵂ قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي، فقال:

«**طُوفي من وراء الناس، وأنت راكبة**» فطفتُ ورسول الله ﷺ يُصلِّي إلى جنب البيت، يقرأ بالطور وكتاب مسطور[(٣)].

٣- وقد أسلم جُبير بن مُطعِم لَمَّا سمع النبي ﷺ يقرأ بسورة الطور، فقد قدم جُبير من مكة إلى المدينة بعد غزوة بدر، ليفاوض النبي ﷺ في شأن أسرى المشركين الذين عنده، وكان جبير مشركًا، فوقف خارج المسجد، والمسلمون اصطفُّوا وراء نبيهم لصلاة المغرب، واستمع إلى سورة الطور، فتغيرت نفسه، واهتزَّ الشرك في ضميره، وأحسَّ كأن

---

(١) وعند أهل المدينة ومكة سبع وأربعون آية، وعند أهل البصرة ثمانٍ وأربعون آية.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٧٦٥، ٤٨٥٤) و«صحيح مسلم» برقم (٤٦٣) ومالك (١/ ٨٧) وأحمد (١٦٧٣٥، ١٦٧٨٣) و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٦٢) وابن حبَّان (٨١٣٣).

(٣) «صحيح البخاري» بأرقام (٤٦٤، ١٦١٩، ٤٨٥٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٧٦) وأبو داود (١٨٨٢) وابن ماجه (٢٩٦١) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٤٦٤، ٣٨٨٩) و«المسند» (٢٦٤٨٥) وابن حبَّان (٣٨٣٠).

الوحي المتْلُوَّ يسْحقُ بقايا الكفر في نفسه، ويكتسحُها اكتساحًا.

قال جبير: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ كاد قلبي أن يطير[1].

٤- وفي رواية قال: قدمتُ المدينة على رسول الله ﷺ لأُكلِّمه في أُسارى بدر، فدُفِعْتُ إليه وهو يصلي بأصحابه صلاة المغرب، فسمعته يقرأ: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ فكأنما صدع قلبي... فأسلمتُ خوفًا من نزول العذاب! وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب[2].

لقد ترك الرجل عبادة الأوثان، وأسلم من فوره، وما أكثر الذين أخرجهم القرآن من الظلمات إلى النور!

والمحاور التي تقوم عليها السورة: هي غرس عقيدة التوحيد في نفوس البشر، والإيمان باليوم الآخر، والمحور الثالث: هو الإيمان بالنبي الخاتم، وهذه المحاور الثلاثة، هي موضوعات السور المكية، التي تلزم لمن لم يدخل في الإسلام، ومَن هم حديثو عهد به في كل زمان ومكان، حيث يبدأ الداعية معهم بهذه الأصول الثلاثة، ثم تأتي مرحلة التكاليف الشرعية، والأوامر والنواهي:

١- وتبدأ السورة بما يتعلق بالبعث والجزاء، فتُقْسِمُ بخمسةٍ من عظيم خلْق الله تعالى، هي: جبل الطور، والتوراة التي نزلت فيه، والبيت المعمور، والسماء، والبحر المسجور على أن عذاب الله تعالى كائن لا محالة، وليس هناك ما يدْفعُه، وهو افتتاح مرهوب، يبعث على الخوف الشديد من عذاب أهل الجحيم، وأهوال الآخرة وشدائدها ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾.

٢- ثم تُقَسِّم السورة الناس إلى قسمين:

الكفار المكذبين بالله ورسوله واليوم الآخر، وذلك من الآية الأولى إلى الآية السادسة عشرة، وهم أهل النار.

(١) البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٣٤)، والحديث في صحيح البخاري (٤٥٧٣).

(٢) يُنظَر هذا المعنى في: «صحيح البخاري» برقم (٤٨٥٤) و«المسند» (١٦٧٦٢، ١٦٧٨٥).

والمتقين الأبرار، المؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر، وذلك من الآية السابعة عشرة إلى الآية الثامنة والعشرين وهم أهل الجنة.

فتتحدث آيات السورة **أوَّلًا**: عن عذاب أهل النار في مشهد يزلزل ويرعب، فيه ويل وهول وفزع، ترجف له القلوب، وترتعب منه النفوس ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وتتحدث آيات السورة **ثانيًا**: عن نعيم المتقين، وأنواع السعادة التي أعدها الله لهم في الآخرة، وإلى من يرْقَى معهم في درجتهم من زوجاتهم وذريَّاتهم من أهل الإيمان، من كل ما فيه أمن وأمان، وسعادة ورضوان.

٣- ويأتي الأصل الثاني بالحديث عن خاتم الرسل ﷺ وفيه الأمر من الله تعالى بالتذكير وإنذار الكفار، وألا يعبأ بما يقوله المكذبون الضالُّون، وفيه إبطال مزاعمهم المفْتراة على النبي ﷺ، وهذا من الآية التاسعة والعشرين إلى الآية الرابعة والثلاثين.

٤- ثم تتحدث آيات السورة عن جانب التوحيد من الآية الخامسة والثلاثين إلى الآية السابعة والأربعين في مناظرة عقلية مع الكافرين، لا يملك معها كل ذي لُبٍّ سليمٍ إلا أن يقول: آمنت بالله رب العالمين.

إنها سورة تُبطل الشُّبَهَ والأضاليل، وتدحض الحجج والمعاذير، وتعرض الحقيقة بارزة واضحة بمنطق نافذ لا يحتمل التأويل.

٥- وقد جاء في آيات السورة خمسة عشر استفهامًا متعاقبًا، كأنها خمس عشرة صدمة كهربائية تنقل المرء من حال إلى حال، وتُرْغمه على التفكير في الحال والمآل، ولا يسع الكافر العاقل إلا أن يؤمن بالله تعالى ربًّا وبمحمد ﷺ نبيًّا وبالإسلام دينًا، وهذه المناظرة من الآية الثلاثين إلى الآية الثالثة والأربعين، منها جانب يتعلق بالرسالة، وجانب يتعلق بالتوحيد، وفيها دحض لأكاذيب الجاحدين، فتقذف بالحق الذي أوحاه الله إلى رسوله ﷺ على باطل المكذبين المعاندين فإذا هو زاهق، وتسوق ذلك بأسلوب ساحر خلَّاب.

٦- وآيات هذه السورة، ذات تأثير قوي على النفس البشرية، فهي تَدْحَضُ كل شبهة، وكل عذر، وتُذلِّل كل عقبة في طريق الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، فآياتها وفواصلها

كأنها قذائف، أو صواعق، أو سياط لاذعة، من البدء إلى الختام، تَرُجُّ القلب رجًّا، وتُرْعِب الحسَّ رُعبًا، وتهز المشاعر هزًّا، فتنسف الباطل نسفًا، وتُخرس لسان كل مكابر مجادل!

يجد القارئ ذلك في سياط العذاب المسلَّطة على أهل النار في مطلع السورة، وحلاوة النعيم المعدِّ لأهل الجنة(١).

يجد القارئ ذلك في هذه السورة وهي تُطارد الهواجس والشبهات والأباطيل وتدحضُها في استفهامات السورة الخمسة عشر، فتبطل مزاعمهم الفاسدة في شأن نبوة محمد ﷺ، وتردُّ عليهم بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل، وتقيم الدلائل على صدق محمد ﷺ، وهذه الاستفهامات الخمسة عشر جاءت في قوله تعالى:

١- ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾.

٢- ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ [٣٢]

٣- ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [٣٢]

٤- ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ [٣٣]

٥- ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ [٣٥]

٦- ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [٣٥]

٧- ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [٣٦]

٨- ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ [٣٧]

٩- ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [٣٧]

١٠- ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [٣٨]

١١- ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

١٢- ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ [٤٠]

١٣- ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ [٤١]

١٤- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ [٤٢]

١٥- ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [٤٣]

٧- وفي نهاية السورة ترسم مشهدًا محسوسًا يحمل التوبيخ والتقريع لكل معاند مكابر ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

وتختم السورة بتوجيه النبي ﷺ إلى التسلح بالصبر والتسبيح والصلاة، ففي ذلك العلاج الناجع لتخطِّي العقبات والتغلُّب على النكبات.

(١) يُنظَر: «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٣٩١).

سُورَةُ النَّجْمِ (٥٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (النجم) هي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب المصحف، والثالثة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الإخلاص) وقبل سورة (عبس).

وعدد آياتها اثنتان وستون آية عند أهل الكوفة، وإحدى وستون آية عند بقية علماء العدد.

وهي ثلاث مئة وستون كلمة، وألف وأربع مئة وخمسة أحرف.

وسميت سورة (النجم)؛ لأنها بُدئت بهذا اللفظ، وبعضهم أثبت الواو في أولها، على حكاية لفظ القرآن، كالبخاري والترمذي، وهي سورة مكية باتفاق.

وذكر بعضهم عن ابن عباس وقتادة أن آية ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ [٣٢] مدنية، وهو سند ضعيف.

قال ابن عطية: سبب نزولها أن المشركين قالوا: إن محمدًا يتقوَّل القرآن ويختلق أقواله، فنزلت السورة في ذلك:

أحاديث في سجدة سورة النجم:

١- قال عبد الله بن مسعود ﷺ عن سورة النجم: هي أول سورة أَعْلَن النبي ﷺ بقراءتها، فقرأها في الحرم، والمشركون يسمعون(١).

٢- وقال أيضًا: أول سورة أُنزلت فيها سجدة سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾، فسجد رسول الله ﷺ وسجد الناس كلهم، إلا رجلًا رأيتُه يأخذ كفًّا من تراب فسجد عليه، فرأيتُه بعد ذلك قُتل كافرًا، وهو أمية بن خلف(٢).

---

(١) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (١٤/ ٥) و«تفسير ابن عطية» (٥/ ١٥٧) وغيرهما.

(٢) يُنظَر: البخاري بأرقام (١٠٧٠، ٣٨٥٣، ٣٩٧٢، ٤٨٦٣) ومسلم برقم (٥٧٦) وأبو داود برقم (١٤٠٦) والنسائي (٢/ ١٦٠) (٩٥٨) مختصرًا وابن أبي شيبة (٢/ ٧).

٣- وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس[١].

٤- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صلى بنا رسول الله ﷺ فقرأ: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ فسجد بنا فأطال السجود[٢].

٥- وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قرأتُ النجم عند رسول الله ﷺ فلم يسجد فيها[٣].

٦- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يسجد في ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، فلما هاجر إلى المدينة تركها[٤].

٧- وعنه أيضًا: أن رسول الله ﷺ لم يسجد في شيء من المفصَّل منذ تحوَّل إلى المدينة[٥].

٨- وعن المطلب بن أبي وداعة قال: قرأ النبي ﷺ بمكة: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ فسجد وسجد من عنده[٦].

أما موضوعات السورة:

١- فقد ابتدأت سورة (النجم) بالحديث عن الوحي والرسالة، من الآية الأولى إلى الآية الثامنة عشرة، فذكرت حقيقة الوحي وطبيعته، وذكرتْ مشهديْن من مَشاهِده، وتحدَّثتْ عن معجزة المعراج، وبيَّنتْ أن الرسول ﷺ رأى ليلتها من آيات ربه الكبرى، وأثبتت أن الرسول ﷺ صادق فيما يُبلِّغه عن ربه، وأنه منزَّه عما ادَّعاه المشركون، وأن القرآن وحي من الله تعالى بواسطة جبريل الأمين.

٢- ثم تحدثت السورة عن الشرك والمشركين، فأبطلتْ زعمهم أن الأصنام آلهة، وبيَّنتْ

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٠٧١، ٤٨٦٢) والترمذي (٥٧٥) وابن أبي شيبة (٢/ ٧) من طريق آخر.

(٢) البيهقي (٢/ ٣١٤) برقم (٥٤١٨) في السنن.

(٣) ابن أبي شيبة (٢/ ٦) وأحمد في المسند (٥/ ١٨٣) (٢١٥٩١) إسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، والبخاري برقم (١٠٧٢) وأبو داود برقم (١٤٠٤) والترمذي برقم (٥٧٦) والنسائي (٢/ ١٦٠) (٩٥٩) والطبراني برقم (٤٨٢٩).

(٤) ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (١٤/ ٦).

(٥) أبو داود برقم (١٤٠٣)، وقد ضعفه الألباني (٢/ ٥٨).

(٦) «المسند» (١٥٤٦٤، ٢٧٢٤٦) وغيرهما، والنسائي (٩٥٧) والحاكم (٣/ ٦٣٣) قال محققو المسند: صحيح لغيره.

أنها أوهام لا حقيقة لها، وحذَّرت المعرضين عن توحيد الله تعالى لِيُقلعوا عن شركهم، وذلك في الآيات من التاسعة عشرة إلى الثامنة والعشرين.

٣- وبيَّنت الأسلوب الحكيم الذي ينبغي على الداعية أن يسلكه في دعوته حيال ما يلقاه من أذى وإعراض.

وأشارت السورة إلى الدار الآخرة، وما فيها من حساب وجزاء لمن أحسن أو أساء.

وبيَّنتْ شيئًا من رحمة الله تعالى بعباده بغفران اللَّمم، وضربتْ مثالًا للجزاء العادل يوم القيامة، بأنه ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن العقوبة لا تتعدى المجرم، وهذا في الآيات من التاسعة والعشرين إلى الآية الثانية والثلاثين.

٤- وذكرت السورة جملة من آثار قدرة الله تعالى للدلالة على وحدانيته سبحانه، كالإحياء والإماتة، والبعث بعد الفناء، والإغناء والافتقار، وخلْق الإنسان من نطفة... إلخ، وذلك من الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية التاسعة والأربعين.

٥- وخُتِمت السورة ببيان ما حلَّ بالأمم الطاغية من العذاب والدمار تذكيرًا لكل من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويؤمن بالرسالة الخاتمة إلى يوم القيامة، وزجرًا لأهل الطغيان والضلال بالعذاب الذي ينتظرهم يوم لقاء الله، وذلك في الآيات من الخمسين إلى الثانية والستين.

سُورَةُ الْقَمَرِ (٥٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (القمر) هي السورة الرابعة والخمسون في ترتيب المصحف، والسابعة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الطارق) وقبل سورة (ص).

وتسمى سورة القمر، وسورة ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾، لورودهما في الآية الأولى منها، وبالأول ترجم لها الترمذي، وبالثاني ترجم البخاري.

وهي خمس وخمسون آية باتفاق أهل العدد، وثلاث مئة واثنتان وأربعون كلمة، وألف وأربع مئة وثلاثة وعشرون حرفًا.

وهي سورة مكية، واستثنى بعضهم ثلاث آيات، هي: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

قيل: إنها نزلت يوم بدر، ولعل الصحيح أن النبي ﷺ تلاها يوم بدر ليستشهد بها، وكانت قد نزلت قبل ذلك، ويؤيده قول عمر ﷺ إنه لم يكن يدْري ما معنى ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ حتى فَهِم تأويلها يوم بدر.

وكان نزول سورة القمر سنة خمس قبل الهجرة، ففي الصحيح: عن عائشة ﷺ قالت: أُنْزِلَ على محمد بمكة، وإني جارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾[1].

وكانت عائشة ﷺ قد عُقد عليها في شهر شوال قبل الهجرة بثلاث سنين، أي: في أواخر سنة أربع قبل الهجرة، وكانت سنها يومئذ نحو ست سنوات، وكان انشقاق القمر سنة خمس قبل الهجرة غالبًا.

قال ابن عباس ﷺ: كان بين نزول آية ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ وبين بدر سبعُ سنين.

وفي حديث أبي واقد الليثي ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة،

---

(١) البخاري برقم (٤٨٧٦، ٤٩٩٣).

في الفطر والأضحى[١].

أحاديث في إنشقاق القمر:

وانشقاق القمر أمرٌ متفقٌ عليه بين العلماء، وأنه وقع في زمن النبي ﷺ، وكان إحدى معجزاته، ومن **الأحاديث الواردة في ذلك**:

١- ما رواه أنس بن مالك ﷺ قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة فرقتين، فنزلت: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ إلى ﴿سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ﴾[٢].

٢- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: انشقَّ القمر على عهد النبي ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، سحَرَكم، فقالوا: انتظروا ما يأتيكم به السُّفَّار، فإن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فجاء السُّفَّار فسألوهم، فقالوا: نعم قد رأينا، فأنزل الله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾[٣]، وابن أبي كبشة:

أ- رجل من خزاعة عَبَدَ كوكب الشعرى، وخالف قريشًا في عبادة الأوثان، فشبَّهوا النبي ﷺ به في مخالفة عبادتهم.

ب- وقيل: إنه كان جد النبي ﷺ من جهة أمه.

ج - وقيل: إن أبا كبشة كنية زوج حليمة السعدية مرضعة النبي ﷺ.

٣- وعنه ﷺ قال: انشقَّ القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتيْن، حتى نظروا إليه، فقال ﷺ: **«اشهدوا»**[٤].

---

(١) «المسند» (٥/ ٢١٨) برقم ٢١٨٩٦، ٢١٩١١) حديث صحيح، (محققوه) والموطأ (١/ ١٨٠) وعبدالرزاق (٥٧٠٣) ومسلم (٨٩١/ ١٤) و«المستدرك» (٢/ ٤٦٥) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وابن ماجه برقم (٨١٦). وأبوداود برقم (١١٥٤) والترمذي برقم (٥٣٤) وابن حبان (٢٨٢٠).

(٢) الترمذي (٣٢٨٦) وعبد الرزاق (٢/ ٢٥٧) و«المسند» (١٢٦٨٨، ١٣١٥٤) ومسلم (٢٨٠٢/ ٤٧) والبيهقي (٢/ ٢٦٢) وغيرهم.

(٣) الطبري (٢٢/ ١٠٦) وأبو نعيم (٢١١) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٦٦) وهو في البخاري (٣٦٣٦) وغيره ومسلم (٢٨٠٣).

(٤) «أسباب النزول» للواحدي ومسند الطيالسي برقم (٢٩٥) بنحوه. وهو في البخاري (٣٨٦٩) ومسلم (٢٨٠٠) والترمذي (٣٢٨٥) وابن حبان (٦٤٩٥) وأحمد (١/ ٣٧٧).

٤- وعن أنس ﷺ أيضًا قال: انشقَّ القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «**اشهدوا**»(١)، وعن ابن عمر بنحوه(٢).

٥- وعن أنس ﷺ: أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقَّتيْن حتى رأوا حراء بينهما(٣).

٦- وفي رواية عنه ﷺ قال: فانشقَّ القمر بمكة مرتين(٤).

٧- وقال ابن عباس ﷺ: انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ(٥).

٨- وعن ابن مسعود ﷺ قال: خمس قد مضيْن: الدُّخَان، والقمر، والروم، والبطشة، واللزام ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾(٦) [الفرقان: ٧].

٩- وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: رأيت القمر وقد انشق، فأبصرت الجبل من بين فُرْجَتِي القمر(٧).

وهكذا سجلت السورة مكابرة المشركين وعدم تصديقهم بمعجزات النبي ﷺ، وأمرتْه بالإعراض عنهم وعدم الاكتراث بهم، وأنذرتهم باقتراب الساعة، وما يلقونه فيها من عقوبات بسبب تكذيبهم بصاحب الرسالة الأخيرة، وذكَّرتهم بما حدث لأمثالهم، وأنذرتْهم بعذاب دنيوي قريب، وأعلمتهم بأن الله تعالى محيط بهم وبأفعالهم، ومجازيهم بالسوء سوءًا وبالإحسان إحسانًا.

وكررت آيات السورة التنويه بشأن القرآن الكريم في فواصل القصص:
قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) البخاري بأرقام (٣٦٣٦، ٣٨٣٩، ٤٨٦٤) ومسلم برقم (٢٨٠٠) والترمذي (٣٢٨٧) والطبري (٢٢/ ١٠٥).
(٢) مسلم برقم (٢٨٠١) والترمذي برقم (٣٢٨٨) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٦٧) والحاكم (٢/ ٤٧٢) وأبو نعيم (٢٠٨).
(٣) البخاري برقم (٣٦٣٧، ٤٨٦٧، ٤٨٦٨) ومسلم برقم (٢٨٠٢) والطبري (٢٢/ ١٠٥).
(٤) «المسند» (٣/ ١٦٥) ومسلم برقم (٢٨٠٢).
(٥) البخاري برقم (٤٨٦٦).
(٦) البخاري برقم (٤٧٦٧) واللفظ له، وانظر (١٠٠٧) و«صحيح مسلم» (٢٧٩٨).
(٧) «المسند» (٧/ ٣٩) (٣٩٢٤) والطبري (٢٢/ ١٠٦) والحاكم (٢/ ٤٧١) قال محققو «المسند»: حديث صحيح.

وفي نهاية كل مشهد من مشاهد تعذيب المكذبين يأتي هذا التهديد ولفت النظر للاعتبار ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ وفي كل مشهد من مشاهد العذاب السبعة يتناثر الرعب والفزع والهول في سرعة تزلزل القلوب كأنها سياط تقصم الظهر وتأخذ بالأنفاس.

وكان النبي ﷺ يقرأ بسورة القمر مع سورة قاف في المحافل الكبار؛ لاشتمالها على ذكر الوعد والوعيد، وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة، وتحتوي سورة القمر على موضوعات السور المكية:

١- فتبدأ بمعجزة انشقاق القمر لإثبات جانب الوحي والرسالة للنبي ﷺ، وموقف المكذبين منها.

٢- وتتكلم السورة عن جانب البعث ومشاهد القيامة في أولها وآخرها، من الآية السادسة إلى الآية الثامنة، ومن الآية السادسة عشرة إلى الآية الخامسة والخمسين وهي نهاية السورة.

٣- وما بين ذلك من الآية التاسعة إلى الآية الثانية والأربعين تتحدث عن مصارع خمسة من المكذبين لرسل الله في الأمم الغابرة، في عرْض سريع لمصارع قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وفرعون وملئه.

٤- ومن الآية الثالثة والأربعين وما بعدها تتحدث آيات السورة عن عقاب الطغاة ونعيم المتقين، والإنذار بقيام الساعة، والإخبار عن وقوع قتال في المستقبل يُهْزَم فيه الكفار في الدنيا، ولهم عذاب أشد في الآخرة.

وفي السورة غرْسٌ لعقيدة التوحيد في نفوس المؤمنين، ووعيد لمن كذَّب بخاتم الرسل ﷺ ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾.

وهكذا كل أمة ضالة سوف تلقى مصيرًا مؤلمًا ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١].

سُورَةُ الرَّحْمَنِ (٥٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الرحمن) هي السورة الخامسة والخمسون في ترتيب المصحف، والثالثة والأربعون في ترتيب النزول على القول بأنها مكية، وهو الأرجح، فيكون نزولها بعد سورة الفرقان وقبل سورة فاطر، وهو قول جمهور الصحابة والتابعين، واستثنى بعضهم قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ فقيل: إنها مدنية، والأصح أنها مكية كبقية السورة، بل إن السورة من أوائل ما نزل من القرآن.

فقد أخرج الإمام أحمد والطبراني، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يَصْدَعَ بما يؤمر، والمشركون يسمعون، يقرأ: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1].

وقيل: إن سورة الرحمن مدنية، وعلى هذا فهي الثامنة والتسعون في ترتيب النزول، كما قال الجعبري، ويكون نزولها بعد سورة الرعد وقبل سورة الإنسان، فهي من السور المختلف في أنها مكية أو مدنية.

وعدد آياتها عند أهل الشام وأهل الكوفة ثمان وسبعون آية[2].

وهي ثلاث مئة وإحدى وخمسون كلمة، وألف وست مئة وستة وثلاثون حرفًا.

وسُميت سورة الرحمن، وهي أول كلمة فيها، وقيل: إنها تسمى أيضًا: عروس القرآن، ومن قال بهذا اعتمد على حديث ضعيف أخرجه البيهقي عن عليٍّ رضي الله عنه، وفيه:

---

(١) «المسند» (٦/٣٤٩) (٢٦٩٥٥) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/١٢٠): وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، وضعَّف إسناده محققو المسند (٤٤/٥١٧) وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٣١).

(٢) وعدَّها أهل مكة والمدينة سبعًا وسبعين، وأهل البصرة ستًّا وسبعين آية.

«لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن»[١].

أسباب النزول:

أ - وورد في سبب نزولها قول المشركين الذي حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

ب - وقيل: إنها نزلت في صلح القضيَّة عندما أَبَى سُهيل بن عمرو أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم في شروط صلح الحديبية.

ج - وقيل أيضًا: إن سبب نزولها قول المشركين ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] فردَّ الله تعالى عليهم بأن الرحمن هو الذي علَّم النبي ﷺ القرآن:

في فضل سورة الرحمن:

١- وفي الحديث: أن النبيَّ ﷺ قام يصلي الصبح بنخلة، فقرأ سورة الرحمن، ومرَّ النفر من الجن، فآمنوا به.

٢- وعن قاسم بن عاصم المنقري، أنه قال للنبي ﷺ: اتلُ عليَّ ما أُنزل عليك، فقرأ عليه سورة الرحمن، فقال: أعِدْها، فأعادها ثلاثًا، فقال: إن له لحلاوة(٢).

٣- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن، من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: **«ما لي أراكم سكوتًا؟ لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودًا منكم، كلما أتيتُ على قوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لاشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد»**[٣].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» برقم (٢٢٦٥) وإسناده ضعيف، لضعف علي بن الحسين بن جعفر، وأحمد بن الحسن بن علي بن الحسين، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٣٥٠).

(٢) من «تفسير القرطبي» للسورة.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٣٢٩١) وصححه الحاكم (٢/٢٧٣) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/٢٣٢) وفي «الشعب» برقم (٢٢٦٤) ورجاله ثقات، والطبري (٢٧/٧٢) وغيرهم، وقال الترمذي عنه: هو حديث غريب، وفي سنده زهير بن محمد وقد ضعَّفه البخاري وأحمد بن حنبل، يُنظَر: «التهذيب» (٣/٣٤٩) وأخرجه أبو الشيخ (١١١٨) وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٢٤) وأخرج البزار في «كشف الأستار» (٢٢٦٩) نحوه عن عبد الله بن عمر، وكذا الدارقطني والخطيب في تاريخه وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١٤/١٠١).

٤- وروى عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي ﷺ عبد الله ابن مسعود، وذلك أن الصحابة قالوا: ما سمعتْ قريش هذا القرآن يُجهر به قط، فمَن رجُل يُسمعهم إياه؟ فقال ابن مسعود: أنا، فقالوا: نخشى عليك، إنما نريد رجلًا له عشيرة يمنعونه، فأبى، ثم قام عند المقام، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ثم تمادَى رافعًا بها صوْته، وقريش في أنْديتها، فتأملوا وقالوا: ما يقول ابن أم عبد؟! قالوا: هو يقول الذي يزعم محمد أنه أُنزِل عليه، ثم ضربوه حتى أثَّرُوا في وجهه، وفي هذا دليل على أن السورة مكية[1].

٥- وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلًا قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة، فقال: أهذًّا كَهذِّ الشعر؟ لكن النبي ﷺ كان يقرأ النظائر سورتين في ركعة: الرحمن والنجم في ركعة، واقتربت والحاقة في ركعة، والطور والذاريات في ركعة، و(إذا وقعت) و (ن) في ركعة، و عمَّ والمرسلات في ركعة، والدخان وإذا الشمس كورت في ركعة، وسأل سائل والنازعات في ركعة، وويل للمطففين وعبس في ركعة[2].

٦- وأخرج ابن حبان عن ابن مسعود أيضاً أن رجلًا قرأ عليه سورة الرحمن بوجه من وجوه القراءات، فأنكر عليه وقال له: من أقرأك هكذا؟ قال: رسول الله، فذهبا إلى النبي ﷺ فأقرّ كلًّا منهما على قراءته، وتغيَّر وجهه ﷺ حين سمع الخلاف بينهما، فأمر عليًّا فقال: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما عُلِّم. قال ابن مسعود: فانطلقنا وكل رجل منا يقرأ حرفًا – أي: قراءة - لا يقرأ بها صاحبه[3].

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٥١/١٧).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (١٢٤٤) قال الألباني: صحيح دون سرد السور، وهو في الصحيحين، وقال أبوداود:هذا من تأليف ابن مسعود، وأخرجه البيهقي (٦٠/٢) وقد جاء مختصرًا في «المسند» (٤١٢/١) عن زِرّ: أن رجلًا قال لابن مسعود... الحديث.

(٣) انظر هذا المعنى في: «صحيح ابن حبَّان» (٧٤٧) وحسَّنه محققه، وأصل الحديث في البخاري بدون ذكر اسم السورة، وفيه أن النبيَّ ﷺ قال: كلاكما محسن، البخاري (٢٤١٠، ٣٤٧٦، ٥٠٦٢).

آية الآلاء:

وقد ذُكِرتْ آية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرة في السورة، في كل مرة لها معنى يختلف عن غيره، حيث يراد بالآلاء فيها: النعمة التي ذُكرت قبلها، وهي تختلف في كل آية عن الأخرى.

ومعنى ذلك: أن في السورة إحدى وثلاثين نعمة أنعم الله بها على الإنس والجن.

وأول آية من ﴿فَبِأَيِّ﴾ ذُكر قبلها اثنتا عشرة آية، وهي تُذْكَر بين الصفة والموصوف.

قال الزمخشري: أراد الله تعالى أن يقدم في عدد آلائه أسبق شيء، وأهم شيء في آلاء الله: أصناف نعمه، وقد قدَّمت السورة نعمة الدين، وبدأت بأعلى مراتبه، وهي نعمة القرآن وتعليمه، وأخَّرتْ ذِكْر خلْق الإنسان عن ذِكْر القرآن، ثم ذكرت الإنسان، وبيَّنت ما تميَّز به عن سائر الكائنات من أنواع البيان[1].

وتبع ذلك التنويه بالنبي ﷺ، وبيان أن الله تعالى هو الذي علمه القرآن، ردًّا على مزاعم المشركين الذين يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ وقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أو أنه سحر، أو أنه كلام كاهن أو شاعر.

ولأن القرآن الكريم هو المنة الكبرى التي امتنَّ الله بها على الإنسان، فقد تقدم ذكره على خَلْق الإنسان.

ثم استعرضت السورة صفحات الوجود الناطقة بآلاء الله وآثار قدرته، ومنها: الشمس، والقمر، والنجم، والسماء المرفوعة بلا عمد، وما فيها من عظيم المخلوقات، وخلْق الأرض وما فيها، من فاكهة ونخل وحبٍّ ورمان وريحان، وأنواع الزروع والثمار، والجن والإنس، والمشرقين والمغربين، والميزان، والبحرين والبرزخ الحاجز بينهما، وما يخرج منهما، وما يجري فيهما، ثم يأتي مشهد الفناء للخلائق، يقابله الوجود المطلق لوجه الله الكريم.

---

(١) «تفسير الكشاف» بتصرف (٤/٤٣).

وفي يوم القيامة الناس فريقان، حيث: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أما الفريق الذي خاف هذا الموقف، فمنهم السابقون المقربون، وهؤلاء أعدَّ الله لهم جنتين من الدرجة الأولى.

ومنهم أهل اليمين من عامة المؤمنين، وقد أعدَّ الله لهم جنتين من الدرجة الثانية.

وللجنات الأربع مواصفات ومقاييس تعرف بأدنى تأمل في الآيات.

فمثلًا: يقابَل قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ للسابقين بـ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ لأهل اليمين.

فالعين التي تجري ليست كالعين التي تضخ أو تنبع.

ويقابل قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ للسابقين بـ ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ لأهل اليمين، فالأُولى أعم وأشمل.

ويقابَل ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ لأهل اليمين بـ ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ للسابقين، فالمقصورات غير القاصرات، كما ترى في الدنيا امرأة عفيفة أو محجبة باختيارها من تلقاء نفسها، وأخرى مرغمة على ذلك، وهذا من باب التشبيه، وإلا فليست الحور العين مظنة للشبهات، كنساء الدنيا.

ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة فصول:

الأول: **عن الخلق والإبداع**، وهذا من أول السورة إلى الآية الخامسة والعشرين منها، وفيه خلق الإنسان، وتعليمه البيان، وتسخير الكون له برًّا وبحرًا وجوًّا وكواكب وأفلاكًا.

والإنسان مكلف بإقامة العدل والميزان، ومستحق للثواب والعقاب.

الثاني: **عن الفناء والبعث والجزاء** المعدِّ للمجرمين في الآخرة، وذلك من الآية السادسة والعشرين إلى الآية الخامسة والأربعين، وفيه فناء العالم، وإعادة الخلق بعد فنائه، ومظاهر فناء العالم، ثم أحوال الناس في المحشر، من يُسأل منهم عن ذنبه، ومن لا يُسأل عنه، بل يؤخذ من ناصيته وقدميْه ويُقذف به في جهنم، فيَلقى فيها العذاب ألوانًا.

والثالث: عن جَنَّتي السابقين المقربين عند ربهم، وذلك من الآية السادسة والأربعين إلى الآية الحادية والستين، وفيه وصف لنعيم كلِّ مَنْ خاف مقام ربه، وصف يشرح الصدور، وتقرُّ به العيون، لأصحاب الدرجات العلا والنعيم المقيم.

والرابع: عن جَنَّتَيْ أهل اليمين من عامة المؤمنين، وذلك من الآية الثانية والستين إلى الآية الثامنة والسبعين، وفيه وصف لنعيم جمهور أهل الإيمان، وما أعده الله لهم من الخُضْرة، وعيون المياه، والفاكهة، والخيرات الحسان، والرفارف الخضر.

وخُتِمت السورة بتمجيد الله تعالى، والثناء عليه بما أنعم على عباده من مختلف النعم، وفيه تناسق مع بدء السورة في أروع صور البيان.

* * *

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ (٥٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الواقعة هي السورة السادسة والخمسون في ترتيب المصحف، والسادسة والأربعون في ترتيب النزول عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة طه وقبل سورة الشعراء، ولا يُعرف لها اسم غير سورة الواقعة.

وهي في العدد الكوفي الذي عليه رواية حفص،ست وتسعون آية[(١)].

وعدد كلماتها ثلاث مئة وثمان وسبعون كلمة، وألف وسبع مئة وثلاثة أحرف.

قال ابن عطية: وهي سورة مكية بإجماع من يُعتدُّ به من المفسرين، واستثنى ابن عباس وقتادة قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ فقد نزلت بالمدينة.

وقال الكلبي: إلا أربع آيات: اثنتان نزلتا في سفر النبي ﷺ إلى مكة، وهما قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

واثنتان نزلتا في سفره إلى المدينة، وهما:﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

قال ابن عطية: وهذا كله غير ثابت[(٢)]، والصحيح أنها كلها مكية.

جاء عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا بكر رضي الله عن الجميع قال: يا رسول الله، قد شبْتَ، قال: «شيَّبَتْني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»[(٣)].

---

(١) وفي العدد البصري سبع وتسعون آية، وفي العدد المكي والمدني والشامي تسع وتسعون آية.

(٢) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٢٣٨/٥) و«تفسير التحرير والتنوير» (٢٧٩/٢٧) و«تفسير فتح القدير» (١٤٦/٥) و«زاد المسير» (١٣٠/٨).

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب، برقم (٣٢٧٩) وصححه الحاكم على شرط البخاري ووافقه الذهبي (٣٤٣/٢) وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٧٦) ورواه الطبراني في «الأوسط» من طريق مسروق عن أبي بكر، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٠/٧): ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٠٩١)، وانظر: «العلل» للدارقطني (١٩٣/١) وابن أبي حاتم (١٨٢٦، ١٨٩٤).

وعن جابر بن سمُرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يُخفف، كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر بالواقعة[1].

وورد في سورة الواقعة أحاديث أخرى لم تصح.

قال مسروق: من أراد أن يَعْلَم نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة[2].

أغراض السورة

موضوع سورة الواقعة: هو اليوم الآخر، وأصناف الناس في الآخرة، وجزاء كل صنف منهم يوم لقاء الله، والحديث عن البعث والحساب والجزاء، وغرْس عقيدة التوحيد في نفوس البشر، وهذا من خصائص القرآن المكي.

والواقعة اسم للسورة، وبيان لموضوعها، فليوم القيامة أسماء شتى، منها: الواقعة، والحاقة، والقيامة، والساعة، والقارعة، والصاخَّة، والطامَّة، والغاشية، والآزفة.

وتختص الآيات الست الأُوَل بحديث وجيز عن انتهاء العالم وبدء الحساب، فالقيامة تقوم بغْتة، فتُخرِس ألسنة المكذبين لها من الكافرين بها، وألسنة الملحدين المعاندين، والماديين والدهريِّين، وتُبيِّن أن القيامة ستخفض رؤوسًا كانت عالية في الدنيا، وترفع رؤوسًا كانت مغمورة.

ومع قيام الساعة تهيج الزلازل التي تهدم كل شيء، وتُحوِّل الصخور الصلْدة العالية إلى ذرَّات دقيقة، كالتي نراها تَسبح في الشعاع، ولسنا ندري كم بقي من عمر الدنيا، وليس هذا هو المهم، إنما المهم أن يُعدَّ المرء للسؤال جوابًا، ويستعدَّ بعمله الصالح للموقف العصيب.

---

(١) «المسند» (١٠٤/٥) (٢٠٩٩٥) قال محققوه: صحيح لغيره، وأخرجه عبد الرزاق (٢٧٢٠) وابن خزيمة (٥٣١) وابن حبان (١٨١٣) والطبراني في «الكبير» (٤٠٣٦) والحاكم (٢٤٠/١).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١٧٥/١٤).

فقد سأل رجل النبي ﷺ قائلًا: متى الساعة يا رسول الله؟ فأراد النبي ﷺ أن يرشده إلى ما هو أهم من السؤال، فقال له: «**وماذا أعددت لها**»؟ فذكر الرجل أنه يؤدي الفرائض، وليس عنده رصيد كبير من النوافل، قال الرجل: غير أني أحب الله ورسوله، فقال له النبي ﷺ: «**أنت مع من أحببت**»[(١)].

أصناف الناس يوم القيامة:

وبعد هذه المقدمة، فإن السورة تقسِّم الناس يوم القيامة إلى **ثلاثة أصناف**: السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال.

وتُفصِّل النعيم الذي أعده الله للسابقين وأصحاب الميمنة، ثم تُفصِّل العذاب المعدَّ لأصحاب المشأمة، وهذا من الآية السابعة إلى الآية السادسة والخمسين.

وفي نهاية السورة تتناول أيضاً هؤلاء الثلاثة تحت مسمًّى: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين، فتبيِّن ما أعدَّ الله لهؤلاء الثلاثة في الآخرة وعند الاحتضار من نعيم وعذاب على وجه الإجمال.

وبين التقسيمَيْن الأول والأخير، ذكرت السورة أربعة أدلة متنوعة من آفاق الكون وتجارب الناس، على أن البعث حق، وهي في الوقت نفسه دلائل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته.

وهذه الأدلة الأربعة تتمثل في بديع صنعه تعالى وخلقه للإنسان، وإخراج النبات، وإنزال الماء، وما أودعه الله في النار من قوة.

وجاءت هذه الأدلة في الآيات الأربع التالية، وما يتبع كل منها، وهي قوله تعالى:

١ - ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾.

---

(١) من حديث أنس في «المسند» (١٢٠٧٥، ١٤٠٧٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وعن أبي ذر (٢١٣٧٩، ٢١٤٦٣)، ورواه البخاري عن أنس (٣٤٨٥)، وأخرجه مسلم(٥٥٧)، والترمذي (٣٥٣)، وابن ماجة (٩٣٣)، وابن خزيمة(٩٣٤).

٢- ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

٣- ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

٤- ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وهذه الأدلة من الآية السابعة والخمسين إلى الآية الرابعة والسبعين.

ثم نوَّهت السورة بشأن القرآن العظيم، وذلك من الآية الخامسة والسبعين إلى الآية الثانية والثمانين.

إن سورة الواقعة تحدثت عن الناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، ووصفت جزاء كلٍّ منهم، بما لا يوجد في غيرها.

وزعم بعضهم أن أصناف الناس الثلاثة المذكورون هنا، وهم: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢].

وليس الأمر كذلك؛ لأن الثلاثة الذين هم في آية سورة فاطر كلهم من المسلمين ومن حملة القرآن، بدليل أول الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢].

أما الآيات التي في سورة الواقعة فهي تتحدث عن قسمين من المؤمنين، هما: السابقون بالخيرات، والفائزون بقدر راجح من الحسنات، وما بقي من أصناف الناس، فهم: الكافرون أصحاب الشمال، الذين هم في سموم وحميم، وظل من يحموم.

نسأل الله العفو والعافية، والسلامة من النار، والفوز بالجنة.

تقسيم السورة إلى شطرين:

ومع أن موضوع السورة واحد، هو البعث والحساب والجزاء، وبيان اختلاف أحوال الناس فيه، إلا أنه يمكن تقسيمها إلى **شطرين**:

الشطر الأول: من أولها إلى الآية السادسة والخمسين، فإن السورة في هذا الشطر، تبدأ بما يقطع الطريق على منكري البعث، القائلين: إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض

تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر، وتقطع الطريق على من يُقْسِمون بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، وعلى القائلين: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢] وعلى من قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف:٣٦، وفصلت:٥٠].

إنها تخرس ألسنة هؤلاء وأولئك، فتقطع كل شكٍّ في قيامها، وتزيل كل لَبس في ذلك، وتسمِّيها بالواقعة، وليس لهذا الوقوع من مكذب!

ثم تصف السورة القيامة بأوصاف تُشعر بالجزم، وتزلزل النفس، وتذْكُر أصناف الناس يوم الحشر والنشر، وتُفصِّل مصير كل منهم تفصيلًا دقيقًا وافيًا كأنه معروض للعيان، لاسيما مصير المكذبين أصحاب الشمال، حيث توضح السورة أسباب سوء المصير، بأنهم كانوا في الدنيا من المترفين البطرين، المصرين على الكفر والإشراك بالله تعالى، وكانوا ممن يستبعدون البعث بعد الموت لهم ولآبائهم الأولين.

أما الشطر الآخر من السورة، فهو من الآية السابعة والخمسين إلى الآية السادسة والتسعين في نهاية السورة.

وهذا الشطر يتكلم عن الخلْق الأول من مَنِيٍّ يُمنى، ويقرر النشأة الأولى للإنسان، ويجعل هذه المقدمة تتصدر خمسة أدلة على البعث والنشور.

فتتناول نشأة الحياة في صور أربع، وكلها صور للنشأة الأولى، وللحياة من العدم.

١ – وهي خلْق الإنسان من منيٍّ يُمنى، والله تعالى هو الخالق لهذا المني، وهو الذي يُميتُنا بعد حياتنا.

٢ – ومن ذلك حياة الزرع والحرث، من الأرض الميتة.

٣ - وحياة كل كائن حي بالماء الذي أنزله الله تعالى من المزن، وليس لمخلوق دَخْلٌ في ذلك، ولو شاء الله تعالى لجعله أجاجًا لا يُنبت نباتًا ولا يُخرج كلأً.

٤ - ومن ذلك النار، وأصلها الذي تنشأ منه، وهي تذكِّر الناس بنار الآخرة، وكلها صور مألوفة في حياة الناس وواقعهم، ولا سبيل لإنكارها.

وبعد التنويه بشأن القرآن العظيم، تتناول السورة مشهد الاحتضار عند الموت، وما ينتظر كل صنف من أصناف الناس من النعيم أو العذاب، في لمسة عميقة الأثر في النفوس حين يقف الطب عاجزًا أمام المحتضِر، ويقف الأهل والمال والأحباب مكتوفي الأيدي، لا يملكون أن يزيدوه لحظة من العمر فوق عمره، ولا نفَسًا فوق أنفاسه.

وقد لخَّص آخر السورة ما جاء في أولها من المصير الذي أعده الله تعالى للسابقين وأهل اليمين والمكذبين الضالين، وسواء صدَّق بعض الناس ذلك أو كذَّبوه فإن هذا لن يغير من الواقع شيئًا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

* * *

سُورَةُ الْحَدِيدِ (٥٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١. (سورة الحديد) هي السورة السابعة والخمسون في ترتيب المصحف، والخامسة والتسعون في ترتيب النزول، على أساس أنها سورة مدنية، ويكون نزولها في هذه الحالة بعد (سورة الزلزلة) وقبل (سورة محمد)، وعلى القول بأنها سورة مكية، يكون نزولها قبل (سورتي الحجر وطه) وبعد (سورة غافر).

وسورة الحديد من السور المختلف فيها بين كونها مكية أو مدنية.

وذكر ابن عطية عن النقاش إجماع المفسرين على أن سورة الحديد مدنية.

والأظهر: أن الآيات من أول السورة إلى الآية التاسعة مكية، وبقية السورة منها المكي، ومنها المدني، ومن المدني: الآية السادسة عشرة، والآيتين الأخيرتين في السورة، وفيهما دعوة أهل الكتاب إلى الدخول في الإسلام.

وقد ورد أن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ الآية:١٦ إلا أربعُ سنين[١].

ولِمَا ورد أن عمر ﷺ دخل على أخته قبل أن يُسْلم، فإذا صحيفة فيها أول (سورة الحديد)، فقرأها حتى بلغ ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ الآية:٧ فأسلم[٢].

---

(١) رواه مسلم برقم (٣٠٢٧)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٦٨)، وابن ماجة برقم (٤١٩٢)، وصحيح ابن ماجه (٣٣٨٠) بإسناد حسن.

(٢) رواه الطبراني والبزار في كشف الأستار (٢٤٩٣)، وفيه أسامة بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف كما في مجمع الزوائد (٩/٦٣)، ورواه أبونعيم في الحلية (١/٤١)، والبيهقي في الدلائل (٢/٢١٦)، وابن عساكر (٤٤/٣١).

وفي رواية أخرى أن الصحيفة التي قرأها عمر ﷺ كان فيها صدر (سورة طه).

٢. وتسمى سورة الحديد: لورود لفظ (الحديد) فيها في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ الآية ٢٥.

ولما كانت قصة أهل الكهف أبرز من كلمة الحديد التي وردت في سورة الكهف فقد سُميت باسم القصة ولم تسمَّ سورة الحديد، مع ورود لفظ الحديد فيها في قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾[الكهف:٩٦].

٣. وعدد آيات السورة تسع وعشرون آية عند أهل الكوفة والبصرة، وثمان وعشرون آية عند بقية علماء العدد.

وهي خمس مئة وأربع وأربعون كلمة، وألفان وأربع مئة وستة وسبعون حرفاً.

٤. ومما ورد في فضلها مع غيرها من السور المفتتحة بالتسبيح: ما رواه العرباض بن سارية ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ بالمسبحات قبل أن يرقد ويقول: «**إن فيهن آية أفضل من ألف آية**»[(١)].

والمسبحات سبع سور، وهي: سور الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والإسراء والأعلى.

أغراض السورة:

١- تبدأ الآيات الست الأُول من سورة الحديد، فتذكّر بجلال الله تعالى، وصفاته العظيمة، وسعة علمه وملكوته، وتَذْكُر اثنان وعشرون دليلاً وصفة من أسماء الله الحسنى بعد الاسم العلم ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ للدلالة على وحدانيته سبحانه، ومن هذه الأسماء: العزيز، الحكيم، المحيي، المميت، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، له مُلك هذا الكون، وهو العالِم بكل شيء.

(١) النسائي في السنن الكبرى (٨٠٢٦)، وأبوداود (٥٠٥٧)، والترمذي برقم (٨٤٠٦)، والمسند (١٢٨/٤) برقم (١٧١٦٠) باسناد ضعيف لجهالة ابن أبي بلال وقد ضعفه الألباني أيضاً في ضعيف سنن أبي داود (١٠٧٣).

فهو سبحانه خالق السموات والأرض ومالكهما، يعلم ما يدخل فيهما وما يخرج منهما، وما ينزل منهما، وما يصعد إليهما، وتبعاً لذلك فإنه سبحانه يُدخِل الليل في النهار، ويدخِل النهار في الليل، وهو قادر على كل شيء، وعلمه محيط بكل شيء، فهو سبحانه خالق كل شيء ومبدعه.

وهو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، والظاهر بآثار مخلوقاته، والباطن الذي لا يَعْرِف كُنْه حقيقته أحد، وهو الخالق لكل ما في الكون، والمتصرف فيه كيف يشاء، وكل ما في هذا الكون من ملَك وإنس وجن وحيوان وشجر ومدر وجماد، كل شيء يسبح بحمد الله تعالى، فالكل يشهد بوحدانيته تعالى، ويشهد بعظمته.

٢ - ثم تضع السورة عنصران رئيسان للأمة الإسلامية حتى تؤدي رسالتها العالمية، وهما:

الإيمان بالله ورسوله، وهو عبادة قلبية، ويظهر أثره على الجوارح واللسان.

والإنفاق من مال الله، وهو عبادة مالية ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ الآية: ٧، وهذا الإنفاق للمال، لتحقيق عزة الإسلام ورفعة شأنه، ينفَق على التصنيع الحربي، وما يسلِّح الأمة في مواجهة عدوها بما يكافئ ماعنده من سلاح وعتاد، فلابد للمؤمن من الجهاد بالنفس والمال واللسان، لينال التمكين والسيادة في الأرض، ومنه النفقة الواجبة والمستحبة، وبذلك ينال العبد السعادة في الدنيا والمثوبة في الآخرة، ولذا بيّنت السورة أن إنفاق المال في أوقات الأزمات والشدائد يفوق كثيراً الإنفاق في أوقات الرخاء والسعة، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الآية: ١٠] ولذلك فإن السورة جعلت عطاء المؤمن بمثابة القرض الحسن لله عز وجل.

ولما سمع أبو الدحداح هذه الآية وكان له بستان فيه ست مئة نخلة، فقال: إني أقرضت ربي حائطي، اخرجي يا أم الدحداح أنت وعيالك، فقد أقرضت ربي حائطي،

فأجابته على الفور: ربح بيعك يا أبا الدحداح.

والسورة تُعنى بالتشريع والتربية والتوجيه، وتبني المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية والخلُق الكريم، والتشريع الحكيم.

٣ - وقد تحدثت آيات السورة عن أهل الإيمان، المنفقين أموالهم في سبيل الله، وبينت أن نورهم يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

أما أهل النفاق فإنهم يتخبطون في الظلمات على الصراط يوم القيامة، كما كانوا يعيشون في الدنيا في ظلمات الجهل والغي والضلال.

والإيمان المقبول: أساسه معرفة الله تعالى، ونكران الذات، ورحمة الخلق، ورقة القلب.

والإسلام يمقت القسوة والجفوة والصّلَف، وبهذا يعظ القرآن أهله ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الآية:١٦] ولا يتشبهوا بغيرهم ممن طالت حياتهم في الدنيا ﴿فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٌ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الآية: ١٦].

٤ – ثم تتحدث آيات السورة عن الدنيا والآخرة، لتضع كُلاً منهما في ميزان الحق، فالدنيا تتمثل في **خمسة أهداف**: لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر، وتكاثر في الأموال والأولاد، فإذا أعطينا لكل من هذه الخمسة، ثمانية أعوام من بداية عمر الإنسان حسب ترتيبها، فسيبلغ إلى نهاية سن الشباب، فالطفل يلعب ثمانية أعوام، ويلهو ثمانية أخرى، ويتزين في سن المراهقة في الثمانية التي تليها، ويتفاخر فيما بين ٢٤-٣٢ من عمره، ويتكاثر في المال والولد من ٣٢-٤٠ سنة، وبذا يكتمل عقله ويستكمل شهواته، ولذا كان سن الأربعين هو سن النبوة، هذه هي رحلة الدنيا، كزرع أخصب، ثم ذبُل، ثم صار هشيماً يابساً.

أما رحلة الآخرة، فإنها تتطلب المسارعة، والتسابق إلى الجنات، والتنافس في الخيرات: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الآية:٢١] والآخرة دار الخلود والبقاء، لا نصَب فيها ولا تعب، ولا همَّ ولا شقاء.

٥ – ثم تبيّن آيات السورة أن رسالة الله تعالى إلى خلقه واحده جاء بها الرسل

جميعاً، وأيدهم الله بالمعجزات، وأنزل معهم الكتب، وأنزل مع الكتاب ميزان الأعمال والأقوال في شرع الله، ليقوم الناس بالقسط ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الآية: ٢٥] ولإقامة منهج الله في أرضه، لابد له من القوة الرادعة المهيمنة التي تَلْزم للمسلمين في السلم والحرب، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الآية:٢٥].

ومن الحديد يكون التصنيع الحربي الذي يغنينا عن عدونا، ويحمي دعوتنا وأرضنا، وينصرنا الله بسببه على من اعتدى علينا، وندفع به الصائل، ونحرس به الحدود، وتُصنع الطائرات والدبابات والمدافع والسفن، وننشر كلمة التوحيد والرسالة الأخيرة، ومن الحديد تُبنى الجسور، والأنفاق،وتُشيَّد المباني والسدود، وتُقام الحضارات، ويكون العمران والبنيان والمواصلات.

إننا نعيش في عصر العلم، عصر غزو الفضاء وشبكة المعلومات، والفضائيات وطائرات التجسس، وأسلحة الدمار الشامل، وإذا لم يأخذ المسلمون بوسائل العلم المعاصر المكافئة لعدوهم، أو الوسائل المتاحة في حدود الإمكان، فلن تقوم لهم قائمة، ولن تتحقق لهم السيادة في دينهم وأرضهم.

وديار المسلمين غنية بالمال، وغنية بالعقول العلمية، ولا يحتاج الأمر إلا إلى التجرد والتوجه الصحيح.

وبهذا يتبين أن الله تعالى قد وضع للبشر القوة المعنوية، وهي تتمثل فيما جاءت به الرسل من المنهج العملي لتحقيق العبودية والخلافة في الأرض.

وَوَضع لها القوة المادية، الممثلة في الحديد، لحماية الدعوة وإقامة العدل بين الناس.

وتُختم السورة بتوصية المسلمين بالعودة إلى الله تعالى، والاقتداء برسوله ﷺ فإذا أعاد المسلمون علاقتهم بربهم، ومَشوْا وراء نبيهم، فإن الله تعالى ناصرهم على عدوهم بمشيئة الله سبحانه.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: يتناول جانب التنزيه لله تعالى ودلائل التوحيد، وذلك في الآيات الست الأول من السورة، وفيه اثنان وعشرون صفة ودليلاً على وحدانية الله تعالى.

المقطع الثاني: هو موجبات الإيمان والنفاق، ومصير المؤمنين الصادقين، والكافرين المكذبين، وذلك من الآية السابعة في السورة، إلى الآية التاسعة عشرة فيها.

فالمؤمنون لهم أجر كريم، والمنافقون في العقيدة، مأواهم النار وبئس المصير.

والمقطع الثالث: يتناول رحلة الدنيا والآخرة، فالدنيا لعب ولهو.. والآخرة تنافس وتسابق إلى وسائل النجاة، وهذا من الآية العشرين إلى الآية الرابعة والعشرين.

المقطع الرابع: حديث عن الرسل والرسالات، ووسائل التمكين في الأرض، ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بخاتم النبيين، وذلك من الآية الخامسة والعشرين إلى الآية التاسعة والعشرين وهي نهاية السورة، وفي هذا المقطع بيان أن إقامة منهج الله تعالى في أرضه لا بد له من قوة تحميه، فالقوة المعنوية تحتاج إلى قوة مادية تساندها وتحقق لها البقاء في الأرض، والحديد عنوان هذه القوة، وقد جاءت الرسل بما يريده الله من خلقه.

* * *

سُورَةُ الـمُجادلة (٥٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المجادلة) هي السورة الثامنة والخمسون في ترتيب المصحف، والثالثة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة المنافقون)، وقبل (سورة التحريم والحجرات)، ويبدو أن (سورة المجادلة) قد نزلت قبل (سورة الأحزاب)، لأن قول الله تعالى فيها ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤] يقتضي أن تكون هذه الآية قد نزلت بعد إبطال حكم الظهار.

وتسمى (سورة المجادلة) بكسر الدال، إشارة إلى المرأة التي جاءت تجادل الرسول ﷺ في شأن زوجها وهو الأوْلى، لأن فيه إضافة الجدل إلى صاحبة الجدال، أما على فتح الدال فهو مصدر مأخوذ من فعل ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾ المعبر عنه بالمحاورة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾.

ويقال لها: سورة (قد سمع) وسُمِّيت في مصحف أُبَيٍّ بن كعب (سورة الظهار)[١].

فهذه ثلاثة أسماء لها: المجادلة، وقد سمع، والظهار.

وهي سورة مدنية، قال ابن عباس: نزلت سورة المجادلة بالمدينة[٢].

وكذا جميع سور الجزء الثامن والعشرين، كلها مدنية.

وعدد آياتها اثنتان وعشرون آية في العدد الكوفي والبصري والشامي، وإحدى وعشرون آية في العدد المدني والمكي.

وعدد كلماتها أربع مئة وثلاث وسبعون كلمة، وعدد حروفها ألف وسبع مئة واثنان

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٥/١٣).

(٢) البيهقي في الدلائل ١٤٣/٧ وغيره.

وتسعون حرفاً.

وشأن السور المدنية، أن تُعنى بأحكام التشريع وشؤون المجتمع المسلم.

وقد اشتملت هذه السورة على أحكام الظهار والكفارة التي تجب على المظاهِر، وحكم التناجي، وآداب المجالس، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ، وعدم مودة أعداء الله تعالى، كما تحدثت عن المنافقين واليهود، وعن الذين يحادون الله ورسوله.

وكل آية في هذه السورة، فيها اسم الجلالة مرة أو أكثر.

وقد كان المجتمع المدني مشتملا على أصناف من الناس:

١- منهم المؤمنون الذين يُربيّهم الوحي، ليحْمِلوا دعوة الله تعالى إلى كافة الناس، في المشارق والمغارب.

٢- ومنهم الوثنيون الذين يقلّدون مَن سبقهم دون إعمال فكر ولا نظر، ويتعلّقون بذيل الليل المدْبر.

٣- ومنهم اليهود الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه! ويريدون فَرْض أهوائهم على العالم، والسيطرة على مقدَّراته.

٤- ومنهم المنافقون الذي يَجْرُون وراء مصالحهم، ويظهرون في أَلْفِ لَوْن.

موضوعات السورة: على النحو التالي:

أ- وفي الآيات الست الأول تحدثت السورة عن الظهار وحكمه وكفارته.

ب- وفي الآية السابعة والثامنة تحدثت عن صورة من صور مكر اليهود، حتى في إلقاء التحية على المسلمين، والتناجي فيما بينهم وهم في مجالس المسلمين.

ج- وفي أعقاب ذلك تُوجّه السورة، ثلاث نداءات إلى المؤمنين، تنهاهم في أول نداء عن التشبه باليهود في التناجي بالإثم والعدوان.

وتأمرهم في النداء الثاني أن يفسح بعضهم لبعض في المجالس الخاصة والعامة.

وفي النداء الثالث تأمرهم بتقديم صدقة، عند مناجاة الرسول ﷺ بعد أن تكاثر عليه

الناس متوافدين إلى مجلسه، وذلك حتى الآية الثالثة عشرة.

د- ومن الآية الرابعة عشرة حتى الآية الحادية والعشرون، تحدثت السورة عن المنافقين الذين يوالون اليهود، ويتحالفون معهم ضد المسلمين، وينقلون إليهم أسرارهم، فتفضحهم وتكشف زيفهم.

هـ- وتُختم السورة ببيان حقيقة الحب في الله والبغض فيه، وتبين أن صلة الإيمان أقرب من صلة الدم، وأن المتحابين في الله هم حزب الله تعالى.

وهكذا: فقد بينت السورة حكم الظهار، فأبطلت ما كان شائعا في الجاهلية مِنْ جعْل المظاهَر منها في حكم الأم، وشرعتْ له الكفارة، وبينت سوء عاقبة الذين يحادون الله ورسوله، وهم جماعة يعيشون في كبت وقهر في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب مهين، وقد أحصى الله عليهم أعمالهم التي نسوها، وبينت أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن الله تعالى يشهد كل نجوة في خلوة وجلوة.

وحذرت آيات السورة من عاقبة التعاون على الإثم والعدوان، وما يكون من التناجي في هذا المقام، ورغَّبتْ في التعاون على البر والتقوى.

وساقت آيات السورة ألواناً من الآداب التي يجب على المؤمنين أن يتحلّوا بها، وبشَّرتْهم برضى الله تعالى متى أخلصوا له الطاعة والعبادة.

ومن ذلك أدب السماحة والتوسع في المجالس، لاسيما مجالس العلم والذكر، وأدب السؤال والحديث.

وبقية السورة تتحدث عن المنافقين الذين يتولّوا اليهود، ويتآمرون معهم على المسلمين، ويُداررون تآمرهم بالحلف الكاذب، وهؤلاء يواجهون عذاب الله تعالى وغضبه، مع الذين يحادون الله ورسوله.

وقد كتب الله سبحانه أنه ورسله هم الغالبون، وأنه لابد أن يتميز الصف المسلم من غيره، تحت راية الله تعالى والاعتزاز بدينه، وهذه هي الصورة الوضيئة لحزب الله تعالى،

في مقابلة الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله.

وقد وردت روايات في **أسباب نزول آيات الظهار**، منها ما جاء:

١- عن عائشة رضي الله عنها قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خَوْلة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله، أكَل شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبُرتْ سني، وانقطع ولدي، ظاهَر مني، اللهم: إني أشكو إليك، فما برحتْ حتى نزل جبريل بهذه الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [1].

٢- وفي رواية الإمام أحمد عن خويلة بنت ثعلبة قالت: والله فيّ، وفي أوْس بن صامت، أنزل الله سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً، قد ساء خلُقه وضجر، فدخل عليّ يوماً فراجعتُه بشيء فغضب، فقال: أنت عليّ كظهر أمي، قالت: ثم خرج، فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليّ، فإذا هو يريدني على نفسي، فقلت: كلا والذي نفس خُويلة بيده، لا تخلُص إليّ وقد قلتَ ما قلتَ حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثبني وامتنعتُ منه، فغلبتُه بما تغْلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيتُه عني، ثم خرجتُ إلى بعض جاراتي، فاستعرتُ منها ثيابها، ثم خرجتُ حتى جئتُ رسول الله ﷺ فذكرت له ما لقيتُ منه، فجعلت أشكوا إليه ما ألْقى من سوء خُلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير، فاتّقي الله فيه، قالت: فوالله ما برحتُ حتى نزل فيّ القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سُرّي عنه، فقال لي: يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ عليّ الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾

---

(١) أخرجه ابن ماجة برقم (٢٠٦٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٣٥٢/١) برقم (١٥٥) ورقم: (١٦٧٨)، وأخرجه البخاري معلقاً برقم (٧٣٨٥)، ووصله ابن حجر بسنده وصححه، تغليق التعليق (٣٣٨/٥)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي من طريق الأعمش، المستدرك (٤٨١/٢)، والسنن الكبرى للنسائي برقم (١١٥٧٠)، وتفسير الطبري (٦٠٥/٢٨)، والبيهقي في سننه (٣٨٢/٧)، والواحدي في أسباب النزول (٣٠٤) قال ابن حجر في الفتح (٣٧٤/١٣): وهذا أصح ما ورد في قصة المجادلة وتسميتها.

إلى ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فقال لي: مُريه فلْيعْتق رقبة، قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما عنده ما يعتق.

قال: فليصم شهرين متتابعين، فقلت: والله يا رسول الله، إنه شيخ كبير ما به من صيام.

قال: فلْيُطْعم ستين مسكينا وُسْقاً من تمر، قالت: قلت: والله يا رسول الله، ماذاك عنده.

قالت: فقال رسول الله: فإنا سنُعينه بعَرَق من تمر، قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأعينُه بعَرَق آخر، قال: قد أصبْت وأحسنْت، فاذْهبي فتصدقي عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرا، قالت: ففعلت» [(١)].

والعَرَق: ستون صاعا، وخويلة هي خوْلة بالتصغير، ويقال لها: بنت الصامت وبنت ثعلبة وهي امرأة أوس بن الصامت.

٣- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية: أنت عليّ كظهر أمي، حَرُمتْ عليه، فكان أول من ظاهر في الإسلام (أوس) ثم ندم، وقال لامرأته: انطلقي إلى رسول الله ﷺ فسليه، فأتته، فنزلت هذه الآيات [(٢)].

٤- وفي رواية: قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان الظهار في الجاهلية يُحَرّم المرأة على الرجل تحريما مؤبدا، فجاءت خوْلة رسول الله ﷺ وذكرت له ذلك، فقال لها: حَرُمتِ عليه، فقالت للرسول ﷺ: إن لي صبية صغاراً، إنْ ضممتُهم إليه ضاعوا، وإن ضممتُهم إليّ جاعوا، فقال: ما عندي في أمرك شيء، فقالت: يا رسول الله، ما ذَكر

---

(١) المسند (٦/٤١٠) (٢٧٣١٩) قال محققوه: إسناده ضعيف، لجهالة معمر بن عبد الله بن حنظلة، فلم يَرْوِ عنه سوى محمد بن إسحاق، وذكره ابن حبان في الثقات، ورواه أبوداود مختصرا من طريق محمد بن إسحاق برقم (٢٢١٤)، والطبراني في الكبير (٦١٦)، والبيهقي (٧/٣٩١)، وصحيح سنن أبي داود (١٩٣٤)، قال ابن كثير: هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة قلت: وفي الباب عن عائشة وابن عباس بإسناد صحيح وهو يؤيد ما قاله ابن كثير وتحسين الألباني له.

(٢) رواه البيهقي في السنن (٧/٣٨٣)، ونسبه السيوطي في الدر المنثور (٦/١٧٩) لابن مردويه والنحاس عن عكرمة، وفيه أبو حمزة الثمالي وهو ضعيف.

طلاقاً، وإنما هو أبو ولدي، وأحب الناس إليّ، فقال: حَرُمت عليه، فقالت: أشكوا إلى الله فاقتي وَوُجْدي، وكلما قال رسول الله: حَرُمت عليه، هتفتْ وشكتْ إلى الله، فأنزل الله الآيات[1].

وجميع الروايات التي استقصاها الطبري كلها متفقة على أن المرأة المجادلة هي: خوْلة، أو بالتصغير خويلة، أو جميلة، وزوجها: هو أوس بن الصامت، أخو عبادة بن الصامت، وجاء عن عمر بن الخطاب أنها خولة بنت حكيم، وقال أبو العالية والمهدوي: هي خولة بنت دُلَيْج، وقال ابن إسحاق: هي خولة بنت الصامت، وقيل خولة بنت خويلد[2].

والمشهور قول قتادة أنها خولة بنت ثعلبة[3].

وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور عدداً من الروايات في هذا المعنى.

٥- وعاشت هذه المرأة حتى خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، فقد ورد أنه مَرَّ في خلافته على امرأة، وكان راكباً على حمار، والناس معه، فاستوقفتْه تلك المرأة طويلاً، ووعظتْه، وقالت له: عهدي بك يا عمر وأنت صغير، تدعى عُميْرا، ثم قيل لك: يا عمر، ثم قيل لك: يا أمير المؤمنين، فاتق الله ياعمر في الرعية، واعلم أن من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب، وعُمَر واقف يسمع كلامها، فقيل له: يا أمير المؤمنين، أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف، فقال: والله لو حبستْني من أول النهار إلى آخره، لا زِلتُ، إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون مَن هذه العجوز؟! هذه (خولة بنت ثعلبة) التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر)[4]؟!

(١) رواه أبوداود في كتاب الظهار بسند صحيح (٢٢١٥)، وهو في صحيح سنن أبي داود (١٩٣٥).

(٢) ينظر: الإصابة (٦١٨/٧) وفتح الباري (٣٧٤/١٣).

(٣) ينظر: تفسير ابن عطية (٣٧٢/٥).

(٤) تفسير القرطبي (٢٦٩/١٧) ورواه الدارمي من طريق أبي يزيد عن عمر، وفيه انقطاع في السند، لأن أبايزيد لم يدرك عمر، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات برقم (٨٨٦) وابن أبي حاتم.

٦- وحدثت واقعة مماثلة لقصة خوْلة، حيث كان السائل فيها رجلاً، هو سلَمة بن صخر الأنصاري، وكان قد جامع امرأته بعد أن ظاهر منها، وليس فيها أنها كانت سبباً للنزول، قال سلمة: إنه كان رجلاً قوي الشهوة، لا يصبر على ترك الجماع، فلما دخل شهر رمضان ظاهَر من امرأته حتى ينتهي الشهر، وبينما كانت امرأته تخدمه في ليلة تكشّف له منها شيء فجامعها، فلما أصبح ذهب للنبي ﷺ فأمره أن يعتق رقبة، قال: فضربْتُ صفحة رقبتي بيدي، وقلت: والذي نفسي بيده ما أملك غيرها، قال: فصم شهرين، قلت: وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام، قال: فتصدق، فقلت: والذي بعثك بالحق، لقد بتْنا ليلتنا هذه وحْشاً - أي بدون طعام- ما لنا عشاء، قال: اذهب إلى صدقة بني زُريْق فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك وَسقا من تمر، ستين مسكينا، ثم استعن بسائرها عليك وعلى عيالك، قال: فرجعتُ إلى قومي فقلت: وجدتُ عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السّعة والبركة، قد أمر لي بصدقتكم، فادفعوها إليّ، فدفعوها إليه[1].

* * *

(١) ينظر: نص الحديث في المسند (٤/٣٧) (١٦٤٢١) قال محققوه: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وأبي داود برقم (٢٢١٣)، وصحيح سنن أبي داود (١٩٣٣)، وابن ماجة برقم (٢٠٦٢)، والترمذي برقم (٣٢٩٩) وحسنه، والطبراني (٦٣٣٣)، والبيهقي (٧/٣٩٠)، وجمع الفوائد (١/٦٢٠)، والحاكم (٢/٣٠٢)، وهو في مصنف عبد الرزاق (١١٥٢٨) بنحوه، قال الترمذي: والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم في كفارة الظهار.

سُورَةُ الْحَشْرِ (٥٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الحشر)، هي السورة التاسعة والخمسون في ترتيب المصحف، والثامنة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة البينة، وقبل سورة النصر، في السنة الرابعة من الهجرة، وكان نزولها عقب إخراج بني النضير من القرية التي كانوا يسكنون فيها، واسمها (الزّهْرة) في ضواحي المدينة، وكان اليهود قد ذهبوا إلى المدينة، قرب هجرة النبي ﷺ إليها، انتظارا لقدومه، كما كانوا يقرؤون في التوراة، فلما جاءهم محمد ﷺ بأوصافه وعلاماته التي عرفوها في كتبهم كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

وتسمى (سورة الحشر)، لوقوع لفظ الحشر في أولها، ويسميها ابن عباس: سورة بني النضير، لأن قصتهم ذُكرت فيها.

فعن سعيد بن جبير، قال: قلت: لابن عباس رضي الله عنهما: (سورة الحشر، قال: قل: بني النضير)[1].

وفي البخاري عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، مازالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى ظنوا أنها لم تُبق أحدا منهم إلا ذُكر فيها، قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر، قال: قلت: سورة الحشر؟ قال: نزلت في بني النضير)[2]. وقد أراد ابن عباس أن يكون للسورة اسمين.

وسماها النبي ﷺ سورة الحشر كما في حديث معقل بن يسار ﷺ عند الترمذي وغيره أن النبي ﷺ قال: «**من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من**

(١) صحيح البخاري برقم (٤٠٢٩، ٤٨٨٣).

(٢) البخاري برقم (٤٨٨٣)، وصحيح مسلم برقم (٣٠٣١).

الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وَكَّل الله به سبعين ألف ملك يُصَلُّون عليه حين يمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيدا، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة»(١).

وهي سورة مدنية باتفاق، وعدد آياتها أربع وعشرون آية باتفاق علماء عدّ الآي.

وعدد كلماتها: أربع مئة وخمس وأربعون كلمة، وهي ألف وتسع مئة وثلاثة عشر حرفاً.

أغراض السورة:

بدأت السورة بتمجيد الله تعالى وتنزيهه، فالكون كله يشهد بوحدانية الله تعالى وعظيم قدرته، والمحور الرئيس الذي تدور عليه السورة: هو قصة يهود بني النضير، الذين أجلاهم النبي ﷺ عن المدينة، فأخرجهم من حصونهم وقِلَاعِهِم المنيعة، بعد أن نقضوا عهد النبي ﷺ وكانوا يرون أنه لا تُردّ له راية، فلما كانت محنة يوم أُحد ارتابوا في شأنه، وتحالفوا مع قريش وغَدَروا، فلما رجع النبي ﷺ من غزوة أُحُد تبين له معتقد بني النضير وغَدْرِهم وموالاتهم للكفار، فحاصرهم وعاهدهم على أن يُجْلِيهم عن أرضهم فارتحلوا إلى خيبر والشام وغيرهما.

وتَبِعَ ذلك موضوع الفيء والغنيمة وما يتعلق بهما من شروط وأحكام، ومن ذلك أن الفيء - وهو الذي حصل للمؤمنين بدون حرب ولا قتال - يختص بالفقراء دون غيرهم.

وفي أعقاب ذلك نوّهت السورة بفضل المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.

وفي مقابل ذلك تحدثت السورة عن المنافقين الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام، فبينتْ جُبْن اليهود، وضَربتْ للمنافقين أسوأ الأمثال، حيث مثّلتْهم بالشيطان الذي يُغري الإنسان بالكفر والضلال ثم يتبرأ منه.

ووجّهت السورة نداء إلى المؤمنين تأمرهم فيه بتقوى الله تعالى، وترهّبهم من اليوم

---

(١) المسند (٥/٢٦) برقم (٢٠٣٠٦) بإسناد ضعيف؛ لضعف خالد بن طهمان، ضعّفه ابن معين، وانظر آخر السورة وأخرجه الترمذي برقم (٢٩٢٢) قال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب ولا مال ولا بنون، وتبين أن مصير السعداء والأشقياء لا يستويان، وأن الفارق كبير بين أهل الجنة وأهل النار، وتنهاهم عن التشبه بالفاسقين الذين خرجوا عن طاعة ربهم فكان عاقبة أمرهم خُسْراً.

وختمت السورة بذكر نحو عشرين اسماً من أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، وفيها تنزيه الله تعالى عن كل نقص، حتى يتناسق بدء السورة مع ختامها.

هذا: وقد تحدثت الآيات الخمس الأولى من السورة عن قصة إجلاء بني النضير.

وتحدثت الآية السادسة والسابعة عن حكم الفيء وكيفية توزيعه.

وتحدثت الآية الثامنة عن المهاجرين، والآية التي بعدها تحدثت عن الأنصار، أما الآية العاشرة فتحدثت عن التابعين ومَنْ بعدهم من أهل الإيمان.

والسبع آيات التي تتوسط السورة من الآية ١١-١٧ تناولت الحديث عن المنافقين الذين لا يَروْن حرجاً في أن يعيشوا مع اليهود، ويقاسموهم حياة خشنة أو ناعمة ويُطَبِّعُون علاقاتهم بهم.

وتُبرِز السورة، طبيعة اليهود التي لا تختلف في الحاضر والمستقبل عن الماضي، فهم ناقضون للعهود دائماً ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ [البقرة:١٠٠] يُغَرِّرُون بمن تحالف معهم ويَخْذُلونه، وشأنهم شأن غيرهم من الكفار، والنار عاقبة كل منهم.

ويأتي التعقيب في آخر السورة على أحداث اليهود ومَنْ سار في ركابهم، بتوجيه الخطاب للمؤمنين أن يتقوا الله تعالى ويعملوا ليوم الحساب والجزاء، ولا يكونوا كغيرهم ممن نسوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم، لأن أهل النار وأهل الجنة لا يستويان.

وتشير الآية الحادية والعشرون إلى أن لهذا القرآن أثر كبير في النفوس، فهو يَهُزُّ القلب هزًّا، ويحرك الضمير والوجدان، ولو نزل على الصخرة الجامدة لتأثرت به وخشعت له.

وفي الآيات الثلاث الأخيرة عود على ما بدأت به السورة من تسبيح الله تعالى في ظلال نخبة من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

قصة بني النضير:

بنو النضير: هم جماعة من اليهود، من ذرية الكاهن بن هارون، هم وبنو قريظة، وكان يقال للقبيلتين: الكاهنان[(١)].

والكاهن هو الذي يحفظ الديانة بيده ويد ذريته، وكان هارون عليه السلام يحفظ الملة الإسرائيلية، وكان هؤلاء اليهود قد نزلوا المدينة على إثْر فتن في بني إسرائيل، انتظاراً منهم لمقْدم محمد ﷺ[(٢)].

سبب تواجد اليهود في المدينة:

وذلك أن موسى عليه السلام كان قد أرسل طائفة من بني إسرائيل لقتال العماليق فتقاعسوا، فلما مات موسى عليه السلام رجعوا إلى أريحا وما حولها، فقال لهم قومهم: أنتم عصيتم أمر موسى فلا تدخلوا بلادنا، ولما كانوا يعلمون بظهور نبي جديد كما في كتبهم، خرجوا إلى موطن هجرته ﷺ ليقيموا فيها حتى يظهر النبي الخاتم، فيكونوا أول من يؤمن به، فلما ظهر النبي ﷺ كانوا أول من كفر به، فلعنة الله على الكافرين، وكانوا قد نزلوا في قرية يقال لها: الزَّهْرَة، قُرب المدينة في شمال قباء، وصار لهم فيها نخل وأموال كثيرة، وكان لهم فيها ستة حصون.

ولما بُعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أُبيّ بن سلول وغيره يهددونهم بسبب إيوائهم للنبي ﷺ وأصحابه، ويتوعّدونهم بالحرب، هم والمسلمون معهم، فنصحهم النبي ﷺ بأن قريشا تريد أن تجعل بأسهم بينهم، فلما كانت غزوة بدر وانتصر المسلمون، قال بنو النضير: إنه النبي الأمي الذي نجد نعته في التوراة، وكان النبي ﷺ حين قدم إلى المدينة، كتب بينه وبينهم صلحا على أن يكونوا محايدين، ليسوا معه ولا عليه.

---

(١) تفسير ابن عطية (٢٨٣/٥).

(٢) تفسير فتح القدير (١٩٢/٥).

جبريل يأمر الرسول بقتل كعب بن الأشرف:

فلما وقعت غزوة أحُد، ارتاب اليهود في شأن النبي ﷺ ونقضوا العهد الذي بينهم وبينه، وأظهروا العداوة للنبي ﷺ فخرج كعب بن الأشرف، ومعه أربعون رجلاً إلى مكة، وحالفوا قريشاً عند الكعبة، ورجع كعب إلى المدينة، ونزل جبريل، فأخبر النبي ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبوسفيان وأمره بقتل كعب بن الأشرف، فقتله محمد بن مسلمة غيلة في حصنه، وكان أخاً له من الرضاع.

تآمر اليهود على قتل النبي ﷺ:

وكان النبي ﷺ قد اطلع على خيانة منهم حين أتاهم في دية المسلميْن اللذيْن قتلهما عمرو بن أمية الضمْري بعد انصرافه من غزوة بئر معونة التي استشهد فيها سبعون من قراء الصحابة، ونجا عمرو من القتل، وأسَرهُ المشركون، فأطلقه عامر بن الطفيل، ولمَّا كان في طريقه إلى المدينة، قتل عمرو رجلاً من بني عامر، يظن أنه يثأر بهما، وكان لبني عامر عقد أمان، مع النبي ﷺ فلما قدم عمرو، وأَخبَرَ النبي ﷺ بذلك، قال له: لقد قتلْت قتيلين، وسوف أدفع ديتهما، فخرج إلى بني النضير يطلب منهما المشاركة في دفع دية الرجلين بمقتضى ما بينهما من اتفاق، فتآمروا على الغدر بالنبي ﷺ وهو عندهم.

١ - وقال: عمرو بن جحاش: أنا أظهر على البيت الذي يجلس تحته، فأطرح عليه صخرة، فجاء جبريل وأخبر النبي ﷺ بما أراد القوم، فنهض من مجلسه متوجهاً إلى المدينة، وكان سلام بن مشكم قد قال لهم: لا تفعلوا فوالله لَيُخْبَرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه.

٢ - ومرة أخرى بيّتُوا نية الغدر بالنبي ﷺ حيث طلبوا منه أن يخرج إليهم في ثلاثين من أصحابه، ثم رأوا أن هذا العدد كثير، فطلبوا تعديله إلى ثلاث، قالوا: ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتّبعناك، ففعل، واشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار، مسلم، تخبره بأمر بني النضير، فأخبر أخوها النبي ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع، وأرسل إليهم محمد بن مسلمة، يطلب منهم الخروج، وأمهلهم عشراً.

حصار بني النضير وخروجهم من المدينة:

وفي ربيع الأول سنة أربع من الهجرة، سار إليهم النبي ﷺ والمسلمون معه، وأمرهم أن يخرجوا من قريتهم، ولا يساكنوه فيها، وقال لهم: قد أمهلتكم عشراً، فمن وجدته بعد ذلك ضربت عنقه، وأخذوا يتجهزون للخروج، فأرسل إليهم زعيم المنافقين عبدالله ابن أبي يقول لهم لا تخرجوا وسوف أمدكم بألفين، يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاءكم من غطفان، فاشتد ساعدهم، وقال رئيسهم حُيي بن أخطب: إنا لن نخرج، واصنع مابدا لك، فحاصرهم النبي ﷺ يحمل اللواء علي بن أبي طالب، ولم ينصرهم أحد ممن وعدوهم أن يكونوا معهم، فلما رأَوْا ذلك قذف الله في قلوبهم الرعب، فطلبوا من النبي ﷺ الصلح، فأبى إلا الجلاء عن ديارهم، فأخذوا يُخْرِبون بيوتهم بأيديهم، ويحملوا معهم ما ينتفعون به من الأبواب والأخشاب، فحمل كل ثلاثة أبيات، حِمْل بعير، وخرجوا، فمنهم من لَحِق بخيبر، ومنهم من لحق بأريحا وأذرعات، وخرج قليل منهم إلى الحيرة.

ولم يَسْلَم من بني النضير إلا أهل بيتين هما: آل أبي الحقيق، وآل حُييّ بن أخطب، فإنهم لَحِقُوا بخيبر، ولحقت طائفة منهم بالحيرة.

وأسلم من بني النضير رجلان هما: يامِن بن عُميْر، وأبوسعد بن وهب، وترك بنوا النضير خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاث مئة وأربعين سيفا، وقد قسمها النبي ﷺ على المهاجرين دون الأنصار، لأنهم هم الذين تركوا ديارهم وأموالهم، وأصبحوا بحاجة إلى المعونة، ولم يُعط من الأنصار إلا ثلاثة أظهروا حاجتهم وهم: سهْل بن حُنيف، وأبو دَجانة، والحارث بن الصّمة، أما النخيل فقد خص الله به رسوله [١].

---

(١) ينظر في هذا: أبوداود برقم (٣٠٠٤)، وفتح الباري (٧/٢٥٥) عن ابن مردويه بإسناد صحيح عن الزهري، وشرح المواهب اللدنية للزرقاني (٢/٩٥)، وطبقات ابن سعد (٢/٥٧)، وابن هشام (٢/١٩٠)، وتفسير الطبري (٢٨/٢١)، والبداية لابن كثير (٤/٧٥).

قال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: كانت بني النضير بعد بدر بستة أشهر[(١)] .

هذا: ولم يُخمِّس النبي ﷺ أموال بني النضير، بل جعلها خالصة له يُنفقها في مصالح المسلمين، لأن الله تعالى قد أفاء عليه بها، ولم يوجف المسلمون عليها من خيل ولا ركاب، وكان النبي ﷺ قد استولى على أرضهم وديارهم، وأخرجهم من حصونهم صاغرين مُهانين.

وهكذا كان اليهود أذلاّء في مقابلة المسلمين لا شوكة لهم ولا قوة، ولا عزة لهم ولا منعة، فما بالهم اليوم يشمخون بأنوفهم ويشترطون على المسلمين أصحاب الأرض في فلسطين ما يشاؤون، ولا يريدون أن تقوم لهم قائمة، ولا أن يعود اللاجؤون إلى ديارهم، ولا يكون لهم كيان ولا قوة، إنه لمن عجائب الزمن أن يُصبح العدوّ المحتل هو سيد الموقف الذي يُملي شروطه. وأن يكون صاحب الأرض تحت رحمة المغتصب[(٢)] !!

* * *

(١) البخاري مع الفتح (٧/٣٢٩).

(٢) في ٢١/ ٦/ ١٤٣٠ هـ أعلن رئيس وزراء الكيان الصهيوني (نتنياهو) أن القدس عاصمة أبدية لإسرائيل، وأنه لا عودة للّاجئيين الفلسطينيين، وأن على أهل فلسطين أن يعترفوا بالدولة اليهودية العبرية، وأنه يوافق على قيام دولة فلسطينية منزوعة السلاح على ساحة الأرض التي يريدها بعد الاعتراف بهم! فاللهم ارحم ضعفنا، واجبر كسرنا، وغيّر ما بنا، وهيء لنا أسباب النصر.

سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ (٦٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الممتحنة) هي السورة الستون في ترتيب المصحف، والثانية والتسعون في ترتيب النزول عند جابر بن زيد، نزلت سنة ست من الهجرة، بعد (سورة العقود) وقبل (سورة النساء).

وهي سورة مدنية خالصة، وعدد آياتها ثلاث عشرة آية باتفاق، وهي ثلاث مئة وثمان وأربعون كلمة، وألف وخمس مئة وعشرة أحرف.

وتُسمَّى سورة الممتحنَة، بفتح الحاء، أي سورة المرأة التي امتُحنتْ في إيمانها، وهي التي حملتْ كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، ويشير إلى هذا أول آية في السورة.

ويقال: سورة الممتحِنة، بكسر الحاء، أي السورة التي امتحنت المهاجرات في إيمانهن، فأُسْنِد الامتحان إلى السورة، كما سُمِّيتْ سورة براءة، الفاضحة، أي التي فضحت المنافقين، وينظر في هذا المعنى إلى الآية العاشرة من السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾.

وقال السخاوي في كتابه جمال القراء: وتسمى سورة الامتحان، وسورة المودّة.

فهذه أربعة أسماس.

موضوع السورة:

إن الوفاء للعقائد والمبادىء، يفرض الولاء لمن يواليها، والبراء ممن يعاديها، واعتراض من يعترضها، وهكذا فعل أتباع الأنبياء في كل عصر ومصر.

ومن الناس من يرفض الاستسلام، ويصبر ويصابر حتى يتحقق له النصر، ومنهم من يستبعد طريق الكفاح، فيقبل الواقع المر، ويَسْقُط أمام عدوه، ويَمُدُّ إليه يده حرصاً على

سلامته وسلامة أهله.

وموضوع هذه السورة هو الولاء والبراء، فهي تنْهَى عن موالاة غير المسلمين، واتخاذهم أخلاء وأحباباً وأمناء من دون المؤمنين، وتُبيّن أن غير المسلم لا يصْفُوا للمسلم أبداً، وأنه إن ظفر به ظهرت له عداوتُه.

والسورة تدعو إلى التأسِّي بإبراهيم عليه السلام في وجوب الولاء والمحبة بيْن من جمعتْهم كلمة التوحيد.

وتدعو إلى عدم موالاة غير المسلمين في شيء، أمّا حُسن معاملة غير المحاربين منهم، فهو شيء آخر يأمر به الإسلام، والولاء غير حُسن المعاملة.

وينسحب هذا الحب في الله والبغض في الله، على كل قريب وبعيد في النسب والصلة.

وبينت السورة أن الإنسان لا ينفعه إلا عمله الصالح، وأن أقاربه وأصهاره لن تغني عنه من الله شيئاً.

كما ذكرت السورة مبايعة النبي ﷺ للنساء، وشروط هذه البيعة.

وفي السورة **ثلاث نداءات للمؤمنين:**

النداء الأول: ينهى عن موالاة غير المسلمين الذين يقاتلون المسلمين ويعادونهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية.

والنداء الثاني: يبين حكم النساء المؤمنات اللاتي يتركْن أزواجهن من غير المسلمين، وما يتعلق بذلك من وجوب الفراق بينهما، وتحريم الزواج من المشركات الوثنيات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ الآية.

والنداء الثالث للمؤمنين: ينهى عن موالاة أعداء الله وأعداء المؤمنين مرة أخرى في ختام السورة كما في بدايتها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

وفيها نداء خاص للنبي ﷺ وهو يبايع النساء كما بايع الرجال ويأخذ عليهن العهود على طاعة الله تعالى والبعد عن محارمه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ

بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ ﴾ الآية.

وللربط بين أول السورة وآخرها، فقد خُتمت السورة بما بدأت به عن الولاء والبراء، ليتناسب الكلام في البدء والختام.

قصة حاطب بن أبي بلتعة:

جاء في هذه القصة روايات كثيرة في كتب الحديث والتفسير والسِّير والتاريخ وأسباب النزول ونحوها، وسوف أقتصر في قصة حاطب بن أبي بلتعة على بعض روايات القصة، وبعض روايات سبب النزول:

أولاً: مما جاء في قصة حاطب:

١ - في الصحيحين وغيرهما عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عليّ ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ وأبا مَرْثَد، والزبير بن العوام، وكلنا فارسٌ، وقال: «**انطلقوا حتى تأتوا روْضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين، معها كتاب من حاطب إلى المشركين**» فأدركناها تسير على بعير لها، حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا: الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب، فأنخْناها، فالتمسْنا فلم نَر كتاباً، فقلنا: ما كذَب رسول الله ﷺ لتُخرِجنّ الكتاب أو لنُجرِّدنّك، فلما رأت الجِدّ أهوت إلى حُجْزتها، وهي محْتجزة بكساء فأخرجتْه، فانطلقا بها إلى رسول الله ﷺ فقال عمر: يا رسول الله، قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدَعْني لِأَضْرِبَ عنقه، فقال النبي ﷺ لحاطب: «**وما حملك على ما صنعت؟**» قال حاطب: والله ما بي إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله، أردتُ أن تكون لي عند القوم يدٌ، يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال النبي ﷺ: «**صدَق، ولا تقولوا له إلا خيراً**» فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدَعْني فلأضرب عنقه، فقال «**أليس من أهل بدر؟**» فقال: «**لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجب لكم الجنة، أو: قد غفرت لكم،**

فدَمَعتْ عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم»[(١)] .

٢ - وفي رواية عمر بن الخطاب ﷺ قال: كتب حاطب بنُ أبي بلتعة إلى المشركين بكتاب، فجيء به إلى النبي ﷺ فقال: «**يا حاطب، ما دعاك إلى ما صنعت؟**» قال: يا رسول الله، كان أهلي فيهم، فخشيتُ أن يضرمُوا عليهم، فقلت: أكتب كتاباً لا يضر الله ورسوله، فقال عمر: أَضْرِب عنقه يا رسول الله فقد كفر؟ فقال ﷺ: «**وما يدريك يا ابن الخطاب أن الله اطّلع على أهل هذه العصابة من أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[(٢)] .

٣ - وفي حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ أمّن الناس يوم فتح مكة إلا أربعة: عبدَ العُزَّى بنَ خَطل، ومِقْيَس بنَ صُبابة، وعبدَ الله بنَ سعد ابن أبي سرح، وأم سارة وهي المرأة التي حملت كتاب حاطب إلى قريش، ولمّا أدركها رسولا النبي ﷺ أنكرت وفتشاها ولم يجدا شيئًا، ولما هدّداها بالسيف أخرجت الكتاب من قرون شعرها فدفعتْه إليهما[(٣)] .

قال الحافظ ابن حجر: قلت: قد ذكروا أن النبي ﷺ كان أهدر دمَها ثم أمنها يوم الفتح. قال ابن حجر: وهي أم سارة التي أعطاها حاطب بن أبي بلتعة الكتاب إلى قريش فنزلت فيه ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ سمّاها قتادة عن أنس في حديث مختصر أخرجه ابن مندة من طريق عن قتادة عن أنس، أن أم سارة أَمة لقريش، أتت النبي ﷺ فشكت إليه الحاجة، ثم إن رجلاً بعث معها كتاباً إلى أهل مكة ليحفظوا عياله، فنزلت

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨٩،٣٠٠٧،٣٩٨٣)، وصحيح مسلم برقم (٢٤٩٤)، وينظر: المسند (٧٩/١) (٦٠٠،٨٢٧) ٤٨٩،٣٠٠٧ وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبوداود برقم (٢٦٥١)، والترمذي برقم (٣٣٠٥)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٨٥)، والطبري (٣٨/٢٣)، وابن حبان (٦٤٩٩)، والبيهقي (١٥٢/٣)، وعبد بن حميد (٨٣).

(٢) أخرجه أبويعلى كما في المطالب العالية (٤١٥٢)، والحاكم (٧٧/٤)، والضياء المقدسي (١٧٥-١٧٧)، وقال الحافظ: إسناده صحيح.

(٣) ينظر: تمام الحديث عند ابن مردُويه كما في تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٤٥١/٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ قال أبو نعيم: ذكرها في الصحابة ونسبها إلى الإسلام[1]. وقوله (أَمة لقريش) أي لعمرو بن هاشم بن المطلب.

ثانيا: جاء في **أسباب النزول**: أن الآية الأولى من هذه السورة نزلت في حاطب بن أبي بلْتعة، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيْفي بن هاشم، أتت رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينه، ورسول الله ﷺ يتجهّز لفتح مكة، فقال لها: أمُسْلمةً جئْتِ؟ قالت: لا، قال: فما جاء بك؟ قالت: أنتم الأهل والعشيرة والموالي، وقد احتجْتُ حاجةً شديدة، فجئتُ إليكم لتُعطوني، قال لها رسول الله ﷺ: «فأين أنت من شباب أهل مكة؟» وكانت مُغنّية، فقالت: ما طُلب مني شيء بعد وَقْعَة بدر، فحث رسول الله ﷺ بني عبد المطلب، فكسَوْها، وحملُوها، وأعطَوْها، فأتاها حاطب بن أبي بلْتعة، فكتب معها كتاباً إلى أهل مكة، وأعطاها عشرة دنانير، على أن تُوصِل الكتاب إلى أهل مكة، وكتب في الكتاب: من حاطب إلى أهل مكة، إن رسول الله يريدكم، فخذوا حذركم، فخرجتْ به سارة، ونزل جبريل عليه السلام، فأخبر رسول الله ﷺ بما فعل حاطب.

فبعث رسول الله ﷺ عليّاً، وعمّاراً، والزبير، وطلحة، والمقداد، وأبا مَرْثَد، وقال: «**انطلقوا، حتى تأتوا روْضة خاخ** - وهي مكان قريب من المدينة - **فإن فيها ظعينة** - أي امرأة مسافرة - **معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها، وخلُّوا سبيلها، فإن لم تدفعه لكم فاضربوا عنقها**»، فخرجوا حتى أدركوها، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، ففتّشُوا متاعها فلم يجدوا شيئاً، فهمُّوا بالرجوع، فقال علي: والله ما كَذَبْنا، ولا كُذِبْنا، وسلَّ سيفه، وقال: أَخرجي الكتاب، وإلا ضربتُ عنُقك، فلما رأت الجدّ أخرجتْهُ من ذُؤابتها - أي من ضفيرة شعرها - فخلوا سبيلها، ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ فأرسل إلى حاطب، فأتاه، فقال له: (**هل تعرف الكتاب؟**) قال: نعم، قال: «**فما حملَك على ما صنعت؟**» فقال: يا رسول الله، والله ما كفرتُ منذ أسلمت، ولا

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (١٤/ ٣٧٤) رقم (١٢١٧٨).

غشَشْتُك منذ نصحْتُك - أي منذ أخلصت لله - ولا أحببْتُهم منذ فارقْتُهم، ولكن، لم يكن أحد من المهاجرين إلا وَلَهُ بمكة من يمْنع عشيرته، وكنتُ غريباً فيهم، وكان أهلي بين ظهْرانَيْهم، فخشيتُ على أهلي، فأردتُ أن أتّخذ عندهم يداً، وقد علمتُ أن الله يُنْزل بهم بأسه، وكتابي لا يُغني عنهم شيئا، فصدّقه رسول الله ﷺ وعذَرَهُ.

ونزلت هذه السورة تنهي حاطباً عما فعل، وتنهي المؤمنين أن يفعلوا كفعله، فقام عمر ابن الخطاب فقال: يا رسول الله، دعْني أضرب عنُق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ:

«**وما يدريك يا عمر، لعل الله اطّلع على أهل** بدر، **فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[1].

ورد أن حاطباً كتب إلى قريش يقول لهم: إن رسول الله ﷺ يريد غزوكم في مثل الليل والسيل، وأقسم بالله لو غزاكم وحده لنُصِر عليكم، فكيف وهو في جمع كثير[2].

ولنا مع قصة حاطب أربع وقفات:

الأولى: أن أول سورة الممتحنة نزلت أوّلاً في شأن حاطب، حليف بني أسد بن عبدالعزّى، وكان من المهاجرين، ومن أهل بدر، وكان مُلْصَقاً بقريش، ولم يكن منهم، ولكن الحكم عام في كل من يُوالي أعداء الله تعالى، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الثانية: أن المرأة التي حملت الكتاب، جاء في بعض الروايات أنها أم سارة كَنُود، أمة

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٣١٥) ولم ينسبه لأحد، وقد ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢٣١/٨)، وهو في تفسير الخازن (٢٥٥/٤)، والألوسي (٦٥/٢٨)، وغيرهم، والقصة عند السيوطي في الدر المنثور ٢٠٢/٦ وممن نسبها إليهم: الحميدي، وعبد بن حميد، وأبي عوانة، وابن حبان (٤٧٩٧)، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي، وأبي نعيم في الدلائل، وهذا بالإضافة إلى ما سبق ذكره في الحاشية السابقة، وانظر: رواية جابر بن عبدالله في المسند برقم (١٤٧٧٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وأبي يعلى (٢٢٦٥).

(٢) تفسير ابن عطية (٢٩٣/٥).

لقريش، وفي بعض الروايات أنها سارة مولاة عمرو بن هاشم بن المطلب التي كان معها كتاب حاطب، أمنها النبي ﷺ يوم الفتح [١]، وهكذا فقد اختلف في اسمها وكنيها، وكانت امرأة مُشْركة مُغنّية في مكة، وأن هذه المرأة جاءت مُتجسسة.

الثالثة: أما الوقت الذي حدثت فيه هذه القصة، فقيل: إنه كان قبل فتح مكة، وقيل إنه كان قبل صلح الحديبية، وهو الأرجح، لِمَا في رواية الحارث عن عليّ عند الطبري: أن النبي ﷺ لمّا أراد أن يأتي مكة أفشى في الناس أنه يريد خيبر، وأَسرَّ إلى ناس من أصحابه، منهم حاطب، أنه يريد مكة، فكتب حاطب إلى أهل مكة، وكَوْنه ﷺ أفشى أنه يريد خيبر، يدل على أن ذلك كان قبل عمرة الحديبية، لا قبل فتح مكة، لأن خيبر فُتحت سنة سبع، أي قبل فتح مكة، ويؤيده أن هذه المرأة التي أرسل معها حاطب كتابه، قدِمتْ إلى المدينة بعد غزوة بدر بسنتين، كما رواه الطبري [٢].

الرابعة: إن سعة صدر النبي ﷺ جعلتْه لم يتعجل في عقاب حاطب، وإنما سأله وعذَرَه على لحظة ضعفه الطارئة فقال له: (ما حملك على ما صنعت؟) وأقال عثْرته، والتمس له العذر، ليعينه ويجعله ينهض من عثرته...

جاء عن الحسن أن حاطباً قال: أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله، وما كفرتُ منذ أسلمت، ولا شككت منذ استيقنت، ولكني كنت امرءاً لا نسب لي في القوم، فكتبتُ إليهم أدْرأُ عن أهلي ومالي، وقد علمتُ أن ذلك لن يغني عنهم من الله شيئاً [٣].

* * *

---

(١) كذا قال ابن حجر العسقلاني في الإصابة (١٣/ ٤٥٥) برقم (١١٤٠٥).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (١٣٠/١٣)، وتفسير الطبري (٣٨/٢٣)، وابن كثير (٨٤/٨).

(٣) وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن كما في الدر المنثور (٤٠٧/١٤).

سُورَةُ الصَّفِّ (٦١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الصف) هي السورة الحادية والستون في ترتيب المصحف، والثامنة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التغابن) وقبل (سورة الفتح).

وهي سورة مدنية عند الجمهور، كان نزولها بعد وقْعة أحد.

وعدد آياتها أربع عشرة آية باتفاق أهل العدد.

وهي مئتان وإحدى وعشرون كلمة، وتسع مئة حرف.

وتُسمَّى سورة الصف، لوقوع لفظ ﴿صَفًّا ﴾ فيها، وهي التسمية المشتهرة من عهد النبوة، وذكر السيوطي والألوسي أنها تسمى أيضاً (سورة الحواريين)، لذكر لفظ الحواريين فيها. فقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة الحواريين بالمدينة.

ومما ورد في سبب النزول أن عبد الله بن سلام ﷺ قال: قعدْنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرْنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناه، فأنزل الله سورة الصف، قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ[1].

ومن ذلك ما جاء عن مقاتل: أن المؤمنين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناه، ولبذلْنا فيه أموالنا وأنفسنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى

(١) سنن الترمذي برقم (٣٣٠٩)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٣٦)، وبنحوه في المسند (٤٥٢/٥) برقم (٢٣٧٨٨،٢٣٧٨٩) وهو إسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، والحاكم في المستدرك (٤٨٦/٢) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والدارمي في سننه (٢٠٠/٢) برقم (٢٣٩٠)، قال ابن حجر في الفتح (٤١٩/٨): وإسناده صحيح، وأخرجه ابن حبان برقم (١٥٨٩)، والبيهقي في الشعب برقم (٣٩٠٧)، والسنن (١٥٩/٩).

سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ الآية:٤ وأنزل ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الآية:١٠.

ولما ابتلاهم الله بيوم أُحُد وَلَّوْا مدبرين، وكرهُوا الموت، وأحبّوا الحياة، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾[1] الآيتان:٢،٣.

وقد نزل الأمر بالجهاد في سور أخرى قبل نزوله في هذه السورة.

ويكاد يكون موضوع السورة، هو الجهاد في سبيل الله، فهو الذي تدُور حوله أسباب النزول.

وقد بدأت السورة بتنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله، ثم حذرت المؤمنين من خُلْف الوعد، وعدم مطابقة الأقوال للأفعال.

وبعد أن ذكرت السورة جانباً مما قاله موسى ﷺ لقومه، وما قاله عيسى ﷺ لقومه، أتبعتْ ذلك ببيان ما جُبل عليه الكافرون من تكذيبٍ للحق، ومن كراهية لظهور نور الإيمان.

وقد استهدفت السورة **أمرين هامين**:

الأمر الأول: من أول السورة إلى الآية التاسعة، وفي هذا المقطع إشارة إلى المنهج الإلهي للبشر الذي جاءت به الرسالات الثلاث الرئيسة: اليهودية والنصرانية والإسلام.

أما اليهود فقد آذوْا موسى عليه السلام وأتْعبوه، وفقدوا الشجاعة في مقاتلة عدوّه، وضيّعوا كتاب الله تعالى الذي نزل عليهم..

أما عيسى عليه السلام فهو صاحب رسالة محدودة الزمان والمكان، وقد أرسله الله تعالى ليمهِّد للرسالة العامة التي تهدي البشر كلهم إلى توحيد الله تعالى، وكان لولادة عيسى عليه السلام على نحو فريد من نوعه، سبب في انتشار رسالته في طول الأرض وعرضها.

وقد انتهت هذه الخطوات إلى استقرار دين الله تعالى في أرضه على يد رسوله الأخير ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الآية:٩.

أما الأمر الآخر، فهو من الآية العاشرة إلى نهاية السورة، وهو مقطع يتكلم عن القوة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (١٤/٤٤٥).

التي لابد منها لمساندة الحق ودعمه، فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة.

وقد حفلت السورة بآيات الجهاد في سبيل الله لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته، وعَدَّتْ ذلك بعد الإيمان بالله ورسوله، هو التجارة الرابحة التي يتحقق بها سعادة المرء في الدنيا والآخرة، وعلى المجاهدين في سبيل الله أن يكونوا يداً واحدة، وصفاً واحداً، ضد عدو الله وعدوهم، وأن يقتدُوا في بذل النفس والنفيس، لنُصْرة دين الله تعالى، بالحواريين في نُصْرتهم لنبي الله عيسى عليه السلام،.

وقد شرع الإسلام الجهاد لتأمين نشر الدعوة، ولمنع الحيلولة بين الناس وبين ظهور دين الإسلام على الديانات التي سبقتْه ومهّدتْ له في أطوارٍ من تاريخ البشرية، ولإقامة منهج الله تعالى في أرضه إلى قيام الساعة، بعد أن انحرف أتباع الرسالات السابقة عن توحيد الله تعالى وزاغت قلوبهم عن الحق..

ولذا: فقد ذكرت السورة مَثَلَيْن على ذلك هما رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام، وكانت رسالة عيسى، امتداداً لرسالة موسى عليهما السلام، وقد انتهت قوامة قوم موسى على دين الله، لمّا زاغوا وانحرفوا وضلّوا عن سبيله، ولم يعودوا أمناء على شرع الله تعالى.

وقد جاء عيسى عليه السلام ليصل بين الدين الكتابيّ الأول، والدين الكتابيّ الأخير، فيمهِّد للرسالة الأخيرة ويبشر بها، ويُسلِّم أمانة الوحي الإلهي التي حملها موسى وعيسى عليهما السلام إلى الرسول الذي بشَّر به، وهو محمد ﷺ.

وقد خُتمت السورة بدعوة أهل الإيمان إلى نصرة دين الرحمن، كما فعل الحواريون مع عيسى عليه السلام حين دعاهم إلى نصرة دين الله، فاستجابوا له ونصروا دينه..

* * *

سُورَةُ الْجُمُعَةِ (٦٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الجمعة هي السورة الثانية والستون في ترتيب المصحف، والسادسة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت غالباً دفعة واحدة سنة ست من الهجرة بعد سورة التحريم وقبل سورة التغابن.

وسميت سورة الجمعة: لورود لفظ يوم الجمعة فيها، ولا يُعرف لها اسم غير ذلك، وهي سورة مدنية عند الجمهور، وعدد آياتها إحدى عشرة آية باتفاق علماء العدد، وهي ثمانون كلمة، وسبع مئة وعشرون حرفاً.

وكانت صلاة الجمعة قد فُرضت قبل نزول هذه السورة، وصلّى النبي ﷺ أول جمعة بعد يوم الهجرة في دارٍ لبني سالم بن عوف، كما أن أهل المدينة صَلّوْا الجمعة قبل قدوم النبي ﷺ إليها مهاجراً.

ومن الأحاديث الواردة في القراءة بها مع غيرها في صلاة الجمعة وغيرها:

١- حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر، يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [السجدة]، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان] وأن النبي ﷺ كان يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين[1].

٢- وعن جابر بن سمرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة: سورة الجمعة والمنافقون[2].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٨٧٩)، وأبوداود برقم (١٠٧٤،١٠٧٥)، والترمذي برقم (٥١٩)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة برقم (١١١٨)، والنسائي (١١١/٣)، والبيهقي (٢٠٠/٣)، وابن أبي شيبة (١٤٢/٢)، والنسائي في السنن الكبرى (١٧٣٥).

(٢) ابن حبان برقم (١٨٣٨) والبيهقي (٢٠٠/٣) وهو عند البزار (٣٧٥٩) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩١/٢) وفيه أبو مهدي سعيد بن سنان وهو ضعيف.

٣-وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين، وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ قال: وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما في الصلاة[1]

٤-وعن سمرة بن جندب ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾[2].

٥-وعن عبيد الله بن أبي رافع قال: استخلف مروان أبا هريرة على المدينة، وخرج إلى مكة، فصلى بنا أبو هريرة الجمعة، فقرأ بعد الحمد: سورة الجمعة في الأولى، و﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ في الثانية، قال: فأدركتُ أبا هريرة حين انصرف فقلت له: إنك قرأت بسورتين كان علي بن أبي طالب يقرأ بهما في الكوفة، فقال أبو هريرة: إني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بهما يوم الجمعة[3].

موضوع السورة:

١- الآيات الأربع الأُول من السورة تتناول بعثة خاتم الرسل، محمد ﷺ وتبين أنه الرحمة المهداة، الذي أنقذ الله به الناس من الشرك والضلال إلى العلم والإيمان، وأن هذه الرسالة كانت من بين العرب الأمّيين، ولكنها ليست خاصة بهم، بل هي لهم وللناس جميعا، من كان موجودا منهم على وجه الأرض وقت بعثته ﷺ في شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها، ومن يأتي بعدهم من الأجيال المتتابعة على مدى التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٨٧٨) وأبوداود (١١٢٢) وابن ماجة (١٢٨١) والترمذي (٥٣٣) والمسند (١٨٣٨٣) وهو حديث صحيح وانظر (١٨٣٨١) وابن حبان (٢٨٢١) والنسائي في الكبرى (١٧٥٠).

(٢) أخرجه أبوداود (١١٢٥) والنسائي في الكبرى (١٧٥١،١٧٨٧) والمسند (٢٠١٥٠) بإسناد صحيح ورجال ثقات وابن حبان (٢٨٠٨) والطيالسى (٨٨٨) وابن خزيمة (١٨٤٧) والطبراني في الكبير (٦٧٧٩).

(٣) صحيح مسلم برقم (٨٧٧) وأبو داود (١١٢٤) وابن ماجة (١١١٨) والترمذي (٥١٩) والمسند (٩٥٥٠) وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، وأخرجه ابن خزيمة (١٨٤٣) والنسائي في الكبرى (١٧٣٥).

وسورة الجمعة تقرر أن أمة الإسلام: هي الأمة المختارة لحمل الرسالة إلى عموم الجن والإنس إلى أن تقوم الساعة، وذلك بعدما تخلَّى بنو إسرائيل عن حمْل هذه الأمانة، فخانوها بالتحريف والتغيير، وانقطعت صلتهم بالسماء، وصاروا كالذي يحمل أسفارا، وهذه الحقيقة تحدثت عنها صدر السورة ووسطها، فبينتْ أن الله تعالى صرف الرسالة العامة عن أهل الكتاب، وابْتعث الرسول الخاتم من بين العرب الأميين، ليبلغ رسالته إلى العالمين، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

٢- وكان في هذا توطئة لذمّ اليهود الذين جاء ذكرهم في الآيات الأربع التالية، لأنهم حسدوا هذه الأمة على تشريفهم بحمل راية هذا الدين، وفيه إبطال لزعمهم أنهم أولياء الله، وبيان أنهم لما انحرفوا عن دين الله ولم يعملوا بما في التوراة شبههم القرآن بالحمار الذي يحمل أسفارا، لأنه لا يعلم ماذا فيها، ولا يعمل بها.

ومن جملة ما حسد اليهود المسلمين عليه : أن الله تعالى أعطاهم يوم الجمعة، بعد أن كان يوم السبت هو المفضل في الأسبوع.

والسورة تطلب من اليهود أن يدعوا على أنفسهم بالموت إن كانوا شعب الله المختار كما يزعمون، مع أن الموت آت لا محالة، فلا فرار ولا مهرب منه لكل مخلوق.

٣- ومن أول أغراض السورة التي نزلت من أجله: هو التحذير من التخلف عن صلاة الجمعة، وترْك كل ما يُشغل عنها عند النداء لها، فإن ما عند الله تعالى خير من اللهو ومن التجارة، والله خير الرازقين، وقد دعت السورة في الآيات الثلاث الأخيرة منها إلى المسارعة لأداء صلاة الجمعة، وحَرَّمْت عليهم العمل حين ينادى لها.

فصلاة الجمعة هو موضوع السورة الأساس، ولعل افتتاحها بالتسبيح تحريضًا للمؤمنين على أداء الفريضة وسماع الخطبة، فيوم الجمعة فيه الاجتماع الحاشد للمسلمين، وفيه ساعة مباركة لا يوافقها عبد مقبل على الله تعالى بدعوة أو عبادة أو تسبيح إلا تقبل الله منه وغفر له، واستحب الإسلام الغسل والطيب لهذا اليوم. وفي الآيات توبيخ لمن ينشغل عن صلاة الجمعة لسبب من الأسباب غير مشروع.

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ(٦٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المنافقون) هي السورة الثالثة والستون في ترتيب المصحف، والثانية بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الحج) وقبل (سورة المجادلة)، وكان ذلك سنة خمس من الهجرة، في أعقاب غزوة بني المصطلق على الأصح.

وهي سورة مدنية بالإجماع، وعدد آياتها إحدى عشرة آية باتفاق أهل العدد.

وهي مئة وثمانون كلمة، وتسع مئة وستة وسبعون حرفًا.

وسميت (سورة المنافقون) - بالرفع، على حكاية اللفظ الذي في أولها- لأنها تختص بذكر أحوال المنافقين وصفاتهم، وهكذا جاء اسمها في كتب التفسير والحديث، ومن ذلك حديث أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة، فيحرِّض بها المؤمنين، وفي الثانية بسورة المنافقين فيقرِّع بها المنافقين[(١)].

وفي حديث زيد بن أرقم ﷺ قال: فلما أصبحنا -وكانوا في سفر - قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين[(٢)].

وقد فضحتْ هذه السورة أحوال المنافقين، وكشفتْ عن صفاتهم الذميمة، ومقالاتهم الشنيعة في شأن الإسلام وأهله، وبينتْ دخائل نفوسهم، وحقدهم على الإسلام وأهله.

وحذَّرت السورة في نهايتها الذين آمنوا أن لا يشوبهم شائبة من النفاق - ولو في أدنى درجاته- ويكون ذلك بالتجرد إلى الله تعالى، وعدم الغفلة عن ذكره سبحانه لأي

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/١٩٤) رواه الطبراني في الأوسط (٩٢٩٧) وإسناده حسن، ومحمد بن عمار هو الوازعي، وهو وشيخه عبد الصمد من أهل الرأي، وثقهما ابن حبان وأخرجه البزار (٣٧٥٩) والطبراني في الكبير (٩٢٧٩) ورواه مسلم بنحوه (٨٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٣١٣) من حديث طويل، قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح.

سبب من الأسباب، وعدم التقاعس عن البذل في سبيل الله، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم، وذلك لأن النفاق ازْدِواجٌ في الشعور والسلوك، حيث يلقى صاحبه الناس بوجهين، يُظهر وجهاً ويبطن آخر، ولا يزال ينمو النفاق في نفسه حتى يصطبغ بألوان شتى يستخدمها حسب المقام، والحلف الكثير والكذب من أول أخلاق المنافقين.

حديث القرآن عن المنافقين:

وقد كثُر الحديث عن النفاق والمنافقين في كثير من سور القرآن المدنية، كما في سورة البقرة، بدْءًا من الآية الثامنة إلى الآية العشرين، وما يتخلل السورة من الآيات الكثيرة.

وفي (سورة آل عمران) توبيخ شديد لمن تقاعسوا من المنافقين يوم أحد وثبّطوا همم المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله.

وفي (سورة النساء) آيات كثيرة تتحدث عن قبائحهم وتَحاكُمِهم لغير الله ورسوله، وتَذبْذُبِهم بين الكفر والإيمان، ثم تُبينِّ أنهم في الدرك الأسفل من النار يوم لقاء الله رب العالمين.

ومعظم (سورة التوبة) تتحدث عن المنافقين، وتفضحهم، وتكشف عن مكنون صدورهم، وتُبعْثر أسرارهم،ولذا سُميت (الفاضحة) فلا زالت تقول : ومنهم، ومنهم، ومنهم، حتى أتت على جميع أحوالهم، وكشفت زيفهم وفضحت سرائرهم.

وهكذا لا تخلو سورة مدنية من الحديث عنهم وعن سوء أحوالهم وسلوكهم.

وقد ظهرت حركة النفاق في المدينة بعد أن قوِيَ المؤمنون وانتصروا في غزوة بدر، وأصبح لهم شأن ودولة، وقد استمر النفاق في عصر التنزيل إلى قرب وفاة النبي ﷺ وهو لم ينقطع على مدى التاريخ وإن تغيّرت مظاهره ووسائله بين الحين والحين.

والنفاق من أخس الصفات، وكثرة الحلف والكذب من مظاهره المتكررة، والمواقف لا تدع النفاق مستورًا، بل تكشفه في فلتات اللسان ولحن القول وتقاسيم الوجه، والتعليق المفاجىء على الأحداث.

وهذه السورة تحمل الاسم الخاص بالمنافقين، وهو يدل على موضوعها، فقد فضحت زعماء النفاق في عصر التنزيل، وسجّلت عليهم ما حاولوا الفرار منه، فقد حملتْ عليهم حَملة عنيفة كشفت عن دسائسهم ومُناوراتهم، وقد كانوا حريصين على أن تكون صورهم جميلة، ومظاهرهم خلاّبة، لتستُر خباياهم، ولكن حقدهم غلبهم، فخرج منهم ما يسيء إلى المهاجرين والأنصار، ممّا سجّله الله عليهم في كتابه إلى يوم القيامة.

وتُختم السورة بما يجعل العقلاء يُؤْثرون ما عند الله، ولا يَنْزِلون إلى حُطام الدنيا الفاني، فما عند الله خير وأبقى.

سبب نزول السورة:

يدور سبب نزول هذه السورة على أمر تافه في حد ذاته، كثيرًا ما يقع بين بعض الخدم، ولكنه يكشف عن خبايا المنافقين، ويُظهر مكنون صدورهم تجاه الإسلام وأهله.

وذلك: أن عبد الله بنَ أُبيّ بن سلول ومعه جمع من المنافقين خرجوا مع النبي ﷺ إلى «الْمُرَيْسيع» وهو مكان به ماء لبني الْمصْطَلِق، وقد خرجوا طلباً للغنيمة، لا رغبة في الجهاد، وكانت مسافة السفر قصيرة، فلما فرغ النبي ﷺ من الغزوة، ازْدَحَم الناس على الماء، ومنهم أجير لعمر بن الخطاب اسمه «جهجاه بن سعيد» وحليف لعبد الله بن أُبيّ، اسمه «سنان الجهني» ودار بينهما كلام، فرفع (غلام عمر) يده ولطم بها (الجهني)، فصرخ الأول قائلا: يا لَلْمهاجرين، وصرخ الثاني قائلا: يا لَلأنصار، فأقبلوا، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ غضب وقال: «**ما بال دعوى الجاهلية، دعوها فإنها منتنة**» أي اتركوا هذه العصبية لعشيرتكم، فقد أعزكم الله بالإسلام، ووحّد صفكم، وجمع كلمتكم، وأصلح الأمر بينكم.

ولما بلغ الخبر عبد الله بن أُبيّ، قال: وعنده جماعة من المنافقين: أوَ قدْ فعَلُوها، والله ما مثَلكم ومثَلُ هؤلاء الرهط من قريش، إلا كما قال الأُوَل: (سمّن كلْبك يأكلك) فقد آويتموهم في منازلكم، وأنفقتم عليهم أموالكم، ولو أمسكتم أيديكم عنهم لتفرَّقت جموعهم، أمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ويعني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ.

زيد بن أرقم يرد على زعيم المنافقين :

وكان في القوم «زيد بن أرقم» غلام صغير، فقال لعبد الله بن أُبيّ: أنت والله الذليل القليل، وأخبر النبي ﷺ بما قال، فعرض عليه عمر أن يضرب عنقه، فقال ﷺ: «**إذن ترتعد له آنُفٌ كبيرة**»، أي يغضب من أجله قوم كبار، فالنبي ﷺ يدفع دائما بأخف الضررين، ويرجح المصلحة العامة، ولذا فإنه ﷺ قال لعمر بعد أن انتهت أحداث القصة، «**أيْ عمر، أكنت قاتله لو أمرتك بقتله**»؟ قال: نعم، فقال ﷺ: «**والله لو قتلْته يومئذ لرغمتْ أنوف رجال، لو أمرتهم اليوم بقتله امتثلوا**» قال عمر: فإن كرهتَ أن يقتله رجل من المهاجرين، فمُرْ سعد بن عبادة، أو محمد بن مسلمة، أو عبّاد بن بشر، فلْيقْتله، فقال ﷺ: «**إذن يتحدث الناس أن محمدا يقْتُل أصحابه**».

فأرسل النبي ﷺ إلى عبد الله بن أُبيّ، فأتاه، فقال : «**أنت صاحب هذا الكلام؟**» قال: والذي أنزل عليك الكتاب، ما قلتُ شيئا من هذا، وإن زيداً لكاذب.

وقال الحاضرون: إنه غلام صغير، فعذَره رسول الله ﷺ ولام الناسُ زيداً، وأراد النبي ﷺ أن يطفىء نار الفتنة، فمشى بالناس يوما وليلة ليشغلهم عن الحديث الذي كان بالأمس.

وقال أسيد بن الحضير للنبي ﷺ: ارفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك، وإنّا لننظم له الخَرز لنُتوّجه ملِكًا، وإنه ليرى أنك قد استلبته ملكه. فأنزل الله تعالى هذه السورة في ابن أُبيّ تكذّبه وتُصدِّق زيدًا.

فلما نزلت قال ﷺ لزيد: يا غلام إن الله قد صدّقك وكذّب المنافقين، وفَرك النبي ﷺ أُذن زيد وضحك في وجهه، قال زيد: فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا.

وقيل لعبد الله بن أُبَيّ: لقد نزلتْ فيك آيات شداد، فاذهب إلى رسول الله يستغفر لك؟ فلَوى رأسه، وقال: لقد أمرتموني أن أؤمِن فآمنت، وأمرتموني أن أُزكّي فزكيت،وما بقى لي إلا أن أسجد لمحمد.

عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ :

وكان لعبد الله بن أُبيّ ولد صالح من خيار الصحابة هو (عبد الله بن عبد الله بن أبي) فجاء إلى النبي ﷺ يقول له: والله لقد عَلِمَت الخزرج، ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وأني والله لا أحدّق عيني في وجهه هيبة له، ولقد بلغني ما كان من أبي، وبلغني أنك تريد قتله، فإن كنت فاعلاً، فمرني، فأنا أحمل إليك رأسه، فإني أخشى أن يقتله غيري، فلا تدعني نفسي حتى أقتُل قاتله، فأكون قد قتلتُ مسلما بكافر فأدخل النار، فقال ﷺ: «بل تُحسن صحبته ما بقى معناً» فخلِّ سبيله حتى يصل إلى منزله.

الابن يرفع السيف في وجه أبيه نصرة لرسول الله ﷺ :

ولما رجع الناس إلى المدينة وقف عبد الله (الابن) على باب المدينة واستلّ سيفه فجعل الناس يمرون عليه، فيتركهم، فلما جاء أبوه قال له: وراءك قال: ويلك، ما لك؟ قال: والله لا تجُوز من ها هنا، حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل.

وكان الرسول ﷺ يسير في مؤخرة الجيش، فلما وصل إلى مدخل المدينة، اشتكى إليه عبد الله (الأب) ما يفعله الابن، فقال عبد الله : والله يا رسول الله، لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له النبي ﷺ فقال عبد الله (الابن): أمَا إذْ أذن لك رسول الله، فجُز الآن.

ولم يلبث عبد الله بن أُبيّ إلا أيّاماً حتى اشتكى ومات[1].

ولما مات (ابن أبيّ) جاء ابنه (عبد الله) إلى النبي ﷺ يطلب قميصه ليكفنه فيه برّاً بأبيه، وخوفًا عليه من عذاب النار، فأعطاه النبي ﷺ قميصه، ثم طلب منه أن يصلي عليه، فصلى عليه النبي ﷺ ومشى معه، وقام على قبره حتى فرغ منه، رغم معارضة عمر رضي الله عنه

---

(١) ينظر فيما سبق: السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٠٥، ٢٩٠) وتفسير الطبري (٧١/٢٨) والطبراني (٥٠٤١) والحاكم (٤٨٨/٢) والبيهقي في الدلائل (٥٤/٤) وابن عساكر (٢٦٩/١٩) وصحيح سنن الترمذي (٢٦٤٠) وصحيح البخاري برقم (٤٩٠٢، ٤٩٠٧) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٤، ٢٧٧٢٤) وسنن الترمذي برقم (٣٣١٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٩٤) والمسند (٣٩٢/٣، ٣٧٣/٤) برقم (١٩٢٨٥، ١٩٢٩٥) والواحدي في أسباب النزول: ٣٢١ وكلها من طرق متعددة.

وذلك تطييبًا لخاطر ولده، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة] فما صلّى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل[1].

خطورة النفاق:

وشأن (عبد الله بن أُبيّ) شأن سائر المنافقين في العقيدة، في عدم جواز الصلاة عليهم، وعدم الدعاء لهم أو الترحم عليهم، ومع هذا فإن النبي ﷺ لم يُخرج المنافقين من الصف الإسلامي، مادامو يُظهرون الإسلام، ويؤدون فرائضه في الظاهر، لأن الله وحده هو الذي يعلم ما في القلوب وهو الذي يحاسب على ما فيها.

وكان النبي ﷺ يَعْرِف المنافقين بلَحْن القول، وما يبدو على ألسنتهم من أساليب الالتواء والمداراة، ولم يُعرّفهم الله له بأسمائهم وأعيانهم إلا قُرب وفاته ﷺ.

وكان حذيفة بن اليمان صاحب سر النبي ﷺ فعرّفه بهم واحداً واحداً، وكتم حذيفة ذلك ولم يُفشه بين الناس، حتى إن عمر ﷺ على جلالة قدره، كان يأتي حذيفة ليطمئن منه على نفسه من أن الرسول ﷺ لم يُسمّه له ضمن المنافقين! فكان يقول له: يا عمر، لست منهم، ولا يزيد! وكان الصحابة يعرفون المنافق عندما يرون النبي ﷺ لا يصلي عليه إذا مات. ولما مات النبي ﷺ كان حذيفة ﷺ لا يصلي على من عرف أنه منهم.

وكان عمر رضوان الله عليه لا ينهض للصلاة على الميت إلا إذا رأى حذيفة قد قام للصلاة عليه.

وذكر بعض أهل العلم أن هذه السورة نزلت في غزوة تبوك، في السنة التاسعة للهجرة، وهو قول ضعيف، لأن المنافقين وقتها قد زالت دولتهم وضعُف شأنهم، ولم يكن لهم جُرأة على مثل قولهم الذي قالوه عن النبي ﷺ وأصحابه.

---

(١) ينظر مسند الإمام أحمد برقم (٩٥) بإسناد حسن، ورجال ثقات، وانظر البخاري برقم (٤٦٧٢) ومسلم برقم (٢٧٧٤) والترمذي برقم (٣٠٩٨) وقال: حسن صحيح والنسائي برقم (٢٤٤) وابن ماجة برقم (١٥٢٣)، وانظر القصة في سورة التوبة عند الآية (٨٤)، من هذا التفسير.

سُورَةُ التَّغَابُنِ (٦٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة التغابن) هي السورة الرابعة والستون في ترتيب المصحف، والسابعة بعد المئة في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة الجمعة) وقبل (سورة الصف)، على القول بأنها سورة مدنية، ولعل الأصح أن الآيات الثلاث الأخيرة من السورة مدنية، نزلت في قوم أسلموا وأرادوا الهجرة من مكة فأبى أزواجهم وأولادهم:

أخرج النحاس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة التغابن بمكة إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة، في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى رسول الله ﷺ جفاء أهله، فأنزل الله الآيات[1].

والسورة من أولها يبدو عليها طابع القرآن المكي، فهي تتحدث عن دلائل التوحيد واليوم الآخر، وتضرب الأمثال بالقرون الماضية والأمم الخالية، التي كذبتْ رسل الله، وتبين ما حلّ بالمكذبين من الهلاك والدمار نتيجة كفرهم وضلالهم.

وسميت سورة التغابن لورود هذا اللفظ فيها، ولم يُذكر في غيرها من السور.

وعدد آياتها ثماني عشرة آية باتفاق.

وهي مئتان وإحدى وأربعون كلمة، وألف وسبعون حرفاً.

مقاصد السورة:

ومن مقاصد السورة: غرس حقيقة التوحيد في قلوب البشر، وتنزيه الله تعالى عن الشركاء، وتقوية الصلة بين الخالق والمخلوق، فكل ما في هذا الكون يسبح الله تعالى ويقدسه، وينزهه عن جميع النقائص، لأنه الخالق الرازق، الجدير بالحمد والشكر.

---

(١) تفسير الشوكاني (٥/٢٣٢) وينظر: تفسير الطبري (٢٨/٨١) وهو عند النحاس (ص ٧٤٥).

والآيات تشير إلى قدرة الله المطلقة، وتبين أثر هذه القُدْرة في خلْق الإنسان، وإبداع صورته، واختيار توجّهه، وأثرها في إبداع خلق السموات والأرض، وتبين إحاطة علمه تعالى بجميع ما في الكون• هذا ما تضمنتْه الآيات الأربع الأول من السورة.

وفي هذا المقطع: تذكير بمصارع الغابرين من المكذبين لرسل الله، المعترضين على بشرية الرسل، آية ٥،٦.

وبعد ذلك يأتي ذكر المكذبين للبعث والنشور، وتوثيق الرد عليهم بالأيمان المغلظة، ومن ثَم إلى بيان ما في يوم القيامة من بعث وحساب وجزاء على الأعمال وذلك من الآية ٧-١١.

وفي أعقاب ذلك دعوة الخلق جميعاً إلى طاعة الله تعالى ورسوله آية ١٢،١٣ فإن أرادوا النجاة، فليؤمنوا بالله وحده، وليصدقوا برسوله ﷺ وبالكتاب الذي نزل عليه، ويؤمنوا بالبعث والحساب والجزاء، ثم تحذر الآيات من فتنة الأزواج والأبناء والأموال.

وتُختم السورة بالدعوة إلى تقوى الله تعالى قدر الطاقة، والسمع والطاعة، وبذل المال في سبيل، الله وقاية للنفس من الشح والبخل، فإن في هذا، الفوز والفلاح، وهذا من الآية ١٤-١٨.

وهكذا فإن سورة التغابن فيها **ثلاثة مقاطع**:

١- ففي الآيات الست الأول تسبيح الله تعالى، تنبيهاً على شذوذ المعصية، ووضاعة مرتكبيها، فالكون كله يعرف ربه وينقاد لأمره.

أما الناس: فمنهم من يجحد حقوق الله تعالى ويحارب رسله، مع أن الله تعالى قد خلقه وأحسن صورته، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

ومنهم المؤمن المعترف بربه المسبح بحمده، المطيع لله والرسول.

وللجاحدين المكذبين عبرة وعظة فيمن سبقهم بما نزل بهم من عذاب دنيوي، فيرجعوا إلى ربهم ويثوبوا إلى رشدهم.

٢- وفي الآيات السبع بعدها قَسَمٌ على أن البعث حق لابد منه، سواء أقرّ به الجاحدون أم أنكروه، فكثير من الناس في زحمة الحياة وحضارتها لا يوجد لليوم الآخر مكان في قلوبهم بالاستعداد له.

٣- وفي الآيات الخمس الأخيرة، بيان أن الضلال والعدوان يحتاجان إلى تضحيات ينبغي أن يتحملها أهل الإيمان بصبر ومصابرة وجلَد، ومقاومة إغواء الأبناء والأزواج، وضرورة البذل والكفاح ...

وهكذا: فإن السورة تحدثت عن العقيدة في مطلعها، وتلا ذلك الحديث عن الوحي والرسالة في الآيتين الخامسة والسادسة، ثم تحدثت عن اليوم الآخر بدءاً من الآية السابعة، وهذه العناصر الثلاثة هي عناصر القرآن المكي.

وفي نهاية السورة دعوة إلى طاعة الله ورسوله، وألاَّ يثنيهم عن ذلك فتنة المال والجاه والولد، والله تعالى لم يكلّفنا فوق الطاقة بل أمرنا بالسمع والطاعة والاستجابة الفورية لأمر الله ورسوله، ومن ذلك الإنفاق في سبيل الله، وعلاج الشح والبخل في النفس البشرية، والله تعالى يضاعف الأجر والجزاء لمن يُقرض الله قرضاً حسناً، ويغفر لهم ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، والله شكور حليم، يعلم ما غاب وما شوهد، وهو العزيز الذي لا يغلب، الحكيم في تدبير شؤون خلقه.

* * *

سُورَةُ الطَّلاق(٦٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الطلاق) هي السورة الخامسة والستون في ترتيب المصحف، والسادسة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الإنسان) وقبل (سورة البيّنة).

وهي سورة مدنية خالصة.

وسُمّيتْ سورة الطلاق: لأنها صُدّرت بلفظ الطلاق، وسماها عبد الله بن مسعود ﷺ سورة النساء القصرى[1] والمراد الصغرى والأخيرة، وهذا في مقابلة سورة النساء الكبرى التي بعد سورة آل عمران، لأن كليهما تتحدثان عن الأحكام الخاصة بالنساء غالباً.

وهي إحدى عشرة آية في المصحف البصري، وثلاث عشرة آية في الحمصي، وفيما عدا هما اثنتا عشرة آية، وهم: الحجازيون والكوفي والدمشقي.

وعدد كلماتها مئتان وتسع وأربعون كلمة، وهي ألف وستون حرفاً.

موضوع السورة:

هي سورة كاملة، موقوفة على تنظيم أحكام الطلاق وما يترتب عليه، مع ربط ذلك بأضخم حقائق الإيمان في المجال النفسي والكوني، وهذا يدل على خطورة شأن الأسرة في الإسلام، وقد أودع الله سبحانه في سورة الطلاق جملة أحكام تتصل بالأسرة، وتقيم كيانها على أسُس سليمة، وتعالج ما قد يَعْرِض لها من عِلَل ومتاعب.

وأسلوب السورة كلها وحدة موضوعية مترابطة الآيات، متماسكة السياق، جديرة بالتأمل العميق، فهي تتناول أحكام الطلاق، والإشهاد عليه وعلى المراجعة، وتبين أحكام الطلاق السني والبدعي، ثم أحكام العدة، والإرضاع، والإنفاق، والسكَن، ونَهتْ

---

(١) صحيح البخاري (٥٠٢/٨) برقم (٤٥٣٢) ومعلقاً برقم (٤٩١٠)، والنسائي في الكبرى (٥٦٨٥، ٥٦٨٧، ١٠٩٧٦، ١١٥٤٠).

السورة عن الإضرار بالمطلقات، والتضييق عليهن، وأمرتْ بالتشاور والائتمار في شأن الأولاد، وقد وضع الله لكل شيء حُكْمه، ولا يعجزه سبحانه تنفيذ أحكامه، وتخلّل كل ذلك الأمر بتقوى الله تعالى بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى، لئلا يقع حيف أو ظلم من أحد الزوجين.

وتبين السورة حُسْن عاقبة التوكل على الله تعالى، وتيسير تشريعاته، وأنه سبحانه لا يكلف نفسا إلا ما آتاها، وأعقبت ذلك بوجوب الاتعاظ بالأمم التي خالفت أمر ربها، وحذّرت من تعدَّى حدود الله، وبينت السورة أن الله جل شأنه أرسل رسوله محمداً ﷺ يتلو عليهم آيات الله تعالى ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

وخُتمت السورة بالإشارة إلى قُدرة الله تعالى في خلق السموات والأرض، وهما من البراهين الدالة على وحدانيته تعالى وعظيم قدرته.

والسورة بهذا تحتفي بالعلاقات الزوجية والعائلية احتفاءً كبيراً، وتهتم اهتماماً بالغاً بالأسرة في الإسلام، وتُبين أن الأصل في الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار، وتضع السورة جميع الضمانات التي تَكْفُل ذلك، للرفع من شأن الأسرة والمجتمع، وقيام العلاقات الإنسانية على أسس قويمة.

وتوزيع الموضوعات على آيات السورة هكذا:

١- الآيات الثلاث الأوَل تتحدث عن الطلاق في الوقت المناسب، وعلى الوجه المشروع.

٢- الآية الرابعة والخامسة تتحدثان عن العدّة وضبط أيامها لئلا تختلط الأنساب.

٣- الآيتان السادسة والسابعة تتحدثان عن السكن بالنسبة للمرأة المطلقة والنفقة للحمل والرضاع.

٤- الآيات الثلاث: ٨،٩،١٠ فيها تعقيب يحمل الوعيد لمن يخالف أمر الله تعالى.

٥- الآية الحادية عشرة تُثني على رسول الله ﷺ.

٦- والآية الأخيرة تبين جانباً من قدرة الله تعالى وشمول علمه.

أسباب النزول:

١- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلّق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ فتغيّظ رسول الله ﷺ ثم قال: ليراجعها، ثم يمسكها حتى تَطْهُر، ثم تحيض وتَطْهُر، فإن بدا له أن يطلقها، فليطلقها طاهرا قبل أن يمسّها، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلَّق لها النساء، وقرأ صدر السورة[1].

٢- وعن أنس ﷺ قال: طلّق رسول الله ﷺ حفصة، فأتت أهلها، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فقيل له: (راجعها فإنها صوّامة قوامة، وهي من أزواجك في الجنة)[2].

وقيل: إن النبي ﷺ لم يطلق حفصة ولم يراجعها، إنما هي قضية الإيلاء، فقد آلى النبي ﷺ من نسائه، فقال الناس: طلَّق نساءه، ولما سأله عمر قال: لا، آليتُ منهن شهراً، وكان هذا بسبب حفصة.

ستة أحكام عامة في الطلاق:

أولاً: الأصل في الطلاق هو الحظْر:

لقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ [النساء:٣٤].

ولِمَا جاء في الأثر «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[3].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩٠٨،٥٢٥١،٧٦١٠)، وصحيح مسلم برقم (١٤٧١)، وأبوداود (٢١٨٥)، والنسائي (٣٣٨٩،٦٢١)، وابن ماجة (٢٠١٩)، وأبي يعلى ٥٥٦١ والترمذي (١١٧٥)، والمسند (٥١٦٤، ٥٢٩٩، ٦١٤١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وعبد الرزاق (١٠٩٥٢)، ومالك (٥٧٦/٢)، والشافعي (١٠٤)، والطيالسي (١٨٥٣)، وابن حبان (٤٢٦٣).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، وابن المنذر، وجاء من طرق أخرى فيها ضعف عند ابن ماجة. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٣٦/٤): رواه البزار وأبويعلى ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

(٣) حديث مرسل أخرجه أبوداود عن ابن عمر برقم (٢١٧٨)، وابن ماجة (٢٠١٨)، والحاكم (١٩٦/٢)، والبيهقي (٣٢٢/٧)، وقد ضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (٤٧٢)، وضعيف سنن ابن ماجة (٤٤١)، وجاء عن معاذ عند عبد الرزاق (١١٣٣١)، وانظر ما قاله ابن الجوزي في العلل المتناهية (١٥٥/٢).

ووجه الدلالة في الآية: أن المرأة إذا كانت مطيعة، فإن طلاقها يكون ظُلماً.

ووجه الدلالة في الأثر: أن بُغض الشيء دليل على كراهيته، وإن كان الطلاق جائزاً في حد ذاته.

قال ابن عطية: الطلاق على الجملة مكروه، ونقل عن أنس ﷺ قوله (ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق)[1].

وعن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس حرمت عليها رائحة الجنة**»[2].

ثانياً: الطلاق على قسمين:

أحدهما: طلاق سني، وهو أن يُطلّق الرجل المرأة طلقة واحدة في طُهْر لم يجامعها فيه، أي وهي غير حائض، ولا نُفساء، ولا يطلقها بعد جماع لم تطهر بعده، وهذا معنى استقبالها للعدة.

ومن الطلاق السني: أن تكون المرأة حاملاً، قد استبان حملها.

فإذا أراد الرجل أن يطلق المرأة طلاقاً موافقاً للسنة، انتظرها حتى تحيض وتطهر، فإن طَهُرَتْ طلّقها قبل أن يمسها، طلقة واحدة، وهذا هو الطلاق السني.

وطلاق الصغيرة، والآيسة، وغير المدخول بها، لا يوصف بأنه سني ولا بدعي.

وثانيهما: طلاق بدعي، وهو أن يطلق الرجل المرأة في أثناء الحيض أو النفاس، أو في أثناء طهر جامعها فيه، أو بلفظ الثلاث، مجموعة أو متفرقة.

فإن حدث الطلاق في شيء من هذه المخالفات، فإنه يقع مع الإثم، عند الجمهور.

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/٣٢٢).

(٢) أبوداود (٢٢٢٦)، والترمذي (١١٧٨)، وابن ماجة (٢٠٥٥)، والطبري (٤/١٥١)، والحاكم (٢/٢٠٠)، والبيهقي (٧/٣١٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٦٧٢)، وهو في المسند (٢٢٣٧٩،٢٢٤٤٠) حديث صحيح ورجال ثقات رجال الصحيح.

ثالثاً: وجوب شهادة عدْلين على الطلاق والرجعة:

لقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ الآية: ٢.

أي أشهدوا رجلين عدْلين على الإمساك وعلى الفراق، والإمساك هو الرجعة،والفراق هو الطلاق.

هذا هو ظاهر الآية، وقيل: بوجوب الشهادة على الرجعة، وأنها مندوبة عند الطلاق.

رابعاً: الطلاق يكون بائنا ورجعيّاً:

والطلاق البائن: هو ما لا يملك المطلّق معه حق الرجعة، كمن طُلّقت امرأته ثلاثاً، أو انقَضَتْ عدتها وليس لها رجعة، أو طُلقت قبل الدخول بها، أو حدث خُلْع.

والطلاق الرجعي: هو ما يملك الزوج معه حق المراجعة، وما كان دون الثلاث، ولم يطلقها على عوض.

خامساً: الطلاق الصريح والكناية:

ومن الطلاق ما هو صريح لا يحتاج إلى نية، مثل: أنت طالق.

ومنه: ما هو كناية يحتاج إلى النية، مثل: إلْحقي بأهلك، اخْرُجي من البيت.

ومنه الطلاق بلفظ الحرام، فهو يحتمل الظهار، فتحرم المرأة حرمة أبدية، ويحتمل الطلاق كل ذلك حسب نيته.

وفي الحديث عند مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما «إذا حرّم الرجل امرأته فهي يمين يُكَفِّرُها، وقال: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»[١].

وفي لفظ عند البخاري «إذا حرم امرأته ليس بشيء»[٢].

---

(١) من حديث ابن عباس في الصحيحين عند مسلم برقم (١٤٧٣)، وهذا لفظه وفي البخاري برقم (٤٩١١).

(٢) البخاري (٥٢٦٦)، ومسلم (١٤٧٣).

سادساً: الطلاق المنجز والمعلق:

ومن الطلاق ما هو منجَّز، يقع في الحال، كقوله: أنت مطلقة، ومنه ما هو معلّق على فعل شيء أو تركه، يقع بعد وقوع الشيء المعلّق عليه.

وعلى هذا فإن الحلف بالطلاق على فعل شيء أو تركه، يعود إلى نية الحالف، فإن كان يقصد الطلاق فِعْلاً إن حدث هذا الشيء، فهو طلاق إن تحقق المحلوف عليه، وإلا فلا، أي: وإن كان يقصد التهديد ومنع المرأة من فعل هذا الشيء أو يقصد حملها على فعل شيء معين، فهو بمثابة اليمين بالله تعالى، وفيه كفارة اليمين، وعلى هذا جرت الفتوى، ولا ينبغي التوسع في ذلك بحمله على الحلف بالله تعالى مطلقاً.

ومن زعم أن الحلف بالطلاق أعظم من الحلف بالله، أو أكثر تأثيراً منه في النفس، يكون قد أتى باباً من أبواب الشرك، ووقع في محظور أكبر من الطلاق.

* * *

سُورَةُ التَّحْرِيمِ (٦٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة التحريم) هي السورة السادسة والستون في ترتيب المصحف، والخامسة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الحجرات) وقبل (سورة الجمعة).

وهي سورة مدنية باتفاق.

وسميت سورة التحريم لورود لفظ {لِمَ تُحَرِّمُ} في أولها.

وتسمى (سورة النبي) وسماها ابن الزبير (سورة النساء).

وعدد آياتها اثنتا عشرة آية عند غير الحمصي، وهي عنده ثلاث عشرة آية.

وهي مئتان وسبع وأربعون كلمة، وألف وستون حرفاً.

أغراض السورة:

هذه السورة تَعْرِض في أولها، صفحة من داخل بيوت النبي ﷺ وتذكُر الانفعالات الإنسانية بين بعض زوجاته، لمعالجة قضايا الأسرة، وتهيئة البيت الأمثل للأسرة المسلمة السعيدة.

تناولت السورة ما حرّمه الرسول ﷺ على نفسه مما أحله الله له، استرضاء لبعض زوجاته، فعاتبه الله تعالى على هذا، وبيّن له أن الحلال لا يكون حراماً بتحريم الإنسان له، ومَنْ فَعل ذلك فعليه كفارة يمين.

وعلّم الله تعالى الزوجات ألاّ يضايقْن أزواجهن حتى لا يؤدي ذلك إلى الفراق.

وتناولت السورة أمراً خطيراً يهدد كيان الأسرة، وهو إفشاء السر الذي يكون بين الزوجين.

وحملت السورة حملة عنيفة على من تُفشي أسرار الزوجية، وتوعدها الله تعالى باستبدالها بغيرها إن لم تتب.

وهكذا: فإن الآيات الخمس الأول من السورة تتناول جانباً خاصاً من حياة النبي ﷺ مع

زوجاته، وتُعطينا حُكْماً عامّاً، وهو أنه ليس لأحد أن يُحرّم على نفسه ما أحله الله له،وعندما يحدُث مثل هذه الحالة، كمن يحرم الطعام على نفسه مثلاً، فإن عليه كفارة يمين.

وفي الآيات الأربع التي تليها أربع نداءات: اثنين للمؤمنين، ونداء واحد للكفار،ونداء للنبي ﷺ خاصة.

وفي الآيات الثلاث الأخيرة من السورة: ما ضربه الله تعالى مثلاً للذين كفروا بامرأة نوح وامرأة لوط، وللذين آمنوا بامرأة فرعون ومريم.

وبالجملة فقد وجهت السورة **خمس نداءات:**

نداءان للمؤمنين، ونداء للكافرين، ونداءان للنبي ﷺ:

١- أما نداء المؤمنين **الأول** فهو أن يحفظوا أنفسهم وأهليهم من عذاب الله تعالى يوم لقائه، وذلك بالثبات على الإيمان، ومداومة العمل الصالح، والبعد عما حرمه الله تعالى.

٢- **والنداء الثاني** للمؤمنين أيضا: بالتوبة النصوح، الخالصة لله تعالى حتى يفوزوا بجنة النعيم.

٣- **والنداء الثالث،** هو النداء الوحيد للكفار في القرآن بلفظ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وهو لبيان أن الله تعالى لا يقبل منهم عذر عندما يرون يوم القيامة النار بأعينهم لأنهم ماتوا على الكفر.

٤- **والنداء الرابع** للنبي ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين ويقاتلهم في كل زمان ومكان، وليشددْ وطأته عليهم، فإن مصيرهم جهنم وبئس المصير، وأمّته بعده مطالبة بهذا.

٥- أما **النداء الخامس** فهو أول آية في السورة، وفيها عتاب الله تعالى لرسوله ﷺ لأنه شدد على نفسه فمنعها مما هو مباح له.

وضربت السورة مثلين للزوجة الكافرة التي في عصمة الرجل المؤمن، ومثلين آخرين، أحدهما: للزوجة المؤمنة في عصمة الرجل الكافر، والآخر: للمرأة المؤمنة المفترى عليها، في إشارة إلى أنه في يوم القيامة لا يغني أحد عن أحد، ولا ينفع حسب

ولا نسب، إذا لم يكن عمل الإنسان صالحاً.

وختمت السورة بالثناء على مريم بنت عمران التي صانت نفسها وحفظت فرجها، فكافأها الله بأن حملت بكلمة الله تعالى وإرادته بعيسى عليه السلام، للدلالة على كمال قدرة الله تعالى في خلْقه للإنسان بدون حاجة إلى تلقيح الذكر للأنثى، وأثنى الله تعالى على مريم بصفتي الصلاح والقنوت، وهو ختام رائع يماثل جوّ السورة وهدفها.

أسباب النزول:

وسبب نزول السورة **حادثتان** حدثتا بين أزواج النبي ﷺ:

أحدهما: ما روتْه عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يشرب عسلاً عند أم المؤمنين زينب رضي الله عنها ويمكث عندها، قالت: (فتواطأتُ أنا وحفصة على: أيتُنا دخل عليها، فلتقل له: أكلْتَ مغافير؟ إني أجد منكَ ريح مغافير، قال: لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلَفْتُ، لا تخبري بذلك أحدا)[1].

والمغافير: صمغ حُلو، له رائحة كريهة، يخرج من شجر العُرفط أي الطلح، وكان النبي ﷺ يحب العسل والحلوى، ويكره أن يوجد منه رائحة كريهة.

وصح في الحديث أن ابن عباس رضي الله عنهما سأل عمر ﷺ (من المرأتان اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ فما أتممتُ كلامي حتى قال: عائشة وحفصة)[2].

وهذا هو أصح الروايات في الباب، وأصل القصة ثابت، وإن اختلفت الرواية فيمن شرب النبي ﷺ عندها العسل، ومَن تظاهرتا عليه، ويشهد لهذا أن النبي ﷺ سئل عن

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩١٢،٥٢٦٧،٦٦٩١)، وصحيح مسلم برقم (١٤٧٤)، وبنحوه في المسند (٢٥٨٥٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأبوداود برقم (٣٧١٤)، والنسائي (٦٢٨)، وفي الكبرى (٤٧١٨،١١٥٤٤)، وابن حبان (٤١٨٣)، وابن سعد (١٠٧/٨).

(٢) صحيح البخاري برقم (٨٩،٤٩١٤)، وصحيح مسلم (١٤٧٩)، وسنن الدارقطني (٤٠١٤)، والمسند (٢٢٢،٣٣٩) مطولاً؛ بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٤٢٦٨)، وأبوداود (٥٢٠١)، والترمذي (٢٦٩١)، وابن ماجة (٤١٥٣) مطولاً ومختصراً.

شيء حَرَّمَه على نفسه، فقال: «**عكة من عسل**»[1].

ثانيهما: ما جاء عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لحفصة رضي الله عنها: لا تحدثي أحداً، وإن أم إبراهيم حرام عليّ، فقالت: أتُحرِّم ما أحل الله لك؟ قال: فوالله لا أقربها، فلم يقْرَبْها حتى أخبرتْ عائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾[2].

وكانت حفصة رضي الله عنها قد وجدت النبي ﷺ مع مارية رضي الله عنها في حجرتها.

وتفصيل هذا الخبر ما رواه الدارقطني عن ابن عباس عن عمر ﷺ قال: دخل رسول الله ﷺ بأم ولده مارية في بيت حفصة، فوجدتْه حفصة معها، فقالت حفصة: تُدخلها بيتي، ما صنعتَ بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك، فقال لها: (لا تذكُري هذا لعائشة، فهي عليّ حرام إن قرُبتُها) قيل: فقالت له حفصة: وكيف تَحْرُمُ عليك وهي جاريتُك، فحلف لها أن لا يقْربها، فقال النبي ﷺ لحفصة: لا تذكريه لعائشة، فذكرتْه لعائشة، فآلى أن يدخل على نسائه شهرا، فاعتزلهن تسعاً وعشرين ليلة، فأنزل الله هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾[3].

وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها، فأنزل الله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾[4].

والأمة هي أم إبراهيم (مارية القبطية) التي أهداها له عظيم مصر.

---

(١) أخرجه ابن سعد عن عبد الله بن عتبة (١٧١/٨)، وأخرجه عبد بن حميد كما في الدر (٥٦٩/١٤).

(٢) المختارة للضياء المقدسي برقم (١٨٩) من مسند الهيثم بن كليب، قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة (٥٩/٨)، وصححه ابن حجر في الفتح (٢٩٢/١١)، وأخرجه ابن سعيد بن منصور بإسناد صحيح إلى مسروق.

(٣) سنن الدارقطني (٧٦/٥) برقم (٤٠١٣)، وهو في أسباب النزول للواحدي (ص ٣٥٨)، والسيوطي (٣٠٧)، وفي إسناده: عبد الله بن شبيب، وهو ضعيف، وأخرجه الطبري في جامع البيان (١٥٥/٢٨) بسند صحيح.

(٤) السنن الكبرى للنسائي برقم (١١٦٠٧)، وفي السنن برقم (٣٩٦٩)، والحاكم (٤٩٣/٢)، وإسناده صحيح ورجاله ثقات وصحيح سنن النسائي (٣٦٩٥).

قال الشوكاني: فهذا سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين: قصة العسل، وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعا، وفي سبب كل منهما أنه ﷺ أَسَرَّ الحديث إلى بعض أزواجه(١).

قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى:

أمهات المؤمنين خيرة نساء الأمة، وأعلاهن طُهرا ومكانة وتَقْوى، وقد صحبْن النبي الكريم وعاونَّهُ على أداء رسالته، وارتفعْن إلى ما يُتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة، وقد آخذَهُن الله بأمرين معروفين في السيرة:

الأول: اتفاقَهُنَّ على طلب النبي ﷺ بالمزيد من النفقة، وضِيقَهُنَّ بالمعيشة الناشفة التي التزمها، وقد رضين جميعا بالبقاء معه عندما أكد لهن أنه مابدٌّ من هذه الحياة لمن يريد الله ورسوله والدار الآخرة.

أما **الأمر الثاني**: فإن النبي ﷺ كان لطيف العشرة، ليّن الجانب، دمث الأخلاق، فأطمع ذلك بعض نسائه في الجرأة عليه، وكانت الغيرة هي السبب، فزعمَتْ إحداهن أنها شمّت منه رائحة غير طبيعية، فقال: شربت عسلا عند زينب! فقالت: لعلّ نحله وقع على نبات سيّء فقال: لا أعود، ولا تخبري أحداً، ثم ظهر أن القصة مفتعلة وأنها مؤامرة لتزهيده في فلانة!! وغضب الرسول لِمَا وقع، وهجر نساءه جميعا، حتى شاع أنه طلقهن، ونزلت سورة التحريم تطفىء هذه الفتنة، وتؤدب مَنْ أحرج الرسول، وأساء المسلك(٢).

* * *

---

(١) فتح القدير (٥/٢٥٠).

(٢) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم (ص ٤٦٨).

سُورَةُ الْمُلْكِ(٦٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الملك) هي السورة السابعة والستون في ترتيب المصحف، والسادسة والسبعون في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة المؤمنون) وقبل (سورة الحاقة).

وعدد آياتها إحدى وثلاثون آية في المصحف المكي، والمدني الأول، وثلاثون آية في غيرهما.

وعدد كلماتها ثلاث مئة وثلاثون كلمة، وهي ألف وثلاث مئة وثلاثة عشر حرفاً.

أسماؤها:

١ - وسميت سورة الملك، لورود لفظ ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ في أولها.

قال الألوسي: ٢ - وتسمى: (تبارك) ٣- و(المانعة).

٤ - و(المنجية) ٥ - و(المجادلة) أخذاً من الآثار التي وردت فيها، لأنها تُنجّي قارئها من النار وتمنعه من العذاب، وتجادل عنه يوم القيامة.

٦ - وتسمى سورة (تبارك الملك) للفرق بينها وبين (تبارك الفرقان).

ففي حديث أبي هريرة ﷺ الآتي بعد قليل، أن النبي ﷺ سماها سورة ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود ﷺ قال: كنا نسميها على عهد النبي ﷺ (المانعة)[١].

٧ - وتسمى (سورة الواقية)، ٨ - و(المنّاعة) بصيغة المبالغة[٢].

---

(١) الطبراني في الكبير (١٠٢٥٤)، وابن مردويه كما صححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٣٧)، والسلسلة الصحيحة (١١٤٠)، وعن ابن عباس في الترمذي (٢٨٩٠)، والطبراني (١٢٨٠١)، والبيهقي (٤١/٧).

(٢) ينظر: الفخر الرازي في تفسيره لأول السورة

وفي تاريخ ابن عساكر عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ سماها (المنجية)[١].

وسماها ابن عباس (المجادلة) لأنها تجادل عن قارئها سؤال الملكين[٢].

فهذه ثمانية أسماء لها - بدون المكرر - وردت فيها.

وسورة الملك سورة مكية باتفاق.

وجميع سور جزء ﴿تَبَٰرَكَ﴾ سور مكية، كما أن جميع سور جزء ﴿قَدۡ سَمِعَ﴾ سور مدنية.

ومطلع سورتي المدثر والمزمل من أول ما نزل من القرآن، كما أن سورة القلم نزلت بعد البعثة بثلاث سنوات، أما سورة الجن فقد نزلت بعد عشر سنوات من البعثة، في عودة النبي ﷺ من الطائف بعد وفاة خديجة وأبي طالب.

ومما ورد في **فضل سورة الملك**، ما جاء:

١- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن سورة من القرآن، ثلاثين آية، شفعتْ لرجل حتى غُفر له ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾**»[٣].

٢- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**سورة في القرآن خاصمتْ عن صاحبها حتى أدخلتْه الجنة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾**»[٤].

---

(١) الأثر عند ابن عساكر (٤٦/٦) وغيره من طرق متعددة.

(٢) جاء هذا في مسند عبد بن حميد (٦٠١)، والطبراني (١١٦١٦)، والحاكم (٥٦٥/١)، وقد جاء هذا المعنى عند سعيد بن منصور عن عمرو بن مرة، وحسنه الألباني عن ابن مسعود عند الطبراني والحاكم.

(٣) المسند ٣٢١/٢ (٧٩٧٥،٨٢٧٦) حسن لغيره، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عباس الجشمي، فمن رجال السنن وهو مقبول، وأبوداود برقم (١٤٠٠)، والترمذي برقم (٢٨٩١) وحسن متنه، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦١٢)، وابن ماجة برقم (٣٧٨٦)، والحاكم (٥٦٥/١)، (٤٩٧/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٠٦)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٢٤٧)، وفي صحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٤)، وقال: حسن لغيره.

(٤) المعجم الأوسط للطبراني (١٧٦/١) والمعجم الكبير (٣٦٥٤)، والمختارة للضياء المقدسي برقم (١٧٣٨،١٧٣٩)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد (١٣٠/٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٥٣٨).

٣- عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**تبارك هي المانعة من عذاب القبر**»[١].

٤- وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [سورة السجدة]، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[٢].

٥- قال ابن مسعود ﷺ: يُؤتى الرجل في قبره، فيؤتى من قِبَلَ رجليه، فتقول رجلاه: ليس لكم على ما قِبلَي سبيل، قد كان يقوم علينا بسورة الملك، ثم يؤتى من قبل صدره فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل، قد كان وَعَى فيَّ سورة الملك، ثم يؤتى من قِبَل رأسه، فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل، قد كان يقرأ بي سورة الملك، فهي المانعة، تمنع من عذاب القبر، وهي في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب[٣].

وفي النسائي مختصراً: من قرأ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ كل ليلة، منعه الله عز وجل بها من عذاب القبر)، وكنا في عهد رسول الله ﷺ نسميها (المانعة) وأنها في كتاب الله عز وجل سورة من قرأ بها في كل ليلة فقد أكثر وأطاب[٤].

موضوعات السورة:

وشأن هذه السورة شأن السور المكية في معالجة قضايا العقيدة، والرسالة، واليوم الآخر.

وهي تقيم الأدلة والبراهين على عظمة الله تعالى وقدرته: فهو الذي خلق الموت والحياة، وخلق سبع سماوات طباقا، وهو الذي خلق الطير صافات، وهو الذي يرزق خلقه، ولا يُمسك رزقه عنهم، وهو الذي يجري هذا الماء، وإن شاء جعله غوْراً، فلا

(١) النسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٥٤٧)، وصححه الحاكم (٢/٤٩٨) ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٣٧)، والسلسلة الصحيحة (١١٤٠).

(٢) سنن الترمذي برقم (٢٨٩٢،٣٤٠٤)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٧،١٢٠٩)، والمسند (١٤٦٥٩) وهو حديث صحيح (محققوه)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٤٧٤-١٠٤٧٧)، والبيهقي في الشعب (٢٤٥٥)، وعبد بن حميد (١٠٤٠)، والبغوي (١٢٠٧، ١٢٠٨).

(٣) الأثر بسند حسن في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٥)، وأخرجه الطبراني (٨٦٥١)، والبيهقي في الشعب (٢٥٠٩)، والحاكم (٢/٤٩٨) وقال: صحيح الإسناد وغيرهم.

(٤) صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٩٣) بإسناد حسن كما قال الألباني.

تستطيعون الحياة بدونه.

وفيما يتعلق باليوم الآخر: فإن الإيمان بالغيب جزء من عقيدة المسلم، وقد أعد الله للكفار عذاب نار السعير وهي تتقطع غيظاً وحنقاً على مَنْ كفر بالله ورسله، وعِلْمُ قيام الساعة عند رب العالمين، ويوم يروْنها تسودّ وجوه الكفار ويقال لهم: هذا الذي كنتم به تكذبون.

وحذرت آيات السورة من سخط الله تعالى لئلا يخسف بهم الأرض، كما حذّرت المكذبين برسل الله أن يهلكهم الله بعذابه، فلا يجدون لهم مجيراً ولا منجّياً، والرسول ﷺ هو المبلغ عن ربه.

وعقيدة التوحيد هي المحور الذي تدور حوله السورة، فتسوق ثلاثة عشر دليلا على وحدانية الله تعالى، سبعة منها بأسلوب الخبر، وهي:

١- خلْق الموت والحياة.
٢- وخلْق السموات السبع الطباق.
٣- وعِلْم السر والنجوى.
٤- وخلق الإنسان والإحاطة به.
٥- وتذليل الأرض له.
٦- وتحليق الطيران في الفضاء.
٧- ورزق الله تعالى للكائنات.

ويتخلل هذه البراهين مَشاهد من عذاب أهل النار وبيان نعيم أهل الجنة، وأن الكفر يحوّل النعم إلى نقم تتمثل في الخسف والزلازل والبراكين والريح الحاصبة.

وهكذا فسورة الملك، سورة زاخرة بالحديث عن وحدانية الله تعالى، وعظيم قدرته، ومظاهر فضله ورحمته بعباده، وبديع خلْقه في الكون، إلى جوار الحديث عن أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، ووجوب التأمل والتدبر في ملكوت السموات والأرض، بالإضافة إلى مجموعة من الحجج والبراهين التي لقّنها الله تعالى لنبيه ﷺ ليقذف بها في وجوه المبطلين، وهي تلْقينات تتعلق بخلق نعمة السمع والبصر والفؤاد، والاستدلال ببدء الخلْق على إعادته، وبيان أن علم قيام الساعة عند الله تعالى لا يعلمها إلا هو، وأنه لا مفر من عذاب الكافر، وأن المؤمن جدير برحمة الله تعالى ورضوانه، ثم

التهديد بالحرمان من نعمة الماء الذي هو سبب الحياة لكل كائن حي.

وفي نهاية السورة أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يلقن أمته ستة **أدلة** على وحدانية الله تعالى من فروع المخلوقات بلفظ ﴿قُلْ﴾ وهي:

١ - ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾ ٢ - ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾.

٣ - ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ ٤ - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ﴾.

٥ - ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ ٦ - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾.

* * *

سُورَةُ القَلَمِ (٦٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة القلم) هي السورة الثامنة والستون في ترتيب المصحف، والرابعة في ترتيب النزول على الأصح، فقد سبقتها سور: العلق، والمدثر، والمزمل.

وعدد آياتها: اثنتان وخمسون آية باتفاق.

وهي ثلاث مئة كلمة، وألف ومئتان وستة وخمسون حرفاً.

وهي سورة مكية، من أوائل ما نزل بمكة على رسول الله ﷺ قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ بمكة[1].

وقيل: إن قصة أصحاب الجنة مدنية، وكذا الآيات: من ٤٨-٥٠ التي فيها ذِكْر صاحب الحوت عليه السلام، والأرجح أن السورة كلها مكية.

قال ابن عباس: (كانت إذا نزلت فاتحةُ سورة بمكة، كُتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما نزل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ ثم ﴿نٓ﴾ ثم ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ ثم ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾)[2].

وتسمى سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ واقتصر بعضهم على تسميتها سورة ﴿نٓ﴾ وبعضهم يسميها سورة ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ فهذه ثلاثة أسماء لها.

مقاصد السورة:

المحور الأساس الذي تدور حوله السورة هو **إثبات نبوة محمد** ﷺ وردّ الشُّبه التي يُثيرها أهل الباطل حول الرسالة الخاتمة، ومن أجل ذلك تبدأ السورة بالقسم على رفع قدْر النبي ﷺ وعلُوّ شأنه، وبراءته مما يُلْصقه به أعداء الإسلام.

وتبين السورة أن **أعداء الحق** يقفون دائماً في وجه الدعوة في كل زمان ومكان، ثم

---

(١) أخرجه النحاس (ص ٧٤٩)، والبيهقي (٧/١٤٢)، وأخرجه ابن مردويه عن عائشة.

(٢) تفسير الشوكاني (٥/٢٦٥) عن ابن الضريس (١٧).

يندمون على عداوتهم للإسلام، بعد أن تكْشف لهم الأيام عن زيف باطلهم، وصِدْق الإسلام، وهذا ما تَحْملُه **قصة أصحاب الجنة**، فقد نَدِموا على شُحّهم وبُخْلهم بعد أن أهلك الله ثمرهم، نتيجة الكفر بنعمة الله عليهم، وهكذا فقد أعز الله قريشاً بالإسلام بعد أن أهانهم بالكفر.

أما المصرُّون على باطلهم، فإنهم يتعلّقون بأوهام ومادّيات ذاهبة، لا مستند لهم فيها من عقل ولا نقل، وأمامهم حساب شاق دقيق، يندمون فيه ولات ساعة مندم، ولا عذر للكافرين في هذا الموقف، فقد أعذرهم القرآن وأنذرهم، وأعطاهم فرصاً شتى فأضاعوها وعاندوا وأصرُّوا على باطلهم.

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالبلاغ والصبر على متاعب الدعوة وتحمّل الأذى، فهو رسول أرسله الله للعالم أجمع، كما جاء ذلك في باكورة الرسالة ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ الآية:٥٢.

وقد أشارت السورة إلى **اليوم الآخر** في عدم التسوية بين المسلمين والمجرمين.

وتناولت **موقف المكذبين** للدعوة واتهامهم لصاحبها بالجنون، وذكرتْ عَرْضَهم على النبي ﷺ أن يَلِينَ لهم ليلينُوا له، كما يطلب أعداء الإسلام من أهل الدعوة في كل عصر ومصر: التخلي عن آيات الجهاد، وعن آيات الولاء والبراء، للتعايش السلمي وتطبيع العلاقات مع غير المسلمين، فالتاريخ يعيد نفسه!

ولو أن غير المسلمين قديماً وحديثاً فهموا تعاليم الإسلام الهادية للبشر، لَمَا وقفُوا منه موقف العداء، فالفجوة بين الإسلام وبين الإلحاد والشرك والعلمانية .. فجوة كبيرة لا يفقهها من حُرموا نور الإسلام، ومن هذه **الفروق الجاهلية** في القديم والحديث ما يلي:

أولاً: الفجوة كبيرة بين التوحيد الذي جاء به الإسلام، وبين الشرك وتعدّد الأرباب والآلهة بين كثير من أبناء الشعوب، ومنهم من نفي الألوهية والرسالات، وقال: بأن الدين أفيون الشعوب.

ثانياً: والفجوة كبيرة أيضاً بين أخلاق الإسلام، في حفظ الدين والمال والعقل والنسب وما إلى ذلك، وبين أخلاق الجاهلية في القديم والحديث، كالخمر والجنس، والشذوذ، وسيطرة القويّ على الضعيف.

ثالثاً: والفجوة كبيرة كذلك بين المساواة بين الناس جميعاً إلا بالتقوى، وبين الاعتبارات الاجتماعية، التي تُصنّف الناس إلى طبقات فيها سيّد ومسُود، وشريف ووضيع ..

هذه بعض **أسباب التصادم** بين هدْي الإسلام وضلال أهل الجاهلية، وهذه الأسباب هي التي جعلت كفار قريش لم ينقادوا للدعوة فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] لأن النبي ﷺ لم تكن له رئاسة قبل البعثة، مع شرف نسبه وعلُوّ مكانته، واشتهاره بالصدق والأمانة، وكانوا في قرارة أنفسهم يسلّمون بصدْقه وأمانته وعفافه، ولكنهم يرفضون ذلك لأنه من بني عبد مناف.

كما جاء في قصة أبي جهل، والأخنس، وأبي سفيان، حين خرجوا ثلاث ليال متتابعة، يستمعون إلى القرآن خِفْية، كل واحد منهم من وراء الآخر، فيلْتقُون صُدْفة ويتّفقون على عدم العودة، ثم يعودون، فسأل الأخنس أباجهل، عن رأيه فيما سمع من محمد ﷺ فقال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعَموا فأطعَمْنا، وحَمَلوا فحَملْنا، أي قاتلوا فقاتلنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثَينا على الركَب، وكُنّا كفَرسيْ رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى نُدرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه!

وهذه الأسباب نفسها هي التي جعلَت بني إسرائيل يقفون من الدعوة موقف الرفض والعناد، حسداً منهم للنبي ﷺ بعد أن انتقلت الرسالة منهم إلى العرب، ومن بيت المقدس إلى مكة، لأنهم لم يعودوا أهلاً لها.

وسورة القلم تشير إلى هذا كله في عروض المشركين على النبي ﷺ للالتقاء في منتصف الطريق والتهادن فيما بينهم ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ الآية:٩.

﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ الآية:٥١.

والسورة تردّ على المكذبين للنبي ﷺ بمثل هذه الآيات: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ الآيتان:٣،٤ وترد على السبّ الموجه للنبي ﷺ في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾ الآيتان:١٠،١١.

وتُبين السورة أنه لا يوجد لدى المكذبين بالرسالة دليل من عقل ولا نقل ولا عهود ولا مشاركة يستندون إليها في تكذيبهم للنبي ﷺ ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ الآيات:٣٧-٤٠.

وبعد نزول هذه السورة، تمضي الدعوة عشرين عاما، ثم تعم الأرجاء وتقود البشرية، ومن خرج من البشر عن هذا الإطار، فهو في ضلال مبين.

ويمكن تقسيم موضوعات السورة إلى تسعة أقسام:

١- الآيات التسع الأُوَل، فيها القسم على تبرئة النبي ﷺ مما ألصقه به المكذبون من السفه والجنون، وبيان أخلاقه العظيمة ومناقبه السامية، وفيها بيان ما أعده الله تعالى للمجرمين من العذاب والنكال ..

٢- ومن الآية العاشرة إلى الآية السادسة عشرة، عن الوليد بن المغيرة وأمثاله إلى قيام الساعة.

٣- ومن الآية السابعة عشرة إلى الآية الثانية والثلاثين عن قصة أصحاب الجنة ذات الأشجار والزروع المثمرة، فقد أحرقها الله تعالى لَمَّا منع أهلها حق الله منها، وجعلها عبرة للمعتبرين.

٤- ومن الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية الثالثة والأربعين في الرد على شبه المكذبين بالوحي المنزل وتفنيد أباطيلهم.

٥- وبقية السورة لتسلية النبي ﷺ وأمْره بالصبر على أذى المعارضين، وعدم التبرم والتضجر مما يلقاه في سبيل تبليغ الدعوة، كما حدث من نبي الله يونس ﷺ حين ترك

قومه وسارع إلى ركوب البحر.

٦- وأشارت السورة في نهايتها إلى عالمية الإسلام، وأن هذه العالمية قد بدأت بأوائل آيات الوحي نزولاً بمكة المكرمة، ثم مرّت على النبي ﷺ ليالي كالِحَة، عانَى فيها مِنَ الحرج والألم ما يهز الجبال الرواسي، ولكنه ﷺ ثبت حتى أدى الأمانة وترك الرسالة تحملها أجيال الدعوة بعده فنشرها رب العالمين على أيديهم.

الحروف المقطعة في أوائل السور:

وسورة القلم هي آخر سورة في ترتيب المصحف افتتحت بحرف واحد من حروف الهجاء، وهي أول سورة في ترتيب النزول افتتحت بحرف واحد من حروف الهجاء.

وقد وردت هذه الحروف تارة مفردة، وتارة مركبة من حرفين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة:

١- والسور التي بُدئت بحرف واحد هي ثلاث سور: ص، ق، ن.

٢- والسور التي بدئت بحرفين، تسع سور هي: طه، يس، طس، حم في ست سور: هي (غافر وفصلت والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف).

٣- والسور التي بُدئت بثلاثة أحرف، ثلاث عشرة سورة هي: (الم) في ست سور هي: (البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة).

و(الر) في خمس سور هي: (يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر).

و(طسم) في سورتين هما (الشعراء والقصص).

٤- وسورتان ابتدأتا بأربعة أحرف وهما: الرعد (المر) والأعراف (المص).

٥- وسورتان بدئتا بخمسة أحرف وهما: مريم (كهيعص) والشورى (حم عسق).

فيكون مجموع السور المفتتحة بالحروف المقطعة تسعاً وعشرين سورة.

وهذه الحروف ومنها حرف (ن) من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

فقد سئل الشعبي عن فواتح السور فقال: إن لكل كتاب سراً، وإن سر هذا القرآن في

فواتح السور.

وفي رواية أخرى قال: سر الله فلا تطلبوه.

وقد اجتهد أهل العلم في تأويلها، فمنهم من قال: إنها أسماء للسور، كما في الأثر (من قرأ حم السجدة حُفِظ إلى أن يُصْبح) وقيل غير ذلك.

١ - ولعل الأقرب إلى الصواب: أن هذه الحروف هي أصل الكلام المركب الذي يتألف منه الكلام العربي، وقد تحدى الله به المشركين أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا، فدل هذا على صدق القرآن الكريم.

٢ - ثم إن تصدير السور بهذه الحروف يجذب أنظار المعارضين للقرآن إلى الإنصات له والتدبر فيه، لأنها ألفاظ غير مألوفة لديهم، فإذا لُفتت أنظارهم إليها وتأملوها، ربما كان هذا سبباً في هدايتهم واستجابتهم للحق.

٣ - وهذه الحروف تجعل المسلم ينقاد لأمر ربه، فيتمثل أمره ويجتنب نهيه دون سؤال عن السبب والعلة، بل يقول: سمعنا وأطعنا، فإذا كان لا يفهم لهذه الحروف معنى واضحاً، فهو كذلك لا يفهم لبعض العبادات معنى أو سبب وعلة، فيعبد الله تعالى كما أمره، وينتهي عما نهاه، وإن لم يفهم للأمر ولا للنهي علة.

* * *

سُورَةُ الْحَاقَّةِ (٦٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الحاقة) هي السورة التاسعة والستون في ترتيب المصحف، والسابعة والسبعون في ترتيب النزول.

وعدد آياتها إحدى وخمسون آية في المصحف البصري والدمشقي، واثنتان وخمسون آية في بقية المصاحف العثمانية.

وهي مئتان وست وخسون كلمة، وألف وأربعة وثلاثون حرفا، نزلت بعد (سورة الملك) وقبل (سورة المعارج)، وهي سورة مكية باتفاق، نزلت في السنة الخامسة قبل الهجرة.

وهذه السورة سميت (سورة الحاقة) من العهد النبوي، باسم أول كلمة فيها، وسماها الجعبري (الواعية) أخذا من قوله تعالى ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ [الآية:١٢] وتسمى (سورة السلسلة) لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا﴾ [الآية:٣٢] فهذه ثلاثة أسماء لها.

وعن أبي برزة ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ ونحوها[١].

ورد أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: خرجتُ يوماً بمكة، أَتعرَّضُ لرسول الله ﷺ قبل أن أُسلم، فوجدتُه قد سبقني إلى المسجد الحرام، فوقفْتُ خلْفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلْتُ أَعْجبُ من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر، فقرأ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ [الآية:٤١] قلت: كاهن، فقرأ ﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الآيتان:٤٢،٤٣] إلخ السور، فوقع الإسلام في قلبي كل موقع[٢].

---

(١) الطبراني كما في فتح الباري (٢/٢٥٢).

(٢) رواه أحمد في المسند ٢٦٢/١ (١٠٧) وقال محققوه: إسناده ضعيف لانقطاعة، شريح ابن عبيد، لم يدْرك عمر. وأوره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٦٢)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات، إلا أن شريح بن عبيد لم يدرك عمر.

وقد أسلم عمر بعد الهجرة إلى الحبشة، وكانت هذه الهجرة سنة خمس، قبل الهجرة إلى المدينة[١].

مقاصد السورة:

١- وشأن (سورة الحاقة)، شأن السور المكية، في تثبيت العقيدة والإيمان من خلال الحديث عن اليوم الآخر وذكر مصارع الأمم المكذبة، وعقاب الله تعالى لها في الدنيا، قوما بعد قوم، وجماعة بعد جماعة، وجاء ذلك من أول السورة إلى الآية الثانية عشرة.

٢- ثم تحدثت آيات السورة عن القيامة، وما يسبقها من خراب العالم، مع بيان حال السعداء والأشقياء، أو الناجين والهالكين، وذلك من الآية الثالثة عشرة إلى الآية السابعة والثلاثين.

٣- ثم تحدثت آيات السورة عن إثبات صدق الرسول الخاتم، وصدق كتابه المنزل عليه، وأنه ليس بِشْعر ولا سحر ولا كهانة، وذلك من الآية الثامنة والثلاثين إلى آخر السورة.

وهذه العناصر الثلاثة: التوحيد، والبعث، والوحي، هي مهمة السور المكية.

ولكن المحور الأساس الذي تهتم به السورة هو اليوم الآخر، وقد بدأت السورة بذكر أحد أسمائه وهو ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ ثلاث مرات، وأتبعت ذلك بالإشارة إلى العقوبة الدنيوية التي لحقت بمن كذب بالبعث والنشور ليكون لنا فيهم عبرة وعظة فنؤمن باليوم الآخر ونتزود له بالإيمان والعمل.

فهي سورة رهيبة تهز الأعماق هزاً، وتُلْقي في النفس قوة إحساس بأن هذا الدين حازم وجازم، لا مجال للهزل فيه، وأن عقاب الله تعالى صارم لا يفلتُ منه مستحق له، حتى ولو كان سيد الخلق ﷺ فيما يخص أمانة التبليغ وصدق الوحي والرسالة: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الآيات:٤٤-٤٧] وتُصور آيات السورة نهاية الكون المروِّعة، بالنفخ في الصور، فتعم

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي (٢٨/٢٩)، وتفسير التحرير والتنوير (١١٠/٢٩).

العالم العلوي والسفلي خراب ودمار، يتمثل في دكّ الأرض والجبال، وانشقاق السماء، وحفوف الملائكة بها.

ثم تُصور السورة مشهد الحساب، فالأبرار يأخذون كتب أعمالهم بأيمانهم ويطلبون من غيرهم قراءتها، والدنيا لا تسع فرحتهم وسعادتهم، والفجار يأخذون كتب أعمالهم بشمالهم، والحسرة تملأ قلوبهم، فلا المال نفعهم، ولا السلطة أو الجاه شفع لهم، وتتسابق الخزنة إلى تنفيذ القضاء الرهيب فيهم، وهو مشهد تنخلع له النفوس، ويرتعش له الحس والوجدان ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ [الآيات:٣٠-٣٣].

إنها مشاهد مروعة ومتعددة، فيها مشهد الناجي، ومشهد الهالك، مشهد الملائكة وحملة العرش، ومشهد الأرض وهي تدك، والسماء وهي تنشق، ومشهد العرض والحساب، فداوم - أيها الرسول ويا أيها المؤمن - على تسبيحك لله وحده واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

* * *

سُورَةُ الْمَعَارِجِ (٧٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المعارج) هي السورة السبعون في ترتيب المصحف، والثامنة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الحاقة) وقبل (سورة النبأ).

وعدد آياتها أربع وأربعون آية، ماعدا المصحف الدمشقي. فهي ثلاث وأربعون آية عنده.

وعدد كلماتها مئتان وأربع وعشرون كلمة، وتسع مئة وتسعة وعشرون حرفاً.

وسميت سورة المعارج في المصاحف، وفي كتب السنة والتفسير، وتسمى أيضاً سورة ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ وذكر السيوطي في الإتقان، أنها تسمى سورة (الواقع) وهذه الأسماء الثلاثة مقتبسة من كلمات وقعت في الآيتين من أوّل السورة، وهي سورة مكية باتفاق، ويمكن تقسيم السورة إلى **ثلاثة أقسام**:

القسم الأول: هو الرد على منكري البعث والنشور، بما في ذلك ذكر أهوال القيامة ومافيها من راحة ونصب، وسعادة وشقاء، وذكر أحوال المؤمنين والمجرمين في دار الجزاء والخلود، لاسيما حال المجرمين في ذلك اليوم الذي تتفطَّر فيه السماء، وتتطاير فيه الجبال في الهواء، وذلك بسبب استهزاء المكذبين بالدعوة والرسالة.

وقد جاء هذا من أول السورة إلى الآية الثامنة عشرة.

والقسم الثاني: يتحدث عن طبيعة الإنسان، وجزَعه عند الشر، ومنْعه للخير، وبَطَرِه للنعمة، ثم تَسْتثني السورة من ذلك المؤمنين، وتصفهم **بتسع صفات، هي**:

١- المداومة على الصلاة. ٢- وإخراج الزكاة.

٣- والإيمان بالبعث والنشور. ٤- والخوف من الجليل.

٥- وحفظ الفرج. ٦- وأداء الأمانة. ٧- والوفاء بالعهد.

٨- وعدم كتمان الشهادة. ٩- والمحافظة على الصلاة.

وتُعقّب السورة بذكر الكافرين بعد المؤمنين، لبيان حرمانهم من نعيم أهل الجنة. وهذا من الآية التاسعة عشرة إلى الآية الحادية والأربعين.

والقسم الثالث: فيه تسلية للنبي ﷺ للمضيّ في طريق الدعوة، وشحْذ همته لمواجهة مَصاعِبها وعنَتِ المكذبين لها، وتَرْكِهم في باطلهم حتى يَلْقَوْا ربهم فيجازيهم بأعمالهم.

وختمت السورة بالقَسم على أن البعث والجزاء حق لا ريب فيه، وأن الله تعالى قادر على أن يخلق خلقاً آخر، هم أطوع لله تعالى وأكثر استجابة ممن كذب بالبعث والنشور.

* * *

سُورَةُ نُوحٍ (٧١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة نوح) هي السورة الحادية والسبعون في ترتيب المصحف، والثالثة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة النحل) وقبل (سورة الطور)، أو إبراهيم.

وعدد آياتها في العدد الكوفي ثمان وعشرون آية[1].

وهي مئتان وأربعة وعشرون كلمة، وتسع مئة وتسعة وتسعون حرفاً.

وسميت سورة نوح: لعدم اشتمالها على موضوع آخر سوى قصة نوح عليه السلام.

وهي سورة مكية باتفاق.

وقد وردت قصة نوح مع قومه في سور: الأعراف ويوسف وهود والشعراء والعنكبوت والقمر.

وجاء ذكر اسم نوح في القرآن في ثلاثة وأربعين موضعاً.

وقد تكلمتُ بالتفصيل عن قصة نوح في سورتي الأعراف وهود بما أغنى عن إعادته.

ومن المشتهر أن نوحاً عليه السلام كان يسكن أرض الكوفة بالعراق، وهناك أرسل، واسم نوح غير عربي، وينتهي نسبه إلى شيث بن آدم عليهم السلام. وهو من كبار الرسل وأولي العزم منهم وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

موضوع السورة:

وسورة نوح كسورة يوسف في وحدة الموضوع، ففيها تفصيل لقصة نوح عليه السلام منذ بدء دعوته إلى حادثة الطوفان وإغراق المكذبين، فذكَرتْ جهاده وصبره

---

(١) وفي العدد المكي والمدني والحمصى ثلاثون آية، وفي العدد البصري والشامي تسع وعشرون آية.

وتضحيته في سبيل تبليغ الرسالة، ودعوته لقومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، في أطول مدة للرسالة، بلغتْ تسعة قرون ونصف، وهو زمن طويل، يتّسع لازْدهار دُوَل وانهيارها، ويتّسع لظهور مبادىء وزوالها، ومع ذلك فإن قوم نوح ﷺ ظلوا على ضلالهم،لا يتوبون، ولا يفكّرون في توبة، وكان الرجل منهم يأخذ بيد ولده، ويذهب به إلى نوح ﷺ ويقول لابنه: احذر هذا، فإنه كذاب، وإن أبي حذرني منه.

وبعد هذه القرون الطويلة التي أمضاها نوح ﷺ في البلاغ والتذكير، أعلمه ربه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وأنهم لن يلدوا إلا فاجراً كفاراً، فدعا عليهم نوح بالهلاك، فأغرقهم الله بالطوفان.

وفي أثناء دعوة نوح لقومه، ظهرت عبادة الأصنام، وبدأ منشؤها في العالم،

وكان من وسائل الإيضاح التي استخدمها نوح عليه السلام في دعوة قومه، أنْ عرض عليهم بعض دلائل التوحيد وآثار قدرة الله تعالى في هذا الكون، وهي موجبة لتوحيده جل شأنه ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [الآيات: ١٥-٢٠].

وقد أرست سورة نوح أصول العقيدة وتثبيت قواعد الإيمان، وأشارت إلى عذاب القبر واليوم الآخر، وقد بيّن نوح ﷺ لقومه أن توحيد الله تعالى هو الأصل والأساس في دعوة الرسل، فذكر لهم خمسة من آثار قدرته تعالى وهي:

١- مغفرة الذنوب. ٢- وتهيئة أسباب الرزق.

٣- وكثرة الأموال والأولاد. ٤- وكثرة المزارع والبساتين.

٥- وتفجير المياه العذبة من الأنهار والعيون.

ثم أقام نوح لقومه سبعة أدلة على وحدانية الله تعالى وهي:

١- تدرّج خلقهم. ٢- وخلْق السبع الطباق.

٣- وجعل القمر نوراً. ٤- والشمس ضياء.

٥- وإخراجهم من الأرض. ٦- وعودتهم إليها.

٧- وتمهيد الأرض للسعي في مناكبها.

وقد تلوّنت حكاية أقوال نوح، وأقوال قومه، وأقوال الله تعالى في السورة، وبلغ مجملها ثماني مقالات وهي:

١- ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ [الآية: ١].

٢- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الآية: ٢].

٣- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [الآية: ٥].

٤- ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ [الآية: ١٠].

٥- ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ [الآية: ٢١].

٦- ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [الآية: ٢٤].

٧- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [الآية: ٢٦].

٨- ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [الآية: ٢٨].

هذا: وإن وحدانية الله تعالى أمر مركوز في فِطَرِ البشر، بمقتضى الميثاق المأخوذ عليهم وهم في عالم الذر، ولكن هذا الإيمان يحتاج إلى جُهد بَشَرِي لإقراره في النفوس، وقد اختار الله تعالى لهذه المهمة صفوةً من البشر، أرسلهم إلى خلقه، عندما انحرف الناس عن هذه الفطرة.

وقوم نوح عليه السلام هم أول من عبد الأصنام، وكان الناس قبل ذلك أمة واحدة على دين واحد، هو التوحيد، ثم بدأ الاختلاف في التوحيد من عهد نوح عليه السلام، وكانت المدة بين آدم ونوح عليهما السلام نحو ست مئة عام، وكان عدد الناس وقتئذ لا يتجاوز بضعة آلاف.

سُورَةُ الجِنِّ (٧٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الجن) هي السورة الثانية والسبعون في ترتيب المصحف، والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الأعراف) وقبل (سورة يس).

وهي ثمان وعشرون آية باتفاق، ومئتان وخمس وثمانون كلمة، وثمان مئة وسبعون حرفاً.

وسميت سورة الجن: لانْفِرادها بالحديث عنه.

وتَرْجَم لها البخاري في كتاب التفسير: سورة ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾.

وهي سورة مكية باتفاق، أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: نزلت سورة ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾ بمكة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت سوة الجن بمكة[1]. نزلت سنة عشر من البعثة، عندما ذهب النبي ﷺ إلى سوق عكاظ، وصلّى بأصحابه صلاة الفجر في نخلة، واستمع إليه فريق من الجن، فرجعوا إلى قومهم يقولون ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ كما سيأتي.

وحدث مثل ذلك عندما سافر النبي ﷺ إلى الطائف يطلب النُّصرة من ثقيف، فآذَوه وأعرضوا عنه، وفي عودته إلى مكة، أرسل الله إليه نفراً من الجن، يستمعون إليه، ويجيبون دعوته، وكان هذا تطييباً لخاطر النبي ﷺ وتعويضاً له عن إعراض أهل الطائف عنه، وكأن الله تعالى يقول له: إن أعرض عن الإيمان بك عالم الإنس، فقد أرسلت لك عالماً آخر - هو عالم الجن - يؤمن بك ويصدقك.

موضوع السورة: وفي ذلك ستة مباحث:

أولاً: سورة الجن تعالج موضوعات القرآن المكي الثلاث: وهي الوحدانية، والرسالة،

---

(١) أخرجه ابن الضريس (١٧)، والنحاس (ص ٧٤٩)، والبيهقي في الدلائل (١٤٣/٧).

والبعث والجزاء، وقد جاء ذلك في صورة موجهة إلى الجن، كما جاء في سور أخرى كثيرة موجهة إلى الإنس، للدلالة على أن محمداً ﷺ قد أُرسل إلى الجن كما أُرسل إلى الإنس، فهو رسول الثقلين.

١- أما ما يتعلق **بالتوحيد** فقد جاء في هذه السورة في مثل قوله تعالى على لسان الجن:

أ- ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الآية:٢].

ب- وقوله ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الآية:٣].

ج- وقوله ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[الآية:١٨].

د- وقوله ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الآية:٢٠].

هـ- وقوله ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الآية:٢٢].

٢- أما ما يتعلق **باليوم الآخر**، فقد جاء في هذه السورة في مثل قوله تعالى على لسان الجن:

أ- ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ [الآية:٧].

ب- وقوله ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الآية:١٥].

ج- وقوله ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الآية:١٧].

د- وقوله ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الآية:٢٣].

٣ - أما ما يتعلق **بالرسالة والوحي**، فقد جاء في مثل قوله تعالى على لسان الجن:

أ-﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الآية:١].

ب- ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [الآية:١٣].

ج- ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[الآية:١٩].

د- ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الآية:٢٧].

ومحور السورة الأساس يدور حول عالم الجن، وما يتعلق بهم، وقد بدأت ذلك بالإخبار عن استماع فريق منهم للقرآن، وتأثّرهم به، وإيمانهم بخاتم المرسلين، ودعوتهم أقوامهم إلى الإيمان به، وتمجيدهم لله تعالى. وإفرادهم له بالعبادة، ومنعهم

من استراق السمع، بإرسال الشهب عليهم وإحراقهم، وبينت السورة أن الجن منهم المؤمنون ومنهم الكافرون ومنهم الأذكياء والأغبياء.

وبمقتضى الآيات السابقة، فإن في هذه السورة شهادة من الجن بوجوب إخلاص التوحيد والعبادة لله وحده، ووجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ وباليوم الآخر ومافيه من ثواب وعقاب.

وقد كان العرب يعتقدون أن للجن سلطاناً في الأرض بالنفع والضر، وأنهم يعلمون الغيب، فصحح القرآن هذه المفاهيم.

وقد أعطت السورة صورة واضحة عن عالم الجن، وصححت عقيدتهم التي أخذوها عن النصارى، في جعل المسيح ابناً لله، أو إلهاً معه، أو ثالث ثلاثة. فقد انتشرت هذه الفرية، في أرجاء الأرض، وبلغت الجن فعرفوها، ثم إنهم لما استمعوا إلى القرآن عرفوا ما يناقضها، وعرفوا أن الله تعالى واحد أحد، ليس له والد ولا ولد، فآمنوا بربهم قائلين ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الآية:٢].

ولما عرفوا خطأ ما كانوا يعتقدونه، رجعوا عنه مقرين أن الله تعالى ليس له زوجة وليس له ولد: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الآية:٣].

ولكن رجالاً من الإنس، استمعوا إلى هذا اللغو الذي ينطوي على عقيدة التثليث أو البنوة، فنشروه في الأرض، وضللوا به الجماهير الغفيرة.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: والواقع أن الخطأ إذا سلّحتْه الدّوْلة بعنفوانها، وأقامت له أبراجاً تدرسُه وتحميه، ترَكَ ظلاله في النفوس، واستقرت أوضاعه قروناً، وقد نشر الاحتلال الروماني عقيدة التثليث، واستطاع بالرغبة والرهبة أن يوطّىء لها الأكناف، ولولا أن محمداً ﷺ درّع الحق الذي بُعث به، وفداه بالنفس والمال، لجعله الرومان في خبر كان، ومن أين كان يَعْلم الجن أن الله واحد، لا ولد له ولا والد، لولا الدعاة الذين حملوا الكتاب هنا وهناك، وقرعوا به الآذان[1].

---

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم (ص ٤٨٢).

وقد ختمت السورة ببيان اختصاص الله تعالى بعلم الغيب، وإحاطته بجميع ما في الكائنات والتبرىء إلى الله تعالى من الحول والطول.

وتنتهي السورة بما بدأت به من إخلاص التوحيد لله تعالى، فقد بُعث النبي ﷺ لمجاهدة الشرك والخرافة ومقاومة الضلال والانحراف.

ثانياً: عالم الجن:

وعالم الجن من المخلوقات الخفية اللطيفة، فهو عالم غير مرئيٍ لنا، مخلوق من عنصر ناري، وله حياة وإرادة وإدراك، وهو منتشر في أماكن مجهولة، ليست على سطح الأرض ولا في السموات، وهو من عالم الغيب، لا تراه الأبصار، ولا تدركه الأسماع في العادة، وقد أعطى الله الجن قدرة على التشكل بأشكال مختلفة.

وكان العرب يعتقدون في الجن، وينسبون إليهم بعض التصرفات، فيعتقدون أن لهم سلطة وقدرة على النفع والضر، ولذا فقد كانوا يتّقُونهم، ويتعوّذُون منهم، ويذبحون لهم القرابين، ويعتقدون أن الكاهن تأتيه الجن بالخبر من السماء، وأن الشاعر له شيطان يوحي إليه بالشعر، ومن العرب من زعم أن الملائكة بنات الله، أمهاتهم سرَوَات الجن - أي أشرافهم - وهم قريش وجُهينة وبنو سلمة وخزاعة وبنو مُليْح.

وبعض مجوس العرب عبدوا الشيطان، وزعموا أنه إله الشر، والتاريخ يعيد نفسه، فها نحن نجد عبدة الشيطان في زماننا، قالوا: مادام الشيطان يوسوس للإنسان ويتسلط عليه، فلماذا لا نرضيه ونعبده؟!

قال القرطبي: واختلف الناس في أصل الجن، فعن الحسن البصري: أن الجن ـ أي المتمردون منهم ـ ولد إبليس، والإنس ولد آدم.

ومن هؤلاء، وهؤلاء مؤمنون وكافرون، وهم شركاء في الثواب والعقاب، فمن كان مؤمناً فهو ولي الله، ومن كان كافراً فهو شيطان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الجن هم ولد الجان، وليسوا بشياطين، ومنهم

المؤمن والكافر، والشياطين هم ولد إبليس، لا يموتون إلا مع إبليس[1] عند النفخة الأولى.

وقد أخبر الله تعالى أن الجن خلقوا من مارج من نار، وأن منهم الصالح والطالح، والعاقل والأبله، ومنهم المسلم والكافر، كما جاء على لسانهم: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الآية:١١] وهم قادرون على الأعمال الشاقة، و على فعل الخير والشر.

وقد سخر الله الشياطين لسليمان، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، ومنهم مردة الجن، كمردة الإنس، ومنهم الشيطان المارد، العاتّ الطاغية، ومنهم العفريت سريع الحركة والتنقل، وهم يأكلون ويشربون، ويتناكحون ويتناسلون كالإنسان.

ثالثاً: رسول الثقليْن:

وقد بُعث النبي ﷺ إلى الجن، كما بعث إلى الإنس، فدعاهم إلى التوحيد، وأنذرهم، وبلّغهم القرآن، وبلّغهم أنهم محاسبون على أعمالهم يوم القيامة كما يحاسب الناس، كما صرح بذلك الكتاب والسنة، مما يفيد القطع بأن الجن والشياطين موجودون، متعبدون بالأحكام الشرعية، وأن من دخل منهم في الإسلام فهو من المؤمنين، ومن لم يدخل فيه فهو من الكافرين.

وقد تعددت الروايات في لقاء النبي ﷺ بالجن، منها ما يفيد أنهم استمعوا إليه صُدْفة دون أن يراهم، ومنها ما يفيد أنه التقى بهم قَصْدا وقرأ عليهم القرآن.

قال الألوسي: وقد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن على النبي ﷺ كانت ست مرات، ويُجمع بذلك بين اختلاف الروايات في عددهم، وأسمائهم، وأماكن الالتقاء بهم، وأنه كان تارة قصدا، وتارة مصادفة.

رابعاً: من الأحاديث الواردة في قصة الجن:

١- ما جاء في الصحيحين عن علقمة أنه سأل عبد الله بن مسعود ﷺ عن لقاء

(١) تفسير القرطبي (١٩/٥).

النبيﷺ بالجن، فقال: كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، وقلنا: إنه اغتيل، فبتْنا شرّ ليلة، فلما أصبحْنا إذ به قدم علينا من جهة جبل حراء، فلما سألناه قال: «**أتاني داعي الجن، فذهبتُ معهم، فقرأتُ عليهم القرآن**»، ثم أخذهم النبي ﷺ فأراهم آثارهم، وسألوه عن زادهم فقال: «**كل عَظْم ذُكر اسم الله عليه، يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما، وكل بعْرة أو روْثة، عَلَفٌ لدوابكم**» قال ﷺ: «**فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم**»[(١)] فالعظم يتحول في أيدي الجن إلى لحم.

وهذا الحديث يفيد أن النبي ﷺ كان وحده حين قرأ القرآن على الجن وأن هذه الحادثة مختلفة عما:

٢- جاء في الصحيحين وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: أن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء، فلما بُعث النبي ﷺ مُنعوا من استراق السمع، وأُرسلتْ عليهم الشهُب، فلما حدث ذلك قال لهم سيدهم: لابدّ وأن يكون قد حدث أمر، حالَ بينكم وبين خبر السماء، فانطلَق الشياطين في مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما حدث؟ فتوجّهُوا إلى تِهامة، فوجدوا رسول الله ﷺ قد قصد سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه الفجر، في مكان اسمه نخلة بين مكة والطائف، فلما سمعوا القرآن، تسمّعُوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم يقولون لهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ وأنزل الله سورة الجن[(٢)].

٣- وأخرج الترمذي وغيره عن ابن عباس رضي الله عنها قال: كان الجن يصعدون إلى السماء يسمعون الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً وتسعين، فأما الكلمة

---

(١) ينظر الحديث في صحيح مسلم برقم (٤٥٠،١٥١)، والبخاري (٣٨٥٩)، وأبوداود (٨٥)، والترمذي (٣٢٥٨)، والكبرى للنسائي (١١٥٥٩،٣٩)، والمسند (٤١٤٩)، وابن حبان (١٤٣٢).

(٢) ينظر الحديث في صحيح البخاري برقم (٤٩٢١،٧٧٣)، وصحيح مسلم (٤٤٩)، والترمذي برقم (٣٣٢٣،٤٢٧)، والمسند بتصحيح أحمد شاكر برقم (٢٤٣١)، وبتحقيق د/ التركي وغيره (٢٢٧١)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦٢٤،١١٥٦٠)، والحاكم (٥٠٣/٢)، والطبراني في الكبير (١٢٤٤٩).

فتكون حقا، وأما ما زاد فيكون باطلاً، فلما بُعث رسول الله ﷺ مُنعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يُرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا أمر قد حدث في أرض، فبعث جنوده، فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين، أُراه قال بمكة، فأتوه فأخبروه فقال: هذا الذي حدث في الأرض(١).

٤- وروى الترمذي وغيره عن جابر ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن إلى آخرها فسكتوا، فقال: «**لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن رداً منكم، كلما أتيتُ على قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد**»(٢).

٥- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن الجن هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا أنصتوا، وكانوا تسعة، أحدهم زوبعة، فأنزل الله آية الأحقاف(٣).

قال عبد العزيز بن عمر: أما الجن الذي لقوه بنخلة، فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة، فجن نصيبين(٤).

٦- وأخرج ابن المنذر عن عبد الملك قال: لم تُحرَس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، فلما بعث الله محمداً ﷺ حُرِسَت السماء الدنيا، ورُمِيتْ الجن بالشهاب، فاجتمعت إلى إبليس فقال: لقد حدث في الأرض حدث، فتَعرَّفُوا، فأخْبِرُونا ما هذا الحدث؟ فبعَث هؤلاء النفر إلى تِهامة، وإلى جانب اليمن، وهم أشراف الجن وسادتُهم، فوجدوا النبي ﷺ يصلي صلاة الغداةِ بنخلَة، فسمعوه يتلوا القرآن ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ

---

(١) سنن الترمذي (٤٢٧/٥) برقم (٣٣٢٤)، والنسائي (٦٤٦)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٤٦)، وصححه محققو المسند (٢٤٨٢)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٨٨/١٤)، والنسائي في الكبرى (١١٥٦٢)، والطبراني (١٢٤٣١).

(٢) سنن الترمذي برقم (٣٢٩١)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين (٢٧٣/٢) ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب (٢٢٦٤)، وفي الدلائل (٢٣٢/٢) ورجاله ثقات.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤٥٦/٢) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) تفسير ابن كثير (٢٩٦/٨).

﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ﴾ يعني بذلك أنه فرَغ من صلاة الصبح ﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩] مؤمنين، لم يشعر بهم حتى نزل ﴿قُلۡ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي: سبعة من أهل نَصيبين[1].

٧- وفي سيرة ابن إسحاق وابن هشام: ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من ثقيف، حتى إذا كان بنخلة، قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تعالى، وهم - فيما ذكر لي- سبعة نفر من جن نصيبين، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته، وَلّوْا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا، وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله خبرهم عليه.

فهذه الروايات إلى جوار غيرها، مما هو في الباب، تفيد كثرة التقاء النبي ﷺ بالجن، لدعوتهم إلى الإسلام، وأن أعدادهم كانت تختلف في كل مرة، وكان النبي ﷺ يقصد دعوتهم أحياناً، وكانوا يستمعون إليه مصادفة أحياناً أخرى، ويخبره ربه بذلك، كما يَظْهَرُ من مطلع هذه السورة.

والأحاديث يفسر بعضها بعضا، فالرواية التي تقول (ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم)[2] توضحها الروايات الأخرى، بتعدد لقائه بهم ووفادتهم عليه ﷺ.

والمعنى: أن النبي ﷺ لم يكن عنده علم حين استمع الجن إليه وهو يقرأ القرآن، فهو لم يرهم ولم يقصد القراءة عليهم في هذه المرة.

خامساً: مصير الجن:

واختلفوا في جزاء الجن يوم القيامة:

فقال أبوحنيفة: ليس للجن ثواب، إلا أن يُجازَوْا من عذاب النار، ثم يقال لهم: كونوا تراباً، مثل البهائم.

---

(١) الدر المنثور (٦/١٥)، وأخرجه الطبري (٢١/١٦٤)، والبيهقي في الدلائل (٢/٢٤١)، وكلاهما عن ابن عباس.

(٢) كما جاء في رواية ابن عباس عند الترمذي (٥/٤٢٦)، وصححه الألباني وأحمد شاكر في المسند (٢٤٣١) وسبق تخريجه في آخر سورة الأحقاف.

وقال مالك والشافعي: كما يُجْزَوْن على الإساءة، يُجزون على الإحسان، ويدخلون الجنة[١].

سادساً: لا يوجد رسل من الجن:

ورسل الله تعالى إلى الإنس والجن، لا يكونون إلا من الإنس، ولم يثبت أن الله تعالى أرسل رسلاً من الجن إلى البشر، ولا إلى الجن ورسالة النبي ﷺ إلى الجن من خصائصه ﷺ.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ﴾[الأنعام:١٣٠] أي رسل تعرفونهم وتسمعونهم، و﴿مِن﴾ في قوله تعالى ﴿مِنكُمۡ﴾ ليست للتبعيض، وإنما هي ﴿مِن﴾ الاتصالية، مثل قولهم (لست مني ولست منك).

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٦٢).

سُورَةُ المزمل (٧٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ـ (سورة المزمل) هي السورة الثالثة والسبعون في ترتيب المصحف، وهي السورة الثالثة في ترتيب النزول على الأرجح، نزلت بعد (سورة المدثر) وقبل (سورة القلم).

وعدد آياتها عشرون آية في العدد الكوفي[1]، وهي مئتان وخمس وثمان مئة كلمة،وثمان مئة وثمانية وثلاثون حرفاً، ولم يُعرف لها اسم آخر سوى سورة المزمل.

وهي سورة مكية بما فيها الآية الأخيرة على الأرجح، فقد قيل إنها نزلت بعد سنة،من نزول بقية السورة قبلها، وقيل: نزلت بعد عشر سنين.

٢ ـ موضوع السورة:

أ ـ تناولت السورة في أولها جانباً من تبتُّل النبي ﷺ في قيام الليل قبل أن تُفرض الصلاة عليه وعلى أمته، وقد تضمن ذلك طول تلاوة النبي ﷺ للقرآن في صلاته، وحُسْن ترتيله له، واغتنام ساعات الليل في التهجد والعبادة، فهي ممارسة شاقة على النفس، تُروّضها وتُهذّبها، وتشدُّ عزمها، وتشْحذُ همتها.

وفي النهار وقت طويل متسع لشؤون الدنيا، وقد جاء هذا في الآيات التسع الأولى من السورة.

ب ـ وبعد هذا الإعداد الروحي والبدني، أمر الله رسوله أن يصبر على أذى المكذبين له، ويترك أمرهم لربه، فإنه المتكفل بنصره عليهم، والله تعالى سيتولى جزاءهم الذي توعّدهم به من النكال والعذاب يوم القيامة، فعند الله تعالى: ﴿أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الآيتان:١٢،١٣] ويتم هذا في يوم ترجف فيه الأرض والجبال، وتشيب فيه رؤوس الأطفال، وتتفطر فيه السماء.

---

(١) وتسع عشرة آية في العدد المكى والبصري والشامي، وثماني عشرة آية في العدد المدني.

فآمنوا ـ أيها الناس ـ بالله ورسوله حتى لا يصيبكم مثل ما أصاب فرعون وقومه من العذاب بالغرق، حين كذبوا نبيهم موسى عليه السلام.

وقد جاء هذا من الآية العاشرة في السورة إلى الآية التاسعة عشرة.

والآية الأخيرة نزلت لتخفيف قيام الليل على الأمة، وتقليل القراءة فيه، وجَعْلِه نافلة بعد أن كان فريضة، والاكتفاء بقيام بعض الليل، مراعاة لمختلف أحوال الناس كالمرضى، والمجاهدين في سبيل الله، والساعين على أرزاقهم، ووعد الله تعالى بالجزاء العظيم على فعل الخيرات من فرائض ونوافل.

٣ ـ سبب النزول:

أ ـ جاءت روايات مشتركة بين سورتي المدثر والمزمل في سبب النزول، تتحدث عن نزول الوحي، وذلك أن النبي ﷺ كان يتعبد شهر رمضان من كل عام في غار حراء بجبل النور، قبل البعثة بثلاث سنوات، وبينما هو نائم ﷺ ذات ليلة، إذ نزل عليه جبريل عليه السلام، ومعه كتاب في نمط من ديباج، فقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، فضمه جبريل إليه حتى بلغ منه الجَهْد، ثم أرسله وقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، أي لا أعرف القراءة، فأعاد ذلك للمرة الثالثة، ثم قال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥] قال: فقرأتُها، وابْتعد جبريل، فسمعتُ صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، فكلما رفعتُ رأسي في الأفق وجدتُ جبريل، فما زلتُ واقفاً في مكاني حتى بعثَتْ خديجة في طلبي، فرجعتُ، فقالت: يا أبالقاسم: أين كنت؟ فحدثتُها بالذي رأيت فقالت: أبشِرْ يا بن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده: إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، وفتر الوحي مدة، إلى أن جاء مرة أخرى، فأدركتْني رجفة، ورجعتُ إلى أهلي أقول: زملوني، دثروني، ففعلوا وهو يرجف، وإذا بجبريل يناديه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ وقيل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾[١].

---

(١) مختصراً من رواية ابن إسحاق عن وهب بن كيسان عن عبيد، ومن الروايات الواردة في بدء نزول الوحي في الصحيحين وغيرهما.

ب ـ وورد أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة تُدبّر كيداً للنبي ﷺ فاغتمّ لذلك، والتف بثيابه، وتزمّل ونام مهموماً فنزل عليه جبريل بالسورة[١] ما عدا الآية الأخيرة منها فقد تأخر نزولها عاماً كاملاً، بعد أن تورمت قدما النبي ﷺ من طول القيام، للتخفيف عنه وعن أمته[٢].

جـ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**جاورتُ بحراء، فلما قضيتُ جواري، هبطت، فنُوديت، فنظرتُ عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، فرفعتُ رأسي، فإذا الذي جاءني بحراء، جالس على كرسيّ بين السماء والأرض، فرجعتُ فقلت: دثروني، زملوني**»[٣].

وهذه الرواية تفيد أن جبريل عليه السلام نزل هذه المرة بعد أن قضى النبي تحنثه في غار حراء، وأنه ﷺ قد نبىء بـ ﴿ٱقْرَأْ﴾ كما في الرواية الأولى، وأرسل بـ ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ كما في هذه الرواية.

٤ ـ قيام الليل له معنيان:

الأول: قيام الليل، بمعنى صلاة التراويح في شهر رمضان، وهو سنة مستحبة، منذ كان، ولم يُفرض هذا القيام قط، لما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قام ليلة في رمضان خلْف حصير احتجره، فصلى، وصلى بصلاته ناس، ثم كثُروا في الليلة القابلة، ثم غصّ المسجد بهم في الثالثة أو الرابعة، فلم يخرج إليهم، فغصُّوا ببابه، فخرج مغضَباً، وقال: «**إنما تركت الخروج لأني خفت أن يفرض عليكم**»[٤].

---

(١) جاء هذا عن جابر عند البزار (٢٢٧٦)، كشف، والطبراني في الأوسط (٢٠٩٦)، وأبونعيم في الدلائل، كما في الدر المنثور (٣٥/١٥)، وفي سنده مقال، ينظر: مجمع الزوائد (١٣٠/٧).

(٢) جاء هذا في صحيح سنن أبي داود (١١٥٧)، وعند ابن أبي شيبة (١١٨/١٤)، والطبري (٣٥٨/٢٣)، والطبراني (١٢٨٧٧)، والحاكم (٥٠٥/٢)، والبيهقي في السنن (٥٠٠/٢) عن ابن عباس.

(٣) ينظر صحيح البخاري (٤٩٢٢) وما بعده، وصحيح مسلم (١٦١).

(٤) ينظر الأحاديث في صحيح مسلم عن عائشة (٧٦١،٧٨٢)، والبخاري (٧٣٠،١١٢٩،٥٨٦١،٧٢٩).

أما اجتماع الناس لها، فكان ذلك بالمدينة بعد أن فُرض الصيام في السنة الثانية

الثاني: أما قيام الليل بمعنى صلاة التهجد، فقد فُرض على الأمة في الأصح بنزول أول سورة المزمل، ثم خفف الله عنهم بعد عام أو أكثر، فجعله تطوعاً، وخفف من وقته، وكان هذا بمكة قبل أن تفرض الصلاة،

وارتباط أول السورة بآخرها يشير إلى أن قيام الليل كان مفروضاً على الأمة أيضاً، لأن الله تعالى قال فيها ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ [الآية:٢٠].

ولم يمت النبي ﷺ إلا وقد كان القيام تطوعاً، وقبل ذلك كان الرجل لا يدري متى ثلث الليل ومتى ثلثاه، فيقوم الليل كله حتى يصبح، مخافة ألاّ يتم القدْر المطلوب، واشتدّ ذلك عليهم، حتى انتفخت أقدامهم، فرحمهم الله وخفف عنهم.

وكان بين نزول أول السورة وآخرها، سنة، أو ستة عشر شهراً، على قول، فنسخت فَرْضِيَّةُ قيام الليل بالنسبة للأمة، وَبقيتْ هذه الفرضيّة بالنسبة للنبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزل أول المزمل، كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها نحوٌ من سنة[(١)].

وفي حديث سعد بن هشام، أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قيامه ﷺ بالليل فقالت: ألست تقرأ: يا أيها المزمل؟ إن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حَوْلاً، حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله ختامها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل التخفيف، في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد الفريضة[(٢)].

(١) أبوداود (١٣٠٥)، وقد حسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١١٥٧)، والبيهقي في السنن (٢/٥٠٠)، والطبراني (١٢٨٧٧)، والحاكم (٢/٥٠٥)، وابن أبي شيبة (١٤/١١٨).

(٢) من حديث طويل في صحيح مسلم برقم (٧٤٦)، والمسند (٦/٥٤)، (٢٤٢٦٩)، وأبي داود (١٣٤٢،١٣٤٣)، والنسائي (١٦٠٠)، والبيهقي في السنن (١/٣٥٨).

ووصف الله قُوام الليل بقوله: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ [السجدة:١٦].

وبأنهم ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات:١٧،١٨].

ونفى القرآن التسوية بينهم وبين غيرهم في قوله ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾ [الزمر:٩].

وعدّهم سبحانه من عباد الرحمن فقال ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾[الفرقان:٦٤].

هذا: وصلاة التراويح تخصّ شهر رمضان وتكون بعد صلاة العشاء، أما صلاة التهجد أو صلاة القيام فتكون بعد منتصف الليل، ويطلق عليهما صلاة الوتر، لأن النبي ﷺ لم يزد في رمضان ولا في غيره عن أحد عشر ركعة، إلا أنها كانت صلاة طويلة، فمن زاد في عدد ركعاتها كان ذلك نظراً لخفّة الصلاة وقلة القراءة فيها، والله أعلم.

٥ ـ ومن الأحاديث الواردة في فضل قيام الليل:

أ ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله؟ وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[١].

فصلاة الليل من شكر المنعم سبحانه على ما أسبغ الله على العبد من نعم ظاهرة وباطنة.

ب ـ وصلاة الليل هي أفضل النوافل بعد الفريضة لحديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أفضل الصيام بعد الفريضة، شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**»[٢].

جـ ـ وفي الليل ساعة إجابة: عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إياه، وذلك كل ليلة**»[٣].

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٣٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٠)، وعن المغيرة بن شعبة برقم (٢٨١٩)، والبخاري (١١٣٠،٤٨٣٦).

(٢) صحيح مسلم برقم (١١٦٣، ١١٦١٢).

(٣) صحيح مسلم برقم (٧٥٧).

د ـ ويبدأ المسلم صلاة الليل بركعتين خفيفتين:

عن أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح الصلاة بركعتين خفيفتين**»[1].

هـ ـ وقيام الليل مسؤولية الزوجين: كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**رحم الله رجلاً قام من الليل، فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت الماء في وجهه**»[2].

و ـ وقد ربط النبي ﷺ بين الثناء على العبد وبين صلاة الليل:

فعن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أبيه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**نعم الرجل (عبد الله) لو كان يصلي من الليل**»، قال سالم: فكان (عبد الله) بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً[3].

ز ـ وتزيد عدد الركعات أو تنقص حسب طول الصلاة وقصرها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بت عند خالتي ميمونة، فقام النبي ﷺ يصلي من الليل، فصلى ثلاث عشرة ركعة، منها ركعتا الفجر، فحرزتُ قيامه في كل ركعة بقدر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾[4].

حـ ـ وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره، عن إحدى عشرة ركعة[5]، وهذا بالنسبة لصلاة الوتر.

٦ ـ الحياة الجادة:

وقد حددت آية سورة الأنعام سيرة النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي

---

(١) صحيح مسلم برقم (٧٦٨)، وأبوداود (١٣٢٣،١٣٢٤).

(٢) أبوداود برقم: (١٣٠٨)، وابن ماجة برقم (١٣٣٦)، وابن حبان برقم (٦٤٦)، والمسند (٧٤١٠) بإسناد قوى (محققوه)، وأخرجه ابن خزيمة (١١٤٧)، والحاكم (١/ ٣٠٩)، والبيهقي في السنن (٢/ ٥٠١).

(٣) البخاري برقم (١١٢١،٣٧٤٠)، ومسلم برقم (٢٤٧٩)، والنسائي (٢٥٣/٣).

(٤) صحيح سنن أبي داود (١٢١٦)، والبيهقي في السنن (٨/٣)، وسنن أبي داود (١٣٦٥).

(٥) البخاري (١١٤٧،٣٥٦٩)، ومسلم (٧٣٨).

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [آية:١٦٢].

فإذا كانت حياة بعض الناس خليط من الحق والباطل، والجد والهزل، والراحة والتعب، فإن النبي ﷺ كانت حياته كلها كدْحاً موصولاً، وسبْحاً طويلاً، ولم يكن ذلك استكمالاً لأمجاد النبوة، بل كان لتكوين جيل يغيّر مسار البشر إلى يوم الساعة، ويقيم للحق مناراً لا تطفئه العواصف.

إن السنوات التي قضاها النبي ﷺ في هذه الدنيا لم تكن لإصلاح عصر معين، بل كانت لإعداد رجال يحرسون عقيدة التوحيد في كل زمان ومكان.

إن محمداً ﷺ كان أخشى الناس لله، وأشدهم إحساساً بقرب لقاء ربه، وكان الجيل الذي يحفُّ به يتأسّى به، ويحيى على غراره، فليس غريباً أن يقوم الليل مثله، ويشد أزره في مكافحة الضلال.

ولكن الله سبحانه رحم الأمة، واستبقى فريضة قيام الليل على نبيه خاصة، واكتفى من المؤمنين بما تيسر(١).

قال الفخر الرازي: وإنما كُلف رسول الله ﷺ وأصحابه بقيام الليل، ليكون ذلك حافزاً لهم على الاستعداد الكامل لمجابهة خصوم الدعوة، وتربيتهم التربية الجسمية والروحية، على أكمل الوجوه، حتى يصبروا على تحمل المشاق والصعاب، وتجشُّم الأهوال والأخطار، ويستفيدوا من هذه التربية بما يجعلهم يتغلبون على كل أمر عسير يعرض لهم، وقد كان من أثر هذه التربية الروحية، أن مَلَكَ المسلمون مشارق الأرض ومغاربها بجهادهم وصبرهم وتحملهم للأذى في سبيل الله(٢).

* * *

(١) ينظر: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن (ص ٤٨٥).

(٢) التفسير الكبير (١٧١/٣).

سُورَةُ الْمُدَّثِّر (٧٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المدثر) هي السورة الرابعة والسبعون في ترتيب المصحف، والثانية في ترتيب النزول، فلم ينزل قبلها إلا صدْر (سورة العلق) في غار حراء، وبها نبىء النبي ﷺ، ثم نزلت (سورة المدثر)، وبها أُرسل ﷺ وكان نزولها في السنة الأولى من البعثة.

وسميت سورة المدثر، باسم ثاني كلمة فيها، وهي سورة مكية باتفاق.

وعدد آياتها ست وخمسون آية عند أهل البصرة والكوفة والمدني الأول، وخمس وخمسون آية عند المكي والدمشقي والمدني الأخير.

وهي مئتان وخمس وخمسون كلمة، وألف وعشرة أحرف.

سبب النزول:

في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يُحدّث عن فترة الوحي قال: «**فبينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ بصري قِبَلَ السماء، فإذا الملَك الذي جاءني بحراء، قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثْتُ منه حتى هويتُ إلى الأرض، فجئتُ إلى أهلي، فقلت: زملوني، زملوني، فزملوني، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إلى ﴿فَٱهْجُرْ﴾ ثم حَمِيَ الوحي وتتابع**»[1].

والحديث ينطق أن الوحي قد نزل بالمدثر بعد فترة انقطاع من نزول أول سورة العلق، وأن هذه هي المرة الثانية له، وكانت بعد أربعين يوما على الأرجح.

وفي حديث جابر أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «**جاورتُ بحراء، فلما قضيتُ جواري هبطتُ، فنُوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً،**

(١) ينظر: صحيح مسلم برقم: (١٦١،٢٥٥) وصحيح البخاري برقم: (٤٩٢٤،٤٩٢٦،٤٩٥٤) والترمذي (٣٣٢٥) وأحمد في المسند (١٤٢٨٧) وعبد الرزاق (٣٢٧/٢) وابن أبي شيبة (٢٩٤/١٤) وابن حبان (٣٤،٣٥).

ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي، فرأيت شيئا، فأتيت خديجة، فقلت دثّروني، وصُبّوا عليّ ماءً باردا، قال: فدثّروني، وصَبوا عليّ ماء باردا، قال: فنزلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾»[1].

فهي أول ما نزل بعد فترة الوحي، وقد جاء جبريل هذه المرة وهو جالس على كرسي بين السماء والأرض.

ونزل فيهما بالرسالة على النبي ﷺ، أما المرة الأولى فقد نزل فيها بالنبوة، وكان ذلك في غار حراء.

موضوع السورة في خمس نقاط:

١ـ المحور الأساس الذي تدور حوله السورة، هو تكليف النبي ﷺ بأعباء الرسالة، والقيام بالتبليغ، وإنذار المشركين بالله تعالى، للإقلاع عن شركهم، والصبر على الأذى في سبيل الله، والاستعداد لهذا الكفاح الشاق بترك النوم والتدثر، وذلك في الآيات السبع الأول من السورة.

٢ ـ وفي الآيات الثلاث التي تليها حديث عن يوم القيامة، تشير إلى النفخ في الصور وعُسر هذا اليوم على الكافرين، وقد تحدثت السورة عن تهديد ووعيد الجاحدين المنكرين للتوحيد، المكذبين للرسالة، بيوم عصيب يشتد عذابه وأهواله وشدائده.

٣ ـ والآيات من (١١ - ٣٠)، تتحدث عن الوليد بن المغيرة، الذي اغتر بماله وجاهه وولده، فكذب القرآن، وأنكر خاتمة الرسالات، وزعم أن القرآن من السحر الذي تعرفه البشر، فكانت ﴿سَقَرُ﴾ نهايته.

٤ـ ثم تحدثت آيات السورة عن النار التي توعد الله بها الكفار، و تحدثت عن زبانيتها وخزنتها وعددهم، وبينت الحكمة في تخصيص هذا العدد، وأقسم سبحانه

---

(١) ينظر: صحيح البخاري برقم: (٤٩٢٢،٣٢٣٨) وصحيح مسلم (٢٥٦-٢٥٨) والطيالسي (١٧٩٣) والبيهقي في الدلائل (٢/١٥٥) وأبونعيم في الدلائل (١/٢١٥).

وتعالى بالقمر والليل والصبح، على أن النار أكبر البلايا وأعظم الدواهي التي يُنذر الله بها البشر، وذلك في الآيات من واحد وثلاثين إلى السابعة والثلاثين.

٥ ـ وبينت آيات السورة أن كل نفس مرهونة بعملها عدا أصحاب اليمين، فذكرت الحوار الذي يجري بين المؤمنين والمجرمين عن أسباب استحقاق المجرمين لعذاب جهنم وهى أربعة أمور:

أ ـ عدم الصلاة. ب ـ وعدم إطعام المسكين.

جـ ـ والخوض مع الخائضين. د ـ والتكذيب بيوم القيامة.

وأنهم استمروا على ذلك حتى الموت، وكان هذا من الآية السابعة والعشرين إلى الآية السابعة والأربعين.

٦ ـ وختمت السورة ببيان أسباب إعراض المكذبين، وعدم استجابتهم للحق، فبين تعالى أنهم لم ينتفعوا بالمواعظ، فانصرفوا عنها كالْحُمُر الوحشية، وحسدُوا صاحب الرسالة، فطمعوا أن يكونوا مثله في الوحي والرسالة، وهم فضلاً عن ذلك لا يؤمنون بالبعث والنشور. ولذا: فإنهم لا ينتفعون بشفاعة أحد يوم لقاء الله، وهذا من الآية الثامنة والأربعين إلى نهاية السورة.

وبهذا فإن السورة تناولتْ موضوعات القرآن المكي، فأمرتْ بوحدانية الله تعالى، والتطهير من الشرك، وترك عبادة الأوثان، وهذا هو جانب التوحيد.

وتحدثت عن الوحي والرسالة: فأمرتْ النبي ﷺ أن يبلغ رسالة ربه، وهذا هو الجانب الثاني.

وتناولت اليوم الآخر ومافيه من نعيم لأهل اليمين، ونار سقر للمجرمين، وهذا هو الجانب الثالث من موضوعات القرآن المكي.

* * *

سُورَةُ الْقِيَامَةِ (٧٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة القيامة) هي السورة الخامسة والسبعون في ترتيب المصحف،والحادية والثلاثون في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة القارعة) وقبل (سورة الهُمزة).

وعدد آياتها في المصحف الكوفي والحمْصي أربعون آية، وتسع وثلاثون آية في بقية المصاحف.

وهي مئة وتسع وتسعون كلمة، وست مئة واثنان وخمسون حرفاً.

وتسمى (سورة القيامة) لذكر هذا اللفظ في أولها، وسماها بعضهم (سورة لا أقسم).

وهي سورة مكية خالصة، نزلت في أوائل العهد المكي.

موضوع السورة:

١- المحور الأساس للسورة: هو الحديث عن يوم القيامة ومافيه من بعث وحساب وجزاء على الأعمال والأقوال، وما يلقاه الناس، لاسيما الكافر، من الأهوال والشدائد، ومن علامات هذه الأهوال: خسْف القمر، وتحيّر البصر، وجمْع الشمس والقمر.

والإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، والحديث عنه من علامات القرآن المكي.

إلى جوار الحديث عن الوحي والرسالة في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[الآيات: ١٦-١٩].

وتخلُّص السورة إلى توحيد الخالق سبحانه في قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الآية:٤٠].

وهذه العناصر الثلاثة، هي مكونات القرآن المكي.

٢- وقد بدأت السورة بالقسم بالقيامة، والقسم بالنفس اللوامة، عن أن البعث حق لاريب فيه، ومضت الآيات في الحديث عنهما من مطلع السورة إلى ختامها، وفي ثنايا

ذلك ذكرت السورة، ثلاثاً من علامات الساعة، هي: تحيُّر البصر، وذهاب نور القمر،وطلوع الشمس والقمر معاً من المغرب.

وفي ثنايا السورة أيضاً أربع آيات عن اهتمام النبي ﷺ بتلقي الوحي، وإجهاد نفسه في متابعة جبريل عليه السلام. واهتمام النبي ﷺ بتلقِّي القرآن عند تلاوة جبريل عليه حرصاً على حفظه وضبطه، فأمره ربه ألا يُسرع في تلقيه، ولا يَعْجَل في ذلك.

٣- وفيما عدا ذلك فقد بينت السورة أن القيامة حق، وأن الإنسان يُنبأ فيها بما قدم وأخر، وأن الناس فيها إما سعداء، تتلألأ وجوههم نوراً، ويَحْظَوْن بالنظر إلى وجه الله الكريم، وإما أشقياء، وجوههم قاتمة مظلمة يعلوها الذل والقتَرة.

٤- وتحدثت آيات السورة عن وقت الاحتضار، والإنسان يعالج سكرات الموت، ويبحث الناس له عن علاج دون جدوى، حيث تيقن أنه مفارق للدنيا، مقبل على ربه.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [الآية:٢٩] إلى أين؟ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [الآية:٣٠].

فإن كان المحتضر من الكافرين، فإنه يَلْقى من الشدائد عند خروج الروح، ومن العذاب يوم القيامة، ما لا يعلمه إلا الله، ذلكم لأن الإنسان لم يُخلق عبثاً في هذه الحياة، بلا هدف ولا غاية، فقد أوجده الله تعالى من العدم، ومنَحه نعمة الحياة، وقال له: افعل، ولا تفعل، لئلا يستوي يوم القيامة من أطاع ومن عصى، ومن آمن، ومن كفر، والذي بدأ خلْقه من نطفة، قادر على إعادته بعد الموت، للحساب والجزاء، حيث يكون الناس فريقان: سعداء وأشقياء، إلى جنة أو نار.

٥- قال عمر بن الخطاب ﷺ: من سأل عن القيامة، أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعها، فليقرأ هذه السورة[1].

وقال المغيرة بن شعبة ﷺ: يقول الناس: القيامة، القيامة، وإنما قيامة المرء موته[2].

---

(١) من تفسير ابن عطية (٥/٤٠١).

(٢) من تفسير ابن عطية (٥/٤٠١).

وحضر ابن جبير جنازة رجل، فقال: أما هذا فقد قامت قيامته[1].

وقد ذُكر لفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في السورة خمس مرات.

وهكذا فإن السورة تعرضت إلى **حقائق خمس**:

أولها: حقيقة النشأة الأولى، حيث لا يدّعي أحد ممن يكّذب باليوم الآخر أنه خلَق الإنسان، أو شارك في صنعه ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾؟ [الآية:٣٤].

ثانيها: أهوال القيامة، ومشاهد خراب العالم عند قيامها، وما يعتري الإنسان من الاضطراب والحيرة في مواجهة أحداث القيامة.

ثالثها: أدب تلقّي الوحي، والتأنّي في الاستماع إليه، واتباع تلاوته في صفة قراءة القرآن بإقامة حروفه وحركاته، وصفة الأداء المتواتر، وهو ما عُرف فيما بعد بالغنة والمد والقصر والإخفاء والإدغام، وما إلى ذلك.

رابعها: **التعرض لحقيقة الموت** التي لا تخطىء الإنسان، والنهاية المحتومة لجميع البشر، وهي حقيقة تتكرر كل يوم، ويواجهها الكبار والصغار، والفقراء والأثرياء، والرؤساء والمرؤوسين، ويقف الجميع من الموت موقفاً واحداً، فلا حيلة ولا وسيلة لدفعه أو تفاديه!

خامسها: مشهد أصحاب **النفس المطمئنة واللوامة والأمارة**، يوم لقاء الله تعالى، وهو يتمثل في حال السعداء والأشقياء، يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه.

ومع أن الناس قد تقدموا كثيراً في مجال العلم التجريبي والحضارة المادية في القرن الأخير، إلا أنهم فيما يتعلق بالعلم بالله تعالى والدار الآخرة والاستعداد لها شيء لا يذكر، فهم في علم ضحل، وغفلة وإهمال!

وقد ختمت السورة بإثبات الحشر والمعاد بالأدلة والبراهين العقلية.

* * *

(١) من تفسير ابن عطية (٤٠١/٥).

سُورَةُ الإِنْسَانِ (٧٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الإنسان) هي السورة السادسة والسبعون في ترتيب المصحف، والثلاثون أو الحادية والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت قبل (سورة القيامة) وبعد (سورة الرحمن).

وعدد آياتها إحدى وثلاثون آية باتفاق، وهي مئتان وأربعون كلمة، وألف وأربعة وخمسون حرفاً.

أ - وسميت سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ في زمن الصحابة، وبهذا جاء حديث أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر بـ (الم السجدة) و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾[1].

ب - واقتصر السيوطي على تسميتها بـ (سورة الإنسان).

جـ - وتسمى في بعض المصاحف: (سورة الدهر).

ولفظاً: الإنسان، والدهر: وردا في الآية الأولى من السورة.

د - وسماها بعضهم (سورة الأمشاج). هـ - وسماها آخرون (سورة الأبرار).

فهذه خمسة أسماء لها هي: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ والإنسان، والدهر، والأمشاج، والأبرار.

وهي من السور المختلف في كونها مكية أو مدنية، وقد وردت آثار عن الزبير تفيد أنها مدنية[2].

والأصح أنها مكية كما جاء عن ابن عباس[3] فإن موضوعها ومقاصدها من خصائص السور المكية.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٨٨٠)، وصحيح البخاري (٨٩١،١٠٦٨)، وابن ماجة (٨٢٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٢٩،١١٣٢٩)، والمسند (٩٥٦١)، وهو عن ابن عباس في مسلم (٨٧٩)، وأبي داود (١٠٧٤)، وابن ماجة (٨٢١)، والترمذي (٥٢٠)، والكبرى للنسائي (١٠٣٠،١١٥٧٥)، والمسند (١٩٩٣)، وابن حبان (١٨٢٠).

(٢) كما في الدر المنثور (١٤٢/١٥).

(٣) وأخرجه النحاس (ص ٧٥٧).

موضوع السورة:

١- بدأت السورة ببيان قدرة الله تعالى في خلق الإنسان أطوارا، وتهيئته وإعداده ليقوم بما كُلِّف به من أنواع العبادة، وقد زوّده الله تعالى بالسمع والبصر وسائر الحواس وأرشده إلى طريقي الهدى والضلال.

والمحور الأساس الذي تدور حوله السورة، هو اليوم الآخر، حيث تتناول بوجه خاص: المتقين الأبرار في دار الخلد والإقامة، فهم في جنة يتّكئون فيها على الأرائك، تدنُو منهم الظلال والقطوف.

وتسْرُد آيات السورة نعيمهم في الجنة من مأكل ومشرب وملبس وخدمة مستمرة.

وذكرت السورة أهل السعادة بإسهاب، فوصفتْهم: بالوفاء بالنذر، وإطعام الفقراء ابتغاء مرضاة الله تعالى، خوفاً من عذابه، وأشادت بما لهم عند الله تعالى من الأجر والكرامة في دار النعيم، وبينت ما حباهم الله به من الفضل والنعيم يوم الدين.

وقد استغرقت هذه المعاني المتعلقة باليوم الآخر من الآية الرابعة إلى الآية الثانية والعشرين، وهو ثلاثة أرباع السورة غالباً.

٢- أما الآيات الثلاث الأول من السورة، فإنها تمهد للحديث عن اليوم الآخر، فتبدأ بلمسة عن الإنسان، أين كان قبل أن يجيء؟ مَنِ الذي أوجده؟ ومن الذي جعله يسمع ويبصر؟ ومَن الذي جعل له ذِكْر في هذا الوجود، ولم يكن له وجود من قبل؟ فإذا سأل الإنسان نفسه: أين كان قبل مئة عام؟ وأين كان هذا الجيل الذي هو فيه قبل مئتي عام؟ أدرك أنه لم يكن شيئاً مذكوراً.

وكما نحن نعيش فوق هذه الأرض، فإن أهل القبور كانوا مثلنا، وغداً نكونُ معهم، وهكذا دواليك إلى انتهاء الدنيا، وهذا ما تشير إليه الآية الأولى، أما الآية الثانية: فهي تتحدث عن أصل نشأة نسل الإنسان الأول، وحكمة الله في خلقه، وتزويده بالطاقات والمدارك.

وتشير الآية الثالثة: إلى سلوك الإنسان بعد أن أصبح سميعاً بصيراً، واختياره إما

طريق الهدى وإما طريق الضلال.

وتشير الآية الرابعة: إلى المصير المؤلم الذي ينتظر أهل الضلال في الآخرة من السلاسل والأغلال والسعير.

وتمضي السورة بعد ذلك في وصف نعيم أهل الجنة وصفاتهم في ثماني عشرة آية تليها.

٣- وتتوجه السورة في أربع آيات بعدها إلى تثبيت النبي ﷺ والرباط على قلبه، والاستعانة على جهاد الدعوة، بالإكثار من ذكر الله تعالى والسجود له وتسبيحه ليلاً طويلاً.

عن أبي ذر ﷺ قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: «إني أرى ما لا تروْن، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء، وحُق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ملَك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعداء تجأرون إلى الله»[1].

ولما سمع ابن مسعود ﷺ هذه الآية ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ الآية قال: يا ليتها تمت، فعوتب في قوله هذا، فأخذ عوداً من الأرض فقال: يا ليتني كنت مثل هذا[2].

وهكذا تذكر السورة حقيقة أن الإنسان لم يكن له وجود مدة من الزمن، ثم تذكر حقيقة أصل الإنسان ونشأته وتزويده بالطاقات والمدارك، ثم تتحدث عن هدايته إلى الطريق وعونه على الهدى.

وبعد هذه النقاط الثلاث تحذره من النار وترغبه في الجنة، وتذكُر العذاب والنعيم الذي أعده الله لكل منهما.

٤- وتُختم السورة بالتذكير باليوم الثقيل، وبيان أن هذا القرآن تذكرة لمن كان له قلب يعي، وفكر ثاقب يستضيء بنوره.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، وهو حديث حسن لغيره، لأن (مُوَرِّق) لم يسمع من أبي ذر، وأخرجه ابن ماجة (٤١٩٠)، والحاكم (٢/٥١٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٨٨٢)، وهو في الترمذي (٢٣١٢)، والحاكم (٢/٥١٠)، وأبي الشيخ (٥٠٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/٢٩٨).

سُورَةُ الْمُرْسَلاَتِ (٧٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المرسلات) هي السورة السابعة والسبعون في ترتيب المصحف، والثالثة والثلاثون في ترتيب النزول.

نزلت بعد (سورة الهُمزة) وقبل (سورة ق)، عندما كان النبي ﷺ مختفٍ في غارٍ بمنى مع بعض أصحابه.

وسُميت في العهد النبوي (سورة والمرسلات عرفاً):

١ـ كما في الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود ﷺ قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غارٍ بمنى، إذ نزلت عليه (سورة والمرسلات عرفاً) فإنه ليتلوها، وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرَطْب بها، إذ وثبت علينا حية فقال ﷺ: اقتلوها، فابتدرناها، فذهبت، فقال ﷺ: «**وُقيتْ شرَّكم، كما وقيتم شرها**»[1].

٢ـ وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قرأت (سورة والمرسلات عرفاً) فسمعتْني أم الفضل (امرأة العباس) فبكتْ وقالت: (يا بُنَيّ أَذْكَرْتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة المغرب)[2].

٣ـ وجاء في رواية أبي داود عن ابن مسعود ﷺ تسميتها بسورة المرسلات قال: كان النبي ﷺ يقرأ النظائر، السورتين في ركعة: (الرحمن والنجم، في ركعة، واقتربت

---

(١) المسند (١/٣٧٧) برقم (٣٥٨٦)، والبخاري (١٨٣٠،٣٣١٧)، ومسلم (٢٢٣٤)، والنسائي في السنن الكبرى (٣٨٥٢،١١٥٧٨)، وغيرهم.

(٢) الموطأ (١/٧٨)، والبخاري (٧٦٣،٤٤٢٩)، ومسلم (٤٦٢)، وابن ماجة (٨٣١)، وابن أبي شيبة (١/١٥٧)، والمسند (٢٦٨٦٨)، وأبوداود (٨١٠)، والترمذي (٣٠٨)، وابن حبان (١٨٣٢)، وعبد بن حميد (١٥٨٥)، وعبد الرزاق في المصنف (٢٦٩٤).

والحاقة، في ركعة، وعم يتساءلون والمرسلات، في ركعة)[1].

وفي هذه الأحاديث بيان لفضل السورة.

وتسمى أيضاً سورة العُرْف، لقوله تعالى ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ فهذه ثلاثة أسماء لها:

١- والمرسلات عرفاً، ٢- المرسلات، وهو الأشهر، ٣- العُرْف.

وهي سورة مكية، وعدد آياتها خمسون آية باتفاق، منها عشر آيات ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وهي مئة وثمانون كلمة، وثمان مئة وستة عشر حرفاً.

موضوع السورة:

١ـ (سورة المرسلات) كسائر السور المكية، تعالج أمور العقيدة، وتقيم دلائل الوحدانية والقدرة، وتركّز على اليوم الآخر بوجه خاص.

وقد ابتدأت السورة بخمسة أنواع من القسم: بالرياح وتقلّباتها، أو بأنواع الملائكة المكلّفين بتدبير شؤون الكون، والمقسم عليه، أن البعث حق، والثواب والعقاب حق، وأن الهلاك واقع على المكذبين لا محالة.

ثم تذكر السورة أربعة من مظاهر القيامة، والوقت الذي يكون فيه قيام الساعة، والعذاب الذي وُعد به المجرمون، وهو اليوم الذي يكون فيه: طمس النجوم، وتصدّع السماء، ونسف الجبال، وموعد الفصل والقضاء بين الرسل والأمم، وهذا من أول السورة إلى الآية الرابعة عشرة منها.

٢- وقد ذُكر في السورة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ **عشر مرات،** يأتي كل منها بعد مقطع من مقاطع السورة، وفي كل مقطع منها إخبار عن شيء من أحوال الآخرة، وتذكير بأحوال الدنيا، فناسب ذلك أن يذكر عقب كل مقطع منها تهديد ووعيد بالويل والعذاب للمكذبين، وهذه المقاطع العشرة هي:

---

(١) أبوداود برقم (١٣٩٦)، وهو في المسند برقم (٣٩٦٨، ٣٦٠٧)، وهو حديث صحيح، وأخرجه الطبراني في الكبير (٩٨٥٥، ٩٨٥٧).

المقطع الأول: جاء ذِكْره في أربعة عشر آية، ذكر فيها خمسة أنواع من القسم على أن البعث حق، وأن مشاهد يوم الفصل حق، وهذا من [الآية ١-١٤].

والمقطع الثاني: فيه ذكر مصارع الغابرين، وهذا من [الآية ١٦-١٩].

والمقطع الثالث: فيه ذكر النشأة الأولى وتكوين خلق الإنسان، وهذا من [الآية ٢٠-٢٤].

والمقطع الرابع: فيه ذكر الأرض وهي تضم أبناءها إليها في حياتهم وبعد مماتهم، وهذا من [الآية ٢٥-٢٨].

والمقطع الخامس: فيه بيان ما يلقاه المكذبون من عذاب وتأنيب في يوم الفصل، وهذا من [الآية ٢٩-٣٤].

والمقطع السادس: فيه بيان عدم الإذن للكفار في النطق يوم القيامة، وعدم قبول الاعتذار من المكذبين، وهذا من [الآية ٣٥-٣٧].

والمقطع السابع: فيه تحدى المنكرين المكذبين بخاتم النبيين، وبيان ما أخبرهم الله به من البعث والنشور، إن كان لديهم حيلة للتخلص من عذاب يوم الدين، وهذا من [الآية ٣٨-٤٠].

والمقطع الثامن: فيه ذكْر المتقين وما أعد الله لهم من نعيم، وهذا من [الآية ٤١-٤٥].

والمقطع التاسع: فيه تأنيب المكذبين على موقفهم من الدعوة، وهذا في [الآيتين: ٤٦،٤٧].

والمقطع العاشر: فيه ذكر السبب في عذاب المجرمين، وهذا من [الآية ٤٨-٥٠].

حديث المقاطع العشرة عن اليوم الأخر:

في المقاطع العشرة بيان قدرة الله تعالى على إحياء الناس بعد موتهم: فقد استدلت آيات السورة على ذلك كما يأتي.

أولاً: بمصارع الغابرين، ومَن بعدهم ممن يلحق بهم وهو على شاكلتهم.

واستدلت السورة **ثانياً** ببدء خلق الإنسان من ماء مهين، ومروره بأطوراً الخلق إلى أن صار بشراً سوياً بقدرة الله تعالى.

واستدلت **ثالثاً** على أن الله تعالى جعل هذه الأرض تضم أبناءها إليها، أحياءً وأمواتاً، وقد ثبتها الله تعالى بالجبال، وأجرى فيها المياه لحياة الإنسان والحيوان.

وقد تخلل هذه النقاط الثلاث: الويل لمن كذّب بكل منها.

واستغرق هذا من الآية الخامسة عشرة إلى الآية الثامنة والعشرين من السورة.

٣ ـ ثم تحدثت آيات السورة عما يلقاهُ المكذبون بيوم الفصل، من عذاب في نار جهنم، وبينتْ أن الشرارة التي تتطاير منها كالقصر العظيم، إلى جوار ما يلْقوه من التأنيب والتوبيخ، وعدم السماح لهم في النطق والاعتذار، ثم يقال لهم: هذا يوم الفصل والعقاب، فإن كان لديكم حيلة في الخلاص من العذاب فافعلوا.

وفي أثناء الحديث عن المكذبين المجرمين تأتي السورة بالوجه المقابل لاستحضار صورة المتقين، وهم على النقيض من أهل الجحيم، فهم في ظلال وعيون، وفواكه وتمتع.

ثم تعود الآيات إلى استكمال جزاء المجرمين، ومن ثم إلى بيان السبب فيما يلْقونه من عذاب، وهو أنهم كانوا لا يصلُّون وهم في الدنيا، ولا يؤمنون بهذا القرآن ومافيه، وإذا كانوا لم يؤمنوا به، فبأي كتاب آخر يؤمنون؟ ويتخلل كل فقرة مما سبق: الوعيد لمن كذب بلقاء الله تعالى.

وكما اهتمت سورة الإنسان فأطنبت في ذكر أوصاف المتقين ونعيمهم في الدار الآخرة، فإن هذه السورة أطنبت في ذكر أوصاف الكفار وعذابهم، إلى جوار ذكر الطرف المقابل بصورة مجملة موجزة في كل منهما.

وختمت السورة ببيان أسباب امتناع الكفار عن عبادة الواحد القهار، وهو عدم الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، وبخاتم المرسلين.

وهي سورة زاخرة بالحديث عن أهوال القيامة، وعن مظاهر قدرة الله تعالى، وعن حسن عاقبة المتقين.

* * *

سُورَةُ النَّبَأِ (٧٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة النبأ) هي السورة الثامنة والسبعون في ترتيب المصحف، وهي بداية الجزء الثلاثين، والسورة الثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة المعارج) وقبل (سورة النازعات).

ولها خمسة أسماء أشهرها الأول، والثالث، فتسمَّى: سورة النبأ، وسورة عمَّ يتساءلون، وسورة عمَّ، وسورة التساؤل، وسورة المعصرات، وكل هذه الألفاظ ورَدَتْ فيها، وهي سورة مكية خالصة.

وعدد آياتها إحدى وأربعون آية في العدد المكي والبصري، وأربعون آية في غيرهما، وهي مئة وثلاث وسبعون كلمة، وتسع مئة وسبعون حرفًا.

موضوع السورة وفصولها الخمسة:

يدور محور السورة حول إثبات البعث الذي يجحده المكذبون، وتوبيخ من ينكر يوم القيامة، وتهديدهم بسوء المصير إن ظلوا على زعمهم. وتتكون السورة من **خمسة فصول:**

الفصل الأول: يبدأ بالإجابة على تساؤل المكذبين بالقرآن وباليوم الآخر، ويهددهم بسوء العقاب يوم لقاء الله، جزاء جحودهم وإنكارهم.

ثم تقيم آيات السورة تسعة أدلة على إمكانية البعث، تُبرِز قدرة الله تعالى في الإنسان والكون، وهذه الأدلة تشمل خلق الأرض، والجبال، والإنسان، وكون النوم قَطْعًا للعمل، والليل راحةً للبدن، والنهار سعياً للمعاش، وخلْق السموات الشداد، والسراج الوهَّاج، ونزول المطر من السُحب.

فهذه تسعة أدلة في عشر آيات، جاءت إجابة على التساؤل عن النبأ العظيم، وجاء التهديد به في خمس **آيات** قبلها.

الفصل الثاني: وصفٌ موجزٌ ليوم الحساب وبداياته، بالنفخ في الصور، وانفراج السموات، وتسيير الجبال.

وجاء هذا في **أربع آيات** تلي الآيات الستة عشر السابقة.

الفصل الثالث: في وصف العقاب الذي ينتظر المجرمين يوم القيامة، وقد جاء ذكره في **عشر آيات**، من الآية العشرين إلى الآية الثلاثين، فجهنم ترصُد الطاغين، وهم يقيمون فيها أزمانًا غير متناهية، لا يبْرُد فيها حرُّ سعيرها، ولا شرابهم، وطعامهم صديد أهل النار، وهذا العذاب جزاءً موافقاً لكفرهم باليوم الآخر، وتكذيبهم بآيات الله تعالى.

الفصل الرابع: في وصف النعيم الذي ينتظر المؤمنين الصالحين، وجاء ذلك في **ست آيات** بعد الآيات الثلاثين السابقة، فهم في بساتين، وفواكه وزوجات، وشراب غير ضار، وليس في الجنة لغو ولا كَذِب، ويُكال لهم فيها العطاء من الله تعالى حتى يكتفوا تمامًا، ويقول كل منهم: حسبي، حسبي.

الفصل الخامس: في وصف يوم القيامة وأهواله، فهو يوم لا يُسمح فيه لأحد بالكلام ولا بالشفاعة إلا بإذن الله تعالى، وأن يكون المشفوع له أهلًا للشفاعة.

ويوم القيامة يوم فظيع الأهوال، يتمنى فيه الكافر أن يكون مصيره كمصير البهائم حين تكون ترابًا بعد أن يُقْتصَّ لها ويُقتص منها، وقد جاء هذا في **الآيات الخمس الأخيرة**.

وهذا الجزء الأخير من القرآن يشتمل على سبع وثلاثين سورة، كلها مكية سوى سورتي: البينة، والنصر، وكلها تتميز بِقِصَرِ الآيات، وتُركِّز على النشأة الأولى للإنسان، وعلى مشاهد القيامة العنيفة فهي: الطامَّة، والصاخَّة، والغاشية، والقارعة، كما تركِّز على مشاهد الحساب والجزاء، والثواب والعقاب، وأهوال الساعة عند قيامها.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ (٧٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة النازعات) هي السورة التاسعة والسبعون في ترتيب المصحف، والحادية والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النبأ وقبل سورة الانفطار.

وتسمى سورة النازعات، وهو الأشهر، وسميت سورة الساهرة، وسورة الطامة.

وهي سورة مكية باتفاق.

وعدد آياتها عند أهل الكوفة ستّ وأربعون آية، وخمس وأربعون آية عند بقية علماء العدد.

وهي مئة وسبع وتسعون كلمة، وسبع مئة وثلاثة وخمسون حرفاً.

موضوع السورة:

١- أَبْرزُ ما تتميز به السوَرُ المكية: إرْساء قواعد التوحيد، والإيمان بالنبي الخاتم، والإيمان باليوم الآخر، وقد اهتمت هذه السورة بترسيخ التصديق بالبعث والحساب والجزاء، وبيان مآل المتقين، ومآل الفجار، بالإضافة إلى نصْب دلائل الوحدانية، والإيمان بخاتم الرسل ﷺ.

٢- وقد بدأت السورة بالقسَم بخمسة طوائف من الملائكة هي: النازعات، والناشطات، والسابحات، والسابقات، والمدبرات، وجواب القسم أن البعث حق، وهذا البعث يأتي ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ الآية:٦ فتضطرب الأرض، ويُنفَخ في الصور، ويقوم الناس لرب العالمين، وأبصار المنكرين للبعث منكسرة، خاشعة ذليلة، وقلوبهم ترجف من الفزع والخوف لأنهم كانوا يستبعدون هذا اليوم ويُنْكِرُونه، وقد صوّر القرآن حالهم ليعتبر الناس فيعملوا لذلك اليوم.

٣- ثم تضرب آيات السورة مثلاً لمن جحد وحدانية الخالق سبحانه، فطغى وتجبَّر

في الأرض، وأنكر اليوم الآخر ومافيه، وهو فرعون الطاغية الذي أنكر رسالة موسى عليه السلام، وادّعى الربوبية والألوهية، فأخذه الله أخذاً وبيلاً، وفي ذلك عبرة لمن يخاف لقاء ربه، وينتفع بما حدث لغيره.

٤- ثم تمضي آيات السورة في الحديث عن القيامة، وتُقدّم لذلك ببيان أن مُحْيي الناس بعد موتهم، هو خالق السموات والأرض، والليل والنهار، والمياه والجبال، وكلها من أعظم المخلوقات، وعند مجيء الطامة، يُعرض على الإنسان عملُه، وتبرز جهنم للناظرين، ويكون الناس فريقان: فتسوء خاتمة من تجبّر واتبع هواه، وآثر الحياة الدنيا على الآخرة، وتحسُن خاتمة من خاف لقاء ربه ونهى نفسه عن هواها السيء.

٥- وتُختم السورة ببيان أن علم قيام الساعة عند الله وحده، وأن الرسول ﷺ - فضلاً عن سائر البشر - لا علم له بها، وعندما تقوم الساعة يتصور الإنسان أنه لم يلبث في الدنيا أو في قبره وبرزخه إلا عشية أو ضحاها.

وهكذا فإن السورة تأخذ بيد الإنسان إلى الدار الآخرة، بدْءا بخروج الروح من الجسد، إلى المشهد الأول من مشاهد القيامة، حيث القلوب الواجفة، والأبصار الذليلة المنكسرة، لمن أنكر لقاء الله تعالى ولم يتزوّد لمعاده. ومن ثَم تعرض بعض آيات السورة مصرعاً من مصارع المكذبين بالله ورسوله واليوم الآخر، لكبير من أكابر المجرمين، هو فرعون الطاغية، فتذكُر عاقبته الوخيمة لمن أراد أن يذكّر أو يخشى.

ومن صفحة التاريخ إلى كتاب الكون المفتوح في مشهد يطوف بالعبد من السماء إلى الأرض والجبال، والليل والنهار، والماء والمرعى، ليستدل بذلك على أن القادر على خلق هذه المخلوقات أقدر على ما دونها، وهو إحياء الناس بعد موتهم، وبعد هذه التمهيدات يأتي مشهد الطامة الكبرى وما يصاحبها من جزاء على ما كان في الدنيا من قول وفعل.

ثم يعود السياق إلى المكذبين بقيام الساعة وسؤالهم عن موعدها بردّ علمها إلى الله تعالى، ولكنها وشيكة الوقوع، وهي تأتي فجأة، وعلى المرء أن يستعد لها بالإيمان

والعمل الصالح، فإن متاع الدنيا لا يساوي غمسة واحدة في نار جهنم، والدنيا تمرّ سريعاً كأنها لحظة من ليل أو نهار، والعاقل من لا يُضيِّع مستقبله الدائم بلحظات عابرة، لا يبقى لها أثر في النفس، بل تمضي وراءه وكأن شيئاً لم يكن!

وعلى هذا فيمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: من أول السورة إلى الأية الرابعة عشرة وهذا المقطع يُقْسِم على أن البعث حق، وأن القيامة تقوم على المكذبين بها، المنكرين لها، فلا يسعهم إلا الإيمان بها حين يروْا أنفسهم فى عرصات القيامة، بعد أن لفظتْهم الأرض للعرض والحساب والجزاء.

المقطع الثانى: من الآية الخامسة عشرة إلى الآية السادسة والعشرين، وهذا المقطع يتناول جانباً من قصة موسى مع فرعون الذى ادّعى الربوبية فأغرقه الله فى اليمّ، وجعله عبرة لمن يتعظ.

المقطع الثالث: من الآية السابعة والعشرين إلى الآية الثالثة والثلاثين، وهو مقطع يتناول جانباًمن آثار قدرة الله فى الكون، يتمثل فى خلق السماء والأرض والمياة والنبات والمرعى والجبال، وهى نعم متّع الله بها الإنسان والحيوان.

المقطع الرابع: من الآية الرابعة والثلاثين إلى نهاية السورة، وهويتناول اليوم الآخر وما فيه من نعيم وشقاء أعدهما الله لمن خاف مقام ربه، ولمن طغى وفضّل دنياه على آخرته، وهذا يحصل عند قيام الساعة، ولا يعلم موعدها إلا رب العالمين، وعندما يراها الناس كأنهم لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهارّ.

سُورَةُ عَبَسَ (٨٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة عبس) هي السورة الثمانون في ترتيب المصحف، والرابعة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة النجم) وقبل (سورة القدر).

ومما ورد في أسمائها: سورة ابن أم مكتوم، وسورة الأعمى، وسورة الصاخة، وسورة السفَرة، فهذه خمسة أسماء، سميت بها لورود هذه الألفاظ فيها، وأشهرها: الأول ﴿عَبَسَ﴾ وهي سورة مكية باتفاق، وهي أول سورة من أواسط المفصل.

وعدد آياتها اثنتان وأربعون آية في العدد الكوفي والمكي والمدني الأول، وأربعون آية في العدد الدمشقي، وإحدى وأربعون آية في العدد البصري والحمصي والمدني الأخير.

وهي مئة وثلاثون كلمة، وخمس مئة وثلاثة وثلاثون حرفاً.

موضوع السورة:

١- تناولت السورة قضية الوحي والرسالة في قصة عبد الله بن أم مكتوم ﷺ، حين كان النبي ﷺ مشغولاً بدعوة كبار قريش إلى الإسلام، لأنهم إذا اهتدوْا، استنَّ بهم غيْرهم من جماهير الناس، ولما جاء ابن أم مكتوم يطلب التحدث معه ﷺ ظل مهتما بدعوة الزعماء، فعاتبه ربه في ذلك.

وكان عبد الله إذا قدم على رسول الله ﷺ بعد ذلك قام إليه وأحسن استقباله، وبسط له رداءه، وقال: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي، وإذا غاب عن المدينة بعد الهجرة ولاّه عليها.

٢- وتمضي الآيات فتشرح طبيعة البلاغ الإلهي بأنه آيات تُسْمع للتذكرة، وتُقرأ من صحف ملائكةٍ كرامٍ بررة، يدوّنها كتبة الوحي، ويستظهرها حفظة القرآن، وعلى من يَبْلُغُه الوحي أن يتدبر ويعمل، ويَفِرُّ إلى الله تعالى، ويستعدّ للقائه.

وكم من إنسان مُغلق الذهن، يضرب الأرض بقدميه، ولا يدري كيف جاء إلى الدنيا، ولماذا خُلق، وما مصيره بعد الموت؟ ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [الآية:١٧].

٣- وتتناول السورة جانب العقيدة، فتقيم جملة من دلائل الوحدانية، ممثّلة في خلْق الإنسان من نطفة، ثم موته بعد استغراق منهج حياته، وقد يسر الله للإنسان سبل العيش،فصبّ له الماء، وشق له الأرض، وأنبت له الزرع وأخرج له الضرع، كما يسر له الطريق إلى الإيمان وهداه إليه.

٤- ثم تناولت السورة الجانب الثالث من عناصر القرآن المكي، وهو الحديث عن يوم القيامة، فبينت حال المؤمنين وحال الكافرين يوم يكون كل إنسان مشغولاً بنفسه عن غيره، ولو كان ابنه فلذة كبده، وذلك حين تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه!

وهكذا بدأت السورة بعلاج حادثة معينة تتعلق بالضعفاء والفقراء وذوي العاهات،للرفق بهم في مجال الدعوة إلى الله تعالى وعدم الإعراض عنهم، أو تفضيل الأثرياء وذوي الجاه عليهم.

ثم عالجت جحود الإنسان وكفره، فذكّرتْه ببدايته ونهايته وأصل نشأته، وتيسير حياته، ومقابلة ذلك بالتقصير وعدم شكر المنعِم سبحانه.

ثم عرّجت آيات السورة على أمسّ شيء بالإنسان، يتعلق بطعامه وشرابه وتدبير أموره وتقديرها.

وفي نهاية السورة حديث عن الصاخة وأهوالها، وأحوال الناس فيها، وذهول كل إنسان عن غيره لأنه مشغول بنفسه، وفي هذا دعوة للاستعداد لها في وقت الرخاء.

إن البشر اليوم مشغولون بالدنيا، وقليل منهم من يصرف بعض همه للآخرة، ومن المؤسف أن التقدم العلمي يبحث مكانه، ولا يريد أن يعرف ما أمامه.

نبذة عن ابن أم مكتوم

٥- **عبد الله بن أم مكتوم:** هو ابن خال السيدة خديجة رضي الله عنها، واسمه: عمرو ابن قيس، كان كفيف البصر، وأم مكتوم: كنية أمه، نُسب إليها لشرفها وشرف قومها

واسمها: عاتكة بنت عبد الله المخزومية.

وقد استخلفه النبي ﷺ على المدينة في خروجه إلى الغزوات ثلاث عشرة مرة، وقيل مرتين[(١)].

فكان النبي ﷺ يوليه إمارة المدينة حتى يعود، مع أنه كفيف البصر.

وهو من المهاجرين الأولين: كان مؤذِّناً للنبي ﷺ هو وبلال، ومن ذلك حديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ كان يقول: «إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم، وهو الأعمى الذي أنزل الله فيه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ وكان يؤذن مع بلال، وكان رجلاً ضرير البصر، فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس»[(٢)].

قيل: إنه مات شهيدا بالقادسية يوم فتح المدائن، في خلافة عمر ﷺ سنة أربع عشرة[(٣)].

وفيه نزل قوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[النساء:٩٥].

قال أنس: رأيته يوم القادسية، وعليه درع، ومعه راية[(٤)].

مقاطع السورة:

١ ـ فالآيات العشر الأول من السورة تتحدث عن ابن أم مكتوم.

٢ ـ والآيات الست بعدها تتحدث عن الوحي والرسالة.

٣ ـ ومن الآية السابعة عشرة إلى الآية الثانية والثلاثين تتحدث عن جانب العقيدة وأدلة التوحيد، وهي تتمثل في خلق الإنسان وموته، وتتمثل في طعام الإنسان والحيوان ومراحل تكوينه.

٤ ـ والآيات الأخيرة من الثالثة والثلاثين إلى نهاية السورة تتنال جانب الإيمان باليوم الآخرة، يوم يفر المرء من أقرب الناس إليه، ويكون الناس فريقان: فريق في الجنة وفريق في السعير.

---

(١) وهو الذي جاء عند ابن سعد (٤/٢٠٩).

(٢) انظر الحديث في صحيح مسلم (١٠٩٢) والبخاري (٦١٧،٧٢٤٨) والترمذي (٢٠٣) والكبرى للنسائي (١٦١٣) والمسند (٤٥٥١) وابن حبان (٣٤٦٩-٣٤٧١).

(٣) ينظر: تفسير الألوسي (٣٠/٣٩) وابن عاشور (٣٠/١٠٤).

(٤) تفسير الخازن (٤/٣٥٣) وابن عطية (٥/٤٣٦).

سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله، أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يُعرِض عنه ويُقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً، فيقال: لا، ففي هذا أنزل[1].

وابن أم مكتوم كان ممن أسلم قديماً، وقد رأى النبي ﷺ أن من لم يدخل في الإسلام أحوج إلى الإقبال عليه، لاسيما إذا كان ممن يَقتدي به غيره.

وإلى جوار اجتهاد النبي ﷺ فإن ابن أم مكتوم كان رجلاً أعمى، لا يرى ما كان مشغولاً به النبي ﷺ من دعوة أشراف قريش.

قال ابن عطية وغيره عن ابن أم مكتوم: وهو رجل أعمى، جاء يقوده رجل آخر، فأومأ رسول الله ﷺ إلى قائده أن يؤخره عنه، ففعل، فدفعه عبد الله نحو رسول الله ﷺ وقال: علمني مما علمك الله، وكان رسول الله ﷺ مع الرجل المذكور يقرأ عليه القرآن، ويقول له: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول الرجل: لا، والأصنام، فلما ألح عليه عبد الله، عبس النبي ﷺ وأعرض عنه، وانصرف الرجل، فلما ذهب النبي ﷺ إلى بيته، لَوى رأسه وشخص بصره فأنزل الله عليه السورة[2]. وفهْم الآيات التالية يتوقف على معرفة سبب النزول هذا.

وابن أم مكتوم هو الذي قال للنبي ﷺ: إني أسمع النداء، ولعلي لا أجد قائداً، فقال ﷺ: «**إذا سمعت النداء فأجب**»[3].

---

(١) صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٦٥١)، وهو في الترمذي برقم (٣٣٣١)، وأخرجه ابن حبان في الإحسان برقم (٥٣٥) بتصحيح الأرناؤوط، كما صححه الحاكم ووافقه الذهبي في المستدرك (٥١٤/٢) وكلاهما من طريق آخر.

(٢) تفسير ابن عطية (٤٣١/٥)، ورواه مالك في الموطأ مرسلا عن هشام بن عروة عن أبيه ومسند أبي يعلى (٢٦١/٨) وتفسير الطبري (٣٢/٣٠).

(٣) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة عن كعب بن عُجْرة برقم (١٣٥٤)، وهو عند الطبراني في الكبير برقم (٣٠٤).

سُورَةُ التَّكْوِيرِ (٨١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة التكوير) هي السورة الحادية والثمانون في ترتيب المصحف، والسابعة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الفاتحة) وقبل (سورة الأعلى)، فهي من أوائل ما نزل من القرآن.

وتسمى سورة التكوير، وهو المشهور ويقال: سورة كُوِّرت، وعنْون لها البخاري والترمذي والطبري (سورة إذا الشمس كورت) وهي سورة مكية باتفاق.

وعدد آياتها تسع وعشرون آية عند الجميع، إلا المدني الأخير، فهى عنده ثمان وعشرون آية، وهي مئة وأربع كلمات، وخمس مئة وثلاثون حرفاً.

وسورة التكوير على **نصفين**:

النصف الأول يتحدث عن يوم القيامة ومقدماته. وجاء ذلك في الأربعة عشر آية الأولى من السورة.

والنصف الآخر يتحدث عن أن القرآن الكريم وحي من عند الله تعالى، وأنه بلاغ وتذكرة لمن شاء أن يستقيم من العالمين. وجاء ذلك من الآية الخامسة عشر إلى نهاية السورة.

أما **النصف الأول** فهو يتناول حقيقة القيامة وما يصاحبها من تغييرٍ لمعالم الكون في العالم العلوي والسفلي، فقد جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأْيُ عين، فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾**»[1].

---

(١) المسند (٣٦/٢) (٤٨٠٦، ٥٧٥٥) بإسناد حسن (محققوه)، والترمذي (٣٣٣٣) وقال: حسن غريب، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٥٣) بتصحيح الألباني له، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في المستدرك (٥٧٦/٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٤/٧): رواه أحمد بإسنادين ورجالهما ثقات، ونقله عن الطبراني، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٠٨١)، وفي صحيح الترغيب والترهيب (١٤٧).

وأخرج الطبري وغيره بسند جيد عن أبي العالية قال: حدثني أُبيّ بن كعب ﷺ، وقال: ستَّ آيات قَبْلَ يوم القيامة، بينما الناس في أسواقهم، إذْ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك، إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت واحترقت، وفزعت الجن إلى الإنس، والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش، وماجُوا بعضهم في بعض ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال: اختلطت، و﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال: أهملها أهلها ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال: قالت الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلَقُوا إلى البحار، فإذا هي نار تتأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صَدْعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم[1].

وقد ذكرتْ سورة التكوير في الأربعة عشر آية الأولى ، اثنيْ عشر حدثاً، ستةٌ منها تقع في آخر الحياة الدنيا، تصاحب قيام الساعة، وعودة الناس إلى ربهم للحساب الكبير، **وهذه الأحداث هي:**

١- توقُّف إشعاع الشمس، و مجيء الظلام الذي يسود العالم ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١].

٢- تَساقُط النجوم واختلال نظامها ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢].

٣- نسف الجبال وتفتتها ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣].

٤- توقف الإنسان والحيوان عن الإنجاب، وتوقف عجلة الحياة عن الحركة، وامتناع نزول المطر ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤].

٥- تلاقي الوحوش من مقارها البعيدة ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

٦- امْتلاء البحار وفيضانها، وانفجارها حتى تطارد الإنسان والحيوان، وتؤجج بالنار ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

---

(١) تفسير الطبري (٤٣/٣٠)، وابن أبي الدنيا (٢٣)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٣٥٣/٨)، ونقله السيوطي في الدر (٢٥٩/١٥) عن عبد بن حميد وابن المنذر.

وستة أخرى تحصل في الآخرة وهي:

١- عودة الأرواح إلى أبدانها بعد فراقها أمداً بعيداً، وتَلاقي كل نظير بنظيره.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

٢- تَطْييب خاطر الموؤودة وتبكيت وائدها: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ - ٩].

٣- نَشْرُ الصحف، وتسلُّم كل إنسان كتاب أعماله بما فيه من خير أو شر.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠].

٤- محْوُ معالم السماء، بعد أن فُتِحت أبوابا لعروج الملائكة، إلى أنْ يتم الفصل والقضاء ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١].

٥- استقبال جهنم للمجرمين ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير: ١٢].

٦- وتقريب النعيم من أهل الجنة ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١٣].

فهذا تلخيص لما يقع عند قيام الساعة، وتوزيع للناس على مصيرهم المحتوم بعد قيامها.

وقد شمل هذا التغيير: الشمس، والنجوم، والجبال، والبحار، والأرض، والسماء، والأنعام، والوحوش، والبشر.

وبُدِىء كل منها بلفظ ﴿إِذَا﴾ لأن كل حدث منها مستقل بنفسه.

وجواب الشرط في الجميع قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

أما **النصف الثاني**: من السورة، فهو يتناول حقيقة الوحي وما يتعلق به، من صِفَةِ الملَكَ الذي يحْمِلُه، وصِفَةِ النبي الذي يتلقاه، وصِفَة القرآن المنّزل عليه، وشأنِ القومِ المخاطبين به.

فيبدأ هذا النصف بالقسم بالنجوم، وبالليل والصبح، على أن كتاب الله تعالى، هو الكتاب الحق الوحيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد حمل هذا الوحي إلى الأرض ملَك أمينٌ عليه، مقربٌ عند الله تعالى، صاحبُ قوة وبطش، وصاحبُ ثبات في تنفيذ أمر الله تعالى، وقد رآه النبي ﷺ على صورته الحقيقية حين نزل عليه أول مرة بالأفق المبين.

وهذا النبي الكريم منزه عما يصفه به المكذبون من السحر والجنون، وقد جاء بكتاب يُنْذِر البشر أجمعين ويأمرهم بالانخراط في طريق الاستقامة والحق والإيمان، وهذا الكتاب يقرر عالمية الرسالة، والذين يَخْرُجون عنه عاقّون لوحي السماء.

وقد خُتمت السورة ببطلان مزاعم المكذبين المعارضين للقرآن، في أنه ليس من عند الله تعالى، وإنما ينتفع به من فَتحوا قلوبهم للحق، ولم يُعطّلوا حواسهم ومداركهم عماً خُلِقت لأجله.

والسورة تهزّ النفس البشرية هزاًّ عنيفاً، وتروّع الآمن، وينْخلِع لها القلب، ويقْشعر لها البدن، فتأخذ بيد الإنسان إلى الملأ الآمن في كنَف الله تعالى، وتجْعله يأوي إلى حِمَاه، ويطلب عنده الأمْن والطمأنينة.

* * *

سُورَةُ الإِنْفِطَارِ (٨٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الانفطار) هي السورة الثانية والثمانون في ترتيب المصحف وترتيب النزول، نزلت بعد (سورة النازعات) وقبل (سورة الانشقاق). وتشتهر بأنها (سورة الانفطار)، وفي حديث ابن عمر الآتي (سورة إذا السماء انفطرت) وربما سميت (سورة انفطرت)، أو (المنفطرة)، أي السماء المنفطرة. فهذه خمسة أسماء لها أشهرها الأول.

وهي سورة مكية باتفاق.

وعدد آياتها تسع عشرة آية باتفاق، وهي ثمانون كلمة، وثلاث مئة وسبعة وعشرون حرفاً.

وسورة الانفطار ذات **مقاطع ثلاث**:

المقطع الأول: يبيّن فيه سبحانه شيئاً من مشاهد القيامة، وما يحدث في هذا اليوم من أحداث جسام، فقد كان الإنسان وهو في الدنيا ينظر فوقه فما يجد في خلق الرحمن من تفاوت، السماء محبوكة الأطراف، فلا فتور ولا شقوق، والكواكب تتهادى فلا تتعطل ولا تتوقف.

وعند قيام الساعة، يتغير كل شيء: الشقوق تملأ الآفاق، وأبواب السماء تُفْتح فيما بينها وبين أرض المحشر، لنزول الملائكة وصعودهم، والكواكب ينفرط عقدها، ويختل توازنها، فلا يمسكها نظام، والبحار تَطْغَى على الشواطىء، وتتأجّج بالنيران، وأهل القبور يستعدّون للخروج، وهم شاعرون بالحرج والحيرة! وتقف كل نفس على ما عملت من خير أو شر. وهذا من أول السورة إلى الآية الخامسة.

أما المقطع الثاني من السورة في الآيات الثلاث التي تليها فهو: عتاب مرير مؤسف، يتضمن الوعيد وسوء المصير، لمن جحد وحْدانية الله تعالى، ولم يعرف قدر ربه، فقابل فضله ونعمه بالجحود والعصيان، فيقال له: ماذا فعلت بالأمس الفائت؟ وماذا قدمت

لمستقبلك الخالد؟

لقد كانت وصايا الله إليك أهْون شيء عليك - أيها الإنسان - وكنت إذا كُلِّفت بصلاة أو زكاة أو جهاد.. تقاعست واسترخيت ومرقْت منها كما يمرق السهم من الرمية، ولم تشكر فضل ربك ونعمه عليك.

والمقطع الثالث: من الآية التاسعة إلى آخر السورة، وهي عشر آيات يقرر الله تعالى فيها علة الجحود والطغيان، فبعد أن بيَّن سبحانه أن الدار الآخرة، سيكون فيها مفاجآت كئيبة لأغلب الناس، بيّن سبحانه أن التكذيب بيوم الحساب، هو الذي جعلهم يُهملون العمل للقائه، فسجّلتْ عليهم الملائكة كل ما عملوه في دنياهم، ليواجَهُون به أمام ربهم في هذا اليوم، بلا زيادة ولا نقصان.

وبعد فصل القضاء، يذهب الخلائق إلى مستقرهم العتيد، في نعيم أهل الأبرار، أو جحيم أهل الفجار، وهو يوم عظيم يتفرد فيه رب العالمين بالحكم والسلطان، وتتجرد فيه النفوس من كل حوْل وطوْل، فالمُلْك يومئذ لله، وليس لسواه أدنى مُلْك ولا حُكم ولو كان حكماً صورياً.

عن جابر ﷺ قال: قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطوّل، فقال النبي ﷺ: «**أفتّان أنت يا معاذ؟ أين أنت عن سبح اسم ربك الأعلى، والضحى، وإذا السماء انفطرت؟**»[1].

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة رأْيُ العين، فليقرأ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾**»[2].

* * *

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٥٢)، والسنن (٩٩٦)، وهو في البخاري برقم (٧٠١،٧٠٥)، ومسلم برقم (٤٦٥)، وصحيح سنن النسائي (٩٥٣).

(٢) سنن الترمذي برقم (٣٣٣٣)، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٦٥٣)، والمسند (٤٨٠٦،٥٧٥٥) بإسناد حسن، والحاكم (٢/٥١٥)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وأخرجه الطبراني.

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ(٨٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المطففين) هي السورة الثالثة والثمانون في ترتيب المصحف، والسادسة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة العنكبوت) وقبل (سورة البقرة).

وتسمى (سورة المطففين) وهو الأشهر، وسميت في كتب السنة وبعض التفاسير (سورة ويل للمطففين) والأول اختصاراً له.

وعدد آياتها ست وثلاثون آية باتفاق، وهي مئة وتسع وستون كلمة.

وسبع مئة وثلاثون حرفاً.

وهي من السور المختلف بين كونها مكية أو مدنية على **أقوال ثلاثة:**

١- فمن قال: إنها مكية نظر إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الآية:١٣] فإنّ رَمْيَ القرآن بهذا الإفك كان في مكة، ومع هذا فإن تطفيف الكيل والميزان كان في مكة، كما هو في كل أمة وفي كل زمان، فهو أمر حاصل في كل بلد، لاسيما إذا كان أهلها كفاراً، وبهذا قال ابن عباس والسُّدِّي والنقاش[١].

ومنهم من قال هي آخر ما نزل بمكة[٢].

٢- وقال مقاتل: هي أول سورة نزلت بالمدينة.

قال ابن عباس: لما قدم النبي ﷺ كانوا أخبث الناس كيلا، فأنزل الله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك[٣].

---

(١) أخرجه ابن الضريس (١٧،١٨) عن ابن عباس.

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية (٤٤٩/٥).

(٣) ينظر: سنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٩٠،١١٦٥٤)، وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٢٣)، قال البوصيري: هذا إسناد حسن، وهو عند ابن حبان (٤٨٩٨،٤٩١٩)، والمستدرك (٣٣/٢)، وحسن إسناده الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٨٠٨)، وأخرجه الطبراني (١٢٠٤١)، والطبري (١٨٦/٢٤).

وقيل: إن النبي ﷺ لما قدم المدينة وبها رجل يقال له: أبوجهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فنزلت الآية[1].

وبعض من قال: إنها مدنية، استثنى الآيات الثمانية الأخيرة فقال: إنها مكية.

وقال القُرظي: كان بالمدينة تجّاراً يطففون الكيل، وكانوا يتبايعون بالقمار ونحوه فأنزل الله الآية، فخرج النبي ﷺ إلى السوق وقرأها، وكانت عادة متفشية فيهم[2].

٣ - وقال بعضهم: نزلت السورة في الهجرة بين مكة والمدينة، وكان التطفيف متفشياً في البلدين، فأراد الله تعالى أن يطهّر المدينة من فساد المعاملات التجارية، قبل أن يدخلها النبي ﷺ لئلا يشهد فيها منكراً عاما، في الأسواق والمبادلات، وهذا مقصد حسن، ولذا فقد قيل إنها آخر ما نزل بمكة، وأول ما نزل بالمدينة[3].

عن أبي هريرة ﷺ قال: (قدمتُ المدينة والنبي ﷺ بخيبر، ورجل من بني غفار يؤمّهم في الصبح، فقرأ في الأولى ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ وفي الثانية ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ وكان عندنا رجل له مكيالان، مكيال كبير، ومكيال صغير، يُعْطي بهذا ويأخذ بهذا، فقلتُ: ويل لفلان[4].

موضوع السورة:

١- تأتي سورة المطففين بعد سورة الانفطار كأنها تكمّلها، فهي تُفصّل ما أجملتْه عن الأبرار والفجار، وقبل ذلك فإنها تُطهّر المجتمع المسلم من المعاملات التي لا تتفق مع مبادىء الإسلام السامية، فهي تفصّل علاقة العمل في الدنيا بالجزاء في الآخرة، كي يتدارك الإنسان نفسه قبل حلول الأجل، وانتهاء وقت العمل.

٢- وتبدأ السورة في آياتها الست الأُول، بإعلان الحرب على المطففين في الكيل

---

(١) تفسير الخازن (٤/٤٥٩).

(٢) تفسير ابن عاشور (٣٠/١٨٨) وابن عطية وابن الجوزي.

(٣) زاد المسير (٩/٥١) وابن عاشور (٣٠/١٨٧).

(٤) صحيح ابن حبان (٧١٥٦)، قال محقق الإحسان: إسناده صحيح على شرط مسلم، وهو في البزار (٢٢٨١) كشف، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٣٥) رجاله رجال الصحيح.

والوزن، ونحو ذلك من كل ما هو معنوي أو محسوس، سواء في تعامل العبد مع ربه أو تعامله مع الناس.

فمن لم يطمئن في ركوعه وسجوده فهو مطفف في عبادته.

ومن ظلم غيره وتعالى عليه فقد طفّ الصاع.

والذي ينتقص من وقت العمل، أو لا يؤديه كما يجب، فقد نقص الكيل والوزن.

والذي يعامل الناس بمكيالين، لثراء وفقر، أو لسبب مّا من الأسباب، فهو من المطففين.

والذي لم يسوِّ بين زوجاته ولا بين أولاده، فهو من المطففين.

والذي يغشُّ في البيع والشراء فهو من المطففين، وهكذا.

وقد وصف الله المطففين بأنهم لا يخافون حساباً ولا قياماً بين يدي رب العالمين.

٣ - ولأن مرتكبي جريمة التطفيف بكل صوَرِه، يرتكبها الفجار الأشقياء، فقد هدّدهم الله تعالى وتوعدهم بعذاب جهنم، وصوّرت السورة جزاءهم يوم القيامة، حيث يساقون إلى الجحيم مع الزجر والتهديد، وهم محجوبون عن رؤية ربهم يوم لقائه بسبب كفرهم بآيات الله تعالى، وبسبب كثرة وقوع الذنوب منهم حتى رانت على قلوبهم، فطُمست وطُبع عليها.

٤- وبعد الحديث عن الفجار، تأتي الصفحة المقابلة للأبرار المتقين، وما أعده الله لهم من النعيم المقيم، فتصف طعامهم وشرابهم ومساكنهم، ونُضْرة وجوههم، وشرابهم من رحيق ختامه مسك، ممزوج من عين التسنيم، وفي كل هذا جمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

٥- وخُتمت السورة ببيان جانب مما كان يلْقاه الأبرار من الفجار في الدنيا، حيث كانوا يسْخَرون منهم ويستهزؤون بهم، ويغمِزُون ويلمزون ضعفاء المسلمين احتقارًا لهم، وكانوا يظنون أنهم على حق، وأن هؤلاء الضعفاء من الأبرار المتقين في ضلال بيّن، فإذا كان يوم القيامة فإن الجزاء يكون من جنس العمل، فكما ضحك الكفار من

المؤمنين في الدنيا، فإنهم يفعلون بهم كذلك يوم القيامة، وهم على أسِرّتهم ينظرون إليهم ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الآية:٣٦].

نعم، لقد جُوزوا بمثل ما فعلوا في الدنيا أعدل الجزاء.

وعلى هذا فإن في السورة **أربعة مقاطع**:

المقطع الأول: عن المطففين في الكيل والميزان ونحو ذلك، من كل ما هو مادي أو معنوي، وذلك في الآيات الست الأول.

والمقطع الثاني عن ردع الفجار وزجْرهم، وتهديدهم بالويل والهلاك.

وهذا من الآية السابعة إلى الآية السابعة عشرة.

والمقطع الثالث عن الأبرار ونعيمهم ونُضرة وجوههم، والرحيق الذي يشربون منه، والأرائك التي يجلسون عليها، وهذا من الآية الثامنة عشرة إلى الآية الثامنة والعشرين.

والمقطع الرابع فيما يحدث من سُخْرِية الأقوياء من الضعفاء، واحتقارهم لهم في الدنيا، وعقاب الله لهم في الآخرة من جنس ما كانوا يصنعون.

وهذا من الآية التاسعة والعشرين إلى نهاية السورة، بالآية السادسة والثلاثين.

* * *

سُورَةُ الانْشِقَاقِ (٨٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الانشقاق) هي السورة الرابعة والثمانون في ترتيب المصحف، والثالثة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الانفطار) وقبل (سورة الروم).

وهي خمس وعشرون آية في العدد الكوفي والمكي والمدني، وعند أهل البصرة والشام ثلاث وعشرون آية، وأربع وعشرون آية في العدد الحمصي.

وهي مئة وسبع كلمات، وأربع مئة وثلاثون حرفاً.

وتسمى (سورة الانشقاق) وهو الأشهر، ويقال: (سورة انشقت) اختصاراً، وسماها الجعبري (سورة كدْح) وسميت في عصر الصحابة (سورة إذا السماء انشقت) كما في الأحاديث التالية، فهذه أربعة أسماء، أشهرها الأول: وهي سورة مكية باتفاق.

سجود التلاوة في آخرها:

ومما جاء في **سجود التلاوة** قُرْبَ آخرها ما جاء:

١- عن أبي رافع قال: (صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ فسجد، فقلت له: قال: سجدتُ خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه)[1].

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[2].

٣- وعن أبي سلمة أن أبا هريرة قرأ بهم ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ فسجد فيها، فلما

---

(١) صحيح البخاري برقم (٧٦٦،٧٦٨،١٠٧٢،١٠٧٣،١٠٧٨)، وصحيح مسلم برقم (٥٧٧،٥٧٨)، وسنن أبي داود برقم (١٤٠٨)، وسنن النسائي (٢/١٦١) برقم (٩٦٧)، وابن أبي شيبة (٢/٧).

(٢) صحيح مسلم برقم (٥٧٨)، وصحيح البخاري (١٠٧٤)، وسنن أبي داود (١٤٠٧)، وسنن الترمذي برقم (٥٧٣)، وسنن النسائي (٩٦٦)، وفي الكبرى (١٠٣٥،١١٥٩٦)، وابن ماجة (١٠٥٩)، وابن أبي شيبة (٢/٦).

انصرف، أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها[١].

فهذه آحاديث صريحة صحيحة في سُنِّية سجود التلاوة في أواخر سُور المفصَّل.

وكان النبي ﷺ يقرأ بها في صلاة الظهر، كما في حديث بريدة ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾[٢].

موضوع السورة:

يمكن تقسيم سورة الانشقاق إلى **أربعة مقاطع**:

المقطع الأول: في الآيات الخمس الأول، وهو يتناول الحديث عن بعض مشاهد القيامة، وأهوالها الجسام، فبدأ بانشقاق السماء، واستسلامها لأمر ربها في طواعية وخشوع ويُسْر.

والسماء ليست هي القبة الزرقاء التي نراها فوقنا، ولا ندري شيئاً عن طباقها، ولا عن سُكّانها، ولا عن طبيعة الحياة فيها.

وقد أخبرنا الله تعالى في أول السورة بأن السماء ستتشقق، ويظهر ذلك مع قيام الساعة.

وثنّتْ آيات السورة ببيان أن الأرض تتمدّد يوم القيامة، وتتخلّى عما في باطنها من كل خسيس ونفيس، استجابة لأمر الله تعالى بخشوع وانقياد.

وكان الله تعالى عند بدء الخليقة قال للأرض والسماء ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١] وهما لا يملكان إلا السمع والطاعة.

وهذا التغيير للسماء والأرض عند انتهاء العالم، سبق ذِكْره من هذا الجزء في سورة النبأ والتكوير والانفطار، ولكنه يتميز هنا ببيان استجابتهما لأمر الله تعالى، وانقيادهما له، تمهيداً لإلقاء الطاعة والخشوع في قلوب عباده الذين تتحدث عنهم الآية السادسة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٥٧٨)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٦٠)، وصحيح البخاري برقم (٧٦٨،٧٦٦)، والمسند (٩٣٤٨)، وابن حبان (٢٧٦١).

(٢) أخرجه ابن خزيمة برقم (٥١٢) قال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه الضياء المقدسي في المختارة.

ولم يُذكر في هذه السورة من أحداث التغيير عند قيام الساعة سوى الأرض والسماء، فلم تُذكر الشمس ولا القمر، ولا النجوم، ولا الجبال، ولا البحار، ولا العشار، ولا القبور ولا غير ذلك، لأن المطلوب هنا هو هذا الطابع الخاص الذي تستسلم فيه السموات والأرض وما فيهما وما عليهما لإذن ربهما، كأنهما من ذوات الأرواح.

المقطع الثاني: يبيِّن الله تبارك وتعالى فيه أن الدنيا دار تكليف، وامتحان شاق وجاد، فالإنسان يسعى في الأرض، يكدّ ويتعب في تحصيل أسباب رزقه ومعاشه، ويجدّ ويجتهد فيما يُحصّله لآخرته وما يؤول إليه أمره، من خير أو شر، ليلقى في آخرته الجزاء العادل، وعلى المرء أن يختار ويحدِّد مصيره، فإما أن يختار طريق السعداء، وإما أن يختار طريق الأشقياء، إذا أنكر وحدانية ربه، وأنكر ما في الآخرة من ثواب وعقاب، وقد استغرق هذا المعنى من الآية السادسة إلى الآية الخامسة عشرة من السورة.

المقطع الثالث: في الأربع آيات التالية، وفيها يُقْسم ربنا سبحانه بالشفق، وهو حُمْرَةُ الأفق بعد غروب الشمس، وبالليل الذي يأوي الناس بظلامه ليسكنوا فيه، وبالقمر إذا تكامل نوره، وهذه الثلاث: الشفق، والليل، والقمر، مشاهد كونية تقع تحت عين الإنسان وبصره، يتقلب فيها ليل نهار، ويقسم ربنا بها على أن الإنسان تتطور أحواله وتتغير حالاً بعد حال، في الدنيا والآخرة:

١- ففي بطن أمه، يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً، ثم لحماً، ثم إنساناً كامل الخلْق، بشراً سوياً، بجسد وروح.

٢- وبعدما ينزل إلى الأرض، يكون طفلاً، ثم صبياً، ثم شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً.

٣- وتتغير عليه أحوال الحياة من فقر وغنى، وصحة ومرض، وحزن وفرح، ونصر وهزيمة، وسعادة وشقاء، وشدة ورخاء، وعسر ويسر، وقوة وضعف، وحياة وموت، وحساب وجزاء، وكلها أحوال دنيوية.

٤- أما أحوال الآخرة، ففيها: البعث، والحشر والنشر، والعرض والحساب، والميزان والصراط، وتطاير الصحف، ثم المصير المحتوم في النعيم، أو الجحيم.

٥- ومِنْ تَطوُّرِ حال الإنسان في الدنيا والآخرة، إلى تطوّر المشاهد الكونية من شفق عند الغروب، إلى ليل يغطي الناس بظلامه، إلى قمر يبدُو هلالاً، ثم يتكامل حتى يكون بدراً، ثم يتراجع حتى يكون كالعرجون القديم، والآية محتملة لهذه المعاني.

ويتوقع الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله- أَنْ يكون المراد بالشفق في الآية: هو الإشارة إلى تاريخ المسلمين، وما يعْتريه من نصر وهزيمة، وعسر ويسر، قال: وقد بدا لي ذلك وأنا أطالع حديثاً رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: «صلّى بنا رسول الله ﷺ يوماً صلاة العصر»، ثم قام خطيباً، فلم يدعْ شيئاً إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه من حَفِظَه، ونسيه من نسيه، وكان فيما قال: «إن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون؟» ثم قال ﷺ: «**ألا لا يمنعنّ رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه**» ومضى ﷺ في خطابه الجليل، قال: أبوسعيد: وجعلْنا نلتفت إلى الشمس، هل بقى من النهار شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ألا إنه لم يبق من الدنيا** - فيما مضى منها- **إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه**»[1].

هذا الأمد القليل الباقي قبل قيام الساعة، هو تاريخنا، وما ظهر من دول وما يبقى!! لقد جئنا في أصيل العالم، أو في شفقه، والغروب مُوشك.

والسؤال الخطير: هل أدّيْنا رسالتنا، وأنصفْنا الناس من أنفسنا؟ وركبْنا طبقاً عن طبق، وانتقلنا من حال إلى حال؟ فهل اعتبرنا؟ فما لهم لا يؤمنون[2].

قلت: وهذا اجتهاد منه مشكور في توسيع نطاق معنى الآية.

أما المقطع الرابع والأخير في السورة: فهو في التعجب من حال الناس إن لم يؤمنوا،

---

(١) من حديث طويل في سنن الترمذي (٢١٩١)، قال أبو عيسى: وفي الباب عن المغيرة بن شعبة، وأبي زيد بن أخطب، وحذيفة، وأبي مريم، وذكروا: أن النبي ﷺ حدّثهم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، وهذا حديث حسن صحيح، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٤٠٣٩)، والطيالسي (٢١٥٦)، والحميدي (٧٥٢). وانظر: مسند أحمد (١١١٤٣ و١١٥٨٧)، وفيه: ابن جدعان ضعيف، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم (ص ٥٠٧).

فيوبخهم القرآن على عدم إيمانهم بالله تعالى، مع وضوح آياته، وسطوع براهينه.

وقد حذرتْهم السورة وهم في فترة المهلة، فإن أصروا على كفرهم وماتوا عليه، فلهم سوء العاقبة في دار البوار والجحيم، وإذا كان هذا مصير الكافر، فإن المؤمن له أجر لا ينقطع.

وهذا المقطع من السورة، في الآيات الست الأخيرة منها، أي من الآية العشرين إلى الآية الخامسة والعشرين.

* * *

سُورَةُ البروج (٨٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة البروج) هي السورة الخامسة والثمانون في ترتيب المصحف، والسابعة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الشمس) وقبل (سورة التين).

وهي اثنتان وعشرون آية باتفاق، ومئة وتسع كلمات، وأربع مئة وخمسة وستون حرفاً.

وتسمى (سورة البروج) وهو الأشهر، وسميت في الحديث (سورة السماء ذات البروج) بدون واو قبلها، وهي سورة مكية باتفاق.

وروى أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ بها وبسورة الطارق في صلاة العشاء الآخرة[1].

وعن جابر بن سمرة ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ وشبهها[2].

موضوع السورة:

أ ـ تتحدث السورة عن التضحية بالنفس في سبيل العقيدة، فتذكُر قصة أهل الأخدود الذين شق لهم الطغاة شقوقاً في الأرض، وأوْقدوا النيران، وأحرقوهم فيها على مرآى من الجموع المحتشدة، لمشاهدة مصارعهم، ولم يكن لهم من ذنب سوى أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد.

---

(١) ورد ذلك في المسند (٣٢٦/٢،٣٢٧) (٨٣٣٢،٨٣٣٣)، (١٠٨٧٩)، وإسناده ضعيف لضعف يزيد بن سفيان أبو المهزم.

(٢) المسند (١٠٦/٥) (٢٠٩٨٢) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، من أجل سماك بن حرب، وباقى رجال الإسناد ثقات، رجال الصحيح وابن أبي شيبة (٣٥٦/١) وأبوداود (٨٠٥) والترمذي (٣٠٧) والنسائي (١٦٦) وفي الكبرى (١١٥٩٨، ١٠٥٥) وابن جبان (١٨٢٤،١٨٢٧) والبيهقي (٣٩١/٢)، والبغوى (٥٩٤)، والطيالسى (٧٧٤)، والدارمي (٢٩٥/١) وصحيح سنن الترمذي (٢٥٢) وصحيح سنن أبي داود (٧٢٢) والبخاري في القراءة خلف الإمام (٢٩٦).

وتبدأ السورة بثلاثة أنواع من القسم: فيُقسم الله تبارك وتعالى فيها بالسماء ذات النجوم والمنازل، ويقسم بيوم الحساب والجزاء، ويقسم بكل شاهد يَشهد، وبكل مشهود يُشهد عليه، على أن **أصحاب الأخدود ملعونون** مطرودون من رحمة الله تعالى بسبب كفرهم وبغيهم.

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يقسم إلا بالله تعالى.

ب ـ ثم تشير السورة إلى قصة **تعذيب أهل الأخدود**، وتُعقّب عليها بالتهديد والوعيد الشديد لكل من يفعل مثل فعلتهم، ويموت على ظلمه دون أن يتوب ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [الآية:١٠] أي فلهم في الآخرة عذاب من جنس ما فعلوا بغيرهم.

أما المؤمنون الصالحون، فهم في جنات ونعيم وفوز عظيم، وكأن الله تعالى يقول لأهل الإيمان: اصبروا كما صبر السابقون من المؤمنين، واثبتوا كما ثبتوا، فإن العاقبة ستكون لكم، فالمقصود هو تثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان، وتسليتهم عما لحقهم من تعذيب وأذى، وإعلامهم أن ما نزل بهم قد نزل أكبر منه بغيرهم.

ج ـ وفي نهاية الحديث عن أصحاب الأخدود وصف الله تعالى نفسه بأربعة أوصاف، فهو العزيز الحيمد، مالك الأرض والسماء، والشهيد على كل شيء ثم تأتي **تعقيبات أربع**:

يشير أولها إلى سنة الله تعالى في خلقه بالانتقام من الظالمين.

ويشير التعقيب الثاني في السورة إلى بطش الله الشديد بالطغاة والمتجبرين، وفيه وصف الله تعالى **بخمسة أوصاف**.

فهو سبحانه شديد البطش، وهو يبدئ الخلق ويعيده، يغفر لعباده ويتوب عليهم ويتودد لهم، وهو صاحب العرش المجيد، يفعل ما يريد، لا راد لقضانه ولا معقب لحكمه.

ويشير التعقيب الثالث في السورة إلى سبب ما لحق بالطغاة من عقوبة.

والتعقيب الرابع فيه ثناء على القرآن وتنديد بالمكذبين له.

د ـ وتُلوّح السورة بأن بطش الله شديد لكل جبارعنيد، وانتقامه تعالى ينتظر كل من بغى وتجبّر، ولهم عبرة في قصة فرعون الطاغية الجبار، وما أصابه من الهلاك والدمار،وكذا في قصة قوم ثمود الذين جعل الله بيوتهم خاوية بما ظلموا، لهم فيهم عبرة وعظة، للإقلاع عن ظلم الناس والتكبر في الأرض بغير الحق، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

قصة أصحاب الأخدود:

هذه القصة ليست قصة واحدة، فقد حدثت أكثر من مرة، في أكثر من بلد، وأكثر من زمن، لأكثر من قوم فُتنوا في إيمانهم، في القديم والحديث، وما أكثر أمثالها في عالمنا المعاصر وغير المعاصر:

١- فقد عُذب في الأخاديد قوم اتبعوا النصرانية في بلاد اليمن، وعلى هذا أكثر الروايات.

٢- وعُذّب قوم آخرون بالأخاديد في بلاد الحبشة.

٣- وعذب قوم من بني إسرائيل بمثل عذابهم على يد بختنصّر في أرض بابل بالعراق.

أما الطغاة الذين عَذبوا المؤمنين في الأخاديد فقد:

١- كان منهم: (يوسف، ذو نواس) بنجران.

٢- وكان منهم (بختنصر) بالعراق.

٣- وكان منهم (انطانيوس) الرومي، بالشام.

قال مقاتل: كانت الأخاديد ثلاثة: واحدة بنجران باليمن، والثانية بالشام، والثالثة بفارس.

أما التي بالشام، فهو انطانيوس الرومي، وأما التي بفارس فهو بختنصّر.

وأما التي بأرض العرب فهو: يوسف ذو نواس.

فأما التي بفارس والشام، فلم ينزل الله فيهم قرآناً، وأنزل في التي كانت بنجران[1].

وقصص الأخاديد كثيرة في التاريخ.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٨/٣٧٠).

والتعذيب بالحرق بالنار طريقة قديمة، ومنها: نار إبراهيم عليه السلام.

وممن حرّق بالنار دون شق الأخاديد (عمرو بن هند التميمي) فقد حرق مئة من بني تميم بالنار.

قال ابن كثير بعد أن ذكر جملة من الروايات:

ويحتمل أن ذلك وقع كثيرا في العالم، كما قال ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن جبير:

١- كانت الأخدود في اليمن زمان تُبّع.

٢- وفي القسطنطينية، زمان قسطنطين، حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، فاتخذوا أتوناً، وألقوا فيه الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد.

وفي العراق في أرض بابل، كان بختنصّر، الذي وضع الصنم، وأمر الناس أن يسجدوا له، فامتنع دانيال وصاحباه، فأوقد لهم أتوناً، وألقى فيه الحطب والنار، ثم ألقاهم فيه، فجعلها الله عليهم بردا وسلاماً، وألقى فيها الذين بغوْا عليه، وهم تسعة رهط، فأكلتهم النار.

وهذه **أربع روايات** من الروايات التي وردت في قصص أصحاب الأخدود:

الرواية الأولى: أن ملِك فارس شرب خمراً ووقع على أخته وهو سكران، فلما أفاق قال لها: ويحك، أين المخرج؟ فقالت له: اجْمَعْ أهلَ مملكتِك، فأخبِرْهم أن الله عز وجل قد أحل نكاح الأخوات والبنات، فإذا مضى ذلك في الناس وتناسوه، خَطَبْتَهُمْ مرة ثانية فحرّمْتَهُ، ففعل ذلك، فأطاعه أناس، وعصاه آخرون، فأبوْا أن يقبلوا ذلك منه، فشق لهم أخاديد طويلة كالخنادق في الأرض، وأوقد فيها النار، وقذف فيها مَنْ أَبى ذلك، وكان هذا الملِك مَجُوسياً، أراد أن يحلل نكاح المحارم بين الناس[1].

الرواية الثانية: عن عليّ ﷺ أن أهل الأخدود كانوا بمزارع باليمن، وأن الذي شق الأخاديد هو ملك حمير، حيث اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم، فغلب مؤمنوهم على

---

(١) تفسير الطبري (١٣٢/٣٠) عن علي بن أبي طالب ﷺ وانظر تفسير البغوي والخازن وزاد المسير للسورة.

كفارهم، ثم اقتتلوا، فغلب الكفار المؤمنين، فخدُّوا لهم الأخاديد وأحْرقوهم فيها.

وقيل: إنهم كانوا من الحبشة، وفيهم كانت المرأة المؤمنة التي قادها الزبانية إلى الأخدود، فتقاعست قليلاً من أجل ولدها، فقال لها الطفل: امض إلى الأخدود، واثبتي فأنت على الحق، فاقتحمت النار!!

الرواية الثالثة: وهي القصة التي أشار إليها القرآن الكريم، وقد جرت هذه القصة في نجران، وهي أن الملك ذو نواس، كان له كاهن أو ساحر، وكان للساحر تلميذ اسمه (عبد الله بن الثامر) فكان إذا مشى إلى الكاهن، وجد في طريقه صَوْمعة فيها راهب، يعبد الله تعالى على دين عيسى عليه السلام قبل رسالة محمد ﷺ وكان يقرأ الإنجيل، وظهر لـ (عبد الله بن الثامر) كرامات، وكلما ظهر له كرامة اتّبعه عدد من النصارى، فكثُر المتنصّرون في نجران.

وبلغ هذا الأمر الملك ذا نواس، وكان يهوديّاً، وكان أهل نجران مشركين، يعبدون نخلةً طويلة، فقتل الملك الغلام، وقتل الراهب، وأمر بشق أخاديد، وجمْع الحطب لها، وأمر بإشعال النار فيها، وعُرض أهل نجران على النار، فمن رجع عن التوحيد تركه، ومن ثبت على الدين الحق قذفه في النار، حيث سار إليهم ذو نواس بجنده، فدعاهم إلى اليهودية، وخيّرهم بينها وبين القتل، فحرق بالنار في الأخاديد من لم يدخل في اليهودية، وقتلهم بالسيف، ومثّل بهم، حتى قتل منهم قريبا من عشرين ألفاً[(١)].

قصة الأخدود في السنة:

ولعل هذا مجمل لما رواه صهيب ﷺ عن النبي ﷺ أن ملكاً كان له ساحر، فلما تقدّمتْ السن بالساحر، طلب من الملك أن يُعطيه غلاماً يُعلّمه السحر.

وكان بين الملك والساحر راهب، كان الغلام يجلس إليه ويعجب به، ويَلْقى الأذى بسبب ذلك من الساحر ومن أهله، فرأى الغلام في طريقه ذات يوم دابة عظيمة قد

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣٤/١) وما بعدها، بتصرف.

سدت الطريق وحبست الناس، ولم يستطيعوا اجتيازه، فأخذ الغلام حجراً، وقال: اللهم إن كان أمر هذا الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يمرّ الناس، ورماها بحجر فقتلها.

فأُخبر الراهب بذلك، فقال له: أنت أفضل مني، وإنك ستُبتلى، فإن ابتُليت فلا تدل عليّ، وقد أيد الله الغلام ببعض الكرامات، فكان يبرىء الأكمه والأبرص، وسائر الأدواء.

وكان للملك جليس أعمى، فأتى الغلام بهدايا كثيرة، وقال له: اشفني، قال الغلام: إنما يشفي الله عز وجل، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن، فدعا الله فشفاه.

ثم إن الملك سأله: مَن ردّ عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: أوَلَك رب غيري؟

قال: نعم، ربي وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دلّه على الغلام، فعذّبه.

ثم دلّه على الراهب، فأُتي به، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شِقّاه.

وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرقه أيضاً.

وقال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر من جنده يقذفونه من ذروة الجبل إن لم يرجع عن دينه، فلما علَوْا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل وماتوا جميعاً.

ورجع الغلام إلى الملِك، فبعث به مع نفر من جنده إلى البحر، وقال لهم: ألقوه في لجة البحر إن لم يرجع عن دينه، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، فأغرقهم الله جميعاً، فرجع الغلام إلى الملك وقال له: إنك لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلُبني على جذع، ثم تأخذ سهماً من كنانتي وتقول: باسم الله رب الغلام، فإن فعلت ذلك قتلْتني، ففعل، ومات الغلام، فقال الناس: آمنا برب الغلام.

فلما آمن الناس كلهم، شقّ الملك أخاديد في أفواه السكك وأضرم فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، ومن لم يرجع أقحموه فيها، فكانوا يتعادون ويتدافعون، فجاءت امرأة بابنٍ لها ترضعه، وتقاعست أن تلقيه في النار، فقال الصبي: اصبري يا

أماه، فإنك على الحق.

قيل: إن هذا الغلام وُجد في زمن عمر مدفونا ويده على صدغه، كلما رُفعت خرج الدم من جُرحه، وإذا تُركت أعيدت على الجرح[1] وهذه الرواية تفصيل لما أجملته الرواية الثالثة.

الرواية الرابعة: جاءت عن الربيع بن أنس، أن أصحاب الأخدود، كانوا قوماً في زمن الفترة، وذلك أنهم لما رأوْا ما وقع في الناس من الفتنة والشر، وصاروا أحزاباً، اعتزلوا الناس، وأقاموا على عبادة الله وحده، فسمع بخبرهم أحد الجبارين، فأرسل إليهم، يأمرهم بعبادة الأوثان، وإلا قتلهم، فأبوْا فحفر أخاديد، وقال لهم: اختاروا هذه النار، أو عبادة الأوثان، فقالوا: هذه النار أحب إلينا.

وكان فيهم نساء وذرية، ففزعت الذرية، فقال لهم: لا نار بعد اليوم، فقبض الله أرواحهم، بأن بعث عليهم ريحاً قبضتهم من قبل أن يمسهم حرّها، وخرجت النار من مكانها، وأحاطت بالجبارين على جانبي الأخدود، فأحرقهم الله بها، وفي ذلك أنزل الله الآيات[2].

* * *

(١) ينظر هذا المعنى في صحيح مسلم برقم (٣٠٠٥)، والمسند (١٦/٦) برقم (٢٣٩٣١) بإسناد صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم، والترمذي برقم (٣٣٤٠)، والنسائي في التفسير برقم (٦٨١)، وفي الكبرى (١١٥٩٧)، وعبد الرزاق في المصنف برقم (٩٧٥١)، والتفسير (٣٦٢/٢)، والبزار في مسنده (٢٠٩٠)، والطبراني برقم (٧٣١٩)، وابن أبي شيبة (٣١٩/١٠)، وابن حبان (٨٧٣).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٨٨/٣٠) بتصرف.

سُورَةُ الطارق (٨٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الطارق) هي السورة السادسة والثمانون في ترتيب المصحف، والسادسة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة البلد) وقبل (سورة القمر).

٢- واشتهرت باسم ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ بدون الواو، ويقال: سورة ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق[1].

وغالباً ما تقتصر التسمية على (سورة الطارق) فهذة ثلاثة أسماء لها.

٣- وعدد آياتها سبع عشرة آية عند غير المدنى الأول، وهى عنده ست عشرة آية.

وهى إحدى وستون كلمة، ومئتان وتسعة وثلاثون حرفاً.

٤- وهي سورة مكية باتفاق، نزلت قبل سنة عشر من البعثة، كما في حديث عبد الرحمن بن خالد بن أبي أحمد العَدْوَاني، أنه (أبصر رسول الله ﷺ في سوق ثقيف، وهو قائم على قوْس أو عصاً، حين أتاهم يبتغي عندهم النُّصرة، فسمعْتُهُ يقول: (﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ حتى ختمها)، قال: فوعَيْتُها في الجاهلية، ثم قرأتُها في الإسلام، قال: فدعتْني ثقيف، فقالوا: ماذا سمعتَ مِنْ هذا الرجل؟ فقرأتُها، فقال مَنْ معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، ولو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه)[2].

---

(١) المسند (٢/٢٢٧) وسنده ضعيف كما قال محققوه برقم (٨٣٣٣)، وانظر مقدمة سورة البروج.

(٢) المسند (٤/٣٣٥)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٧/١٣٦) عبد الرحمن، ذكره ابن أبي حاتم، ولم يخرجه أحد غيره، وبقية رجاله ثقات، وأخرجه البخاري في التاريخ (٣/١٣٨) والطبراني في الكبير (٤١٢٦،٤١٢٨) وضعفه محققوا المسند برقم: (١٨٩٥٨) لجهالة عبدالرحمن بن خالدالعدوانى، لم يوثقة غير ابن حبان.

وعن جابر ﷺ قال: صلى (معاذ) المغرب، فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي ﷺ: «أفتَّان أنت يا معاذ؟ أَما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق، والشمس وضحاها، ونحو هذا»[1]؟

٥- ومدار سورة الطارق على إقامة الأدلة على توحيد الله تعالى، وكمال قدرته، وبليغ حكمته، وسعة علمه، وبطبيعة الحال، فإن القادر على البدء قادر على الإعادة من باب أولى، فأدلة البعث والنشور تملأ آفاق السورة.

وهي تبدأ بالقسم بذات الكواكب التي تَطْرُق، أي تظهر ليلاً وتختفي نهاراً، على أن كل نفس قد وكّل الله بها مَنْ يحرُسها، ويتعهد أمرها، ويحفظ عليها أعمالها.

٦- ثم تستدل آيات السورة على وحدانية الله تعالى، فهو الذي خلق الإنسان من ماء دافق، وهو القادر على إعادته بعد موته ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الآية:٨].

وقد ساقت السورة ثلاثة **أدلة على البعث بعد الموت وهي:**

أ- السماء والطارق، ب- وخلق الإنسان من نطفة، ج - وإحياء الأرض بعد موتها.

٧- وفي هذا اليوم العظيم تُهتك الأستار، وتُكشف الأسرار، حيث لا مُعين للعبد ولا ناصر له إلا الله.

٨- وماجاء به القرآن من التوحيد، ووجوب الإيمان بالنبى الخاتم، ووجوب الإيمان بالبعث والثواب والعقاب، كل ذلك قد أودعه رب العالمين في كتابه، وهو حجة الله البالغة، ومعجزة محمد ﷺ القائمة إلى يوم الساعة، فهو حق وليس بهزل.

وقد وعد الله المؤمنين بالجنة، ووعد الكافرين بالنار، وهو سبحانه يمهلهم ولا يهملهم.

٩- هذا :والآيات الأربع الأول من السورة، فيها قسم على أن الله تعالى وكّل على كل نفس رقيب من الملائكة، يحفظ عليها ما تكسِبه من خير أو شر، وتحصيها له فى صحيفة أعماله.

---

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٦٤،٧٠٩)، وهو في البخاري (٧٠٥)، وأبوداود (٧٩٣،٥٩٩)، وبنحوه فى المسند (١٤١٩٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٢٤٠٤،٢٤٠١).

والآيات الست التى بعدها فيها استدلال على أن القادر على خلق الإنسان من نطفة قادر على بعثه يوم تبلى السرائر فَيُجْزَى بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً.

ـ ومن الآية الحادية عشرة إلى نهاية السورة فيها قسم من الله تعالى على أن القرآن حق وصدق، وأن كيد المكذبين له سيعود عليهم ، ويحل بهم عقاب الله إن عاجلاً أو آجلاً.

سبب النزول:

١٠- قيل: إن أباطالب أتى النبي ﷺ فأتْحفه بخُبْزٍ ولبن، وبينما هو جالس يأكل إذ سقط نجم، فامتلأ ماءً ثم ناراً، ففزع أبوطالب، وقال: أي شيء هذا؟ فقال النبي ﷺ: (رُمي به، وهو آية من آيات الله تعالى) فعجب أبوطالب، فأنزل الله ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾[1].

* * *

(١) تفسير الخازن (١٦٨/٤).

سُورَةُ الأَعْلَى (٨٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الأعلى) هي السورة السابعة والثمانون في ترتيب المصحف، والسابعة أو الثامنة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التكوير) وقبل (سورة الليل)، ولم يسبقها في النزول سوى سُور: العلق، والمدثر، والمزمل، والقلم، والمسد، والتكوير.

وعن جابر بن زيد أن سورة الفاتحة نزلت بعد سورة المدثر، فسورة الأعلى من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، وقوله تعالى فيها ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الآية:٦] يشير إلى ذلك.

٢- وهي تسع عشرة آية باتفاق أهل العدد، واثنتان وسبعون كلمة، ومئتان وإحدى وتسعون حرفاً.

٣- وهي سورة مكية عند جمهور أهل العلم، واستثنى ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الآيتان:١٤،١٥] فقالا: إنها مدنيتان، نزلتا في صلاة العيد وصدقة الفطر.

٤- واشتهرت السورة باسم (سورة الأعلى) وسمّتْها عائشة رضي الله عنها سورة ﴿سَبِّحِ﴾ كما سمّتْها بعض كتب السنة سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فهذه **ثلاثة أسماء**، أشهرها الأول.

٥- والسورة تتضمن قواعد الإيمان في **ثلاثة عناصر**، هي مجموع عناصر القرآن المكي:

العنصر الأول: توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق بجلاله، فهو الذي خلق فأبدع، وصوّر فأحسن، وأخرج العشب والنبات رحمة بالعباد.

جاء هذا في الآيات الخمس الأول من السورة.

العنصر الثاني: إثبات الوحي الإلهي، وتقرير أن هذا القرآن من عند الله تعالى، وتبشير الرسول ﷺ بتيسير حفظه له بحيث لا ينساه، وتيسير العمل به، وهذا من [الآية ٦-٨].

العنصر الثالث: تقرير الجزاء الأخروي، ببيان أن من ينتفع بالقرآن ويستفيد من نوره، ويتعظ بهديه، هم المتقون المفلحون الذين آثروا الآخرة على الأولى، وطهَّرُوا أنفسهم من الذنوب والآثام.

أما الفريق الآخر الذي تجنَّب هذي القرآن، ولم يُطهّر نفسه من الكفر والشرك، وآثر الدنيا على الآخرة، فإن لهم نار جهنم لا يموتون فيها ولا يَحْيَوْن، وهذه القواعد الإيمانية مقررة في صحف إبراهيم وموسى، وجاء هذا العنصر من [الآية ٩-١٩] آخرها.

ورد في الأثر عن علي بن أبي طالب ﷺ أن النبي ﷺ كان يحب هذه السورة(١).

يحبها لأنها تجعل الكون كله مَعْبَداً يسبح بحمد الله تعالى ويمجّده وينزهه عن كل نقص.

ويحبها لما تحمل له من البُشْرَيات العظيمة، ومنها عدم نسيان الوحي وهدايته إلى أيسر الطرق وأقومها.

ويحبها لأن فيها توحيد الله تعالى، ومقومات العقيدة الصحيحة، وقواعد الإيمان الحقيقي.

٦ـ بعض ما ورد في سورة الأعلى من أحاديث:

١- ومما يدل على أن سورة الأعلى من أوائل ما نزل على رسول الله ﷺ: ما رواه البراء بن عازب ﷺ قال: أول مَن قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ (يعني بالمدينة) مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلا يُقرآننا القرآن، ثم جاء عمّار، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأتُ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سور مثلها(٢).

٢- وجاء في مشروعية التسبيح بها في السجود: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: سبحان ربي الأعلى(٣).

---

(١) جاء هذا في حديث عند أحمد برقم (٧٤٢)، والبزار برقم (٧٧٦،٧٧٥)، وضعفه محققو المسند لضعف ثوير بن أبي فاختة.

(٢) البخاري (٤٩٤١،٣٩٢٤)، والمسند (٢٨٤/٤) برقم (١٨٥٦٨،١٨٥١٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن أبي شيبة (٨٢/١٤)، وابن سعد (٢٣٤/١)، وسنن النسائي الكبرى (١١٦٠٢،١١٦٠١)، والزيارة برقم (١٧٥٠).

(٣) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، كما في المستدرك (٢٦٣/١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم (٧٨٥)، وهو في المسند برقم (٢٦٦)، والطبراني (١٢٣٣٥)، والبيهقي (٣١٠/٢)، قال محققو المسند: صحيح موقوف، ورجاله رجال الشيخين، وأخرجه عبد الرزاق (٣٦٧/٢)، وابن أبي شيبة (٥٠٩/٢).

٣- وعن عقبة بن عامر ﵁ أنه لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال: (اجعلوها في ركوعكم) فلما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: (اجعلوها في سجودكم)[١].

٤- وعن أبي بن كعب ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ يوتر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[٢].

٥- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر في الركعة الأولى بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ وفي الثانية ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وفي الثالثة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين[٣]. كما كان ﷺ يقرأ بها في العيدين والجمعة:

٦- وعن النعمان بن بشير ﵁ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ وإن وافق يوم جمعة، قرأهما جميعا.

وفي لفظ: وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما[٤]. وكان ﷺ يقرؤها في صلاة الظهر:

٧- عن جابر بن سمرة ﵁ أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[٥] وقراءة المفصل في الصلاة من باب التخفيف بها:

---

(١) المسند (١٥٥/٤) (١٧٤١٤)، وأبوداود (٨٦٩)، وابن حبان (١٨٩٥)، والمستدرك (٤٧٧/٢)، والبيهقي (٨٦/٢) وسنده ضعيف، كما في ضعيف سنن ابن ماجة (١٨٦)، قال محققو المسند: وإسنادة محتمل للتحسين، وأخرجه الطيالسى (١٠٠٠)، والترمذى (٢٦١) عن ابن مسعود.

(٢) أبو داود (١٤٢٣)، والنسائي (٢٤٤/٣) (١٦٩٨،١٧٠٠)، وابن ماجة (١١٧١)، والدار قطني (٣١/٢)، وصححه الحاكم (٢٥٧/٢) ووافقه الذهبي، وابن حبان (٢٤٣٦)، والبيهقي (٣٨/٣)، وصحيح سنن ابن ماجة (٩٦١) وإسناده صحيح .

(٣) أبوداود (١٤٢٤)، والترمذي (٤٦٣) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجة (١١٧٣)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين (٥٢٠/٢) ووافقه الذهبي، والبيهقي (٣٧/٣)، وصحيح سنن أبي داود (١٢٦١) بإسناد صحيح، وهو في المسند عن ابن عباس (٢٧٢٥، ٢٧٢٠)، حديث صحيح (محققوه)، وأخرجه النسائى في الكبرى (٤٢٦)، وابن أبي شيبة (٢/ ٢٩٩)، وأبو يعلى (٢٥٥٥).

(٤) المسند (٢٧١/٤) (١٨٣٨٣،١٨٤٠٩) وهو حديث صحيح، ومسلم (٨٧٨)، وابن أبي شيبة (١٤١/٢)، والحميدى (٩٢٠)، وابن خزيمة (١٤٦٣)، وأبو داود (١١٢٢)، والترمذي (٥٣٣)، والنسائي (١٤٣٣)، وفي الكبرى (١٧٣٨)، وابن ماجة (١٢٨١).

(٥) صحيح مسلم (٤٦٠)، وابن أبي شيبة (٣٥٦/١).

٨- وفي الصحيح وغيره من حديث جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: (هلاّ صليت بـ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ و﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾)[١].

وفي لفظ البخاري زيادة﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[٢] [العلق: ١].

٩- وعن سمرة بن جندب ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ في الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾[٣].

١٠- وعن ابن عباس وسمُرة بن جندب ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾[٤].

١١- وعن عمران بن حصين ﷺ أن رسول الله ﷺ صلّى الظهر، فلما سلّم قال: هل قرأ أحد منكم ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فقال: رجل: أنا، قال: (قد علمتُ أن بعضكم خالَجنِيها)[٥].

فهذه جملة من الأحاديث تفيد أن من السنة قراءة سورة الأعلى في صلاة الوتر، وفي العيدين، وفي صلاة الجمعة، وفي صلاة الظهر، بالإضافة إلى غيرها.

والسنة إذا التزمها المسلم بصفة دائمة كانت فرضاً، ولكي يُفرّق بين الفرض والسنة، فإنها تُترك أحياناً حتى لا تُشبه الفرض، وحتى لا يستنكر الناس عدم قراءتها أحياناً، وليستفيد المسلمون من تنوُّع ما يُقرأ عليهم، وحتى لا يكون الاستماع إليها مجرد عادة مكررة دون الانتباه إليها والتفكير فيها.

---

(١) صحيح البخاري (٦١٠٦)، وصحيح مسلم (٤٦٥)، وابن أبي شيبة (٣٥٩/١).

(٢) وعند ابن ماجة (٨٣٦)، كما في صحيح سننه (٦٨٢)، وهو في البخاري (٧٠٥)، والنسائي في الكبرى (١١٦٠٣)، والمسند (١٤١٩٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وابن حبان (٢٤٠١)، والطيالسى (١٧٢٨)، وعبد ابن حميد (١١٠٢) من طرق أخرى.

(٣) صحيح سنن ابن ماجة (٩١٩)، وعن سمرة بن جندب في المسند (٢٠١٦٤) ورجاله ثقات بإسناد صحيح (محققوه)، والنسائي (١٤٢١)، وابن خزيمة (١٨٤٧)، وابن حبان (٢٨٠٨)، والطبراني (٦٧٧٥)، والبيهقى (٢٠١/٣)، والشافعى فى مسندة (١٤٩/١)، وابن أبى شيبة (١٤٢/٢).

(٤) صحيح سنن ابن ماجة (١٠٦١)، وفي سنن ابن ماجة (١٢٨٣)، والمسند (٢٠٠٨٠) بإسناد صحيح ورجاله ثقات (محققوه)، والطبراني (٦٧٧٣) ومواضع أخرى .

(٥) مسلم (٣٩٨)، وابن أبي شيبة (٣٥٧/١)، والبيهقي في السنن (١٦٢/٢).

سُورَةُ الغَاشِيَةِ (٨٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الغاشية) هي السورة الثامنة والثمانون في ترتيب المصحف، والسابعة والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الذاريات) وقبل (سورة الكهف).

وهي ست وعشرون آية باتفاق، واثنتان وتسعون كلمة، وثلاث مئة وإحدى وثمانون حرفاً.

٢- وشهرتها (سورة الغاشية) كما في حديث النعمان بن بشير ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ والغاشية، في صلاة العيد ويوم الجمعة[1].

وجاء تسميتها بـ (سورة هل أتاك حديث الغاشية) كما في رواية الموطأ وغيره أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير ﷺ: بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾[2].

وعَنْون لها ابن عطية في تفسيره بـ (سورة هل أتاك) اختصاراً.

فهذه ثلاثة أسماء أشهرها الأول.

٣- وهي سورة مكية باتفاق.

٤- وقد اشتملت السورة على موضوعين:

الموضوع الأول: الحديث عن القيامة وأهوالها، وما يلْقاهُ الكافر فيها من العناء والبلاء، وما يلقاه المؤمن من السعادة والهناء.

وقد بدأت السورة بردّ العباد إلى الله تعالى وحسابهم، في يوم تغشاهم فيه الداهية العظمى، وتغمرهم بشدائدها، فتغطى أفكارهم وتُدوِّخهم، فمنهم أصحاب الوجوه

---

(١) المسند (٢٧١/٤) (١٨٣٨٣،١٨٤٠٩) وهو حديث صحيح، وصحيح مسلم برقم (٨٧٨)، وأبوداود (١١٢٢)، والترمذي (٥٣٣)، وسنن النسائي (١١٢/٣)، وفي الكبرى (١٧٣٨).

(٢) أخرجه مالك (١١١/١)، ومسلم (٨٧٨)، وأبوداود (١١٢٣)، والنسائي (١٤٢٢)، وابن ماجة (١١١٩)، وسنن النسائي الكبرى (١٧٤٩،١١٦٠٥).

الكئيبة البائسة المرهقة، وهم في عقاب وخيم، وكَرب عظيم، شرابُهم ماء حار، يقطّع الأمعاء ويشْوي الوجوه، وطعامهم لا يسمن ولا يغني من جوع.

ومنهم أصحاب الوجوه الناعمة التي أرْضت ربها في الدنيا، فرضي الله عنها وأرضاها في جنة عالية قطوفها دانية، وهذا من أول السورة إلى الآية السادسة عشرة.

والموضوع الثاني: إقامة أربعة أدلة على وحدانية الله تعالى، وقدرته الباهرة.

وقد ضربت السورة هذه البراهين للرجل الأول الذي نزلت عليه هذه الآيات، فهو رجل بَدوِيّ يفترش الأرض، ويلتحف السماء، ويَرْكَب الإبل، ويشرب من ألبانها، ويأوي إلى الجبال والكهوف.

بهذه البيئة الصحراوية خاطب القرآن الناس في عصر التنزيل، ولو خاطبهم بالذَّرةِ والفضاء وشبكَة المعلومات، وناطحات السحاب، وطائرات التجسس وما إلى ذلك.. لَمَا صدّق الناس ذلك.

وفي الأثر عن عليّ ﷺ موقوفاً عليه: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله)[1].

ويستدل بهذه المخلوقات على أن الذي أوجدها من العدم، قادر من باب أولى على بعثهم بعد الموت.

فهي أدلة أربعة مطلوبة للإيمان بالبعث والنشور، وهذا من الآية السابعة عشرة إلى الآية العشرين.

وهكذا فقد بينت السورة أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، كما لفتت أنظار الناس إلى مظاهر قدرة الله تعالى في خلقه، لكي يتفكروا ويتدبروا، فيذْركوا أن الخالق لهذا الكون هو المستحق وحده للطاعة والعبادة دون سواه، وأنهم سيعودون إلى ربهم للحساب والجزاء فيجازي كُلاًّ بما قدمت يداه، ومهما طالت الأعمار أو قصرت، فالمصير إلى الله تعالى والمرجع إليه.

(١) صحيح البخاري (١٢٧)، كتاب العلم باب رقم (٤٩).

٥- وبعد هذا الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، تختم السورة ببيان أن مهمة الرسول ﷺ وجميع الدعاة إلى الله من بعده، أن ينشروا دعوة الله تعالى بين الناس كافة، ليقيموا دولة الإسلام على أرض المعمورة، ويحرروا العقول من رق العبودية لغير الله تعالى، وإخراج الخلق من عبادة الناس إلى عبادة رب الناس.

فليست دولة الإسلام دولة جنس ولا لون ولا لغة ولا نسب، ولا دولة تدق أعناق الناس، وتسلُب خيراتهم ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١،٢٢].

ومن لم يتبع دعوة الإسلام من الخلق كافة يعذبه الله تعالى العذاب الأكبر، والمصير العادل إلى الله وحده ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥،٢٦].

وهذا من الآية الحادية والعشرين إلى نهاية السورة.

* * *

سُورَةُ الْفَجْرِ (٨٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الفجر) هي السورة التاسعة والثمانون في ترتيب المصحف، والعاشرة في ترتيب النزول، فهي من أوائل ما نزل من القرآن. نزلت بعد (سورة الليل) وقبل (سورة الضحى).

وعدد آياتها ثلاثون آية عند أهل الكوفة والشام[1].

وهي مئة وتسع وثلاثون كلمة، وخمس مئة وسبعة وتسعون حرفاً.

ويقال: سورة ﴿وَالْفَجْرِ﴾ بالواو. وهي سورة مكية.

٢- عن جابر ﷺ قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه، فطوّل فصلى في ناحية المسجد، ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذاً، فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، جئتُ أصلي، فطوّل عليّ، فانصرفتُ، فصليتُ في ناحية المسجد، فعلفْتُ ناضحي، فقال رسول الله ﷺ: أفتان أنت يا معاذ؟ أين أنت من ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾[2].

٣- وقد تحدثت آيات السورة عن **ثلاثة أمور**:

أولاً: بيان ما حل ببعض الأمم المكذبة لرسل الله من عذاب ونكال، كقوم عاد وثمود وفرعون، مع قوتّهم وحضارتهم وطولِ أعمارهم، وكيف أنّ طغيانهم أوردهم المهالك، كي يعتبر بهم كل من كذب خاتم الرسل ﷺ من أهل الغرب والشرقُ، والشمال والجنوب، وقد استغرق ذلك أربعة عشر آية من أول السورة.

---

(١) وتسع وعشرون آية عند أهل البصرة، واثنتان وثلاثون آية في العدد المكي والمدني.

(٢) النسائي في التفسير (٦٩٣)، وفي السنن الكبرى برقم (٩٠٧،١١٦٠٩،١١٦٧٣)، والبخاري (٧٠٥)، وأبوداود (٧٩٣)، والمسند (١٤١٩٠) بنحوه وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٢٤٠٤)، والطيالسى (١٧٢٨)، وعبد بن حميد (١١٠٢)، وجاء هذا الحديث من طرق كثيرة متقاربة الألفاظ.

ثانياً: تحدثت السورة عن طبيعة سيّئة في بعض البشر الذين يغترُّون بالحاضر وينسوْن الماضي والمستقبل، ولا يعرفون أن الله تعالى يداول الأيام بين الناس، فكثير منهم ينخدع بيومه الحاضر، فيغتر بغناه، ويجزع من فقره، ولا يدري أنه مُمتحَن بالخير والشر، والنفع والضر.

إن الله تعالى يبتلي بالغنى والفقر، والنصر والهزيمة، ولا يدل أي منهما على الرضى أو السخط من الله تعالى، إنه تقسيم يُمحِّص الناس، ويحدد منازلهم يوم القيامة، والعاقبة للتقوى.

وقد وقع التفاوت بين أرزاق الناس من بدء الخليقة، ليواسي الغني المحتاج ويفرِّج كربته، وليصْبِر الفقير، ويكافح فى طلب الرزق، ويتربَّى على العفاف، ولا يبكي على دنيا فاتَتْه، أو يحسُد أحدا على رزق الله له، وقد استغرق هذا المعنى ست آيات من [الآية ١٥-٢٠].

ثالثاً: تحدثت السورة في الآيات العشر المتبقية منها، عن الدار الآخرة وأهوالها وشدائدها، فالناس في الدنيا يلتمسون الحرية فلا يجدونها، ويبحثون عن العدالة فيفتقدونها، ولن يتحقق لهم ذلك إلا في يوم تُدَكُّ فيه الأرض، ويأتي ربك للفصل بين الخلائق، وتأتي الملائكة صفوفاً، وتبرز جهنم للناظرين، ويَصيح الإنسان بالندم في يوم لا ينفع فيه الندم، ويكون الناس فريقان: أهل الشقاء، ممن لا يعذب عذابهم أحد، وأهل النفس المطمئنة التي تدخل جنة ربها راضية مرضية..

* * *

سُورَةُ الْبَلَدِ (٩٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة البلد) هي السورة التسعون في ترتيب المصحف، والخامسة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة ق) وقبل (سورة الطارق).

وعدد آياتها عشرون آية باتفاق.

وهي اثنتان وثمانون كلمة، وثلاث مئة وعشرون حرفاً.

سميت (سورة البلد) وترجم لها البخاري بـ (سورة لا أقسم).

وهي سورة مكية عند الجمهور.

٢- ابتدأت السورة بقَسَمينْ عظيمئن، على أن الله تعالى خلَق الإنسان في شدة وعناء، يحمل أثقال التكاليف الشرعية، ولجام الحلال والحرام، الذي يحجز بينه وبين الشهوات، ولكن الإنسان قد يكفر، ويُنكر البعث والنشور، ويغترّ بما أوتي من جاه ومال وولد، وهو لا يُدْرك أنه لا قيمة لهذه الموازين إذا لقى العبد ربه عُرْياناً، لا يكسوه إيماناً ولا صلاحاً، ولا يدري أن الله تعالى سائله عن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه؟

٣- ثم إن الله تعالى أفاض على الإنسان بنعم كثيرة كالعينيْن واللسان والشفتيْن، فهلاً كسر قُيود الكفر والتقليد الأعمى، واقتحم طريقه إلى الله تعالى، بإنفاق الأموال في وجوه الخير، بعد أن يكون مؤمناً متزوداً بصالح الأعمال، متواصياً بالصبر والمرحمة، أما من أَبى اقتحام العقبة فله عاقبة أخرى!

٤- وسورة البلد بيّنتْ أن الأنبياء العرب كهود وصالح وشعيب، قاموا بواجب الدعوة إلى الله في أطراف الجزيرة شمالاً وجنوباً، حتى جاء خاتم النبيين ﷺ فكوّن من وسط الجزيرة مَنْ حَمل مشاعل العلم والدعوة إلى العالم أجمع.

٥ - هذا: والآيات الأربع الأول من السورة، فيها قسم مؤكد على أن الله تعالى خلق الإنسان الكافر فى نصب وشقاء ومكابدة فى الدنيا والآخرة.

وبقية السورة تصف هذا الإنسان بأوصاف الكفر وتذكره بنعم الله عليه، ولكنه لم يقتحم طريق النجاة، فكان من أصحاب الشمال الذين أَطبقت عليهم نار جهنم.

أما المؤمن الذى عمل الصالحات وأنفق أمواله في وجوه الخير، وكان من أهل التواصي بالصبر على طاعة الله وعن معاصيه، ومن أهل الرحمة بالناس والشفقة على ضعفائهم، فهو من أهل اليمين السعداء في دار النعيم.

* * *

سُورَةُ الشَّمْسِ (٩١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الشمس) هي السورة الحادية والتسعون في ترتيب المصحف، والسادسة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة القدر) وقبل (سورة البروج).

وعدد آياتها ست عشرة آية في المصحف المدنى الأول، قيل: والمكي.

وخمس عشرة آية في بقية المصاحف.

وهي أربع وخمسون كلمة، ومئتان وسبعة وأربعون حرفاً.

وهي سورة مكية باتفاق.

وتسمى (سورة الشمس) بدون واو، وعنْون لها البخاري وغيره بسورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾.

موضوع السورة:

تناولت (سورة الشمس) **موضوعين**، ثانيهما: مَثَلٌ تطبيقي للأول:

أما **أولهما**: فهو موضوع النفس الإنسانية، وما جُبلتْ عليه من خير وشر، وهُدًى وضلال، وذلك في الآيات العشر الأُوَل منها، حيث أقسم سبحانه سبع مرات متتابعة في الآيات الثمانية الأول: بالشمس وضوئها الساطع، والقمر إذا أعقبها، والنهار إذا جلّى ظلمة الليل، وبالليل إذا غطّى الكائنات بظلامه، وبالسماء وبناءها بلا عمد، وبالأرض وبسْطها، وبالنفس البشرية وما زيّنها به من الفضائل والكمالات.

أقسم تعالى بهذا كله على شيء واحد هو: فلاح من زكّى نفسه بالتقوى، وشقاوة من أتبع نفسه هواها، وأخلد إلى الأرض، فأخفى نفسه في المعاصي، ودسّها فيها، فأشقاها في دنياها وأخراها. وهذا في الآيات العشر الأول من السورة.

وثانيهما: مثلٌ لمن أهلك نفسه بالإسفاف والغفلة، فطغى وتجبّر، وخرج عن طاعة الله والرسول، وهذا يتمثل في قصة قوم ثمود لَمَّا كذّبوا نبيهم صالحاً، وعقروا الناقة التي

هي معجزة الله لرسوله صالح عليه السلام، وقد فَجَرتْ قبيلة ثمود وطغتْ، فكان عاقبتها أن جعلها الله مثلاً وعبرة لكل فاجر مكذب لله ورسوله، فأمستْ هشيماً تُداس بالأقدام ،وكان هذا المثَل التطبيقى للنفس الشقيّة فى الآيات الخمس الأخيرة من السورة.

عن أبي بريدة ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة العشاء بـ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ وأشباهها من السور[1].

وفي حديث أنس ﷺ أن معاذ بن جبل ﷺ أطال في صلاته وهو يؤم الناس فقال له النبي ﷺ «أفتان أنت؟ لا تُطَول بهم، اقرأ بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ونحوها»[2].

إن سورة الشمس من قصار السور، تتضمن معاني وجيزة، وتوجيهات سريعة، ولكنها كافية شافية لمن يُكثر قراءتها في الصلوات الخمس، لتكون زاداً رُوحياً نافعاً.

* * *

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٩٤) بإسناد قوى ومتنٍ صحيح، كما قال محققوه، وسنن الترمذي (٢٥٤)، والنسائي (٩٩٨)، والبغوى فى شرح السنة (٦٠٠)، والنسائى (١٧٣/٢).

(٢) ينظر الحديث بطوله في سنن النسائي الكبرى (١١٦٧٤) والمسند (١٢٢٤٧) بإسناد على شرط الشيخين (محققوه)، وأخرجه الضياء فى المختارة، والبزار (٤٨١)، وعن جابر فى المسند (١٤١٩٠)، وهو متفق عليه.

سُورَةُ الليل (٩٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الليل) هي السورة الثانية والتسعون في ترتيب المصحف، والتاسعة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الأعلى) وقبل (سورة القمر).

وعدد آياتها إحدى وعشرين آية، باتفاق.

وهي إحدى وسبعين كلمة، وثلاث مئة وعشرة أحرف.

وتسمى (سورة الليل) بالواو، وبدونها، وعنْون لها البخاري والترمذي سورة.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾.

وهي سورة مكية عند الجمهور، وقيل: إن قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ نزلت في أبي الدحداح الأنصاري، فقالوا: إن بعضها مدني، والصحيح أنها مكية خالصة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن هذه السورة نزلت في السماحة والبخل[1].

موضوع السورة:

١- تُقرر (سورة الليل) حقيقة العمل والجزاء، وأنَّ سعْيَ الإنسان وكفاحه ونضاله في هذه الحياة، ثم نهايته إلى النعيم أو الجحيم، وفيها قسم بالليل حين يُغطِّي العالم بظلامه، وبالنهار وهو يكشف هذه الظلمة، وبخلْق الذكر والأنثى، على أن سعْي الخلْق مختلف، وتوجُّهاتهم متباينة، فمع اختلاف الليل والنهار، يقضي الناس آجالهم، ويصنعون مستقبلهم إما إلى جنة، وإما إلى نار.

فالسعي الصالح يرشِّح صاحبه لمستقبل عظيم، والعمل السيء يمهد لصاحبه نهاية مُخْزية.

وقد أساء قوم فهْم القضاء والقدر، فجمَّدُوا طاقاتهم، ولاذُوا بالقعُود عن العمل، ففشلوا وعجزوا، وفقدُوا حاضرهم ومستقبلهم، هذا هو مضمون الآيات الأربع الأول.

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٤٥١/٥).

٢- وإنفاق المال مع إخلاص النية، والخوف من لقاء الله تعالى، وذم البخل بالمال مع الرياء، وعدم الخوف من لقاء الله تعالى، يرسُمان الخط البياني لطالب السعادة وطالب الشقاء، ويُبيّنان صفات الأبرار والفجار، وكلاهما قد يسّر الله له طريق عمله، ووضّح له طريق الهدى والضلال، وهذا هو مضمون [الآيات: ٥-١٣].

٣- ثم حذّرت السورة وأنذرت من كذَّب خاتم النبيين ﷺ وكذّب الكِتَاب الذي نزل عليه، وكذّب باليوم الآخر، ومافيه من بعث ونشور، فهذا الشقي المعرض عن هداية الله تعالى سوف يصلى ناراً حامية، فيذوق سعيرها وجحيمها، أما من آمن بالله ورسوله وكتابه وجنته وناره، وعمل صالحاً، ولم يبخل بماله، وزكى نفسه من الذنوب وطهرها، من الشرك فهو الفائز بالجنة، المبعَد عن النار، المَرْضِيّ عنه يوم لقاء الله تعالى.

وبهذين المثلين لأهل الشقاء وأهل السعادة ختمت السورة.

عن جابر بن سَمُرة قال: كان النبي ﷺ يقرأ في صلاة الظهر والعصر بـ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ ونحوها[1].

* * *

(١) ينظر: صحيح مسلم (٤٥٩) والبيهقي في سننه (٢/٣٩١).

سُورَةُ الضُّحَى (٩٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الضحى) هي السورة الثالثة والتسعون في ترتيب المصحف، والحادية عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الفجر) وقبل (سورة الانشراح).

وعدد آياتها إحدى عشرة آية باتفاق.

وهي أربعون كلمة، ومئة واثنان وسبعون حرفاً.

وسميت (سورة الضحى) بإثبات الواو وحذفها.

وهي سورة مكية باتفاق، وأول سورة من قصار المفصل.

٢ - والسورة تتحدث عن فترة تأخر نزول الوحي على رسول الله ﷺ بعد أن أشاع المشركون الشائعات الكاذبة حول سبب تأخر نزوله، وقد حدث ذلك في أوائل نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وكان ذلك لأسباب طبيعية، لأن نزول الوحي على رسول الله ﷺ في أول الأمر، كانت تصحبه معاناة شديدة، بسبب مُلاقاة الملَك للبشر، فكان ﷺ يتدثر ويتزمل، ويشتد عليه الأمر، لذلك كان لابد من الاستجمام والراحة بعض الوقت، ليستأنف النزول بعدها، وقد حدث هذا مرة أو مرتين، وكان من آمن بالنبي ﷺ وقتئذ أفراد يُعَدُّون على الأصابع، وتتابع الوحي، واتسعت دائرة الدعوة بعد ذلك.

وفي هذا الصدد يقسم تبارك وتعالى مرتين - لأن الخطاب لقوم مشركين منكرين للرسالة - على أنه سبحانه لم يهجر محمداً ﷺ ولم يبغضْه كما زعموا، بل هو عنده رفيع القدر، جليل الشأن، ثم يبشره بالعطاء الجزيل في الآخرة، ويذكّره بما أنعم عليه في الصّغر: من اليُتم، والفقر، والفاقة، والحيرة، فآواه ربه وأغناه، وأحاطه بعنايته ورعايته، فلا مجال للقول بالبغض أو الهَجر.

ثم إن الله تعالى وصّى نبيه ﷺ مقابل هذه النعم: أن يعطف على اليتيم، وأن يرحم المسكين، ويمسح دمعة البائس الفقير، ويتحدث بفضل الله عليه.

أسباب النزول:

أ - في الصحيحين وغيرهما عن جندب بن سفيان البجَلي ﷺ قال: دَمِيَتْ إصبعُ رسول الله ﷺ فاشتكى، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة، فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أرهُ قرِبَك منذ ليلتين أو ثلاث، فأنزل الله ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[1].

والمرأة هي: أم جميل بنت حرب، زوج أبي سفيان.

فقد أخرج الحاكم عن زيد بن أرقم ﷺ قال: لما نزلت ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ فقيل لامرأة أبي لهب: إن محمداً قد هجاك، فأتت رسول الله ﷺ وهو جالس في الملأ، فقالت: يا محمد، علامَ تهجوني؟ قال: (إني والله ما هجوْتُك، ما هجاكِ إلا الله) فقالت: هل رأيتني أحمل حطباً، أو رأيتَ في جيدي حبْلاً من مسد؟ ثم انطلقتْ، فمكث رسول الله ﷺ أيّاماً لا ينزل عليه، فأتته فقالت: ما أرى صاحبك إلا وقد ودّعك وقلاك، فأنزل الله ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[2].

ب - وفي رواية الترمذي عن جندب أيضاً من طريق ابن عيينة قال: كنت مع النبي ﷺ غازياً، فدَميتْ إصبعه، فقال: هل أنتِ إلا إصبع دَميتْ، وفي سبيل الله ما لقيتْ، قال: فأبطأ عليه جبريل، فقال المشركون: وُدّع محمد، فأنزل الله:

---

(١) صحيح البخاري برقم (١١٢٥،٤٩٥٠،٤٩٨٣)، وصحيح مسلم برقم (١٧٩٧)، والمسند (١٨٧٩٦،١٨٨٠٤)، والترمذي (٣٣٤٥)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦١٧)، والطبراني في الكبير (١٧٠٩،١٧١١)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٦٥)، وابن حبان (٦٥٦٥).

(٢) المستدرك (٢/٥٢٦)، وهو في البخاري (٤٩٥١)، ومسلم (١٧٩٧)، وأخرجه أحمد مختصراً في المسند (١٨٧٩٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، و(١٨٨٠١، ١٨٨٠٤) بأطول منه.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[1].

قال الخازن: فلما نزل جبريل عليه السلام، قال محمد ﷺ: يا جبريل ما جئت حتى اشتقتُ إليك، فقال جبريل: إني كنت إليك أشد شوقا، ولكني عبد مأمور، ونزل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[2] [مريم:٦٤].

هذا: واحتباس الوحي عن النبي ﷺ وقع مرتين:

أولاهما: كان بعد نزول سورتين أو ثلاث من القرآن.

وفي هذه المرة خشي الرسول ﷺ أن يكون الوحي قد انقطع عنه، فرأى ﷺ جبريل عليه السلام على كرسي بين السماء والأرض.

وقيل: إن الوحي انقطع هذه المرة أربعون يوما، وكان ذلك قبل أن يقوم الليل بالقرآن في مبدأ نزول الوحي، فلم يشعر بها المشركون.

وثانيهما: بعد نزول نحو ثماني سور من القرآن الكريم، وكان احتباس الوحي في هذه المرة اثني عشر يوماً، رفقاً بالنبي ﷺ كي تستجم نفسه، ويتعود على تحمُّل أعباء الوحي.

والظاهر أن هذه السورة (الضحى) نزلت بعد المرة الثانية التي فتر بعدها الوحي، بعد

---

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح (٣٣٤٥) وفيه: كنت مع النبي ﷺ في غار، ولكن جُندباً كان من صغار الصحابة، فلم يتفق له أن يكون مع النبي ﷺ في غار، قال أهل العلم: فلعلها تصحيف، وأن أصلها (كنت غازياً) كما أثبتُّها في النص، والحديث في المسند (٨٧٩٧، ١٨٨٠٧)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، دون ذكر: كنت مع النبي ﷺ غازياً (محققوه)، وأخرجه الترمذي في الشمائل (٢٤٤)، بهذا الإسناد وأخرجه الطيالسي (٩٣٨)، والطحاوى في شرح المشكل (٣٣٣١)، والطبراني في الكبير (١٧٠٤)، وسعيد بن منصور (٢٨٤٦).

ومما قيل في أسباب النزول: أن تأخُّر جبريل كان بسبب وجود كلب صغير تحت سرير النبي ﷺ، قال ابن حجر في الفتح (٨/٥٤٥): في إسناده من لا يُعرف، وهو مردود بما جاء في الصحيح، وورد أن احتباس الوحي كان بسبب سؤال اليهود للنبي ﷺ عن ذي القرنين، وأصحاب الكهف، والروح، فقال: سأخبركم غدا، ولم يقل: إن شاء الله فاحتبس الوحي، وهذا أيضاً ليس سببا لنزول السورة، لبُعد ما بين القصتين في الزمان.

(٢) تفسير الخازن (٤/٣٨٥).

أن أخذ ﷺ يقوم الليل، وشعر به المشركون[١].

التكبير في قصار المفصل:

٤- أما **مسألة التكبير** من أول أو آخر سورة الضحى التي قرأ بها الإمام ابن كثير من القراء السبعة وغيره، فإن هذا التكبير لم يرد في حديث صحيح.

ومن ذلك ما أورده ابن كثير في تفسيره، فهو غير صحيح، ولم يَرد التكبير عن جمهور القراء، وقال به بعض الشافعية والحنابلة، ولم يقل به الحنفية والمالكية، وليس لأئمة الفقه مذهب فيما يتعلق بالقرآن.

هذا وقد ورد التكبير من طريق التلقّي عن عشرات من أهل الأداء، عن ابن كثير المكي من أئمة القراءة، من آخر الضحى، أو أولها، كما ورد التهليل قبله والتحميد بعده.

ولم يرد التكبير عن غير المكيين من القراء من طريق صحيح، ومنهم حفص، والقراءة سنة متبعة تؤخذ عن طريق الرواية المتواترة، ولا تثبت القراءة بالحديث.

وقد ذكر ابن الجزري ثلاثين اسماً ممن رَوَوْا التكبير عن البزي في سور الختم، وهو أحد راوييْ ابن كثير المكي.

فالتكبير في أخر السورة بدءاً من سورة الضحى عند المكيين صح عن القراء بطريق التلقى، وكذا التهليل قبله والتحميد بعده.

ورُوى التكبير عن جميع القراء بين جميع السور من طريق طيبة النشر في القراءات العشر[٢].

* * *

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٣٠/٣٩٦).

(٢) ينظر هذا البحث في كتابي فن الترتيل وعلومه، الجزء الثاني والحديث الذي أخرجه الحاكم في شأن التكبير (٣/٣٠٤) للإمام ابن الجزري، والبيهقي في الشعب (٢٠٧٩) غير صحيح، وينظر النشر في القراءات العشر.

سُورَةُ الشرح (٩٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الشرح) هي السورة الرابعة والتسعون في ترتيب المصحف، والثانية عشرة في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة الضحى) وقبل (سورة العصر).

وعدد آياتها ثماني آيات، باتفاق، وهي سبع وعشرون كلمة، ومئة وثلاثة أحرف.

وهي سورة مكية باتفاق، وتسمى سورة: الشرح، والانشراح، وألم نشرح.

٢- وتتناول (سورة الشرح): مكانة الرسول العالية، ومقامه الرفيع، وما حباه الله به من شرح صدره بالإيمان، وتنوير قلبه بالقرآن، وتطهير ذنوبه وأوزاره، وتُبيِّن رفْعة مقامه في الدنيا والآخرة، وإعلاء منزلته في العالمين، وتُبشره بِقُرْب الفرَج والنصر، وتيسير العسير من الشدائد التي يلاقيها في سبيل الدعوة.

وفي سورة الشرح أمر للنبي ﷺ ولأمته بأن العبد إذا فرغ من عمله للدنيا، فلْينصَب في عبادة ربه، وكل هذا من باب إزالة الهم، ورفع الحرج عن النبي ﷺ.

والسورة توحي بأن النبي ﷺ كان متأثراً مما قاله المبطلون في شأن تأخُّر نزول الوحي عنه، وأنه كان مُثْقلاً بهموم الدعوة، فأراد الله سبحانه أن يخفف عنه العبء ويؤنسه ويطمئنه.

والاستفهامات التي بدأتْ بها هذه السورة، تكْمِلَةً للاستفهام المتتابع الذي خُتمت به السورة السابقة.

معجزة شق الصدر:

معجزة شق صدر النبي ﷺ وقعت له ثلاث مرات:

أ ـ شق صدر النبي ﷺ وهو طفل مسترضَع في بني سعد:

عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج منه علْقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله

في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَهُ، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يَسعوْن إلى أمه (مرضعته) فقالوا: إن محمداً قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون.

قال أنس: وقد كنت أرى أَثر ذلك المخيط في صدره)[١].

ب ـ شق صدره ﷺ ليلة الإسراء والمعراج:

وعن مالك بن صعصة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ سمعتُ قائلاً يقول: أحد بين الثلاثة، فأُتيتُ بطست من ذهب، فيها ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا.

قال قتادة: قلت لأنس بن مالك: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطني، فاستُخرج قلبي، فغُسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حُشي إيماناً وحكمة..»[٢].

ج – شق صدره ﷺ وهو في الحادية عشرة من عمره:

وعن أُبيّ بن كعب أن أباهريرة ﷺ كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره، فقال: يا رسول الله، ما أول ما رأيتَ من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال: «لقد سألتَ أباهريرة، إني لفي صحراء، ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلامٍ فوق رأسي، وإذا برجل يقول لرجل: أهو هو؟ قال: نعم، فاستقبلاني بوجوهٍ لم أرها لخلْق قط، وأرواحٍ لم أجدها من خلْق قط، وثيابٍ لم أرها على أحد قط، فأقبلا إليّ يمشيان، حتى أخذ كل واحد منهما بعضُدي، لا أجد لأخذهما مسّاً، فقال: أحدهما لصاحبه: أَضْجِعْه، فأضجعاني بلا قصْر ولا هصْر، فقال أحدهما لصاحبه: إفْلق صدْره، فهَوى أحدهما إلى صدري ففلَقها فيما أرى، بلا دم ولا وجع، فقال له: أَخْرِج الغِلّ

(١) صحيح مسلم برقم (١٦٢)، وصحيح البخاري (٣٥٧٠)، وعن قتادة (٤٩٦٤،٧٥١٧).

(٢) قال أبوعيسى في سنن الترمذي: هذا حديث صحيح (٣٣٤٦)، وهو في المسند (١٧٨٣٣-١٧٨٣٧) بإسناد صحيح، ورجال ثقات، كما قال محققوه، والبخاري (٣٢٠٧،٣٤٣٠)، ومسلم (١٦٤)، والنسائي (٤٤٧)، وفي الكبرى (٣١٣).

والحسد، فأخرَج شيئاً كهيئة العلْقة، ثم نبذها فطرحها، فقال له: أَدْخِلْ الرأفة والرحمة،فإذا مِثْل الذي أَخْرَج يشبهُ الفضة، ثم هزّ إبهام رجلي اليمنى، فقال: اغْدُ واسْلم، فرجعتُ بها أعدُوا، رقة على الصغير، ورحمة للكبير»[1].

وهكذا جاءت روايات مختلفة في زمان ومكان معجزة شق الصدر، وكلها كانت بمكة:

١ - فقد شُق صدر النبي ﷺ وهو مسترضَع عند حليمة السعدية،كما سبق بيانه، مما جعلها تسارع بعودته إلى أهله.

٢ - وشُق صدره ﷺ وهو ابن عشر سنين، كما في رواية عبد الله بن أحمد، وهى الرواية السابقة.

٣ - وشق صدره ليلة المعراج، كما في رواية مالك بن صعصة.

وهو شَقٌّ بدني لإعداد النبي ﷺ لأعباء الرسالة ولقاء الوحي وغزو الفضاء، واستخراج حظ الشيطان منه.

وفي عصر إجراء العمليات بالمنظار والليزر والليزك ونحو ذلك، ما يُقرّب ما جاءت به الأحاديث في موضوع شق الصدر، وهو من المعجزات الخارقة للعادة الخاصة برسول الله ﷺ.

* * *

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٣٩/٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٢/٨): رجاله ثقات، وثقهم ابن حبان، وقد ضعف إسناده محققو المسند (٢١٢٦١)، لأن فيه مجهولاً، محمد بن معاذ ابن محمد بن أبي، وكذلك أبوه معاذ، وأخرجه ابن حبان (٧١٥٥)، والضياء المقدسى (١٢٦٢)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (١٦٦)، والحاكم (٢/ ٥١٠)، وللحديث شواهد.

سُورَةُ التِّينِ (٩٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

أ ـ (سورة التين) هي السورة الخامسة والتسعون في ترتيب المصحف، والثامنة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة البروج) وقبل (سورة قريش).

وعدد آياتها ثماني آيات، باتفاق.

وهي أربع وثلاثون كلمة، ومئة وخمسة أحرف.

وهي سورة مكية، وسميت سورة التين بالواو، وبدونها.

ب ـ أقسم الله تعالى بأربعة أيمان متتابعة، هي الأماكن المشرَّفة التي خص الله بها بعض رسله بنزول الوحي عليهم وهي:

١- جبل الجودي، حيث كان يكثُر التين فيه، وهذا إشارة إلى رسالة نوح عليه السلام.

٢- ثم أقسم بالزيتون، إشارة إلى بيت المقدس حيث رسالة عيسى عليه السلام.

٣- ثم أقسم سبحانه بجبل طور سيناء، موضع رسالة موسى عليه السلام.

٤-ثم أقسم بالبلد الأمين، مكة المكرمة، إشارة إلى رسالة خاتم الأنبياء ﷺ.

وجواب هذه الأيمان الأربعة، هو أن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة، وقامة معتدلة، واستقامة فطرة، ومع الحفاظ على هذه الفطرة يبقى الإنسان على الصلاح والتقوى.

أما إذا جفَّ الإيمان، وابتعد صاحبه عن الفطرة، فإنه ينتكس ويتردّى في الهاوية.

وفي هذا توبيخ للكافر على إنكار وحدانية الله تعالى، وإنكار البعث والنشور، بعد إقامة دلائل التوحيد وبراهين البعث.

وبِعدْل الله تعالى في يوم الدين وغيره، يثيب المؤمنين ويعاقب الكافرين.

فبعد أن أشارت السورة إلى أماكن أكبر الرسالات السماوية، واشتراكها في أصول الشرائع، بيَّنتْ أن الله تعالى خلق الإنسان على الفطرة المستقيمة، ليعلم أن الإسلام هو دين

الفطرة كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] وما يخالف ذلك فساد وضلال.

ج ـ عن البراء بن عازب ﷺ قال: (كان النبي ﷺ في سفر، فصلى العشاء، فقرأ في إحدى الركعتين بـ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فما سمعت أحداً أحسن صوتاً، ولا قراءةً منه)[1].

وعن عبد الله بن يزيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قرأ في المغرب ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾[2].

د - فموضوع السورة التين: هو أن الله تعالى يُقسم أربعة أيمان، على أنه خلَق الإنسان مستعداً بفطرته إلى قبول الإيمان والاستقامه عليه، فإن هو عطَّل فطرته وأفسدها بتأثير العوامل الخارجية، فإنه يتردَّى وينتكس إلى الدرك الأسفل من النار، أما المؤمنون العاملون للصالحات المؤمنون بالبعث والنشور، فأجرهم عند الله عظيم، والله سبحانه سوف يحكم يوم القيامة بين من آمن ومن كفر، ومن أطاع أو عصى، فيجازي كلاً بما يستحق.

* * *

(١) صحيح البخاري برقم (٧٦٧،٤٩٥٢،٧٥٤٦)، وصحيح مسلم (٤٦٤)، ومالك (٧٩/١)، وابن أبي شيبة (٣٥٩١/١)، وأبوداود (١٢٢١)، والترمذي (٣١٠)، والنسائي (٧٠٢)، وابن ماجة (٨٣٤،٨٣٥)، ومسند أحمد (١٨٦٣٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وانظر (١٨٥٦٦، ١٨٥٠٣).

(٢) ابن أبي شيبة (٣٥٨/١) في المصنف، وعبد بن حميد (٤٩٢) منتخب، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١١٨/٢)، قال الهيثمي: فيه جابر الجعفي، وثّقه شعبة وسفيان، وضعفه بقية الأئمة.

سُورَةُ العَلَقِ (٩٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ـ (سورة العلق) هي السورة السادسة والتسعون في ترتيب المصحف، والأُولى في ترتيب النزول، بمعنى أن الآيات الخمس الأُول منها هي أول ما نزل من القرآن مطلقاً، وفيها الأمر بالنبوة، وقد نزل بقية السورة بعد ذلك.

ثم أُرسل ﷺ بعد ذلك بنزول سورة المدثر، وهي أول سورة نزلت بعد فترة الوحي الأولى وفيها الأمر بالرسالة.

ونزلت (سورة الضحى) بعد فترة الوحي الثانية.

أما أول سورة كاملة نزلت فهي (سورة الفاتحة).

٢ـ وسورة العلق تسع عشرة آية في المصحف الكوفي والبصري، والحمصى، وعشرون آية في المصحف المكي والمدني، وثماني عشرة آية في المصحف الدمشقى.

وهي اثنتان وتسعون كلمة، ومئتان وثمانون حرفاً، وهي سورة مكية باتفاق.

٣ـ وتسمى سورة العلق، وسورة اقرأ، أو ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وسماها ابن عطية وأبوبكر ابن العربي (سورة القلم) أما السورة التي سميت بهذا الإسم فسمّياها (سورة ن).

فهذه أربعة أسماء لها.

٤ـ وتحدثت سورة العلق عن بدء نزول الوحي على رسول الله ﷺ والحث على طلب العلم والتعلّم من أول لحظة نزل فيها القرآن، ولفتتِ النظر إلى أصل خلْق الإنسان، وذِكْرِ اسم الله تعالى على كل شيء.

وبينت السورة موقف الطغاة، وأهل الثروات، وأصحاب الجاه، من الدعوات الإلهية في كل زمان ومكان.

وضربتْ مثلاً على ذلك بأبي جهل - فرعون هذه الأمة - الذي وقف في وجه

الدعوة، يَنهى عن المُضِيّ فيها، ويتهدّد ويتوعّد، فتوعَّده الله تعالى، وتوعّد أمثاله بالنهاية المخزية الأليمة، وأمر رسوله ﷺ أن يستمر في دعوته وطاعته لربه، وألا يأبه به وبأمثاله،فإن الله تعالى مؤيده وناصره، وهكذا شأن الدعاة إلى الله تعالى.

٥ـ وخُتمت السورة بوعيد الطغاة بأشد العقاب إذا استمروا على ضلالهم وطغيانهم.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: كانت ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ أول سورة أنزلت على محمد ﷺ[١].

وعن عثمان بن أبي العاص ﷺ قال: آخر كلام كلّمني به رسول الله ﷺ إذ استعملني على الطائف أنْ قال: (خَفِّفِ الصَّلاَةَ عَلَى النَّاس) حتى وقَّتَ لى ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ وأشباهها من القرآن[٢].

فموضوع سورة العلق : يدور على بدء نزول الوحى على النبى محمد ﷺ، وبيان أن الدعوة إلى الله يقف فى وجهها الطغاة والجبابرة فى كل زمان ومكان، وعلى الدعاة إلى الله أن يمضو فى طريقهم وأن يصبروا على أذاهم ،فإن الله تعالى لهم بالمرصاد وسوف يعاقبهم على سوء صنيعهم ،وهذا المثل التطبيقى لمحاربة الدعوة استغرق بقية السورة بعد الآيات الخمس الأُوَل منها.

سبب النزول:

في الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بُدىء به من الوحي، الرؤيا الصادقة في النوم، فكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلَق الصبح، ثم حُبّب إليه الخلاء، فكان يخلو في غار حراء، يتحنّث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزوّد لمثلها.

حتى جاءه الوحي وهو في غار حراء، فجاءه الملَك، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني

---

(١) ابن أبي شيبة (١٠/٥٤٢)، والحاكم (٢/٢٢٠)، وأبي نعيم في الحلية (١/٢٥٦)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (٧/١٣٩)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه ابن سعد (٥/٥٠٩)، وهو عند أحمد في المسند (٦/١٧٩) برقم (١٧٩١٦)، قال محققوه: إسناده قوي، وانظر (١٧٩١٤).

فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زمّلوني زملوني، فزملُوه حتى ذهب عنه الروع، ثم قال لخديجة: أيْ خديجة، ما لي، وأخبرها الخبر، قال: لقد خشيتُ على نفسي.

قالت له خديجة: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتَصْدُق الحديث، وتَحْمِلُ الكَلّ، وتَكْسِبُ المعدوم، وتَقْري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقتْ به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى، وهو ابن عم خديجة، وكان أمراً قد تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكِتَاب العبراني، فكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب، وكان شيخاً قد عَمِي، فقالت له خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: (يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذَعاً، ليتني أكون حيّاً إذ يُخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أوَ مُخْرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يُدْركني يومك، أنصرك نصرا مؤزّرا، ثم لم يلبث ورقة أن تُوفي، وفتر الوحي).

زاد في رواية: حتى حزن النبي ﷺ حُزْناً، غدا منه مرارا كي يتردّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يُلْقي نفسه منه، تبدَّى له جبريل، فقال له: (يا محمد، إنك رسول الله حقا، فيسكُن لذلك جأشه، وتقر عينه، فيرجع، فإذا طالت عليه فتْرة الوحي غدا لمثل ذلك، فيتبدّى له جبريل)[١].

قلت: وهذه الزيادة من بلاغات الزهري وهي واهية ليست بشيء[٢].

---

(١) ينظر: صحيح مسلم برقم (١٦٠)، وصحيح البخاري برقم (٣٣٩٢،٤٩٥٣،٦٩٨٢)، والمسند (٦/٢٣٢) برقم (٢٥٨٦٥،٢٥٢٠٢،٢٥٩٥٩)، وعبد الرزاق في المصنف (٩٧١٩)، والبيهقي في الدلائل (٢/١٣٥) وغيرهم.

(٢) ينظر: ما قاله محققو المسند في الجزء (٤٣) ص (١١٤) عند الحديث (٢٥٥٩).

نزول الوحي في غار حراء غيّر مجرى التاريخ:

كان النبي ﷺ يذهب إلى غار حراء بين الحين والحين، يخلو بنفسه بعيداً عن لَغَط الجاهلية، يعبد الله تعالى على الحنيفيَّة السمحة - ملة إبراهيم عليه السلام - ويتأمل في هذا الكون الفسيح، يستشعر اليقين والخشوع أمام مبدع هذا الملكوت، لقد كان يَزدَري الأصنام وعبادتها، ويكره ما يراه من مراسم وتقاليد جاهلية، ولكنه لا يملك لهم شيئاً، ولا يعرف أكثر مما ترفضه فطرته.

وبينما هو يتعبد في غار حراء بجبل النور في الليلة المباركة، وهي ليلة القدر من شهر رمضان، إذ نزل عليه جبريل عليه السلام بعد بلوغ النبي ﷺ الأربعين من عمره، وكان مع جبريل نمط من ديباج فيه كتاب، وطلب من النبي ﷺ أن يقرأ، فقال عليه السلام: أنا أُميّ، لا أعرف القراءة، ويتكرر هذا ثلاث مرات، وفي كل مرة يضمه جبريل إليه برفق، مُدْخِلاً الطمأنينة والسرور على نفسه، ثم يقرأ عليه الآيات الخمس الأول من السورة .

وفيها بيان أن الله تعالى الذي خلق الإنسان من علق، قادر على أن يجعل هذا الأمِّيَّ عالماً عِلْم الأولين والآخرين، ولم يكن النبي ﷺ يتطلَّع إلى وحْي أو رسالة، ولكنه فوجىء بذلك، ولم يكن له علم بالقراءة والكتابة كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال جل شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ [الشورى: ٥٢].

ولما نزل الوحي على رسول الله ﷺ غيّر مجرى التاريخ، وحوّل عقائد البشر وأخلاقهم، وعاش أهل الأرض في كنف الله ورعايته بتوجيه من الوحي الإلهي لهم بواسطة رسوله ﷺ وكان الصحابة يتوقّعون في كل لحظة نزول جبريل عليه السلام، ويترقبون ما ينزل به، وظل

الوحي يتنزل ثلاثة وعشرين عاماً على رسول الله ﷺ أقام النبي خلالها دولة الإسلام، كانت الأرض أثناءها موصولة بالسماء، وآيات الله تتنزل فيهم، تنقلهم خطوة خطوة من أحوال الجاهلية إلى الإسلام.

عرف الصحابة رضوان الله تعالى عليهم مذاق هذه الفترة، وأدركوا حلاوتها، وشعرُوا بقيمتها.

ولما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وانتهت هذه الفترة، كان لذلك وقْع شديد على نفوسهم لا يكاد العقل يتصوره:

عن أنس ﷺ قال: قال أبوبكر لعمر، رضي الله عنهما، بعْد وفاة النبي ﷺ: انطلِق بنا إلى أم أيمن - حاضنة النبي ﷺ - نزُورُها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما أتينا إليها، بكت، فقالا لها: (ما يُبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ قالت: بلى، إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ولكني أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء، فَهَيَّجَتْهُما على البكاء، فجعلا يبكيان معها)[1].

وتأثير هذا الوحي في البشر قائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

طلب العلم هو المطلب الأول في الإسلام:

ولأمر هام كانت أول كلمة نزل بها الوحي على محمد ﷺ: الأمر بالقراءة والكتابة، لعلها لمحو الأمية التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي، والإشارة إلى أن طلب العلم هو المطْلب الأول في الإسلام.

ولذا: قدم الله تعالى العلم على العمل في قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

وجعَل العلماء في المرتبة الثالثة بعد الله تعالى وملائكته في قوله تعالى:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨].

وبيّن سبحانه أن العالم والجاهل لا يستويان، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٤٥٤).

وبمعرفة العلم الشرعي والعلم التجريبي المرتبط بالخالق المبدع، تشتد معرفة العبد لربه، وخشيتُه منه سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

فقد جاءت هذه الآية بعد ذكر علم النبات، وعلم الأرض، والجبال والناس والدواب.

والذي عنده علم من الكتاب وهو من الإنس، تفوّق بعلمه على العفريت من الجن في الإتيان بعرش (بلقيس) مَلِكَة سبأ في طرْفة عين، بدلاً من نصف يوم.

ومن سلك طريقا يبتغي به علما سهل الله له به طريقاً إلى الجنة.

والملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع.

والعلم هو ميراث محمد ﷺ فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وساعة علم خير من عبادة سنة في نوافل العبادة.

ولقيمة العلم في الإسلام أقسم الله سبحانه بحروف الهجاء، وأقسم بأداة الكتابة وهي القلم، وأقسم بالكتابة نفسها فقال: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] كما أقسم سبحانه بالورق الذي يُستعمل في الكتابة فقال: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور: ٢ - ٣] والرق: هو الورق المفتوح للاطلاع والقراءة.

لابد من ربط العلوم التجريبية بخالق الكون:

والإنسان يبذل السبب في طلب العلم، ويُسْنِد تحصيله إلى الله تعالى، فهو جل شأنه مصدر العلم، ومنه يُستمد، وهو الذي يعلّم الإنسان ما لم يعلم، وكل علم غير متصل بالله تعالى لا خير فيه، وقد يضرُّ أكثر مما ينفع، فدراسة الطب لابد فيها من الربط بالخالق، وكذا الأدوية، والكيمياء، والإحياء، والحاسوب، والهندسة، والجيولوجيا، وعلم النفس والحيوان والنبات، وحسابات البنوك والشركات، والأمن الداخلي والخارجي للبلاد، وكذا العلاقات الداخلية والخارجية، والشرطة وحراسة الحدود، وما إلى ذلك، كل ذلك، لابد فيه من ربط علومه بخالق الكون، ودراسته على ضوء حكم الإسلام وتكييفه لها، فإذا دُرست هذه العلوم وغيرها على هذا النحو، فلن تجد في العالم مُلْحِداً، ولا علمانياً، ولا حائر متردداً بين الحلّ والحرمة في معاملات البنوك، وهكذا.

والدراسة على هذا النحو لا تكلفنا إلا تجريدها من النظريات البحتة الغربية، وربْطها

بالشرع، واتصالها بخالق الكون.

هذا: ولأن علم الأجنة أول العلوم التي تصل المخلوق بالخالق، لأن فيه أطوار خلق الإنسان وتكوينه ونشأته.. كان هذا العلم هو أول العلوم التي لفت القرآن النظر إليها في كونه سبحانه خلق الإنسان من علق، ودعا إلى التامل في هذا الخلق، فقال:

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

ولأن جميع العلوم لابد أن ترتبط في دراستها برب هذا الكون، كانت أول لفتة وجّه الوحي أنظارنا إليها هي قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ فأمر الله نبيه أن يبدأ قراءته باسم الله، وليس باسم مخترع الكهرباء ولا باسم رائد الفضاء، ولا باسم مخترع شبكة المعلومات، ولا باسم الشعب، ولا باسم الأمة.

ولأن فوق كل ذي علم عليم، والعلم كله مستمد من الله تعالى، ويوجد من علوم الغيب والكون، ما لا قبل لنا به إلا عن طريق الوحي، فإن الله تعالى وضّح للإنسان هذا الأمر من أول لحظة، فأخبره بأنه جل شأنه علّمه ما لم يعلم.

وأتى بوصف الربوبية، وهو الأليق في هذا المقام، لأنها تعني صفة الخلق، فهو سبحانه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالقهم ومربيهم بنعمه.

ولم يأت أمر القراءة بوصف الألوهية، إنما جاء باسم الرب، الذي ربى خلْقه بنعمه (اقرأ باسم ربك) لأن المقام مقام خلْق وصُنع وإبداع، وليس مقام عبودية وتوحيد.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

ولم يدَّع أحد من الخلق أنه خلق شيئاً في الكون، لا يوجد خلق بدون خالق.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

والمشركون كانوا يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [لقمان: ٢٥] قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨].

ولا فرق بين الرجل والمرأة في طلب العلم والتعلم.

استهلال السورة وافتتاح الأعمال والأقوال بذكر الله:

لقد كان افتتاح نزول الوحي على رسول الله ﷺ (باسم الله) وهذا منهج رباني يتعلم منه المسلم أن يبدأ كل شؤونه باسم الله، لا باسم الأمة، ولا باسم الشعب، ولا باسم الوطن، ولا باسم فلان.. ولا باسم مذهب من المذاهب، ولا نحو ذلك بل ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وحمده والثناء عليه، ابدأ كل تصرفاتك: أقوالها وأفعالها باسم الله وبحمده، ومن ذلك بعض ما علّمنا إياه رسول الله ﷺ:

١ - فكان إذا استيقظ من نومه قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**»[1].

٢ - قالت عائشة رضي الله عنهما: وكان إذا هبّ من الليل، كبّر عشْراً، وحمد عشراً، وقال: سبحان الله وبحمده عشراً، وقال: سبحان الملك القدوس عشراً، واستغفر عشراً، وهلل عشْراً، ثم قال: «**اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا، وضيق يوم القيامة، عشْراً، ثم يستفتح الصلاة**»[2].

٣ - قالت: وكان إذا استيقظ من الليل قال: «**لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علما، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب**»[3] .

٤ - وفي الحديث أن من استيقظ من الليل فقال: «**لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم قال: اللهم اغفر لي - أو دعاء آخر - استجيب له، فإن توضأ وصلى قُبلت صلاته**»[4].

---

(١) من حديث حذيفة وأبي ذر والبراء بن عازب في البخاري (٦٣١٢،٦٣١٤،٦٣٢٥)، والترمذي (٤٣٠١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٦٦)، والمسند (١٢٦٦، ١٨٦٠٣،٢٣٤٥٩).

(٢) أخرجه أبوداود (٥٠٨٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٧١)، وفي السنن (٣/٢٠٩)، و(٨/٢٨٤)، وفي سنده عمر بن جُعْثُم قال في التقريب: مقبول.

(٣) أبو داود (٥٠٦١) عن عائشة، وفي سنده عبد الله بن الوليد، ليّن الحديث، وأخرجه النسائي في عمل اليوم واللليلة (٨٦٥).

(٤) رواه البخاري برقم (١١٥٤) عن عبادة بن الصامت.

٥ - وقال ابن عباس رضي الله عنهما ليلة مَبيته عند النبي ﷺ: إنه لما استيقظ رفع رأسه إلى السماء وقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ثم قال: (اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبْت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)[١].

٦ - وقالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل قال: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، إهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تحكم وتهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[٢].

٧ - وكان ﷺ إذا أوْتر ختم وتره بقوله: «**سبوح قدوس رب الملائكة والروح**»[٣] ثلاثاً ويقول: «**سبحان الملك القدوس**»[٤] ثلاثا، ويمدّ صوته بالثالثة.

٨ - وكان ﷺ إذا خرج من بيته قال: «**بسم الله، توكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضل، أو أَزل أو أُزل، أو أَظلم أَو أُظلم، أو أجهل أو يجهل عليّ**»[٥].

٩ - وفي الحديث عن أنس ﷺ: «**من قال إذا خرج من بيته: باسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: كُفيت، وَوُقيت، وهُديت وتنحَّى عنه الشيطان**».

---

(١) من حديث ابن عباس في مسلم (٧٦٩)، والبخاري (١١٢٠، ٦٣١٧، ٧٣٨٥، ٧٤٤٢، ٧٤٩٩).

(٢) من حديث عائشة في صحيح مسلم (٧٧٠).

(٣) من حديث عائشة في صحيح مسلم (٤٨٧).

(٤) من حديث أبي بن كعب عند أبي داود (١٤٢٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٢٩) وغيرهما بإسناد صحيح.

(٥) من حديث أم سلمة عند أبي داود (٥٠٩٤)، والترمذي (٣٤٢٧)، والنسائي (٥٤٨٦)، وابن ماجة (٣٨٨٤) وهو في المسند (٢٦٦١٦) بإسناد ضعيف لعدم سماع الشعبي وهو عامر بن شراحيل من أم سلمة (محققوه).

زاد أبوداود: فيقول الشيطان لشيطان آخر: «**كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووقي**»[١].

١٠ - وكان ﷺ إذا خرج إلى صلاة الفجر قال: «**اللهم اجعل في قلبي نوراً، واجعل في لساني نورا، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصري نوراً، واجعل من خلفي نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، اللهم أعْظِم لي نوراً**»[٢].

١١- ومن دخل المسجد فقال: «**أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم، قال الشيطان: حُفظ مني سائر اليوم**»[٣].

١٢- وفي الحديث أيضاً «**إذا دخل أحدكم المسجد، فلْيُصلّ ولْيُسلّم على النبي ﷺ ولْيقُل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك**» فإذا خرج فلْيقُل: «**اللهم إني أسألك من فضلك**»[٤].

وفي لفظ آخر أن النبي ﷺ كان إذا دخل المسجد صلّى على محمد ﷺ ثم يقول: «**اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك**» فإذا خرج صلّى على محمد ﷺ ثم يقول: «**اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي باب فضلك**»[٥].

١٣ - وكان ﷺ إذا صلى الصبح جلس في مُصلاّه حتى تطلع الشمس يذكر الله عز وجل، ثم يصلي ركعتين[٦].

---

(١) من حديث أنس عند أبي داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٦) وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٩) بسند صحيح.

(٢) من حديث سَلَمة بن كُهيل عن كُرَيب عن ابن عباس في مسلم (٧٦٣)، والبخاري (٤٥٦٩،٦٢١٥،٧٤٥٢).

(٣) من حديث عبد الله بن عمرو في سنن أبي داود (٤٦٦) بإسناد جيد.

(٤) رواه مسلم من حديث أبى حُمَيْد أو أبى أُسَيْد (٧١٣) بنحوه، وفى المسند (١٦٠٥٧) بإسناد على شرط مسلم، وأخرجه ابن حبان (٢٠٤٩)، وأبو عوانة (٤١٤/١)، وعبد الرزاق فى المصنف (١٦٦٥) وغيرهم بزيادة أو نقص «فليصل وليسلم».

(٥) ينظر: حديث أبي حُميْد أو أبي أُسَيْد في صحيح مسلم (٧١٣)، وأبي داود (٤٦٥)، والنسائي (٧٢٩)، وابن ماجة (٧٧٢) وغيرهم كما في الحديث السابق.

(٦) رواه مسلم (٦٧٠) بنحوه، وأحمد عن جابر بن سمرة (٢٠٨٢٠،٢١٠٣٧) بإسناد حسن دون أن يصلى ركعتين، وابن خزيمة (٧٥٧)، والطيالسى (٧٥٨).

١٤ - وكان ﷺ إذا أصبح يقول: «**اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور**» وإذا أمسى قال: «**اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور**»[١].

١٥ - وفي لفظ مسلم عن ابن مسعود (أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، رب أسألك خير ما في هذه الليلة، وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة، وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل، وسوء الكِبْر، رب أعوذ بك من عذاب في النار، وعذاب في القبر، وإذا أصبح قال: ذلك أيضاً: أصبحنا وأصبح الملك لله.. الخ)[٢].

١٦ - ولما سأل أبوبكر رسول الله ﷺ أن يأمره بكلمات يقولهن في الصباح والمساء قال: قل: «**اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه ومالكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشِرْكه، وأَنْ أَقْترف على نفسي سوءا، أو أجُرَّهُ على مسلم، قال: إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك**»[٣].

١٧ - وكان ﷺ إذا لبس شيئًا جديدًا يقول: «**اللهم لك الحمد، أنت كَسَوْتَنيه، أسألك خيره وخير ما صُنع له، وأعوذ بك من شره، وشر ما صُنع له**»[٤].

١٨ - وكان ﷺ إذا رجع إلى بيته قال: «**الحمد لله الذي كفاني وآواني، والحمد لله الذي أطعمني وسقاني، والحمد لله الذي منّ عليّ، أسألك أن تُجيرني من النار**»[٥].

---

(١) من حديث أبي هريرة عند أبي داود (٥٠٦٨)، والترمذي (٣٣٨٨)، وابن ماجة (٣٨٦٨) بأسانيد صحيحة.

(٢) صحيح مسلم عن ابن مسعود برقم (٢٧٢٣).

(٣) رواه أحمد (٦٣،٨١،٥١) بإسناد صحيح ورجالة ثقات، وأبوداود (٥٠٦٧) والترمذي (٣٣٩٢).

(٤) من حديث أبي سعيد الخدري عند أبي داود (٤٠٢٠)، والترمذي (١٧٦٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٣٠٩)، وإسناده صحيح.

(٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند ابن السُّني (١٥٧)، وهو حديث حسن بشواهده كما في صحيح مسلم بمعناه عن أنس برقم (٢٧١٥) وعند ابن أبي شيبة والبزار عن عبد الرحمن بن عوف.

١٩ - وكان إذا دخل الخلاء يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث**»[١].

وإذا خرج قال «**الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني**»[٢].

٢٠ - وكان إذا وضع يده في الطعام قال: باسم الله، ويقول: إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإذا نسي أن يذكر اسم الله في أوله فلْيقل: «باسم الله في أوله وآخره»[٣].

وهكذا: فكتب الأذكار مليئة بمثل هذا في كل تصرف وكل حالة من حياة الإنسان.

مُصادَرَةُ الدعوة من غير المسلمين منذ فجر الرسالة:

يوجد في كل زمان ومكان من يصُدّ الناس عن دين الله، ومن يقف في وجه الدعوة، ويؤذي الدعاة إلى الله تعالى، والأمثلة على ذلك قائمة مدى التاريخ، ومنها الحروب الصليبية المعروفة في السابق، والحروب الصهيونية الصليبية في العصر الحاضر.

وفي أول سورة نزلت من كتاب الله تعالى ذِكْرٌ لوقوف أول طاغية في وجه الإسلام، وصده صاحب الدعوة عن المضيّ في دعوته، بل ومنْعه له من القيام بأداء الشعائر والعبادات، وتهييج الناس عليه، وقيامهم بالتجسس عليه لإيذائه ومنعه من العبادة، وهذه هي الحادثة الأولى في تاريخ الإسلام، وتتمثل في تصدِّي أبي جهل لرسول الله ﷺ لمنعه من القيام بالدعوة إلى الله تعالى، ومن عبادة ربه.

وقد استغرق هذا المثَل، سورة العلق كلها، بعد الآيات الخمس الأُول منها.

وكأن الله تعالى يوجّه الأنظار في باكورة الدعوة، إلى أن الإسلام سيجد من يحاربُه ويقف في وجهه، ويمنع الناس من ممارسته، ويُعرْقِل خُطاه ليَحُول دون وصوله إلى الناس.

وسوف أذكر هنا ما جاء في هذه الآيات من **الأحاديث الصحيحة** الموضحة لهذه

---

(١) من حديث أنس وهُشَيم في مسلم (٣٧٥)، وفي البخاري (١٤٢،٢٣٢٢).

(٢) من حديث أنس في سنن ابن ماجة (٣٠٠،٣٠١)، وبزيادة لفظ «غفرانك» في الأول عن عائشة عند أبي داود (٣٠)، والترمذي (٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٩)، وصحيح ابن ماجه (٢٤٤)، وصحيح أبي داود (٢٣).

(٣) من حديث أميّة بن مَخْشيّ الصحابي عند أبي داود (٣٧٦٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٨٢)، وصحيح أبي داود (٣٢٠٢)، وصحيح ابن ماجه (٣٢٦٤).

المعاني، وهي تبين أسباب النزول، وتبين حماية الله تعالى للدعوة وصاحبها ﷺ:

١ - في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ قال: قال أبوجهل: هل يُعفّر محمد وجْهَه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيتُه يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته! أوْ لأَعفرنّ وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعَم لِيَطأَ على رقبته، قال: فما فَجِئَهُمْ منه إلا وهو ينكص على عقبيْه، ويتّقي بيديْه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهَوْلاً وأجنحة، فقال: رسول الله ﷺ: «**لَوْ دَنَا مني لاختطفتْهُ الملائكة عضواً عضواً**» قال: فأنزل الله عز وجل ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ الآيات، يعني أباجهل)[1].

٢ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمرّ به أبوجهل بن هشام، فقال: (يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟ وتوعّده، فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني، والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً؟ فأنزل الله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ قال ابن عباس: **لو دعا ناديهُ لأخذتْهُ ملائكة العذاب من ساعته**)[2].

٣ - وفي رواية أخرى: أن أبا جهل قال: لئن رأيت رسول الله يصلي عند الكعبة لآتيتُه حتى أطأ على عنقه، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**لو فعل لأخذتْه الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنّوْا الموت لماتوا ورأَوْا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً**»[3].

---

(١) ينظر: صحيح مسلم برقم (٢٧٩٧)، وصحيح البخاري (٤٩٥٨)، وتفسير الطبري (١٦٥/٣٠)، وعبد الرزاق (٣٨٤/٢)، والمسند (٣٧٠/٢) (٨٨٣١)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٨٣)، وأبونعيم في الدلائل (١٥٨)، والبيهقي في الدلائل (١٨٩/٢).

(٢) المسند (٣٢٩/١) (٣٠٤٤،٢٣٢١) بإسناد صحيح (محققوه)، وسنن الترمذي برقم (٣٣٤٩) وقال: حسن صحيح، وتفسير الطبري (١٦٤/٣٠)، وابن أبي شيبة (٢٩٨/١٤)، والطبراني (١١٩٥٠)، والبيهقي (١٩٢/٢)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٦٨)، والنسائي في الكبرى (١١٦٨٤).

(٣) المسند (٢٤٨/١) برقم (٢٢٢٥)، وقد أخرج البخاري إلى قوله (عيانا) (٤٩٥٨)، والترمذي (٣٣٤٨،٣٣٤٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٩٩٥،١١٦٢٠،١١٦٢١)، وعبد الرزاق (٣٨٤/٢)، والطبري (٥٣٩/٢٤)، وأبونعيم (١٥٦)، والبيهقي (١٩١/٢).

سُورَةُ الْقَدْرِ (٩٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة القدر) هي السورة السابعة والتسعون في ترتيب المصحف، والخامسة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة عبس) وقبل (سورة الشمس)، على القول بأنها سورة مكية.

وبعد سورة المطففين وقبل (سورة البقرة)، على القول بأنها سورة مدنية.

والجمهور على أنها مكية، وقال الواقدي: هي أول سورة نزلت بالمدينة.

وسورة القدر خمس آيات في العدد المدني والبصري والكوفي، وست آيات في العدد المكي والشامي. وهي ثلاثون كلمة، ومئة واثنا عشر حرفاً.

٢ - وهي السورة التي تتحدث عن ليلة الاتصال بين الأرض والسماء، وتتناول الحدث الجليل الذي لم تشهد البشرية مثله، وهو نزول القرآن على خاتم النبيين ﷺ.

وتشير السورة إلى الفيوضات الإلهية التي تتجلى في هذه الليلة المباركة من نزول الملائكة، وعلى رأسهم أمين الوحي جبريل عليه السلام، وتُقرر أنها ليلة سلام وأمان إلى طلوع الفجر، فهي الليلة التي يتم فيها تقدير الأمور، وتدبير أحوال العباد من كل عام، بإيجادها في أيدي الملائكة الموكلة بها، وإظهارها لهم، ومن عظيم قدْر هذه الليلة أنها أفضل عند الله تعالى من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

وموضوع **السورة**: هو نزول القرآن الكريم فى هذة الليلة المباركة ،وبيان منزلتها وفضلها على سائر الليالى، وأن الملائكة تنزل فيها بالخيرات والرحمات وعلى رأسهم جبريل علية السلام، وأنها ليلة سلام وأمان حتى مطلع الفجر.

في فضل ليلة القدر وإحيائها بالعبادة:

ورد في فضل ليلة القدر - فيما اطلعت عليه - اثنان وعشرون حديثاً، منها ما جاء:

أ ـ عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»(١).

ب ـ وعنه ﷺ أنه: لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ: «**قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغلّ فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرم خيرها فقد حُرم**»(٢).

ج ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله ، إنْ وافقتُ ليلة القدر فما أدعو، قال: قولي: «اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني»(٣).

د ـ وكان ﷺ يجاور العشر الآواخر من رمضان، ويقول: «**تحرّوْا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من شهر رمضان**»(٤) والمجاورة هي الاعتكاف في المسجد للطاعة والعبادة.

هـ ـ وكان ﷺ **إذا دخل العشر الأواخر، أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجدّ، وشد المئزر**(٥).

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٥،١٩٠١)، وصحيح مسلم برقم (٧٦٠)، والبيهقي (٣٠٦/٤).

(٢) رواه أحمد (٢٣٠/٢) برقم (٩٤٩٧،٧١٤٨)، وهو حديث صحيح، وإسناد رجاله ثقات رجال الشيخين (محققو المسند)، وسنن النسائي (١٢٩/٤) برقم (٢١٠٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٩٩٢)، وهو عند ابن أبي شيبة (١/٣)، وأخرجه عبدالرزاق (٨٣٨٣)، وابن ماجة (١٦٤٢)، وابن خزيمة (١٨٨٣) وغيرهم.

(٣) رواه أحمد (٢٥٣٨٤ ،٢٥٤٩٥) بإسناد صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين (محققو المسند)، وأخرجه البيهقى فى الشعب (٣٧٠٢)، وسنن الترمذي (٣٥١٣)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٢٤،٧٦٦٥)، وابن ماجه (٣٨٥٠).

(٤) من حديث عائشة في صحيح البخاري برقم (٢٠٢٠،٢٠١٧)، وصحيح مسلم برقم (١١٦٩)، والمسند (٢٤٢٩٢،٢٤٢٣٣)، والترمذي (٧٩٢)، وابن أبي شيبة (٥١١/٢).

(٥) من حديث عائشة في صحيح البخاري برقم (٢٠٢٤)، وصحيح مسلم برقم (١١٧٤)، والمسند (٢٤١٣١)، وابن حبان (٣٢١)، وأبوداود (١٣٧٦)، وابن ماجة (١٧٦٨)، وابن أبي شيبة (٧٧/٣).

و ـ وكان ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيرها[١].

ز ـ وعن أبي هريرة ﷺ أيضاً أن النبي ﷺ قال: «**من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٢].

ح ـ وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده[٣].

مما ورد في تعيين ليلة القدر:

أ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أُرُوا ليلة القدر في المنام، في السبع الأواخر، فقال ﷺ: «**أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر**»[٤].

ب ـ وفي لفظ لابن عمر أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «**إن ليلة القدر في السبع الأواخر**»[٥].

ت ـ وعن ابن سلمة قال: سألت أباسعيد - وكان لي صديقاً - فقال: اعتكفْنا مع النبي ﷺ العشر الأوسط من رمضان، فخرج ليلة عشرين فخطَبنا، وقال: «**إني أُريتُ ليلة القدر، ثم أُنْسيتُها ـ أو نَسيتُها ـ فالتمسوها في العشر الأواخر من الوتر، وإني رأيتُ أني أسجد في ماء وطين، فمن اعتكف معي فليَرجِع، فرجَعْنا، وما نرى في السماء قزَعة، فجاءت**

---

(١) صحيح مسلم برقم (١١٧٥) عن عائشة، وابن أبي شيبة (٢/٥١٥)، والنسائي في الكبرى (٣٣٧٦)، وابن ماجة (١٧٦٧)، والترمذي (٧٩٦)، والمسند (٢٤٩١٣).

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٥،٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠)، والبيهقي (٤/٣٠٦).

(٣) من حديث عائشة في البخاري برقم (٢٠٢٦)، ومسلم برقم (١١٧٢).

(٤) صحيح البخاري برقم (١١٥٨،٢٠١٥)، وصحيح مسلم برقم (١١٦٥)، والموطأ (١/٣٢١)، والبيهقي (٤/٣١٠)، والمسند (٤٤٩٩)، وابن حبان (٣٦٧٥).

(٥) مسلم (٢٠٦،١١٦٥)، وأبوداود (١٣٨٥)، والنسائي في الكبرى (٣٣٨٦)، والمسند (٤٨٠٨)، وابن حبان (٣٦٨١).
(٣٦٨١).

سحابة، فَمَطرتْ حتى سال سقف المسجد، وكان من جريد النخل، وأقيمت الصلاة،

في الماء والطين، حتى رأيتُ أثر الطين في جبهته»[1].

ث ـ وفي رواية عند مسلم وغيره أن أبا سعيد الخدري ﷺ قال: (اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأُول من شهر رمضان، واعتكفْنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكَف العشر الأوسط، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، ثم قام النبي ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «**من اعتكف معي فليرجع، فإني رأيت ليلة القدر، وإني أُنسيتها، وإنها في العشر الأواخر في وتر، وإني رأيت كأني أسجد في ماء وطين**» - وكان سقف المسجد جريداً من النخل - وما نرى في السماء شيئاً، فجاءتْ قزَعة فَمُطرنا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيتُ أثر الماء والطين على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه)[2].

ج ـ وفي لفظ (في صبح إحدى وعشرين) بدل (ليلة عشرين).

قال أبوسعيد الخدري (بَصُرتْ عيناي رسول الله ﷺ على جبينه وأنفه أثَرُ الماء والطين من صبح ليلةِ إحدى وعشرين)[3]

ح ـ وفي سنن الترمذي وغيره أن زِرّ بن حُبيش قال لأبيّ بن كعب: إنّ أخاك عبد الله ابن مسعود يقول: من يقم ليلة الحول يُصِبْ ليلة القدر، فقال: يغفر الله لأبي عبدالرحمن، لقد علم أنها في العشر الأواخر من رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين، ولكنه أراد ألاّ يتكل الناس، ثم حلف لا يستثنى أنها ليلة سبع وعشرين، قلت له: بأيّ شيء تقول ذلك

---

(١) صحيح البخاري برقم (٢٠١٦)، وفي صحيح مسلم برقم (١١٦٧).

(٢) صحيح مسلم برقم (١١٦٧)، وصحيح البخاري برقم (٨٣٦،٨١٣،٦٦٩)، والمسند (١١٠٣٤)، والموطأ (٣١٩/١)، وابن ماجة (١٧٧٥)، وابن أبي شيبة (٧٦/٣).

(٣) ينظر: البخاري (٢٠١٦،٢٠٢٠)، ومسلم (٢١٣-٢١٦)، وأبوداود (١٣٨٢)، وابن ماجة (١٧٧٥)، والنسائي في الكبرى (٦٨٦)، والمسند (١١٠٣٤)، وابن حبان (٣٦٨٤).

يا أبا المنذر؟ قال: بالآية التي أخبرنا رسول الله ﷺ أو بالعلامة: أنّ الشمس تَطْلُع يومئذ لا شُعاع لها)[١].

خ ـ وعن ابن عمررضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**التمسوها في العشر الأواخر من رمضان**»[٢].

د ـ وعن معاوية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**التمسوا ليلة القدر آخر ليلة من رمضان**»[٣].

ذ ـ وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**التمسوا ليلة القدر، ليلة سبع وعشرين**»[٤].

ر ـ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، ليلة القدر، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى**»[٥].

ز ـ وعن عبد الله بن أُنَيْسٍ أنه سئل عن ليلة القدر فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**التمسوها الليلة**» وكانت الليلة : ليلةُ ثلاث وعشرين[٦].

س ـ وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ ليُخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «**خرجتُ لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فَرُفِعتْ، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة**»[٧].

---

(١) قال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٣٥١)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٧٦/٣)، والمسند (٢١١٩٠،٢١٢٠٩)، ومسلم (٧٦٢)، وأبوداود (١٣٧٨)، والنسائي في الكبرى (٣٤٠٦،٣٤٠٨)، وابن حبان (٣٦٨٩)، والبيهقي (٣١٢/٤).

(٢) ابن أبي شيبة (٥١١/٢)، وهو عند مسلم (١١٦٥) وهذا لفظه.

(٣) ينظر: صحيح ابن خزيمة (٢١٨٩)، ومحمد بن نصر (ص ١٠٦)، وقال الألباني: حديث صحيح وهو في صحيح الجامع (١٢٥١).

(٤) المسند (٤٨٠٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه عبد بن حميد (٧٩١) منتخب.

(٥) صحيح البخاري برقم (٢٠٢١،٢٠٢٢)، وأبوداود (١٣٨١)، والبيهقي (٣٦٨٠).

(٦) ينظر: صحيح مسلم (١١٦٨)، وابن خزيمة (٢١٨٥)، والمسند (١٦٠٤٤-١٦٠٤٦)، وابن أبي شيبة (٥١٤/٢)، وبنحوه عند مالك (٣٢٠/١)، والبيهقي في الشعب (٣٦٧٥).

(٧) صحيح البخاري برقم (٤٩، ٢٠٢٣، ٦٠٤٩)، والمسند (٣٤٠/٣٧)، وابن أبي شيبة (٥١٤/٢)، والبيهقي (٣١١/٤)، وفي الشعب (٣٦٧٩)، والطيالسي (٥٧٧) بإسناد صحيح.

والتلاحي هو الخصام والنزاع.

 العبد ليُحرَمُ الرزق بالذنب يصيبه)[١].

وقوله ﷺ: (فرفعت) أي رفع تعيين وقتها، لا أنها رُفعت بالكلية.

وقوله ﷺ: «**وعسى أن يكون خيراً لكم**» لأنها إذا كانت غير مُعَيّنة اجتهد الناس في الطاعة ، لعلهم يصادفونها.

وعلى هذا: فليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، وهي في ليالي الوتر منه أقرب، وفي ليلة السابع والعشرين أرجح، وعليه أقسم أُبيّ بن كعب كما في صحيح مسلم وغيره[٢].

ولكن ليلة السابع والعشرين ليست واحدة في جميع بلاد العالم، نتيجة اختلاف طلوع القمر وغيابه، فإن مطالع الهلال مختلفة، لاسيما بين البلاد المتباعدة، مختلفة الأطوال.

وعليه: فإن ليلة القدر ليست ليلة معينة مطَّرِدة في كل السنين، وفي كل البلاد، بل هي تتنقل من عام إلى عام، ومن بلد إلى بلد، فقد تكون في عام ليلة واحد وعشرين من رمضان، وفي عام آخر تكون ليلة ثلاث وعشرين، وفي عام ثالث تكون ليلة تسع وعشرين، وهكذا، وقد تكون في ليالي الشفع من العشر الأواخر أيضاً.

كما في الأثر عن أبي سعيد وبلال (ليلة القدر ليلة أربع وعشرين)[٣].

---

(١) المسند (٢٢٣٨٦،٢٢٤٣٨) بإسناد ضعيف لأن فيه عبدالله بن أبي الجعد، متكلم فيه، وابن ماجة (٩٠،٤٠٢٢)، وابن حبان (٨٧٢)، وفي إسناده ضعف، وقد ورد بأطول من هذا بزيادة «ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر» وإسناده حسن دون هذه الجملة.

(٢) صحيح مسلم برقم (٧٦٢)، والمسند (٢١١٩٠)، وأبوداود (١٣٧٨)، والترمذي (٧٩٣)، والنسائي في الكبرى (٣٤٠٦).

(٣) مسند الطيالسي برقم (٢١٦٧) عن أبي سعيد مرفوعاً، وفي الطبراني (١١٠٢)، والمسند (١٢/٦) عن بلال برقم (٢٣٨٩٠) وإسناده ضعيف، لأن فيه ابن لهيعة.

ولعل ليلة القدر التي نزل فيها القرآن على النبي ﷺ كانت ليلة أربع وعشرين من شهر رمضان:

كما جاء عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «أُنزلتْ صحف إبراهيم في ثلاث مَضَيْن من رمضان، وأنزل إنجيل عيسى في ثلاث عشرة ليلة مضتْ من رمضان، وأنزل زبور داود في ثماني عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل **سورة القدر**: مناسبة السورة لما قبلها الرابعة والعشرين، لستٍّ بَقين»[1].

وإذا كان القرآن قد نزل في ثلاث وعشرين سنة، فإن صحف إبراهيم، والتوراة والإنجيل والزبور، نزل كل منها على النبي الذي أنزلت عليه جملة واحدة.

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

مناسبة السورة لما قبلها:

سورة العلق تسع عشرة آية، وسورة البينة ثماني آيات، وقد وُضعت بينهما سورة القدر، وهي خمس آيات، وكأن العلة في ذلك هي: عَوْدُ الضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ إلى القرآن الذي ابتدأ نزوله بسورة العلق، ولذلك فقد بدأت سورة القدر بضمير العظمة في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ واستُغْنِيَ به عن الاسم الظاهر، إشارة إلى أن القرآن حاضر في الذهن، سبق ذكره في أول سورة نزلت، بحيث لا يحتاج إلى إعادة.

* * *

---

(١) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٥٧٥)، وصحيح الجامع الصغير برقم (١٥٠٩)، وصححه البنا في الفتح الرباني عن الإمام أحمد (٤٦/١٨)، وهو فى المسند (١٦٩٨٤)، وقال محققوه: حديث ضعيف، تفرد به عمران القطان، وهو مما لا يحتمل تفرده، قلنا وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين، قلت: إن عمران القطان قال عنه أحمد وابن معين :صالح الحديث، وقال عنه البخارى: صدوق يهم، فلعله كما قال الشيخ الألبانى والبنا، وأخرجه الطبراني فى الكبير (١٨٥/٢٢)، وفى الأوسط (٣٧٥٢)، والبيهقي في الشعب (٢٢٤٨)، وفى السنن (١٨٨/٩)، والأسماء والصفات (ص٢٣٣)، وابن عساكر وغيرهم.

سُورَةُ البينـة (٩٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة البينة) هي السورة الثامنة والتسعون في ترتيب المصحف، وواحد بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الطلاق) وقبل (سورة الحشر)، وكان ذلك في آخر سنة ثلاث أو أول سنة أربع هجرية.

و(سورة البينة) تسع آيات، في العدد البصري والشامي، وثماني آيات في غيرهما، وهي أربع وتسعون كلمة، وثلاث مئة وتسعة وتسعون حرفاً، وهي سورة مدنية على الأرجح.

والمشهور أنها تُسمى (سورة البينة) وذُكر لها أسماء أخرى منها: ١- ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كما جاء في حديث أُبيّ، ٢- و(سورة لم يكن) ٣- و(سورة القيّمة).

٤- و(سورة أهل الكتاب)، ٥- و(سورة الانفكاك) فهذه ستة أسماء، أشهرها الأوّل.

قال الألوسي: وتسمى سورة القيامة، وسورة البلد، وسورة المنفكين، وسورة البرية، فهذه أربعة أسماء أخرى. ومجموعها عشرة أسماء.

موضوع السورة:

١ - تقرر (سورة البينة) أن بعثة النبي ﷺ كان لابد منها، لتحويل الكفار – من: اليهود والنصارى وعبدة الأوثان والأصنام - عما هم فيه من الضلال والكفر والاختلاف إلى التوحيد والهداية، ولكنهم بعد أن جاءهم خاتم الرسل ﷺ بأوصافه وعلاماته التي عرفوها في كتبهم، وبعد أن سطَع لهم الحق، وظهرت أنواره، كفروا به وكذّبوه حسداً له، وعناداً وتكبُّراً بعد طول انتظار لمجيئه ﷺ.

فهم لم يختلفوا في شأن محمد ﷺ عن جهل وغموض، وإنما اختلفوا فيه بعدما جاءهم العلم الواضح أنه رسول الله.

وفي هذا توبيخ لهم على إصرارهم على الضلال، بعدما تبين لهم الحق، وتعجّب من

تناقض أحوالهم، وفيه بيان أن كفرهم لم يكن لجهلهم بالحق وإنما لعنادهم وجحودهم وحسدهم للنبي ﷺ على ما آتاه الله من فضله، ولكي يسجل الله عليهم أنهم شرّ البرية، وأن المؤمنين هم خير البرية.

٢ - ثم تبين آيات السورة أن أصل هذا الدين واحد، وقواعده ليس فيها اختلاف، فقد أمر الله العباد كلهم في مختلف الشرائع بإخلاص العبادة له وحده، والتوجّه إليه سبحانه بجميع الطاعات من الأقوال والأفعال.

٣ - وذكرت آيات السورة أن الذين كفروا بخاتم النبيين بعدما جاءتهم البينة، هم شر الخليقة، وجزاؤهم نار جهنم يخلّدون فيها، وقد كذّبتْهم آيات السورة في دعواهم أن الله تعالى قد أوجب عليهم التمسك بما هم عليه من الباطل.

وبينت الآيات أن الذين آمنوا وتزوّدُوا بالعمل الصالح، هم خير الخليقة، وأنهم يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، جزاء طاعتهم وإخلاصهم لله تعالى.

يأمر الله رسوله أن يقرأ سورة البينة على أبي بن كعب:

١ - عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال لأُبيّ بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال: وسَمَّاني لك؟ قال: نعم، فبكى**»[1].

٢ - وفي لفظ آخرعن معاذ بن أبيّ عن أبيه عن جدة عن أبيّ بن كعب ﷺ **أن النبي** ﷺ قال: «**يا أباالمنذر، إني أُمرتُ أن أعرض عليك القرآن**» قال: بالله آمنت، وعلى يَدِكَ أسلمت، ومنك تعلّمت، قال: فردّ النبي ﷺ القول، فقال: يا رسول الله، أَذُكِرْتُ هناك؟ قال: «**نعم، باسمك ونسبك في الملأ الأعلى**» قال: فاقْرأْ إذاً يا رسول الله[2].

---

(١) صحيح البخاري برقم (٣٨٠٩،٤٩٥٩)، ومسلم برقم (٧٩٩،١٢٢،٤٩٦١)، والمسند (١٣٠/٣ ١٤٠٣٢،١٢٣٢٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٧١٤٤)، والترمذي برقم (٣٧٩٢)، والسنن الكبرى (١١٦٢٧،٨١٨١،٧٩٤٥)، وابن سعد (٣٤٠/٢)، والضياء في المختارة برقم (١١٦٢)، قال محققه: إسناده صحيح، وقد أورد ابن كثير في تفسيره عدة طرق لهذا الحديث وكذا محققو المسند.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٢٠٠/١) وإسناده ضعيف.

٣ - وعن مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري قال: لما نزلت ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال جبريل: يا رسول الله، إن ربّك يأمرك أن تُقْرِئَها أُبيّاً، فقال النبي ﷺ لِأُبَيّ: «**إن جبريل أمرني أن أُقرئك هذه السورة؟**» قال أُبيّ: وقد ذُكِرْتُ ثَمّ يا رسول الله؟ قال: «**نعم**» فبكى أُبَيّ[1].

٤ - وجاء في بعض الروايات أنّ أُبيّ بن كعب قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**إني أمرت أن أقرأ عليك سورة كذا وكذا**» قلت: يا رسول الله، وقد ذُكرتُ هناك؟ قال: «**نعم**» فقال (عبد الرحمن بن أَبْزَى): فَفَرِحْتَ بذلك يا أبا المنذر؟ قال: وما يمنعني، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[4] [يونس: ٥٨].

٥ - وعن الربيع بن أنس قال: قرأت القرآن على أبى العالية، وقرأ أبو العالية على أبيّ بن كعب قال: وقال أُبيّ: قال لى رسول الله أُمرتُ أن أُقرئك القرآن، قلت: أَوَ ذُكِرتُ هناك؟ قال :**نعم** ،فبكى أُبيّ قال: فلا أدرى شوقاً أو خوفاً[5].

والمقصود من قراءة النبي ﷺ على أُبيّ، أن يتعلم منه أُبيّ صحة الأداء وحُسْن التلاوة، وضبط الألفاظ، لأن الله تعالى كان يُعِدّ أُبيّاً ليكون أَقْرأَ الأمة كما يتضح هذا المعنى جلياًفى الحديث الخامس فى قوله (أمرت أن أقرئك القرآن).

وحتى لا يستنكف صاحب الرتبة العالية أن يقرأ على من دونه، وفي ذلك تشريف لأُبيّ، ورفع لمنزلته.

* * *

---

(١) المسند (٤٨٩/٣) (١٦٠٠٠،١٦٠٠١)، والطبراني (٣٢٧/٢٢) (٨٢٣)، وابن أبي شيبة (٥٢٠/١)، قال محققو المسند: صحيح لغيره وهو عن أبي حبة البدري، وفيه ابن جدعان وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٤) المسند (١٢٣/٥) رقم (٢١١٣٧،٢١١٣٦،٢١١٣٢) وهو حديث صحيح، أخرجه الطيالسى (٥٤٥)، وأبو داود (٣٩٨١)، وابن أبى شيبة (٥٦٤/١٠)، والبخارى فى (خلق أفعال العباد) (٥٣٦)، والنسائى فى الكبرى (٧٩٩٨).

(٥) قال محققو المسند عند الحديث رقم (٢١١٣٦): وهذا إسناد حسن، وأخرجه الطبرانى فى الكبير (٥٣٩)، وفى الأوسط (٤٤٧).

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ (٩٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الزلزلة) هي السورة التاسعة والتسعون في ترتيب المصحف، والرابعة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة النساء) وقبل (سورة الحديد).

وعددها ثماني آيات في العدد الكوفي والمدني الأول، وتسع آيات عند غيرهما. وهي خمس وثلاثون كلمة، ومئة وتسعة وأربعون حرفاً.

وتشتهر بأنها (سورة الزلزلة) وورد لها الأسماء التالية:

(سورة إذا زلزلت) في كتب السنة و(سورة الزلزال) في بعض كتب التفسير و(سورة زلزلت) في مصحف كوفي قديم، وعند السيوطي وابن عطية، فهذه أربعة أسماء أشهرها الأول. وهي من السور المختلف في أنها مكية أو مدنية، ولكنها تُشْبه القرآن المكي.

في فضل السورة:

١ - عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله: قال: (اقرأ ثلاثاً من ذوات الراء) فقال الرجل: كَبِر سني، واشتد قلبي، وغلُظ لساني، قال: (اقرأ ثلاثاً من ذوات حم) فقال مثل مقالته الأولى، فقال: (اقرأ ثلاثاً من المسبحات) فقال مثل مقالته الأولى وقال: ولكن أَقْرِئْني يا رسول الله سورة جامعة، فأقْرأه ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى فرغ منها، قال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد غيرها، ـ وفي لفظ ـ لا أزيد عليها، ثم أدبر فقال ﷺ: «**أفلح الرُّوَيْجِل، أفلح الرُّوَيْجِل**»[1].

---

(١) المسند (١٦٩/٢) (٦٥٧٥) بإسناد حسن (محققوه)، وأبوداود برقم (١٣٩٩)، والنسائي في الكبرى برقم (٨٠٢٧،١٠٤٨٤،١٠٥٥٢)، وفي السنن (٢١٢/٧)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، المستدرك (٥٣٢/٢)، وهو عند البيهقي في الشعب برقم (٢٢٨٢)، والطبراني في الكبير (١٥٨)، وقد ضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (١٣٠٠).

٢- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: (هل تزوجت يا فلان؟) قال: لا، والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: (أليس معك ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال: بلى، قال: (أليس معك ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ قال: بلى، قال: (ربع القرآن) قال: (أليس معك ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: بلى، قال (ربع القرآن) قال: أليس معك ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ قال: بلى، قال: (ربع القرآن) تزوج تزوج)(١).

٣- عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن هذه السورة نزلت وأبوبكر قاعد، فبكى، فقال له النبي ﷺ ما يبكيك يا أبابكر؟ فقال: أبكاني هذه السورة، فقال ﷺ: «**لو أنكم لا تخطئون ولا تذنبون، لخلق الله أمة بعدكم يخطئون ويذنبون ويستغفرون فيغفر لهم**»(٢).

أغراض السورة:

هذه السورة تتحدث عن الزلزال العظيم الذي يكون بين يدي الساعة، حيث يَنْدكّ كلّ صرْح، وينهار كلّ جبل، وتتبدل الأرض غير الأرض والسموات.

وحين يحدث زلزال في هذه الدنيا في بقعة من العالم لمدة ثانية واحدة، أو جزء من الثانية، فإننا نشاهد الدمار والخراب الذي لا نظير له من جراء هذا الزلزال.

وقد يستمر الزلزال بضع دقائق فيترك العواصم أنقاضاً، والقرى ترابا، وإذا اقترن الزلزال بثوران البراكين من باطن الأرض تَضاعف العذاب، وعمَّ الخراب والدمار، فأتى على الحرث والنسل.

وقد يكون هذا عقوبة من الله تعالى لسبب من الأسباب، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

والعذاب الذي من تحت الأرجل يكون بالرجفة والخسف والزلازل والبراكين.

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن، برقم (٢٨٩٥)، وأحمد في المسند (١٣٣٠٩) بإسناد ضعيف لضعْف سلمة بن ورْدان، وأخرجه البيهقى فى الشعب (٢٥١٥)، وأبو يعلى (٤١١٨).

(٢) تفسير الطبري (٥٦٨/٢٤)، والبيهقي (٧١٠٣)، وابن أبي الدنيا (٨٦)، والطبراني (٨٧)، قطعة من الجزء (١٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤١/٧): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

قال سبحانه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لزلازل الدنيا، فما بالنا بالزلزال العظيم الهائل الذي يعم أرجاء الأرض عند قيام الساعة، حيث يفزع الناس فزعاً شديداً، فتَذْهل الأم عن ولدها الذي أرضعتْه، وتُسقِط ما في بطنها من شدة الخوف والفزع، وترى الناس في ذهول وفقدان للرشد والصواب، كأنهم سكارى، وما هم بسكارى بشرب خمر أو مسكر، ولكنهم خافوا عذاب الله الذي ظهرت أماراته وبوداره.

وسورة الزلزلة مع أنها مدنية عند الجمهور، إلا أنها تتناول هذا الجانب المكي غالباً، وهو الحديث عن القيامة ومقدماتها وأهوالها، ومآل الناس في الآخرة.

فتُبيّن آيات السورة أنه قبل أن تقوم الساعة، يقع زلزال كبير يُدمّر قارّات الدنيا كلها، فتنفُضُ الأرض ما في جوفها، وتُخْرِج ما يُثقلها من أجساد ومعادن.

وفي لمحة خاطفة، ترى الخلق في أرض المحشر، ليواجهوا حسابهم وجزاءهم على ما قدمت أيديهم.

فالسورة تتحدث عمّا يصاحب قيام الساعة من تغيير فى الكون، وخروج الناس من قبورهم ليواجهوا أعمالهم التى كانت فى الدنيا ، حيث تشهد الأرض بما اقترفتْه أيدى الناس وهم على ظهرها، وبعد الحساب يكون الجزاء من جنس العمل، فيحصد العبد ما زرعه فى دنياه، ويَجْنى ثمرته فى النعيم المقيم، أو العذاب الأليم.

نسأل الله العفو والعافية والسلامة فى الدنيا والأخرة، إنه سميع مجيب.

* * *

سُورَةُ العاديات (١٠٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة العاديات) هي السورة تمام المئة في ترتيب المصحف، وفيها يبدأ ربع الحزب الأخير في المصحف، من قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾.

وكان الأوْلى أن يبدأ هذا الربع من أول سورة القارعة، أو من أول سورة العاديات، لاسيما وأن تحزيب المصحف قد وُضع بعد القرن الثالث فهو ليس توقيفيّاً[1].

وهي السورة الرابعة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة العصر) وقبل (سورة الكوثر).

وعدد آياتها إحدى عشرة آية، وهي أربعون كلمة، ومئة وثلاثة وستون حرفاً.

وتسمى (سورة العاديات) بالواو، وبدونها.

وهي من السور المختلف فيها، بين كونها مكية أو مدنية.

وما جاء في سبب النزول عن قتادة يرجح كونها مدنية، وهو أن النبي ﷺ بعث سرية فيها خيل إلى بني كنانة، وأمّر عليها (المنذر بن عمرو الأنصاري) فتأخرت شهراً، فقال المنافقون، قُتلوا جميعاً، فأخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ الآيات[2].

وفيها إعلام بأن السرية لم يُقتل منها أحد، وأن الخيل قد فعلت جميع ما ورد في وصفها في الآيات الخمس الأول من السورة.

---

(١) ينظر في هذا كتابي: فن الترتيل وعلومه، الجزء الأول، وكتابي: تيسير علم التجويد الطبعة الثانية والثالثة.

(٢) الواحدي في أسباب النزول ورواه الحاكم، وفي سنده حفص بن جميع، وهو ضعيف، كما في مجمع الزوائد (١٤٢/٧) وهو في مسند البزار (٢٢٩١) كشف الأستار، وفي تفسير القرطبي (١٥٥/٢٠) وعند عبدالرزاق (٣٩٠/٢) والطبري (٥٧١/٢٤).

وفيها تنويه بشأن الخيْل في الجهاد وإرسال السرايا لرد الاعتداء وإزالة العقبات من طريق الدعوة، وظهور النفاق، كان بالمدينة.

٢ - وآيات سور العاديات الأحد عشر، منها ثلاث آيات في أولها، تَحْمِلُ قَسَماً بأدوات الجهاد التي تختلف من وقت لآخر، وكان الخيل وقت التنزيل أعظم ما يُستخدم في الجهاد، وقد يضارعها في وقتنا: الصواريخ أو الطائرات أو الدبابات.. ولا تزال الخيل تُستخدم في بعض الحروب.

وتنويهاً بشأن الخيل أقسم الله تبارك وتعالى بها عندما تعْدُوا، وعندما تتردّد أنفاسها في صدورها، وعندما ينقدح الشرر من تحت سنابكها لشدة جَرْيِها.

كما أقسم سبحانه وتعالى بالرجال الذين يقتحمون بالخيول ساحة المعركة، وهم يستقبلون الموت دفاعاً أو هجوماً، وهذا القسم على أن الإنسان كفور لأنعُم الله عليه، جَحود لفضله، مع شدة حبه للمال، ونسيانه الحساب والجزاء يوم القيامة، وتحصيل ما في الصدور يوم البعث والنشور، ونسيانه أن الله تعالى رقيب ومطلع على العبد في جميع أعماله.

وفي هذا القسم حث على صالح الأعمال، وإشادة بشأن الجهاد، فإن الجهاد يحرُس العقيدة، ويحمي الحقيقة، ويصون البلاد والحرُمات، فنيران الجهاد كالسوائل المبيدة للحشرات، تحمي الزرع والضرع، والحق يحتاج إلى من يذُود عنه، ويستبْقيه على مرّ الأيام، والباطل يمتدّ كلما وجد فراغاً أمامه، فإذا وجد مقاومة ضعيفة اجتاحها وبلغ غرضه، وأهل الباطل يسرقون العقائد والفضائل، ويفرضون الظلم على الناس، ويستوْلُون على ثرواتهم وبلادهم وتُراثهم.

وها نحن نعيش أحداث العراق وفلسطين وأفغانستان والبوسنة والهرسك والصومال والشيشان وكشمير، وغيرها، إن الحق لا يقوم بذاته، بل لابد له من قوة تحميه.

ولذا كان الإسلام: مصحفاً وسيفاً، ودعوة وجهاداً، ومسجداً ومعركة.

٣ - إن الإسلام بحاجة إلى خيل وخيّالة، يفضِّلون الموت على الحياة، ويُؤْثرون الآخرة على الدنيا، ويجنّدُون طاقاتهم المادية والمعنوية لتصنيع السلاح المضارع لسلاح العدو، مع وجوب توحيد الكلمة وعدم الفُرقة.

ولهذا فإن الله تعالى أقسم بالخيل وبوصْفِ حركاتها في أرض المعركة، تعظيماً لشأن الجهاد..

فأقسم تبارك وتعالى **بثلاثة أشياء** هي: العاديات، والموريات، والمغيرات، **على ثلاثة أمور** هي: جحود الإنسان، وشهادته **على** جحوده، وحبه للمال.

وعقّب على ذلك بثلاثة أشياء هي: بَعْثرتُ ما في القبور، وتحصيل ما في الصدور، وإحاطة علم الله تعالى بهم، فيجازيهم بما عملوا.

وللمفسرين في المراد بالعاديات والموريات والمغيرات، **قولان**:

أحدهما: أنها الخيل، تَعْدُوا في الغزْو، وهو الذي عليه أكثر المفسرين.

وثانيهما: أنها الإبل تغْدُوا بالحجيج من عرفات إلى مزدلفة ومنى، وهذا القول مبني على أثرٍ يحكي نقاشاً جرى بين عليّ وابن عباس رضي الله عنهم في معنى ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ وأن علياً ﷺ فسّرها بأنها الإبل تعدو من عرفة إلى مزدلفة فترى النيران تحت سنابكها[1].

وهذا وصف لها في بعض أحوالها وإلا فإن وصف الضبْح وإثارة النقع، وتوسُّط الجموع المتقاتلة، كلها وصف للخيل لا للإبل.

وهكذا تبدأ السورة بمشهد العاديات الضابحة، القادحة للشرر، المثيرة للغبار، المغيرة على العدوّ في الصباح. ويعقُب ذلك مشهد النفس الإنسانية وما فيها من الجحود وحب المال وشدة البخل، ويأتي علاج هذه الرذائل بالعمل لليوم الآخر، ويأتي ذلك عن طريق النظر والتأمل في بعثرة القبور يوم البعث والنشور، وتحصيل ما في

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٧٦/٣٠)، وذكره الحاكم (١٠٥/٢)، وابن الأنباري في كتاب الأضداد (ص ٣٦٤)، وهو في فتح الباري (٧٢٧/٨)، وأخرجه ابن أبي حاتم وابن مرويه.

الصدور مما خفي على العباد، وعِلْمه عند رب العباد، ومن ثم إلى النهاية والاستقرار في الجنة أو النار.

ويمكن تقسيم السورة على هذا النحو:

١ - الآيات الخمس الأول هي مجموع القسم بالخيل حال إغارتها على العدوّ.

٢ - الآيات الثلاث بعدها هى المقسم عليه من أحوال الإنسان في منْعه للخير وشهادته على ما يصرفه من نفسه وحبه الشديد للمال.

٣ - والآيات الثلاث الأخيرة في إحاطة علم الله تعالى بظاهر الإنسان وباطنه.

* * *

سُورَةُ الْقَارِعَةِ (١٠١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة القارعة) هي السورة الواحدة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثلاثين في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة قريش) وقبل (سورة القيامة).

وعدد آياتها إحدى عشرة آية في المصحف الكوفي والمكي، وعشر آيات في المصحف المدني والمكي، وثماني آيات في المصحف الشامي والبصري.

وهي ست وثلاثون كلمة، ومئة واثنان وخمسون حرفاً.

وهي سورة مكية، ولا يُعرف لها اسم آخر.

٢- والسورة تتحدث عن يوم القيامة، وبعض مشاهد أهوالها، حيث يتأثر بها الناس، فيكونون عند خروجهم من قبورهم وانتشارهم فى ساحة الحشر والحساب في حيرة واضطراب، كأنهم فَراش يتهافت على الهلاك، وهو لا يملك لنفسه شيئًا، فيذهب ويجيء، وهو في فزع ودهشة لا يعرف له هدفاً.

كما يتأثر الكون كله بيوم القيامة ومنه: الجبال الرواسي، فتُنسف وتتطاير في الهواء، وتكون في خفتها كالصوف المبعثر تتقاذفه الرياح، بعد أن كانت صخوراً صماء، كالأوتاد، تحفظ توزان الأرض لئلا تميد في البحار.

والناس يوم القيامة صنفان: فمن رجحت كفة حسناته، فقد فاز بجنة عالية، وعيشة هنيئة راضية، ومن رجحت كفة سيئآته، فملاذُه النار، تحتضنُه وتضمه، وتحرقه بلهيبها.

وهكذا يتساءل الله تبارك وتعالى عن يوم القيامة التى تقرع القلوب بأهوالها، فيأتى جواب السؤال بوصف أحوال الناس فى هذا اليوم وأنهم يكونون فى أرض المحشر والمنشر كأنهم فراش مبعثر هنا وهناك ،وأن الجبال الشّمّ الرواسى كأنها صوف متناثر ممزق ،ثم يكون العرض والحساب ، والجنة أو النار، نسأل الله السلامة من النار والفوز بالجنة.

فالآيات الخمس الأول من السورة، فيها قسم بيوم القيامة وما يصحبُها من فناء العالم.

والآيات الست بعدها قسمت الناس إلى قسمين: أهل السعادة وأهل الشفاء، وبينت مصير كل منهم، من النعيم المقيم أو العذاب الأليم.

* * *

سُورَةُ التَّكَاثُرِ (١٠٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة التكاثر) هي السورة الثانية بعد المئة في ترتيب المصحف، والسادسة عشرة في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة الكوثر) وقبل (سورة الماعون).

وهي ثماني آيات، وثمان وعشرون كلمة، ومئة وعشرون حرفاً.

وتَشْتَهِر بأنها (سورة التكاثر) ويقال: (سورة ألهاكم) وسماها بعضهم (سورة المقبرة) وهي سورة مكية على الأصح.

٢- عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ أَلْف آية في كل يوم؟ قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية كل يوم؟ قال: أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾»[1].

٣- اشتملت سورة التكاثر على ذم التفاخر والتكاثر بالمال والبنين وغيرهما، والاستمرار على ذلك حتى الموت، وحثت على العمل بما ينجّي الإنسان من الجحيم، وبينت أن العبد مبعوث يوم القيامة ومسؤول عن إهمال شكر النعم.

وحذَّرت السورة من الاستغراق في حب الدنيا حتى لا يفاجئهم الموت وهم لاهون غافلون، فقد ترى في هذه الحياة شخصاً محبوباً من رؤسائه، ناجحاً في أعماله، مُجِدّاً في أداء واجبه، نشيطاً بين أقرانه، حائزاً لأعلى الدرجات العلمية، حاصلاً على منصب مرموق، ومكانة عالية، ساعياً في جدٍّ واجتهاد للترقي في الوظيفة، قد أخذ العملُ جُلّ وقته، فهو مشغول دائماً:

---

(١) صححه الحاكم (٥٦٦/١) وقال: رُواة الحديث كلهم ثقات، وعُقْبة، غير مشهور، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضا البيهقي في الشعب برقم (٢٢٨٧،٢٥١٨) ورجاله موثقون، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٨٩١).

إن قُلْتَ له: هلمّ إلى الصلاة، اعتذر بأن عمله وشُغْله المستمر لا يسمح له.

إن قلت له: خذ من يومك بضع دقائق اقرأ فيها بضع أسطر من كتاب الله، أو حديث من أحاديث رسول الله ﷺ أو طالع حُكْماً فِقْهِياً في كتب الفقه، أو احضر حلقة علم، أو محاضرة علمية لعالم بارز، أو اقرأ بعض أذكار الصلاة، أو أذكار اليوم والليلة، أو تابع أولادك في تعوُّدهم الذهاب إلى المسجد، وتعليمهم ما لابد منه من أحكام الشرع.. أو .. أو .. الخ. فإنه يعتذر عن كل ذلك بأنه لا يوجد لديه من الوقت ما يسمح له بذلك.

فإن كانت هناك اجتماعات تتعلق بعمله، ما استطاع أن يتخلَّف عنها، وإن كانت هناك محاضرات وندوات لها صلة بوظيفته أسرع وبادر إليها، وإن كانت هناك سهرات أوحفلات فيها اختلاط رجال بنساء وشبه ذلك، كان لديه من الوقت ما يتسع لذلك ألف مرة، وإن كانت هناك طريقة لجمع المال، أو بناء العمارة، أو مشاهدة مباراة، أو مشاهدة فيلم ونحو ذلك، فإن الوقت لديه يكون كافياً.

ويظل هكذا شغوفاً بحب الدنيا، مشغولاً عن العمل للآخرة، فهو في لهو مستمر، حتى يأتيه الموت، وهذا هو ما تُحذِّر منه السورة، كما تُحذِّر من التفاخر بالأحساب والأنساب ومن عدم شكر المنعم سبحانه.

٤- وبعد هذا التحذير، يأتى الوعيد الشديد، والردع والزجرعمّا فيه هذا اللاهى، بأن أمامه نار جهنم يراها يوم القيامة بأم رأسه، فيُخلّد فيها الكافر، ويأخذ العاصى منها على قدر معاصيه.

أمّا هذة النعم التى كان منغمساً فيها فى دنياة فإنه يُسأل عنها سؤال شكر لها أو كفر بها، هل هو ممن حفظ نعمة الله وأدى ما عليه فيها أم هو مما أبطرته النعمة فلم يشكر الله عليها ولم يؤد خق الله فيها، وكان ممن أذهب طيباته فى حياته الدنيا واستمتع بها؟ ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

* * *

سُورَةُ العصر (١٠٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة العصر) هي السورة الثالثة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثالثة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الشرح) وقبل (سورة العاديات).

وهي ثلاث آيات باتفاق، وأربع عشرة كلمة، وثمانية وستون حرفاً.

وتسمى (سورة العصر) بإثبات الواو وحذفها، وهي سورة مكية عند الجمهور.

وهذه السورة إحدى ثلاث سور، تتكون من ثلاث آيات هي: العصر والكوثر والنصر.

أغراض السورة:

وسورة العصر على وجازتها لخصتْ عواقب النشاط الإنساني كله، على امتداد الزمان والمكان، وبيَّنتْ أنَّ مَنِ انقطعت صلتهم بالله تعالى هم حطب جهنم، وأن من اتصلوا بالله تعالى هم الذين فازوا في معترك الحياة.

وقد اشتملت السورة على **عناصر أربعة** هي أسس السعادة في الدنيا والآخرة وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

وقد اتخذ الصحابة سورة العصر شعارا لهم في لقاءاتهم، فكان الرجلان إذا التقيا لم يفترقا إلا إذا قرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلم عليه[١].

إن الحق مُرّ، والصبر عليه مطلوب حتماً، نظراً للاضطهاد الذي يلحق القائم به، والتشبث بالإيمان عند بعض الناس رجعية، فلابد من عزيمة وجلَد حتى يَكْسَبَ المؤمنون المعركة.

إنها سورة قصيرة، ذات آيات ثلاث، في سطرين اثنين، ومع هذا فهي تضع منهجاً متكاملاً لحياة البشر، وترسم لهم دستوراً واضحاً، وتبين مهام الأمة الإسلامية ووظيفتها

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني برقم (٥٠٩٧)، وفي الكبير برقم (٥١٢٤)، ورجاله رجال الصحيح غير ابن عائشة وهو ثقة كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٠٧)، وأخرجه البيهقي في الشعب برقم (٩٠٥٧).

على مر العصور والأجيال، وتأخذ بيد الإنسان إلى سعادتي الدنيا والآخرة، وتوضح له أسباب الخسران والهلاك في الدارين.

وللأزمنة معالم متميزة تُعرف بها، وتضاف إليها، فيقال: عصر الصحابة، وعصر الذرة، وعصر الفضاء، لمن يظلّهم زمن واحد، يتشابهون في معايشهم وتقاليدهم، ولكنهم يختلفون في المصير الأخروي حسب إعدادهم له، فرب رجلين عاشا في زمن واحد، بل في بيت واحد، فذهب أحدهما إلى النعيم، والآخر إلى الجحيم، وسيْرُ الإنسان مع الغرائز والأهواء ينتهي إلى الخسران.

وحُق للإمام الشافعي أن يقول: لو ما أنزل الله تعالى على خلقه حجة إلا هذه السورة لكفتهم.

فقد بينت السورة حال الناس في عصر النبوة وما بعدها، وبينت أن المؤمنين منهم قد استوفوا أعمارهم في تحصيل أصول التجارة الرابحة.

عن عمرو بن ميمون قال: شهدتُ عمر ﵁ حين طُعِن، فأمّنَا ـ في الصلاة ـ عبدُ الرحمن بنُ عوف، فقرأ بأقصر سورتين في القرآن، بـ (العصر) و (إذا جاء نصر الله) في الفجر[1].

وهكذا: فإن الله تعالى يقسم على أن جنس الإنسان في هلاك وخسران، ويستثنى من ذلك من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وعمل صالحاً، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وصبر على جهاد الدعوة، وتواصى مع إخوانه المسلمين على كلمة الحق، والصبر على الأذى في سبيلها، فإن من اتصف بهذه الصنفات الأربع، لن يخسر دنياه ولا أخراه، بل يفوز بالجنة ورضوان الله تبارك وتعالى.

* * *

(١) أخرجه ابن سعد (٣/٣٤٩).

سُورَةُ الْهُمَزَةِ (١٠٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الهُمَزة) هي السورة الرابعة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثانية والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة القيامة) وقبل (سورة المرسلات).

وهي تسع آيات باتفاق، وثلاثون كلمة، ومئة وثلاثون حرفاً، وهي سورة مكية.

وتسمى (سورة الهمزة) وهو الأشهر، وأُطلق عليها: (سورة الحطمة) و (سورة ويل لكل همزة).

موضوع السورة:

تتحدث (سورة الهمزة) عن الذين يعيبون الناس بالطعن في أعراضهم، وازدرائهم، وبالسخرية منهم، والاستخفاف بهم، وتذم من يغترُّون بأموالهم وسلطانهم، فيترفّعون على الناس وينتقصونهم، وتُبيِّن أنهم من أهل الشقاء الذين استوجبوا عذاب جهنم.

وفي صدر الإسلام وُجدت جماعة نصّبوا أنفسهم لِلَمْزِ المسلمين وسبّهم، والتنقيص من شأنهم، ومن هؤلاء: الوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وأُبيّ بن خلف، وجميل بن مَعْمر ـ وقد أسلم يوم الفتح ـ والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأخنس بن شريق، وكل هؤلاء من أهل الثراء والوجاهة بين الناس.

ومن الناس في كل عصر ومصر من يخلُف هؤلاء في التنقيص من شأن الإسلام والمسلمين، وهذا من الحروب التي يشنها المجرمون على أصحاب الرسالة الأخيرة، لِفضِّ الناس من حولهم، وغالباً ما يكونون من أهل الجاه والثراء، فيتناولونهم بالكلمة، وبالحركة، وفي المسلسلات والأفلام والمسرحيات والروايات وبالرسم الهزلي في الصحف.

وقد نُظمت هذه الحروب في العصور الأخيرة، عبر وسائل الإعلام المختلفة، ومنها: الصحف، وشبكة المعلومات، والفضائيات، وغيرها.

وقد أعد الله تعالى الويل لهؤلاء في الدنيا بفضحهم وكشْف تدبيرهم وخِزْيهم.

ووصفت آيات هذه السورة عذاب نار الحطمة الذي أعده الله لهم في الآخرة بأربعة أوصاف هي:

١- إنها نار موقدة، شديدة الاستعار واللهب.

٢- ومن شدة حرها أنها تنفذ من مسام الجسم إلى القلب، فتطّلع عليه وتحرقه.

٣- وهي نار مغلقة عليهم لا يخرجون منها.

٤- ولهذه النار أبواب محكمة قد شُدّتْ بأعمدة وأوتاد من حديد، بحيث لا يمكن لمن بداخلها أن ينفكَّ منها. نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدنيا والآخرة.

وهكذا: فإن الله تبارك وتعالى قد توعدّ بالويل والهلاك كل همَّاز لمَّاز جامع للمال.

ثم بينت آيات السورة عذاب من اتصف بهذه الأمور الثلاث يوم لقاء الله، وذلك في الآيات الخمس التي تليهما.

* * *

سُورَةُ الفيل (١٠٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الفيل) هي السورة الخامسة بعد المئة في ترتيب المصحف، والتاسعة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الكافرون) وقبل (سورة الفلق) أو (قريش).

وهي خمس آيات، وعشرون كلمة، وستة وتسعون حرفاً، وهي سورة مكية.

والمشهور أن اسمها (سورة الفيل) ويقال: (سورة ألم تر).

قال عمرو بن ميمون: صلّيت المغرب خلف عمر بن الخطاب ﷺ فقرأ في الركعة الثانية ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾.

واستدل بعضهم بهذا على أنهما سورة واحدة، لأن الصحابة لم يكونوا يقرؤن في الركعة الواحدة من الفريضة سورتين[1].

قلت: الصحيح أنهما سورتان، فَصَلَتِ البسملة بينهما، ولا يلزم من قراءتهما في ركعة واحدة أن يكونا سورة واحدة.

موضوع السورة:

تحدثت سورة الفيل عن قصة (أصحاب الفيل) حين قصدُوا هدْم الكعبة، فردّ الله كيدهم في نحورهم، وأرسل على جيش «أبرهة» أسراباً من الطير، تحمل في أرجلها ومناقرها حجارة صغيرة، أهلكهم الله بها، وأبادهم عن آخرهم، بعد أن شعر أهل مكة بالعجز عن مقاومة هذه الحملة، ففروا إلى رؤوس الجبال، تاركين بيت الله وبيوتهم لحماية رب العالمين.

ومن مقاصد هذه القصة: تذكير الناس جميعاً وأهل مكة بوجه خاص، بأن من أراد هذا البيت بسوء، قصمه الله، ولا يمنع هذا من حدوث العدوان على الكعبة بعد حادثة الفيل مرة أخرى أو مرات، فإن عقاب الله له بالمرصاد في الدارين، والله تعالى يتوعّد من

(١) تفسير التحرير والتنوير (٣٠/٥٤٣).

يُقدم على ذلك بالهلاك والخسران في الدنيا والآخرة.

ولم تتكرر هذه القصة في القرآن لأمرين:

أحدهما: إن إهلاك أصحاب الفيل ليس لأجل تكذيب الرسول.

وثانيهما: ألا يغترّ المشركون، فيتوهمون أن لهم مكانة عند الله تعالى، كما توهّم من كانوا يقومون منهم بسقاية الحجيج، وعمارة المسجد الحرام، بأن لهم منزلة عند الله وهم يصدّون الناس عنه.

وتبدأ سورة الفيل بتوجيه خطاب للنبي ﷺ في صورة استفهام تقريري تعجُّبي على حادثة لم يشهدها النبي ﷺ حال وقوعها، وكانت معروفة مشهورة لدى العامة والخاصة.

ويأتي هذا الأسلوب التقريري في صورة امتنان من الله تعالى على رسوله ﷺ، وعلى قومه وأمته، بأن حَمَى الله بيته وصانه من مكْر الماكرين، ليكون مثابة للناس وأمنا إلى أن تقوم الساعة، وليكون نقطة انطلاق للرسالة الإلهية الخاتمة، وليكون إرهاصاً بين يدي رسالة محمد ﷺ.

وفي هذا بشرى بأن الله تعالى يحفظ بيته دائماً من كل مكر يراد به، ليظل البيت الحرام آمناً من عبث العابثين، وكيد الماكرين، كما يحفظ حرم رسوله ﷺ بحول الله وقوته ومشيئته.

عام الفيل:

جرت العادة أن الناس يؤرخون بالأحداث الهامة في حياتهم، ومن ذلك عام الفيل، نظراً لما لحادثة الفيل من أهمية كبرى لتعلقها ببيت الله الحرام، فقد كان الناس يؤرخون بها قبل الإسلام، وقد وقعت حادثة الفيل عام ٥٧٠ ميلادية وهو العام الذي ولد فيه النبي ﷺ وكانت هذه الحادثة من أعظم الإرهاصات الدالة على صدق نبوته ﷺ.

سبب الحادثة:

لم يكن للعرب قبل الإسلام شأن يُذكَر في دنيا الناس، وكان معظمهم تحت النفوذ الأجنبي:

١- وكانت الحبشة قد استولت على اليمن، بعد واقعة الأُخدود التي عَذّب فيها

الملك ذو نواس، النصارى، وفرض سلطانه على اليمن، وكان أبرهة الأشرم أميراً على اليمن من قبل النجاشي، وقد أراد أبرهة أن يتقرب إلى النجاشي ـ النصراني ـ ليصرف العرب عن مكة وقبلتها، وذلك ببناء كنيسة يتوجه إليها الناس عوضاً عن الكعبة، وكان النجاشي قد غضب عليه وحلف ليطَأَنّ أرضه وليَجزّنّ ناصيتَه.

٢ - ولما رأى أهل الحبشة استمرار رِحْلاتِ أهل اليمن في مواسم الحج إلى مكة، خافوا على اقتصادهم، فأرادوا أيضاً أن يصرفوا الناس عن هذه الرحلات التجارية، ليتحول اقتصاد الجزيرة وتجارتها إلى بلادهم.

٣ - وكانت فئة من قريش، قد خرجت في تجارة، ونزلوا في طريقهم إلى جوار معبد للنصارى يسمونه الهيكل، فأوقدوا ناراً لحاجتهم، فلما ارتحلوا من المكان هبت ريح عاصفة فاحترق المعبد، فاستشاط القوم غضبًا، وأتوا إلى أبرهة، وقرروا إحراق الكعبة وهدْمَها، وسبْيَ أهل مكة.

فهذه ثلاثة أسباب دينية وسياسية واقتصادية، وأهمها السبب الديني الأول.

كنيسة القلّيس باليمن:

وقد كان أهل الحبشة يدينون بالمسيحية، فأرادوا نشر هذا الدين في جزيرة العرب، بعد أن استولوا على اليمن، ولَمّا رأوْا تقديس العرب لمكة وللمسجد الحرام، بدأ أبرهة - القائد الحبشي على اليمن - في بناء كنيسة بصنعاء نَقَلَ إليها الأعمدة والحجارة الذهبية من قصر بلقيس، وبذل فيها جهداً كبيراً، ودعا العرب إلى حَجّها بدلاً عن البيت الحرام، فغضب العرب لذلك.

وأقسم رجل من بني مالك ليغْبثَنَّ بهذه الكنيسة، فقَدِمَ اليمن، ودخل الكنيسة، ولطّخ جُدرانها بالقاذورات، ولمّا علم أبرهة بذلك حلف ليهدمنّ الكعبة، فكتب إلى النجاشي بذلك وطلب تزويده بالفيلة.

خرج أبرهة قاصداً مكة، ومعه ثلاثة عشر فيلاً، منها: فيل كبير جسيم، يدعى «محمود» هو فيل النجاشي.

سمع العرب بذلك، فتصدَّوْا لقتاله: وخرج إليه ملِك من ملوك اليمن، يقال له: ذو نفْر،وقاتلَهُ، فهزمه أبرهة.

ولما وصل بلاد خثْعم خرج إليه بعض منهم ومن القبائل الأخرى وقاتلوه، فهزمهم أبرهة.

ولما وصل الطائف خرج إليه رجال من ثقيف، وأرادوا أن يصرفوه عن بيتهم الذي بنوه، وهو (اللات) وبعثوا معه من يدلّه على الكعبة.

فلما كان أبرهة بالمغَمّس - مكان بين مكة والطائف - بعث أحدُ قواده فجمع إليه أموال أهل الحرم، وفيها مئتا بعير لعبد المطلب، وجرت مفاوضات بين أبرهة وعبد المطلب، انتهت بأن يردّ أبرهةُ إبلَ عبد المطلب.

وكان عبد المطلب سيدَ قريش تعلُوه المهابة والوقار، فأعظمه أبرهة، قال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه ويحميه، فرد أبرهة قائلاً: ما كان ليمتنع مني، فأجابه: أنت وذاك..

وانطلق عبد المطلب إلى قريش يخبرهم، ثم تعلق بحلْقة الكعبة وأستارها في ضراعة الخائف الوجل، وإنابة العائذ المستغيث، وأخذ ينشد أبياتاً مشهورة يطلب فيها عون الله تعالى وحمايته لبيته.

وكان عبد المطلب قد عرض على أبرهة ثُلثَ أموال تهامة على أن يرجع عن هدم البيت، ولكنه أبى وأصر، فعاد عبد المطلب مرددًا:

يارب لا أرجو لهم سواكا   يارب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا

وأمر عبد المطلب أهل مكة أن يتركوا البلد، وأن يلوذوا برؤوس الجبال بنسائهم وأطفالهم، كي لايلحقَ بهم شيء من أذى القوم القادمين لتخريب الكعبة وهدْمها.

وتحرك جيش أبرهة، وتهيأ لدخول مكة، فبرك الفيل الكبير «محمود» وأبى أن يتّجه نحو مكة، فضربوه ضرباً شديداً، فلم ينهض، ثم وجهوه إلى اليمن والشام، فقام يهرول، ثم وجهوه إلى الحرم فبَرك.

ولما كانوا في وسط وادي مُحَسِّر، وإذا بِفِرَقٍ من الطير فِرقة بعد أخرى، تُرسِل على ذلك الجيش حجارة صغيرة الحجم، ما إن تَسقُط على أحدهم حتى تُهلكَه ويتناثر لحمُه.

وأصيب أبرهة، فجعَل جِسمُه يتناثر ويتساقط حتى انصدع صدره ومات بصنعاء.

وهكذا حَمى الله بيته من عدوان الظالمين، وهكذا يحميه رب العالمين من كل كيد، ومن كل مكر إلى يوم الدين، وماتت الفيلة إلا الفيل الذي أبى التوجه إلى مكة.

سند الحادثة:

وهذه الحادثة ثابتة بقول النبي ﷺ يوم الحديبية حين بركت ناقتُه (القصواء) قال: خلأت القصواء، فقال ﷺ في حديث المسور بن مخرمة «**ما خلأت القصواء، وماذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل**»[١].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة:

«**إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلّط عليها رسول الله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها، كحرمتها في الأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب**»[٢].

دلالة الحادث: والعبرة المستفادة من هذا الحادث:

١ - أن الله تعالى لم يُرد أن يكِلَ حماية بيته العتيق إلى المشركين، حتى لا يكون لهم سابقة فضل، ولا يداً في حماية بيته الحرام، وفي هذا كرامة لبيت الله الحرام، وإنعام على قريش بدفع العدو عنهم.

٢ - وكان من أثر ذلك أن بادرت قريش وسائر العرب إلى الدخول في دين الله، حين جاءهم به محمد ﷺ حيث كانت هذه الحادثة من إرهاصات النبوة، وتبشير النبي ﷺ بأن

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب رقم (٥٦) باب (٥٩) عن المِسْوَر قبل الحديث رقم (٢٨٧١) وهو كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط، ينظر البخاري مع الفتح (٣٢٩/٥)، وراجع رقم (٢٧٣١،٢٧٣٢) في الصحيح.

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، باب كتاب العلم، انظر البخاري مع الفتح (٢٠٥/١)، وهو في البخاري برقم (١١٢)، وفي مسلم برقم (١٣٥٥) عن أبي هريرة ﷺ.

الله تعالى كفيل برعايته ونصره على أعدائه، كما نصر أهل مكة على أبرهة وجيشه.

٣ - ولم يشأ الله سبحانه أن يحطّم أبرهة وجنوده البيت الحرام، أو يسيطروا على البلد الحرام، ليبقى البيت مصوناً محفوظاً بحفظ الله تعالى، حتى تنبُت العقيدة الإسلامية دون مهيمن عليها، ليهيمن الإسلام على جميع الأديان، وليقود البشرية ولا يقاد.

وجاءت نواة الإسلام وطليعته في مكة، ثم في المدينة، ثم في أرجاء المعمورة.

وأصبح للمسلمين قوة عالية، اكتسحت الممالك، وحطّمت العروش، وتولّت قيادة البشر، وهي التي كانت من قبل دون كيان ولا سلطان، تخضع لحكم هذا وذاك، فكانت حادثة الفيل مؤشرا إلى هذه المعاني، وإرهاصاً دالاًّ عليها.

* * *

سُورَةُ قُرَيْشٍ (١٠٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة قريش) هي السورة السادسة بعد المئة في ترتيب المصحف، والتاسعة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التين) وقبل (سورة القارعة).

وهي خمس آيات في العدد المكي والمدني والحمصى، وأربع آيات عند بقية أئمة العدد.

وهى سبع عشرة كلمة، وثلاثة وسبعون حرفاً.

وسورة قريش سورة مكية عند الجمهور، مستقلة عن سورة الفيل بالإجماع.

وشهرتها (سورة قريش) وتسمى (سورة لإيلاف قريش).

٢ - موضوع السورة:

تتحدث هذه السورة عما أنعم الله به على أهل حَرمه، بأن هيأ لهم رحلتي الشتاء والصيف، في وقت كانت تتعذر فيه وسائل الاتصالات، ويصعُب العيش فيه بين جبال مكة، دون طعام ولا شراب، وَيقِلّ الأمن فيها، نظراً لطبيعتها الجبلية الصحراوية فجعل سبحانه بلادهم آمنة، وأوقع قُدْسيتها في قلوب الناس حتى في الجاهلية، لتتهيأ لهم سبل الحياة، وجَلَب إليهم الثمرات والخيرات من كل بلاد العالم:

إن جزيرة العرب تقع بين أوروبا وآسيا، وقد اشتغل أهلها بالتجارة بين هاتين القارتيْن، وكانوا همزة وصل بين الرومان في الشام، والهنود في الجنوب، وانتظمت رحلاتهم، تنقُل السلع بين هؤلاء وأولئك، وقد امتن الله على العرب ـ في مكة وما حولها ـ بهذا الوضع الذي انتفعوا منه كثيراً.

وكلمات (سورة قريش) تشير إلى استتباب الأمن، وانتفاء الجوع، وهما أساس الحرية السياسية، كما أن وفْرة الأقوات، وسهولة التبادل، هما أساس الحرية الاقتصادية، وكذا وجود السوق الدولية المشتركة.

وفي السورة تذكير بنعم الله تعالى على جميع خلقه، وعلى أهل مكة بوجه خاص، حيث مكّنهم من السير والتنقل، دون خوف من عدوّ يعدُوا عليهم، في وقت لا يوجد فيه من يقوم على حماية الأمن في البلاد، كي يعبدوا ربهم فيُقلعوا عما هم فيه من الشرك، وعبادة الأوثان، إلى عبادة رب العالمين، فهو المستحق للعبادة دون سواه.

والذي سنّ لهم هاتين الرحلتين: هاشم بن عبد مناف، وقد حمله على ذلك: الجوع القاتل الذي تعرّض له أهل مكة، حتى كادوا يموتون جوعًا، فوقف فيهم خطيبًا وجمعهم، ونظّم لهم رحلتين، وقسّم أرباح التجارة بين الغني والفقير.

٣- أصل تسمية قريش:

أ- وقريش هو: فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وهو لقب يجمع بطوناً كثيرة، وقد سئل النبي ﷺ: مَنْ قريش: فقال: «**مَنْ وَلَدَ النّضْر**» وجميع أهل مكة من قريش، وكان بنو كنانة يسكنون بالخيف، في منى.

ب- وأخرج البيهقي أن معاوية سأل ابن عباس رضي الله عنهم: لم سميت قريشاً؟ قال: بدابة تكون في البحر، أعظمُ دوابِّه يقال لها: القِرْش، لا تمرّ بشيء من الغث والسمين إلا أكلتْه[١].

ج- وقال عبد الملك بن مروان: سمعتُ أن قُصيّاً كان يقال له: القُرَشيّ، ولم تُسمَّ قريش قبله[٢].

د- وتسمية قريش جاءت من التقاريش، وهو الجمع والتكسب.

فهذه أربعة أسباب لهذه التسمية.

فضل قريش:

ومما ورد في فضل قريش من أحاديث:

---

(١) البيهقي في الدلائل (١/١٨٠).

(٢) أخرجه ابن سعد (١/٧١).

١- عن واثلة بن الأسقع ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[١].

٢- وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:
«**الناس تبع لقريش في الخير والشر إلى يوم القيامة**»[٢].

٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم**»[٣].

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم أذَقْتَ أول قريش نكالاً، فأذِقْ آخرهم نوالا**»[٤] والنكال هو العناء والمشقة، والنوال هو العَطاء والخير.

٥- قال معاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الناس تبع لقريش في هذا الأمر،خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقُهُوا، والله لولا أن تبْطَرَ قريش لأخبرتُها بما لخيارها عند الله**» قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خير نسوةٍ ركبْن الإبل، صالح نساء قريش، أرْعاه على زوج في ذات يده، وأحْناه على ولد في صغره**»[٥].

قلت: وركوب الإبل في زمانهم يعني قيادة سائر المرْكَبات في زماننا، والحديث نص في جواز ذلك للمرأة.

٦- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه في النار، ما أقاموا الدين**»[٦].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٢٧٦) وهذا لفظه، وهو في المسند (١٦٩٨٧)، والترمذي (٣٦٠٥)، والبيهقي في الدلائل (١/١٦٥).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٨١٩)، والمسند (١٤٥٤٥،١٥٠٥٠)، وابن أبي شيبة (١٢/٦٧)، وابن حبان (٦٢٦٣).

(٣) البخاري برقم (٣٤٩٥)، ومسلم برقم (١٨١٨)، والمسند (٧٥٥٦) قال محققوه: صحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٢/١٦٨).

(٤) قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب (٣٩٠٨)، وهو في صحيح سنن الترمذي (٣٠٦٧).

(٥) ابن أبي شيبة (١٢/١٦٩)، والمسند (١٦٩٢٨،١٦٩٢٩) قال محققوه: إسناده صحيح .

(٦) صحيح البخاري (٣٥٠٠،٧١٣٩)، وانظر حديث أحمد في المسند (٢٧١٥٨) عن قتادة بن النعمان.

٧- وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان**» وحرّك إصبعيه[1].

٨- وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**الملْك في قريش، والقضاء في الأنصار، والأذان في الحبشة والسرعة في اليمن**»[2].

وجاءت الآثار بأن الله تعالى قد فضّل قريشاً: بالنبوة والخلافة والسقاية والحجامة والسدانة، ونصَرهم يوم الفيل، وأنزل فيهم هذه السورة[3].

٤ ـ الأسباب والمسببات مخلوقة لله تعالى:

السبب والمسبب مخلوقان لله تعالى، والمسبب مرتب على السبب، فالنصر على العدوّ الذي وعد الله به المؤمنين، مرتب على الجهاد في سبيل الله، والشفاء من المرض، مرتب على الأخذ بأسباب العلاج، وحصول الرزق للعبد، مرتب على السعي والبحث عنه من طرقه المشروعة، فالسماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، والرزق لا يأتي للطيور وهي ساكنة في أوكارها، بل إنها تسعى لرزقها في الصبح الباكر وهي جائعة، ثم تعود بعد أن حصَلت على رزقها فارْتوت وشبعت.

- ولما كانت مكة المكرمة قبل الإسلام وادياً مُجْدِباً لا زرع فيه ولا ضرع، كما وصفها رب العالمين على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام في قوله ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم:٣٧].

- لما كان الأمر كذلك، فإن قريشاً كان لها رحلتان في كل عام للتجارة، رحلة في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ، ورحلة في الصيف إلى الشام، يجلبون فيهما الميرة والطعام والثياب

---

(١) صحيح البخاري (٧١٤٠،٣٥٠١)، وصحيح مسلم (١٨٢٠)، والمسند (٦١٢١،٥٦٧٧،٤٨٣٢)، والطيالسي (٢٠٦٨).

(٢) صحيح سنن الترمذي (٣٠٨٨)، والمسند (٨٧٦١) قال محققوه: رجاله رجال الصحيح غير أبي مريم فقد روى له أبو داود والترمذي وهو ثقة، واختلف في رفعه ووقفه والموقوف أصح وأخرجه ابن أبي شيبة (١٧٢/١٢)، وهو في الترمذي (٣٩٣٦).

(٣) ينظر: الطبراني (٩٩٤)، والحاكم (٥٤/٤)، ومجمع الزوائد (٢٧/٧)، والدر المنثور (٦٧٠/١٥) وما بعدها، وقد حسنها الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٤٤)، وحسنها الحافظ العراقي.

إلى مكة عن طريق البحر في السفن إلى جدة، وعن طريق البر على الإبل وغيرها.

وهكذا كانت الأرزاق تصل إلى بلادهم، فكانت سفُن الحبشة تصل إلى ميناء جدة، محمّلة بالطعام ليبيعوه هناك، وكان رجال قريش يخرجون إلى جدة بالإبل والحمر، كي يشترون الطعام، وكذلك كان أهل اليمن يحملون الطعام على الإبل ليبيعوه في مكة، وكان عندهم سوق عكاظ ومجنة وذي المجاز.

وكانوا يُقَسّمون ربح تجارتهم بين الغني والفقير، حتى كان غنيهم كفقيرهم على حد سواء.

وكانت القافلة المحملة بالبر والدقيق والزيت والثياب وغيرها تُستقبل بالفرح والبشر والترحاب، لأنها تحمل طعامهم وكساءهم لمدة نصف العام.

ولم يكن يتعرض لهم أحد بسوء في رحلتيهم، لأنهم سكان حرم الله الآمن، وَوُلاة بيته العتيق.

وكانت العرب جميعاً تكرم قريشاً وتعظمها وتعزّها لهذا الشرف الذي حباها الله به،وهو خِدْمة بيته الحرام، وكونهم من سكان الحرم.

ورحلة الشتاء والصيف، ضرْب من السعي إلى المعاش بالتجارة والربح، وفيها بذل السبب المأمور به في تحصيل الرزق.

قال ابن عباس رضي الله عنهما عن نعْمتي قريش وإيلافهم: كانوا يُشَتُّون بمكة ويُصيِّفُون بالطائف، وقرأ السورة[1].

* * *

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١٦٣٥)، وقد تفرد به من بين الكتب الستة.

سُورَةُ الْمَاعُونِ (١٠٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الماعون) هي السورة السابعة بعد المئة في ترتيب المصحف، والسابعة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التكاثر) وقبل (سورة الكافرون).

وهي سبع آيات في المصحف المكي والبصري والحمصى، وست آيات في غيرهم.

وخمس وعشرون كلمة، ومئة وخمسة وعشرون حرفاً.

والمشهور أن اسمها (سورة الماعون) وورد فيها خمسة أسماء أخرى هي:

١ - (سورة أرأيت). ٢- (سورة أرأيت الذي). ٣- (سورة الدين).

٤- (سورة التكذيب). ٥- (سورة اليتيم).

وهي سورة مكية عند الجمهور، وقيل: إن الآيات الثلاث الأول مكية، وبقيتها مدني.

٢ - أسباب النزول وموضوع السورة:

ورَدَ أن أباسفيان بن حرب ـ قبل إسلامه ـ كان ينحر جَزوراً كل أسبوع، فجاءه مرة يتيم، فسأله شيئاً من اللحم، فقرعه بالعصا.

وقيل: إن أباجهل، كان وصيّاً على يتيم، فأتاه عُريانا، يسأله من مال نفسه، فدفعه دفعاً شنيعاً.

وهكذا كان شأن العاص بن وائل السهمي، والوليد بن المغيرة المخزومي، وعمرو ابن عائذ المخزومي[1] وغيرهم.

وفي هذه السورة ستة أوصاف: ثلاثة منها للكافرين، وثلاثة أخرى للمنافقين.

وهكذا فقد ذكرت السورة ثلاث صفات ذميمة متتابعة للكفار وهي:

---

(١) ينظر: تفسير ابن عاشور وابن الجوزي والخازن والبغوي وغيرهم للسورة.

١- التكذيب بيوم القيامة.

٢- إهانة اليتيم.

٣- عدم إطعام المسكين وعدم الحث على إطعامه.

ثم ذكرت ثلاث صفات أخرى للمنافقين وهي:

١- تأخير أداء الصلاة عن وقتها.

٢- الرياء.

٣- البخل بقضاء الحوائج اليسيرة.

والسورة عامة في كل مَنْ كان هذا شأنه.

ويمكن أن تكون الصفات الخمس بعد الصفة الأولى، صفات لكل مكذب بالإسلام، ومكذب باليوم الآخر، وهو الذي سنسير عليه في شرحنا للسورة.

ومن شأن أهل الدين أنهم يتعرفون على حاجات الآخرين، ويسارعون في قضائها، فالدين مع الضعيف حتى يقْوى، ومع الفقير حتى يستغني، ومع اليتيم حتى يكبر، ومع الهائم حتى يستقر، ومع الضال حتى يهتدي.

ولو أن أهل الدين ارتبطوا بدينهم، وساروا به سيرة حسنة، ما ظهرت الشيوعية ولا الرأسمالية ولا غيرهما، فالإسلام يرى أن إعانة المحتاج شرط في الإيمان، وأن العبادة الصورية لا تصل العبد بربه.

وهكذا فإن السورة تنطبق على الكافر الجاحد لأنعم الله، المكذب بالحساب والجزاء، وتنطبق على المنافق الذي لا يقصد بعمله وجه الله تعالى، بل يرائي في أعماله وصلاته، وتوعدت الفريقين بالويل والهلاك وتعجبت من أحوالهم.

* * *

سُورَةُ الكوثر (١٠٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الكوثر) هي السورة الثامنة بعد المئة في ترتيب المصحف، والخامسة عشرة في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة العاديات) وقبل (سورة التكاثر).

وهي ثلاث آيات باتفاق، وعشر كلمات، واثنان وأربعون حرفاً.

وتسمى (سورة الكوثر) وفي البخاري والترمذي (سورة إنا أعطيناك الكوثر).

وسماها بعضهم (سورة النحر). فهذه ثلاثة أسماء لها:

وهي سورة مكية، وعن الحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة أنها مدنية، نزلت في صلح الحديبية تطييباً لخاطر النبي ﷺ.

قلت: وهو الأظهر، لما فيها من الإشارة إلى ذكر صلاة عيد الأضحى وذبح الأضحية.

وهي أقصر سورة في القرآن في عدد كلماتها وعدد حروفها.

وهي سطر واحد كسورة الإخلاص، ولكن سورة الإخلاص تزيد في عدد الكلمات، وعدد الحروف، وعدد الآيات.

وتتفق مع سورة العصر وسورة النصر في كونها ثلاث آيات ولكنها أكثر كلمات، وأكثر حروفاً منهما.

موضوع السورة:

وسورة الكوثر تتحدث عن فضل الله تعالى على رسوله ﷺ بإعطائه الخير الكثير، والنعم العظيمة في الدنيا والآخرة، ومنها: القرآن العظيم، والحوْض المورود، والشفاعة العظمى.

وفي ذلك تطييب لخاطر النبي ﷺ لِمَا حدث له يوم الحديبية حين صدّه المشركون عن المسجد الحرام.

ولِمَا قاله المشركون حين مات أبناء النبي ﷺ الذكور، ولم يبق إلا الإناث.

فنزلت هذه السورة تهنىء النبي ﷺ وتبشره بالعطاء الواسع في الدنيا والآخرة، والثناء الجميل في العالمين، ومضاعفة الأجر، ورفع الذكر، إنه ﷺ أسعد المخلوقات، فهو سيد ولد آدم، وإمام الأولين والآخرين.

عن عمرو بن ميمون قال: لما طُعن عمر ؓ وهاج الناس، تقدّم عبد الرحمن بن عوف، فقرأ بأقصر سورتين في القرآن ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ و﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾[1].

حول سبب النزول:

(سورة الكوثر) تعكس صورة من الكيد والأذى للنبي ﷺ من المشركين في صدر الدعوة، لصرف الناس عن الحق الذي جاءهم به من عند الله، وكان من عادات العرب السيئة أن الرجل منهم إذا مات أبناؤه الذكور، عيّروه وأظهروا الشماتة به، وقالوا: بتَرْ، يعني انْقطع ذِكْرُه، ولم يبق له أثر.

فلما مات أبناء النبي ﷺ الذكور في حياته: كالقاسم وإبراهيم، قال سفهاء قريش، كالعاص بن وائل، وعُقبة بن أبي معيط، وأبي جهل وغيرهم: إنه أبتر - إشارة إلى موت أولاده ﷺ فى حياته ومعنى ذلك أن ذِكره سينقطع - ولا يبقى له أثر - على حدّ زعمهم -.

وقال أحدهم: دعُوه فإنه سيموت بلا عِقب - أي بلا ذرية - وينتهي أمره، فأنزل الله سبحانه هذه السورة[2].

وهذه جملة من الآثار فى هذا المعنى :

١- جاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أكبر ولد النبي ﷺ القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، فمات القاسم، وهو أول ميت من أهله وولده، ثم مات عبد الله، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع أثره، فهو

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥٦/٢).

(٢) انظر سبب النزول في تفسير الطبري، وابن كثير، وفي زاد المسير في علم التفسير، وفي مسائل نافع بن الأزرق (٢٧٠).

أبتر، فأنزل الله السورة[1].

٢ - وبعد أن تُوفي القاسم وعبد الله، رأى المشركون رسول الله ﷺ مع العاص بن وائل عند باب بني شيبة بالمسجد الحرام، فلما وصل إليهم العاص قالوا له: من الذي كنت تتحدث معه؟ قال: ذلك الأبتر، وكانوا يصفون من لا ولد له بالأبتر، فنزلت السورة[2].

٣- وعن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: ولدتْ خديجة من النبي ﷺ عبد الله، ثم أبطأ عليه الولد من بعده، فبينما رسول الله ﷺ يكلم رجلاً، والعاص بن وائل ينظر إليه، إذ قال له رجل: من هذا؟ قال: هذا الأبتر، يعني النبي ﷺ وكانت قريش إذا وُلِد للرجل ولدٌ، وأبطأ عليه الولد من بعده، قالوا: هذا الأبتر، فأنزل الله ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ أي أن مبغضك هو الأبتر، الذي بُتر من كل خير[3].

٤- وهكذا قال عقبة بن أبي معيط: إنه لا يبقى للنبي ﷺ ولد، وهو أبتر[4].

٥- وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت قريش: أنت خير أهل المدينة وسيّدهم؟ قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا المنْبتِر من قومه، يزعم أنه خير منا؟ ونحن أهل الحجيج، وأهل السَّدانة، قال: أنتم خير منه، فنزلت ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ونزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾[5] [النساء: ٥٢].

ولعل هذه المقالة تركت أثرًا في نفس النبي ﷺ أو مَسّتْهُ بشيء من الغم، فكانت هذه السورة تطييباً لخاطره صلوات الله وسلامه عليه، وتسريةً عنه، وترويحاً عن نفسه، ثم

(١) أخرجه ابن سعد (٧/٣)، وابن عساكر (١٢٦/٣)، وهو في تفسير فتح القدير (٥١٠/٥)، وفي إسناده الكلبي وهو ضعيف.

(٢) تفسير البغوي (٥٣٤/٤).

(٣) أخرجه ابن عساكر (١٢٨/٣).

(٤) تفسير الطبري (٦٩٩/٢٤).

(٥) النسائي في السنن الكبرى (١١٦٤٣)، والبزار في الكشف (٢٢٩٣)، والطبراني في الكبير (١١٦٤٥)، وابن حبان (٦٥٧٢)، والطبري (١٤٢/٧)، وابن أبي حاتم (٩٧٣/٣).

هي تُبيِّن حقيقة البتْر والقطْع، وأنه ليس كما زعم هؤلاء الجهال، فآثار الشخص بما يُقَدّم لأمته، وإنّ ذِكْرى النبي ﷺ باقية على رؤوس الأشهاد، وشرْعَه قائم على رقاب العباد، مستمر دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، وقد أعطاه الله تعالى الخير الكثير في الدنيا والآخرة، بما يُخلِّد أثره، وينْفع أمته، ويتعدى نفعُ هذا الخير من الثقلين إلى العالمين، فهو ﷺ مرسلٌ رحمة للعالمين.

وهكذا فإن السورة تهنئة سريعة وبشرى حسنة للنبي ﷺ تبشره بواسع العطاء، والاصطفاء على العالمين، والثناء عليه في الأرض والسماء، فما من لحظة تمرّ إلا وصلاة تنبعث من ملَك مقرب، أو عبد صالح، تضاعف أجره، وترفع ذكره.

* * *

سُورَةُ الكافرون (١٠٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الكافرون) هي السورة التاسعة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثامنة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الماعون) وقبل (سورة الفيل).

وهي ست آيات، وست وعشرون كلمة، وأربعة وتسعون حرفاً، وهي سورة مكية.

أ - وتسمى (سورة الكافرون) بالرفع، على حكاية لفظ القرآن، وسماها بعضهم: (سورة الكافرين) على الإضافة.

ب - وعنْون لها البخاري بـ (سورة قل يا أيها الكافرون).

ج - وتسمى (سورة الإخلاص) فتشترك مع (قل هو الله أحد) في هذا الاسم.

د - كما تسمى هي، وسورة الإخلاص، وسورة براءة (المقشْقِشَة) لأن السور الثلاث تُقشْقِشُ، أي تُبرّىءُ من الشرك والنفاق.

هـ - ويقال لها أيضا: (سورة العبادات) و (سورة الدين) فهذه ستة أسماء[1].

٢ - موضوع السورة:

و(سورة الكافرون) هي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والكفر، وفيها قطْع أطماع غير المسلمين أن يدخل المسلمون في دينهم، فإن العقائد المختلفة لا تتوحّد، ومن الخير أن تقوم العلاقات الدولية، على الاعتراف بتعدد الشرائع وفتح المجال للمناظرة والحوار، والجدال الحسن، فالإسلام لا يُكْره أحداً على الدخول فيه، ولكنه يطرح مبادئه ومحاسنه في الساحة العالمية، لمن يرغب في الدخول فيه، ويدعو المسلمين على أن يُعرِّفوا شعوب العالم بالإسلام في وسائل الإعلام المختلفة بلغاتهم.

---

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٣٠/٥٧٩).

وقد شُرِع الجهاد منعاً للفتنة، وإزالةً للعقبات التي تمنع الناس من الدخول في الإسلام، كما شُرِع ردّاً للعدوان، وشُرِع الجدال بالتي أحسن بالنسبة لغير الظالمين من أهل الكتاب.

وفي سورة هود نبذة من تاريخ البشر، تبين الصراع بين المؤمنين والكافرين على مدى العصور، وفي نهايتها يقول الله تعالى لنبيه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩].

والسورة التي بين أيدينا تُشْبه قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ١٤٥].

٣ - توحيد الربوبية يقر به غير المسلمين:

كان الكفار يقرون ويعترفون بالله تعالى، ولا يجحدون وجوده سبحانه، وقد ذكر القرآن الكريم أنهم كانوا يعترفون بالله رباً، خالقاً للسموات والأرض، مسخراً للشمس والقمر، رازقاً للكون، منزلاً للماء من السماء، يدبر الأمر، يحيي ويميت، يملك السمع والأبصار، بيده ملكوت كل شيء، يجير ولا يجار عليه.. الخ.

١- كما قال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

٣- وقال جل شأنه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

٤-وقال عز وجل: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٥].

ومع هذا الاعتراف فهم يعبدون غير الله، وهذا تناقض، فإن الخالق الرازق المدبر،

هو الذي يُعبد، وهو الذي يُدعى ويُسأل، وهو أقرب إلى خلقه من حبل الوريد، لا يحتاج إلى شريك ولا وسيط.

٤ - من الشرك بالله: اتخاذ وسائط تقرب إليه سبحانه:

والمشركون مع إقرارهم بالله رباً، فإنهم في الوقت نفسه يتقربون إلى الله تعالى بأصنامهم، ويتوسلون بها إليه سبحانه، وكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله، وأن بينه وبين الجِنَّةِ نسباً، وكانت لهم شعائر وتقاليد حيث يجعلون لآلهتهم نصيباً مزعوماً في زرعهم وأنعامهم وأولادهم، يقدمونه لهم، وغير ذلك، كتحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

ولم يزل يوجد هنا وهناك، من يتوسل ويتقرب إلى الله تعالى بالأضرحة، وينذرُ لها، ويذبح لها، ويدعوها، ويسألها الخير ودفع الضر، ويطلب منها المدد والعون، ويزعم أنه لو لم يفِ بنذره، أو بعادته، فإن صاحب الضريح سيضره!! ونحو ذلك كثير، وهذا هو عين ما كان عليه أهل الجاهلية، ممن قاتلهم النبي ﷺ واستحل دماءهم وأموالهم.

ومع أن المشركين يزعمون أن الملائكة بنات الله، وأن بينه وبين الجنة نسباً، فهم يزعمون أنهم أهدى من اليهود الذين يقولون: عزير ابن الله، وأهدى من النصارى الذين يقولون: المسيح ابن الله، ويعتقدون أنهم على دين إبراهيم، فلما جاء محمد ﷺ وقال: إنه على دين إبراهيم، قالوا نحن على دين إبراهيم، ولا حاجة بنا لأن نترك ما نحن عليه، وأخذوا يحاورون النبي ﷺ ليضعوا حلاً وسطاً، فطلبوا منه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا لإلهه، وهذا ما تتحدث عنه هذه السورة.

٥ - سورة الكافرون في السنة النبوية:

هذه جملة من الأحوال التى تُقرأ فيها سورة الكافرون:

أولاً: إن فيها البراءة من الشرك لمن قرأها:

١- قال الإمام أحمد: عن مهاجر أبي الحسن، عن شيخ أدرك النبي ﷺ قال: خرجتُ مع النبي ﷺ في سفر، فمر رجل يقرأ؟ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ قال: «**أما هذا فقد برىء من**

الشرك» قال: وإذا آخر يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال: النبي ﷺ: «**بها وجبت له الجنة**»[١].

٢- وعن جابر بن عبد الله أن رجلا قام فركع ركعتي الفجر، فقرأ في الركعة الأولى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فقال النبي ﷺ: «**هذا عبد عرف ربه**» وقرأ في الثانية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال النبي ﷺ: «**هذا عبد آمن بربه**»[٢].

ثانياً: يستحب قراءتها عند النوم في ختام أعمال اليوم:

أ - سأل فرْوة بن نوفل الأشجعي، عن أبيه، سأل رسول الله ﷺ ماذا يقول عند منامه؟ فقال: «**اقرأ عند منامك ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ثم نم على خاتمتها، فإنها براءة من الشرك**»[٣].

ب - وعن عبد الرحمن بن نوفل الأشجعي عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بشرك، فمُرني بآية تُبرّئني من الشرك، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال: «**فما أخطأها أبي من يوم ولا ليلة حتى فارق الدنيا**»[٤].

ثالثاً: فيها شفاء من لدغ العقرب مع المعوذتين:

عن علي ﷺ قال: (لَدَغَت النبيَّ ﷺ عقرب، وهو يصلي، فلما فَرَغ قال: «**لعن الله**

---

(١) قال الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا في الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد: وسنده جيد، وجهالة الصحابي لا تضر، راجع الفتح الرباني (١٨/٣٣٩)، تفسير سورة الكافرون وقال محققو المسند: حديث صحيح وهو برقم: (١٦٦٠٥،١٦٦١٧،٢٣١٩٤)، والحديث أخرجه الدارمي (٢/ ٤٥٨)، والنسائي في الكبرى (٨٠٢٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٥/٧)، ورواه أحمد بإسنادين في أحدهما شريك، وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) ابن حبان (٢٤٦٠) قال محققه: إسناده قوي وأخرجه أيضا البيهقي (٢٥٢٤).

(٣) قال في الفتح الرباني: ورواته ثقات، فلا يضره مخالفة من أرسله، والسائل هو: فروة بن نوفل الأشجعي عن أبيه، راجع النص الكامل للحديث في المسند: (٤٥٦/٥) (٢٣٨٠٧)، وابن أبي شيبة (٦٥٧٩)، وأبي داود (٥٠٥٥)، والنسائي (٧٢٩)، والترمذي (٣٤٠٣)، وصححه الحاكم (٥٣٨/٢)، ووافقه الذهبي والبيهقي في الشعب برجال ثقات (٢٢٩٠)، وهو في صحيح سنن أبي داود (٤٢٢٧).

(٤) قال محقق سنن سعيد بن منصور: سنده صحيح (١٢٨)، وأخرجه أيضا ابن أبي شسية (٧٤/٩) (٢٤٩/١٠).

العقرب، لا تَدعُ مُصَلِّياً ولا غيره»، ثم دعا بماء وملح فجعل يمسح عليها ويقرأ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[1].

رابعًا: قراءتها في السفر:

ورد في الأثر استحباب قراءتها مع ما بعدها من السور الخمس في السفر، فإنها تكون سبباً في حسن الهيئة وكثرة الزاد لقارئها[2].

خامسا: القراءة بها مع سورة الإخلاص في الصلاة:

ورد أن النبي ﷺ قرأ بها، وَبِقُلْ هو الله أحد، في ركعتي الطواف، وفي ركعتي الفجر (السنة) وفي صلاة المغرب، وفي الركعتين بعد المغرب، وفي السفر، وفي صلاة الوتر، وكان يكثر من ذلك:

١- فعن عبد الله بن عمررضى الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقرأ في المغرب ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[3].

٢- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان إذا طاف بالبيت ثم صلّى ركعتين، قرأ فيهما بهما)[4].

٣- وعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر)[5] أي في صلاة السنة.

٤- وقال ابن عمررضى الله عنهما : رمقتُ النبي ﷺ خمساً وعشرين مرة ـ وفي لفظ:

---

(١) رواه الطبراني في الصغير بإسناد حسن (٢/٢٣)، راجع مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين الهيثمي (ج٥ ص ١١١) الطبعة الثانية (١٩٦٧م)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٨).

(٢) ورد هذا في حديث أخرجه أبويعلى عن جبير بن مطعم برقم (٧٤١٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٣٣): وفيه من لم أعرفهم.

(٣) صحيح سنن ابن ماجة (٩٥٧)، ومشكاة المصابيح (٨٥٢)، والترمذي (٤٣٢).

(٤) من حديث طويل في صحيح مسلم (١٢١٨)، والبيهقي في السنن بسند صحيح (٥/٩١).

(٥) صحيح مسلم (٧٢٦)، والبيهقي في السنن (٣/٤٢)، وأبوداود (١٢٥٦)، وابن ماجة (١١٤٨)، والنسائي في الكبرى (١٠١٩،١١٦٤٤)، وعن عائشة في صحيح سنن ابن ماجة (٩٤٤)، وابن أبي شيبة (٢/٢٤٢)، وابن حبان (٢٤٦١)، والبيهقي في الشعب (٥٢٥٢).

شهراً ـ كان يقرأ بهما في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب)[١].

سادساً: كونها تعدل ربع القرآن:

فقد جاء في الأثر أن هذه السورة تعدل ربع القرآن[٢].

ووجه ذلك: أن القرآن مشتمل على الأمر والنهي، وكل منهما يتعلق بعمل القلوب أو الجوارح، فهي أقسام أربعة، وسورة الكافرون مشتملة على النهي عن عبادة غير الله تعالى، وهو جانب اعتقادي من أعمال القلوب، فكانت لهذا تعدل ربع القرآن.

وقيل: لأن القرآن يشتمل على التوحيد، والرسالة، وأحوال الدنيا، وأحوال الآخرة.

وهذه أقسام أربعة، والسورة اقتصرت على التوحيد لتضمُّنها البراءة من الشرك، والتدين بدين الحق، وهذا هو التوحيد والدين الخالص[٣].

٦ـ سبب النزول:

قال الواحدي وغيره: نزلت في رهط من قريش، قالوا: يا محمد، اتَّبِعْ ديننا ونتَّبع دينك، تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك، فقد شركت في أمرنا، وأخذت بحظك، فقال: مَعاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ الخ فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام، وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك وآذوه وأصحابه، وأمعنوا في

---

(١) صحيح سنن الترمذي (٣٤١) بإسناد صحيح (الألباني)، والمسند (٥٦٩١،٤٩٠٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وابن أبي شيبة (٢٤٢/٢)، والنسائي (٩٩١)، وابن ماجة (٩٤٣)، وابن حبان (٢٤٥٩)، ومصنف عبدالرزاق (٤٧٩٠)، والمشكاة (٢٦٨/١).

(٢) في حديث عند أحمد وغيره من رواية أنس، قال في الفتح الرباني عند سورة الزلزلة: وفي إسناده سلمة ابن وردان ضعفه أحمد وغيره، وحسنه الترمذي، ولعل تحسين الترمذي له لكثرة طرقه، وجاء أيضاً عن أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص كما في الطبراني الصغير (٦١/١)، والبيهقي في الشعب (٢٥٢٧).

(٣) ينظر: الفتح الرباني لترتيب المسند (ج ١٨) (ص ٣٣٢).

ذلك فقالوا له: دع ما أنت عليه ونحن نُموّلك ونزوِّجك من شئت ونُملِّكك علينا، وإن لم تفعل فلتعبد آلهتنا ونعبد إلهك حتى نشترك[1].

وهؤلاء الرهط هم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمية بن خلف، قالوا للنبي ﷺ فلتعبُد ما نعبُد، ونعبد ما تعبد، فإن كان ما نحن عليه أصح، كنت قد أخذت منه حظًّا، وإن كان ما أنت عليه أصح كنا قد أخذنا منه حظًّا، فأنزل الله السورة[2].

والمعنى يشمل كل كافر على وجه الأرض، ويشمل كل مداهَنة ومتابعة ومناصرة وملاطفة للكفار في مجال العقيدة، أو الرضى بعقيدتهم، والمشاركة في طقوسهم وأعيادهم الدينية.

والكفر كله ملة واحدة، وكل من لم يؤمن بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً فهو كافر، من أهل الكتاب أو من غيرهم.

* * *

(١) تفسير البغوي (٤/٥٣٥)، وتفسير القرطبي (٢٠/٢٢٥)، وتفسير الطبري (٢٤/٧٠٣)، والطبراني في الصغير (١/٢٦٥)، وفي إسناده أبوخلف عبد الله بن عيسى، متكلم فيه.

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٢٤/٧٠٣)، وأسباب النزول للواحدى النيسابورى.

سُورَةُ النصر (١١٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة النصر) هي السورة العاشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، والرابعة عشرة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة براءة، ولم ينزل بعدها سورة كاملة.

وهي ثلاث آيات، وسبع عشرة كلمة، وسبعة وسبعون حرفاً.

وهي أطول من سورة الكوثر في عدد الكلمات، وأقصر من سورة العصر، والسور الثلاث متفقة في عدد الآيات، ولكنها مختلفة في الطول والقصر.

وشهرتها (سورة النصر) ولها ثلاثة أسماء أخرى هي:

أ - (سورة إذا جاء نصر الله والفتح) كما جاء في صحيح البخاري.

ب- (سورة الفتح) كما جاء في جامع سنن الترمذي، فتشترك مع سورة الفتح في هذا.

ج - (سورة التوديع) كما في الإتقان للسيوطي عن ابن مسعود ﷺ، فهذه أربعة أسماء.

وهي سورة مدنية، باعتبار أن كل ما نزل من القرآن بعد الهجرة فهو مدني، وإلا فقد نزلت في (منى) أيام التشريق في حجة الوداع، قبل موت النبي ﷺ بنحو ثلاثة أشهر، كما قال ابن عمر وابن مسعود ﷺ.

وقيل: إنها نزلت مُنْصَرَفَ النبي ﷺ من خيبر، أي سنة سبع[1] وهو قول مردود.

٢- موضوع السورة:

نزلت هذه السورة في أواخر عُمْرِ النبي ﷺ لتهنئته ﷺ بفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، بعد أن سقطت الأصنام وذهبت دولتها، وامتلأت الآفاق بالمؤذّنين يُعْلِنون ليلاً ونهاراً أن الله تعالى واحد أحد، وأن الحجارة التي كانت تُعبد من دون الله قد تصلُح لرصف الطريق أو بناء الدور!

لقد انتشر الإسلام، وتقلّمت أظافر الشرك والضلال، وارتفعت راية الدعوة بدخول

---

(١) رواه الطبري (٣٠/٢١٥)، والطبراني عن ابن عباس، المعجم الكبير (١١/٣٢٨) بسند مرسل فيهما.

الناس في دين الله أفواجاً.

لقد أدَّى محمد ﷺ رسالته بعد جهاد طويل، ومحا الخرافات التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي.

وبعد أن قام النبي ﷺ من الليل حتى تورّمت قدماه، بسبب استغراقه في عبادته ومناجاة ربه، مع أن الله تعالى قد وعده أن يغفر له مغفرة تامة، لا مؤاخذة عليه بعدها، في شيء مما كان يختلج في نفسه، من تقصير أو مخالفة الأوْلى ونحو ذلك.

لم يبق لرسول الله ﷺ بعد ذلك إلاّ أن يعود إلى ربه، لينْعَم بجواره مع المرسلين الأولين والملائكة المقربين، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ليجزيه خيراً عن جهاده الطويل.

٣ - آخر سوة نزلت:

فسورة النصر آخر سوة كاملة نزلت على رسول الله ﷺ نزلت بمنى أوسَط أيام التشريق في حجة الوداع[1] ونزل في حجة الوداع أيضا آية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وعاش النبي ﷺ بعدها سبعاً وثمانين يوماً، وقيل غير ذلك.

وآخر آية نزلت من القرآن: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] وعاش النبي ﷺ بعدها واحداً وعشرين يوماً[2].

عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبَة قال: قال ابن عباس رضي الله عنها: أتدرى آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت جميعاً؟ قلت: نعم ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ قال: صدقت)[3].

٤ - سورة التوديع:

وسورة النصر تسمى سورة (التوديع) لما فيها من الدلالة على توديع الدنيا:

---

(١) سنن البيهقي (٥/١٥٢)، وفي الدلائل (٥/٤٤٧)، وعبدُ بن حُميْد (٨٥٦) منتخب، والبزار في الكشف (١١٤١).

(٢) حكاه ابن عبد السلام، راجع تحقيق زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٩/٢٥٦).

(٣) صحيح مسلم برقم (٣٠٢٤)، وسنن النسائي الكبرى (١١٧١٣)، وفي ط الرسالة (١١٦٤٩)، والمعجم الكبير للطبراني (١٠/٣١٩)، والحديث عند ابن أبي شيبة (١٤/١٠٤).

١- لأنها دلّت على نعْي النبي ﷺ ودُنوّ أجله، وقد عرف الصحابة ذلك، حين خطب النبي ﷺ وقال: «**إنَّ الله خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله**»[١].

٢- ولدلالة السورة على حصول التمام والكمال للدعوة الإسلامية، بحصول النصر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

٣- ولأن الله تعالى قد أمر رسوله ﷺ بالتسبيح والتحميد والاستغفار، شُكْراً لله تعالى على الفتح والنصر، وتنبيهاً له على أنَّ تبليغ الدعوة قد تم وكمُل، وهذا يقتضي انقضاء الأجل.

عن عائشة رضي الله عنها قالت (كان رسول الله ﷺ يُكثر في آخر أمره من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه) قالت: فقلت: يا رسول الله، مالى أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفره وأتوب إليه قال ﷺ: «**إن ربي عز وجل كان قد أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، إنه كان توابا**»، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ الخ السورة[٢].

لقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على إيمان الناس، قلِقاً على مستقبل الدعوة، فلما رأى ﷺ علامة ربه في الأمة، ففُتِحت البلاد المغلقة، والقلوب المقفلة، أدرك ﷺ أن واجبه في الأرض قد كمل، وأنه سيلقى ربه قريباً، فأقبل على ربه يشكره ويُثني عليه، ونزلت عليه سورة النصر، وكان في هذا نعيه ﷺ للناس، ودلالة على قرب أجله بتمام الفتح والنصر، واللحوق بالرفيق الأعلى بعد كمال الرسالة، فأسرّ عليه الصلاة والسلام بذلك إلى فاطمة رضي الله عنها كما سيأتي في الحديث الرابع، وأكثر من الصلاة والتسبيح والتحميد والاستغفار، وأشار ابن عباس رضي الله عنهما إلى هذا في رواياته السابقة، وفيها توديع للدنيا بعد فتح مكة، ودخول الناس في دين الله جماعات جماعات.

٥ - السورة تنعي رسول الله ﷺ:

١ ـ يشهد لهذا ما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر ﷺ كان يُدخل ابن

---

(١) ينظر حديث أبي سعيد الخدري في البخاري (٤٦٦).

(٢) المسند (٣٥/١) برقم (٢٥٥٠٨) (٢٤٠٦٥) وهذا لفظه، وهو بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققوه)، وابن حبان (٦٤١١)، والبيهقي في الشعب (٢٥٢٩) وغيرهم، وصحيح مسلم برقم (٤٨٤).

عباس وهو صغير على كبار الصحابة ويُجلسه معهم، فدعاه ذات يوم، وسأل شيوخ بدر: ما تقولون في قوله تعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾؟ فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصِرْنا وفُتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً.

فقال عمر ما تقول يا ابن عباس؟ فقال: هو أَجَلُ رسول الله ﷺ أَعْلَمَهُ له بظهور علاماته، وهو النصر والفتح، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول[1].

ولما نزلت سورة النصر أخبر عليه الصلاة والسلام أن نفْسه نُعيت إليه، وأنه مقبوض في تلك السنة.

٢- ولما نزلت السورة في منى بكى عمر والعباس رضي الله عنهما فسُئِلا عن السبب، فقالا: فيها نعْي رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «**صدقتما نُعيتْ إليّ نفسي**»[2].

٣- وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن عمر رضي الله عنهم سألهم عن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قالوا: فَتْح المدائن والقصور، قال: ما تقول يا ابن عباس: قال: أَجَلٌ، أو مَثَلٌ ضُرِبَ لمحمد ﷺ نُعِيتْ له نفسه[3].

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة، فقال: «**إنه نُعيت إليّ نفسي**» فبكَتْ، فقال لها: «**لا تبك فإنك أول أهلي لاحق بي**»، فضحكت..[4].

٥- وأخبر ابن عباس عن عكرمة أنه لما نزلت السورة اجتهد النبي ﷺ أشد ما يكون الاجتهاد في أمر الآخرة، وطلبه مرضاة ربه، وقال بعد ذلك: «**جاء الفتح والنصر، وجاء أهل اليمن**» فقال رجل وما أهل اليمن؟ قال: «**قوم رقيقة أفئدتهم، لينة قلوبهم، الإيمان**

---

(١) راجع نص الحديث في صحيح البخاري برقم (٣٦٢٧،٤٤٣٠،٤٩٧٠)، والترمذي (٣٣٦٢)، والمسند (٣١٢٧)، وفي الفتح الرباني (ج ١٨) (ص ٣٤٠)، والطبراني (١٠٦١٦)، والبيهقي (١٦٧/٧)، وسنن النسائي الكبرى (٣٦٥٤،٣٩٠٤،٧٠٤٠،١١٦٤٧).

(٢) ينظر الآثار الواردة في ذلك في الدر المنثور (٧٢٢/١٥) وما بعدها.

(٣) ينظر صحيح البخاري (٤٩٦٩) وأخرجه ابن مَرْدُوَيْه أيضاً.

(٤) رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة وفيه ضعف، انظر: الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ج٩ ص ٢٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٦٧/٧).

والفقه يمان، والحكمة يمانية»[١].

٦- وكان عليه الصلاة والسلام قبل موته يكثر من قوله: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك**» فسألت أم سلمة: رسول الله ﷺ عن سبب ذلك، فأخبرها أنه أُمر بذلك في سور النصر[٢].

٧- قالت عائشة رضي الله عنها: ما سمعت رسول الله ﷺ منذ أنزلت هذه السورة إلا يقول مثلها «**سبحانك اللهم ربنا ولك الحمد، اللهم اغفر لي**»[٣].

وهذا يفيد أن السورة نزلت بعد فتح مكة، لما في هذه الأدلة من قُرب أجل النبي ﷺ بعد تحقيق فتح البلاد، والنصر على العباد، والأمر بكثرة التسبيح والاستغفار، والتهيؤ للقاء الله تعالى، وأن حياته الدنيوية قد أوشكت على الانتهاء، وبالتالي انتهاء أعمال الطاعات والقربات، فلم يبق إلا سؤال الله تعالى التجاوز عما يعرض للإنسان من استغلاله لبعض الحظوظ الدنيوية.

وطلاّب الدنيا هم الذين ينشدون الاستمتاع بثمرات النصر الذي أحرزوه، ولكن النبي ﷺ وهو في قمة السلطة، وقد اندحرت جميع القوى أمام جيشه وانحسر المدّ الروماني وراء حدود الجزيرة، واستسلمت له المستوطنات اليهودية، ومع هذا فإنه ﷺ قد مات ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام أَتى به لأهل بيته!!

* * *

(١) رواه الطبراني في الكبير (١١٩٠٣،١١٩٠٤) والأوسط، وأحد أسانيد رجاله رجال الصحيح، المجمع (٢٣/٩)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٤٨)، وفي السنن برقم (٧٣٢)، وفي المسند برقم (٧٧٠٩) بتصحيح أحمد شاكر، وفي الدارمي (٣٧/١)، والطبري (٣٣٢/٣٠)، وابن حبان (٧٢٩٨).

(٢) رواه الطبراني في الصغير ورجاله رجال الصحيح، المجمع (٢٣/٩)، وتفسير الطبري (٢١٦/٣٠)، وانظر الفتح الرباني (ج١٨) (ص ٣٤١).

(٣) هذا لفظ ابن جرير (٧١٠/٢٤)، وبنحوه في البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤)، وابن حبان (٦٤١١)، والبيهقى فى الشعب (٢٥٢٩) وغيرهم.

سُورَةُ المسد (١١١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة المسد) هي السورة الحادية عشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، والسادسة في ترتيب النزول، نزلت في السنة الرابعة من البعثة بعد (سورة الفاتحة) وقبل (سورة التكوير).

وهي خمس آيات، وعشرون كلمة، وسبعة وسبعون حرفاً، وهي سورة مكية باتفاق.

وتسمى (سورة المسد) و (سورة تبت) وسماها بعضهم (سورة أبي لهب) وعنْون لها أبوحيان بـ (سورة اللهب)، فهذه أربعة أسماء.

٢- تحدثت السورة عن قصة أبي لهب، وقد كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ يترك عمله ويتبع الرسول ﷺ ليصُد الناس عنه، وقد توعّده الله تعالى في هذه السورة تعالى بالنار الموقدة، واختص زوجته بلون خاص من العذاب، بتطويق عُنُقها بحبل من ليف لتُجذب به إلى النار، فقد كانت امرأة شريرة متسلّطة، شديدة العداوة للنبي ﷺ.

وزوجة أبي لهب (أروى بن حرب) أخت أبي سفيان، وكنيتها (أم جميل).

وكان أبولهب أجْرأ الناس على رسول الله ﷺ وأسرعهم إلى تكذيبه، وقد انفرد من بين أعمام النبي ﷺ بالخصومة العنيفة له ﷺ ولزمها إلى أن مات.

وامتدت خصومته إلى بنات النبي ﷺ فأمر أولاده فطلّقوا زوجاتهم من بنات محمد ﷺ.

وقد نزلت هذه السورة في الأيام الأولى للإسلام، وكان في وُسع أبي لهب أن يُكذّبها بالدخول في الإسلام، وأنّى له أن يفعل، وقد سبق علم الله تعالى بأنه لن يؤمن، وظل الرجل على عداوته للإسلام ورسول الإسلام ، حتى مات، وصدق فيه قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾.

فلم تغن عنه أمواله ، ولم يغن عنه نسبه ، ولم يغن عنه جاهه ،وقد أعمى الله زوجته

عندما أرادت أن تؤذى النبى ﷺ فصرف بصَرها عنه، فلم تره وهو أمامها، وقد حفظ الله نبيه منها ومن زوجها، وتوعدهما الله تعالى بالعذاب الأليم يوم لقاء رب العالمين، نصرة لنبيه وعبرة لأمثالهما إلى يوم قيام الساعة، من كل مَنْ وقف فى وجه الدعوة إلى الله ومنع وصولها إلى الناس، ويؤذي صاحب الدعوة بشكل أو بآخر.

* * *

سُورَةُ الإِخْلَاصِ (١١٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الإخلاص) هي السورة الثانية عشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثانية والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الناس) وقبل (سورة النجم).

وهي خمس آيات عند أهل مكة والشام، وأربع آيات عند بقية علماء العدد وسورة المسد خمس عشرة كلمة، وسبعة وأربعون حرفاً.

وشهرتها (سورة الإخلاص) ولها أسماء أخرى كثيرة منها:

أ - (سورة قل هو الله أحد). ب - (وسورة التوحيد).

ج - (وسورة الأساس) لاشتمالها على أساس الإسلام وهو التوحيد.

د - (وسورة الصمد). فهذه خمسة أسماء.

وقد ذكر الجمل والفخر الرازي لها عشرون اسماً منها: التجريد، والتفريد، والنجاة، والولاية، والمعوّذة، والمانعة، والمنفّرة، لأنها تنفّر الشيطان، والمذكرة، والنور، والأمان.

وهي سورة مكية عند الجمهور، وقال بعضهم: إنها مدنية، وقيل: إنها نزلت مرتين، مرة بمكة، ومرة بالمدينة، جمعاً بين روايات أسباب النزول، والصحيح أنها سورة مكية جمعت أصول التوحيد.

٢ - موضوع السورة:

و(سورة الإخلاص): سطر واحد، تَعْدِلُ ثلث القرآن، لأنها لَخّصتْ أصول الاعتقاد، وتحدثت عن صفات الله تعالى الجامعة لصفات الجلال والكمال، وهو سبحانه المقصود على الدوام، الغني عما سواه، وهذه الصفات نزّهتْه سبحانه عن كل نقص، وعن المماثلة، ونزهته عن المجانسة، وعن البنوّة والتثليث.

ذلكم أن رب العالمين واحد، لا ثاني له، ولا ثالث، ولا والد له ولا ولد، فالقول بغير هذا عبث وهُراء:

١- قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النحل: ٥١].

٢ - وقال سبحانه في الرد على القائلين بالتثليث: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

٣ - وقال جل شأنه في الرد عليهم أيضاً: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ [النساء: ١٧١].

٤ - وقال عز وجل: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [المؤمنون: ٩١].

٥- وقال جل جلاله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وهذه أدلة عقلية تجعل القول بتعدد الآلهة أو الشرك خرافة، وصفر على الشمال.

والقائلون بالتثليث يرَوْن أن الآلهة ثلاثة، وهذه الآلهة الثلاثة، إله واحد، مكون من الأب والابن والروح القدس، وهي معادلة عسيرة الفهم، إذ كيف يكون الواحد ثلاثة، والثلاثة واحداً، وإذا كان الثلاثة واحداً، وهذا الواحد قد صُلِب - على حدّ زعمهم - فإن العالم يكون قد فقَد إلهه حيناً من الدهر، وإن كان المصلوب هو الابن الوحيد، فإنه ليس بإله يقيناً، إذ كيف يصلب الإله؟ ولمن شاء أن يعتقد ماشاء، فالإسلام لا يحجر على إيمان أحد:

أحاديث في السورة:

١- عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يوشك الناس أن يتساءلوا بينهم، حتى يقول قائلهم: هذا الله خلَق الخلْق، فمن خلَق الله؟ فإذا قالوا ذلك، فقولوا: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، ثم ليتفُل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان**»[1].

٢- وفي صحيح مسلم وغيرة عن أبي هريرة وعن أنس رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا الله خلَق الخلْق، فمن خلق الله؟ فمن وجد**

(١) سنن أبي داود (٤٧٢٢) وحسّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٩٥٢) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٢٧).

من ذلك شيئاً فليقل: آمنتُ بالله»[١].

٣- وعن أبي هريرة أيضاً أن النبي ﷺ قال: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك؟ فلْيستعذ بالله ولْينْتهِ**»[٢].

٣- سورة الإخلاص في السنة النبوية:

أ- حُبُّ قِرَاءَتِهَا يُسَبِّبُ مَحَبَّةَ اللهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ:

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سَرِية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**سلوه: لأي شيء يصنع ذلك؟**» فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ «**أخبروه أن الله يحبه**»[٣].

ب- حب قراءتها يسبب دخول الجنة:

١- عن أنس بن مالك ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أحب هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «**حبك إياها أدخلك الجنة**»[٤].

٢- وفي رواية البخاري والترمذي عن أنس ﷺ، أن رجلاً من الأنصار، كان يؤم الناس في مسجد قُباء، وكان يقرأ بعد الفاتحة سورة الإخلاص في كل صلاة، ويقرأ بعدها ما تيسر من القرآن، فاعترض الناس عليه، فأخبروا النبي ﷺ فسأله عن سبب ذلك،قال: إني أحبها،قال ﷺ:

---

(١) صحيح مسلم (١٣٤)، وانظر (١٣٦)، والبخاري (٧٢٩٦).

(٢) صحيح مسلم (١٣٤)، وصحيح البخاري (٣٢٧٦).

(٣) أخرجه الشيخان والنسائي، انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول حديث رقم (٣٤٦٩) (ج٥)، وهو في البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣)، والنسائي (٢/١٧٠) (٩٩٢)، والبيهقي (٦١،٦٠٩)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٤٨٣).

(٤) أخرجه الإمام أحمد والبخاري تعليقاً (٧٧٤)، والترمذي (٢٩٠١)، انظر الفتح الرباني لترتيب المسند (ج١٨) (ص ٣٤٦)، وهو في المسند (٣/١٤١) (١٢٤٣٢)، وهو حديث صحيح بإسناد حسن (محققوه)، وكذا (١٢٥١٢،١٢٤٣٣)، وصحيح سنن الترمذي (٢٣٢٣)، والبيهقي في سننه (٢/٦٠)، وعبد بن حميد (١٣٠٦)، وابن حبان (٧٩٢)، وابن خزيمه (٥٣٧).

«**حُبُّك إياها أدخلك الجنة**»(١).

٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى ختمها: فقال ﷺ: «وجبت» قيل يا رسول الله ما وجبت، قال: «**الجنة**»(٢).

ولا عجب في ذلك فمحبها موحد، مُخْلِصٌ لله في عقيدته، وهو مُحِبٌّ لتوحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

ج – فضل قراءتها مع المعوذتين:

١- عن عقبة بن عامر ﷺ قال: لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني فأخذ بيدي فقال: «يا **عقبة بن عامر: ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم**»؟ قال: قلت: بلى جعلني الله فداك، قال: فأقرأني ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم قال: «يا **عقبة لا تنساهن ولا تبتْ ليلة حتى تقرأهن**» قال: فما نسيتهن منذ قال لا تنساهن، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن)(٣).

٢ – وعن عبد الله بن أنيس الأسلمي ﷺ أن رسول الله ﷺ وضع يده على صدره، ثم قال: (قل) فلم أدر ما أقول، ثم قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم قال لي ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ حتى فرغتُ منها، ثم قال لي ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ حتى فرغتُ منها، فقال رسول الله ﷺ «**هكذا نتعوذ، فما تعوّذ المتعوّذون بمثلهن قط**»(٤).

---

(١) راجع النص في جامع الأصول في أحاديث الرسول (ج٥) حديث رقم (٣٤٦٨)، البخاري (٧٧٤)، والترمذي (٢٩٠١)، وقال: حسن غريب صحيح .

(٢) الموطأ (٢٠٨/١) والفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني (ج١٨) (ص ٣٤٧) وهو بإسناد صحيح ورجاله ثقات (٨٠١١)، والترمذي (٢٨٩٧) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وصحيح سنن الترمذي (٢٣٢٠،٢٢٣٩٠)، والحاكم وغيرهم سنده صحيح وهو في سنن النسائي (٩٩٣)، وفي الكبرى (١١٦٥١)، وقد صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٧٨).

(٣) انظر المسند بأطول من هذا (١٧٣٣٤،١٧٤٥٢) قال محققوه: حديث حسن.

(٤) النسائي في السنن الكبرى (٧٨٤٥)، والبزار (٢٣٠٠)، كشف الأستار قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد (١٤٩/٧).

٣- وعن عليّ ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ ذات ليلة يصلي، فوضع يده على الأرض،فلدغتْه عقرب، فتناولها رسول الله ﷺ بنعله فقتلها، فلما انصرف قال: «**لعن الله العقرب، ما تدع مصلّياً ولا غيره، أو نبيا وغيره**» ثم دعا بماء وملح فجعله في إناء، ثم جعل يَصُبّه على إصبعه حيث لدغتْه ويمسحها، ويعوذها بالمعوذتين.

وفي لفظ: فجعل يمسح عليها ويقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[1].

وورد فضل قراءة سورة الإخلاص مع (سورة الكافرون) في صلاة المغرب، وسنة الفجر، والوتر، وركعتي الطواف، وغير ذلك كما سبق بيانه في تفسير سورة الكافرون.

د - مشروعية الرقية بسورة الإخلاص والمعوذتين عند المنام:

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: (كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه،ثم نفث فيهما، وقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)[2].

هـ - فضل قراءتها مع المعوذتين صباحاً ومساءً:

عن معاذ بن عبد الله بن خُبَيْب عن أبيه قال: أصابَنا عطَش وظُلْمة فانتظرنا رسول الله ﷺ ليصلِّي بنا فنخرج فأخذ بيدي فقال : «قل: فسكَتُّ ، قال: قل ، قلت: ما أقول ؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين حين تمسي وتصبح ثلاثا، يكفيك من كل شيء»[3].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٥٧٥،٢٥٧٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٠١٧)، وأبوداود (٥٠٥٦)، والترمذي (٣٤٠٢)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٦٢٤)، وابن ماجة (٣٨٧٥)، وابن أبي شيبة (١٠/٢٥٢).

(٣) من زوائد الإمام عبد الله بن الإمام أحمد على مسند أبيه (٢٢٦٦٤) بإسناد حسن، ورواه أبوداود (٥٠٨٢)، وصحيح سنن أبي داود (٤٢٤١)، والترمذي (٣٥٧٥)، والنسائي (٥٤٤٣)، وقال الترمذي صحيح غريب من هذا الوجه، انظر الفتح الرباني (ج١٨ ٣٤٩)، وأخرجه ابن سعد (٣٥١/٤)، وعبد بن حميد (٤٩٣) منتخب.

أي أن قراءتها تكفي العبد في صباحه ومسائه من كل سوء وشر، فيظل محفوظا بحفظ الله تعالى له، وفي مأمن من المحن والبلايا والآفات والشرور.

و - كونها تعدل ثلث القرآن:

١- في صحيح البخاري وغيره: عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه سمع رجلا يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالّها، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده إنها تعدل ثلث القرآن**»(١).

والرجل القارئ هو قتادة بن النعمان أخي أبي سعيد الخدري من أمه.

٢- وفي صحيح مسلم وغيره: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**احشدوا** «**اجتمعوا**» فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبر جاءه من السماء، فذاك الذي أدخله، ثم خرج النبي ﷺ فقال: «**إني قلت لكم: سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن**»(٢).

٣- وعن أبي سعيد وأبي أيوب وأبي الدرداء رضي الله عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم**» وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «**الله الواحد الصمد، ثلث القرآن**»(٣).

٤- وعن أُبيّ بن كعب وابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ

---

(١) البخاري (١٠٥/٦) باب فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وهو برقم (٥٠١٣، ٧٣٧٤)، وأبوداود (١٤٦١)، والنسائي (١٧/٢)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٤٨٢)، وانظر صحيح الجامع (٤٢٨٠) عن ابن عباس.

(٢) صحيح مسلم (٥٥٧/١) (٨١٢)، والترمذي (٢٩٠٠)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٩).

(٣) المسند ٨/٣ (١١٠٥٣) ورقم (٢٧٥٢٢، ٢٧٥٢٤) عن أبي الدرداء، وهو في مسلم (٨١١)، والنسائي في الكبرى (١٠٥٣٧)، والبخاري (٥٠١٥)، وصحيح الترغيب (١٤٨٠)، والترمذي (٢٨٩٦) وقال: حديث حسن، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٣١٩)، وأخرجه عن ابن مسعود البزار (١٨٥٦٧)، والطبراني (٧٠٧)، وفي الأوسط (٨٤٨٠)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد وهو ثقة إمام، مجمع الزوائد (١٤٨/٧) وألفاظه متقاربة.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن»[١].

٥- وعن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أن النبي ﷺ سئل عن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال: «ثلُث القرآن أو يَعْدله»[٢].

٦- وعن أبي أيوب الأنصاري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فلما رأى أنه قد شق عليهم قال: من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ليلة فقد قرأ ليلتئذ ثلث القرآن»[٣].

والمعنى أنها تعدل ثلث القرآن في الثواب والأجر.

٧- وعن ابن عمررضى الله عنهما قال: صلى بنا النبي ﷺ ذات يوم الفجر في سفر، فقرأ في الركعة الأولى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقرأ في الركعة الثانية ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فلما سلّم قال: «**قرأت بكم ثلث القرآن وربعه**»[٤].

وعدلت السورة ثلث القرآن، لأنها تناولتْ جانب العقيدة وهو يمثل ثلث ما جاء في القرآن، والثلث الثاني: أحكام، والثالث: أخبار، وهي بهذا تعدل في الثواب والأجر ثلث القرآن بالنسبة لقارئها.

---

(١) المسند (٢١٢٧٥)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٥٢١)، وأبوعبيد في فضائله (ص١٤٣)، قال محققو المسند: صحيح لغيره وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح وصححه الألباني عن ابن عباس في صحيح الجامع الصغير (٤٢٨٠).

(٢) المسند (٢٧٢٧٤)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٥٣١)، والطبراني في الأوسط (٨٥٦٢)، والبيهقي في الشعب (٢٥٤٥)، قال محققو المسند: حديث صحيح ورجاله ثقات رجال الصحيح ومالك فى الموطأ (٢٠٩/١).

(٣) صحيح سنن الترمذي (٢٣١٩)، والمسند (٢٣٥٥٤) وهو حديث صحيح لغيره (محققوه)، والنسائي (٩٩٥)، والبيهقي فى الشعب (٢٥٤٤)، والترمذى (٢٨٩٦)، وعبد بن حميد (٢٢٢).

(٤) أخرجه ابن الضُّريس (٢٥٣) واللفظ له دون قوله «في سفر»، والطبراني في الكبير برقم (١٨٦) بنحوه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢٨١)، قلت: ولعل هذا كان قبل العرضة الأخيرة التي استقر فيها ترتيب السور.

ز - اسم الله الأعظم:

عن ابن بريدة عن أبيه قال: دخلْتُ مع رسول الله ﷺ المسجد ويدي في يده، فإذا رجل يُصَلِّي يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد له كفوا أحد، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب**»[١].

ح - قراءتها تُسبِّب مغفرة الذنوب:

عن مِحْجَن بن الأَدْرَع قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، فإذا هو برجل قد صلّى صلاته وهو يتشهد ويقول: اللهم إني أسألك بالله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم، فقال ﷺ: «**قد غُفر له، قد غُفر له، قد غُفر له**»[٢].

٤ - سبب النزول:

أ- عن أبي بن كعب ﷺ أن المشركين قالوا: يا محمد انسُب لنا ربَّك؟ فنزلت هذه السورة.

زاد في رواية: لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله لا يموت ولا يورث، ولم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثله شي»[٣].

(١) سنن أبي داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، والمسند (٢٢٩٥٢) من حديث طويل بإسنا صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه)، وابن حبان (٨٩١)، والطحاوي في مشكل الآثار (١٧٣)، والنسائي في الكبرى (١١٦٥٢)، وأخرجه عبد الرزاق (٤١٧٨)، وابن أبي شيبة (٢٧١/١٠)، وابن حبان (٨٩١)، والحاكم (٥٠٤/١)، وهو في صحيح سنن ابن ماجة (٣١١١)، وفي السنن (٢٨٥٧).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٨٦٩)، وهو في السنن (٩٨٥)، وابن خزيمة (٧٢٤)، والحاكم (٢٦٧/١)، والنسائي (١٣٠٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٩٧)، وهو حديث صحيح أخرجه أحمد (١٨٩٧٤) بإسناد صحيح ورجاله ثقات رجال الصحيح كما قال محققوه.

(٣) المسند (١٣٣/٥) (٢١٢١٩) بإسناد ضعيف لضعف ابن ميسرة وأبى جعفر الرازى (محققوه)، والترمذي (٣٣٦٤،٣٣٦٥)، والطبري (٢٢١/٣٠)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٥٤٠/٢)، وابن خزيمة في التوحيد (٤٥)، وابن أبي عاصم (٦٦٣)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٨٠)، والبيهقي (٤١٩/١)، وجاء هذا السبب بلفظ (انسب لنا ربك) فحسب عن جابر وابن مسعود، قلت: وبين التحسين والتضعيف شعرة فى الجرح والتعديل.

ب - وقال عامر بن الطفيل لرسول الله ﷺ: إلام تدعونا يا محمد؟ قال: إلى الله عز وجل. قال: صِفْهُ لي، أَمِنْ ذهبٍ هو، أو من فضة، أو من حديد، فنزلت هذه السورة.

ج - وسأل قوم من أحبار اليهود، قالوا: من أي جنس هو (أي الله عز وجل) وممن ورث الدنيا ولِمَنْ يُوَرِّثُها؟[١].

د- وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: يا محمد، صِفْ لنا ربك وانسُبْه، فإنه وصَف نفسه في التوراة ونَسَبها، فارتعد رسول الله ﷺ حتى خر مغشيا عليه، ونزل عليه جبريل بهذه السورة[٢].

٥ ـ وجه التسمية:

سميت بسورة الإخلاص: لأن فيها إخلاص التوحيد لله تعالى، وفيها إخلاص الصفات وتوحيدها، ومقتضى ذلك: إفراد الله تعالى بالعبادة، والخلوص من الشرك، وأنه هو المقصود وحده في قضاء الحوائج، وأنه سبحانه لا مثيل له ولا نظير، ولا والد له ولا ولد.

* * *

---

(١) راجع هذه الأسباب الثلاثة لابن الجوزي في تفسيره للسورة، في زاد المسير في علم التفسير، وفي الدر المنثور (١٥/٧٤٢) والطبراني (٣٧٢).

(٢) تفسير ابن عطية (٥/٥٣٦)، وابن عدي (٤/١٥٦٦)، وابن أبي حاتم كما في مجموع الفتاوى (١٧/٢٢٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦٠٦) بإسناد ضعيف.

سُورَةُ الْفَلَقِ (١١٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الفلق) هي السورة الثالثة عشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الفيل) وقبل (سورة الناس).

وهي خمس آيات باتفاق، وثلاث وعشرون كلمة، وأربعة وسبعون حرفاً.

وتسمى (سورة الفلق) و(سورة قل أعوذ برب الفلق) ويقال لها مع سورة الناس: (المقشْقِشَتيْن) لأنهما تُبرئان صاحبهما من النفاق، وهذا وصف مشترك بينهما وبين سورتي براءة، والكافرون، كما يقال للفلَق مع الناس: (المعوذتان) ويقال لهما مع الإخلاص المعوذات.

وهي سورة مكية على الأصح، وقيل إنها مدنية لأن سبب نزولها سِحْر اليهود.

٢- والغرض من السورة تعليم العباد أن يلجؤوا إلى ربهم، ويستعيذوا بجلاله وسلطانه من شر الحاقدين والحاسدين، ففي ذلك حِصْن وحماية لهم من المخلوقات الشريرة، ومن الأوقات التي يكثُر فيها حدوث الشر، وسائر الأحوال الضارة، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يتعوذ بهذه السورة وما بعدها، ويأمر أصحابه بالتعوذ بهما، فدل هذا على أن التعوذ بهما سنة سنَّها رسول الله ﷺ.

٣ - المعوذتان في السنة النبوية:

جاءت عدة أحاديث صحت رواياتها عن عقبة بن عامر ﷺ، في شأن المعوذتين، قال عنها الحافظ ابن كثير: فهذه طرق عن عقبة كالمتواترة عنه، تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث[1].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (ج٤ ص ٥٧٢).

١ - في فضل المعوذتين والاستعاذة بهما:

أ- عن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له: (ألم تر آيات أُنزلت عليّ هذه الليلة، لم أَر مثلَهن قط ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[(١)].

ب - وعنه ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أَقرأُ من سورة يوسف، وسورة هود، قال: «**يا عقبة، اقرأ بأعوذ رب الفلق، فإنك لن تقرأ بسورة أحبَّ إلى الله وأبلَغَ عنده منها، فإن استطعتَ ألاّ تفوتَك فافعل**»[(٢)].

ج - وعن ابن عابس الجهني ﷺ أن النبي ﷺ قال له: «**يا بن عابس، ألا أخبرك بأفضل ما تعوّذ به المتعوّذون؟**» قال: بلى يا رسول الله، قال ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ **هما المعوذتان**»[(٣)].

د - وفي رواية النسائي: «**ما سأل سائل بمثلهما، ولا استعاذ مستعيذ بمثلهما**»[(٤)].

هـ- وعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لقد أنزل عليّ آيات لم ينزل عليَّ مثلُهنّ؛ المعوذتين**»[(٥)].

و- وعن عبد الله بن خُبَيب قال: كنت مع رسول الله ﷺ في طريق مكة فأصبتُ خَلْوة من رسول الله ﷺ فدنوتُ منه، فقال (قل)، قلت: ما أقول، قال (قل)، قلت: ما أقول؟

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٤)، والترمذي (٢٩٠٢)، وأبوداود، والنسائي (٩٥٣)، راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول حديث (٦٢٧٠).

(٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢/٥٤٠) ووافقه الذهبي، وانظر في تصحيحه موسوعة فضائل سور وآيات القرآن (٢/٥٠٩)، والحديث في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٨٥)، والبيهقي في الشعب (٢٥٦٦)، وفي المسند (١٧٤١٨) بإسناد صحيح (محققوه)، وأخرجه الدارمي (٣٤٣٩)، والطبراني في الكبير (١٧/٨٦٢٦).

(٣) سنن النسائي (٥٤٤٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٥٠٢٠)، وهو عند البيهقي (٢٥٧٤)، وابن سعد (٢/٢١٢)، وانظر الطبراني فى الكبير برقم (٩٤٣) عن عقبة بن عامر.

(٤) جامع الأصول (ج٨ ص ٤٩٢) وهو في النسائي (٥٤٥٣)، وهو في صحيح سنن النسائي (٥٠٢٦)، وابن أبي شيبة (١٠/٣٥٨).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٦٥٨) بإسناد حسن، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٤٩): رجاله ثقات.

قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: «**ما تعوذ الناس بأفضل منهما**»(١).

٢ - قراءة المعوذتين في الصلاة:

أ- قال النبي ﷺ لعقبة بن عامر: «**ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟**» قلت: بلى، فأقرأه ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فأقيمت الصلاة فتقدم رسول الله فقرأ بهما(٢).

ب - وقال رسول الله ﷺ: «**يا عقبة بن عامر ألا أعلمك سورا ما أنزل في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلهن لا تأتي ليلة إلا قرأت بهن فيها ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾**»(٣).

ج - وفي حديث عبد الله بن الشّخير ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا أنت صلّيت فاقرأ بهما**»(٤) أي بالمعوذتين.

٣ - قراءة المعوذتين دبر كل صلاة:

عن عقبة بن عامر ﷺ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة(٥).

---

(١) أخرجه النسائي في الاستعاذة بإسناد حسن، انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول رقم: (٦٢٧١)، وهو عن جابر بن عبد الله أيضا في النسائي (٥٤٥٦)، قال الترمذي (٢٩٠٢)، حديث حسن صحيح، وفي صحيح سنن النسائي (٥٠٢٩) بإسناد حسن صحيح، وانظر مسند أحمد (١٧٣٠٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه).

(٢) انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول (ج٨ ص ٤٠١)، وهو في صحيح سنن أبي داود (١٢٩٨)، وابن أبي شيبة (٣٦٧/١)، والمسند (١٧٢٩٦) بإسناد صحيح ورجاله ثقات (محققوه)، وأخرجه أبو يعلى (١٧٣٦)، والبيهقى فى الشعب (٢٥٦٣) وغيرهم.

(٣) قال الهيثمي حديث عقبة في الصحيح وغيره باختصار عن هذا، رواه أحمد ورجاله ثقات، انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ج٧ ص ١٤٨-١٤٩) وهو في المسند (١٧٣٣٤،١٧٤٥٢) قال محققوه: حديث حسن.

(٤) الحديث بإسناد صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين عند أحمد (٢٠٢٨٤،٢٠٧٤٤،٢٠٧٤٥) (محققوه).

(٥) صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٠٧٩)، والحديث عند أحمد (١٧٧٩٢)، وهو حديث صحيح وإسناده حسن (محققوه)، وفي سنن أبي داود (١٥٢٣)، وصحيح سنن أبي داود (١٣٤٨).

٤ - قراءة المعوذتين عند النوم وعند الاستيقاظ:

في الصحيحين عن عاشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان (إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)[١].

وقال عليه الصلاة والسلام لعقبة بن عامر: «**يا عقيب: اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت**»[٢].

٥ - الرقية بالمعوذتين في المرض ومن العين:

أ- عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء بركتها)[٣].

ب - وكان ﷺ يأمر عائشة بأن تمسح بيده ﷺ على جسده لَمَّا ضَعُفَت يده على التنقل بنفسها، وكانت رضى الله عنها تلتمس بركة يد النبي ﷺ بِرُقْيَةِ نفسه لنفسه، وهي التي تقرأ المعوذتين لعدم قوته على ذلك[٤].

ج- وعن أبي سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ (كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الناس، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما)[٥].

٦ - قراءة المعوذات في الصباح والمساء:

قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن خُبَيب ﷺ: «قل، قال: ما أقول؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ

---

(١) رواه البخاري (٥٠١٧،٥٧٤٨،٦٣١٩) في فضائل القرآن.

(٢) من حديث عقبة بن عامر في مسند الإمام أحمد، الفتح الرباني (ح ١٨ ص ٢٤٩) قال: ورجاله ثقات وهو في المسند (١٧٢٩٦)، وصحيح سنن أبي داود (١٢٩٨)، وابن أبي شيبة (٣٦٧/١).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٤٣٩،٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢) ومالك.

(٤) تفسير ابن تيمية وابن القيم للمعوذتين والحديث في البخاري (٥٧٣٥)، ومسلم (٢١٩٢).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠٥٨) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح والنسائي (٥٥٠٩) وهو في صحيح سنن النسائي (٥٠٦٩)، وعند البيهقي (٢٥٦٢).

ﭐﻟﻠﻪُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين، حين تمسي وحين تصبح «ثلاثا» تكفيك من كل شيء»[١].

وقد ذكرتُ في سورة الإخلاص طائفة أخرى من الأحاديث تشتمل على هذه المعاني ونحوها.

٧ - تَحْرِيمُ جَعْلِ الْمُعَوِّذَاتِ تَمِيمَةً:

رأى عبد الله بن مسعود ﷺ في عنق امرأة من أهله سيْراً فيه تمائم فقطَعه، وقال: إن آل عبد الله أغنياء عن الشرك، ثم قال التولة والتمائم والرقَي من الشرك، فقالت امرأة: إن إحدانا لتشتكي رأسها فتسترقي وتظن أن هذا ينفعها فقال ابن مسعود: إن الشيطان يخنس في رأسها، فإذا استرقت حُبس، فإذا لم تسترق نخس، فلو أن إحداكن تدعو بماء فتنضحه في رأسها ووجهها ثم تقول: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم تقرأ الإخلاص والفلق والناس، نفعها ذلك إن شاء الله[٢].

والتّوْلة هي السحر الذي يُحبّب المرأة إلى زوجها.

والتمائم ما يُكْتَب من آيات أو أذكار وأدعية فيُجعل حجاباً ويعلّق.

والرُّقَى غير المشروعة يُقصَد بها ما كان بغير أسماء الله تعالى وصفاته وماجاء في صحيح السنة وكلامه من ألفاظ شركية ونحوها فكل ذلك حرام.

ج - مَا نُسِبَ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ فِي شَأْنِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ:

نسب إلى عبد الله بن مسعود ﷺ أنه كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، وأنه كان يحكّهما من المصحف، ويقول: إنما أُمر رسول الله ﷺ أن يتعوذ بهما، والسبب فى هذا أن ابن مسعود كان يرى النبي ﷺ يُعَوّذ بهما الحسن والحسين ولم يسمعه يقرؤهما في شيء من صلاته، فظن أنهما للتعوذ فحسب، ولم يكن يقرأ بهما، ولم يتابع ابن مسعود على ذلك أحد من الصحابة، وثبت أن النبي ﷺ قرأ بهما في الصلاة كما تقدم في حديث

---

(١) أخرجه النسائي، جامع الأصول حديث رقم (٦٢٧١)، وهو في النسائي برقم (٥٤٤٣)، والترمذي (٣٥٧٥)، وصحيح سنن أبي داود (٤٢٤١).

(٢) ينظر هذا المعنى في صحيح سنن أبي داود (٣٢٨٨)، والمسند (٣٦١٥) بنحوه، والطبراني (٨٨٦٣)، وابن ماجة (٣٥٣٠)، وهو في سنن أبي داود (٣٨٨٣).

عقبة، أنهما أُثْبِتَا في المصحف[١].

والجواب على ذلك:

١- كما قال القاضي أبوبكر الباقّلاني: أن ابن مسعود ﷺ لم يُنْكِر قُرْآنيتهما، وإنما أنكر إثباتهما في المصحف، فإنه كان يرى ألا يُكْتَبَ في المصحف شيء إلا بإذن النبي ﷺ وكأنه لم يبلغه الإذن في ذلك، فليس فيه جَحْد منه لقرآنيتهما وإنّما هو مَبْلَغُ علمه في شأنهما.

٢- وقال القسطلاني: ويحتمل أيضاً أنه لم يسمعهما من النبي ﷺ ولم يتواتر هذا عنده، ثم لعله قد رجع عن ذلك إلى قول الجماعة. فقد أجمع الصحابة عليهما وأثبتوهما في المصاحف التي بعثوها إلى سائر الآفاق.

٣- وكان أُبَيّ بن كعب ﷺ يشهد بنزول جبريل بهما على النبي ﷺ[٢].

٤- وعن زِرّ بنِ حُبَيش قال: قلت لأُبَيّ بن كعب: إن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، قال: أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فقلتها، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فقلتها، فنحن نقول ما قال النبي ﷺ[٣]. **أقول:**

١- وبشهادة أُبَيّ بنِ كعب ﷺ.

٢- وثبوت قراءة النبي ﷺ بهما في الصلاة، كما صح ذلك من حديث عقبة بن عامر.

٣- واحتمال أن ذلك لم يبلغ ابن مسعود عن طريق التواتر.

٤- ولأنه لم يتابع ابن مسعود على قوله أحد من الصحابة على ذلك.

٥- ولِمَا ورد أنه قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة.

وبذلك تزول الشبهة فيما نُسب إلى ابن مسعود ﷺ في ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢١١٨٨)، والبزار (١٥٨٦)، والطبراني (٩١٤٨،٩١٥٢) قال محققو المسند: إسناده صحيح، وانظر الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (ج١٨ ص ٣٥١) باب (رأي ابن مسعود في المعوذتين).

(٢) اللفتح الرباني (٣٥٢/١٨) عن الإمام أحمد رحمه الله، وأخرجه أيضا الطبراني، قال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح، انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ج٧ ص ١٤٩) باب ماجاء في المعوذتين.

(٣) المسند (٢١١٨٦)، والبخاري (٤٩٧٦،٤٩٧٧)، وابن حبان (٧٩٧،٤٤٢٩) وشرح مشكل الآثار للطحاوي (١١٨).

سُورَةُ النَّاسِ (١١٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الناس) هي السورة الرابعة عشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، فهي آخر سورة فيه، وهي الحادية والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الفلق) وقبل (سورة الإخلاص).

وهي ست آيات، عند المدني الأول والأخير، والعراقي (الكوفي والبصري) وسبع آيات عند المكى والشامي.

وعشرون كلمة، وتسعة وسبعون حرفاً.

وتسمى (سورة الناس) وسماها ابن عطية (سورة المعوذة الثانية) وتسمى مع سورة الفلق (المعوذتان) والمقشْقِشَتان، وتسمى سور: الإخلاص والفلق والناس: المعوذات. وهي سورة مكية على الصحيح.

٢ - موضوع السورة:

والسورة تأمر بالاعتصام بالله تعالى، والتحصن به من شياطين الإنس والجن، وما يُلْقُونَه في الصدور من وساوس، ونحن لا ندري كيف يتصرف الجن، ولكننا نشعر بما يطلبوه منا، وبرغبتنا في تلبيته، فنلجأ إلى الله تعالى أن يحفظنا منه.

والإنس يتلذذ بإتيان الشهوة، والجن يتلذذ بإغوائه للإنس، وتزْيين المعصية له.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وهذا هو معنى استمتاع الجن بالإنس، واستمتاع الإنس بالجن كما قال تعالى على لسان الإنس: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

والشياطين ليست سُلْطة تنفيذية، فهي لا تملك إلا الإغواء والوسوسة، والإنسان

يستجيب لها، والمؤمن المتحصن بالأذكار والأدعية في صباحه ومسائه لا يضره شيء بإذن الله تعالى، إنه يعيش داخل سور يحميه من هواجس الشيطان ووساوسه.

ومَن توكل على الله تعالى، وصدَق في إيمانه، وكان من عباد الله المخلصين، لم يكن للشيطان عليه سبيل، فإن غلبتْه نفسُه الأمّارة بالسوء، وأحسَّ أن الشيطان استغلّ غفْلة قلبه، فاقترب منه وحام حوْلَه، فعليه أن يلجأ إلى الله تعالى، فيتعوّذ به، ويحتمي بحماه، فباب الله مفتوح، وقد أَمرنا سبحانه أن نطرُقه ليل نهار، فهذا هو الملجأ الوحيد من إبليس وذريته، ومن شياطين الإنس والجن، الذين يُزيّنون للناس المعاصي والذنوب عن طريق الشهوات والشبهات.

وأول مادة في تزيين المعاصي هي كشف العورات، فالشيطان: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧].

والمادة الثانية هي الحسد والكبر ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وعن طريق هاتين المادتين أخرج إبليس آدم من الجنة، دار النعيم والاستقرار إلى دار الهم والغم والأوجاع والآلام، وأحاط إبليس بذرية آدم من كل جانب، وقعدَ له كل مرصد فقال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وقد فتح الله تعالى لنا ملجأ يحفظنا به من الشياطين: فلا ينالون منا، ووضع في أيدينا مفتاح الدخول في حماه بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

وهذه السورة تُبرز **ثلاث قضايا**، فهو سبحانه:

١- رب الناس ٢- وملكُ الناس ٣- وإلهُ الناس.

وكل مؤمن يعتقد بهذه القضايا الثلاث، ويعمل بمقتضاها.

والمشركون قديماً وحديثاً آمنوا بأنه سبحانه رب الناس ومليكُهم فصدقوا بذلك واعتقدوه، وهذه هي القضية الأولى (توحيد الربوبية).

أما القضية الثانية فهي (توحيد الإلهية) وهذه القضية تصديق وعمل يستلزم اتّباع منهج الله تعالى الذي وضعه لخلقه، لتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة، بالتوجه إليه وحده في العبادة، ولكن هذه القضية أنكرها المشركون وخالفوها، وعمل بمقتضاها المؤمنون الصادقون.

فاللهم جنّبنا وساوس الشيطان وهواجسه، ولا تجعل له علينا سبيل، واحفظنا بحفظك، واكلأْنا برعايتك يا أرحم الراحمين، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل



الفهرس


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


maderalwatan
100261
SR 0